

# المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة / العدد السادس والعشرون / ربيع / ٢٠١٩

ما هو الشعر	عمر شبلي
سيمياء العنوان في "تعب... وقصص أخرى للدكتور عبد المجيد زراقط	د. درية فرحات
الطبيعة في ميزان الشعر العربي الحديث. نماذج	د. حسن جعفر نور الدين
الشخصية بين الواقع والتخييل في الرباط المقدس. توفيق الحكيم أنموذجاً	د. خليل سعد
الأشكال الفنية للمسرح العربي المصري بين العام ١٩١٤-١٩٦٤	د. عمر عثمان
الاستعارة وصورة الوحشة والموت في شعر الصعاليك	د. رامز يزيك
مشروع " أليسار " وتنظيم وضع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت	د. عماد هاشم
العودة إلى الجذور. دراسة وتحليل في رواية " قلق " لجميل جبر	د. هيبية عبد الصمد
الدفاع عن الأطروحة	د. كميل مخايل
النحوي المغبون ، أبو جعفر الرؤاسي	د. أكرم محمد نبها
القيم الاجتماعية والأيدولوجية في " شارة جديدة للنصر " للدكتور علي حجازي ابتسام محمد الأطرش	أسرة مجلة المنافذ الثقافية
مع الشاعر شوقي بزيع	د. طارق عبود
البعد النفسي في رواية " امرأة في المسين " للكاتبة هيفاء بيطار	حسن خليل غريب
الظاهرة الدينية بين نار الحرب وجنة السلام	د. عبدالله توفيق شرقية
ثورة المناهج في عالم الفلسفة والعلوم	

- موقف "المنافذ الثقافية"  
من قضايا الانتماء الفكري والأدبي والروحي  
للأمة العربية والاستجابة الإيجابية للتحدي

## المنافذ الثقافية

مجلة ثقافية فصلية محكمة تُعنى بأحوال الثقافة والفكر والأدب

رئيس التحرير  
عمر محمد شبلي

### الهيئة الثقافية والإدارية

د. خديجة شهاب	د. هالة أبو حمدان	د. درية فرحات
د. نصر قرحاني	د. هبة الحشيمي	د. عيدا زين الدين
د. عماد هاشم	د. ندى الرمح	د. منى دسوقي
د. رضا العليبي (تونس)	د. ماغي عبيد	د. زهور شتوح (الجزائر)
د. علي أيوب	د. سمية طليس	أ. حكمت حسن
أ. مروان درويش	أ. إيمان صالح	أ. سوزان زعيتير
أ. زينب راضي	أ. فاطمة البزال	أ. رولا الحاج حسن

### اللجنة المحكّمة

د. ديزيره سقال	د. حسن جعفر نور الدين	د. محمد فرحات
د. فؤاد خليل	د. لارا خالد مخول	د. علي حجازي
د. جمال زعيتير	د. مها خير بك ناصر	د. محمد عواد

المدير المسؤول

علي حمود

إخراج

عبد القادر نجيب كرزي

٧٠/٦٢١٤١٠

تصميم المجلة

عبير سمير نجم

العدد السادس والعشرون - ربيع ٢٠١٩

موقع المجلة الإلكتروني - [www.al-manafeth.com](http://www.al-manafeth.com)  
مركز المجلة: ريفيرا سنتر - كورنيش المزرعة - دار العودة - الطابق الخامس  
الإشتراكات السنوية:

لبنان - للأفراد ١٠٠ ألف ليرة لبنانية - للمؤسسات ١٥٠ ألف ليرة لبنانية

**باقي الدول العربية:**

للأفراد ١٠٠ دولار - للمؤسسات ٢٠٠ دولار

للمراسلات: [chebli\\_omar@hotmail.com](mailto:chebli_omar@hotmail.com)

## المحتويات

٥	..... ما هو الشعر؟ عمر شبلي
٩	..... سيمياء العنوان في «تعب...!» وقصص أخرى» للأديب الدكتور عبد المجيد زراقت د. درية كمال فرحات
١٦	..... الطبيعة في ميزان الشعر العربي الحديث الطبيعة في الشعر العربي نماذج من نتاج الشعراء د. حسن جعفر نور الدين
٢٣	..... القيم الاجتماعية والأيدولوجية في: «شارة جديدة للنصر» للدكتور علي حجازي ابتسام محمد الأطرش
٤٠	..... مقابلة الشاعر شوقي بزيع أسرة تحرير المجلة
٥٤	..... الشخصية بين الواقع والتخييل في الرباط المقدس - أنموذجاً توفيق الحكيم دراسة سيميائية د. خليل سعد
٦٧	..... الأشكال الفنية للمسرح العربي المصري بين العام ١٩١٤ والعام ١٩٦٤ د. عمر عثمان
١٢٦	..... الاستعارة وصورة الوخشة والموت في شعر الصعاليك د. رامز يزبك
١٤٤	..... سمات الصيغة التعبيرية الوجدانية لأدب... ما بعد الحداثة د. بهيه طهران الطويل
١٥٣	..... مشروع «اليسار» لترتيب وتنظيم وضع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت د. عماد هاشم
١٧٣	..... الظاهرة الدينية بين نار الحرب وجنة السلام أجوبة صادمة على أسئلة ممنوعة حسن خليل غريب
١٩٩	..... العودة إلى الجذور دراسة وتحليل في رواية «قلق» لجميل جبر د. هيبة عبد الصمد
٢٠٥	..... الدِّفاع عن الأطروحة: أساليب واستراتيجيات ومهارات د. كميل مخايل
٢٢٧	..... التَّحويِّ المَعْتَبَر: أبو جعفر الرَّؤاسيِّ (١٩٣هـ) د. أكرم محمّد نبها
٢٥١	..... البعد النَّفسيِّ في رواية «امراة في الخمسين» للكاتبه هيفاء بيطار د. طارق عبود
٢٨١	..... ثورة المناهج في عالم الفلسفة والعلوم د. عبد الله توفيق شرقية

٢٩٨	..... دواوين شعرية: عناوين ومضامين قراءة في ضوء علم اللغة النصّي
٣١٢	..... د. كابي الفغالي توّعّل الكتاب الإلكتروني: أمرٌ واقعٌ ومُستقبلٌ واعد
٣٢٢	..... أ. إيمان كرامة الغياب والحضور والأنا في قصيدة لجمالك الوحشي قراءة سيميائية وجودية
٣٣٤	..... أ. وسام ذيب ابراهيم ماذا تقول أجسادنا؟ (دراسةٌ وتحليل لكتاب حبيب الخوري)
٣٤٠	..... علي محمد علوان المجلس التشريعيّ الفلسطيني (١٩٩٦ - ٢٠٠٦)
٣٦٠	..... أماني سببتي احتياجات المراهق في كنف الأسرة (لتطوير تحصيله العلمي)
٣٧٦	..... أندرية قيصر جدعون تاريخ التعليم في لبنان ونشأة المدرسة اللبنانية عبر التاريخ «تعيين معلّم حيث لا يوجد معلّم»
٣٨٢	..... إعداد سمير عاكوم طالب عقلانية العلم ومنطقته في فلسفة إمري لاكاتوش
٤٠٠	..... محمد اقبال حرب قصة قصيرة شهدت الجولة الأخيرة

#### IMPROVING LEARNING OUTCOMES IN HIGHER EDUCATION THROUGH BLENDED LEARNING

٤٠٤	..... Maha Sourani, PhD
٤٢٢	..... Dr. Janet Ayoub Al Maalouf Teachers' Common Challenges and Recommended Solutions in Bekaa Schools and Universities: A Case Study
٤٣٥	..... d. rita chabab Désir et angoisse entre lien et non-lien Résumé
٤٤٨	..... Abdallah El-Sayed WESTERN THEORETICAL APPROCHES TO THE POLITICAL ORDER OF MUSLIM STATES A CRITIQUE
٤٧١	..... Dr. Jeannette abou nasser L'INFLUENCE DU TYPE D'ATTACHEMENT MATERNEL SUR LA RÉGULATION ÉMOTIONNELLE FACE AU STRESS DE L'EXAMEN OFFICIEL CHEZ DES ADOLESCENTS LIBANAIS "GÉS DE 17/ 19 ANS"

## ما هو الشعر؟

عمر شبلي

يقول بورخس نقلاً عن غنوصيِّ قابلي من إسبانيا: «إنَّ الله كتب الأناجيلَ لكلِّ واحد من الناس، وأنه يوجد كتبٌ مقدسة بعدد ما يوجد هناك من قراء للكتاب المقدس»، ومعنى هذا الكلام أن الكتاب الواحد يصبح كتباً في وجدان الآخرين وقلوبهم وعقولهم. هذا إذا كان هذا الكتاب جديراً بالقراءة. وظاهرة التأويل التي لامست الوجدان المسلم مع تطور وعيه في القرآن هي دليل واضح على ما نقول. طبعاً بشرط أن تكون القراءة المتعددة دائماً بمنأى عن التأويل السياسي الذي لا يلامس روح النص القرآني. وعلينا أن ندرك أن القارئ نفسه يتعدد، ولا يثبت على قراءة واحدة، وليس ملزماً بالثبات، وهذا دليل غنى النص، ودليل على تطور القارئ المتلقي. فيرى حاضراً في النص الذي كان لا يراه من قبل. إذن النص بالكلمات نفسها يتطور بتطور قارئه، وهذا يلغي سكونية الجمال، وبهذا المعنى يغدو النصُّ نهرَ هيراقليطس، إنه يتجدد، والتجدد يعطي نُدرَةً ودهشة للجمال الجديد

إذا كانت اللغة خلقاً جمالياً فإن مهمة الشعر هي العثور على هذا الجمال، صياغةً وتجربة، أي خلق اللغة خلقاً جديداً. وإذا أردتُ أن أقربَ الفكرة فيني أقول: الأفكار والمشاعر تكون مخبوءةً في داخل الشاعر، وينتابه شعوراً أنّها موجودة فيه قبل أن تنوجدَ في الكلمات، إنه يَلِدُها، وفي هذا التحول تكون عملية الخلق الشعري بكاملها، صحيح أننا كنّا مع هيراقليطس في النهر، ولكن المرحلة التي تلي نكون في نهر آخر، وإن كان له نفس المجرى، ونفس الضفاف، ولكنه نهر آخر في المكان والزمان.

طبعاً الكلمات موجودة، فكيف نسمي العملية الشعرية خلقاً جديداً؟. إن الجواب قدمته لنا النماذج الإبداعية التي تجعل القارئ المتلقي يرى في النص الإبداعي ما قد لا يراه قارئٌ آخر في النص نفسه، ولعل محاولات الفهم المتعدد للكتاب المقدس هي الأدلة القوية على ما نذهب إليه، ولنقرأ معاً ما يقول الأديب الأرجنتيني الكبير «بورخس» في كتابه «سبع ليالٍ» ص ١٠٣،

مايشاء. ولكن المعادن التي يصنع منها هذا المخلوق الجميل، وأعني اللغة، تُستخرج من وعي الإنسان كونه، وشعوره المتحول إلى كلمة.

إن الكتاب يحوي نفس الكلمات لكلّ القراء، ولكن القراء يجعلون الكتاب كتباً بقراءاتهم المتعددة، وهذا يوجد في الشعر أساساً، ولكن ما علاقة المقدس بالشعر؟، هنا نعود إلى الزبور ومزامير داود التي هي في غنائها ذات شجى مؤثر، وذات حضور شعري لا يُضاهى، وعلينا أن نعي أن المزامير أساساً هي الغناء.

وأنا أعتبر أن الشعر هو الغناء، ولولا الغناء لما كان الشعر، فالغناء هو اللحن الداخلي في الإنسان. يقول: «ابن عبد ربه» في العقد الفريد: «اللحن فضل من المنطق لم يقدر اللسان على استخراجِه، فاستخرجته الطبيعة بالألحان»، فاللحن لغة تحسُّها الروح وتفهمها خارج بناءات العقل المدرك. إن الغناء قديمٌ قديمٌ الإنسان نفسه، وهو مرحلة تعقب الدندنة، والتي تتحول إلى ترجيع، ثم إلى كلمات. وموسيقى الكلمات تبدأ من الداخل، وتتحول بإيقاعاتها إلى غناء له إيقاع ونغم، وهكذا كان الغناء والد الشعر، والغناء لا يكون غناء إلا بموسيقاه التي يلبسها الكلام ليكون شعراً، يقول ابن رشيق في العمدة: «الموسيقى حلة الشعر.. فإن لم يلبسها طويت».

الوافد والمتولد من القراءات المتعددة، ويصبح القارئ والنص صديقين في مسيرة طويلة. إن الدهشة في النص لا تتولد إلا من جدة إيحائه، وهذا يعني ندرة النص لأنه لا يتكرر، والندرة هي التي تُكسبُ الأشياء ثمنها الغالي، والندرة هي صانعة الدهشة. وعلينا أن ندرك أيضاً أن التأويل أخرج الكلمة من دلالتها المحدودة، وأعطاه معنى متطوراً بتطور المتلقي، ففي المقدس نفسه انتقلت الكلمات نفسها من معنى إلى معنى أبعد، لا ينفصل عن سابقه، ولكنه يلغي محدوديته، ويهب له أضواء اختراقية أبعد من مادية المعنى الأول للكلمة، فالجهاد، والزكاة والصلاة والصيام وغيرها تطورت بتطور النص وتطور كاتبه. وإذا أخذنا مثلاً على ذلك فإننا سنأخذ قول الشاعر الجاهلي النابغة الذبياني، لنرى كيف استخدم كلمة الصيام، وكيف تطور معناها في النص المقدس، يقول النابغة الذبياني:

**خَيْلٌ صِيَامٌ وَخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ**

**تحت القَتَامِ وَخَيْلٌ تَعْلُكُ اللَّجْمَا**

هنا «خيلٌ صائِمَةٌ» هنا قصد الشاعر أنها: «خيلٌ واقفة». وهذا يعني أن اللغة هي الإنسان عينه، إنها وعيه ومشاعره وأفكاره، حتى أنها هي معتقده في النهاية، لأنها لا يستطيع إلا أن يكونها وتكونه. إذن هي ليست خالقة، إنها مخلوقة، وخالقها الإنسان الذي يمحو منها ما يشاء ويثبت منها

أحسُّ الكلمات التي تشتهي جسدي لتوقظَ فيه الشعر.

ولعلَّ تعامل الشعر مع دندنات النفس الداخلية، وخارج الأبنية العقلية نقل الغموض إلى مرحلة البناء الشعري، وبهذا يكون الغموض في الشعر الخالد أسبق من هيمنة العقل على الإنسان. ومهمة الغموض في الشعر الإثارة والدهشة وحضور الأسئلة، وليست مهمة الغموض التعمية وتضليل المتلقي بادعاء الغموض المبدع. وقد ربط الشاعر الفرنسي بودلير بين الغموض المصحوب بالضوء وبين سعادة النفس التي تزداد حضوراً بابتعاد إبداعيتها عن الضوء الواضح حين قال: «لَكمُ كنت تسعدني أيها الليل لولا نجومك التي يتكلم ضياؤها لغة مفهومة».

العرب أخذوا شعرهم غناءً من حذاء الإبل، وقبل الكتابة، ولذلك ظلَّ العرب يستعملون في كلامهم: أنشدَ فلانُ الشعر، ولم يقولوا كتبَ فلان الشعر، وقال حسان بن ثابت الأنصاري:

**تغنُّ بالشعرِ إمَّا كنتَ قائلاً**

**إنَّ الغناءَ لهذا الشعر مضمَّارٌ**  
وظلَّت لفظة إنشاد الشعر متحركة بالعقل العربي حتى في أزمنة كتاباته المتقدمة، يقول المتنبي:

**وما الدهرُ إلا من زوارةِ قصائدي**

**إذا قلتُ شعراً أصبح الدهرُ مُنشدًا**

وقد تكون الدندنة المُموسَّقة غير واضحة المعنى، على الرغم من أنَّ بواعثها شجى النفس وأحزانها وأفراحها، وهي باستمرار تسبق اللغة الواضحة، ويبدو، لحركة بواعثها الداخلية، أنها غير مُلزمة بالكشف عن مناطق معروفة سابقاً أو موصوفة. وبهذا المعنى يقول «هولباك»: «لا تُنصتوا لغير نبضات قلوبكم، بوصلة الروح إلى أرض الشعر... وعلى الشعر أن يكشف الواقع بطرائقه الخاصة، محض الحدسية دون أن يمرَّ بمصفاة البناءات العقلية للعالم». والشعر في لحظة حدسيته يسبق اللغة الواضحة بقليل. وسبب السبق هنا هو أن الشعور يسبق الوعي.

ولارتباط الغناء، أي الشعر، بالداخل يجعلنا ندعي أن الشعر هو أول مراحل النمو التعبيري الذي لجأ إليه الإنسان ليبيث حاجات نفسه ولواعجها ونجاواها. ولعله أول ما انبثق عن الدندنات التي عبَّرت عن حزن النفس الإنسائية، وليس مطلوباً منَّا أن نصدِّق أنَّ آدم رثى ابنه هابيل عندما قتله أخوه، ولكن نسبة الشعر إلى المخلوق الأول ذات دلالة على أسبقية الشعر في وجود اللغة المحكيَّة. ولهذا ارتبط وجود الشعر الذي هو فنُّ بوجود الإنسان، يقول أوكتايفو باز: «لقد وُجد الفن حالما أصبح الإنسان إنساناً، وسيستمرُّ إلى أن يختفي الإنسان». وكم كنت أردد وأنا في غربتي الداكنة: كنتُ



والمعنى: «إستمع إلى الناي، وهو يحكي  
حكايته، ويشكو من ألم الفراق/ ومن يوم  
أن قطعوني من غابتي إلى الآن الرجال  
والنساء يئنون من صراخ».

لقد تغلّب الشاعر على الفقيه في وجدان  
جلال الدين الرومي. وكان في تحولاته هذه  
شاعراً إنسانياً عالمياً يقرؤه الناس حيث  
وُجدوا وبلغاتهم الأصلية..

ولا بد من الإشارة أخيراً إلى أن الحياة،  
بخصب معطياتها المتطورة باستمرار،  
والتثاقف مع الأمم الأخرى، والتحويلات  
الاقتصادية والفكرية التي دخلت على الواقع  
العربي، والعقل العربي، لم تُبقِ موسيقى  
الشعر في أطرها الخليلية الموروثة، لقد  
حصل تطور عال في كل شيء، وهذا  
التطور وصل إلى الموسيقى والغناء  
والشعر. ولهذا مجال آخر ربما نتناوله  
لاحقاً، دون أن ننسى التوحد الدائم  
والمشترك بين الغناء والموسيقى والشعر.

ولم يستطع حتى الدين نفسه أن يلغي  
غنائية الشعر التي فطرت عليها النفسُ  
العربية منذ تكوينها الأول، ونحن جميعاً ما  
زلنا نحفظ، ونردد الشعر المغنّى الذي  
استقبل به الأنصار الرسول العربي عندما  
هاجر إليهم. لقد استقبلوه، وهم يغنون:

طلع البدرُ علينا  
من ثنِيّات الوداعِ  
وجبَ الشكرُ علينا  
مما دعا لله داعِ  
أيها المبعوثُ فينا  
جئتَ بالأمر المطاعِ  
بالغناء كانوا يعبرون عن إيمانهم، وظل  
الشعر يزاحم التراث الإسلامي في  
حضوره، ومن الدلالات العالية في هذا  
الاتجاه أنّ شمس تبريزي أخرج مولانا  
جلال الدين الرومي من الفقيه إلى الشاعر.  
لقد كان أنين الناي يسرقه إلى وجوده الأول  
في الغابة التي قُطع منها، يقول جلال الدين  
الرومي معبراً عن حزن الناي المقتطع من  
غابته، وحنينه للعودة إليها:

بشنو از نَيِ جون حكايت ميكند  
وز جدائي ها شكاييت ميكند  
کز نَيْسْتان تامرا ببريده اند  
از نفيرم مرد وزن نالیده اند

## سيمياء العنوان في «تعب...!» وقصص أخرى» للأديب الدكتور عبد المجيد زراقت

د. درية كمال فرحات

وهكذا تطالعنا المجموعة القصصية للدكتور عبد المجيد زراقت التي تحمل عنوان «تعب...!»<sup>(٣)</sup> المكوّن من كلمة واحدة مع ثلاث نقاط وعلامة تعجب، ليرفقاها بعنوان فرعي «قصص قصيرة أخرى». فيطالعك هذا العنوان بفكرة نقدية عميقة تحليلية. وإذا تبعنا ما يقوله جيران جينت بأن العنوان مجموعة من العلامات اللسانية يمكن أن توضع على رأس النص لتحديد، وتدّل على محتواه، ويساعد ذلك على إغراء الجمهور المقصود بقراءته، فإننا أمام عنوان يحتاج إلى دراسة علاماته السيمائية من نواحٍ عدّة. فما هي البنى التي يتكوّن منها العنوان؟ ما دلّالته؟ ما هي وظائفه؟ وما هي علاقته بالنصوص الموازية الأخرى؟

اهتمت الدراسات السيمائية بما يحيط بالنص/الهوامش أي بمجموع «النصوص التي تحيط بمتن الكتاب من جميع جوانبه: حواش وهوامش وعناوين رئيسة وأخرى فرعية وفهارس ومقدمات وخاتمة وغيرها من بيانات النشر المعروفة التي تشكّل في الوقت ذاته نظاماً إشارياً ومعرفياً لا يقل أهمية عن المتن الذي يحيط به، بل إنّه يؤدي دوراً مهماً في نوعية القراءة وتوجيهها<sup>(١)</sup>، والعنوان من أهم النصوص الموازية للنص إذ أنه أوّل ما يصفح بصر وسمع المتلقي، وهو المفتاح الذي ستفتح به مغاليق النص، العنوان مفتاح أساسي يتسلّح به المحلّل للولوج إلى أغوار النص العميقة قصد استنطاقها وتأويلها<sup>(٢)</sup>.

(١) عبد الرزاق بلال، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، إفريقيا الشرق ٢٠٠٠، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٠ ص ٢٣.

(٢) محمد مفتاح، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠، ص ٧٢.

(٣) عبد المجيد زراقت، تعب...! وقصص قصيرة أخرى، بيروت، دار روافد للطباعة والنشر، ط ١، ٢٠١٨.

## البنية الصَّرْفِيَّة والنَّحْوِيَّة للعنوان:

يتكوَّن العنوان من كلمة واحدة «تعِب» وهي كلمة مصدر مفردة نكرة ومن خصائص الكلمة المفردة أنَّها تحمل المعاني بصفة مطلقة لأنَّها غير محدَّدة بسياق أو نسق تركيبى معين، ومن هنا فإنَّ كلمة العنوان المفردة اختصرت المعاني المتعدِّدة التي احتضنها النَّص. أمَّا كونه نكرة فذلك راجع لخاصية التَّنْكِير، لأنَّ النَّكْرَةَ كما عرَّفها النَّحاة هي «اسم دلَّ على غير معين»، وبذلك تكون النَّكْرَةَ في عنوان «تعِب» قد أدَّت دلالة الشُّيُوع وعدم التَّعْيِين، أي أنَّها تدلُّ على الشُّمُول والعموم، فلا يتحدَّد عبر العنوان نوعية هذا التَّعْب، وإلى من يشير. وقد جاءت الكلمة اسمًا، وبما أنَّه نكرة فقد يكون خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره هذا تعِب، وبذلك تكون هذه الكلمة هي الكلمة الموضوع الأساس الذي تدور عليه المجموعة القصصية، أي أنَّها تخلق النَّص في هذه المجموعة، فالكاتب يجمع بين طيات هذه المجموع لقطات من الحياة تمثِّل التَّعْب الإنساني.

## البنية الدَّلَالِيَّة للعنوان

إنَّ أوَّل دلالة سيمائية هي دلالة إيحائية تشير إلى الإرهاق والكسل، وتناقض في

قدرة الكائن الحيِّ على أداء عمل ما، وقد ينشأ هذا التَّنَاقُص من أسباب عديدة، فكلمة تعِب تعني لغويًّا مشقَّة وعناء وجُهد، عكس راحة، فمن هنا يتبادر إلى الذهن عن أي تعِب يقصد الكاتب، ومن خلال القصة التي حملت هذا العنوان نرى أنَّ هذا التَّعْب يشير إلى الفلاح الذي يقضي نهاره منذ الفجر في العمل بأرضه: «سرعان ما يستقبلنا الحقل المحروث جيِّدًا، ويبدأ العمل، هو طويل متعب ككل يوم، ولكنَّ النَّظْرَ إلى الأثلام المشتتة بالشتات الخضر الصغيرة يريح ويبعث البسمة إلى الوجه.. وحمد الله إلى اللسان»<sup>(١)</sup> ولا يقتصر التَّعْب على (الأب موسى) بل يمتد إلى الصديقين: «قلنا نلتقي، كالعادة، أمام بيت مضيفنا، كنا متعبين، لكن لا بدَّ من السَّهر، نهاراتنا كلَّها تعِب، فلتكن في ليالينا هنيهات سهر وسمر»<sup>(٢)</sup> (ص ١٩-٢٠)، إنَّ السَّعادة تكمن في الرَّاحة بعد التَّعْب، ولم تكن هذه الرَّاحة سوى أن يغفو الجميع وإبريق الشَّاي على «البريموس» الذي يهدر، فينتهي الأمر بالحريق. لكنَّ المفارقة هي نجاة الجميع، فموعد الحبيين في لحظة السَّهر عبر الشَّرْفَةَ كان سبب النجاة. إنَّها لحظة من لحظات الحياة يلتقطها الأديب فيختصر عبرها تجربة إنسانية، ويكون التَّعْب هو النتيجة التي تثمر

(١) م. ن، ص ١٨-١٩.

(٢) م. ن، ص ١٩-٢٠.

كالعسل، وتُكسب الحياة حلاوة جديرة بأن نعيشها. ويكون الحبّ أو تقصّد الحبيبين اللقاء مساء عبر الشرفات هو الحبل النّجاة للجميع، فمهما ساد التّعب تبقى فسحة الحياة موجودة.

### وظائف العنوان

حدّد جيرار جينيت وظائف متعدّدة للعنوان منها الوظيفة التّعينيّة/التسمويّة، والوظيفة الإغرائيّة، والوظيفة الوصفية والوظيفة الدلاليّة الضمنيّة، وقد تتحقّق هذه الوظائف كلّها في عنوان واحد، بحيث يصف المحتوى، ويوحى بأشياء أخرى، ويغري المتلقين بالقراءة، وأكثر من ذلك فهو اسم محدّد للكتاب يميّزه عن غيره. وما نراه في عنوان تعب أنّه حقّق هذه الوظائف، وكونه عنواناً لمجموعة قصصيّة فإنّه قام على المراوغة والإيحاء بطبيعة التّعب وحقيقته، وربّما هذا ما يغري القارئ للقراءة. وجاء استخدام علامات التّرقيم: التّعجب والنّقاط الثلاث، وفي دراسة دلالة هاتين العلامتين نرى أنّ النّقاط الثلاث تدلّ على أنّ هناك كلاماً غير مذكور أمّا من باب الإيجاز والاختصار، وهذه النّقاط تترك لخيال القارئ ولتفكيره الإيحاءات الكثيرة. أمّا علامة التّعجب فهي توضع للتعبير عن الانفعالات النّفسيّة: التّعجب، والحزن، والدعاء، والدّهشة، والاستغاثّة، والتّرجي، والتّمني، والتأسّف، والمدح والذّم، والإغراء

والتّحذير. إنّ علامة التّعجب تتحقّق العلاقة بين العنوان كنصّ مصغر وبين النصّ الكبير، وهي علاقة انعكاسيّة، يختزل العمل بناء دلالة، وفيه اختزال للأفكار التي تنوي نصوص المجموعة إبلاغها.

### علاقة العنوان بالنّصوص الموازية الأخرى

وسنتناول علاقة العنوان بغلاف الكتاب، فقد جاء العنوان فوق صورة الغلاف، وفي أعلى يمين الصفحة اسم المؤلف تأكيداً للحضور وللذات المنجزة وتحقيقها للوظائف المنوط بها ذكر الاسم وهي تحقيق الملكية للكاتب فهذا المنجز المعنون تحت الاسم هو بصمة فكريّة للمؤلف. أمّا الغلاف فقد انقسم إلى جزأين، في قسمه الأعلى يغطيه البياض الذي يعكس فسحة الأمل، أو ما ننشده في غدنا، وفي قسمه الأسفل أرض يغطّيها الاخضرار، لتظهر نبتته تعلق بأوراقها إلى الأعلى، وجذورها تمتدّ في الدّاخل، مع انتشار دوائر أشبه بنقاط العرق المتصبّب على الجبين.

ومن خلال هذه العلامات في صفحة الغلاف، نرى أنّ هذه المجموعة القصصيّة تنطلق من مفتاحين أساسيين يصلانا إلى الغاية التي يريدها الكاتب، فهذه الأرض النّقية تحتاج إلى سواعد قوية تحرث وتزرع ولن يتحقّق هذا إلاّ بالعرق المتصبّب من الجبين، والتّعب النّاتج عنه. فتصميم

الغلاف لم يعد حلية شكلية بقدر ما هو يدخل في تضاريس النص بل أحياناً يكون هو المؤشر الدال على الأبعاد الإيحائية للنص<sup>(١)</sup>.

سيظلّ العنوان يمدنا بما نحتاجه قبل قراءة النص من رسم تصوّرات وتخيل ما هو قادم في غياهبه، وسيرشدنا في مسالك النص ويحدد معالم الطريق، سيثبت أقدامنا لكنه سيترك أبصارنا وأسماعنا وعقولنا تجول في فضاءات لا نهائية من عالم ممتع وجميل، وسيبقى بعد القراءة يذكرنا بقطعة أدبية مؤثرة.

#### العنوان ودلالات القصص الأخرى في المجموعة:

وإذا انطلقنا من هذه الدراسة السيمائية للعنوان، للدخول في المجموعة القصصية والغوص في عنواينها ومضامينها، يطالعنا الإهداء، وفيه نكتشف غاية الكاتب من مجموعته، فهو يدعو الجيل الجديد إلى صنع عالم جديد، والابتعاد عن الموروثات، وتبديل الأفكار الثابتة، فبالعزم والتفكير يمكن ذلك، والإهداء ليس بعيداً من الدلالات المستوحاة من العنوان، فمن يسعى يتعب ويشقى يصل إلى مبتغاه، ولا عمل مثمر من دون ذلك.

وتتوالى القصص التي يصل عددها إلى خمس عشرة قصة، تتوزع في موضوعاتها بين قضيتين هما مواقف من الحياة الإنسانية تنقل لنا تجربة التعب المثمر، وما له علاقة بقضية الانتماء إلى الأرض بطبيعتها أو بمواجهة الأعداء، مقارناً من خلالها بين الرّيف والمدينة أو راسماً للصراع بينهما وتأثير ذلك على المنتمين إليهما:

ومن القسم الأول نجد: ذات يوم عطلة/ تعب/ الحائط/ فضيحة لمن/ أوراق معاصرة/ بيتك بيتك/ في الجامعة/ التعب؟! ألا تهواه/ حبّ. ومن القسم الثاني: لم ينم/ ثرثرة في ساحة القرية/ يا حلالي ويا مالي/ مكاني/ نجمتي. ولا يُشير هذا التقسيم إلى الانفصال التام، فنلمح التمسك بالأرض أو مقاومة الأعداء، والانتماء إلى القيم والمبادئ وحدة سارية في القصص، مع رسم ملامح الحب وتأثيره في النفوس.

ولا يخفى أحياناً انعكاس الذات في النص المسرود، فنلمح بوحاً وجدانياً لمواقف من حياة الكاتب، ففي ذات يوم عطلة نعود مع طالب دار المعلمين والمعلمات المثابر والقارئ النهم، الباحث عن التركيبة الاجتماعية لقريته، والنّاشط

(١) مراد عبد الرحمن مبروك، جيوبوليتيكا النص الأدبي، تضاريس الفضاء الروائي نموذجاً، دار الوفاء للطبع والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٢ ص ١٢٤.

بناء طلاب تابعين لا متعلمين ومفكرين  
وباحثين.

ومن الدلالات التي تشير إلى تجربة  
المجتمع الإنساني وإلى الصّراع الدائم بين  
حياة المدينة والتعلّق بالرّيف، يعرض  
الكاتب في قصة «لم ينم» صراعاً نفسياً  
اجتماعياً للمقارنة بين هذين المكانين، ولم  
يكن الاهتمام بهذين المكانين بواقعيتهما بل  
حملهما الكاتب رؤياه بما يتعلّق بالصّراع  
بين الجذور والجديد، الصّراع بين المادة  
والرّوح، فالبطل أحمد فارس يسعى إلى بيع  
قطعة الأرض في قريته ليستطيع أن يشتري  
الملهى في المدينة، ولا يقتصر الأمر على  
ذلك، فالبطل رحل إلى المدينة واعدًا أبناء  
قريته بأن يعود إليهم حاملاً الخير  
والسّعادة، لكنّ المدينة طحنته وعجنته  
بطباعها، فأثر نفسه على الآخرين ونسي  
كلّ وعوده، وكلّ ما يهمله هو أن يعود  
ويحسن استثماراته.

ويرسم أديبنا أيضاً الصّراع من أجل  
الأرض والحفاظ عليها من أعدائها، فبرز  
البعد المقاوم عنده، فالقضية الأبرز التي  
تناولها أديبنا في قصصه عموماً هي قضية  
المقاومة والنّضال ضدّ العدو الصهيونيّ أو  
ضدّ الإقطاع أو الفساد، فلم تكن فلسطين  
غائبة، ففي قصة «يا حلالي ويا مالي»

السّياسي والاجتماعي والثقافي، ولأنّ  
الإنسان يحتكّ بالواقع المعيش فنرى الحياة  
تقوده إلى البحث عن الحبّ، فللحبّ «في  
ذاتنا مكان، محجوز له منذ خلقنا يبقى  
فارغاً إلى أن يأتي يوم لا مفرّ منه»<sup>(١)</sup> أمّا  
في «أوراق معاصرة» فنلمح تلك الشّخصية  
الثّابتة الصّامدة التي لا تتنازل عن مبادئها،  
فيخسر تكليفه بإدارة المدرسة لأنّه لا يتزلّم  
لأحد، ولا يخضع لضغوطات النّقيب الذي  
حقّق معه، طالباً منه أن يكون عينهم على  
المخربين / الفدائيين. وتستمر الشّخصية  
المتمرّدة الرّافضة للخضوع إلى ضغوطات  
رئيسه في العمل الجامعيّ وتقديم تقارير لا  
تتماشى مع قناعاته. نعم هي أوراق  
معاصرة لشخص لم يعيش في هذا العصر،  
هي مواقف إنسانيّة وإشارات إلى عملية  
الصّراع بين الصّواب والخطأ، بين القيم  
واللاقيم. أو نراه في هذا الأستاذ الجامعيّ  
الرّافض لما يراه في الجامعة من إهمال  
وفوضى وعدم اهتمام في البنى التّحتية  
والقاعات، رافضاً التّدريس في مكان لا  
مكتب ولا كراسي فيه، ليس فيه إلاّ لوح ملئ  
بالخربشات وطالبان في نهاية القاعة،  
وتكتمل الصّورة ليسمع الأناشيد في  
الخارج. يسلّط الكاتب في هذه القصة على  
واقع اجتماعيّ يكتفي فيه المسؤولون على

(١) عبد المجيد زراقت، تعب..! وقصص قصيرة أخرى، ص ١١.

مقابل التّغيير والانجراف مع العدو لتحقيق مصالح مادّية، فالحاكم الجديد الذي نصّبهُ الاحتلال يستولي على مقرّ النادي الذي كان مركزاً ثقافياً واجتماعياً ويحوّله إلى مركز لحكومته، وهو الذي تقرب من الآخرين وسعى لبنائه، لكنّ العمالة التي فيه تحوّلته إلى شخص آخر. وفي استيلائه على المكان تثبيت على أنّ الآخرين هم من يمتلكونه، فلم يستطع إغواء صديقه القديم لتغيير مبادئه والانضمام إليهم.

وتتوالى القصص مقارنة بين الأرض الأبية بطهارتها ونقاؤها والزّنانة أو الثّروة أو العالم الجديد القريب من المحتلّ، وفي كلّ هذه القصص تتجلّى ملامح المقاومة الرّاصدة للشّخصيات وللأحداث ونقد الواقع المعيش من خلال الالتفات إلى جزئيات الحياة اليوميّة، إلى جانب رصد تغيّرات الزّمن وانعكاسها على النّص القصصيّ.

وإذا أبدع أديبنا في قصصه من حيث المضمون، فإنّه لم يغفل تقنيّات السّرد، وهو النّاقّد الخبير في هذا المجال، فكان الشّكل متوافقاً مع المضمون محقّقاً الغاية المنشودة، فجاء الوصف في طيّات هذه المجموعة القصصيّة متناغمًا مع السّرد محقّقاً تصوير هذا الفئات الاجتماعيّة، فبتنا

عرض لحقيقة الصّراع بين الثّابت / والمستحدث بين الحقيقة / والوهم، حقيقة كينونة فلسطين ووهم وجود الكيان الغاصب، عبر عجوز أقبلت مع الجمع الذي تمّ استقطابه بمناسبة افتتاح الجدار الطّيب بدعوة من رئيس الإدارة المدنيّة في الشّريط الحدوديّ اللبنانيّ المحتلّ، لكنّ هذه العجوز لا تعرف اسرائيل، ولا كريات شمونة، هي تعرف فلسطين والصّالحة، وقد جاءت لأنّ الطريق فُتحت إلى فلسطين، فهذه العجوز إشارة إلى الحقيقة التّاريخيّة التي تؤكّد وجود فلسطين، فالذّاكرة التّاريخيّة ستحافظ على هذا المسمّى، ومن هنا يصعب محوه من ذاكرة رجال ونساء خبروا هذه الطّرقات: «ضحكت وقالت: شو باك، يا زلمي؟! إنت مضيع؟ من هون كنا نمرق على فلسطين.. كنت أحمل سلّة البيض على رأسي، وانزل عا سوق الخالصة، إلنا صحاب كتير في الخالصة، بعدها السوق عامرة؟!»<sup>(١)</sup>. ثورة امرأة بسيطة تنشد ما كانت تراه من بيع وشراء وأمان وخيرات تدفع برئيس الإدارة المدنيّة إلى العودة خائباً ولم يلق كلمته، وسط أهازيج الناس باسم فلسطين.

أمّا في قصة «مكاني» فيتمّ التّسليط على الثّبات في المكان والحفاظ على الموثيق

(١) م. ن، ص ٨٦.

في مجموعته القصصية «تعب» ما بدأه في أعماله الإبداعية النقدية السابقة ليثبت مكانته التي وصل إليها وليرفد المكتبة العربية نتاجاً أدبياً فيه من الإبداع ما يقوده إلى أن حمل السمات العالمية للأدب.

### المصادر والمراجع

- ١ - بلال، عبد الرزاق، مدخل إلى عتبات النص، دراسة في مقدمات النقد العربي القديم، إفريقيا الشرق ٢٠٠٠، الدار البيضاء، بيروت، ٢٠٠٠.
- ٢ - زراقط، عبد المجيد، تعب..! وقصص قصيرة أخرى، بيروت، دار روافد للطباعة والنشر، ط ١، ٢٠١٨.
- ٣ - مبروك، مراد عبد الرحمن، جيوبوليتيكا النص الأدبي، تضاريس الفضاء الروائي نموذجاً، دار الوفاء للطبع والنشر، الإسكندرية، ٢٠٠٢.
- ٤ - مفتاح، محمد، دينامية النص، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط ١، ١٩٩٠، ص ٧٢.

نرى وصفاً للطبيعة وللأماكن، ومن أمثلة وصف الطبيعة ما نراه في قصة «ثرثرة في ساحة القرية»: «لم تبق سوى غيمات بيضاء. بانث الشمس صفراء شاحبة وراحت ترسل الدّف الذي طال غيابه»<sup>(١)</sup>، أو وصف الشخصيات في قصة «حب»، «كان سعيد الاسم فلاحاً قوياً، طويل القامة عريض المنكبين مفتول العضلات عريض الشّاربين، لوّحت الشمس وجهه، طلي الحديث دائم الابتسام..»<sup>(٢)</sup>، وغيرها من الأمثلة التي تتناثر في المجموعة القصصية، وقد جاءت في ساقها الطبيعي ولم يتقصّد إليها الكاتب تقصّداً فكانت مكمّلة للبناء السردية.

ويلفت أيضاً لجوء الكاتب في عملية السرد إلى استخدام طرائق السرد المتعارف عليها، ما بين السرد المباشر والسرد الذاتي، وتيار الوعي، لكن ما يعدّ علامة مميزة في هذه المجموعة ما رأيناه في قصص «تعب» و«في الجامعة» «فضيحة لمن»، فالقصة تستند إلى سرد موقف واحد يقود إلى حبكة محدّدة لكنّ السرد والعرض يكونان من رواة متعددين، ومن خلال ذلك يكتمل الحدث، وترتسم الشخصيات ويتم تحديد المكان وتوضح الرؤية والمغزى.

الأديب الدكتور عبد المجيد زراقط يكمل

(١) م. ن، ص ٣٣.

(٢) م. ن، ص ١١٧.



## الطبيعة في ميزان الشعر العربي الحديث الطبيعة في الشعر العربي نماذج من نتاج الشعراء<sup>(1)</sup>

د. حسن جعفر نور الدين

والسواقي فيملاً منها قاموسه الشعري  
ويبدع مفردات عذبة خلّاقة، ويتنشق نسيم  
الطبيعة العليل فتحفر في قلبه مناخات  
عذبة، وطالما ابدعت ضفاف الأنهار  
ومواسم الطبيعة عبقریات الشعراء في شتى  
العصور، وما بين ايدينا اليوم نتاج قرون  
سالفة من الدواوين والكتب واللوحات هو  
من نتاج وتأثيرات هذه الطبيعة التي أبدع  
الله فيها شتى ألوان الجمال والدهشة،  
خاصة في عالم الشعر والفن والأدب  
وستبقى الطبيعة إلى ما شاء الله العامل  
المؤثر والمبدع والمغذي في كل جمال  
وإبداع طبعين وفي شتى العصور والازمنة  
والأمكنة، إذ كما يملأ العطار من الزهور  
والورود كؤوسه من العبير الفيض  
والعنصر الخلاق، يملأ الشاعر رؤيته  
وثقافته من مشاهد تأخذ الأبواب وتستثير  
الإحساس والعاطفة.

### الشعر العربي الحديث

تعدّ الطبيعة عاملاً فاعلاً واسباسياً في  
نتاج الشعراء العرب. قديمهم وحديثهم،  
يعيشه الانسان ويتلمسه ويعانيه، وهي  
مؤثر فاعل في نتاجه الشعري وإبداعاته،  
لما في الطبيعة من مصادر الأيحاء  
والدهشة، بجمالياتها وما تضيفه على  
الطبيعة من عناصر الجمال والروعة  
كالنسيم العليل والطير الجميل والمفاتيح  
الخضراء والصفراء الناتجة عن تقلب  
الفصول، يستوحىها الرسام فيبدع رسومه  
ولوحاته الفاتنة، وتحفر في الشاعر والاديب  
عميقاً، فينسجها لوحات شعرية جميلة  
ملونة بسحر المشاهد وتألّفها، ويملاً  
الموسيقى منها رثيته، فيسمع صداد  
القنادل والطيور بزقزقاتها المتنوعة العذبة،  
ويشده خريز النهر وزقزقات الينابيع

(1) أدونيس - بدر شاكر السياب - سميح قاسم - محمد علي شمس الدين - محمود درويش .

## أدونيس (علي أحمد سعيد)

تتعدّد مظاهر الطّبيعة وجمالياتها في شعر أدونيس، وقد سمحت له رحلاته المتعدده وأسفاره إلى كثير من دول العالم بضخ شعره بعوالم الطّبيعة في تلك البلاد، مما أغنى قاموسه الطّبيعيّ الشعريّ. وأعتقد أن الطّبيعة لم تخل من أي شاعر على وجه الأرض، ولكن بتفاوت بين شاعر وآخر حتى انه ليس من المهم معرفة أين وأنى وصل الشّاعر وساح وسافر، لكن العبرة هي مدى إنعكاس هذه المشاهد على شعره وذوقه الشعريّ، فبمقدار ما يكون تأثيره عميقاً ومتبادلاً، أو بمقدار ما أحدثت هذه المشاعر صدمة وقوة في نتاجه، يقول في قصيدة (مرثية الأيام الحاضرة):

مات عيد المطر، في وجوه الشّعراء  
فبدلناه بعيد الحجر تركنا للنواقيس على  
اهدابنا

لسماء العروة المنفصمة

وتركنا للرياحين، ولأجران البكاء

هذه المرثية المنهزمه

تلك صيغ الطّبيعة في القصيدة (المطر، الحجر، الرياحين، الأجران). في نص نقدي لحال الأمة وتشظيها حيث أنها استعاضت عن الجميل والنقي والفرح بالبكاء والإنهزام.

ويبلغ حسّه النّقديّ مداه وهو يشير إلى أمته وتعثرها الدائم مستخدماً كما السياب المطر ولكنه هنا المطر الذي يأخذ بدربه كل شيء، أو دون أن يميز بين الحمامة والجاموس وبين الحمامة والزهره، تلك هي أمّته الغارقة في سُببات قاتل، ومتى لم نك نشكو الهزال والهجرة إلى المجهول مستخدماً الطّبيعة وعناصرها

الحياة هزيلة في هذه الدقائق من العمر.

(يا أرضاً بلون الهجره وبلون الريح، هل ستنهض ريح جديدة ضدّ الرمل، وأنت أيها المطر الذي يغسل الأنقاض والخراب، أيها المطر الذي يغسل الجيف، ترفق أيضاً واغسل هذا التاريخ، فهو يجهل أن الصّخرة الجارحة قصيدة مخنوقة في الشفاه، ويفهم الجاموسة النابحه حمامة أو زهرة إو إله، وذات يوم تبعث الحشرجات في وطن الضّفادع الجائعة، وتنقل الخبز لنا والصلاة جرادة أو نملة ضائعة<sup>(١)</sup>).

نلاحظ هنا أن الشّاعر استخدم عناصر الطّبيعة للتعبير عن آرائه الحاده ضدّ ما عليه أمّتنا من ضياع مثل المطر والصخر والزهره.

وفي حديثه عن صنعاء وصف طبعي رائع لمعالمها التي تسير معك وتكشف لك عن معالمها وجمالياتها الطّبيعيّة الغارقة في

(١) ادونيس - مفرد بصيغة الجمع - ج ٣/ ص ٢٢.

الجمال والتاريخ: (أتحدث مع عدن وتوحي  
إليّ صنعاء، تسير معك الأولى وتقبل اليك  
الثانية، فيما تجلس حولهما الجبال كمثل  
شهب حدها السير<sup>(١)</sup>.

ويجمع أدونيس الطبيعة والانسان في  
نص من معلقته الكبيره (المهد):

أبوان من عالم آخر تصدح تحية  
للعناصر

الأيام تنزل على سلالها كممثل أطفال

ومنذ ان تصل الشمس إليها

تجلس على عباتها وتتهد كأنها

لا تريد أن تنهض

ثم يخاطب أحد الشعراء مادحًا الطبيعه  
حيث يقدمها كمادة اساسية في مزاجه  
الشعري:

اهبط أيها الشاعر... أظن ان ذاكرتي  
تسيل

في وادي الأحقاف، أظن أن الزمن  
ينكسر بين يدي كممثل قضيب يابس، أظن  
أن الجبال تجلس على عباتها وتتهد كأنها  
لا تريد أن تنهض ثم ينادي الشاعرية في  
الشاعر والطبيعة دائماً هي قوس قزح وساء  
الشاعر التي لا تحد:

اهبط أيها الشاعر... الفضاء بيت تسقفه  
أحلام النساء والقمر يتسلق الجدران  
ويوصوص من النوافذ.

جميل ورائع هذا التفلت من دائرة  
الزمان، وترك الخطوة لطبيعة تشهر الفضاء  
للأحلام والقمر للتسلق وكأنه صبي أو  
متربص يأسر النوافذ، تلك هي البلاغة  
العملقة التي تتسلق جذر الكلمات وتصنع  
منها الأعاجيب.

إلى هذا الحد تعيش صنعاء وشاماتها  
في قلب الشاعر، بطبيعتها التي تغري  
الشعر، وهو يمزجها مع الصوفية في مقطع  
صغير عنوانه (صوفي):

«أظن أنني قلت لا شك أنني سليل  
موسيقى خرجت مره من حنجرة السماء،  
ثم أثرت ألا تعود» اقول ربما لذلك تيقنها  
الصوفيون اناشيد ومقامات، ومنذ ذلك  
الوقت سكنت الموسيقى الارض برمتها،  
هي الميدان الفسيح لصناعته البلاغية  
وفنونه الشعرية الراقية، عبر دلالات راقية  
عذبه يجسدها التاريخ، يقول من الصفحة  
٤:٤ من مفرد بصيغة الجمع:

نفهم الآن كيف تستند امرأة يمنية إلى  
دموعها فيما تمسح الغبار عن وجه الأفق،  
وكيف تلقي التاريخ على كتفها كنديل  
أخضر، نعرف لأن كيف تزف عرائس البحر  
أو الشعر المؤرخ في زمن بلقيس عروس  
المدائن نجمة العصب وأناني القصب  
والمنجل الذي يحصد الظلام. هذه هي

(١) ادونيس - مفرد بصيغة الجمع - ج٣/ص ٤٧٥.

الطَّبِيعَةُ بِرَمْتِهَا دَخَلَتِ الشَّعْرَ وَالشَّعْرَ دَخَلَ  
الطَّبِيعَةَ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا.

يُوغَلُ فِي هَذَا الْوَصْفِ السَّحْرِيُّ الرَّائِعُ  
لِتَارِيخِ الْأُمَّةِ الَّذِي كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ، عِبْرَ مَشَاهِدِ  
طَبِيعِيَّةٍ لِتُظَنُّ أَنَّ التَّارِيخَ أَمَامَكَ بِكُلِّ رُؤَاةٍ:

(صَنْعَاءُ يَسْتَنْدُ فِي أَشْجَارِ السَّدْرِ  
تَظَلِّلُنِي أَشْجَارُ الْعَرَعْرِ تَحْضُنِي يَبُوتُ  
اعْشَاشُ، تَوَاكِبُنِي مَدْرَجَاتُ سَلَالِمٍ، وَحِينَ  
انْخَفَضَ فِي تَهَامَةٍ وَأَلْتَبِسُ بِعُشْبِ الْإِقْلِيمِ  
تَتَخَطَّفُنِي بِنَبَاتَاتٍ وَحَقُولِ فَصِيَّهِ، وَهِيَ  
الْمِيَاهُ امْهَاتُ يَرْضَعُنِ النَّخِيلَ وَالْإِثْلَ الْإِرَاكِ  
وَالطَّلْحَ، وَيَرْضَعُنُ حَشَائِشَ لَا تَفْقَهُهَا  
اللُّغَةُ<sup>(١)</sup> .

ثُمَّ يَتَابَعُ عَنِ صَنْعَاءٍ وَتَرَابِ الْيَمَنِ.

إِنَّ مَنْ يَقْرَأُ هَذَا السَّرْدَ الْجَمِيلَ لِعَدَنِ،  
مُؤَكَّدًا وَحِدَةَ الدَّمِ الْمَصِيرِ مَعَ صَنْعَاءٍ فَهَمَا  
دَوْلَةٌ وَأُمَّ وَاحِدَةٌ، وَتُظَنُّ أَنَّكَ أَمَامَ عَالَمِ  
جُغْرَافِيَا وَتَارِيخِيٍّ يَصِفُ فِي وَصْفٍ وَذَكَرَ مَا  
يَرَاهُ يَمَعْنَ بِشَاعَرِيَّةٍ خَلَّاقَةٍ وَحَسِّ عَرَبِيٍّ  
وَاعٍ، وَكَأَنَّهَا يُوْحِي بِوَحْدَةٍ وَتَمَاسِكٍ مَا يَرَاهُ  
بِأَهْمِيَّةٍ وَحِدَةٍ أُمَّتِهِ وَتَمَاسِكِهَا.

نَصٌ طَبِيعِيٌّ بِأَمْتِيَّانِ، يَتَجَلَّى أَمَامَنَا فِي  
هَذَا الْعَرَضِ الشَّائِقِ لِمَفَاتِنِ صَنْعَاءِ الشَّجَرِ  
وَالْعَاشَاشِ وَالنَّبَاتَاتِ وَالْحَشَائِشِ الْمُتَنَوِّعَةِ  
الْمَجْهُولَةِ الْأَسْمَاءِ، وَالْأَوْدِيَةِ وَالْجُدْرَانِ، ذَلِكَ

هُوَ الْيَمَنِ السَّعِيدِ الَّذِي كَانَ ذَاتَ يَوْمٍ عِلَامَةً  
فَارِقَةً فِي تَارِيخِ أُمَّتِنَا الْمَجِيدِ.

وَأُنَى تَلَفَّتْ فِي دِيْوَانِ ادُونَيْسٍ وَجَدَتْ  
أَمَامَكَ الطَّبِيعَةَ بِكُلِّ تَفَاصِيلِهَا صُورَهُ  
لِجُغْرَافِيَا الْأَرْضِ وَالشَّعْرَ وَهُوَ يَتَحَدَّثُ مَعَ  
أَوْغَارِيَّتِ مِنَ الصَّحْرَاءِ، مِنَ الْبِتْرَاءِ، عَنِ تَارِيخِ  
الْأَبْجَدِيَّةِ يَمِزُجُ بَيْنَ الطَّبِيعَةِ وَالتَّارِيخِ:

أَعْطَ ذَاكَرْتِكَ لِلْحَجْرِ، وَنَمَّ بَيْنَ شَفْتَيْهِ

الْحَجْرَ مَاءً ثَانٍ، يَنْتَصِرُ الْحَجْرَ مِنْهَزِمًا  
الْحَجْرَ فِي الْبِتْرَاءِ رِئَةً لِلْمَادَةِ.

ثُمَّ يَدْخُلُ مَعَهُمَا الْفَلَسْفَةَ فِي نَسِيحِ  
شَعْرِي دَافِيٍّ:

أَنَّ كَانَ عَلَى الْعَقْلِ أَنْ يَكْسُوَ الْعَالَمَ

فَعَلِيهِ أَنْ يَعِيشَ عَارِيًّا كَالْحَجْرِ

عُرِي الْحَجْرَ ثُوبٌ لِلْكِتَابَةِ

وَعُرِي الْعَقْلَ ثُوبٌ لِلْمَعْرِفَةِ.

وَعِنْدَمَا يَأْخُذُ الْقَلَمَ إِلَى أَوْغَارِيَّتِ (فَهُوَ  
اللُّغَةُ) تَحْضُرُ الطَّبِيعَةُ بَعَمَقٍ لِتَرِينَا مَشْهَدًا  
آخَرَ مِنْ مَشَاهِدِهَا الْمُتَنَوِّعَةِ:

إِلَى أَوْغَارِيَّتِ يَأْخُذُنِي الْقَلَمَ، لَا بِلِسَانِهِ

يَتَكَلَّمُ الْحَجْرَ هُنَا بِلِ بَأَدْرَانِهِ

لَهُ جُذُورٌ كَالشَّجَرِ، لَهُ أَطْفَالٌ يَلْعَبُونَ مَعَ

النُّجُومِ وَالشُّهُبِ

وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ

(١) ادُونَيْسُ يَفْرُدُ بِصِيغَةِ الْجَمْعِ - ٤٧٦/٣ - ٧٧ .

السماء هي التي تأخذ ما يقطفون.

والطَّيْن هنا يرسم الروح، لا طين سومر  
وبابل وآرام،

بل طين قريش<sup>(١)</sup>

الشَّجَر والطَّيْن والنَّجُوم والسَّمَاء  
والشَّهْب عناصر يوظفها الشَّاعر خدمة  
للمعنى العام.

وفي نصوص صغيرة من التَّاريخ  
والغزل، يشهر أدونيس إبداعه:

وفي كل ناحية من كنده يدنن امرؤ  
القيس

شفتاك فاطم عسل دوغن، نهذاك تمر  
هندي

وفي مكان آخر: يا للجسد، هادراً بنشيد  
البدائيات

لا تتسع لخطواته ساحة الوقت

ويا للجسد، موجاً يزحزح شطآن

التاريخ<sup>(٢)</sup>

وفي ديوانة تاريخ يتمزق في جسد  
امرأة، تتجلى الطَّبيعة في مشاهد متنوعة  
بقول في نص صغير عنوانه (الجوقه)  
ص ٦٤:

شمس هذا النهار غرابيه

الأشعة فيها عكاكيز مكسوره

صورة الأرض نعش

والسماوات جوفاء أسنانها منخورة

شمس هذا النهار وداعيه

هكذا نجد عناصر الطَّبيعة تشكل عصب  
القصيدة، فالشمس والأرض والنهار  
والسماوات عناصر هي أركان هذا النَّص  
المعبر، والملاحظ أن الصبغة التشاؤمية  
تأكل النَّص، مثل غرابيه ونعش والسماوات  
الجوفاء والأسنان المنخورة، ولعلها باتت  
ببصيرته كذلك بسبب الوداع، وداع الشمس  
التي هي امرأة تزمع على المغيب، والرحيل  
وفي نص صغير من كتابه (أهدأ، هاملت،  
تنشق جنوب أوفيليا ص ١٠ - ١١٣  
حضور لافت للطَّبيعة وأثرها في المكان  
والإنسان.

شمس هذا الصباح في باريس ١٣ أيار،  
٢٠٠٠م ساطعة حتى أنها تكاد أن تُذكر  
بشمس الصحراء، عدا عن الفضاء والشمس  
والصحراء والاشعاعات والرياح، ولو غصنا  
في أكثر في أعماق النَّص لوجدنا كمًا  
محترمًا من ألفاظ الطَّبيعة ومشتقاتها.

ويقص حديثه القرامطه بعناصر الطَّبيعة  
وهي جزء من تاريخ هؤلاء

تخبرنا الطير عن الأبعاد وتطوى لنا  
الأرض،

وأنتِ أيها الصحراء احضنينا، كوني لنا  
بحرنا الآخر

(٢) مفرد بصيغة الجمع ٣/٤٨٢.

(١) المرجع السابق ص ٤٦٤.

هذه العبارات، تأكيد على ما مضى من  
فصول سابقة، (الطبيعة هي ام كل شيء).

وفي الفصل الثالث (جسد) يقدم نصاً  
حول أدغال الهجره ورايات القفر (ص ٢٨٦)  
مشيراً إلى جوانب كثيرة من الطبيعة  
وتفاصيلها.

وجه يجتمع بحيره  
يفترق نجما  
صدرير تعش قُبْرَةً  
يهدأ لو تسا  
حوض تتفتح ورده  
ينغلق لؤلؤه

وهي برأيه أدغال الهجره ورايات القفر:  
وللنهار يدا لعبه، ولللك نبرة المهرج  
لكن، أيتها الشمس ماذا تريدين مني  
إنّها الفلزكة الشعريّة الأدونيسية. وعلى  
هذا المنوال، وفي جو طبيعيٍّ أخاذ وشعر  
راقٍ يأخذك أدونيس إلى مناخه الواضح  
المبهم السهل الصعب:

أهبط أيتها الشاعر  
الفضاء بيت تسقفه أحلام السماء  
والقمر يتسلق الجدران ويصوص من  
النوافذ (٤٨٣)

وفي كل ناحية من كنده يدندن امرؤ  
القيس: «شفتاك فاطم عسل دوغن، نهذاك

موجاً يملأ الشقوق، شقوق الوجوه  
والأيدي

وخبزا أبعده من الخبز، إلى الأرض نتجه  
سواعدنا قمح، خطواتنا حصاد وعلى  
ظهورنا آثار سيات

تتموج بنار وأرجوان. وها هي نساؤنا  
سراويل تنضح بالشرف

وعباءات تتمج ببحر الليل  
ولا يكاد يمر سطر في هذه الإشراقات  
دون أن يكون للطبيعة نصيب بل النصيب  
الكبير من العبارات.

اعصرن يا نساء، السواد شقاءكن  
ولينهمر عنبا وحنطة وتمرا  
املأن القربي بمزق التيجان والعروش.

انكسرن مرايا ولتكن حناجركن مزامير  
للمعسكرات ودنائاً للعطش لن يلمح نهاياتك  
مثلك أيها العصر، يمزج الحيوان بالقمر  
الطلع بالقش،

يتقطع وينبتر مثلك أيها العصر<sup>(١)</sup>  
مثلك أيها العصر لم يمت وليس يحيا،  
اخرج أيها الطفل

تخرج أشجار أقواس قزح، من كل قوس  
يخرج عاشقان من العشق تخرج غابات، من  
الغابات تخرج أنهار المستقبل لعلي لا أبالغ  
أن الطبيعة بمعظم مظاهرها، هنا تألقت في

(١) ادونيس - مفرد بصيغة الجمع - ج ٣ ص ٢٧٧ - ٢٧.

تمر مديني ٤٨٣/٣، تكاد كل لفظة هنا في  
ما ورد جزء من محاكاة الطبيعة وتلمسها  
هكذا يرى أدونيس الكون والأحداث،  
يرسمها أو يتخيلها أحياناً على هواه مازجاً  
الواقع بالخيال، آخذاً من الطبيعة ينابيعها  
ومن البداهة والاسطورة دائماً حياة  
الماضي ورؤى المستقبل بلغة على هواه،  
مزيج التفعلية أو اللاتفعلية، محاولاً  
الامسك بالموسيقى قدر الإمكان.

انتهى الجزء الأول يتبع في العدد القادم

## القيم الاجتماعية والأيدولوجية في: «شارة جديدة للنصر» للدكتور علي حجازي

ابتسام محمد الأطرش

حتى آخر شبر من أرض الجنوب على الحدود مع فلسطين المحتلة. حيث ارتسمت الشخصيات وبدت موحدة أمام نداء الأرض الحبيبة في أدوار تكاملية ممنهجة لتحقيق الهدف الأساس، وهو تحرير الأرض من الاحتلال الصهيوني الغاصب.

أرّخ الدكتور علي حجازي في مجموعته القصصية لأحداث ومواقف واقعية وجريئة، مسلطاً الضوء على أهم القضايا الوطنية التي حدثت بالفعل على أرض الواقع، في بؤرة قوامها الصراع الإسرائيلي على ساحة

أولاً: مهاده نظري:

قدّمت المجموعة القصصية «شارة جديدة للنصر»<sup>(١)</sup>، للدكتور علي حجازي<sup>(٢)</sup>، واقع العاملي المقاوم، المناهض للاحتلال الإسرائيلي على امتداد مساحة الوطن. استطاعت هذه القصص بوصفها: «إحدى المقومات الأساسية لإدراكنا الحقيقة، فنحن منذ بدء فهمنا للكلام محاطون بالقصص من دون انقطاع»<sup>(٣)</sup> أن تُحيط بتفاصيل المجتمع الجنوبي المقاوم، منذ بدايات الاحتلال الصهيوني، إلى اندحاره مهزوماً

(١) شارة جديدة للنصر، مجموعة قصصية تتألف من ثلاث عشرة قصّة، عدد صفحاتها ١٠١. صدرت عن شركة دبوب

العالمية للطباعة، دار المعارف الحكيمية، ط١، ٢٠١٨.

(٢) علي حجازي، ولد في بلدته قبريخا التابعة لقضاء مرجعيون، من جبل عامل، جنوب لبنان، وسط أسرة كادحة. أستاذ جامعي، حائز على رتبة أستاذ في اللغة العربية وآدابها. كاتب قصصي، كتب القصة للكبار والفتيان، باحث في التراث الشعبي، وأدب المقاومة، وأدب الأطفال. له العديد من الأبحاث والمؤلفات، منها: «وفاء الزيتون» مجموعة قصص تُرجمت إلى الفارسية، والصينية، والفرنسية، و«عناقيد العطش» التي تُرجمت إلى الفارسية. وهو عضو الاتحاد العام للأدباء والكتاب العرب، واتحاد الكتاب العرب، واتحاد الكتاب اللبنانيين، شارك في تأسيس أكثر من منتدى ثقافي، وآخرها تأسيس ديوان الثقافة والأدب في بلدته قبريخا.

(٣) ميشال بوتور، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونوس، بيروت منشورات عويدات، ط٣، ١٩٨٦، ص٥.



الجنوب اللبْناني. فشكّلت قصصه مادّة  
تأريخيّة موثّقة بأسماء القرى الجنوبيّة،  
وبإشارات ورموز لشخصيّات معروفة، كان  
لها دور مهمّ وما زال، على تبيان حقيقة  
الأحداث، وواقعيّتها التي تبعث في نفوس  
قارئها مشاهد مضت، إلا أنّ إيقاظها في  
الذاكرة كأنّه الحاضر المرّ.

تتألّف هذه المجموعة القصصيّة من  
ثلاث عشرة قصّة، وتختصّ كلّ منها  
بحادثة ما، أو موقف له رمزيّة جهاديّة  
ونضاليّة خاصّة. تمتدّ أحداثها على فترة  
زمنيّة منذ بدء الاحتلال إلى التّحرير وما  
بعد حرب تمّوز ٢٠٠٦. وفي كلّ مرحلة من  
هذه المراحل تسجّل الشّخصيّة موقفها  
للتّاريخ وللبشريّة في قصص تحفظ حقيقة  
الأحداث، وتصونها للأجيال القادمة التي  
غاب عنها نموذج اندلاع المقاومة والثّورة.

كتب القاصّ من خلال عيون الشّرفاء في  
بلد المقاومة، مأساة ومعاناة الشّعب  
الجنوبيّ في صراعه ضد الاحتلال. دأبه في  
كتاباتّه أن تبقى إشارات المقاومة والجهاد،  
وتضحيات المجاهدين واضحة بين  
سطوره، متألّثة على ضفاف كلماته  
وعباراته. كيف لا يكون ذلك وهو المقاوم  
الأوّل الذي يستمدّ قلمه مداد حبره من  
صرخات الجرحى، من دماء الشّهداء، من

أنين الأمّهات التّكالي، فيصوغ الحكايات  
والقصص التي تخلّد هذه الذّكري الرّمز،  
لكلّ أباة العالم، ولكلّ حرّ عرف يوماً معنى  
العزّة والكرامة.

فنتاجه واقعيّ بامتياز، يمثّل إمامه  
الواضح والواسع، بأهمّ تفاصيل المعاناة  
التي عايشها الجنوبيّ في صراعه مع العدو  
الصّهيوني، ومواجهته للظلم، ولمشروع  
الاحتلال والتي صبغت إحساسه وقلقه  
الوطنيّ والفكريّ والقوميّ. إذ شكّلت رؤيته  
الواعية النّاقدة باعتماده الوصف والتّعليق،  
مقدّمًا مواقف ورؤى تُفضي بنا إلى رؤية  
أوضح، تبدو كأنّها عتبة جديدة على طريق  
النّصر. لعلّها ولادة جديدة تحمل تباشير  
الانتصار العربيّ والقوميّ بانتمائها إلى  
الأرض وثبات هويّتها.

باختصار إنّ ما طرحته هذه المجموعة  
القصصيّة، هو مسيرة الأحرار والشّرفاء  
الرّافضين لأرض مستلبة، وسماء منتهكة،  
وهواء لا يحمل في ذرّاته عبق فلسطين.

**ثانيًا: الشّخصيّة والرّمز في «شارة جديدة  
للنّصر»:**

تعدّدت الشّخصيّات وتنوّعت في «شارة  
جديدة للنّصر»، إذ أظهر الرّوائيّ عناية  
خاصّة بها كونها: «تمثّل أهميّة قصوى في  
هذا الحسّ الأدبي»<sup>(١)</sup>. فالقضية قضية

(١) عبد الملك مرتاض، في نظرية الرّواية، عالم المعرفة، الكويت، العدد ٢٤٠، ط١، ١٩٩٨، ص ١٠٣.

الواقع الاجتماعي، والوطني، والإنساني المقاوم ضد الاحتلال، الأمر الذي جعل هذه الشخصيات على الرغم من تنوعها، أن تبقى ضمن نطاق مشروع المقاومة، وعشق الشهادة التي أذلت العدو، وأجبرته على التراجع والخروج مهزوماً، ذليلاً من أرض الجنوب اللبناني.

يظهر الكاتب ملتزماً بقضايا مجتمعه والقضية الأساس، وقد حمل شخصياته تطلعاته ورؤاه، واستطاع رسمها لتؤدي وظيفة ما، كان قد أراها مسبقاً. فالأمر الأكثر بروزاً هو أسماء الشخصيات التي تدل على بقعة مكانية معينة، وتوحي بثقافة واحدة ضمن العقيدة ذاتها. تتوحد هذه الشخصيات في محور المقاومة وتبتعد عن التناقضات، هي شخصيات منسجمة في أهدافها ومواقفها، واضحة في مقصدها. تعبر عن موقف القاص (السارد = الشخصية). إنها شخصية سارد يسرد بلسانه قصته، إذ «تتعلق الرؤية السردية بالكيفية التي يتم بها إدراك القصة من طرف السارد»<sup>(١)</sup>. يقوم السارد بسرد الأحداث واستخدام ضمير المتكلم، هو سارد حاضر ومشارك في القصة، يعرف

بقدر ما تعرف الشخصية حيث تقوم هي نفسها بسرد الأحداث مثلما نجد في السيرة الذاتية، وفي هذه الحالة تنعت الشخصية بـ«الشخصية - السارد»<sup>(٢)</sup>.

وتتناوب الرؤية السردية في هذه المجموعة القصصية بين «الرؤية مع» في قصص: (الزفة/ لحظة فرح نادرة، الخيول الأصيل لا يستغنى عنها أبداً، قبضت أبي الفضل تكملان تفاصيل الحكاية، من يبيع الثكلى ذرة صبراً)، و«الرؤية من الخلف»، لنجد أن السارد في قصص: (خيوط الفجر، حنين القصب، رسام من هذا الزمان، مقبرة، زيتونة العز، أم محمد، عاشق الأرض والحياة، الحاجة سارة وشارة جديدة للنصر) عليماً بكل شيء، حاضرًا في كل مكان، يعلم ما يجري في ذهن الشخصية وما تشعر به، فتراه يعرف ما يعتمل دواخل الشخصيات من ثورة، وانتقام، ومواجهة، وغضب. وتظهر مؤشرات «الرؤية من الخلف»، من خلال استخدام ضمير الغائب في هذه القصص. فالكاتب يرسم لنفسه مذهباً ومبادئ، آمن بها فصار يمثل عينه لأبطال في هذا الاتجاه. من هنا نسوغ تعاطفه مع أبطاله الذين يقفون المواقف

(١) تزيفتان تودوروف، مقولات السرد الأدبي، ترجمة الحسين سحيان وفؤاد صفا ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط ١، ١٩٩٢، ص ٦١.

(٢) جاب لينفلت: مقتضيات النص السرد الأدبي، ترجمة رشيد بن حدو، ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط ١، ١٩٩٢، ص ٩٢.

الوطنية، والجهادية، ضد المحتلّين المغتصبين للأرض وللهوية: «عندها شرّعت أعراس الثّار تعزف في داخلها موسيقى جميلة.. الدّماء تغلي في عروقها المتيبّسة منذ زمن، الحنين القاتل للانتقام من هؤلاء المغتصبين يحرك كلّ خلية من خلاياها... إنّها اللّحظة المشتهاة...»<sup>(١)</sup>.

إذاً، رسم الدّكتور علي حجازي شخصيّاته بكثير من البراعة والإتقان، وأحسن إطلاق الأسماء المناسبة على كلّ منها عن وعي، وقصد، وحسن إدراك، وروية. فأعطى بعضها النسب الرّفيع، وهو نسب السّادة الذي يوحي برمزيّة دينيّة فذكر: (السيد مجتبي - السيد صالحى - علي السيد محمود). هذا الرّمز الديني لناحية النسب، يُضاعف من عمق الشّخصيّة وأهمّيّتها في نظر القارئ، ويجعلها أكثر التصاقًا بقضية الجهاد، ومقاومة الظّلم، والاستشهاد في سبيل الحقّ أسوة بأهل بيت النبي (ص). كذلك، ذكر أسماء شخصيّات لها رمزيّة مكانية تكتنز المعاني والايحاءات لتعلن هويّتها بكلّ جرأة نذكر منها: (أبو حيدر، علي، حسين، جهاد، محمد). وقد عمّق أكثر فكانت شخصيّة باسم «أبي الفضل»، رمز الإيثار، والعشق،

والبأس، والشّجاعة التي جسّدتها شخصيّة «أبي الفضل العباس» ابن أمير المؤمنين(ع)، ساقى عطاشى كربلاء، حامى النّساء والأطفال، المدافع عن العرض والأرض والكرامة، وقد قُطعت كفوفه في معركة الطّف، واستشهد في سبيل إحقاق الحقّ ونصرة المظلوم. وإنّ يُطلق الدّكتور علي حجازي هذه التّسمية على إحدى شخصيّاته، فهو يرمز إلى الإيثار، والتّضحية التي قدّمها أبو الفضل في طريق الثّورة، والجهاد، ونصرة المظلومين. كما يؤكّد أنّ طريق الشّخصيّة في القصة هو طريق البذل، والعطاء، والتّضحية، والاستشهاد من خلال التّماهي مع شخصيّة «أبي الفضل العباس».

وحيث يتحدّث الدّكتور علي حجازي عن شخصيّات ريادة في المقاومة والجهاد، فإنّه يُبقيها مجهولة من دون اسم: «الحاج تغتاله أيد أئمة في دمشق»<sup>(٢)</sup>. يكتفي بلقب يُوحي بهويّتها، وبذكر صفات تميّزها عن باقي الشّخصيّات: «الحاج القائد، كان يعشق التّراب والصلاة» مع الفجر، رأيته يتيمّم بالتراب، إنّّه يحبّ التّراب كثيرًا، يعشقه، ويُصلي...»<sup>(٣)</sup>. يعيش «الحاج القائد» في تعميم إعلامي فلا أحد يعرف عنه شيئًا إلاّ

(١) شارة جديدة للنصر، م. س. ص. ٥٩.

(٢) شارة جديدة للنصر م. س. ص. ٣٨.

(٣) م. ن. ص. ٣٧.

المحامي، والطبيب، والمهندس، جميعهم يتركون مناصبهم ليلبوا نداء الأرض. هي ثقافة عزّ وفخار، توارثتها الأجيال وخلدتها الأدياء الأخيار، فالأوطان تحمي بالدماء.

**ثالثًا: القيم الاجتماعية والايديولوجية في «شارة جديدة للنصر»:**

اصطلاحًا، يرتبط مفهوم القيم بمعنى الاستقامة، في حين يُعرّف جابلن J.P.Chaplin القيمة بأنّها: «غاية أو هدف اجتماعي يكون تحصيله مرغوبًا فيه»<sup>(١)</sup>. وهذا يعني أنّ القيمة تتلازم مع سلوك الإنسان، وهدفه الذي يقوم «بأعمال إرادية، ولكلّ عمل اختياري هدف، وعندما يستهدف الإنسان شيئًا، فإنّ ذلك الشّيء له أهميّة، وقيمة لديه، سواءً كان هذا الهدف ماديًا أو معنويًا، بمعنى أنّ للهدف جاذبيّة للطبيعة الإنسانية، وإلاّ فمن المحال أن يتحرّك ويسعى الإنسان نحو هدف لا يجذبه»<sup>(٢)</sup>.

تُعدّ القيم ضرورة لحياة الأفراد، وهي سمات يكتسبها الإنسان من الطفولة، ويسعى إلى التمسك بها. وصراعه في هذا العالم هو: «صراع من أجل القيم التي يؤمن بها ويدافع عنها.. وفي كلّ مجتمع، هناك أنماط بارزة من القيم تعود في أصولها إلى الجماعة، وإلى التّربية العائليّة، وهي ترتبط

عند استشهاده، حينها يدرك الجميع أنّه قائد عظيم يستحقّ الخلود فمنحه الله الشّهادة. ترمز هذه الشّخصيّة إلى قادة المقاومة المجاهدين والمرابطين على الثغور، وقادة الانتصار والتّحرير الذي منّ الله به على أهالي الجنوب وسكّان القرى المحتلّة، بفضل دماء الشّهداء وتضحيات هؤلاء القادة.

من ناحية ثانية، يسري عقب الشّهادة في أوصال المثقّفين كغيرهم من أبناء المقاومة، فيها هو المحامي «علي» يخلع ثوب المحاماة ليلبّي نداء الأرض، ويسير في خطى ثابتة نحو الشّهادة، ويسأل الله أن ينوّله إيّاها فذلك هو الفوز الأكبر. ترمز شخصيّة المحامي إلى شريحة من المثقّفين تؤمن بالقضية، وبأهميّة الجهاد والنضال، وترى أنّ الانتصار مشروع الجماعة فتسعى إليه. يكمن الرّمز في الإشارة إلى المقاومين بأنهم مثقفون وعلى درجة عالية من الوعي الاجتماعي، والثّقافي. وذلك ردًّا على كلّ من يتجرأ، ويتّهم المقاومة، بالجهل والتّكفير. فها هي المقاومة قافلة عشق يهوي إليها كلّ من عشق الجهاد والثّورة، يتركون شهاداتهم، ومناصبهم، ويلتحقون بركب المقاومين إيمانًا راسخًا ثابت العقيدة،

(١) J.P.Chaplin, Dictionary of psychology. New York, Dell, 1971, p.13.

(٢) مرتضى المطهري، أنسنة الحياة في الاسلام، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط١، ٢٠٠٩، ص٣١.

من جهة أخرى، بالحاجات، والدوافع، والتجارب الشخصية...»<sup>(١)</sup>.

وبناءً على ذلك، نستنتج أنّ الإنسان لا يستطيع أن يعيش من دون قيم والتي تُعتبر بمثابة ركيزة أساسية لبناء الأفراد والمجتمعات. كما تُعدّ عنصراً من عناصر استقرار المجتمع، وسلامه على مختلف الصّعد. ويبقى: «الأدب العظيم هو الذي ينظر بعين يقظة إلى المجتمع الإنساني، فيُنَاصِر من هذه المجتمعات ما يتماشى مع القيم، وما يُسَير الحقّ، والعدل، والجمال...»<sup>(٢)</sup>.

اقترن اسم الدكتور علي حجازي بأدب المقاومة، فهو الإنسان الجنوبي والأديب المقاوم، وجزء لا يتجزأ من القضايا الاجتماعية والوطنية، حمل قضية وطنه ودافع عنها بقلمه، يحمل إلى القارئ رسالته ورؤيته في الحياة بعزّة الأحرار، وكرامة الشرفاء ويعبّر عن مبادئ شعبه وعاداته وقيمه من خلال ثقافته العاملة. وبعد قراءة «شارة جديدة للنّصر»، نجد أنّ المعاني تعانقت للتعبير عن قيمة الإنسان، وحقّه في الدّفاع عن أرضه، ووجوده، وكرامته، وصون مجتمعه. فزخرت هذه النصوص

بالقيم المتنوّعة، وتشابكت لترسم نسيج مزايا الإنسان الذي دافع عن حرّيته وكرامته، وعشق الأرض، وتراب الوطن، وسجّل تاريخاً يُحتذى به في مسيرته المقاومة للاحتلال.

فقصص علي حجازي هي ميراث فنّي، وفكريّ، وإنسانيّ، خرج من رحم التجربة الحياتية، واكتوى بجمر الاحتلال، والقهر، والخوف، فزخر بالقيم الإنسانية، والروحية، والايديولوجية، والأخلاقية، والاجتماعية. عشق المقاومة، وعرق المجاهدين، ومجدّ القيم وخلّدها في مجموعات قصصية هي بمثابة سجلّ تاريخي للأجيال القادمة. وحسبنا أن نتمثّل هذه القيم في حياتنا، ونغرسها حباً في نفوس أجيالنا، لنحفظ الوصية الأساس، ونبقى على عهد المقاومين والشهداء...

#### رابعاً: القيم الاجتماعية في «شارة جديدة للنّصر»:

تنضح نصوص «شارة جديدة للنّصر» بالكثير من القيم الاجتماعية والإنسانية نذكر منها:

#### ١ - التّحدّي والوعي:

يبرز التّحدّي في «شارة جديدة للنّصر»

(١) غسان يعقوب وآخرون، أطفال الحرب في لبنان، دار النهار للنشر، لبنان، ط ١، ١٩٩١، ص ٧٩.

(٢) محمّد زكي العشماوي، الرؤية المعاصرة في الأدب والنقد، دار النهضة العربية للطباعة، لبنان، لا، لا ت، ص ١٥١.

عنها. وما يزيد الموقف تحديًا مشهد عروسين يتنقلان بين الرّكّام، يعلنان تحديهما للعدو، ويوصلان رسالتهما التي ترمز إلى الخصوبة، والإنجاب، والسّير على خطّ المقاومة: «إسرائيل تريد إقلال الخصوبة، هذه حربها.. وهذا العرس ردّ بليغ»<sup>(٣)</sup>.

من ناحية ثانية يظهر الوعي بإفشال مخطّ الانتهازيين في لحظة ضعف قد يسقط فيها الإنسان. إذ يتقدّم الصحفي في تلك اللّحظة ليسجّل سبقًا صحفيًا، ويدير البوصلة في اتجاه معاكس للتّصر. إلا أنّ محاولته باءت بالفشل نتيجة وعي الشّخصيّة: «وشممت في رائحة سؤاله خبثًا... هذا الرّجل يبحث عن صيد ثمين، إنّه يركّز على الخسائر المادية»<sup>(٤)</sup>.

كما يبرز التّحدّي في قصّة (حنين القصب)، في مشهد الفلّاحة المجاهدة «أمّ محمّد» التي تشقى في سبيل إعالة الأيتام بعد وفاة زوجها. أبت هذه المرأة أن تترك أرضها بورًا لمجرّد قربها من مواقع الاحتلال، فذهبت لزراعة التّبغ مع ولدها «محمّد»، متحدية لعادة التّمشيط التي يمارسها الجنود يوميًا من مواقعهم العسكرية، لتطال هذه الرصاصات الغادرة

مصحوبًا بالوعي على مستوى الشّخصيّة، ولا يتوقف الوعي عند حدود الفرد، بل يتخطّاه إلى الوعي القومي، والعربي. ففي قصّة (الزفة - لحظة فرح نادرة)، نجد أنّ الشّخصيات تعلن التّحدّي من فوق الرّكّام، وحطام بيوتها التي دمّرتها طائرات العدو الصهيوني في حرب تمّوز ٢٠٠٦، وتنظر إلى الأفق، إلى أبعد من حدود الذات، إلى الجماعة.

تبدأ القصّة على لسان الرّاوي: «انحنيت، قبّلت الأرض، ثم وقفت شامخ الرأس، شاكرًا لله تعالى على رعايته، عودتنا أعزة إلى أرض الضّاحية الجنوبيّة من بيروت»<sup>(١)</sup>. هي وقفة شموخ وعزّ. فعلى الرّغم من التّدوير، والتشرّد الذي سيعانيه هؤلاء العائدون إلى بيوتهم المدمّرة، إلا أنّنا نلحظ الشّموخ، والعزّة، ونشوة الانتصار في تعابيرهم. إنّها شخصيّة واعية لمشروع الجماعة: «هل لك أن تثمّني رمزيّة هذه الوقفة هنا؟ معناها أنّنا استطعنا كسر مشروع تهجيرنا من هذه الأرض، من هذه الديار، وهذا الوطن»<sup>(٢)</sup>. إذًا، يحتفل الناس العائدون بعد الحرب بالنّصر لأنّهم أسقطوا مشروع إسرائيل وحلفائها في المنطقة، مشروع تهجيرهم من أرضهم وإبعادهم

(٢) م. ن. ص ١٥.

(٤) م. ن. ص ١٨.

(١) شارة جديدة للنصر، م. س. ص ١٥.

(٣) شارة جديدة للنصر م. س. ص ٢١.

والهادفة ابنها «محمد» فيسقط شهيداً على أرضها، وكأنها أرادت أن تقدم قربانا لهذه الأرض، يزيد من تشبثها بها أكثر، فكان ابنها فلذة كبدها.

## ٢ - قوة المرأة:

لم يكن للمرأة العاملة في ميادين الجهاد ومجتمعات المقاومة دور عادي. بل كان دورها موازياً لدور الرجال المقاومين وأكثر. كيف لا، وهي التي ربّت المقاومين، وأنجبت الرجال، وجبلت عقولهم، وقلوبهم، بحبّ الأرض وعشق المقاومة والجهاد.

تبدو المرأة الجنوبية التّكلى بفقد ولدها وزوجها على أيدي جنود الاحتلال الصّهيوني ظلماً وعدواناً، قوّة الإرادة، تُحسن التّدبير، وتنتهز الفرص لردّ مضاعف، يُعيد إليها بعضاً من قوّتها المستترة في حضور الرّجل، والمستعرة انتقاماً وثورة في غيابه.

قاربت «أم محمد» في قصّتها المعنونة باسمها بين مشهدين: الأوّل: مشهد الخنازير التي أكلت حبّات البندورة فحكّم عليها «أبو يوسف» بالموت عن طريق وضع السمّ لها، وبين مشهد الصّهاينة القتلة الذين قتلوا زوجها، ولدها، فاستحقّوا الموت أسوة بالخنازير المؤذية والمعتدية: «أنا قتل

لي الخنازير ولدي حبة عيني، وزوجي والد عيالي فما هو حكمي عليهم؟»<sup>(١)</sup>. ما هي إلاّ لحظات حتّى قرّرت أن تتأّر للشهداء والمظلومين من هذا العدو المجرم، فذهبت واشترت السمّ، وخطّطت لوضعه في القهوة الصباحيّة واستدراج أفراد الدورية من خلال إغوائهم برائحة القهوة المفعمة بحرارة اللقاء، للتأّر والانتقام: «التأّر قابع في أعماق كلّ جمجمة من جماجم أصحاب هذه الأرض المحتلّة العطشى إلى التّأّر، الطّامحة إلى كسر القيود والأغلال، وصولاً إلى الحرّيّة المنشودة»<sup>(٢)</sup>.

وبالفعل كان لها ما أرادت، وشرب هؤلاء الجنود القهوة، لكنّها لم تكتفِ بقتلهم بالسمّ، بل استلّت بندقية أحدهم وأمطرتهم بوابل الرّصاص فيها. لقد قتلتهم بسلاحهم الموجّه إليها، وإلى الأبرياء من المواطنين. ثمّ ذهبت إلى بلاطات ضريح الابن وضريح الرّوج، كأنها تزفّ لهم بشرى الانتقام، والثّورة، والانتصار، احتضنتها: «وراحت تمسح دموعاً تحسّستها باردة للمرّة الأولى»<sup>(٣)</sup>.

في مسيرة التّحرير في أيّار عام ٢٠٠٠، قد تغيب أحداث عن ذاكرتنا مع مرور الزّمن، ويبقى صوت تلك المرأة الذي

(٢) م. ن. ص ٦٠.

(١) م. ن. ص ٥٦.

(٣) شارة جديدة للتّصرّم. س. ص ٦١.

اختصر المشهد كلّهُ، واكتنز كلّ معاني الحرّية والانعقاد، حاضرًا لا يعرف الغياب: «الحمد لله اللي تحررنا». وثقّت المجموعة القصصيّة هذه العبارة، واستطاعت أن تبقىها في دائرة التّجديد، إنّهُ صوت حقّ يصدح من شغاف الرّوح، وقوّة اليقين، وصدق القول. ثلاث كلمات نطقها امرأة، اختصرت مرحلة كاملة من القهر، والمعاناة، في ظلّ الاحتلال الإسرائيليّ وعملائه.

وهل تكون المرأة الجنوبيّة امرأة عادية حين تلبس ولدها فلذة كبدها بزّة الحرب، وتطلقه إلى ميادين الجهاد، صابرة، محتسبة، مؤمنة بالله، وبطريق الجهاد والشّهادة؟ ففي قصّة (عاشق الأرض والحياة)، يعود المجاهد من جبهة القتال معافى، إلاّ أنّه حزين، يستشعر الغصّة والحسرة، لأنّه لم ينل الشّهادة. يشكو حاله لأنّه ويبيّنها شكواه، لو أنّ الحرب لم تتوقف حتى ينال الشّهادة. فتجيبه هذه الأمّ العظيمة بجبروتها وقوّتها: «رزقك الله على قدر نيّتك يا حبيبي»<sup>(١)</sup>.

من ناحية ثانية، تظهر المرأة التي أوكل إليها مهمّة حفظ الأولاد والأرزاق، مقابل مهمّة الرّجال في القتال، كأنّها المدافع

الوحيد في الميدان، تبذل في سبيل إنجاح ذلك كلّ قوّتها. «الحاجّة سارة» في قصّتها التي تحمل اسمها كغيرها من نساء هذه الأرض المقدّسة، أرض جبل عامل، تسمع الأخبار، تدعو للمجاهدين، وعينها على الأطفال، كيف تحميهم من اجتياح صهيوني غادر. دفعتهم إلى الملجأ المتواضع في البيت، وقلبها يخفق خفقات سريعة، لأنّ الأخبار تتوقّع هجومًا عنيفًا من مواقع الاحتلال، بحجّة البحث عن الشباب المقاومين، باعتبارهم مخزّبين ويجب قتلهم من قبل العدو. وحين أراد الجنود فتح فوهة الملجأ، تصدّت لهم وبدت: «مثل لبوءة تدفع الأذى عن أطفالها»<sup>(٢)</sup>. حينها رمى الجندي علبه غاز سام. ولمّا رأت «الحاجّة سارة» أطفالها يخرجون جاحظي العيون يسعلون سعالًا حادًا: «هجمت على الجندي وأنشبت أظفارها في وجهه محاولة الانتقام»<sup>(٣)</sup>. أخرجوها عنوة مع الأطفال، وفجّروا بيتها، لكنّها لم تضعف. وفي لحظة مثلت جسر عبور إلى الغد الواعد، نظرت ناحية المقاومين الذين يفجّرون آليات العدو الغاصب و«فرشت ذراعيها فوق رؤوس الأبناء خشية أن تُجهز الحجارة المتساقطة عليهم»<sup>(٤)</sup>.

(١) م. ن. ص ٧٥.

(٢) م. ن. ص ٧٩.

(٣) م. ن. ص ٧٨.

(٤) م. ن. ص ٨٠.



### ٣ - قوّة الجماعة:

تجمع أبناء جبل عامل ثقافة واحدة ألا وهي ثقافة المقاومة، وحفظ الأرض من الاحتلال، مهما كانت التّضحيات. يتوحدون في قرار مواجهتهم، ويعلنون دعمهم للمقاومة في السّلم والحرب.

في قصّة (شارة جديدة للنّصر) يُظهر السّرد، كيف اجتاحت جموع المواطنين وأبناء الجنوب في ٢٥ أيار عام ٢٠٠٠ القرى المحتلة، وفتحوا بوابة العبور، واستطاعوا طرد الصّهاينة وعملائهم إلى آخر شبر من أرضهم ودخلوا قراهم وعمروها.. إنّها مسيرة التّحرير لشعب يعي جيّدًا معنى الحرّيّة، معنى العزّة والكرامة: «اندفع الجميع، القبضات مرتفعة- النداء متوحّدًا يتعالى: الله أكبر، الأقدام ترسم بثباتها على الأرض الرّمق ٨، مكرّرًا أضعاف المرّات، لم يرفع واحد شارة النّصر المعروفة»<sup>(١)</sup>.

إنّها مرحلة انتقالية إلى معنى جديد من معاني النّصر. استطاع أبناء جبل عامل أن يحرّروا قراهم بتوحدهم، وزحفهم، وثباتهم، وأن يهزموا أقوى جيش في الشّرق الأوسط تحت ضغط قوّة الجماعة المتوحّدة في عزميتها، الثّائرة في تحقيق

مطلبها. لم تنتظر هذه الجموع قرارات دولية، ولا مواثيق وعهود تُعيد لهم قراهم المحتلة، وتضمن لهم حقّ العودة إلى أرضهم، وإلى ديارهم. بل حثّوا الخطى، وشدّوا الهمم، واقتحموا المواقع، ودلّوا الموانع للوصول، معلّنين عن شارة جديدة للنّصر تختلف عن سابقتها التي رُفعت منذ عقود، والاحتلال يتنامى في الأرض المغتصبة. لا يليق بهذه الأقدام الثابتة اليوم في أرضها إلاّ شارة جديدة بوصلتها الأرض وجهتها التّراب إيذانًا بولادة النّصر الموعود.

لقد استلهم الجنوبيّون مواقفهم الجهاديّة الثابتة في أرضهم من قول أمير المؤمنين (ع): «تزول الجبال ولا تزُلّ أعصّ على نأجذك، أعر الله جمجمتك، تد في الأرض قدمك، ارم ببصرك أقصى القوم، وغصّ بصرك، واعلم أنّ النّصر من عند الله سبحانه»<sup>(٢)</sup>. وبالفعل اضطرّ العدو إلى التّراجع والتّقهقر إلى داخل حدود فلسطين المحتلة أمام غضب الشّعب المؤمن بروح الجهاد وقوّة الجماعة: «البوابة مشرعة على مساحات العشق الممتد إلى آخر ذرّة تراب عند الحدود»<sup>(٣)</sup>.

(١) شارة جديدة للنّصر م. س. ص ٨٧.

(٢) الشّريف الرضي، نهج البلاغة، ضبط النص وابتكر فهارسه العلمية صبحي الصالح، دار الكتاب اللبّاني، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٠، ص ٢٣.

(٣) شارة جديدة للنّصر، م. س. ص ٨٨.

#### ٤ - الوفاء:

تقترن كلمة الوفاء مباشرة مع التضحية وذكرها. فكيف بمجتمع المقاومة الذي يزخر بالكثير من التضحيات وواجب الوفاء لها؟ والوفاء نقيض الغدر والخيانة، فالعدو الإسرائيلي عدو غادر، من شيمه الغدر، لا يؤمن جانبه، والوفاء من شيم المقاومين، الأوفياء للجرحى، للشهداء، للدماء التي بُذلت على أرض عامل، لتحريرها من دنس الاحتلال الصهيوني.

تجسد الوفاء في مواقف متعددة للشخصيات في هذه القصص، ففي قصة (خيوط الفجر)، يظهر «علي السيد محمود» متأملاً بفرح، ونشوة الانتصار، انسحاب العدو من أرضه، وإخلاء مواقعه العسكرية التي تحيط بقريته. وهو الذي طالما تجرّع الخوف القاتل منها مرّات ومرّات، كغيره، من أبناء هذه المنطقة الذين عانوا القهر، والخوف، المعاناة، والظلم، وقتل الأبرياء بسبب هذه المواقع المغروسة عنوة في أرض الجنوب. وعلى الرغم من عظمة المشهد وهول المفاجأة، لم يبقَ «علي السيد محمود»، غارقاً في تفاصيل هذا المشهد من دون حراك يمجد الانتصار من مكانه. بل انتفض بقوة ومن أعماق وجدانه إلى صنّاع النصر الحقيقيين، إلى الشهداء، إلى المقبرة

لزيارتهم وإهدائهم هذا العزّ الذي صنعوه بدمائهم، وأجسادهم الزكية الطاهرة. إنّه الشّعور بالوفاء الذي حرّك «علي السيد محمود» إلى المقبرة متمهياً مع الشهداء في قبورهم، يحدثهم، يبثّهم شعوره بالفرح والانتصار والتحرير حتّى: «راحت بلاطات قبور الشهداء تتشقق.. الله! أيّ معجزة هذه، فرحة الشهداء بالتحرير تشقق بلاطات الأضرحة.. صرخ: «بل أحياء عند ربهم يرزقون»»<sup>(١)</sup>.

احتار الضابط ورجال الأمن في قصة (رسام من هذا الزمان)، من «ماجد» الذي لا يحمل شيئاً بيديه، ومع ذلك فإنذار آلة التفتيش لا يهدأ لدى مروره من خلالها. إنّه الجريح الذي قاوم الاحتلال، وقدم أعضاء جسده قرباناً لهذه الأرض، زرعها في أنحاء الوطن، واستبدل بها سفوداً معدنية جعلته محط شكّ أمام آلة التفتيش، ورجال الأمن في بلاده. حينها، اعترى الضابط شعور بالعزة، والوفاء، لهؤلاء الجرحى الذين حموا خارطة الوطن، تقدّم منه قائلاً: «أسمح لي يا عزيزي أن أتبرك من خطوط الطول والعرض تلك التي حمت خارطة الوطن؟ أسمح لي أن أقبل جراحك الطاهرة يا أخي، أسمح؟»<sup>(٢)</sup>.

(١) شارة جديدة للتصر م. س. ص ٢٧.

(٢) م. ن. ص ٣٦.

يتجلّى الوفاء بصورة ردّ القليل من الجميل لهؤلاء الجرحى، أقلّها برفع الأذى وعدم نكء جراحهم كلّما مرّوا في مكان للعبور عبر آلة التفتيش. وما المانع من حفظ كرامتهم وإبعادهم عن موضع الشك المؤلم لهم، وذلك بمنحهم بطاقة عرفان ووفاء لتضحياتهم العظيمة. هي أمنية تتمتها الضابط في سرّه ومضى: «أتمنّى على هذا الوطن.... أن يتشرّف بمنحك بطاقة عرفان بما بذلتموه في سبيل عزّته وتحريره، تبرزونها عند الحاجة كي لا تنكأ جراحكم عند كلّ مغادرة»<sup>(١)</sup>.

وفي قصّة (الخيول الأصيلة لا يستغنى عنها أبداً)، تبرز قيمة الوفاء للمقاومين الأوائل الذين أسّسوا للنصر ومسيرة التحرير. إذ يظهر الرّأوي في هذه القصّة من خلال السرد مخاطباً ومواسياً «أبا عباس» الذي يشعر أنّ دوره قد انتهى بعد التحرير، بوجود أشبال المقاومة أصحاب الشّهادات، إذ تحتاج المقاومة إلى علومهم وما يتقنون، بأنّه العمود الفقري للمعركة القادمة، وأنّه لن يستغنى عنه: «فأنت من ينقل الأعتدة، ومن يذخّر، ومن يوظّب»<sup>(٢)</sup>. وفي هذا إشارة إلى الوفاء للمقاومين الأوائل الذين كان لهم دور رئيس في صناعة النصر، وتحرير الأرض والإنسان.

ولم يقتصر الوفاء على الأحياء من المقاومين، بل طال الشّهداء الذين استشهدوا فداءً لتحرير أرضهم. أقلّ العرفان والوفاء أن تُدفن جثامينهم الطاهرة في قراهم بحسب الوصيّة: «إذا وافتني المنية قبل تحرير بلدتي الحبيبة القنطرة ادفنوني على سبيل الوديعة...»<sup>(٣)</sup>. حينها زحفت الجموع متّحدة إيماناً، ووفاءً لدماء الشّهداء، وواجب تنفيذ وصية الشّهيد مهما غلت الأثمان.

وليس أقلّها أن يكون الوفاء سمة الكاتب الذي ينهج نهج المقاومين ويسطره في كتاباته. يقرّ ويعترف بالوفاء لهم أنّ قصصه قد خطّها الأهل قبله بالدماء والعرق على الأرض: «هذه القصص كتبها الأهل بدمائهم وعرقهم ودموعهم على الأرض قبلي...»<sup>(٤)</sup>. إنّ تدوين وتاريخ مسيرة المقاومة والمقاومين والشّهداء يعبر عن أشدّ الوفاء لهذا النهج، لأنه حفّظ لها ولجمهورها تضحياتها، وعطاءها، ورؤاها، من جيل إلى جيل.

#### خامساً: القيم الايديولوجية في «شارة جديدة للنصر»:

تتنوّع القيم الايديولوجية وتتفرّع في المجتمعات كافّة، وتتغيّر بحسب القضايا،

(٢) شارة جديدة للنصر م. س. ص ٥١ - ٥٢.

(٤) م. ن. ص ٦٤.

(١) م. ن. ص ٣٦.

(٣) م. ن. ص ٨٥.

والغايات، والأهداف التي تسعى إليها هذه المجتمعات: «ليست الايديولوجية قوّة غامضة ومجهولة الاسم تشجّع الحشود، بل على العكس من ذلك، هي غالباً تنتج عن تصرف استراتيجي. كما تتدخل بفعالية على مستوى تحديد الغايات، والوسائل التي يتعيّن استخدامها وبدونها لا يوجد عمل»<sup>(١)</sup>. ظهرت في «شارة جديدة للنصر» مجموعة من القيم الايديولوجية، نذكر منها:

#### ١ - عشق الشهادة:

الشهادة أسمى مراتب المثل العليا، وهي «فعل إرادي له دافعه الاعتقادي لتحقيق ما هو واجب، حيث يكون بقاء ذلك الشيء أسمى من بقاء الإنسان»<sup>(٢)</sup>.

في أرض عامل، أرض المقاومة والجهد، أرض العطاء والوفاء والتضحيات، أرض عشاق الشهادة، يسري عبق الاستشهاد في أنفاس المجاهدين، يزيدهم عزيمة وقوّة في مواجهة الاحتلال، واجتثاث مواقعهم العسكرية عن أرضهم. يتّضح ذلك من عنوان قصّة (عاشق الأرض والحياة)، بطل القصّة شخصيّة مثقّفة، المحامي «علي» وقد بات على موعد لمناقشة

تربّي «علي» على ثقافة الاستشهاد، فهو ابن شهيد ويُدرك جيّدًا هذه الثقافة، يُؤمن «علي» بأنّ الشهادة مشروع الفرد، أمّا النّصر فمشروع الجماعة، يخاطب والده الشّهيد بقوله: «أنت علّمتني أنّه لا قيمة للقانون، ولا للعلوم، والآداب إذا صرنا لاجئين بلا وطن»<sup>(٤)</sup>. وعندما يعزم على الذهاب إلى الجبهة، يلتفت إلى أمّه قائلاً: «سامحيني، لقد نادتنني الأرض الغالية التي هي أمّي أمّك وأمّنا جميعاً...»<sup>(٥)</sup>. تتكّدس المعاني في موقف «علي» لتعبّر عن ثقافته، فعبق الاستشهاد يفوح بعشق الشهادة أولاً، لأنّ الأرض هي أمّنا جميعاً وفي عقيدتنا أنّ الأمّ حين تنادينا، نترك كلّ شيء ونذهب إليها.

(١) جيل فيريول، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة أنسام محمد الأسعد وبسام بركة، بيروت، دار البحار، ط١، ٢٠١١، ص١٠٦.

(٢) عبد الكريم صالح الحبيب، البنية الجمالية في شعر منيف، مكتبة صادر ناشرون، ط ١، ٢٠١٠، ص١٥٢.

(٣) شارة جديدة للنصر، م. س. ص٧١.

(٤) م. ن. ص ٧٢.

هذه الشَّخصية المثقَّفة، المتلهَّفة، والمتعطَّشة للاستشهاد دفاعاً عن الأرض وصوتاً للعرض، يعترئها الحزن، والكمد، والغصَّة، لأنَّ الحرب أوشكت على الانتهاء ولم تنل شرف الشَّهادة: «رَبِّي دعوتك أن تمنحني شرف الشَّهادة، وأن تشرفَّ أسرتي بالانضمام إلى عوائل الشَّهداء.. رَبِّي إنَّها الفرصة التي نذرت لها...»<sup>(١)</sup>. لا تكتفي بالشكوى لله بل تتوسَّل إلى الله أن يستجيب دعاءها: «اللهم اكتبني في أعلى عليين مع الشَّهداء الأبرار إن لم يكن ذلك الآن، ففي أقرب فرصة يا ربَّ العالمين»<sup>(٢)</sup>.

ترمز هذه الشَّخصية إلى الشعب الأبوي العاشق للشَّهادة والذي يسعد بنيلها. فهو «الحاج عبد رشيد» في قصَّة (حنين القصب) الذي شهد مصرع الفتى اليتيم ابن الرابعة عشرة برصاص الاحتلال، تثور حميَّته لهول ما رأى. الجندي الإسرائيلي يمنع أيَّ سيَّارة من العبور لإنقاذ الفتى، يتقدَّم «الحاج عبد رشيد» من الجندي وهو يردد في سرِّه: «إن أرادني هذا التلمودي شهيداً فأنا سعيد بهذه الشَّهادة»<sup>(٣)</sup>.

فالثقافة العقائدية التي تجعل من موضوع الشَّهادة بهذا الحجم من الجذب والانجذاب إليها، تشترك فيها عدَّة عوامل

دينية، واجتماعية، تربى الفرد على عشقها وباتت منظومة في منطق تفكيره نسقاً من الأفكار العقائدية، لا نزاع فيها، ولا جدال. فالشَّهادة لا تعني الموت بل الحياة، ومنزلة الشَّهيد لا ينالها إلا من اختاره الله ليكون في أعلى عليين. وقد أشار «علي» أن هناك فرق بين الاستشهادي والانتحاري: «الناس يتصوِّرون أننا انتحاريون، عشاق موت، في حين نحن عشاق حياة، عشاق عيش كريم..»<sup>(٤)</sup>.

## ٢ - قيمة الشَّهداء:

تربى أبناء جبل عامل على قيمة الشَّهداء وقد استهم في المجتمع. قلماً نجد في هذا المجتمع من لا يفقه، ويُدرك عظمة الشَّهيد في أهله، ومنزلته عند ربِّه، وأنَّ الشَّهادة أنبل ما يمكن أن يختتم الإنسان بها عمره فيمضي شهيداً.

تظهر في «شارة جديدة للنَّصر»، إشارات جليَّة إلى أهمِّية الشَّهداء، وعظمتهم في نفوس من حولهم. وليس هناك أعظم من وجود آيات في القرآن الكريم تدلُّ على هذه العظمة والتي استخدمها الروائي بهدف تعميق الأبعاد الروحية، والمعنوية، والفكرية، لمنزلة الشَّهداء في الفكر العملي المقاوم.

(١) م. ن. ص ٧٤.

(٢) م. ن. ص ٣١.

(٣) م. ن. ص ٧٤.

(٤) م. ن. ص ٧٤.

يذهب «علي السيّد محمود» في قصّة (خيوط الفجر)، لزيارة الشّهداء في المقبرة تقديرًا لتضحياتهم، وإهدائهم فرحة التّحرير، وإن كانوا تحت التّراب فهو يعلم أنّ الشّهيد لا يموت. وهذا ما بيّنه السّرد، حين وصف كيف أخذت بلاطات الشّهداء تتشقق في لحظة تماهى فيها «علي السيّد محمود» وفاض وجدانه ليصرخ مباشرة: ﴿بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْفُؤْنَ﴾<sup>(١)</sup>. فمن يمسي شهيدًا ليس شخصًا عاديًا، إنّما هو متميّز عن غيره بصفات، ومزايا تقرّبه من منزلة الشّهداء، وتجعله أهلًا لها. «الحاج القائد» في قصّة (مقبرة) أضحى شهيدًا. لم يكن شخصًا عاديًا هامشيًا. لقد أشار السّرد إلى مزايا «الحاج القائد»، وهي مزايا أهل الحقّ، وصفات الشّهداء. إنّهُ الايمان الرّاسخ قولاً وفعلاً، يتّسم بالتواضع، والإيثار، وعشق تراب الوطن، ثقته برّبّه عالية جدًّا، هو معه دائماً ولن يخذله، هذا وعد الله على الأرض: ﴿وَرِيدٌ أَنْ نَمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضِعُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾<sup>(٢)</sup>.

يقدر المجتمع العاملي أسرة الشّهيد، ويحتضنها بكلّ فخر، يغبطونها على هذا الشّرف الرّفيع الذي حظيت به، أن يكون من

أبنائها من قضى شهيدًا، فذلك هو الفوز الأكبر. والحسرة والألم لمن حرّمه الله هذا الفوز العظيم. يشكو المحامي «علي» همّه إلى أمّه بأسف، وحسرة، بأنّها حرمت من الانضمام إلى عوائل الشّهداء: «أمّي، حرّمك الله الانضمام إلى عوائل الشّهداء...»<sup>(٣)</sup>

### ٣ - ثبات العقيدة والولاية:

من السّهّل أن تقتلع شعبًا من أرضه إذا كانت عقيدته مزعزعة. أمّا أبناء جبل عامل فهم عقائديّون في مقاومتهم، ثابتون في قرارهم، يدركون عدوّهم جيّدًا، ويحاربونه عن عقيدة ثابتة لا لبس فيها. إنّهم واثقون أنّ مشروع الصّهاينة هو احتلال أرضهم، وتهجيرهم، حتّى قتلهم وإبادتهم. لأنّ هذا العدو يتّبع تعليمات الحاخامات في تثبيت عقيدتهم الإجرامية: «اقتلوا كلّ طفل وامرأة ورجل وأتان...»<sup>(٤)</sup>.

يستمدّ الشّعب الجنوبيّ، الشّامخ بعزّته وكرامته، الصّبر وجرأة المواقف، والإقدام بثبات وعزم، من مدرسة كربلاء الامام الحسين(ع). يستلهمون منها الصّبر على البلاء، ومحاربة الظّلم، ويمضون في ركب الشّهداء. كذلك، يستمدّ المجاهدون والشّهداء قوتهم، وسرّ خلودهم منها، فهم أبناء الإمام الحسين(ع)، يؤمنون بأنّ الشّهداء أحياء

(١) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

(٣) سورة القصص، الآية: ٥.

(٤) م. ن. ص ٣١.

عند ربّهم: «أنا مؤمن أنّ أرواحهم في سدرة المنتهى»<sup>(١)</sup>، فهم لا يهابون الحرب، ولا يخشون الموت، وإن مضوا قضاوا شهداء. فإمّا النّصر وإما الشّهادة. في قصّة (من يبيع التّكلى ذرّة صبرًا) وجد الرّاوي أنّ عزاءه الوحيد، لأخته العزيزة التي فقدت ولدها، فلذة كبدها، أنّه التقاها في يوم يُصادف أربعين الامام الحسين(ع)، فاستلهم كلّ المعاني التي تعينه على العزاء، والمواساة من هذه المدرسة الحسينيّة: «اليوم في الجامعة اقتربت منها، وهو يوم يصادف أربعين الامام الحسين(ع) اغتنمتها فرصة سانحة لأبيعتها ذرّة صبرًا»<sup>(٢)</sup>.

أرض فلسطين»<sup>(٤)</sup> مهما بذلوا من الدّماء. فالصّهيوني ظالم، ومجرم، ومفتر، وفي عقيدة المقاومين أنّ الحرب مع الصّهاينة هي بأمر من الله: «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل تُرهبون به عدوّ الله وعدوكم»<sup>(٥)</sup>، وأنّ الله سيبارك هذا النّصر، بل هو نصر إلهي مؤرّر، إنّه وعد الله على الأرض.

يُردّد المقاومون عبارات القائد السيّد، وكلّ ما يقوله لا مرأى فيه، يتلقّونه حقيقة خالصة لا تحتاج إلى تمحيص، أو تدقيق. إنّها الولاية المطلقة لقائد يثقون به، وبغيرته على أعراضهم، وأرضهم، وممتلكاتهم، حتّى على دمائهم، وأرواحهم. فعلى الرّغم من الخسائر الماديّة، وقتل الأبرياء والشّهداء التي مُني بها الجنوبيّون في حرب تمّوز ٢٠٠٦، إلّا أنّنا نشهد قول امرأة من خلال السّرد لتقول: «كلّ شي فدا اجر السيّد»<sup>(٦)</sup>. جباههم مرفوعة، مقتنعين حدّ اليقين بقول السيّد «زمن الهزائم قد ولى»<sup>(٧)</sup>.

ففي عقيدة العاملي، الرّكوع لا يكون إلاّ لله. هؤلاء المقاومون أعاروا الله جماجمهم فأعزّهم المولى بفضله: «رأسي، أحسّ لأوّل مرّة، أنّه عال...وكنّت آليت على نفسي ألاّ أخفضه إلّا ساجدًا لله سبحانه، فمن يسجد لله الواحد الأحد، يتحرّر من أشكال العبوديّة كلّها»<sup>(٣)</sup> لذا، مهما بذل المقاومون الجنوبيّون من دماء فإنّهم ماضون في طريق النّصر حتّى تحرير فلسطين، حرّروا أرضهم، وعينهم على تحرير القدس من دنس الاحتلال و«تحقيق الفجر البهيّ على

(٢) إشارة جديدة للنّصر م. س. ص ٨٣.

(٤) م. ن. ص ٢٧.

(٦) إشارة جديدة للنّصر، م. س. ص ٤٢.

(١) م. ن. ص ٢٧.

(٣) م. ن. ص ٢٦.

(٥) سورة الأنفال، الآية: ٦٠.

(٧) م. ن. ص ٤٤.

٦ - المطهري، مرتضى، أنسنة الحياة في الإسلام، دار الإرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، لبنان، ط١، ٢٠٠٩.

٧ - يعقوب، غسان وآخرون، أطفال الحرب في لبنان، دار النهار للنشر، لبنان، ط١، ١٩٩١.

رابعاً: المراجع الأجنبية المترجمة:

٨ - لينفلت، جاب، مقتضيات النص السردى الأدبي، ترجمة رشيد بن حدو، ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط١، ١٩٩٢.

٩ - تودوروف، تزيفيتان، مقولات السرد الأدبي، ترجمة الحسين سبحان وفؤاد صفا ضمن كتاب طرائق تحليل السرد الأدبي، منشورات اتحاد كتاب المغرب، الرباط، ط١، ١٩٩٢.

١٠ - بوتور، ميشال، بحوث في الرواية الجديدة، ترجمة فريد أنطونيوس، بيروت منشورات عويدات، ط٣، ١٩٨٦.

خامساً: المعاجم العربية والأجنبية:

١١ - J.P.Chaplin Dictionary of psychology. New York, Dell 1971

١٢ - فيريول، جيل، معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة أنسام محمد الأسعد ويسام بركة، بيروت، دار البحار، ط١، ٢٠١١.

سادساً: المجالات والدوريات:

١٣ - عالم المعرفة، في نظرية الرواية، الكويت، العدد ٢٤٠، ط١، ١٩٩٨.

المسيرة على الرغم من الضغوطات التي تتعرض لها، ولا تزال، خير دليل على قناعاتها الراسخة، بما تحمله من أفكار، ومثل عليا واتجاهات، تسير بها للارتقاء بمجتمع الانسان أكثر فأكثر، إلى الحرية والاعتاق من القيود، وأصفاة الذل، وتحقيق الفجر الموعود على أرض فلسطين المحتلة...

## المصادر والمراجع

أولاً: الكتب المقدسة: القرآن الكريم.

ثانياً: المصدر الأساسي: حجازي، علي، شارة جديدة للنصر، شركة دوق العالمية للطباعة، بيروت، دار المعارف الحكيمية، ط١، ٢٠١٨.

ثالثاً: المراجع العربية:

٣ - الحبيب، عبد الكريم صالح، البنية الجمالية في شعر منيف، مكتبة صادر ناشرون، ط١، ٢٠١٠.

٤ - الرضي، الشريف، نهج البلاغة، ضبط النص وابتكر فهارسه العلمية صبحي الصالح، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط٢، ١٩٨٠.

٥ - العشماوي، محمد زكي، الرؤية المعاصرة في الأدب والتقد، دار النهضة العربية للطباعة، لبنان، لاط، لا ت.



## مقابلة الشاعر شوقي بزيع

أسرة تحرير المجلة

الشعري، ليس فقط كجغرافيا، بل كتراث وخصوصية جبل عامل، الخصوصية التاريخية والخصوصية الروحية، وعلاقتك بالتراب المقاوم في الجنوب، جغرافية المقاومة؟

- أنا أفضل فصل السؤال المتعلق بالمقاومة لأنّ لديّ وجهة نظر مختلفة، وموضوع مختلف سنتحدث عنه لاحقاً. سأبدأ بمرحلة التكوّن لأنّه بنهاية المطاف أي فعل، أي ظاهرة، أي كائن يحتاج دائماً إلى مسرح مُلائم يهيئه لأدوار ما قد تفرضها عليه موهبته، أو الطبيعة، أو عبقرية المكان، أو أسئلة ذاتية من داخله، ولكن لا تتبلور إلّا في ظل لحظة مؤاتية ومكان ملائم. أنا أعتبر أن الجنوب هو من الأماكن التي لم تلهمني فقط القدرة على الكتابة والإنصات إلى ما يأتي من اللامرئي من عناصر الشغف باللغة، ومن عناصر التساؤلات الوجودية وسواها، والتي ألهمت جيلاً كاملاً من الشعراء، حتى أكاد أقول

الشاعر شوقي بزيع شاعر مجيد، وذو مكانة عالية بين شعراء الحداثة، عرفته المواقع الشعرية المتقدمة في لبنان وفي الوطن العربي، وهو ذو حضور مميز في الساحة الشعرية اللبنانية، إنه ينتمي إلى جيل من شعراء الجنوب اللبناني الذين كانت قضيتهم تتصل بعمق الصراع مع العدو الصهيوني، بحكم الجغرافية والوعي والثقافة الملتزمة بقضية الإنسان الذي يعاني، ويجيد نقل معاناته إلى الكلمة، إن الشاعر شوقي بزيع لا يمكن أن تتصوره خارج دائرة المبدعين في الشعر العربي المعاصر.

وفي لقاء حميم مع الشاعر شوقي بزيع أجرت الدكتورة المثقفة هالة أبو حمدان والشاعر عمر شبلي هذا الحوار الشعري، والذي تناول قضايا الشعر المتصلة بتجربة الإنسان العربي المعاصر.

● الأستاذ عمر: نسأل السؤال الأساسي، عن علاقتك بالجنوب والقريبة الجنوبية، ومدى تأثيرها في تكوينك

الارتفاع، هضاب ذات طبيعة أنثوية من جهة باعتبارها محدودة تماماً كالجسد الأنثوي، ومن جهة ثانية ذكورية من حيث متانتها وصلابتها، أرض مفتوحة مملوءة بشتى أنواع الغابات والنباتات البرية، (أتكلم عن قريتي زبقين في قضاء صور)، وكل شيء موصول بالمطلق، بالسما، بالبحر، باللانهاية. ترى حدود جبل الشيخ من عندنا لأنها هي قرية تعلق ٥٠٠ متر عن سطح البحر، البحر المتوسط غرباً، والحدود الفلسطينية جنوباً، ومشارف الصرفند شمالاً. هذه الرقعة من المرثيات والروائح والأشكال والمُتَمَع البصرية، شكَّلت فعلاً ظهيراً لتجربتي الشعرية كما لسواي. وطبعاً لا أستطيع أن أفصل هنا أيضاً العوز والفقر الذي تربيت في ظلاله، لأننا كنا نعيش وما زلنا من زراعة التبغ، وهي لا تكاد تكفي لسدِّ الرَّمق. هي زراعة تتطلب عملاً يوازي أربعة عشر شهراً متواصلاً مما يدخل السنوات بعضها ببعض. تصوّر الموسم لا يكاد المزارع يلتقط أنفاسه أو يأخذ أيّة فرصة للراحة. وليس بالمصادفة أن تكون هذه النبتة مُرّة. فهي مُرّة في حال تذوّقناها، خضراء كما نعلم، وكأنها تعكس مرارة العمل الشاق الذي تتطلّب من أجل أن تتحوّل إلى متعة أو إلى سيولة نقدية.

في ظل هذه البيئة الزراعية نَموت، وكنتم على المستوى الشخصي أيضاً أشارك

أجيالاً كثيرة، لأن جيلنا لم يظهر إلى العلن إلا بعد أن سُلط عليه الضوء لأسباب غير شعرية أي بسبب وجود الجنوب على خط التماس المباشر مع العدو الإسرائيلي، وكان يهتم الإعلام في ذلك الوقت والقوى السياسية التي ننتمي إليها بأن تُظهر الوجه الثقافي للجنوب اللبناني تماماً كما حصل قبل ذلك مع المقاومة الفلسطينية. ولكن الجنوب ينبوع لا ينضب من الشعريات التي تتدفّق منذ مئات السنين حتى اليوم. وهذه الشعريات أقامت في الظل ولم يُسلط الضوء عليها لأسباب أيضاً ذات طبيعة سياسية، وتجزئة المنطقة والوجود الجغرافي الرجراج للجنوب الذي كان يتأرجح بين ولايتي عكا ودمشق وغيرها.

المكان الجنوبي فعلاً يمتلك عبقريته الخاصة ويعطيها لساكنيه، وهي متّصلة بهذا الدمج الاستثنائي الفريد ما بين صلابة الجبال ورحابة البحر لانفتاحه على البحر.

● (يُقاطعه الأستاذ عمر بالسؤال: الذاتية الجنوبية نريد أن نخبرنا عنها. التريبة الأساسية لك، الذاتية التكوينية «البيت- الأب» وما إلى ذلك فهؤلاء طبعاً أثروا بك أيضاً؟

- بطبيعة الحال، ولكن ما أريد قوله أن الجغرافيا الجنوبية التي هي مزيج من صلابة الجبال، ومن رحابة البحر باعتباره مفتوحاً على البحر هضاب متوسطة

البكاء الذي يأتي من جميع الجهات. فالمعروف أن النساء عادةً يبكين، ولكن أن ترى رجالاً يبكون ويلطمون صدورهم ويفجّون رؤوسهم أحياناً من أجل أناسٍ قضوا منذ ألف عام، من أجل دم يرفض أن يتخثر، يبقى طازجاً وسائلاً بشكلٍ مستمر. من أين تأتي كل هذه القدرة وهذه الصلابة الروحية التي تمنح هؤلاء الناس هذه المشاعر الجياشة باستمرار. طبعاً كل ذلك أثر في قصيدتي في هذا الشجن الغنائي الذي كان يطغى على قصيدتنا كجنوبيين.

#### ● د. هالة أبو حمدان: هل تعتقد أن هذا التأثير كان على كل شعراء الجنوب؟

- لا.. كان أوضح منه عندي وعند محمد علي شمس الدين من شعراء آخرين مثل حسن عبدالله أو جودت فخر الدين أو الياس لحدود. طبعاً الياس لأنه.. حتى لو لم يكن ينتمي إلى المذهب والمجالس الكربلائية، ولكن أحياناً البيئة تخلق مناخات مشتركة حتى لو كان الناس ينتمون إلى طوائف متغايرة، ولكن أعتقد بأن تكويني أنا الشخصي هو تكوين رومانسي، وتكوين عاطفي وغنائي، وبالمناسبة أنا كنت في صغري أمتلك صوتاً فيه الكثير من الشجن والحنان بما يكفي أن أقرأ بعض مجالس العزاء، وكنت طفلاً في العاشرة كنت أقرأ مجالس عزاء، وكان الناس يبكون لبكائي أكثر مما يبكون على الحسين، كنت أقرأ

العائلة في قطاف التبغ، هو مشهد ملحمي كما أعتقد، تصوّر أن الساعة الرابعة فجراً حسب التوقيت أو الخامسة فجراً تهبط في الآن ذاته مئات الآلاف من الأيدي على شتلة التبغ ويُسمع صوت صفير خاص للقطاف ولعلاقة الجسد بالنبات، وهذا الشيء يشبه قصيدة يصنعها آلاف الناس. وهذا المشهد هو الذي دفعني إلى كتابة قصيدتي عن الشهيد حسن الحايك، وزرع التبغ في الجنوب، وأنت تذكر أيضاً، وكنت مشاركاً (المقصود قصيدة قمر الجنوب)، وهي قصيدة «يا حادي العيس سلّم لي على أمي» ومنها: «وكان يُراقص شتلة تبغ / ويجذبها صوب كفيّه...». فهذه لم تأتِ مصادفةً، ولكنها كانت نتيجة هذا الشعور بمعاناة الجنوبيين الذين يحصلون على قوتهم اليومي بكل أنواع الجهد والتعب والكبح.

أيضاً كربلاء كان لها دور بمعنى هذا العمق الحزين للفاجعة الكربلائية، وليس بمعناها المذهبي الضيق، ولكن بمعناها الإنساني العام. كيف قلة قليلة أمام جيوش جرّارة، كيف تواجه بالقليل من السلاح ومن الأجساد كل هذا الجبروت المُقابل، طبعاً بالنسبة لي لم أكن أعني الواقعة في تلك الفترة، كنت أعرف ان هناك أناساً قضوا على مذبح الدفاع عن الحق، وعن العدالة وعن الكرامة الإنسانية، ولكن طبعاً كُنّا - كما تعرف - لا نعرف سبباً مُقنعاً لهذا

وأبكي، كان صوتي يُبكيه وهذا الشيء غريب. طبعاً عدلت عن ذلك فيما بعد لأنني أعتقد بأن الأشياء قد تُقارب من زوايا أخرى، من زوايا التأمل بالأشياء، ومن زوايا تمثّل الواقعة بأعماقها الأبعد وليس بتحويلها إلى طقوس خاصة عندما تكون مُفرطة في المُبالغة والتفجّع.

● الأستاذ عمر: بالنسبة للجنوب، هو مثل فلسطين أي أن الوضع الفلسطيني أعطى الشاعر نقطة على الشاعر في منطقة أخرى، فقد أُعطيت قيمة للشعر الفلسطيني لأنه مقاوم، طبعاً هناك شعراء كبار ومهمون لا نناقش شاعريتهم، ولكن نتيجة المقاومة أعطوا من العطف العربي أكثر من حقهم. هل أثر ذلك عليكم كشعراء في الجنوب لارتباطكم بالمقاومة والأرض؟

- بالتأكيد أثر في البداية خاصة في السبعينيات حيث لم يكن الهاجس لدى الناس والإعلام هاجساً ثقافياً محضاً وإبداعياً محضاً، كان كل شيء في خدمة المعركة، كل شيء يجب استثماره من أجل إثارة الناس ودفعهم إلى الانخراط في المواجهة، وكان هذا مترافقاً مع الصعود الدراماتيكي للواقعية الاشتراكية التي أتت من جهة التحزّبات والمنظومة الاشتراكية والتي أيضاً تمثّلها من خلال الحركات

القومية والإسلامية لاحقاً. كان دائماً الشعر يُلحَق بالأيديولوجيا والفن، ولذلك كان المُلصق يطغى على اللوحة والنشيد يطغى على الأغنية الهادئة الداخلية أو على المعزوفة الموسيقية. مرحلة جيّاشة، والغريب أن هذه المرحلة جاءت في الوقت الذي كانت الحداثة الشعرية أيضاً تذهب إلى أقاصي تجريديتها ومغامرتها، ولذلك حدث نوع من الشرخ. وهذا انعكس في تجربتي على الأخص بمعنى أنني كنت من جهة مُطالباً من التنظيم الماركسي الذي انتميت إليه في تلك الفترة بأن أكتب قصائد مثل أحمد فؤاد نجم لتُغنى، وأنا فعلاً كنت أكتب هُتافات للمظاهرات، ومنهاهتاف «يا حرّية» الذي كان يُردّده الطلاب في المظاهرات الطيّارة، ولكن هذا الشيء مختلف تماماً عن نصّي الشعري، وكنت من جهة أخرى أتلمذ على شعراء ونُقّاد كبار من أمثال أدونيس، خليل حاوي، يمني العيد، ميشال عاصي، أنطوان غطّاس كرم. قامات عالية، فكانوا يأخذونني باتجاه الانتصار للشعر كقيمة فنيّة قائمة بذاتها، وليس باعتباره ذا وظيفة أيديولوجية أو عقائدية مباشرة. هذا الصراع دفعني إلى الاستقالة من التنظيم الماركسي الذي انتميت إليه في وقتها منحازاً لقصيدتي. طبعاً بقيت في مناخ العمل الوطني والحركة الوطنية والانتصار للمقاومة الفلسطينية والمبادئ الكبرى،

ولكن شعرت بأن الجسد الحزبي والعقائدي يضيق أحياناً بالفنّانين الذين يحتاجون إلى كامل الهواء وإلى كامل الحرية وإلى كامل المكان والمسرح المتاح لهم. هم يضيقون ذراعاً بالكرة الأرضية فكيف بتقاليد أيديولوجية صارمة أحياناً.

● الأستاذ عمر: هنا يبرز حالة إذا أعطينا الالتزام الحزبي معناه البوليسي!، مثلاً نأخذ شاعراً مثل ناظم حكمت، أنا من خلال قراءتي له أشعر أن الأيويوجيا لم تقض عليه، بقي في أيديولوجيته لكن كنت أشعر أنه شاعر - وهو يخاطب زوجته أو السجان -، وبالنهاية يقول «وأتيت لابساً قميصي الأحمر». لم يفسده الالتزام - أنا لا أتحدث بالشخصي - ، فأحياناً الالتزام إذا كان بالمعنى الأعمق الذي يتناول قضية الإنسان هنا يكون كل شعر ملتزماً، نحن حين نكتب لا نكتب للحجر والشجر، نكتب للإنسان، إذا بالإطار العام يوجد التزام، لكن الالتزام بمعناه الصحيح، لكن إذا كان للواحد عبقرية كبيرة مثل ناظم حكمت، نيرودا لم يكن كذلك بهذا المستوى، لكن شعرت أن ناظم حكمت لم تفسده الأيديولوجيا.

هنا لا يتعارض مع ما قلته، أنا مع الالتزام الطوعي، الخيار الحر للكاتب،

ولست مع الإلزام ومع فرض نوع من التقاليد الأسلوبية والمضمونية التي تتقيد بهذا البند الحزبي أو ذاك، كما فرض ستالين من خلال وزير ثقافته يومذاك جادونوف، فرض على الأدب السوفياتي هذا النوع من القيود بحيث أن القصائد عليها ان تكون متفائلة حتى لو بالقسر والإكراه، وأن يكون فيها مقادير معينة من التمجيد للعمّال أو الفلاحين، بينما الالتزام هو أمر طبيعي ونحن ننحاز تلقائياً إلى الصرخة التي تأتي بعد الجرح، فكيف تطعنني وتطلب مني أن لا أصرخ، هذه مسألة مرعبة، أحياناً يكون الفن صرخة، ولكن حتى الصرخة أيضاً عندما تدخل في الفن تصبح مختلفة تماماً، يصبح لها جرس خاص ولها مضمون خاص، وتُقدّم بصورة مختلفة. طبعاً أنا لا أوافقك على أن ناظم حكمت أهم من بابلو نيرودا، لأن الأخير أحد أهم شعراء العالم بمعزل عن التقييم لأنه حمّال أوجه، لكن أنا أقول إن كل فن حقيقي يخترق الأسقف الأيويولوجية التي ينتمي إليها دون أن يعي الشاعر أو الفنان، ولذلك عندما سقطت المنظومة الاشتراكية مثلاً لم يسقط معها شعر نيرودا وشعر لوركا وشعر أليوت وشعر أراغون وشعر ناظم حكمت، سقط الذين جعلوا من هذه الأفكار مطية للقصائد الرديئة، ولذلك هم أساؤوا إلى الشعر كما أساؤوا إلى الأفكار التي

ينتمون إليها. وهنا أقول وأردد مقولة محمود درويش الذي قال إن الشعر الجيد يخدم المقاومة أما الشعر الرديء فيخدم العدو.

● الأستاذ عمر: الشعر اليوم.. نحن كنا نقرأ ونحن في الجامعة: أن الشعر صياغة فنية لتجربة بشرية. 'ننا نشعر اليوم في نتاج شعراء كبار دون ذكر الأسماء أن القصيدة لديهم تتحول إلى عمل ثقافي، في فترة من الفترات كان شعرهم فيه لهيب، فأنا أقرأ مثلاً قصيدة عن صقر قريش لأدونيس أشعر أن فيها حالة كبيرة، بينما في مرحلة معينة يمكن أن يكبو الشعر أمام الثقافة، بسبب انعدام هذا الوقود الداخلي والقلق الذي يلاحق الإنسان، أنا أعتقد أن الثقافة بلا وجدان تقتل الشعر رغم أنها ضرورية للشعر، أنا هكذا أشعر..

- موضوع إشكالي جداً ومركّب من عدّة عناصر، الحقيقة أعتقد أن دائماً هناك ما نربحه وهناك ما نخسره في حياتنا وفي تجدّدنا المستمر، في تغييرنا، حتى أجسادنا تتغيّر، إيقاع حياتنا يتغيّر، دورة الدم، الأشياء، الحواس عندما نكون في العشرين تكون متفتّحة ومُتيقّظة، بحيث أن ضوء الشمس كان يبدو لنا أكثر وهجاً وسطوعاً ممّا هو الآن. تذوّق الأشياء، تلمّس

الحياة وعناصرها، كل شيء له وهج خاص. هذا عادةً يُرافق الفنّانين في أعمار مُبكرة، في العشرينات وأوائل الثلاثينات. لكن بعد ذلك هذا يتراجع قليلاً لتحلّ محله الحكمة والمعرفة والتأمّل الداخلي، ولذلك يقول تي. أس أليوت الشاعر الإنكليزي الشهير: إن الشاعر حتى الثلاثين هو يتغذّى من اللحم الحيّ، يتغذّى من انفجار دورة الدم، ومن عناصر الشغف التي تتملّكه وهو شاب، ولكن بعد الثلاثين - يقول - إمّا أن يمتلك الحكمة والمعرفة، وإمّا يكفّ أن يكون شاعراً لأنّه سيُقلّد نفسه وسيجتزّ ما كتبه سابقاً، لكن طبعاً هو لم يدع ولم يُمجدّ خسارة هذا الشغف لأنّه دون هذا الشغف لا شعر ولا أدب ولا فن، وأنا أقول إنه إذا استطاع الشاعر أن يُقيم أو يُقدّم هذه الخلطة السحرية ما بين شغف البدايات والتوهّج المُستمر وما بين التأمّل المعرفي وبين استنباط الأشياء وكنه الأشياء يمكن أن ينجو ممّا تقوله..

● الأستاذ عمر: أنا قرأت جلال الدين الرومي، وشعرت أن شعراء كباراً أخذوا منه وبلا وجد صوفي، وهذا الأخذ أصبح عملاً ثقافياً كما أرى.. جلال الدين الرومي هو جلال الدين الرومي أنا لا أستطيع أن أكون هو.. أنا ترجمت حافظ الشيرازي ولكن أنا لست حافظ الشيرازي، عندما أتعمّد

## أن أكونه لا أستطيع أن أكون شاعرًا...

- نقلنا هنا إلى محل آخر، أنا ما كنت أريد أن أقوله هو أننا نحن نخسر قليلاً من الإيقاع العالي للبدايات من الإنشاد، ولكن نربح مُقابله دخول الشعر إلى مناطق لم نكن قد وطأناها من قبل بحُكم النضج وبحُكم التجربة، وبحُكم قناعتنا بأنَّ وظيفة الشعر ليست فقط نشوة التطريب، ولا الصوت العالي، وظيفته الدخول أيضًا إلى مناطق الأسرار، المناطق الحميمة اللصيقة بالنفس.

## ● د. هالة: ألا تعتقد أنه كلما كُبرت تجربة الشاعر يكبر شغفه؟

- يجب أن ينمو هذا الشغف، ولكن كيف ينمو هذا الشغف...

هو الشعر يسير بمحلّ عكس التاريخ في مكان معيّن خاصةً تاريخ التطور والتكنولوجيا والتقنيّات الذي يبقى سائرًا إلى الأمام، تاريخ العلم. في الشعر هناك تاريخ آخر هو محاولة براءة الأشياء، أو الأشياء في براءتها الأولى اللغة الطفولية، ولذلك دائمًا امتزج الشعر بالطفولة.

كان الفيلسوف الفرنسي باشلار يقول إن الطفولة ليست مساحة زمنيّة معيّنة، ولكنها شيء ينحلّ في داخلنا ويلازمنا إلى ما لا نهاية، - يقول - كل الشعر الذي

تفارقه الطفولة غالبًا يتحوّل إلى نبعٍ ناضب تحفُّ لديه عناصر الكتابة، لذلك ما يحميننا من الوقوع في اليباس التعبيري والوقوع في اللغة الذهنيّة هو هذه الطفولة وهذه الطاقة الحيّة التي تتجدّد في داخلنا باستمرار، طريقتنا في رؤية العالم تظل طريقة طفوليّة ببراءتها مهما كبرنا، أمّا خارج الطفولة فلا يوجد شعر.

## ● د. هالة: وما هو دور الألم خارج طفولة الشعر؟

- الألم لكن بحدود، أي المعاناة كالفقر والألم وفقدان الأمن وسوى ذلك إذا بولغ فيها كثيرًا تصل إلى مكان يصبح الشخص يقيم تحت اللغة، هناك مناطق إذا بلغها الألم لا يعود بمقدورنا أن نُعبّر عنه إلا بالصمت الكامل أو الغصّة أو الشهقة وما إلى ذلك، كأنّ المعاناة التي يتطلّبها الشعراء أو الفن ليست على المستوى من قتل الحياة بالكامل، ولكن فيها شيء من الألم الحسيّ المباشّر المتعلق بالفقر أو فقدان الحرّيّة، فيها ألم وجودي لأنك أنت حتى لو حللت مشكلتك مع العدو أو مع الطبقة الثانية التي تحرمك، لكن كيف نحلّ مشكلتنا مع المرض، مع التقدّم في السن ومع الكره ومع الموت ومع الحب. هذه أسئلة لا تشيخ على الإطلاق، لذلك صحيح أن الفقراء أكثر قدرة أو قابليّة للكتابة لأنّ الفن دائمًا يأتي من فقدان، من الأشياء التي نُعاني منها،

الغياب هو الذي يُحرّض على الكتابة، عندما نفقد الأرض نستدرجها إلى اللغة ونأتي بها إلى القصيدة ويصبح المكان داخلنا من خلال اللغة، وعندما نفقد الحرية نستعيدها في اللغة وهكذا دواليك، حتى الحبيب أيضاً. حتى جميل بثينة العُدري كان يقول لبثينة:

يموتُ الهوى مني إذا ما لقيتها

ويحيا، إذا فارقتها، فيعودُ

● الأستاذ عمر: مشهور «للنصري» قوله: «كلّما اتسعت الرؤية، ضاقت العبارة»، نتكلّم هنا عن الصمت، عندما اللغة لم تعد تسع فتخلق قصّة الرمز والأسطورة المُعبّرة، فمثلاً عندما أقرأ جلامش أشعر أنه يتحدّث عن العصر الذي نحياه اليوم بمدلولاته النهائية يتحدّث عن اليوم، لماذا اللجوء إلى الرمز واللجوء إلى الأسطورة، هل لضعف اللغة أو لعدم قدرتها على حمل الداخل إلى الخارج، أم هي قضيّة مُهيمنة على الشعر؟

– أعتقد أن كل هذه العناصر مجتمعة، أوّلاً اللغة بحد ذاتها هي رموز، ليس هناك من علاقة بين الكلمة وبين مدلولها على الأرض، بين الاسم والمُسمّى، سوى أن هناك بُعد اصطلاحي في الموضوع، وبُعد إشاري إذا شئت، إذّا اللغة هي أصلاً ترميز ما مكوّن من أحرف ومُجاورات تعبيرية وما سوى ذلك، ولغة الشعر أيضاً يُسمونها لغة

في اللغة، أي هو الاتجاه نحو المزيد من التكتيف الذي يُمكن فيه للرمز أن يحل محل الكثير من الحشو والاستفاضة في التعبير من خلال استقدام الرمز. رمز يوسف – على سبيل المثال – يفتح لنا دلالات لا نهائية عن الحديث عن علاقة الجمال بالألم وبالثمن الذي يجب أن يُدفع من أجل استحقاقه، أو ديك الجن وعلاقته بالغيرة وما سوى ذلك، أو... عندنا عشرات الرموز التي يُمكن استحضارها الآن وكل رمز مفتوح على دلالات. ولذلك قيل أن بُنية الشعر في الأساس هي بُنية رمزية أو أسطورية، هناك شيء أسطوري حتى من دون أن يدري الشاعر أنه استقدم الأسطورة، لأنه عندما الشعر يقوم على الانزياح هو قائم على المفارقة في الواقع والمُغايرة بمعنى أن الكلام أو الدال يتّجه نحو مدلولات أخرى غير التي وضعت له سابقاً فهو كأنه يذهب أيضاً إلى مغادرة الواقع باتجاه خلق نماذج ومعانٍ مُختلفة. والأسطورة هي أنّه في غياب العلم كان يُلجأ إليها دائماً لتفسير العالم تفسيراً خيالياً.

● الدكتورة هالة: الأسطورة هي بداية العلم، فأسئلة جلامش عن استحضار نبتة الحياة هي أسئلة معرفية وعلمية.

– صحيح، ولذلك هي في صلب الشعر،



● د. هالة: عندما تحدّثت عن الجنوب، تحدّثت عن علاقتك بالجغرافيا الجنوبية، ولم تتحدّث عن المقاومة ونظرتك لها؟

- تحدّثنا فيها في فترة وأخذت مساحة معقولة. فيما يخصني أنا كتجربة لست منفصلاً عن جيلٍ بأكمله ولد في مكان الخطر، شاءت الظروف أن يقع على خط التماس المباشر مع العدو، ومن الطبيعي جداً أن أعبر عن ما عشته من آلام ومن مكابدات، من إحساس أحياناً بالمهانة، أحياناً بالاحتجاج على ما يجري هناك من شيءٍ غير عادل يتم بحق الجنوبيين وبحق الفلسطينيين والشعوب العربية بشكلٍ عام، فعبرت عنه في قصائد مثل «العائد والصوت» و«أغنيات حب على نهر الليطاني»، عشرات القصائد وصولاً إلى «عرس قانا الجليل» فيما بعد، حتى قصائد ما بعد التحرير عام ٢٠٠٠ أو حرب تمّوز، لكن مع فارق أنّه ربما في البداية ونتيجة أن التجربة كانت لم تختتم بعد، ونتيجة غليان العروق كان الواحد يُعبّر بصوت أعلى، كنت أشعر أنني بحاجة إلى صوتٍ عالٍ لكي أعبر. نفس القضايا فيما بعد أخذت منحىً آخر، منحىً أكثر هدوءاً وأكثر بُعداً إنسانياً، هذا شيء طبيعي مع النضج ومع اختتام التجربة، الصوت العالي ليس معياراً أبداً للشاعرية. أحياناً يجب أن يتخفّف منه وأن

وفي متنه وداخله الأسطورة، عندما ندخل في التفاصيل نُميّز بين من يستخدم الأسطورة بشكلٍ مُفتعل واستعراضي مثلاً وفي غير سياقها، وبين الذي يستخدمها بشكلٍ صحيح. هناك أساطير تَرِد فقط كلفظة، على سبيل المثال عند السيّاب مثلاً تَرِد في سياق الجملة أو التعبير، ولكن هناك قصائد تنبني بكليتها على أسطورةٍ ما، هناك فارق في الاستخدام.

● الأستاذ عمر: حتى لو ألمح إليها السيّاب لمخاً، لكنها تكون شعراً متقدماً، يقول في سبزييف مثلاً: «صعبٌ هو المرقى إلى الجبلجة / والصخر يا سيزيف ما أثقله / سيزيف إن الصخرة الآخرون أنا أرى أن هذه قصيدة وحدها، حتى لو استخدمها بشكلٍ جانبي.

- أنا لا أقولها معترضاً أو بشكلٍ سلبي، ممكن أن تمرّ حيناً كإشارة، ولكن دلالتها واسعة جداً، فهي أصلاً الهدف منها إضافة إلى التكتيف أيضاً هو الإحالة إلى المناطق التي يجب أن يأتي منها الشعر، المناطق الغيبية الما وراء غير المرئي والتي تُغني الشعر والتي هي أصلاً من صلبه، وقد كُتب عنها كثيراً، «رولان بارت» في كتابه «أسطوريات» كتب عنها، إذاً يوجد بُعد أسطوري في الشعر حتى لو لم يستخدم الشاعر الأسطورة أو الرمز بشكلٍ مباشر.

أحياناً ترى شاعراً يتقوقع في  
الصوفية وكأنه هو بحالة خاصة،  
ونحن نعيش وجوداً مكسراً، كيف  
نفصل حالنا عن الأمة وعن الوجود  
هذا خطأ. هذا التوجّه الصوفي هل  
هو مُفتعل أم هو تعبير عن هزيمة  
نعيشها كأمة، أم هو عملية إشراك  
كبرى؟ أنا أراها تعبير عن هزيمة..  
ليس في كل نتاجها طبعاً.

- حتى في أعتى عصور الظلمات، في  
زمن المغول وفي زمن التتار وانهيار الدولة  
العربية رأينا تجارب صوفية ومنها تجارب  
فريد الدين العطار وجلال الدين الرومي  
والسهروردي وغيرهم، لا يمكن لأحد اليوم  
أن يقول إن هؤلاء كان عليهم أن يواجهوا  
الطغيان في تلك الفترة، فلا أرى أن ذلك كان  
انسحاباً من الواقع بقدر ما هو فهم للعالم  
لا يلغي على الإطلاق صدق الشاعر، فإذا  
كان الشاعر يكتب وبلغه فيها الكثير من  
عناصر التأويل التي تحتاج إلى سبر أغوار  
ومثقلة بالصور، هذا لا يلغي أبداً دوره  
كمناضل. على المستوى الإنساني هو  
إنسان وهو فنّان. أنا لست مع المباشرة  
الصارخة التي تتحول إلى شعارات  
وتنتهي مثل الصحن البلاستيكية التي  
نأكل فيها مرّة ونرميها، لأنه - وأنت تعرف  
أستاذ عمر كشاعر - أن في الأدب والفن  
ثمّة شيء أبدي ولا نهائي ولا يمكن أن

نناضل ضده لأنه غالباً ما يكون على  
حساب الثقل الحقيقي للقصيدة المتّصل  
بالصورة وبالتخيّل وبالآبعاد المعرفية  
للكتابة، وأيضاً الموضوع بدأ يتخفّف من  
المباشرة باتجاه أخذ مناحي تأويلية وأبعاد  
إنسانية عامة. مثلاً ربما في البداية كنت  
أكتب عن البيوت التي تهدّمت في الجنوب  
على سبيل المثال وهذا أمر طبيعي، ولكن  
عندما كتبت في «مرثية الغبار» في  
التسعينيات قصيدة «البيوت» تحدّثت عن  
البيوت كأماكن وقلاع وحصون للعيش في  
العالم كلّه بما هي ملاذ وبما هي مأوى  
وبما هي خروج من الشارع المفتوح الذي  
تمثّله الحرب الأهلية، العودة إلى الكنف، إلى  
حنان الأمومة تماماً. فأصبح للقصيدة بُعد  
إنساني، وهي تُرجمت، وفعلاً لا يشعر  
المرء إذا كان في دولة أخرى أنه يقرأ شيئاً  
يختلف عنه، على أي حال كل فن حقيقي هو  
عابر للجغرافيا.. أقرب مكان إلى العالمية هو  
المكان الذي نقف فوقه تماماً، وإلا أصبحت  
العالمية عالمية سياحية، مثلاً أحدهم يأتي  
بأطلس العالم ويقول سوف أكتب قصيدة  
عن المكسيك، وبعد قليل عن نيوزيلندا أو  
عن مكانٍ آخر، الشعر ليس هكذا.

● الأستاذ عمر: في النفس العربية  
بشكل عام نشعر أن الشعر بدأ ينحو  
منحى صوفياً، هل هذه الصوفية  
مطلوبة في أمة منهزمة ومكسرة؟

**انسحبت إلى الداخل، ما معنى هذا كله. هل أصبحت اللغة بحاجة إلى تفسيرٍ آخر.**

- أنا مع الانسحاب على الداخل، بأي معنى، ليس بمعنى الهروب من الواقع ولا بمعنى العزلة والانعكاف عن القيام بأي دور، لا.. الانسحاب إلى الداخل لأنه في الداخل الإنساني نحن نلتقي بالآخرين، الناس مثل المياه الجوفية في الأعماق تتواصل مياه الأرض كلها، وتختلف الناس على سطوح الأشياء غالباً، ولكن في العمق النفس الإنسانية واحدة بالمعاني التي تمثلها، بهذا المعنى أنا مع الداخل، والشعر والفن هو لغة الداخل، لأنّ الشعارات لا تعطي شيئاً إلا كنوع من الخدمة المباشرة والسريعة. وهذا الشعارات - على فكرة - التي تطلبها المرحلة كتبها نيرودا عندما هاجم أمريكا بشكل مباشر وهاجم نيكسون بالإسم، أو أراغون، أو أونوار عندما كتب شعارات كانت تكتب على الجدران في فرنسا في مواجهة النازيين، ولكن كانت أقل أشعارهم قيمة.

أنا مع أن يوظف الشاعر جزءاً من موهبته لغايات تخدم قضايا شعبه، ولكن بشرط أن لا تكون مفروضة، - هنا نرجع إلى البداية -، هي تنبع من داخله، هو مؤمن بها، ولكن ما بقي من نيرودا وأراغون كان شيء أعمق من ذلك، على كل حال هناك

يستنفذ تمثله الصورة الشعرية. التصوّف هو حالة شعرية، هو رؤية إلى الأشياء، هو توحد مع العالم، أنا لا أرى تمثّلات له مباشرة عند الكثير من الشعراء. أدونيس جزئياً يلامس حدود الصوفيّة، نراها أيضاً عند محمد علي شمس الدين في العديد من نصوصه. على المستوى الشخصي، أنا لا أزعم أنني ذهبت إلى هذا النحو لأنني أعتبر أن الصوفية تجربة باطنية وداخلية وروحية قبل أي شيء آخر، التصوّف طريقة حياة، كيف أنا ممكن أن أؤمن بشعر صوفي وأنا أعرف أن من يكتب هذا الشعر لا علاقة له بالتصوّف أو أنّه مثلاً ممكن أن يبيع نفسه لأول من يدفع على سبيل المثال، كيف يكون صوفياً، طبعاً لا أقصد بالأسماء التي سميتها على سبيل المثال، ولكن أيضاً أعود للقول إنه في كل شعر بعد أسطوري، أيضاً يوجد منحى صوفي عند الشاعر، لأنّه مجرد أن تدخل إلى ذاتك، مجرد أن تفتح ما استغلّق من هذه الذات وأن تبحث عن الوجود كمعنى ودلالة وبداية ونهاية أنت تدخل في أسئلة أنا أسئله تأمل.

● **الأستاذ عمر: الصوفية لا تتوفر بدون قلق وعذاب، كأن أكون جالساً في فرنسا وكل شيء لديّ ومتصوّف، كيف يكون ذلك؟ أنا كعربي أقيم في بلدٍ معيّن وصلت إلى مرحلة ثقافية وتحدّثت بالسياسة وانتقدت ومن ثم**

مراحل السلام والوثام والرخاء وما غير ذلك.

أنا أشعر أن العالم الذي انتهى من حربين عالميتين طاحنتين، وعدد آخر من الحروب التي ارتكبت خلالها فظاعات مدوية، هذا العالم البائس الذي غرق في بؤسه في القرن العشرين، كان يحتاج إلى شيء من الاسترخاء ومن الراحة بعد فترة عصيبة جداً ومتوترة، هذه الراحة تتناسب مع لغة الرواية، لأنّ الرواية لغة التذكّر، لغة الحياة المنقضية، لغة فوات الأوان والتحضير لما سيأتي لاحقاً ويتطلب جهداً كبيراً ومخيّلة واسعة، أنا قلت قبل قليل أن العلماء لاحقاً والشعراء يرسمون الطريق في مخيالاتهم أو يحبسون العالم في حبوسهم الخاصة، ففعلاً كأنّ الرواية هي تعبير البشريّة عن التعب وحاجتها إلى الراحة، لذلك ترى أننا عندما نقرأ الرواية فنحن نستقيل من حياتنا الشخصية ونقيم في حيواتٍ أخرى. الفقير ينسى فقره والخائف ينسى خوفه، والذي زواجه فاشل ينسى رداءة الشريك والعكس صحيح، وما سوى ذلك وكذلك الذهاب إلى الحرب وغيره.

الشعر لا يدعك ترتاح، يضعك وجهاً لوجه مع الأشياء، لغة الشعر كثيفة ومتعبة، كنّا نتحدث عن صعوبة الشعر.

● الأستاذاً عمر: هناك أناس يقولون إن

شيء في الفن يجب أن ندركه على الأقل من خلال النصوص التي نقرأها، إن النص العظيم هو نص لا يفنى، وبالتالي هو نصّ مقاوم، وأنا طالما قلت إنه كيف يمكن لنص يموت بعد أسبوعين من كتابته أن يكون نصّاً مقاوماً إذا كان لم يقاوم موته الداخلي فكيف يقاوم موت الآخرين، وكيف يردّ الموت عن الآخرين، على الأقل يجب أن تتوفر فيه شروط الحياة، ولذلك مهم جداً أن نركّز على القيمة التعبيرية والفنيّة والجماليّة، إضافة إلى البعد الإنساني والتوأمة بين الوظيفتين.

● الأستاذاً عمر: برأيك الرواية قضت على الشعر، أو هي تُحارب الشعر؟

- دعني أقول أولاً أنني من الشغوفين جداً بالرواية، وأقرأ الرواية بنهمٍ بالغ منذ أكثر من ثلاثين سنة، روايات، وجدت أن الرواية لم تستحوذ على الاهتمام العالمي بمجرد المصادفة، أو أن هناك قراراً من أحدهم بأنّه الآن زمن الرواية، كما فعل جابر عصفور في كتابه «زمن الرواية»، المسألة على الأرجح أن البشرية تمرّ بحالات ومخاضات أو دورات معيّنة ذات بُعد حضاري وثقافي وأحياناً نفسي فيروج فن على حساب الآخر تبعاً للمراحل، مراحل الحروب أو اللاحروب، مراحل الأزمات التصادميّة والتناحرية بين الشعوب، أو

الشعر تعبير عن بداوة الأمم  
والحضارات، البداوة بمعناها  
الانفعالي، بينما في هذا العصر العقل  
أصبح أكثر حضورًا، ولكن سيبقى،  
ما دام الإنسان يشعر يبقى الشعر.

- لا أنفي ذلك، ولكن أتحدّث لماذا  
تقدّمت الرواية، وأبدًا لا يعني ذلك أنّه يجب  
أن يتقدّم فن على حساب آخر، حتى لو  
تراجع الشعر كفن مُستقل يعني ببعض  
النسب، ولكن الشاعرية لم تتراجع على  
الإطلاق ومنسوب الشاعرية في الأرض لأنه  
موجود في لغة الرواية، فإذا سحبت الشعر  
من الرواية تحوّلت إلى جثّة هامدة ولغة  
صماء، وإذا سحبت الشعر من اللوحة أو من  
القطعة الموسيقية أو من المسرحية أو من  
القصة القصيرة لا يعود هناك معنى لهذه  
الأنواع. كأنّ الشعر بمعنى من المعاني هو  
الدولة العثمانية في آخر أيامها، هو رجل  
الفنون المريض الذي يُحاول الكل أن  
يتناهى ما تبقى منه ثم يلعنونه، وهو ليس  
كذلك لأنه الفن، يمكنك أن تتخيّل أي فن آخر  
غير موجود إلّا الشعر لأنه لغة الحياة، أصلًا  
الحياة التي هي منذ الفردوس الذي  
خسرناه، لم تكن سوى طلل يتبعه طلل على  
طريقة «فليت دونك بيد دونها بيد»، كل  
لحظة هي طلل اللحظة التي تليها، ولذلك  
نحن دائمًا نستعيد باللغة الحب الذي  
خسرناه أو الوطن الذي خسرناه أو الأيام

التي خسرناها، دائمًا هناك تعويل على هذا  
التلفّ الدائم إلى الوراء لاستعادة الفردوس  
الأخرى وليس الفردوس الأول، كل ما  
انقضى هو فردوس، الطفولة هي فردوس،  
وإذا ما تلفّتنا إليها بالعين نتلفّ إليها بعين  
القلب، أي بمعنى آخر نتلفّ إليها باللغة على  
طريقة الشريف الرضي وهذا ما أقصده

وَتَلَفَّتْ عَيْنِي، فَمُدُّ حَفِيَّتْ

عني الطلول تلفت القلب

تلفّ القلب هو الشعر، لذلك من الصعب،  
فقد يتراجع الشعر موضوعيًا هنا وهناك،  
ولكن على المستوى البعيد يستحيل أن  
نتخيّل عالمًا بلا شعر، لأن الأسئلة الكبرى  
في الحياة لم تُحلّ ولن تُحلّ فلا يوجد  
جواب على سؤال الحب مثلاً هذه الكهرباء  
التي تحصل بين اثنين من النظرة الأولى،  
والاشتعال الذي دفع قيس إلى الجنون  
وليلى إلى الموت وما إلى ذلك. تمامًا كيف  
يُعالج الإنسان فكرة الموت على سبيل  
المثال أو الشيخوخة أو الفقدان والغياب،  
وحتى سؤال الحرية، أي أنّه هل ممكن أن  
تُحلّ قضية بين بلدين أحدهما يحتل الآخر،  
سؤال الحرية بوجه عام هذا الطوق. أصلًا  
السؤال هذا موجود ما دام الجسد قيدًا على  
الروح، ما دام التفاوت ما بين الروح في  
صهيلها الدائم، فالروح أحيانًا تصبح أكثر  
فتوة في الخمسينات والسبعينات، فيما  
الجسد لا يستطيع مجاراتها حتى لو حاول.

● الأستاذ عمر: أحياناً نظلّم الجسد،  
فتراه يتجعّد، فأحدهم يقول: إن  
الجسد لحزين، فيكفي الجسد أنه  
يحمل هذه الروح التي تمزّقه  
باستمرار.

- مأساة الجسد والروح أنه عندما  
يشيخان معاً تصبح الأمور أسهل بكثير أو  
يكونان فتّيين معاً أم أنه... أنا قلت في  
قصيدي عن عاصي الرحباني:

«وكلما ازداد شوقي ازداد نقصاني»،  
أتكلم باسم عاصي قبل الموت وكأنّه يُراجع  
حساباته في الغيبوبة، هذه المشكلة أنّه كلما  
ازداد تطلّبنا للحياة واشتهاؤنا للحياة ازداد

نقصانها، أساساً المفارقة القائمة هي ضالّة  
الجسد أمام ضخامة واتّساع الشهوات التي  
هي محيطات من المتعة الكونيّة. هذه الكتب  
- مثلاً - أنا سوف أ حذف الشهوة الجنسيّة  
والمعويّة، فشهوة القراءة مثلاً، ما هو  
شعورك عندما تذهب إلى معرض الكتاب  
وأنت تشعر أنّك لا تمتلك سوى حيّز معيّن  
من السنوات محدود بينما القراءة لا  
محدودة، هذا سؤال جارح ومرير، هي  
حسرة ما لها حدود، هناك من يقول - على  
الأرجح بورخيس - يقول: إنّ كل كتاب غير  
مقروء هو كتاب ميّت، فالقارئ يُحيي الكتاب  
ويعمل على قيامته مثل المسيح تماماً، يعني  
الكتاب هو مسيح لا يقوم إلاّ بالقراءة.

## الشخصية بين الواقع والتخييل في الرباط المقدس - أنموذجاً توفيق الحكيم دراسة سيميائية

د. خليل سعد

تقول «إني أريد بدوري لو أعطيت جسمه  
بقبلاتي»<sup>(٣)</sup>.

مدلولات الجانب الجسماني والجمالي  
للشخصيات

كشف الخطاب الروائي عن لغة الجسد من خلال إبراز جمال المرأة الفاتنة وقصد من وراءه أيديولوجية ليعكس الأبعاد النفسية للمرأة والخلفيات الفكرية للمجتمعات، والصراع النفسي من جراء القمع والكبت الجسدي، وما تحرر الجسد إلا للبحث عن الحب لتحقيق المرأة رغبتها في تحقيق ذاتها ووجودها العاطفي «ويبقى أن هذا الجسد هو جسد الانثى، وإن كان حضوره هو حضور في علاقة مع الآخر

اتخذ الكاتب من الجسد مرآة عاكسة لخبائيا مكبوتات المرأة، وظهرت سوسيوولكاتات معجمية لجغرافية الجسد التي هي «جغرافية النص، واستيطان الجسد الانثوي هو استيطان للفضاء النصي»<sup>(١)</sup>. فالجسد هو إحياء ثقافي «تحققه التخيلات السردية، وعوالم الرواية المنتشية بتحويلات الجسد»<sup>(٢)</sup>. ولعل تفاصيل الجسد داخل المسار اللغوي للرواية لأن الانوثة تحمل في جعبتها أعلى العواطف والرغبات إذ

(١) الرباط المقدس، ص ٣٥.

(٢) توفيق الحكيم، نشيد الأنشاد، مكتبة الآداب ومطبعها بالجمامير، لا ط، لا ت.، ص ٥٩.

(٣) ألجيرداس. ج. غريماس و جاك فونتنبي، سيميائيات الأهواء «من حالات الأشياء إلى حالات النفس»، تر: سعيد بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، الصنائع، بيروت، لبنان، ط ١، آذار ٢٠١٠، ص ٢٦٠.

الذكر، أي في حضوره في علاقة حب بينهما»<sup>(١)</sup>.

يبقى الجسد الانثوي في الرواية هو «القباض على خيال القارئ وفكره، وتبقى اللغة التي تعمل على تفجير أشياء الجسد هي السائدة»<sup>(٢)</sup>. وتسيطر الملفوظات السردية الدالة على رائحة العطر في جسد المرأة بما له من ايحاءات اغرائية تغري الرجل «اغراء جنسيًا لا يقهر»<sup>(٣)</sup>. وتبعث في نفسه الاثارة ما يوعز بارتكاب الطيش فيقول: «يا للمرأة ذلك الجهاز المشبع بالكهرباء.. فما العطور التي عرفتها المرأة منذ فجر التاريخ بما أذيعه في الجو من شذا الا اشارات لاسلكية تخاطب بها حواس الرجال وكذا البسمات.. وكل ما هييء لكي يحدث على البعد أثرًا يطيش بالعقول»<sup>(٤)</sup>.

وفي الوضع الأولي للرواية نجد أن راهب الفكر يرى أن تبخيس الجسد الانساني هو انتهاك للقيم والمبادئ العليا لذا واجب على الانسان حمايته وهذا ما يتناقى مع الجسد الصارخ الذي لا يتطابق مع فكره الذي كان يعيش في صومعته، فيما نجد التحول المفصلي في حياته بعد أن رأى جمالها، وتأمل وجهها وشفاتها وما

يمكن أن يكون فيهما من عسل. فسقط أمام اغراءاتها وثارَت أعضاؤه ثورة جنحت به إلى إقامة علاقة حسية من دون أن يوقره ضميره لأنها أصبحت امرأة حرة في نظر المجتمع.

يتمخض عن الصراع النفسي للشخصية / البطلة صراعًا في علاقتها مع الآخر / الرجل، ويتحول الجسد الانثوي محرِّكًا للعملية السردية، ويضيء على مساحات جمالها في محور دلالي يتناقض بين جمال المرأة الشكلي والمادي، وجمالها الروحي والمعنوي، ففي داخل كل امرأة عاطفة أقوى من الدين والعفة والفضيلة تلك رغبتها دائماً أن تكون جميلة. وبرأيه أن الذي يمهّد سبيل الاشعاع المادي هم «صناع العطور وصناع الحلى وتجار المساحيق»<sup>(٥)</sup>.

تختزن المدلولات الجمالية حب النفس عند المرأة البطلة، وتظهر نرجسيتها بسبب اهتمامها بملابسها وشكلها وعطرها، وإن اهتمام المرأة بشكلها وملابسها ليس إلا رغبة في التعويض عن حب النفس المفقود»<sup>(٦)</sup>. فالمرأة «جبلت على الشغف بكل ما هو يبرق في عينيها ويخطف بصرها ومهجتها ويطير بلبها».

(١) الرباط المقدس، ص ١٥٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٣١.

(٣) م.ن.، ص ٦١.

(٤) م.ن.، ص ٦٤.

(٥) م.ن.، ص ٦٩.

(٦) م.ن.، ص ٧٢.



وفي سياق الرواية، تعبر ملفوظات السرد عن سرور الزوج بأناقة زوجته ونجد التحول المفصلي في ايماءات جمال زوجته، فقد تحولت من سروره بجمالها إلى جمال فاجر، وصار يمقت حليها وزينتها التي «تزين بها جمالها الفاجر»<sup>(١)</sup>.

وحتى راهب الفكر بعد أن قرأ كراستها الحمراء قال «جمالها اليوم ليس جمال الأمس.. إنه الجمال المخيف الشرير»<sup>(٢)</sup>. فجمال المرأة وشكلها وزينتها قد تكون سبباً في تعاستها، لذلك يؤكد على أن نور المرأة ليس بالمساحيق ولا اللالي بل في نورها المعنوي وفي الاشرار الطاهر الهادئ وعلى حرصها اقتناء النور الداخلي الذي يقلب جهازها اللاسلكي نعمة كبرى..

كما تظهر الكراسي الحمراء ولع المرأة بجمال الرجل، فيوم كانت في ميناهاوس غير مجرى حياتها يوم رأت الممثل صاحب العينين.. بديع القسما منظم الملامح معتدل القد تبدو عليه أناقة تنم عن سلامة ذوق وحسن اختيار. ومن خلال تبادل النظرات حدث شيء عميق جذبها إليه جذباً إنها علامات الاعجاب بصوته ونظرته و اشارته وايماءته ما أوقعها في سلاسل

الحب فشعرت أنها فريسة عواطف شتى حلوة وغريبة فهي غير مدربة على الأحاديث برشاقة ولباقة، ويوم سافر زوجها ويشاء القدر أن تلتقي بالممثل مرة ثانية عندما سقطت منها ورقة وهي تدفع النقود لحجز الفيلم في السينما شعرت بالفرح والارتياح يوم لمست يده يداها كأنها مست سلكاً مشبعاً بالكهرباء ومجرد ذكر اسم الممثل «أو مرّ طيفه على خاطري كافٍ بأن يلقي في رأسي الجنون»<sup>(٣)</sup>. ولم تستطع مقاومة تلك الرغبة التي كانت تدفعها إلى لقاء هذا الرجل الخلاب.

#### مدلولات الجانب الاجتماعي والديني للشخصيات

تعيش الشخصية البطلة «وضعا انتقالياً بين ذاتها، وبين وضعها، ووضع نتطلع إليه، وبين مجتمعها كما هو، فهي تعي هذا الانتقال وتتقصده، وتكافح من أجله»<sup>(٤)</sup>. في الرواية الذي هو بحث مستمر «عن الحقيقة، وأن بحثها هو العالم الاجتماعي، ومادة تحليلها هي عادات الناس»<sup>(٥)</sup>.

تؤطر السوسيولكتات الدلالية والتركيبية للخطاب الروائي لمدلولات اجتماعية تندمج مع المدلولات النفسية والدينية والانسانية

(٤) م.ن.، ص ٨٣.

(٥) م.ن. ص ٨٧.

(١) م.ن.، ص ٧٤.

(٢) م.ن.، ص ٨١.

(٣) م.ن.، ص ٥٥.

مصطنعة براقية المظهر ولكنها في لبها وجوهرها لا تعنى بغير التافه من شؤون الدنيا لكنه أسرة الزوجة تتمسك بالعادات والقيم الاجتماعية.

وقد فهم الزواج على أنه حقيقة شركة روحية وتظهر تصرفاته اللائقة مع زوجته فيقول «كنت أتصرف معها كما لو كانت (ليدي) من سيدات الارستقراطية الانكليزية»<sup>(٢)</sup>. وبنظر زوجته هو السيد وهي الجارية.

لكن البنية الدلالية تتغير بعد أن قرأ الزوج الكراسية الحمراء ومغامرات زوجته الخيالية، فتغيرت نظرتة إلى الزواج إذ يقول: «الزواج هو وادي العميان»<sup>(٣)</sup>. وفي سياق آخر يقول «إن المغامرة والزوجية لا يتفقان»<sup>(٤)</sup>. ويبرهن إلى سوء التفاهم الخالد في كل حياة زوجية «منذ نشأت على الأرض أسرة وزواج»<sup>(٥)</sup>.

والمرأة تقول «إن الزواج قبل كل شيء عقد من العقود لا قيد من القيود»<sup>(٦)</sup>. فهي تحسب أن الزواج هو قيد مادي، وتؤكد البنى السردية على المساواة بين الرجل والمرأة بقولها «إن المرأة يجب أن تفهم

للشخصيات، وينصب اهتمام الروائي على شخصية البطلة التي تعيش في مجتمع يخيم على أجوائه الغيبة والاشاعات، وأن أرادت المرأة أن تعيش كإنسان حرّ يحسبها المجتمع امرأة عاهرة وساقطة، لأن عقل المرأة يدلّ على الخفة والطيش والاستهتار، فنقول: «والواقع أن في أسرتي كما في أكثر الأسر أفراداً يحبون التظاهر بالغيرة الكاذبة على الأخلاق»<sup>(١)</sup> فهي تنفر من موائد الطعام التي يكون طبقتها الدسم هو غيبة الآخرين.

أراد الروائي طرح الجوانب الاجتماعية الشخصيات من خلال قضية الزواج، وكان لكل شخصية رؤيتها الفكرية وتصوراتها وثقافتها، ومما لا شك فيه أن الزواج هو سنة الحياة، وأساس تكوين مجتمع البشرية، ووسيلة للحفاظ على العرق البشري، وهو رباط مقدس له عاداته التي تختلف بين مجتمع ومجتمع آخر.

تؤطر المقطوعات الحوارية في المتن السردية لطرح قضية الزواج، يعترف الزوج أن أسرته اختارت له زوجته على أساس أن الزواج نعمة وضرورة من ضروريات الحياة، وهي كانت ذات ثقافة سطحية

(٤) م. ن.، ص ١١٥.

(٥) م. ن.، ص ١١٧.

(٦) م. ن.، ص ٧٦.

(١) م. ن.، ص ١٠٨.

(٢) م. ن.، ص ٩٤.

(٣) م. ن.، ص ١١١.

الرجل أنها مساوية له»<sup>(١)</sup>. فهي مثل الرجل مخلوق له حرিতে والزوجة لم تعد قطعة اثار توضع في حجرة مغلقة في منزل الزوجية بل هي آدمية لها حق التنفيس والحياة ولا بد أن تكون لها حريتها، وأن نذكر دائما أن لها قلبًا حرًا قد خلق لينبض بالحب والكره، وأن لها جسمًا حرًا لا يملك إلا بارادتها ورغبتها وأن الزواج لا ينبغي أن يفسر بأنه قيد يوضع في عنق المرأة... إنها اليوم ترفض كل قيد حتى وإن كان من ذهب..

يسلط الضوء على فكرة المساواة بين الرجل والمرأة وان للمرأة الحق والحرية في اختيار الشريك، وعدم إجبارها على الزواج لأن ذلك يولد في نفسها التعاسة، ووضع القيود على لسانها وعقلها هو عملية قمع فكري، كما يولد في حياتها الاجتماعية العزلة والوحدة، وتصبح حياتها مملّة، خالية من الحب والمتعة مع زوج تحبه، ويجد مساحة حريتها الحقيقية هي في احترام العقود لا في الاخلال بها، ووقوف الرجل إلى جانبها يتفهم قضاياها ويحس بمشاعرها لأن تهميشها والغاء دورها يؤدي بها إلى الخيانة، والخيانة الزوجية لأمر فظيع، وهي محرمة شرعًا وقانونًا وعرفًا.

ويتجلى رفض الزوج لزوجته اجتماعيًا من خلال شعوره بالظلام يدب في عينيه إذ يقول «فإن نفسي كلها قد استحوذ عليها شعور واحد وهو مزيج من الرعب والاشمئزاز والنفور لمجرد الخاطر بأن عيني قد تقع على هذه الزوجة وهي عائدة»<sup>(٢)</sup>. وبدأ تفكيره يتجه صوب الهرب وانتشال البنت من أحضان أمها وكان قراره سلميًا هادئًا خوفًا من الفضيحة والقييل والقال والثرثرة في العائلة وتسرب الخبر في الاسرة والمجتمع وللمحافظة على سمعة طفلة، فاتخذ سلوكًا هادئًا وهو مفاوضة الزوجة على الطلاق.

كذلك كان راهب الفكر غير راضيًا عن مسلكها الاجتماعي، فهي مولعة بالسجائر وبأحمر الشفاه ولا تكف عن التصنع والتزين في حضرته.

وتكشف البنية الدلالية عن تحولات بين صورة المرأة في القديم ونظرة الدين لها، وصورة المرأة في العصر الحديث، تظهرها سوسيوكتات متعارضة ومتشاكلة لرسم صورة المرأة في مقارنة بين القديم والحديث، والتطور الذي سارت بركبه، واصبحت رغبات المرأة وأحلامها هي المغامرات، ونبرز سلسلة من البنية الدلالية للمفارقة في الجدول الآتي:

(١) م. ن.، ص ٨٨.

(٢) م. ن.، ص ١١٢.

الأمهات والعمات.. وكثيرات من البنات عرف عنهن الخفة في السلوك في المجتمعات والسهرات وعلى شواطئ البحر والمغلاة في اللبس والمظهر... والتحرر إلى حد قبول مغازلة الشبان في الطريق أو في التلفون... وإذا تزوجت بنت من هذا الطراز ففي الغالب يتغير سلوكها السابق ويتجه إلى احترام الزوجية والحرص عليها. لكن

ما يمس كرامة المرأة الجميلة اليوم أنها عاطلة عن المعجبين وأنهن لياهين أحياناً.. وتعطي مثلاً أنني أعرف صديقة متزوجة تفخر بأنها تملك أثمان مجموعة من المحبين.. مجموعة يمثل كل رجل فيها ما تشتهي المرأة من صفة: لديها الثري ولديها الشاب الوسيم ولديها صاحب الاسم والجاه ولديها صاحب النكتة والظرف..

لقد بات اتخاذ مجموعة من المحبين والمعجبين تباهاً وافتخاراً وتكمل البطلة اعترافاتها عن التحول المفصلي في حياة الفتاة في المجتمع المصري إذ تقول: «أعرف من البيوت والأسر تجري فيها أشياء لا أدري ماذا تقول فيها لو اطلعت عليها. ثق أنه من النادر الآن أن تجد الزوجة التي لا يكون لها الى جانب زوجها صديق أو خليل أو مجرد انيس»<sup>(1)</sup>. فتغيرت

المرأة في العصر القديم	المرأة في العصر الحديث
كانت المرأة حبيسة خدرها وجليسة أهلها.	إن الفاظ العفة والحياء فهي أفاظ فقدت اليوم معناها.
كان اشعاعها قاصراً على التسلسل من حجرة الى حجرة.	تركت المرأة العصرية البيت والحجرة ونزلت الى الشوارع والحوانيت والمقاهي والملاهي... تخطر بعطرها وزينتها وابتساماتها.. ضعفت تيارات الأديان ضد المرأة شحبت عبارات النصح والارشاد.
كانت كقطعة أثاث توضع في حجرة مغلقة في منزل الزوجية.	فتحت نوافذ الحرية الاجتماعية وأبوابها على مصراعها يبهرها أي نور من الخارج.
كانت زينة المرأة شيئاً خفياً	المرأة اليوم تخرج من حقيبة يدها صندوق مسحوق البودرة وأصبع الأحمر.
لا تدخن السجارة ولا تشرب الخمر.	اليوم علانية تدخن وتسكر في المجتمعات والسهرات.
عندما تلفظ كلمة الخليل أو العشي كأنها تلفظ اثماً.	تحدث النساء عن العشاق المعجبين بملء أفواههن.

بالاضافة إلى الجدول أعلاه الذي يكشف عن التغيرات في حياة المرأة ومسلكها الاجتماعية، ويعزو ذلك التحولات المفصلية في الشخصية البطلة إلى السير في ركاب العصر الحديث ومجاراتها للحرية والاهتمام بجمالها وعدم السماع لموقف الدين من الزواج بعدما شحبت عبارات النصح والتوجيه والارشاد، فوَقعت فريسة المجتمع، وحتى الفتيات في المجتمع المصري تتجه اتجاهها حراً يعد في نظر

(1) م.ن.ص ١١٩.

### مدلولات الجانب الخُلقي للشخصيات

تركز الرواية على الجانب الخُلقي وحال المرأة في رواية الرباط المقدس بينت الفرق الشاسع بين راهب الفكر وبين المرأة العابثة التي كانت فقدت مكارم أخلاقها من خلال اغرائها لرجل الدين وما تبرير تصرفاتها إلا للنفور من الوضعية الاجتماعية التي كانت تعيشها وأحياناً إلى الحالة النفسية غير المستقرة للمرأة في ظل أجواء النميمة والغيبة.

ومن أهم المظاهر غير أخلاقية للمرأة هي الخيانة الزوجية وتكاد تسيطر على معظم النساء في المجتمع المصري كما أراد أن يصور لنا المرأة المصرية الخائنة في الخفاء فهذا أمر شنيع يتنافى مع الأخلاق والقيم والمبادئ ولكن الكاتب جعل لهذه الخيانة أسباباً اجتماعية أدت بالمرأة إلى الفعل غير الاخلاقي بالمقابل صور لنا المرأة المثال ذات الأخلاق العالية والمبادئ العالية التي تحب بصدق.

ومن صفات الفتاة هي الكذب لأنها أخفت عن زوجها أمر زيارتها للراهب كذلك، زمنية قرأت كتاب تاييس ويوم ردت الكتاب للراهب فكذبت عليه، فزعمت إنها اطلعت منه على بضع صفحات لكن الزوج أخبره بأن

العادات القديمة وسقطت ألفاظ العفة والحياء عند شخصية المرأة، وأصبحت العادات المألوفة هي في وقوف صديق أو أنيس بجانب المرأة «من دون أن يعكر صفو الزوجية أو يحطم ذلك الرباط المقدس، ما قلل في المحيط الاجتماعي حالات الطلاق والانفصال، وكثيراً من الأزواج «لا يعلمون شيء عن زوجاتهم..» فقد تركوا الرقيب على نسائهم «ضمامئهن وحدها»<sup>(١)</sup>.

وترسم الملفوظات السردية تقديم الروائي لشخصية الزوج والضابط ابن خاله في سجالية الاختلاف والائتلاف البنيوي في المتن السردية تحيل إلى الجوانب الاجتماعية والفكرية والثقافية، فهما متحدان في جوهر السلوك متلاقين في كثير من الخصال، يتفقان على كلمة الواجب وتقدير معنى الشرف، يتخلفان في المشارب والطبائع والميول، وتبرز سلسلة الاختلافات في الجدول الآتي:

شخصية الزوج	شخصية الضابط
يميل إلى الحياة الفكرية	يميل إلى الحياة العسكرية يتبرم من الحياة الفكرية
يفضل الكتاب على ركوب الحصان	تفضيل الحصان على الكتاب
لديه متعة القراءة	يبغ في الرماية على متعة القراءة

(١) م.ن.، ص ١٢١.

زوجته التي كانت تكره الكتب قد بدأت منذ أسابيع تقبل على القراءة على نحو أدهشه.

فقرأت كتاب تاييس في ثلاث ليالٍ، وقرأت كتب الكاتب والمفكر كلها، لكنها اعترفت أنها تحب أحياناً الكذب كما تحب مواهبها. والكذب بنظر الراهب هو مصيبة ومن غير شك «جريمة لن تغتفر»<sup>(١)</sup>.

كان طلبها أن يبقى أمر زيارته سراً خفياً بينها وبين الراهب، أرادت أن تشركه بارتكاب خطيئة الكذب وإخفاء الزوج مع العلم أن الزوج زار الراهب وأخبره بان زوجته أقبلت على القراءة وظهرت نفسها النبيلة والرفيعة يوم قرأت كتب الأديب.

كذلك رسم الحكيم السلوك الاخلاقي عند الراهب من خلال عدم الندم على سلوكه الرفيع معها لأنها امرأة متزوجة فهو ليس بالرجل «الذي يحيد عن واجب الشرف أو يصرف زوجة عن واجبها المقدس نحو زوجها».

### المرجعية الفكرية والثقافية والأدبية والدينية والاسطورية للشخصيات

استحضر الروائي لتكثيف رؤيته إلى الرباط المقدس مرجعيات فكرية وثقافية ودينية وأدبية، استمدتها من كتب التاريخ والاساطير والفلسفة والدين، ومزجها في

السياقات السردية، وتعاضدت للكشف عن التفكير القويم وذلك للحد من التقلبات والصراعات التي عاشتها الشخصيات في الخطاب الروائي، ولتقديم شخصية المرأة وتضحياتها السامية من أجل رباطها المقدس.

المرجعية الفكرية للشخصية البطلة هي المرجعية الأدبية والفكرية من خلال التشاكلات البنيوية، والمفارقات بين الخطاب الروائي (الرباط المقدس) للكاتب المصري توفيق الحكيم والخطاب الأدبي (كتاب تاييس) للكاتب الفرنسي أناتول فرانس ما يؤكد الاحتكاك الثقافي والتبادل المعرفي والتمثيلات الدلالية من خلال طرح المحور الدلالي القائم على فكرة الارتفاع بالانسان وبالنفس الانسانية من أدنى إلى أعلى، الارتفاع بالقيم السامية، والأخذ بيد الآخر من أجل السمو به، وهذا ما فعله بافانوس عندما أخذ بيد تاييس وانتشلها من مجتمع القذارة، وحولها من ساقطة إلى انسانة فاضلة، وهذا كان مطلب الفتاة «أنت أيضاً يجب أن تفعل ذلك. يجب أن تهبط إلى ملعبي لترتفع بي. هكذا يفعل الرسل والأنبياء دائماً. يهبطون إلى الناس حتى يستطيعوا بعد ذلك أن يصعدوا بهم إلى السماء»<sup>(٢)</sup>. والفارق بين تاييس والمرأة أن

(١) م. ن. ص ١٢٣.

(٢) م. ن. ص ١٣٠.

تاييس لم يكن لها طفلة ولم يكن لها زوج.

ومقابل هذه الصورة النقية الطاهرة السامية صورة أخرى في سياق الرواية هي صورة الراهب بافنوس وتخيل الراهب «كارثته ومأساته.. وسقوطه في نهاية أمره إلى عشق تاييس ذلك العشق الآثم، بينما هي ارتفعت إلى طهارة الروح وبلغت مراتب القديسات، لقد كان بافنوس مؤمناً زائغاً ورسولا كاذباً»<sup>(١)</sup>. يكشف الروائي عن صورة الانسان الراهب الذي انتقم من أولئك البشر الذين قدم لهم الانقاذ وسرعان ما وقع في أحوال الحياة وغره الجمال البراق وابتسامات تاييس المغرية، فالراهب أحب فيها المرأة ولم يحب فيها القديسة.

واستلهم الروائي من عالم الأدب الروائي شكسبير في مسرحيته عطيل الذي أكلته نيران الغيرة، فتشاكل مع شخصية الضابط / ابن خال الزوج الذي ألتهمته نيران الغيرة بخيانة زوجته، وحسب توفيق الحكيم «الغيرة مخيفة كالجحيم»<sup>(٢)</sup>، تقوم على «مبدأ الصراع من خلال القدرة على الكينونة / الاحتمال، ومن خلال إرادة عدم الكينونة / الرفض»<sup>(٣)</sup>.

وشخصية الضابط اضطرت بين القلق والريبة، فتوهم الشك في أبوة أحد أولاده،

ولم يتحمل التفكير، أصيب بحالة نفسية عصبية أفقدته توازنه، وبات صريع المرض النفسي، ثم حولته إلى انسان مجنون، فقد أعصابه وارتباطه بالمجتمع، إلا أن الفارق التمثيلي بين عطيل والضابط، أن عطيل قتل زوجته في حين الضابط قتل نفسه.

كما استمد من الأدب القديم حديثه عن زوجات الفرسان في القرون الوسطى، «لقد كان الفارس من أولئك الفرسان النبلاء قبل ذهابه الى الحرب يصنع لزوجته قيئاً من الفولاذ له قفل ومفتاح يقيد به الأجزاء السفلى من جسم زوجته ويطلقون على هذا القيد حزام العفة ويظل مغلقاً على هذه المواضع من بدن الزوجة المسكينة حتى يعود الزوج من حربه.. يحل القيد ويحرر امرأته»<sup>(٤)</sup>. في إحالة إلى تقديم نموذج عن معاملة الرجل للمرأة بوضع حزام العفة الحديدي ليقمها جنسياً وفكرياً.

واستحضر من حياة العرب الإسلامية شخصية خديجة وزوجها النبي الأكرم التي قاسمته الحب وقد كانت خديجة ذات الشرف والثروة والنبي كان الرجل الفقير اليتيم إلا أن الفارق الدلالي بين الثروة والفقرة عزز الإحالات الدلالية في أن المرأة النادرة هي هبة الله الكبرى، تبذل كل ما

(٣) م.ن.، ص ١٤١.

(٤) م.ن.، ص ٧٦.

(١) م.ن.، ص ١٣٢.

(٢) م.ن.، ص ١٣٦.

بوسعها لتسعد زوجها، فهي تقف معه في الهزيمة والفوز واليأس والأمل.

كما اضاء على أفكار هدف من توظيفها السير على هداها، وحث المرأة على مصارحة زوجها بما يجول في نفسها كما فعل الرسول الأكرم وطلب إلى زوجته عائشة مصارحته عندما اتهمها الناس اتهامات شائنة إذ يقول الراهب «إن عذاب الشك الذي عرفه محمد وقتئذ لجدير حقاً بنبي انساني... إنه خير دليل على أنه جاء ليهدي الانسانية»<sup>(١)</sup>.

تحمل ملفوظات المصارحة بين الرجل وزوجته علامات ايجابية تخدم البناء الفكري عند الشخصية لأن الصاق التهم بالعفة والشرف أصعب ما يتعرض له الانسان في حياته، ولا شك أنها تزيد المشاكل في المجتمع، ولها فعل سلبي على الانسان، تقلقه، تهز الاعصاب وكيانه وفيها انتهاك للحرمت الزوجية.

واستحضر من عالم السياسة دزرائيلي وزوجته ماري آن الذين نعما بحياة زوجية هائلة وسعيدة، فهي التي وقفت بجانب زوجها أيام الهناء وأيام الهزيمة وكانت تقول للأصدقاء «حياتي بفضل طبيته لم تكن سوى لحظة سعيدة مستمرة.. وكان

هو يجيب: لقد تزوجنا منذ ثلاثين عاماً ولم أشعر معها قط بلحظة ضجر»<sup>(٢)</sup>. وكانت أصيبت بمرض سرطان المعدة ويوم استبد بها المرض «لم تنقطع مراسلاتهما اليومية البيتية فكان يكتب إليها: ليس عندي ما أقوله لك سوى إني أحبك.. وكانت هي تكتب إليه: يا أعز ما أملك... إني معشوقة إليك إلى حد مخيف»<sup>(٣)</sup>.

كما استحضر زوجة كارل ماركس الذي طرد من بلاده فأبت زوجته إلا الخروج معه ما عزز فكرة تشبث المرأة بزوجها «فخرجنا من انكلترا.. كل هذا التشريد مع شظف العيش وحلك الأفق ما زعزع الرجل بفكرته ولا ايمان الزوجة بزوجها»<sup>(٤)</sup>.

وحضرت الشخصية الاسطورية شخصية ايزيس المصرية، والغاية أن يسلط الضوء على وفائها لزوجها أوزوريس، زمنية كانت تحكم المملكة في غياب زوجها، وكان لزوجها عدو تحذره منه وهو أخوه (سيت) الذي تأمر على أخيه أوزوريس مع أعوانه في احتفال، فصنع لجسم أخيه صندوقاً وعندما رقد فيه صبوا فوقه الرصاص وأغلقوه وألقوه فيه بالنيل. وعندما علمت زوجته ايزيس بذلك «ارتدت الحداد وغادرت قصرها وتركت

(١) م.ن.١٤٥.

(٢) م.ن.١٤٧.

(٣) م.ن.١٤٩.

(٤) م.ن.١٢٥.



سلطانها»<sup>(١)</sup>، لحسابها أن الميت لا يظفر بالراحة إلا إذا دفنت جثته، وانطلقت هائمة في عرض البحار إلى أن حصلت على صندوق زوجها وبكت عليه بكاء مرًا، وبذلك أراد أن يقدم لنا مثالاً يحتذى به عن أنموذج يرسم صورة المرأة المثال التي تضحى بقصرها وسلطانها من أجل راحة نفس زوجها.

### خاتمة

تهتم السيميائية السردية بمضمون الخطاب الروائي وبتشكيلاته العميقة وتتبع وظائف الشخصيات وأدوار العوامل والممثلين التي تصطرع على مستوى الملفوظات السردية، وقد درست الشخصيات في الخطاب الروائي عند توفيق الحكيم دراسة سيميائية، وقد توصلت إلى النتيجة الآتية:

ترتبط سيميائية العنوان بالخطاب النصي، وتقدم إحالات دلالية للحرص على أهمية الرباط المقدس، وعدم الاخلال به لأن الانسان يتألف من تآلف روحي وجسدي، وأي خلل يصيب الرباط المقدس بين الطرفين يؤدي إلى تدمير الانسانية.

وكشف البناء المورفولوجي

للشخصيات عن رسم صورتها الخارجية من خلال تراكيب الوحدات السردية والسوسيوولكتات، وقد أظهرت البرامج السردية التعارضات والاختلافات والتحويلات المفصلية، كما أوضحت الصراعات بين الشخصيات موضوعات القيمة، ومحاور الرغبات التي تحققت والتي ساندتها العوامل المساعدة فيما أطاحت العوامل المعيقة تحقيق رغبات الممثلين ما جعلها تصطدم بموضوعات القيمة.

ظهرت شخصية المرأة شخصية رئيسة وحسبت شخصية نامية لأننا لم نتعرف عليها دفعة واحدة وإنما نتعرف عليها من خلال فصول الرواية ومدلولاتها النفسية والاجتماعية وآلامها وتطلعاتها وحوارها مع ذاتها ومناجاتها الداخلية التي رسمت شخصيتها تتقابل بين ما هو ممنوع وما هو مسموح في الأعراف الاجتماعية.

رسم الروائي المرأة في تمثيلات تعددت بين التشاكلات الدلالية والتحويلات البنيوية، وعكست صورة المرأة في محاور دلالية تناقضية وابعاد دلالية ونفسية وجسمانية واجتماعية فأضاء على بنية عالمها المكبوت وعلى بنى أفكارها العلمية والثقافية كما طرح من خلال حوارية الذات مع الآخر

(١) م.ن.، ص ١٦٥.

رؤيتها التي تناقضت مع رؤية الآخر في قضايا المرأة وجماليتها والزواج والحرية والقمع والدين.

وقد استخدم الروائي الاسلوب الاستنباطي الذي أمكنه من الولوج على عالم المرأة الداخلي وصور ما فيه من أفكار ورؤى، وما يتصارع فيه من عواطف وانفعالات وتقلبات وذكريات، وأراد بذلك تصوير خصوصية هذه الشخصية واستخدام من تقنياته الحوار الداخلي الذي قدم لنا المحتوى النفسي والعمليات الذهنية في داخل فكرها فكان للبنية النفسية حصة الأسد من الخطاب الروائي.

كما استخدم تقنية التذكر وذلك للكشف عن ماضي الشخصية بهدف الاضاءة على حاضرها، كما أثار الروائي على اللوحة الداخلية للشخصيات بأحلامها وأمنياتها التي قد تلجأ إليها هاربة من الواقع القاسي إلى عالم الخيال الذي لا يحد واقع ولا عقل.

كشفت المدلولات عن البنى النفسية والاجتماعية والجسمانية والجمالية والأخلاقية للشخصيات وركزت على أهمية المساواة بين الرجل والمرأة، وعلى أن الحرية المطلقة للمرأة تهدد المجتمع وتدب فيه الخراب، وقد سعت المرأة البطلة في سياق الرواية إلى التخلص من القيود الاجتماعية، وحملت بذور ثورة كبيرة من أجل تغيير المرسوم الذي وُضع في دستور

المجتمع القديم، وتبنت دستور المجتمع العصري، كما أومأت المدلولات على فكرة جهل المرأة بأمر دينها ما يجعلها ترتكب أخطاء في حقها وحق سمعتها. فيما قامت البنية الروائية للشخصيتين المرأة البطلة / والراهب على التوازي التقابلي: الراهب ينحدر من أعلى إلى أسفل، والمرأة ترتفع بكتاباتهما من أدنى إلى أعلى.

وحققت مرجعية الشخصيات الادبية والفكرية والفلسفية والدينية والاسطورية البنية الدلالية لوفاء المرأة لزوجها واخلاصها له.

إن شخصية المرأة وعلاقتها مع الآخر لمن القضايا القديمة المتجددة والمفتوحة، لها أهمية كبيرة كونها قضية مطروحة ومفتوحة تتناقض فيها وجهات النظر، وآراء الأدباء، فالمرأة تشارك الأديب في أدبه فهي أيضاً تناصفه السرد، وبدونها يفقد السرد القصصي كمالياته، والرواية على وجه العموم توصف بنص التحولات الاجتماعية، إنها خطاب تجريبي يؤسس للتحولات داخل المجتمع.

- فاطمة الوهبي، المكان والجسد والقصيدة أ  
المواجهة وتجليات الذات، المركز الثقافي  
العربي، بيروت، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠٥.
- محمد حسن غانم، القياس النفسي، الشخصية،  
المكتبة المصرية، الاسكندرية، مصر، لا طبعة، لا  
تاريخ.
- محمد غنيمي هلال، النقد الأدبي الحديث، المكتبة  
الأنجلو، مصرية، طبعة خامسة، سنة ١٩٧١.
- مصطفى غالب، في سبيل موسوعة نفسية، دار  
ومكتبة الهلال، طبعة سنة ١٩٨٣.
- محي الدين صبحي، أبطال في الصيرورة، دراسات  
في الرواية العربية والمعربة، دار الطليعة، بيروت،  
الطبعة الأولى سنة ١٩٨٠.
- محمد زكي عشاوي، أعلام الأدب العربي الحديث  
واتجاهاتهم الفنية، الشعر، المسرح، القصة، النقد  
الأدبي، دار المعرفة الجامعية، الاسكندرية، طبعة  
سنة ٢٠٠٥.
- نبيل أيوب، النقد النصي، دار المكتبة الأهلية،  
الطبعة الأولى سنة ٢٠١١.
- نبيل أيوب، نص القارئ المختلف وسيميائية  
الخطاب النقدي (٢)، مكتبة لبنان ناشرون، طبعة  
أولى سنة ٢٠١١.
- نوال السعداوي دراسات عن المرأة والرجل في  
المجتمع العربي، المؤسسة العربية للدراسات  
والنشر، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية ١٩٩٠.
- يمنى عيد، الرواية العربية المتخيل وبنيتها الفنية، دار  
الفارابي، بيروت، لبنان، طبعة ٢٠١١.
- ألجيرداس. ج. غريماس و جاك فونتينبي،  
سيميائيات الأهواء «من حالات الأشياء إلى  
حالات النفس»، ترجمة وتقديم وتعليق: سعيد  
بنكراد، دار الكتاب الجديد المتحدة، الصنائع،  
بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، آذار ٢٠١٠.

## مصادر البحث

- توفيق الحكيم، الرباط المقدس، الكتاب الذهبي،  
العدد الثامن والأربعون، دار روز اليوسف، طبعة  
سنة ١٩٥٦.
- توفيق الحكيم، نشيد الأنشاد، مكتبة الآداب  
ومطبعها بالجماهير، لا طبعة، لا تاريخ.
- ابن حزم، طوق الحمامة، تحقيق: إحسان عباس،  
دار الأندلس، بيروت، لبنان، طبعة سنة ١٩٨٠.

## مراجع البحث

- بسام قطوس، سيمياء العنوان، وزارة الثقافة،  
عمان، الأردن، الطبعة الأولى، سنة ٢٠٠١م.
- حميد لحميداني، النقد الروائي والايديولوجيا  
الرواية إلى سوسولوجيا النص الروائي، المركز  
الثقافي العربي، بيروت، الطبعة الأولى سنة ١٩٩٩.
- سيد حامد نساج، بانوراما الرواية العربية الحديثة،  
القاهرة، مكتبة غريب، الطبعة الأولى، سنة ١٩٨٥.
- سعيد بنكراد، السيميائيات السردية، منشورات  
الزمان، طبعة ٢٠٠١.
- عبد القادر الغزالي، الصورة الشعرية وأسئلة الذات،  
مؤسسة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، الطبعة  
الأولى، سنة ٢٠٠٤.
- عادل فريجات، مرايا الرواية دراسات تطبيقية في  
الفن الروائي، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، طبعة  
٢٠٠٠.
- عبد الرحمان غانمي، الخطاب الروائي العربي،  
قراءة سوسيو لسانية، الجزء الأول، الهيئة العامة  
لقصور الثقافة، القاهرة، الطبعة الأولى، سنة  
٢٠١٣.
- عبدالله الغدامي، المرأة واللغة، المركز الثقافي  
العربي، الدار البيضاء، طبعة ١٩٩٦.
- فريال كامل سماحة، رسم الشخصية في روايات  
حتامينة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،  
الأردن، الطبعة الأولى، سنة ١٩٩٩.

## الأشكال الفنيّة للمسرح العربيّ المصري

بين العام ١٩١٤ والعام ١٩٦٤

د. عمر عثمان

بوساطة الحكاية. وتثير الرحمة والخوف، فتؤدي إلى التطهير من هذه الانفعالات<sup>(٣)</sup>.

وحول ما عناه أرسطو من أنّ المأساة تثير الرحمة والخوف فتؤدي إلى التطهير، يقول ديفيد جيتش: «فالمأساة إذ تثير عاطفتي الشفقة والخوف فينا، تتيح لنا أن نترك قاعة المسرح بعقل هادئ، وقد تصرفت كلّ عواطفنا... وهناك خلاف كبير بين العلماء والنقاد حول ما عناه أرسطو طاليس فعلاً بالتطهير، ولكن يبدو جلياً أنّه كان يحمّل المأساة قدرة شفائية. فالمأساة في نظره، لا تقتصر على نقل النظرة الخاصّة التي تحملها، ولا تزودنا بالرضى المتأتّي عن مشاهدتنا لوحدها البنائية وحسب، ولكنها أيضاً تزودنا

### لمحة تاريخية

إذا استعرضنا تطوّر الدراما تاريخياً نجد أنّ هذا التطوّر قد ارتبط بتطوّر ما سبقه من الثقافات المختلفة، وسواء أكان بتطوّر النظرة العامّة إلى الحياة أم تطوّر التيارات الفكرية التي اتخذت أشكالها المختلفة، نتيجة لتطوّر المجتمع والقيم الإنسانية والدينية والاجتماعية والأخلاقية، وبسبب تطوّر قيمة الإنسان نفسه فرداً بالنسبة إلى المجتمع الذي يعيش فيه. كلّ ذلك ترك بصماته على الدراما منذ نشأتها حتى يومنا هذا<sup>(١)</sup>.

التراجيديا<sup>(٢)</sup>، أي المأساة، هي محاكاة فعل نبيل، كامل له طول معلوم، وهذه المحاكاة تتمّ بوساطة أشخاص يفعلون، لا

(١) رضا، حسين، رامز محمد: الدراما بين النظرية والتطبيق، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة ١٩٧٢، ص ٥٦.

(٢) معجم المصطلحات في اللغة والأدب، لمجدي وهبه، مكتبة لبنان، بيروت، سنة ١٩٧٩، ص ٦٢.

(٣) أرسطو طاليس، فنّ الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الثقافة، سنة ١٩٧٢، ص ٤٢.

تلك النظرة التي كان اليونانيون ينظرون بها إلى المسرح بوصفه منشأة دينية، فلم يكن يخطر ببال الشعراء المسرحيين قط أن ينشدوا موضوعات مسرحياتهم أو «يعقدوها» في غير نطاق الآلهة أو الأبطال الخرافيين، فكانت الأفعال المثيرة، والجرائم والعلل الوراثة، والكفارات، أعني ما يكفر به المذنبون عن خطاياهم، هي المادة الموضوعية التي تتناولها هذه المسرحيات، مصحوبة عادةً بصراع بين الإرادات ينشب بين الآلهة وبين بطل المسرحية أو بين الآلهة الصغرى والآلهة العظمى. وكانت المادة الموضوعية، والآلهة والأبطال والملوك موضع التبجيل والتقدير، ومعارك الشجاعة التي تثير الأمة وتدعو إلى الرثاء، ثم المصائر التي تسحق أصحابها وتطحنهم طحناً... كان ذلك كله يكسب المسرحيات جواً من الجاذبية العاطفية قد لا يمكن أن تشتمل عليه المآسي العائلية الصرفة، أو المسرحيات الغرامية التي لا تعدو العلاقات الإنسانية<sup>(٤)</sup>.

بمصرف أمين للعواطف القلقة التي تطردها بقوة<sup>(١)</sup>، إن عملية تصحيح أفعال الإنسان وأعماله هي التي يطلق عليها أرسطو اسم «الكاترسييس»، أي التطهير<sup>(٢)</sup>، ويضيف «بوتشر» Boucher أن التطهير، حسب ما ذهب إليه «أبقراط»، يفيد معنى إزالة عنصر مؤلم «للعقل» أو مخل به، وإزالة هذا العنصر يعين على تطهير ما بقي في العقل بعد أن تحرر من هذه المادة الداخلية، وهذا ما يجعل «بوتشر» يستنتج أنه بتطبيق هذا التعريف نفسه على «التراجيديا» يمكن أن نستنتج أن كلاً من الخوف والشفقة يحويان في الحياة الواقعية عنصراً مرضياً باعثاً على الخلل، وأثناء سيرورة التهيج التراجيدي يتم لفظ هذا العنصر مهما كانت طبيعته، فكلاً تقدمت أحداث التراجيديا أخذت جلبه النفس واضطراباتهما في التراجع بعد أن شجعت بادئ الأمر. وتحوّل أدنى أشكال الانفعالات إلى أرفع الأشكال وأكثرها تهذيباً ونقاءً شيئاً فشيئاً<sup>(٣)</sup>.

حددت المادة التي تعالجها المأساة اليونانية، من وجهة نظر شلدون تشيني،

ويقول بريان فيكرز Brian, Vikers إن

(١) ديفيد ديتش، مناهج النقد الأدبي بين النظرية والتطبيق، ترجمة د. محمد يوسف نجم، مراجعة إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ص ٧١.

(٢) «التراجيديا ونظامها الإكراهي عند أرسطو لبوتشر»، مجلة الحياة المسرحية، العدد ٢٨-٢٩، سنة ١٩٨٧، ص ٥٩.

(٣) رضا حسين، رامز محمد: الدراما بين النظرية والتطبيق، مصدر سابق، ص ٦١.

(٤) شلدون تشيني، تاريخ المسرح في ثلاثة آلاف سنة، ترجمة دريني خشبة، مراجعة علي فهمي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٣، ص ٧٢-٧٣.

مؤلفيه هو «تيسبيس» وهو أول من زاد في الحوار، وجاء بممثل منفصل عن الجوقة<sup>(٤)</sup>. وقد قاده تفكيره إلى أن يؤلف ما ينبغي أن يوضع على لسان الجوقة المنشدة، وعلى لسان ممثل واحد يحاور الجوقة وتحاوره، وجعل لهذا الممثل ألقنةً وملابس مختلفة، فاستطاع بذلك أن يتقمص عدّة شخصيات، فانتقل الأمر من مرحلة الردّ إلى مرحلة الحوار والحركة، وهنا ولدت التمثيلية، ووجدت التراجيديا.

إذا حاولنا أن نتبّع تاريخ المأساة الإغريقيّة، نجدها ولدت في أحضان الحفلات الدينيّة الموسميّة في أعياد «ديونيسوس» أو «باخوس» إله النماء والخصب وبخاصّة العنب والخمر، وقد اعتادوا أن يقيموا له حفلتين إحداهما في أوائل الشتاء، بعد جني العنب، وعصر الخمر، ويغلب عليها المرح، وتنشد فيها الأناشيد الدينيّة. ومن هذا النوع نشأت الملهاة (الكوميديا). والحفل الثاني في أوائل الربيع حين تكون الكروم قد جفّت وتجهّمت الطبيعيّة، وهو حفل حزين، ومنه نشأت

«المأساة اليونانيّة تختصّ أيضاً بالشعب. فهي تعالج العلاقات الإنسانيّة مثل العلاقة بين الأب والابن والزوج والزوجة والحاكم والأتباع والتعرّض للسلوك البشريّ في المسرحيات اليونانيّة ليس أمراً خاصّاً ينفرد به نوع «المأساة اليونانيّة» لأنّه يتعلّق بالأهواء الإنسانيّة التي تنعكس بدرجة أقلّ أو أكبر في آداب الأمم كافّة عبر مراحلها الزمنيّة المختلفة. إنّ الشعب، في المأساة اليونانيّة، يحبّ ويكره مثلنا تماماً، ويتعرّض للحماية أو الدمار كما يصيبنا نحن، ويخدع أحدهم الآخر، يسيؤون القول أو يمضون مصدّقين إلى أقصى نهاياتهم، إنهم ليسوا أقلّ منّا أو من أسلافنا، اهتماماً وأمثلاً بسلامة الذات والعدالة والسياسة القوميّة<sup>(١)</sup>.

إنّ اليونان هم أول من اهتمّ بالمسرح ووضع له نظاماً خاصّاً، وأخذ عنهم العالم هذا الفنّ<sup>(٢)</sup>. فالمسرح المعروف اليوم، ونعني فنّ المسرحيّة، إنّما نشأ عن المأساة اليونانيّة. وهي ابتكار يونانيّ<sup>(٣)</sup> لا بداية أكيدة له، إنّما يبدو لأول وهلة أنّ أول

(١) Brian, Vikers, *Towards Greek Tragedy*, Longman, London and New York published, First published in paperback with correction 1979, p. 139-147.

(٢) المسرحيّة للدسوقي، مصدر سابق، ص ٨.

(٣) *A world drama*, by A. Nlicoll, London, 1949; Jeannerie, H. Dionysos, chapter 6, p. 331; Robert F., *La Literature grecque*, p. 35-36.

(٤) الحكيم، توفيق، مقدمة أوديب - مسرحيّة، دار الكتاب اللبناني - بيروت، سنة ١٩٧٣، ص ١٦-١٧.

أرسطو طاليس، فن الشعر، ترجمة عبد الرحمن بدوي، مصدر سابق، ص ٢٠.

نصفهم الأعلى، وصور الماعز في نصفهم الأسفل، ومن هنا اشتقت لفظة «التراجيديا» أي المأساة، وهي مركبة من كلمة أغنية وكلمة جدي، تركيباً مزجياً، وأخيراً وضع اسخيلوس (٥٢٥-٤٥٦ ق.م) أول مسرحية شعريّة وهي الضارعات حوالي سنة ٤٩٠ ق.م، وكان فيها ممثلان رئيسيان، إلى جانب الفرقة، ثمّ توالى نتاجه المسرحي إلى أن ظهر الشاعر اليوناني الكبير سوفوكليس (٤٩٥-٤١٦ ق.م) وأضاف ممثلاً ثالثاً إلى الممثلين اللذين أدخلهما «أسخيلوس»، وقوى جانب التمثيل على جانب الغناء، وقد أدّى هذا إلى تقدّم سريع في الحوار المسرحي بدل ترانيم الجوقة، وأتاح فرصة أكبر للتباين بين الأشخاص، وسمح بألوان متنوّعة من الحوادث، وقد حصل الذين يكتبون للمسرح على مزيد من العناية بالفن المسرحي، ما يجعل اليونان أول من اهتمّ بالمسرح ووضعوا له نظاماً عاماً، وعندهم أخذ العالم هذا الفنّ<sup>(٥)</sup>.

المأساة «التراجيديا»<sup>(١)</sup>. وقد نشأت المأساة في الأصل ارتجالاً على يد مؤلّفي «الذيثير امفوس»<sup>(٢)</sup>، ثم نمت شيئاً فشيئاً باتجاه العناصر الخاصّة بها، بعد أن مرّت بعدة أطوار ثبتت واستقرّت عندما بلغت كمال طبيعتها الخاصّة<sup>(٣)</sup> وهو الأغنية الجماعيّة التي كانت تقدّمها جوقة وهي تقوم ببعض الحركات التعبيريّة، والرقصات التي تشرح وتؤكد معاني الكلمات، وهذا الذيثير امفوس هو الجنين الدرامي<sup>(٤)</sup>.

كان التمثيل الأوّل عبارة عن بعض الرقص والأناشيد والأغاني التي تعبّر عن حزنهم لغياب الإله، والابتهاال إليه كي يعود ثانية، ثم مثل شخصيّة «ديونيسوس» فكانت الجوقة والفرقة التي تشير إليه، وهو على مسرح مرتفع، ثمّ أدخل الحوار بينه وبين الجوقة، ثمّ مثلت شخصيّات أخرى يرد ذكرها في الأغاني والأناشيد، وكان الممثلون يظهرون على هيئة الشرّ في

(١) الدسوقي، عمر: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٧.

(٢) الذيثيرامفوس هو شيء من روح المأساة وبعض عناصرها لاعتباره النواة الأولى للمأساة، والواقع أنّه احتفال يقوم على خليط من رقص وغناء، وعلى التضحية بحيوان، وكانت تؤدّيه الجوقة في أعياد الإله ديونيزوس عند اليونان، وأصل الكلمة مجهول، وكانت تُطلق صفة على ديونيزوس، أو كانت لقباً من ألقابه.

حول ديونيزوس وقصته وما يمثّل من روح اليونانيين، المرجع:

"Dictionnaire illustré de la Mythologie Greque et Romaine", "Les belles lettres", Paris, 1948, "Dionysos".

عن المأساة ومسرح النهضة، للدكتور أنطوان معلوف، ص ١٣.

(٣) أرسطو طاليس، فنّ الشعر، مصدر سابق، ص ١٠.

(٤) عثمان، أحمد: «الشعر الإغريقي تراثاً إنسانياً»/ مجلّة عالم المعرفة، عدد ٧٧، الكويت سنة ١٩٨٤، ص ١٨٧-١٨٨.

(٥) الدسوقي، عمر: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٧-٨. راجع أيضاً:

The Martyrdom of Man By WinWood Read, p. 144-146.

## الاحتفالات المأسوية في الشرق الأوسط

حوادثها حول إيزيس وأوزيريس وابنهما حورس وعدوهم «ست» إله الظلام، كانت القصة تدور حول بحث إيزيس عن جثة أخيها وزوجها أوزيريس، يساعدها ابنها حورس الذي ينتقم من «ست» إله الظلام الذي تسبب في موت والده، ويتمكنان من إعادة أوزيريس إلى الحياة. وكانت تُقام المناحات على أوزيريس، يشترك فيها الكهنة والشعب، وكانوا يمثلون قصته في المعابد<sup>(٢)</sup>.

وذكر هيرودوتس أن الإغريق قد أخذوا فن المسرحية عن الفراعنة وإن لم يتطور هذا الفن عندهم ويخرج عن نطاق الدين. وهناك مسميات متشابهة بينهما. فأوزيريس الإله المصري القديم، ودينوسوس يرمز كل منهما إلى الخصب والنماء<sup>(٣)</sup>.

أما في لبنان، فكانوا يحتفلون كل سنة في بداية الربيع بموت أدوني - أدونيس - زوج عشتروت إلهة الخصب، حيث انقضت عليه خنزير بري عندما كان يصطاد في غابة فينيقيا وجرحه وقتله، ونزل دم الإله الشاب غزيراً حتى نهر أدونيس - ابراهيم حالياً - فصارت مياه النهر دماً. وكانت

وإذا نظرنا إلى شرقنا الأوسطي نجد أن حضارات قديمة قد مرّت عليه، مثل الحضارة المصريّة والكنعانيّة والفينيقيّة، وكانت بدورها مهد الحضارات باحتفالاتها المأسوية، وأعني احتفالات مصر بأعياد إيزيس وأوزيريس، واحتفالات جبيل «ببيلوس» بأعياد أدونيس، وقد ترقى هذه الاحتفالات إلى الألف الثاني قبل الميلاد<sup>(١)</sup>، وبينها وبين احتفالات اليونان المأسوية وجوه شبه أكيدة، سنحاول إلقاء بعض الضوء عليها.

أشار المؤرخ الإغريقي هيرودوتس (٤٨٤-٤٢٥ ق.م.) إلى قيام كهنة الفراعنة بطقوس دينية في شبه عرض تمثيلي يستمد قصصه من بحث إيزيس عن أوزيريس، ولم يذكر أدلة أو يسق شواهد. وظل المسرح الفرعوني غامضاً حتى أتى الكشف الحديث الذي قام به كونتر سنة ١٩٢٧ وكورت سنة ١٩٢٨ تبين لنا أن ثمة نصوصاً تمثيلية قديمة بعضها يقع في أربعين مشهداً، كتلك التي اكتشفها كورت وتدور

(١) James, E.O. *Mythes et rites dans le Proche-Orient ancien*, Paris, 1960, p. 36-38.

عن المأساة ومسرح النهضة، المصدر السابق، ص ١٤٤-١٤٦.

(٢) الدسوقي، عمر: المسرحية، مصدر سابق، ص ١٤.

(٣) عوض، لويس: المسرح المصري، دار إيزيس، القاهرة، سنة ١٩٦٣.



المصريّة، وهي رموز يُدعى أحدها زد أو دد، كان يؤكّد الكهنة المصريون أنها من عظم فقار أوزوريس أو ترمز إليه. وفي رواية المؤرّخ بلوتارك (٤٦ - ١٢٠) القرن الأول ق.م. عن أوزوريس أنّ مياه النيل دفعت التابوت إلى ضمّ جسد الإله إلى البحر، فحملته الأمواج إلى بيبيلوس جبيل، وأنّ إيزيس لحقته إلى هناك وجلست تبكيه بجوار بئر. ولما حصلت على التابوت بمعونة ملكة المدينة ونسائها حملته وعادت به إلى مصر<sup>(٣)</sup>.

«ولا تزال تجري في مصر ولبنان احتفالات أشبه ما تكون «الذيثير امفوس» والمآتم المأسوي، ونعني الزار المصري والعاشوراء التي ما زال الشيعة يحتفلون بها في جنوب لبنان، وفيها الكثير من وجوه الشبه بالمآتم المأسوي، وقد توفّر على دراستهما بعض البحّاث الغربيين منذ نهاية القرن الماضي، واعتبروهما شهادة حيّة، نادرة المثال على احتفالات اليونان المأسويّة، وأنّ في دراستهما ومقارنتهما بالذيثيرامفوس والمآتم المأسويّ ما يزيدنا

الاحتفالات تدوم ثمانية أيام: السبعة الأولى كانت للمناجاة وجزازة الإله، فكان الناس يزرعون في أواني الفخار حبوب الحنطة أو سواها، فإذا نبتت في اليوم الثامن كانت دلالة على قيام أدوني من الموت فتجري عندها احتفالات الفرحة بقيامته. وكانوا يشعرون به حاضرًا في كلّ مكان، ولم يدع أحد أنّه رآه، ولكنّه في اعتقادهم كان هنا، وكان الرجال والنساء يردّدون: أدون قام، أدون قام<sup>(١)</sup>.

ولا نعلم بالضبط إن كانت جبيل قد أخذت من مصر أو العكس، إنّما نعلم أنّ نساء جبيل كنّ يهرعن إلى شاطئ البحر في صبيحة اليوم الثامن من الأدونيات، فيجدن على الشاطئ جذعًا من شجر البردى النابت على ضفاف النيل كانت نساء الإسكندريّة قد رمين به في البحر قبل ذلك بأيّام، وكان وصوله بشريّ قيامة أدوني<sup>(٢)</sup>. وقد عُثِر في حفريات جبيل سنة ١٩٤١ على بقايا معبد معاصر لبناء الأهرام الكبرى - القرن الثامن والعشرين ق.م. - وفي بقاياها هنات من عاج مثلها كثير في حفريات الآثار

(١) Adonis Conteneau, G.: *La Civilisation phénicienne*, Paris, Payot, 1926.

عن المأساة ومسرح النهضة، مصدر سابق، ص ٣٧.

(٢) Virolleaud, Ch.: *Le gendier de Bebylone et de Canaan*, Paris, Maisonneuve, 1949, Ch. III.

عن المأساة ومسرح النهضة، مصدر سابق، ص ٤٠.

(٣) Ibid., Ch. II. Meantis G. Sophocle, *Essai sur le Héros tragique*, Paris, Albin Michel, 1957, "Introduction", p. 40.

فهمًا للإحتفال المأسويّ ويقربنا من  
المأساة»<sup>(١)</sup>.

فقد تطوّر المسرح اليوناني إذا من  
أناشيد دينية. ويستند الدارسون إلى ما  
ذكره هيرودوتس من أنّ اليونان أخذوا تلك  
الطقوس الدينية عن الفراعنة. ويعزّز ذلك ما  
تمّ اكتشافه مؤخرًا من نصوص دينية  
تمثيلية تدلّ على أنّ الفراعنة عرفوا التمثيل  
الدينيّ في صورته الأولى. فالأسطورة  
الدينية التي تدور حول الصراع بين الخير  
والشر، أو بين الحياة والفناء كانتبين  
أوزوريس إله الخير والحياة و«ست» إله  
الشر والفناء، إلا أنّ هذا التمثيل اقتصر على  
شكل أناشيد دينية داخل المعابد المصرية.  
ولذلك فإنّ مثل تلك الأساطير لم تتمّ  
وتتطور لأنها لم تخرج من المعابد المغلقة  
بحيث يمكن أن تصبح فنًا مسرحيًا له  
قواعده وأصوله<sup>(٢)</sup>.

### تطور الحركة المسرحية في عصر النهضة

وكان للرومان جولتهم التالية، وتسلموا

تراث اليونان والتزموا بنماذجهم  
المسرحية، وتمسّكوا بها بقوة، ما دعا إلى  
ازدهار فنّ الملهاة عندهم، أمّا فنّ المأساة  
فلم يضيفوا إليه جديدًا يعرفون به<sup>(٣)</sup>.

ولم يسلم الفنّ المسرحي، في العصور  
الوسطى، من الجمود، حيث اختفى  
«المسرح الوثني الرومانيّ واليونانيّ»  
بتقاليده ومصطلحاته، وحلّ محله مسرح  
دينيّ ضعيف مثلّت عليه مسرحيات هزيلة،  
كانت تمثّل غالبًا في ساحات الكنائس، وقلّمًا  
تجاوزت حياة القديسين<sup>(٤)</sup>.

أمّا في القرنين الخامس عشر والسادس  
عشر، أي أوائل عصر النهضة الأوروبية<sup>(٥)</sup>،  
فقد ظهرت حركة أدبية وفكرية دعت إلى  
إحياء التراث اليونانيّ القديم، بحيث وصل  
الإنتاج الإيطالي في ميادين التصوير  
والعمارة والنحت إلى مرتبة عالية وبارزة،  
بيد أن النتاج في ميدان المسرح بدا مخيبًا  
للآمال إذا ما قورن بالإنتاج في تلك  
الميادين الأخرى، ما يشير إلى أنّ ضعف  
الإنتاج المسرحي في إيطاليا يعود إلى

(١) Meantis G. Sohocle, Essai sur le Héros tragique, Paris, Albin Michel, 1957, "Introduction", p.40.

(٢) مندور، محمد: المسرح، دار المعارف بمصر، القاهرة، سنة ١٩٥٩، ص ١١،

(٣) ضيف، شوقي: في النقد الأدبيّ، دار المعارف بمصر، د.ت.، ص ٢٣٤.

(٤) ضيف، شوقي، المرجع المذكور، ص ٢٣٤.

(٥) هو العهد المعروف بال«رينسانس» Renaissance (القرنان ١٥ و١٦)، وهو عهد تجدد أدبيّ وفنيّ علميّ أحدثه في  
إيطاليا ثمّ في فرنسا وسائر الدول، مجيء رجال الأدب والفنّ البيزنطيين، بعد فتح الأتراك القسطنطينية سنة ١٤٥٤ وقد  
ساعد على نجاح النهضة اكتشاف الطباعة وتشجيع الأمراء والباباوات، ولاسيما يوليوس قيصر الثاني. راجع:  
المنجد، المطبعة الكاثوليكية، ج ١٩، ٢٥ آذار سنة ١٩٦٦، ص ٥٤١.

عصر النهضة مثل شكسبير في إنجلترا، وبيدرو كالدرون جلابلاركا (١٦٠٠-١٦٨١) ولوي دي فيجا (١٥٦٢-١٦٣٥) الإسبانيّين ومن ثمّ كورني وراسين وموليير في فرنسا، لم ينفصل عن الخلفيات السياسيّة التي كان يعيش فيها معاصروهم وتشغل الناس من حولهم، ولم يكن مسرحهم ليقف على الحياد، بل أثر بفاعليّة في الحياة العامّة، وطرح القضايا الاجتماعيّة ذات الخلفيات السياسيّة الواضحة، كما صوّر بشيء من التفصيل والإغراق في التفصيل مراحل تاريخيّة وحياة ملوكهم وأمراءهم سادة ذلك العصر، وصانعي سياسته وأحداثه. وقدّم أولئك الكتاب وجهة نظرهم وتفسيراتهم في حوادث تاريخيّة تعود إلى العصر الرومانيّ واليونانيّ، وإلى الأيام والسنين التي تلت ذلك، فأسقطوا بعضها على عصرهم، مبقيين على معالجة إنسانيّة شاملة وقويّة، ولم يكونوا أبواقًا، أو يجعلوا من المسرح صحيفة يومية، ولا حولوا الثقافة إلى جهاز إعلامي، ولكنهم، مع ذلك، لم يتمكّنوا من الانفصال عن الأحداث الجارية، فكان أدبهم

الحالة السياسيّة التي كانت سائدة في المنطقة يومذاك، فلم تكن هناك وحدة قوميّة ولا درجة كبيرة من الاستقرار السياسيّ، ولكن عندما يتمركز الاستقرار السياسيّ في حياة الأمم، ولو في مدينة واحدة، كما حدث في باريس عند الفرنسيّين، ينشأ كما نشأ مع موليير (١٦٢٢-١٦٧٣) مسرح قوميّ يتّجه إلى جمهور من الخاصّة.. أمّا فيما عدا ذلك، فالأغلب أنّ المسرح لا يزدهر حقًا إلا في ظروف أكثر ديمقراطيّة من ظروف إيطاليا في عصر النهضة<sup>(١)</sup>. إلا أنّ الذي يميّز النهضة الإيطاليّة هو استبعاد المسرحيّة الدينيّة تمامًا، وذلك بالعودة بالتطوّر المسرحيّ إلى طريقه القديم في الأزمنة الكلاسيكيّة. ونلخص ما قامت به النهضة الإيطاليّة بأنّها فتحت للعالم طريقًا جديدًا للإخراج، كما قدّمت له طريقة جديدة لتهيئة المسرحيّة وإعداد ملابسها، ثمّ كانت الطريقة غير مباشرة بمكان الأب لشكسبير (١٥٦٤-١٦١٦) وجونسون (١٥٧٢-١٦٣٧) وكورني (١٦٠٦-١٦٨٤) وراسين (١٦٣٩-١٦٩٩) وغيرهم<sup>(٢)</sup>.

إنّنا لا نورّخ هنا للمسرح في عصر النهضة، وإنّما نشير إلى أنّ إنتاج أعلام

(١) فرانك م. هوايتنج: المدخل إلى الفنون المسرحيّة، ترجمة كامل يوسف، د. رمزي مصطفى، بدر الغريب، دريني خشبة ومحمود السباع، دار المعرفة، ج.م.ع. وزارة التربية، القاهرة، أكتوبر سنة ١٩٧٠، ص ٤٥-٥٧.

(٢) شلدون تشيني: تاريخ المسرح في ثلاثة آلاف سنة، ج ١، ترجمة دريني خشبة، مراجعة علي فهمي، المؤسسة المصريّة العامّة للتأليف والترجمة والنشر، القاهرة، سنة ١٩٦٣، ص ٢٦٣.

على تماسّ بالواقع، والسياسة عنصر  
أساس ورئيس فيه<sup>(١)</sup>.

معناه، العثور على معنى جديد للوحدة  
القومية<sup>(٢)</sup>.

وقد أدرك عصر النهضة إنكلترة كما  
أدرك غيرها من البلاد، وانكشفت للأبصار  
عجائب العلم القديم، وعرضت المسرحيات  
اللاتينية كما عرضت في الدول الأخرى، مع  
وجود اختلاف رئيس في المجال الذي  
مثّلت فيه هذه المسرحيات، وذلك أنها لم  
تعرض في أماكن مختلفة داخل قصور  
الملوك، كما حدث في إيطالية، ولا في احوال  
الحرب الأهلية، كما حدث في فرنسة، ولا  
في مجال مقيد كمجال إسبانية. ومن  
الناحية الأساسية فقد استقرت إصلاحات  
هنري الثامن (١٤٩١-١٥٠٩) في البلاد،  
وهدف الناس على اختلاف عقائدهم إلى  
الصالح العام، فكان على رأس الأسطول  
الإنجليزي الصغير أحد الكاثوليك، وقد  
واجه بأسطوله بأس الأرمادا الكاثوليكية<sup>(٣)</sup>.  
فلم يكن معنى عصر النهضة في إنجلترا  
اكتشاف الثقافة الكلاسيكية مجددًا، أو فتح  
آفاق جديدة أمام الفنّ فحسب، وإنما كان

أما عن واقع المسرح الإسباني في  
عصر النهضة، فقد واجهته عقبتان  
أساسيتان هما: هزيمة الأرمادا الأساسية  
من ناحية، ومحاكم التفتيش<sup>(٤)</sup> من ناحية  
ثانية، تلك المحاكم التي كانت تقمع أية  
حرية للتفكير في الدين أو السياسة. ولئن  
كان الكاتب المسرحي لم يستطع أن يتحرّر  
من سلطة الدولة والكنيسة، فإنه قد تحرّر،  
على الأقلّ، من القواعد التي فرضها النقاد  
الأوروبيون، والتي كانت سببًا في اختناق  
الدراما الجادة في إيطاليا، فعلى الرغم من  
أن معظم الكتاب الإسبان كانوا على علم  
بهذه القواعد، فإنهم لم يبدوا اهتمامًا كبيرًا  
بأبوابها<sup>(٥)</sup>.

وفيما كانت المأساة الكلاسيكية تسير  
قُدّمًا في فرنسا، كانت الملهاة تتطوّر تطوّرًا  
مماثلًا، وقد ظهر في هذا الميدان موليير  
(١٦٢٢-١٦٧٣) الذي استمدّ مادته - كما  
فعل أرسطوفان من قبل، من الحياة المحيطة

(١) عرسان، علي عقلة: سياسة في المسرح، منشورات اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سنة ١٩٧٨، ص ١٥٠.

(٢) الأرمادا هو الأسطول الإسباني الذي أرسله فيليب، لغزو إنجلترا، فأغرقته العواصف عام ١٥٨٨.

راجع المنجد في الأدب والعلوم، ط ١٩، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ٢٥ آذار ١٩٦٦، ص ١٥.

(٣) راجع المسرحية العالمية، الجزء الثاني، للأرديس نيكول، ترجمة محمود حامد شوكت، المؤسسة العربية للتأليف  
والأبناء والنشر، د. ت.، ص ٤-٥.

(٤) محكمة التفتيش: محكمة دينية مدنية في القرون الوسطى. كانت تقتص من الخارجين عن الدين لكونهم أعداء الدولة  
أيضًا. المنجد، مصدر سابق، ص ١١١.

(٥) فرانك م. هويتنج: «المدخل على الفنون المسرحية»، مرجع سابق، ص ٥١.

به مباشرة. وهكذا نرى الكوميديا تعود مرةً أخرى إلى أداء وظائفها، فهي تقدّم التسلية والفكاهة، ولكّنها، في الوقت نفسه، تنهال بسوِّطٍ من التهكّم على حماقات المجتمع وسخافاتهِ<sup>(١)</sup>.

### العرب وعقائدهم

إذا كان العرب الذين اشتهروا بترائهم الشعريّ القديم الذي لم يساعد على اختراع الأدب التمثيليّ، لم يتركوا أثرًا شعريًّا في مجال المسرح، فالشيء الذي لا يستطيع الإنسان أن يتجاهله هو أنّ كلّ شعب من الشعوب قد عرف شكلاً من أشكال المسرح، ولئن اتخذت هذه الأشكال طابعاً دينياً سبقت شكل المسرح المتعارف عليه، وكانت البذور الأولى التي عودتهم على تقبّل هذا الفنّ<sup>(٢)</sup>.

إذا نظرنا إلى العرب من هذه الناحية، وجدنا أنّه كان لهم قبل الإسلام، كما بعد الإسلام، احتفالهم الدينيّ الكبير، وهو الحجّ إلى مكة، وكان لهم أيام حرب ونزال، وأسواق، وأساطير دينية، وإن لم تكن في مستوى الأساطير اليونانية لكن، لم تولد عندهم الجوقة والأغاني والقصص الديني، ولا الملاحم.

إذا كان العرب قد اشتهروا بترائهم الشعريّ القديم، وجعلوه سبيلاً إلى افتخارهم وتفوّقهم، فإنهم لم يتركوا من هذا الشعر ما يدلّ على معرفتهم بالشعر المسرحي، أو اطلاعهم على هذا الفن من خلال الترجمات القديمة على نحو ما أخذوا مبادئ العلوم والفلسفة والمنطق في العصر العباسي، وذلك باعتبار أنّ المحاكاة مدرسة حقيقية للأصالة، وقد كان من الممكن أن يلقّح العرب الأدب التمثيلي بعقليّتهم الشرقية على نحو ما لقحوا الفلسفة اليونانية<sup>(٣)</sup>، ولكّنها لم يفعلوا، وأهملوا كلّ ما يتعلّق بالمسرح الإغريقي وغيره لظروف اختلف في تفسيرها المؤرّخون الذين حاولوا أن يصلوا إلى الأسباب أو الموانع التي حالت دون إيجاد مسرح عربيّ قديم كغيره من المسارح الأوروبية التي قامت على دعائم المسرح الإغريقيّ القديم، كالمسرح الفرنسي، والمسرح الإنكليزي وغيرهما.

«إذا كان الذيثيرامفوس والمأتم المأسوي أهمّ احتفالين نشأت عنهما المأساة، فإنّ في مصر ولبنان احتفالين

(١) المصدر نفسه، ص ٧٣.

(٢) الأحمد، أحمد سليمان: دراسات في المسرح العربي المعاصر، دار الأجيال، دمشق، ١٩٦٦، ص ٩-١٠.

(٣) مندور، محمد: مسرحيات شوقي، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط ٣، سنة ١٩٥٤، ص ٧؛ أيضًا:

World Drama, by Nicoll, London 1949. *The Martyrdom of Man*, by Winwood, p. 144-145.

بأقيين ولا يزالان يعدّان شهادة حيّة عليهما، ونعني بهما: الزار المصري وفيه الكثير من وجوه الشبه «بالذيثيرامفوس» والمأتم المأسوي ما يزيدنا فهماً للإحتفال المأسوي وقرباً من المأساة»<sup>(١)</sup>.

اللبنانيّين والسوريّين الذين هربوا من جور الولاية، ومنها ينطلقون ويقتسمون والمصريّين همّ النهضة، ويضطلعون معاً بأعبائها<sup>(٢)</sup>. وكان المسرح من الهموم الأولى التي قابلتهم في مصر.

## المسرح العربيّ في مصر

### المسرح المصريّ حتّى الحرب العالميّة الأولى:

ورث محمد علي باشا (١٧٦٩-١٨٤٩)، التركة النبوليونية، كما ورث الفتحين: الثقافي والحربي، فورثت مصر بذلك المدرستين<sup>(٣)</sup> اللتين أنشأهما الفرنسيّون لتعليم أبنائهم، والمطبعة ودار المطالعة والرسوم التي تمثّل الشخصيات العربيّة، كما ورثت المصانع والمعامل. وكان لا بدّ أن تؤثّر رؤية هذه المحدثات، وتبعث على التفكير في الوسائل الموصلة إلى مثلها. ثم ما لبثت مصر بفضل الحرية التي تتمتع بها أن أصبحت موثّل الأحرار، فإذا هي موطن

تقول المصادر<sup>(٤)</sup> إنّ الممثّلين والموسيقيّين الفرنسيّين وصلوا إلى مصر بعد الحملة الفرنسيّة عليها، وإنّ «الجنرال مينو» هو الذي أوجد المسرح الفرنسي هناك. ولكن هذا لا ينفي أنّ الفرق المسرحيّة الإيطاليّة هي التي نهضت بالعبء الأكبر من نشاط المسرح في مصر إبّان النصف الأوّل من القرن التاسع عشر، وخصوصاً من خلال تلك الزيارات التي كانت تقوم بها تلك الفرق إلى القاهرة والإسكندريّة معاً، وهما المدينتان اللتان عاش فيهما جلّ الإيطاليين المقيمين في مصر، وأصبح من الطبيعي جداً أن تزورهما الفرق الإيطاليّة في أغلب الأوقات<sup>(٥)</sup>. وعلى ذلك، يمكن الزعم بأنّ المسرح الإيطالي في الإسكندريّة كان له

(١) أنطوان معلوف: المأساة ومسرح النهضة، مصدر سابق، ص ٤١.

(٢) الحويّك، الياس طنّوس: نابليون الأوّل، مكتبة زيدان العموميّة، القاهرة، د.ت.، ص ٩٩-١٠٠.

(٣) ليكي، صلاح: «التيارات الأدبيّة الحديثة في لبنان»، لبنان الشاعر، الدراسات العربيّة العاليية، جونية، لبنان، ١٩٥٤، ص ٤٩-٥٠.

(٤) زيدان جرجي: تاريخ آداب اللغة العربيّة، مجلد ٤، دار الحياة، بيروت، ١٩٦٧، ص ١٣٢-١٥٣؛ حسونة، محمد أمين: المسرح المصري في الشرق الأدنى، القاهرة، ١٩٥١، ص ١٦.

(٥) لنداو، يعقوب: دراسات في المسرح والسينما عند العرب، ترجمة أحمد المغازي، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٢، ص ١٠٩.

أكثر فخامة وأروع فنًّا، فأقيمت دار الأوبرا<sup>(١)</sup> عام ١٨٦٩ في القاهرة، وتمّ بناؤها في مدة لا تتجاوز الستّة أشهر، وكان ذلك وقتًا قياسيًّا للسرعة في ذلك العهد، عهد الخديويّ إسماعيل (١٨٦٣-١٨٧٩). وجاءت مع ذلك تحفة رائعة أقيمت على خير طراز فنّي، ولكن للأسف الشديد، كانت ومسرح الأزيكّيّة قد خُصّصا للفرق الأجنبيّة التي كانت تُستقدم من الخارج، وقد شهدت دار الأوبرا خيرة الفرق العالميّة الأجنبيّة<sup>(٢)</sup>.

إذا نظرنا إلى الأرضيّة الثقافيّة الموجودة في مصر، في هذه المرحلة التاريخيّة نجدها أرضيّة مؤهّلة لمثل هذا الفنّ، رغم العقبات التي كانت تحول دون انتشاره بين النّاس، وقد ذكرنا هذه الأمور في بداية حديثنا عن المسرح<sup>(٣)</sup>. ولكن بعد هجرة السوريّين وانتشار الوعي الثقافيّ، نتيجة للاتصال المباشر وغير المباشر، والاستقرار السياسيّ في عهد الخديوي الذي يبتدئ من عهد محمد علي إلى عهد إسماعيل، نجد أنّ الموازين الاجتماعيّة والثقافيّة قد تطوّرت إلى الأفضل، وأصبحت الحركة المسرحيّة تجد الذي يصفق لها

نصيب كبير في إعداد السكان من الأهالي لاستيعاب فكرة المسرح، بعد عرض تلك المسرحيّات التي كانت تمثّل أمامهم. وهكذا يمكننا أن نفهم بسهولة أكثر كيف أنّ المسرح السوريّ في قلبه الأوروبي لم يلبث أن قوبل بالترحاب والحفاوة في مصر، مع أنّ هذه المظاهر كانت مرتجلة، لا تنم عن وعي صحيح، أو تفهّم عميق لفنّ المسرح وأصوله، ومع ذلك لا نستطيع إلاّ أن نعدّها البذور الأولى لهذا الفنّ الذي بدأه مارون النقاش (١٨١٧-١٨٥٥) وتلامذته، كما طوّره أبو خليل القبّاني (١٨٣٣-١٩٠٢) الذي ترك سوريا، هربًا من المعاملة القاسية والحكم الجائر الذي ألّب عليه الأهالي، فأحرقوا مسرحه وسرقوه، فأخذ يتلمّس أرضًا غير أرضه، فلم يجد إلاّ أبواب مصر مفتوحة لكلّ قادم مظلوم، ليجد على أرضها متنفسًا لمع يعتمل في نفسه.

ظلّت مصر خاليةً من التمثيل العربيّ، وسبقتها سورية، إلاّ أنّ القاهرة مع ذلك كانت أسبق مدن الشرق في إقامة المسارح، حيث أقيم فيها مسرح الأزيكّيّة عام ١٨٦٨، ومع أنّه كان من أفخم المسارح في ذلك الوقت، إلاّ أنّ القائمين بالأمر رأوا إقامة دار

(١) بُنيت الأوبرا للاحتفالات التي ستقام بعد افتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ وكان بعد قرن من إقامتها أن احترقت في ظروف غامضة. مختار سيوفي: ألوان من النشاط المسرحي في العالم، ص ١٢٥.  
(٢) رشيد، فؤاد: تاريخ المسرح العربي، «كتب للجميع»، القاهرة، ١٩٦٠، ص ١٩.  
(٣) أنظر طلائع المسرح في لبنان من هذه الدراسة.

ويشجعها، ولكنها لم تكن حركة ذات طابع اجتماعي وفني إلا بعد أن وفد إليها السوريون، أمثال مارون النقّاش وأديب اسحق، والخياط والقبّاني، لينشروا فيها بذور هذا الفنّ الجديد، ولينجحوا في بناء أساسه نجاحًا كبيرًا، حيث أرادوا إحياء فنّ التمثيل في مصر، فجاهدوا كثيرًا في سبيل ذلك، واقتحموا الصعوبات التي كانت تلاقيهم غير هيّابين، فأنشأوا بأيديهم هذا الفنّ، بعد أن كانت مصر لا تعلم من أمره شيئًا كبيرًا<sup>(١)</sup>.

وتضاعف النشاط المسرحي في مصر، بسبب قدوم الفرقة الشاميّة الجديدة، هي فرقة أبي خليل القبّاني<sup>(٢)</sup>، فقد قدم إلى مصر سنة ١٨٨٤، وعمل مع إسكندر فرح أولًا، ثمّ انتقل إلى القاهرة، وعمل على مسرح الأوبرا، وتنقّل بعد ذلك في عدد من الأقاليم والمدن المصرية<sup>(٣)</sup>.

انتقل المسرح المصريّ إلى طور جديد بقدوم القبّاني وفرقته، لأنّه كان معتمدًا - في الغالب - على المسرحيّات الأجنبيةّ المعرّبة، سواء مُصّرت أم لم تُمصر، فلمّا جاء القبّاني اتجه نحو التاريخ العربيّ الإسلاميّ<sup>(٤)</sup>، فوضع مسرحيّاته: «عنتره»، «الأمير محمود»، «نجل شاه العجم»، «ناكر الجميل»، «هارون الرشيد»، «أنس الجليس»، «نفع الربى» و«الشيخ وضّاح»، وغيرها. وقد امتاز أسلوبه في تلك المسرحيّات بأنّه أرقى لغة، وأقرب إلى العربيّة الفصحى، وقد استعمل السجع والشعر معًا<sup>(٥)</sup>. على أنّ مسرحيّاته كانت أوهى حبكة، وأضعف سياقًا من المسرحيّات المعرّبة<sup>(٦)</sup>.

ساعد نجاح مسرح القبّاني على السير في اتجاهه وتجديده، كما ساعد على وضع الأسس وتقدّم خطوة إلى الأمام، وأمام هذا النجاح الذي واكب القبّاني، وبسبب من

(١) مندور، محمد: المسرح الثري، ص ١٩.

(٢) نجم، محمد يوسف: المسرحيّة في الأدب العربي، دار بيروت، بيروت ١٩٥٦، ص ٦٠-٦٨؛ طلائع المسرح العربي، لتيّمور، المطبعة النموذجيّة، مصر، د. ت.، ص ٣٠-٣٣.

(٣) نجم، المسرحيّة، مصدر سابق، ص ١١٥ وما بعدها.

(٤) من الذين شاركوا في هذا الاتجاه التاريخيّ العربيّ الإسلاميّ، الزعيم مصطفى كامل (١٨٧٤-١٩٠٨) حين كتب روايته «فتح الأندلس» وهو لا يزال طالبًا بالحقوق سنة ١٨٩٢ وموضوعها: صراع بين الجاسوسيّة الروسيّة وبين العرب خلال «فتح الأندلس». وقد جمع فيها الشعر والأناشيد والنثر المسجوع. - راجع المسرحيّة لعمر الدسوقي، ط ٥، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٣٠.

(٥) لقد جمع محمد يوسف نجم مسرحيّاته في كتاب خاص تناول القبّاني وأعماله، وهو بعنوان: المسرح العربي - دراسات ونصوص أحمد أبي خليل القبّاني، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٣.

(٦) الدسوقي، عمر: المسرحيّة، ط ٥، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٧٠، ص ٢٧.



### محمد عثمان جلال (١٨٢٨-١٨٩٨)

ولد في إحدى بلدات بني سويف سنة ١٨٢٢ وتدرّج في التعليم من الكتاب إلى تجهيزيّة قصر العيني إلى مدرسة الألسن، ثمّ اشتغل في سلك القضاء، فعمل في المحاكم المختلطة، والاستئناف، وتوفي سنة ١٨٩٨<sup>(٥)</sup>.

وكان في مقدّمة هؤلاء الكتاب المسرحيين في هذا العهد المبكر الذي ترجم للمسرح ومصر، كما ألف بعض الأعمال المسرحيّة.

من ترجماته: المجموعة التي نشرها سنة ١٨٨٩ باسم «الروايات المفيدة في علم التراجم» متضمّنة ترجمة لثلاث مسرحيات للشاعر الفرنسي الكبير راسين (١٦٣٦-١٦٩٩)، وهي: «استر» و«الغانية»، و«اسكندر الكبير»<sup>(٦)</sup>.

طموح الإنسان، انفصل إسكندر فرح عن فرقة القباني وألف فرقة خاصّة به سنة ١٨٩١ واستعان بالشيخ سلامة حجازي<sup>(١)</sup>، فواصل الاتجاه الغنائي، إلى أن انفصل عن الشيخ سلامة حجازي سنة ١٩٠٥، فاعتمد على المسرحيات غير الغنائيّة، واجتذب إلى الكتابة طائفة من الأقلام الممتازة مثل خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩) ونجيب الحداد (١٨٦٧-١٨٩٩) وفرح أنطون (١٨٦١-١٩٢٢) وغيرهم ممّن ألفوا وترجموا عن الانجليزيّة والفرنسيّة<sup>(٢)</sup>.

وهكذا أصبح في مصر عدد من الفرق التمثيليّة<sup>(٣)</sup>، كفرقة سليم النقّاش وفرقة يوسف الخياط وفرقة سليمان القرداحي وفرقة أبي خليل القباني. وبهذا زاد التنافس بين تلك الفرق، وتضاعف النشاط المسرحي، فكثرت جمهوره، وتعدّد الكاتبون له من سوريين ومصريين<sup>(٤)</sup>، وكان في مقدّمتهم محمد عثمان جلال.

(١) لمزيد من الاطلاع راجع: المسرحيّة لنجم، مصدر سابق، ص ١٢٥-١٤٩؛ المسرح النثري، لمحمد مندور، مصدر سابق، ص ١٢٥-١٤٩.

(٢) نجم: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ١٩٥-١٩٨.

(٣) لمزيد من الاطلاع على أعمال هذه الفرقة، يمكن العودة إلى كتاب المسرحيّة لنجم، ص ٩٤-١٦٥.

(٤) هيكل، أحمد: تطوّر الأدب الحديث في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٨، ص ٢٣٥.

(٥) اقرأ عنه في:

شعراء مصر وبيئاتهم للعقاد، مطبعة السعادة، القاهرة، ١٩٥٠، ص ١١١.

تاريخ آداب اللغة العربيّة لجرجي زيدان، ج ٤، مصدر سابق، ص ٢٢١.

الأدب الحديث لعمر الدسوقي، ج ١، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٥٠، ص ٨٩.

الفن القصصي لمحمود شوكت، دار الفكر العربي، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٧١.

(٦) أنظر المسرحيّة لنجم، مصدر سابق، من ص ٢١٨ إلى ٢٢١ ثم ٢٧٣-٢٨٨، ثم ٤٣٠-٤٣٢؛ العقاد: شعراء مصر وبيئاتهم، مصدر سابق، ص ١١٧؛ المسرحيّة للدسوقي، مصدر سابق، ص ١٨.

ومن تمصيراته المجموعة التي نشرها سنة ١٨٩٣ باسم «الأربع روايات في مختارات التياترات»، مشتملة على أربع مسرحيات من ملاهي المسرحي الفرنسي العظيم موليير (١٦٢٢-١٦٧٣)، وتلك المسرحيات هي: «الشيخ متلوف»، «النساء العالمات»، «مدرسة الأزواج»، و«مدرسة النساء».

وألّف مسرحية «المخدّمين» التي عالج فيها موضوعاً اجتماعياً هو موضوع جيل المخدّمين ووسائلهم في السيطرة على الخدم، وإفسادهم على مخدوميهم، وقد كتب تلك المسرحية بالزجل المصري الذي اختاره من قبل لغة لترجماته وتمصيراته، وتعدّ هذه المسرحية باكورة في وضع الروايات المصرية، وتمثّل البيت المصري والمجتمع الوطني، يندر ما يقارنها في بابها بين روايات هذا الجيل. وبحق يُسمّى محمد عثمان جلال أبا المسرحيات الوطنية في العصر الحديث<sup>(١)</sup>.

### يعقوب صنوع (١٨٣٩-١٩١٣)<sup>(٢)</sup>

ولد يعقوب صنوع في القاهرة في ٩ تشرين الثاني سنة ١٨٣٩ من أبوين يهوديين، وهو أصغر من مارون النقاش باثنتين وعشرين سنة، ومن أبي خليل القبّاني بست سنوات<sup>(٣)</sup>. درس في صباح تعاليم الإنجيل والتوراة والقرآن، وسافر إلى إيطاليا طلباً للعلم على نفقة الأمير أحمد يكن حفيد محمد علي الذي كان والد يعقوب يعمل مستشاراً له، ف قضى فيها ثلاث سنوات أشبع فيها نهمه من الدرس والتحصيل، بعد أن اتصل بحضارة إيطاليا مباشرة<sup>(٤)</sup>. وأثناء إقامته في إيطاليا، درس الأدب الأوروبي واللغات الأوروبية، فكان متقناً لعدد منها، كالفرنسية والإيطالية والألمانية والبرتغالية والاسبانية والروسية<sup>(٥)</sup>، وغير اسمه ليصبح جيمس صنوع تمشياً مع المنوال الأوروبي<sup>(٦)</sup>.

عرف المسرح والصحافة في إيطاليا

(١) راجع شعراء مصر وبيناتهم للعقاد، مصدر سابق، ص ١١٧.

(٢) للاطلاع على سيرة يعقوب صنوع، يُراجع كتاب أبو نظارة لابراهيم عبّو، المطبعة النموذجية، القاهرة، سنة ١٩٥٣.

(٣) له قصة طريفة، يرويها في مذكراته «أنّ والديه فقدا أربعة أطفال قبل ولادته فهرعت أمّه إلى شيخ المسجد،

«الشعراني»، فأخبرها أنها ستزق بولد، وان نذرته للدفاع عن الإسلام فسوف يعيش، وطلب إليها أن تكسوه من

حسنا المؤمنين ليكون متواضعاً». راجع أبو نظارة لابراهيم عبّو، ص ١٧-١٩.

(٤) طرازي، فيليب: تاريخ الصحافة العربية، ٤ أجزاء، ج ٢، المطبعة الأدبية، بيروت، ١٩١٣، ص ٢٨٢؛ المسرحية

لنجم، مصدر سابق، ص ٦٨.

(٥) نجم، المسرحية، مصدر سابق، ص ٧٧-٧٨.

(٦) الكسندرا، بوتيسينا: الف عام وعام على المسرح العربي، مصدر سابق، ص ١٤٨.

والأدب، وألّف فرقة مسرحيّة من الهواة سنة ١٨٧٠، ولكنّه أنشأ أوّل فرقة عربيّة للتمثيل سنة ١٨٧١<sup>(٣)</sup>. قدّم مع أعضائها اثنتين وثلاثين رواية، مثل بعضها على مسرح الأوبرا، وبعضها الآخر على مسرح الخديوي الخاص بقصر النيل<sup>(٤)</sup>، الأمر الذي يؤكد رضا السلطة عنه، ويؤكد أيضًا أنّ مسرحه في تلك المرحلة من الزمن كان مسرحًا للإقطاعيّين وسراة القوم وما يريدون، وإلى جانب ذلك مختلف أصحاب المناصب الكبرى في الدولة والجيش<sup>(٥)</sup>، متجاهلاً بذلك احتياجات الشعب ومطالبه، لارتباطه بالحكام. ولم يتمكّن من القيام بوظيفته الحقّة الملتزمة تجاه الشعب بتبصيره بما يحيط به من أعداء، وألعيب الحكام ومؤامرات السياسة والاستعمار، بل استند إلى الحكام والإقطاعيّين، وخشي بأسهم، فتملّقهم واستهدف رضاهم.

وقد تحدّث صنوع عام ١٩٠٢ عن مسرحه في محاضرة ألقاها في باريس جاء فيها «أنّه كان في مصر عام ١٨٧٠ فرقة

التي درس فيها، وكان يجيد عدّة لغات ممكّنته من أن يدرس الفن دراسة متقنة<sup>(١)</sup>. وعاد إلى مصر مدرّسًا للخاصة، ثم عيّن مدرّسًا في «مدرسة الفنون والصناعات» في القاهرة سنة ١٨٦٢، ولكن ذكاه النادر، ومقدرته الفائقة دفعاه إلى اقتحام آفاق جديدة من الإبداع، يقوم بها في خدمة وطنه. وقد تبلور نشاطه في اتجاهين بارزين كان لهما أثر كبير في الحياة الشعبيّة والثقافيّة في مصر، وهما: المسرح والصحافة، وقد بدأ بالمسرح لأنّه الغاية والهدف، حيث لاحظ في إيطاليا أنّ المسرح أداة فعّالة في إنهاض الشعوب، ورأى أيضًا أنّ الشعب المصريّ، في عهد اسماعيل بحاجة ماسّة إلى من يوقظه من سباته ويفتح عيونه على ما يُحاك حوله من مؤامرات، لينتبه إلى الهاوية التي كان يُساق إليها، فعقد عزمه على تأسيس مسرح يكون وسيلة للترفيه عن هذا الشعب البائس، ومنبرًا يلقي من فوقه توجيهاته القوميّة وعظاته الاجتماعيّة<sup>(٢)</sup>. فاتجه إلى الفنّ

(١) الدسوقي: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٢١؛ يقول مختار السيوفي في ألوان من النشاط المرحي: انه يتكلم ١٢ لغة، ص ١٢٤.

(٢) نجم: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٧٨.

(٣) الذي نلاحظه على صنوع في أكثر مسرحياته أنّه يتخذ شخصياتها من بين الجالية المسيحيّة السوريّة، ولعلّه كان يتحرّج من معالجة شؤون المسلمين، لأنّ لهم تقاليدهم الخاصّة، والاختلاط غير مباح عندهم، وبذلك يكون له فرصة أوسع للعمل المسرحيّ، وربّما كان يخشى غضبهم لتناول أسرار بيوتهم. راجع: المسرحيّة للدسوقي، مصدر سابق، ص ٢٤.

(٤) عيد، السيد حسن: تطور النقد المسرحيّ، دار العصريّة للتأليف والترجمة، القاهرة، ١٩٦٣، ص ٨٣.

(٥) الزيات، أحمد حسن: تاريخ الأدب العربيّ، ط ١، مطبعة الرسالة، القاهرة، د.ت.، ص ٨٣.

مصر بعد. فالأول سيزورها عام ١٨٧٦، والثاني سيستقرّ فيها عام ١٨٨٤. وهكذا نعلم أنّ يعقوب صنوع لم يتأثر بأيّ مسرح عربيّ قبله.

ونرى من هذا المنطلق أنّ مسرح يعقوب صنوع ارتبط منذ ولادته بالطبقة الحاكمة الإقطاعيّة، بالرغم من أنّه كان يهدف من مسرحه إيقاظ الشعب وتنبيه الوعي فيه، ومع ذلك فقد هادن الإقطاعيين والحكّام أولاً، وربط مسرحه بهم لأنّهم لم يسمحوا له باعتبارهم أولي الأمر في البلاد من أن يخرج عن الحدود التي يرسمونها لفناني المسرح الذين يخاطبون الشعب أو يملكون أداة توجيهه<sup>(٢)</sup>.

اتّجهت بعض مسرحيّات صنوع نحو النقد الاجتماعيّ اللاذع، كما انتقد الإدارة الحكوميّة وما فيها من فساد. وفضح مظالم إسماعيل، وبدأ يعالج موضوع الفقر. وبدأت عروضه بطرح قضية المواطنة والاحتجاج ضدّ الظلم والفروق الاجتماعيّة. واستعملت الهجائيّة السياسيّة. كما شارك مسرحه بنشاط في الحركة الوطنيّة الشعبيّة ضدّ تعسّف سلطة الخديوي، ما حدا بالخديوي إسماعيل إلى محاربته بينما كان هو الذي عمّده بلقب «موليير مصر» منذ مدة

فرنسيّة تتألف من الموسيقيين والمطربين والممثّلين، وفرقة تمثليّة إيطاليّة، وكانتا تقومان بتسليّة الجاليات الأوروبيّة في القاهرة في جميع التمثيليّات التي تقدّم في ذلك المقهى - في حديقة الأزبكيّة. إذ كانت الفرنسيّة والإيطاليّة اللّغتين اللّتين أحبّهما حبّاً جمّاً ودرست كبار كتابهما المسرحيين. وإذا كان لا بدّ لي من الاعتراف، فالأقلّ إذن، إنّ الهزليّات والملاهي والغنائيّات والمسرحيّات المصريّة التي قدّمت على ذلك المسرح هي التي أوحى إليّ بفكرة إنشاء مسرح عربيّ. وقبل أن أقدم على إنشاء مسرحي المتواضع، قمت بدراسة جديّة للكتّاب المسرحيين الأوروبيين وبخاصّة جولدوني وموليير وشريدان وذلك بلغتهم الأصليّة<sup>(١)</sup>.

إنّ التآثر بالفرقتين المسرحيّتين اللتين كانتا في مصر، والتأثر بالمسرح الإيطاليّ الذي شاهده صنوع في إيطاليا، ومن مراجعة النصوص المسرحيّة الأجنبيّة، جعل يعقوب صنوع يصنع مسرحه في القاهرة. فهو إذن متأثر بالمصادر الأجنبيّة دون المصادر العربيّة التي كانت شائعة في القاهرة. ويجب أن نتذكّر هنا أنّ سليم النقّاش وأبا خليل القبّاني لم يكونا قد زارا

(١) المسرحيّة لنجم، مصدر سابق، ص ٧٩.

(٢) عيد: تطوّر النقد المسرحيّ، مصدر سابق، ص ١١.

بسيطة<sup>(١)</sup>. وقد أصدر الخديوي إسماعيل قرارًا بإيقافه عن العمل. وكان صنوع قد قدّم خلال هذين العامين مائة وستين حفلة تمثيلية بمسرحياته الاثنتين والثلاثين التي كان أكثرها من تأليفه وبعضها من تأليف غيره<sup>(٢)</sup>.

وتوقف المسرح بعد صنوع في مصر مدة أربع سنوات. فلما وفدت فرقة سليم النقّاش عام ١٨٧٦ إلى مصر، تحرّك الجوّ المسرحي من جديد. وعادت شعلة المسرح إلى توهّجها الذي ما زال مستمرًا إلى اليوم. فكان لمصر ذلك التاريخ المسرحي العريق في التأليف والإخراج والتمثيل. وهو مسرح يُعدّ واحدًا من أهمّ أركان المسرح العربيّ.

إذا كان صنوع قد حاول أن يسترضي الإقطاعيين من الحكّام ويهادنهم، ويعمل بالطريقة التي تجعلهم يرضون عن عمله، حيث غلّف ظاهر مسرحه بظاهرة الترفيه عن الشعب، وباطنه بالتوجيه القوميّ، والوعظ الاجتماعيّ. إذا كان كذلك، هل استطاع أن يستمرّ بهذا الأسلوب، بعيدًا عن وشاية الحاسدين الذين يتربّصون بكلّ إنسان

يحاول أن يخرج عن الدائرة التي يضعونه فيها؟ هل استطاع أن يستمرّ في عرض مسرحياته، وخصوصًا بعد أن ألحق عنصر النساء بأدوارهن على خشبة المسرح؟ إنّ عثوره على فتاتين فقيرتين، علمهما بنفسه القراءة والكتابة، وعهد إليهما بأدوار النساء<sup>(٣)</sup>، أضاف إلى معارضيّه المتزمتين الذين اخذوا يضمّون أصواتهم إلى أصوات غيرهم من المعارضين، ليقوعوا بهذا الفنّان الذي كسب شهرة شعبية، وخصوصًا بعد أن أخذ في مسرحياته ينتقد الجاليات الأجنبية بسخرية لاذعة، ويظهر رجالاً منهم أسماء «جون بول» - رمز انجلترا - على المسرح، لينتقد من خلاله الإنجليز، كما نقد الخديويّ إسماعيل وحاشيته وغيرهم<sup>(٤)</sup>. وهنا نرى جميع القوى<sup>(٥)</sup> تتحدّ وتقاوم هذا الفنّ الذي أخذ يشكّل خطرًا عليها، وعلى مستقبلها السياسيّ والاقتصاديّ، الأمر الذي دفع الخديويّ إسماعيل، بعد أن أضفى عليه الكثير من عطفه، إلى إغلاق مسرحه، ثم نفيه من مصر، فغادرها إلى باريس سنة ١٨٧٨<sup>(٦)</sup> بعد أن لقّبه الخديويّ إسماعيل

(١) ألف عام وعام على المسرح العربيّ، مصدر سابق، ص ١٤٩.

(٢) خمس سنوات في المسرح، لحمروش، مصدر سابق، ص ٢٠٠-٢٠١.

(٣) رشيد، فؤاد: تاريخ المسرح الغربيّ، مصدر سابق، ص ٢٠.

(٤) رشيد، فؤاد: تاريخ المسرح الغربيّ، مصدر سابق، ص ٢٠.

(٥) الإنجليز + الخديويّ إسماعيل وحاشيته، وغيرهم من أصحاب المصالح الانتهازية الذين يتكسّبون من على جناباتهم.

(٦) رشيد، فؤاد: تاريخ المسرح العربيّ، مصدر سابق، ص ٢١.

بـ «موليير مصر» ووعده أن يظل اسمه كذلك أبداً<sup>(١)</sup>. ويكون بهذا النفي والاضطهاد قد لاقى ما لاقاه زملاؤه في لبنان وسورية، حيث أغلقت مسارحهم، وشردت فرقهم، فرحلوا إلى مصر، بينما صنوع لم يرَ أمامه إلا فرنسا، فاستأنف عمله الصحفي هناك، وألقى عدداً من الخطب إلى أن توفي سنة ١٩١٢<sup>(٢)</sup>.

وعندما أغلق مسرح صنوع التفت نحو العنصر الثاني من نشاطه السياسي وهو الصحافة. فقد أسس عام ١٨٧٧ جريدة باسم «أبو نظارة» كان ينشر فيها المقالات الاجتماعية النقدية القارصة إلى جانب المسرحيات القصيرة اللاذعة. وقد شغلت شخصية «شيخ الغفر» المكان الرئيسي لجريدته. ومن خلالها كان صنوع يتعرض لكل الأحداث الاجتماعية في مصر. وقد تعرّف القراء على الخديوي في شخصية «الشيخ» بسهولة. وبعد أربعة أشهر، وعند صدور العدد الخامس عشر، أغلقت الجريدة ونُفي صنوع إلى خارج البلاد<sup>(٣)</sup>. فاستقرّ في باريس وتابع هناك إصدار جريدته عام ١٩١٠.

لكن هذا الموقف الوطني الذي نفاه الخديوي إسماعيل بسببه، ينكره فاروق عبد القادر حين يقول: «ردّد بعض الكتّاب والدارسين قضية مؤداها أن الخديوي إسماعيل أغلق مسرح صنوع بالقاهرة لأنه تعرّض فيه لقضايا سياسية مثل سيطرة الأجانب على الاقتصاد المصري، ولأنّه تبنى قضايا الشعب ورفعها إلى الخشبة. والحقيقة عندي غير ذلك. فالنصوص المنشورة له تثير الشكوك حول الأسباب الحقيقية لإغلاق مسرحه. كما أنّ علاقته هو بالخديوي لا تبرّر الزعم بأنّه مغضوب عليه. أغلب الظنّ أنّه كان يعمل لحساب بعض الجهات الأجنبية التي تسعى للسيطرة على مصر، مما أغضب بعضها الآخر فسعت إلى نفيه. باختصار: إنّ أيّ تصوّر وطني أو نضاليّ يلصق بمسرح صنوع وهمي لا يقوم على أساس. لعلّ أسباباً مادية – بالإضافة لحدّثة التجربة – هي التي أدّت لإغلاق مسرحه. وهو يحدثنا عن بعض هذه الأسباب في مسرحيته «موليير مصر وما يقاسيه»<sup>(٤)</sup>. وممّا يجدر ذكره هنا أنّ الخديوي إسماعيل كان موجوداً في

(١) نجم: المسرحية، مصدر سابق، ص ٨٣.

(٢) راجع تفصيل حياته في: تاريخ الصحافة العربية، لطرازي، مصدر سابق؛ وكتاب أبو نظارة لإبراهيم عبده، مصدر سابق، والمسرحية لنجم، مصدر سابق، ص ٧٧-٩٣.

(٣) ألف عام وعام على المسرح العربي، مصدر سابق، ص ١٤٩-١٥٠.

(٤) فاروق عبد القادر: ازدهار وسقوط المسرح المصري، وزارة الثقافة، دمشق، ١٩٨٣، ص ١٠-١١.

الإسكندرية يوم مغادرة صنّوع لها إلى باريس. ولما سعد صنّوع إلى ظهر السفينة صادف أنّ موكب الخديويّ مرّ بالشاطئ. فقال لصنّوع بعض مودّعيه: إنّ الخديويّ جاء ليلقي عليك نظرة شماتة، فردّ صنّوع بازدياء: لا بأس. بعد سنة سيضطر هو أيضًا لوداع مصر. وقد أثبتت الأحداث اللاحقة أنّ أبا نظارة كان على حقّ<sup>(١)</sup>.

إذن، لم يكن صنّوع أوّل من طرد من البلاد أو أغلق مسرحه في مصر، فقد سبقه «يوسف الخياط» الذي حظي بمساعدات ماديّة ومعنويّة من الخديويّ، وفُتحت أبواب دار الأوبرا أمام فرقته، ولكنّه عندما اختار مسرحيّة صديقه سليم الخياط «الطاغية» أو «المظلوم»، لحفل افتتاح موسم «دار الأوبرا» عام ١٨٧٨ أوّل الخديويّ اسماعيل محتويات هذه المسرحيّة التي تزخر بما يكفي تمامًا لإلقاء الضوء على حكمه الشخصي، والنيل منه، فعوقب الخياط وفرقته بالطرد من مصر إلى سورية<sup>(٢)</sup>.

وفي سبعينيات القرن التاسع عشر، راح صنّوع يتابع عداءه الشديد لنظام حكم الخديويّ، ولكنّه لم يترك الصحافة<sup>(٣)</sup>، حيث وجد لديه من الوقت ما يكفي ليمثّل اثنتين وثلاثين مسرحيّة، منها: «غندور مصر»، «غزوة راس نور»، «زوجة الأب»، «زبيدة»، «البورصة»، «الوطن الحريّة»، «الضرتان»، و«آنسة على الموضة»<sup>(٤)</sup>. وكانت مسرحيّات صنّوع ما بين مقتبس من الأدب العربيّ، صبغه بصبغة محليّة، وما بين موضوع يعالج مشكلات اجتماعيّة<sup>(٥)</sup>. وقد استقى صنّوع موضوعات مسرحيّاته من مصادر متعدّدة، منها الدراما الإيطاليّة والفرنسيّة وخاصّة موليير. كان يغيّر باقتدار، من الحكمة والتفاصيل في تلك المسرحيّات الأصليّة لتخدم أغراضه هو. وجذبت مسرحيّاته الجمع الغفير من المتفرّجين. ولذلك فقد بسّط صنّوع لغته لتتناسب مع اللّهجة العاميّة العربيّة التي يُحسن المتفرّجون فهمها بها. وهكذا لم

(١) ألف عام وعام على المسرح العربيّ، مصدر سابق، ص ١٥٠.

(٢) زيدان: تاريخ آداب اللغة العربيّة، ج ٤، مصدر سابق، ص ١٣١؛ مختار سيوفي: ألوان من النشاط المسرحيّ، مصدر سابق، ص ١٢٥.

(٣) إذا كان سليم النقّاش وأديب اسحق قد اتّجها إلى الصحافة، فإنّ صنّوع قد عمل بالصحافة منذ إغلاق مسرحه في الفترة (١٨٧٢-١٨٧٧) معارضًا الخديويّ والاستعمار عن طريق الجمعيات الأدبيّة، وانضمامه للحركة العرابيّة. وجريدة أبو نظارة الزرقاء أصدرها عام ١٨٧٧. راجع: دراسات في المسرح والسينما عند العرب، للنداو، مصدر سابق، ص ١٢٨-١٣٢، الحاشية.

(٤) نجم: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٨٥.

(٥) فاروق عبد القادر: ازدهار وسقوط المسرح المصريّ، مصدر سابق، ص ٢١.

أول من ابتدع لغته المتميّزة<sup>(٤)</sup> وأول مصري ظهر على المسرح<sup>(٥)</sup>، وكان رائدًا مسرحيًا للنقد الاجتماعي والسياسي، لا بل الرائد المسرحي الأول في مصر، واستخدم كل حيلة فنيّة لاستنباط الضحك في مسرحه، وفهم تمام الفهم أنّ عنصر الفرجة الذي لازم المسرح المرتجل، أو الشعبي، ينبغي أن يكون سبيله إلى التهذيب الخلفي وعلاج آفات المجتمع والدعوة إلى مزيد من العدل، من خلال مقدرة فائقة على إدارة الحوار بلغة عادية أصيلة في واقعيّتها، سجلها يعقوب صنوع من معاشيته للناس وملاحظتهم في دقّة، حتّى إنّ كثيرًا من التعبيرات العاميّة التي أوردها صنوع في مسرحياته لم تزل تجري على الألسنة حتى الآن، مثل جاي من باريس في علبة - كلنا كده - قالوا اطلعوا من البلد<sup>(٦)</sup>.

ذلك هو يعقوب صنوع الذي يفترق عن زميليه النقّاش والقبّاني في أمور، ويتّفق معهما في أمور. ومن حياة الثلاثة وأعمالهم

يكن صنوع فقط أول صانع للمسرح السياسي الساخر في مصر، ولكنّه أيضًا، أول من ابتدع لغته المتميّزة؟ وعرض كوميدياته باللّهجة المصريّة العاميّة<sup>(١)</sup>. ولكن هل وصل إلينا هذا العدد الكبير من المسرحيّات التي قدّمها صنوع على المسرح؟ يجيب محمد يوسف نجم على هذا السؤال فيقول: «هذا سؤال محير حقًا، إذ لم يصلنا منها سوى مسرحيّة عربيّة واحدة هي «موليير مصر وما يقاسيه»<sup>(٢)</sup>. وقد أجمل صنوع تاريخ مسرحه في هذه المسرحيّة، حيث شرح فيها أهدافه من تأسيس المسرح، وبين لماذا أثر العاميّة على الفصحى وذلك حتى تكون قريبة من عقلية الجماهير، وقد نشرها في سنة وفاته، حرصًا منه على معرفة الناس لمذهبه وجهاده، والمسرحيّة بحدّ ذاتها إصلاحيّة تهذيبيّة قبل كلّ شيء»<sup>(٣)</sup>.

وهكذا، لم يكن صنوع أول صانع للمسرح السياسي الساخر في مصر، ولكنّه

(٢) نجم: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٨٥.

(١) الدسوقي: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٢١.

(٣) الدسوقي: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٢٥.

(٤) بينما كانت مسرحياته في بادئ الأمر تعرض باللّغة العربيّة الفصحى، وهي اللّغة التقليديّة أو المعروفة آنذاك، نجده قد عرض كوميدياته باللّهجة العاميّة المصريّة، ومنها واحدة طبعت في بيروت، مكتوبة بنثر قصصي، وتعالج حياة الممثلين، وهي مسرحيّة «موليير مصر وما يقاسيه». راجع: دراسات في المسرح والسينما عند العرب، للنداو، مصدر سابق، ص ١٢٣؛ خمس سنوات في المسرح، أحمد حمروش، ص ٧٧-٧٨.

(٥) حريدة الأهرام، العدد ٢٠، السبت ١٦ كانون الأوّل ١٨٧٦.

(٦) الراعي، د. علي: «فنون الكوميديا من خيال الظلّ إلى نجيب الريحاني»، كتاب الهلال، العدد ٢٤٨، أيلول ١٩٧١، ص ١١٧-١١٨.



نستنتج أشياء سوف نقف عندها في خلاصة بحثنا واستنتاجاته.

### عدد الفرق المسرحية

بعد صنوع توقف التمثيل العربي في مصر أربع سنوات، كانت سنوات غليان وطني، وكان إغلاق المسرح بأمر الخديوي كافيًا لأن يصرف المعاصرين عن التفكير في إنشاء فرق تمثيلية أخرى.

وبقي الحال كذلك إلى أن وفدت إلى مصر أول فرقة تمثيلية عربية، وكانت فرقة سليم خليل النقّاش التي استمرّ عملها من سنة ١٨٧٦ إلى سنة ١٨٧٧<sup>(١)</sup>.

حاول سليم النقّاش أن يواصل العمل الذي بدأه عمّاه: مارون ونقولا النقّاش في بيروت، لكنّ الظروف الاقتصادية والنواحي المادية حالت بينه وبين الاستمرار في ذلك<sup>(٢)</sup>، فأعدّ العدة لرحلته، فنقل معه مسرحيات عمّه مارون الثلاث<sup>(٣)</sup>، وترجم أوبرا عايدة عن الإيطالية، وحافظ على

طابعها الغنائي، وترجم بعض المسرحيات، واقتبس بعضًا آخر منها: «مي أوهوراس»، لكورني، و«ميتريديات» لراسين (١٦٣٦-١٦٩٩). و«غرائب الصدف» و«حفظ الوداد»، أو المظلوم<sup>(٤)</sup>. وكان قوام فرقته الرواية الغنائية<sup>(٥)</sup>. ثم تلاه يوسف الخياط، وهو أحد ممثلي فرقة سليم النقّاش، تولّى الفرقة بعد انسحاب النقّاش وزميله أديب اسحاق، فوسّع عمله، وضمّ إليه بعض الممثلين المصريين، واستهلّ أعماله بتمثيل مسرحية «صنع الجميل» في تياترو زيزينا، ومسرحية الطاغية، لحفل افتتاح الأوبرا سنة ١٨٧٨ أمام الخديوي إسماعيل. فعوقب وفرقته بالطرد<sup>(٦)</sup>. ثم فرقة سليمان القرداحي وكان أحد أعضاء فرقة يوسف الخياط، ثم انشق عنه وألّف فرقة خاصة به في الإسكندرية، وكان ذلك في مطلع عام ١٨٨٢<sup>(٧)</sup>. وأخيرًا فرقة أبي خليل القبّاني الذي حضر إلى مصر بتشجيع من صديقه

(١) جريدة الأهرام، العدد ٢٠، السبت ١٦ كانون الأول ١٨٧٦.

(٢) نجم، المسرحية، مصدر سابق، ص ٩٤. (٣) البخيل، أبو الحسن المغفل، السليط الحسود.

(٤) نجم: المسرحية، مصدر سابق، ص ٩٧.

(٥) توفي في الإسكندرية سنة ١٨٨٤ وإلى جانب عمله في التمثيل، اشتغل في الصحافة، فأصدر المحروسة، والتجارة، والعصر الجديد، وأسهم في الحركة السياسية التي سبقت الثورة العراقية، وألّف بعد الثورة كتابه: مصر للمصريين. . في تسعة أجزاء، اعتمدت منها الأجزاء الثلاثة الأولى. راجع: شيخو، الأب لويس: الآداب العربية في القرن التاسع عشر، مطبعة الآباء اليسوعيين، ١٩٢٦، ص ١٥٣؛ عيد: تطوّر النقد المسرحي في مصر، مصدر سابق، ص ٦٠.

(٦) لنداو: دراسات في المسرح والسينما عند العرب، مصدر سابق، ص ١٣٧.

(٧) نجم: المسرحية، مصدر سابق، ص ١٠٧.

التاجر السوري الأصل في الإسكندرية سعد الله حلاّبه<sup>(١)</sup>.

كانت محاولات هذه الفرق جميعاً متشابهة، وجلّ ممثليهم من الأقطار العربيّة الأخرى، وكذلك جميع الممثلات.

وكانت الرواية المسرحيّة عندهم لا يُراعى فيها للفنّ أيّة قواعد، ولا أصول. ولكنّها على أيّ حال، كانت محاولات جريئة، مهّدت للفنّ الصحيح ونبّهت الوعي له.

وخلال حقبة الاحتلال الإنجليزي الذي بدأ عام ١٨٨٢، واستمرّ أربعين عاماً، استطاع أن يغيّر بوضوح من مجريات الأمور في مصر، رغم هذا الاحتلال، إلاّ أنّه وسّع على أبناء البلد في العيش من الناحية الماديّة، كما أصبحت الضرائب عادلةً وتُجبى بأسلوب أكثر إنسانيّة، وأصبح التنظيم الجديد لمشروعات الريّ والتنمية يعود بخير على البلاد، ورفع نسبة الزيادة في الدخل، بينما زاد عدد السكان، وتضاعف خلال سنوات قليلة. من الطبيعيّ

أن يزيد هذا الرخاء من عدد الباحثين عن الترفيه والمرح، كما أنّ ارتفاع مستوى التعليم يدفع بمتفرّجين جدد من مستويات اجتماعيّة مختلفة إلى المسرح، ومن الطبيعيّ أن يزداد عدد الفرق المسرحيّة في مصر أثناء الاحتلال البريطانيّ<sup>(٢)</sup>.

ومرة أخرى، كان أوّل ممثلّ ينهض بتكوين فرقة مسرحيّة في عهد الخديويّ توفيق، في سورية، هو سليمان القرداحي الذي أعاد تنظيم بقايا فرقة الخياط. وقبل أن يتمكن من تحقيق بداية طيّبة لعمله، هبّت على مصر رياح ثورة عسكريّة في عام ١٨٨١ (الثورة العرابيّة)<sup>(٣)</sup> ولم يلبث أن تلاها الاحتلال البريطانيّ.

والقرداحي هو أوّل من قدّم في مصر العنصر النسائيّ على المسرح، قدّم أولاً زوجته، ثمّ الممثلة ليلي اليهوديّة، حيث كان ينهج هذا المنحى الذي أصبح مألوفاً عند بعض الفرق في موطنه سورية<sup>(٤)</sup>. وهكذا عندما نسمع أن فرقة القرداحي لم يُسمح لها بأن تستمرّ في تقديم عروضها على

(١) الخليعي، كامل: الموسيقى الشرقيّة، مطبعة التقدّم، القاهرة، ١٣٢٢ هـ، ص ٣٨.

(٢) لقد أجمل نجم الحديث في كتابه «المسرحيّة العربيّة» عن الفرق المسرحيّة في مصر، وكلّ ما يتعلق بها. للمزيد، تُراجع الفصول: الثاني والثالث، والرابع، والخمس، والسادس، والثامن، والتاسع، والعاشر.

(٣) هي الثورة العرابيّة التي قام بها الضابط ابن الفلاح المصري، أحمد عرابي (١٨٤١-١٩١١)، قامت في الساعة الرابعة بعد الظهر يوم ١٧ أيلول ١٨٨١، تطالب بحق المصريين في الترفيق لسلك الضباط وبحكومة وطنيّة ودستور جديد، وبرلمان شعبيّ، وفيها قال عرابي كلمته الخالدة للخديوي توفيق: «لسنا عبيداً ولن نورث بعد اليوم». راجع: عبد الرحمن الرافعي، الثورة العرابيّة، ط ٣، الدار القوميّة للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٦.

(٤) لنداو: دراسات في المسرح والسينما عند العرب، مصدر سابق، ص ١٣٦.

سلامة حجازي الجديدة، كان حجازي يتمتع بصوت جميل دفع المعجبين به إلى أن يطلقوا عليه لقب «كروان الشرق»<sup>(٥)</sup>، بل إن كثيرين من العجائز الذين عاصروه في مصر وغيرها، ما زالوا يذكرون ذلك الصوت باشتياق وحنين<sup>(٦)</sup>. ويبدو أن حجازي<sup>(٧)</sup> كان يملك شخصية لها اعتبارها، بغض النظر عن حظه القليل في التعليم، وذلك لما تركه من أثر عميق على شخصية المسرح العربي.

كانت تربط سلامة حجازي صلات وثيقة بأديب اسحاق وسليم خليل النقاش خلال فترة انشغالهم بالمسرح، ثم التحق في ما بعد بفرقة القرداحي لمدة سنة، ليختلف معه على توزيع الأدوار الرئيسية، فحجر ليلتحق بفرقة اسكندر فرح سنة ١٨٩٠ لمدة ١٨ سنة.

وفي سنة ١٩٠٥ بدأ حجازي مع فرقته الجديدة «دار المسرح العربي»، وأدخل عليها تجديدات خاصة تتفق وتذوقه<sup>(٨)</sup>.

مسرح الأوبرا بعد ذلك بقليل<sup>(١)</sup> لا نتعجب، لأن الضغوط الدينية التي أحاطت بالخدوي توفيق ورجال بلاطه هي التي أدت إلى عدم السماح بتقديم عروض من هذا النوع من التمثيل.

وكوّن اسكندر فرح بعد أن انفصل عن القبّاني فرقة خاصة به سماها: «الجوق المصري». وطوال الوقت الذي كان فيه القرداحي يعرض مسرحياته في الإسكندرية، وفرح في القاهرة، استطاع الأخير أن يكسب عيشه في راحة وسعة<sup>(٢)</sup>. رغم ذلك، اضطرّ فرح إلى الرحيل إلى سورية، بعد أن دبّ الشقاق بين ممثلي فرقته، وظهرت إلى الوجود فرقة حديثة أخرى<sup>(٣)</sup>. وعلى أي حال، فإن السوريين قد أدوا دورهم دون توان، بالنسبة لتطوير المسرح العربي في مصر.

إن أعظم الانشقاقات التي داهمت فرقة اسكندر انفصال سلامة حجازي، مطربه الأول<sup>(٤)</sup>، حيث شغف الجمهور أكثر بفرقة

(١) زيدان، في الأدب التركي، مجلد ٥، ص ١٥٥.

(٢) الهلال، ١٥ كانون الأول ١٨٩٥، ص ٣٩٦.

(٣) زيدان: تاريخ الأدب العربي، مجلد ٤، مطبعة الرسالة، القاهرة، د.ت.، ص ١٥٥-١٥٦؛ راجع أيضًا نجم عن حياة اسكندر فرح، المسرحية، مصدر سابق، ص ١٢٥-١٣٤.

(٤) نجم: المسرحية، مصدر سابق، ص ١٢٩. (٥) روز اليوسف، عدد ١١ كانون الثاني ١٩٥٤، ص ٣٤.

(٦) موسى، سلامه. القاهرة، فيما بين ١٩٠٣-١٩٠٧ في الكاتب المصري، عدد ١٠، تموز ١٩٤٨، ص ٣٠٠.

(٧) من مواليد (١٨٥٥-١٩١٧) من أسرة فقيرة من الإسكندرية. أنظر: دراسات ليعقوب لنداو، ص ١٣٩-١٤٠؛ تاريخ المسرح العربي لفؤاد رشيد، مصدر سابق، ص ٢٩؛ المسرحية لنجم، مصدر سابق، ص ١٣٥-١٤٥.

(٨) عيد، حسن: تطوّر النقد المسرحي في مصر، مصدر سابق، ص ٢٠.

وعلى أيدي هؤلاء، أعضاء الفرق اللبنانية والسورية، انتشر لون الرواية الغنائية، وصبغ كل الإنتاج المسرحي في تلك الفترة بصبغة الغناء، لأن التطريب، وطلب الناس للغناء، كان هو الجوهر الأساسي الذي يشد إليه المتفرجين، وليس التمثيل والمسرحيات.

وظلت المسرحية الغنائية مسيطرة على حقل النشاط المسرحي بصفة عامة، حتى مرض الشيخ سلامة حجازي<sup>(١)</sup>. حيث بذلت بعض المحاولات لتقديم مسرحيات سلامة حجازي بعد مرضه، ولكنها باءت بالفشل ولم تحقق نجاحًا يذكر. ومن ثم فقد أخذت المسرحية الغنائية تتلاشى رويدًا رويدًا، وحلّت محلّها المسرحيات الميلودراما وبعض المسرحيات الكوميديّة. ولكن هذه المسرحيات أيضًا لم تكن تلقى الإقبال الذي عرفته مسرحيات الشيخ سلامة حجازي الذي كان يؤدّيها بنفسه.

وظلّ حال التمثيل بعد ذلك في خمول حتى ظهر على المسرح جورج أبيض سنة ١٩١٢<sup>(٢)</sup>. ومهما يكن من أمر إعراض الجمهور عن كافة المحاولات التي قامت بها مجموعة الفرق المسرحية قبل الحرب

العالمية الأولى، ومن عدم إقباله على التمثيل، إلا أنّ تلك الحقبة كانت محاولة جيّدة للنهوض بالتمثيل، والخروج بالمسرحية من النوع الغنائي إلى الأنواع الأخرى الفنية في وقت كان جمهور النظارة لا يقدر رواية إلا بقدر ما تحويه من أغان، ولا يقبل على رواية لا يكون للشيخ سلامة أكبر دور فيها. وقد استطاع الممثلون خلال تلك المرحلة أن يخلقوا جمهورًا يتذوق الرواية الفنية الخالية من الغناء، كما كسب المسرح خلالها طبقة من الجمهور المثقف الذي كان لا يرتاد المسرح قبل ذلك. وتستطيع القول إنّ هذه المرحلة من الزمن قد أهلت الجمهور لاستيعاب الرواية الجديدة الخالية من الأغاني<sup>(٣)</sup>.

ويبدو لنا أنّ المسرح العربي في مصر خلال المرحلة التي سبقت الحرب العالمية الأولى، أخذ يتميز ببعض الخصائص التي يمكن أن نجملها بالنقاط التالية:

١ - ولئن كان للبنان فضل السبق في ظهور المسرح العربي بين ربوعه، فإن فضل تنمية هذا الفن الجديد وترعرعه وازدهاره يرجع إلى خصوبة التربة التي صادفها المسرح في وادي النيل.

(١) راجع: المسرحية لنجم، مصدر سابق، ص ١٤٠؛ تاريخ المسرح العربي لفؤاد رشيد، مصدر سابق، ص ٢٨.

(٢) السيوفي، مختار: ألوان من النشاط المسرحي، مصدر سابق، ص ٢٦-٢٧.

(٣) رشيد، فؤاد: تاريخ المسرح العربي، مصدر سابق، ص ٣١-٥٤.

الكلاسيكي، ثم على المسرحيات الرومانتيكية الفرنسية في الأعم الأغلب من حالاتها، ثم الانجليزية في الحالات القليلة<sup>(٢)</sup>.

أما في ما يختص بالمسرحيات الأصلية غير المترجمة، فقد كثرت وتنوعت اتجاهاتها، وهي في كل حالاتها لم تلتزم مذهباً معيناً، بل تأثرت بالمذاهب كلها، وقد تأثرت أولاً بالكلاسيكية في الموضوعات والنواحي الفنية، وسرعان ما تأثرت، إلى جانبها، بالرومانتيكية في المسرحيات ذات الطابع العاطفي، وفي المسرحيات التاريخية التي تشيد بالماضي الوطني أو القومي<sup>(٣)</sup>.

٣ - إعادة تمثيل بعض المسرحيات التي كانت تتمثل في أغلب الأحيان، أو على الأقل يعاد نفس موضوعاتها مرة أخرى.

ونلاحظ في الاتجاه العام لمسرحياتنا أن «الملاهي» كانت أكثر رواجاً من «المآسي»، وذلك أن الجمهور العربي في حياته العامة القاسية، كان يقصد المسرح للاسترواح لا للتعلم، وقلما يتذوق المأساة الرفيعة. لذلك، كثيراً ما تتحوّل المأساة ميلودراما، تعتمد على إثارة المشاعر بالوسائل اليسيرة من عرض أحداث مروعة،

ففي الحقبة الأخيرة من القرن الماضي، اتجه عدد كبير من الفنانين والأدباء، هرباً من الجو السياسي الرهيب الذي كان يفرضه العثمانيون على سورية ولبنان في ذلك الحين، حيث وجدوا في مصر مجالاً أوسع وتشجيعاً أوفر، وبيئة اجتماعية أكثر غنى بالاستنارة والوعي، وكان منهم أديب اسحق وأبو خليل القباني.

من هنا، نرى أنّ ميلاد المسرح العربي كان في عام ١٨٤٧<sup>(١)</sup> انطلاقاً من مسرحية البخيل، لمارون النقّاش، ولكن التطورات الرئيسية وقعت في مصر ابتداء من يعقوب صنوع سنة ١٨٧١ وما بعدها، حين عثر الممثلون اللبنانيون والسوريون على أرض أكثر رحابة، ومجالاً أكثر حيوية أمام مواهبهم.

٢ - كانت المسرحيات مقتبسة بوجه عام عن الفرنسية، مع أقلمة الحبكة وأسماء الأشخاص والأماكن بما يناسب الجو المحلي، لأنّه من الطبيعي أن تكون الترجمة اسبق من التأليف، وقد كانت هذه الترجمة في أكثر حالاتها حرّة كل الحرّة تجاه الأصل. وهذه المسرحيات المترجمة اعتمدت أولاً على الأدب الفرنسي

(١) نجم: المسرحية، مصدر سابق، ص ٣٣؛ مختار سيفي: ألوان من النشاط المسرحي، مصدر سابق، ص ١٢٣.

(٢) هلال، محمد غنيمي: الأدب المقارن، ط ٥، دار العودة والثقافة، بيروت، ١٩٧٠، ص ١٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ١٧٧.

المسرح بدلاً من الرجال، وهؤلاء كنّ كقاعدة معروفة، يهوديات أو من البنات المسيحيات في لبنان، ولسن من المصريّات<sup>(٥)</sup> اللاتي لم يزل معظمهن آنذاك ساجيات تحت خمارهن<sup>(٦)</sup>.

٩ - وجود عدة مسارح حديثة للشروط الفنيّة في أواخر الستينيات من القرن التاسع عشر، ثمّ بناء ثلاثة مسارح، هي على التوالي: «المسرح الكوميدي»، الذي أقيم على أرض الأزيكّيّة، ودار الأوبرا، ومسرح السرك. وعلى الرغم من أنّ هذه المسارح كانت في البداية وقفاً على الفرق الأجنبيّة، التي كانت تفرّد إلى مصر، إلاّ أنّ وجودها بالذات كان عاملاً مهماً في تكوين مسرحيّ حيّ في البداية على الأقلّ، إذ إنّها ما لبثت أن وضعت تحت تصرّف الفرق العربيّة بعد حين.

١٠ - نستطيع أن نوجز ماهية المسرح العربيّ عامة قبل الحرب العالميّة الأولى، بأنّ أوّل فنّ مسرحيّ عرفه العالم العربيّ كان فنّ المسرح الغنائيّ، على نحو يشبه

ومن الاعتماد على الوقائع أكثر من الاعتماد على المواقف الفنيّة.

٤ - اللّغة العربيّة الفصيحة، كانت لغة المسرحيّات بالدرجة الأولى، وفي بعض الأحيان اللهجة المحليّة الدارجة من شاميّة ومصريّة<sup>(١)</sup>.

٥ - كتّاب المسرح كانوا من بين الممثّلين بوجه عام، وكانوا يمثّلون غالباً الأدوار الرئيسيّة في المسرحيّات التي كانوا يكتبونها، أو يقتبسونها، وفي أغلب الأوقات كانوا يقومون بإخراج مشاهدها<sup>(٢)</sup>.

٦ - ظلّ الممثّلون يعملون هواة، وبذلك اعتبروا أنفسهم أحراراً في أن ينفصموا عن فرقهم وينضموا إلى فرق أخرى، أو يُنشئوا فرقاً خاصّة بهم<sup>(٣)</sup>.

٧ - الممثّل المرموق كان الممثّل الذي يحسن الغناء على اختلاف أنواعه، وهو المحبوب من قبل الجماهير، مثل سلامة حجازي.

٨ - بدأ ظهور الممثّلات<sup>(٤)</sup> تدريجيّاً، لينهضن بالأدوار النسائيّة على خشبة

(١) أبو شنب، عادل: بواكير التّأليف المسرحيّ، منشورات اتّحاد الكتاب العربيّ، دمشق، ١٩٧٨، ص ١٩.

(٢) مارون النقاش، أبو خليل القبّاني، جورج أبيض.

(٣) راجع: الباب الثاني من المسرحيّة لنجم، مصدر سابق، ص ٧٧-١٧٦.

(٤) يعقوب صنوع درّب فتاتين على التمثيل، وأدخلهما في فرقته، ومنذ ذلك الوقت بدأت السيّدّة تمثّل دورها.

(٥) كانت منيرة المهديّة أوّل ممثّلة مصرية سنة ١٩١٥ تقوم بأدوار الشيخ سلامة حجازي، في فرقة عزيز عيد. راجع: الوان من النشاط المسرحيّ، لمختار سيوفي، مصدر سابق، ص ١٣١.

(٦) «التمثيل في مصر ونهضته الجديدة»، الهلال، مجلد ٢٣ تشرين الثاني / أول نوفمبر ١٩٢٤، ص ١٨٦.

من قريب أو بعيد ما يُعرف عند الغربيين باسم الأوبرا أو الأوبريت. ومن البديهي أنّ الشعر أو الزجل هما اللذان يلائمان هذا الفنّ الغنائيّ، ولذلك غلب الشعر والزجل على المسرحيّات الأولى التي ألفت باللّغة العربيّة. ولكنّ العاميّة أو الركاكة قد كانتا حائلين قويين دون إدخال هذه المسرحيّات الغنائيّة في تراثنا الأدبي، وإنّما يمكن دراسة هذه المسرحيات بوصفها وثائق تاريخيّة، ولذلك، كان غلبة الطابع الغنائيّ على فنّ التمثيل في بلادنا من عوامل تأخير ظهور المسرح النثريّ، ومن عوال تأخير الأدب التمثيليّ كلّهُ، ولذلك، بحكم أنّ هذا الأدب لا بدّ لظهوره والتجديد فيه من أن يستقلّ فنّ التمثيل أوّلاً بذاته، وينفصل عن الفنون الأخرى كالموسيقى والغناء والرقص وغيرها<sup>(١)</sup>.

أمّا بالنسبة للمسرح العربيّ في مصر بين الحربين، فنستطيع القول إنّ الغناء كان العنصر الأساسيّ في المسرح العربيّ، وفي مصر بخاصة، خلال البدايات الأولى، الأمر الذي طبع هذه المرحلة - مرحلة ما قبل الحرب الأولى - بطابع الطرب، بدليل أن الشيخ سلامة حجازي قد انشقّ عن فرقة

إسكندر فرح حين أحسّ أنّ صوته هو عماد هذه الفرقة، فكوّن فرقة خاصّة به سنة ١٩٠٥ تقدّم مسرحيّاته الغنائيّة على مسرح «فردى» الذي سمّاه باسم «دار التمثيل العربيّ»<sup>(٢)</sup>.

باحتراف سلامة حجازي<sup>(٣)</sup> التمثيل العربيّ نجد أنّ أسلوب المصريّين قد ارتقى، وترجمت عدة روايات فنيّة، كروايات شكسبير (١٥٦٤-١٦١٦)، وكورني (١٦٠٦-١٦٨٤)، وهيجو (١٨٠٢-١٨٨٥)، ولكنهم كانوا يعمدون إلى مزجها بالألحان، وتشويه بعض مشاهدتها، إرضاءً للجمهور. وكان هذا التغيير نتيجة لسماع الألحان التي ينشدها الشيخ سلامة الذي كان له أكبر الأثر في ازدهار المسرحيّة الغنائيّة، حيث أصبحت اللّون الغالب على كافة الأعمال المسرحيّة، وكان لفرقته التأثير القويّ في ربط مصر ولبنان عن طريق الفنّ، إذ كانت مسرحيّاته باللّغة العربيّة الفصيحة التي يفهمها كلّ العرب، بعيدةً عن اللّهجة المحليّة الضيقة التي يتعذّر على أهالي البلاد الأخرى أن يفهموها، بالإضافة إلى أنّه كان يملك بحنجرته القويّة مسامع الناس وأفئدتهم<sup>(٤)</sup>.

(١) مندور، محمد: المسرح النثري، مصدر سابق، ص ٢٤-٢٦.

(٢) نجم: المسرحيّة، مصدر سابق، ص ١٣٧؛ تطوّر النقد المسرحيّ في مصر، مصدر سابق، ص ٢٠.

(٣) راجع ترجمة مفصّلة عن حياته، كتاب الشيخ سلامة حجازي، للدكتور محمد فاضل، مطبعة الأمانة، دمنهور، ١٩٣٢.

(٤) مندور، المسرح النثريّ، مصدر سابق، ص ١٩ و٢٠.

من الإخلاص في العمل والاجتهاد في  
التجديد<sup>(٣)</sup>.

وظلّ حال المسرح مصبوغاً بالصبغة  
الغنائية التي تشدّ النظارة إليها حتى عام  
١٩١٠ حين عاد جورج أبيض من فرنسا  
بعد أن أتمّ بعثته المسرحية التي أوفده إليها  
الخدوي عباس الثاني (١٨٧٤-١٩٤٤)،  
فقدّم مسرحيات تختلف كثيراً عن المستوى  
الذي كانت عليه الفرق التي سبقته، وجعل  
للممثل قدرًا مساويًا للغناء، وأهميّة مشابهة  
له من دون أن يستطيع أن يخلّص المسرح  
من الغناء كلّه، بل ظلّ الغناء من أهمّ أجزاء  
العرض المسرحي.

#### جورج أبيض (١٨٨٠-١٩٥٩)<sup>(٤)</sup>

ولد جورج الياس أبيض في لبنان، في  
الخامس من أيار سنة ١٨٨٠ من أبوين  
فقيرين، فأبوه الياس أبيض كان يملك فندقاً  
صغيراً يديره بنفسه، ومن ريعه كان ينفق  
على أسرته. بدأ تعليم جورج وهو في  
الثامنة، حيث أمضى دراسته الابتدائية في  
إحدى مدارس الإخوة المريميين لمدة خمس  
سنوات، ثمّ التحق بمدرسة الحكمة ونال

رغم أنّ فرقته لم تكن تضمّ فرقة موسيقية،  
ولا آلات وترية توقع لها الألحان، وتمهّد  
لها، وتضبط إيقاعها. وكان يكتفي بصوته،  
يتلاعب به كيفما شاء عند إلقاء مقطوعاته،  
كما لم تكن في الفرقة مطربة تتبادل اللحن  
الثنائي مع الشيخ سلامة، فكانت جميع  
ألحانه فردية، إلاّ أنّه في أواخر عمله مع  
إسكندر فرح، وضع بضع مقطوعات ثنائية  
يغنيها مع لبيبة مانيللي، ولكن سرعان ما  
استغنى عنها، وألغى جميع المقطوعات  
الثنائية منفرداً بالغناء وحده، كما أنّه في  
العام الأخير من عمله سنة ١٩٠٩ ضمّ  
لمسرحه فرقة موسيقية على رأسها عبد  
الحميد علي، ولكنّ مهمّة هذه الفرقة كانت  
مقصورة على عزف المقطوعات خلال  
الفصول<sup>(١)</sup>.

كان مرض الشيخ سلامة حجازي<sup>(٢)</sup>  
ضربة بالغة للممثل العربي الذي كان  
عميده الوحيد آنذاك، إذ خلا الميدان لبعض  
الفرق الهزيلة، التي قامت تشوّه تراث  
الشيخ، وتعبث بالفنّ بعد أن أرسى هو  
أصوله على قواعد راسخة، وذلك بما أظهره

(١) رشيد، فؤاد: تاريخ المسرح العربي، مصدر سابق، ص ٢٤-٢٨.

(٢) ولد سنة ١٨٥٢، تلقى مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في صباه ورثه، فظهرت محاسن صوته. راجع: تاريخ  
المسرح العربي، مصدر سابق، ص ٢٨-٢٩؛ المسرحية لنجم، مصدر سابق، ص ١٣٥-١٤٩.

(٣) نجم: المسرحية، مصدر سابق، ص ١٤١.

(٤) للمزيد عن حياة هذا الفنّان، راجع كتاب ابنته سعاد أبيض تحت عنوان: جورج أبيض، أيام لن يُسدل عليها الستار،  
دار المعارف، مصر، ١٩٦٥.



التمثيلية الخيرية التي أقيمت على مسرح زيزينيا يوم ١١/٤/١٩٠٤ تحت رعايته، وبمعيته رئيس الوزراء مصطفى فهمي باشا<sup>(٢)</sup>.

ولما انتهى الفصل الثالث من المسرحية وعاد جورج إلى حجرته ليستعد للفصل الرابع، دخل عليه كبير الباوران ليقول له: «الآن يمكنك أن تجهز حقايبك وتستعد للسفر»<sup>(٣)</sup>. وأوفده الخديوي إلى باريس بمرتب ثمانية جنيهات في الشهر.

وهناك في باريس التحق بالكونسرفتوار (Conservatoire)، وتلمذ على يد الممثل الشهير سيلفان (Sylvain) أثناء تلقيه فنّ التمثيل في باريس (١٩٠٤-١٩١٠) الذي كان يعدّ من بقايا المدرسة الرومانسية في الأداء التمثيلي، وأكبر ممثل يحمل لواءها في أوائل القرن العشرين. ونال دبلوم المعهد بمرتبة عالية، كما حصل على الجائزة الأولى في التمثيل التراجيدي والأولى في الإلقاء، والثانية في التمثيل الكوميدي. كما

شهادتها عام ١٨٩٧. وفي هذه المدرسة تكشفت مواهبه التمثيلية حيث كان يشارك في حفلاتها السنوية، وكانت تُسند له دائماً أدوار البطولة باللغتين العربية والفرنسية، ولكنّه لم يستقرّ في لبنان أرض مولده، بل سافر إلى عمّه التاجر بالإسكندرية في أواخر عام ١٨٩٨، وعيّن ناظرًا لمحطة سيدي جابر في تموز سنة ١٨٩٩. وأخذته أضواء المسارح هنا، فكان يحضر عروض فرق القبّاني وخياط وسلامة حجازي. وحدث عام ١٩٠٢ أن زار الممثل الإيطالي «أرميني نوفيللي» مصر وعرض على مسرح الإسكندرية مسرحيات: «أوديب ملكًا»، «عطيل»، «هملت»، «الأب لابونار»، وقد حضرها جورج أبيض، وملكت عليه فؤاده. واستمرّ في ممارسة هوايته للتمثيل على بعض مسارح الإسكندرية<sup>(١)</sup>، ثمّ التحق بإحدى فرق الهواة عام ١٩٠٤ وكان محظوظًا، إذ قبل الخديوي اسماعيل (١٨٣٠-١٨٩٥) دعوته لحضور حفلته

(١) مجلة المسرح المصرية، العدد ٦٦ تشرين الأول / أكتوبر سنة ١٩٦٠، ص ٤٦؛ زكي طليمات: فنّ التمثيل العربي، الهيئة المصرية العامة، القاهرة، ١٩٧١، ص ٥٠ - الحاشية.

(٢) وقد حاول السفر إلى فرنسا لدراسة فنّ التمثيل، ولكنّه ووجه باعتراض والدته وعمّه، فلجأ أخيرًا إلى الخديوي عباس، عن طريق ثلاثة خطابات مطوّلة، يشرح فيها مدى هوايته للتمثيل، ومدى ما يمكن أن يفده من هذه البعثة، ودعا في آخر مطاب منها إلى حضور تمثيلية لمسرحية «برج ستيل» لاسكندر ديماس الكبير، على مسرح زيزينيا يوم ١١ حزيران ١٩٠٤، ومثّلت على المسرح الفرنسي ٨٠٠ ليلة متوالية. راجع: جورج أبيض لسعاد أبيض، مصدر سابق، ص ٧٣-٧٤؛ مجلة المسرح المصرية، العدد ٦٦، تشرين الأول ١٩٦٠، ص ٤٦.

(٣) زكي طليمات: فنّ التمثيل العربي، مصدر سابق، ص ٥١ - الحاشية؛ طلائع المسرح العربي، لمحمود تيمور، المطبعة النموذجية، مصر، د. ت.، ص ٤٣-٤٤؛ المسرحية العربية لنجم، مصدر سابق، ص ١٥٣.

الفرنسيّ ونفسيّته، إذ راح يقدّم مسرحيّة «لويس الحادي عشر» مثلاً وغير ذلك ممّا تحبّه وتهواه العائلة المالكة والأرستقراطية المصريّة<sup>(٢)</sup>.

وقد شاهد الزعيم سعد زغلول (١٨٦٠-١٩٢٦) بعض عروض جورج أبيض، وكان وقتها وزيراً للمعارف، فطلب منه أن يؤلّف فرقة عربيّة، لتقدّم عروضها باللّغة العربيّة، للارتقاء بالمسرح العربي في مصر. وقد تمّ ذلك، رغم معارضة سلطات الاحتلال، وعلى رأسها «دانلوب» مستشار المعارف، تمثيلاً مع سياسة التعريب التي نادى بها سعد زغلول.

وإذا أمعنا النظر في هذه الترجمات لوجدناها تتجاوب أيضاً مع روح الأرستقراطية المصريّة آنئذ ونفسيّتها... فهي مغرقة في التقعّر والفظاظة والبحث عن الكلمات الغربية، وفيها الكثير من الاختصار والحذف والتشويه وعدم احترام أفكار المؤلّف وكلماته حتى ولو كان المؤلّف شكسبير.

لقد كان عمل جورج أبيض وخليل مطران أرستقراطيّاً غير وطنيّ لأنّه جاء صورة واضحة لعقليّة النبلاء في عهد

مارس فنّ التمثيل هناك مع بعض الفرق الفرنسيّة<sup>(١)</sup>. وزار خلالها الجزائر وبعض الأقطار العربيّة. ومن أوائل أساتذته في التمثيل كان الممثل الكوميدي «ليلدار»، بالإضافة إلى الممثل العالمي «سيلفان» الذي اقتفى أثره في التمثيل التراجيدي وصاحبه في غير جولة له.

عاد جورج أبيض من فرنسا عام ١٩١٠، على رأس فرقة من الممثلين والممثلات الفرنسيين، ليقدّم مسرحياته باللّغة الفرنسيّة، لجمهور من الجاليات الأجنبيّة والأرستقراطيّة، وأقامت الفرقة موسمين باللّغة الفرنسيّة، أولهما على مسرح الهمبرا في الإسكندريّة، والثاني على مسرح دار الأوبرا بالقاهرة، قدّمت عليهما مسرحيّات: «لويس الحادي عشر»، «صاحب معامل الحديد»، «طرطرف»، «هوراس»، «أندرماك»، و«الأب لابونا»، وذلك لأنّ البلاط المصريّ والنبلاء والاقطاعيين، كانوا يتكلمون اللّغة الفرنسيّة أو الإنكليزيّة في ما بينهم، وقلّما يتكلمون العربيّة إلاّ مع الخدم، فكان عمل جورج أبيض الفنّي مقدّمًا لهم فقط ولإرضاء ذوقهم وتلبية متطلّباتهم. فنقل إلى البلاط المصري روح البلاط

(١) التحق بفرقة أستاذه سيلفان وظلّ سنة كاملة يعمل بها كمتّمل محترف، ومن الأدوار التي مثّلها دور «الطيب كواتيه» في مسرحيّة «لويس الحادي عشر»، ثمّ دور سان مايه في مسرحيّة «مضحك الملك» والدكتور أندريه في مسرحيّة الأب ليوننا. سعاد أبيض: كتاب جورج أبيض، مصدر سابق، ص ١٠٩.

(٢) قطاية، سليمان: المسرح العربيّ، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ١٩٧٢، ص ٢٠-٢١.

الملكیة... فعندما ذهب عملها هباء منثوراً<sup>(١)</sup>. ولكن هذا يؤكد أنّ ما دعا إليه سعد زغلول كان أوّل تشجيع من الحكومة للفنّ المسرحي<sup>(٢)</sup>. وكان من أعضاء هذه الفرقة نخبة من الشباب المثقفين وبعض الممثلين القدامى الذين اشتهروا في هذا الفنّ، ومن تدرّبوا عليه في أجواق القرداحي، واسكندر فرح، والشيخ سلامة، ومنهم عبد الرحمن رشدي، وفؤاد سليم، وعزيز عيد، ومريم سماط، وميليا ديان، وعبد القدّوس، وزكي طليمات<sup>(٣)</sup> لتغيير نظرة الناس إلى المسرح، فأصبحوا يحترمون الممثل ويقدرّونه بعد أن كانوا يعدّون مهنة التمثيل مهنة ساقطة وخارجة عن حدود اللياقة<sup>(٤)</sup>.

واستمرّ جورج أبيض بتقديم الدراما الكلاسيكية، وقد حقّق ذلك نجاحاً مرموقاً، ولكنّه اهتمّ بعد ذلك بالروايات التاريخية العربيّة، مثل «صلاح الدين» و«مملكة أورشليم» و«الحاكم بأمر الله»<sup>(٦)</sup>. ومع كلّ

استغرق جورج أبيض في تكوين الفرقة العربيّة أكثر من عام، وأطلق عليها اسم «جمعيّة أنصار التمثيل». وقد خطا المسرح العربي في مصر أهمّ خطواته نحو المسرح

(١) قطاية، سليمان: المسرح العربي، المصدر السابق، ص ٢١.

(٢) راجع: مجلّة المسرح المصريّة، العدد ٦٦، تشرين الأوّل ١٩٦٠، ص ٤٧؛ ألوان من النشاط المسرحي لمختار سيوفي، مصدر سابق، ص ٥٨؛ تطوّر النقد المسرحي، لعبد، مصدر سابق، ص ٢٢؛ المسرحيّة، لنجم، مصدر سابق، ص ١٥٤-١٥٥؛ تاريخ المسرح العربيّ، لفؤاد رشيد، مصدر سابق، ص ٥٨.

(٣) مندور، محمد: المسرح الثريّ، مصدر سابق، ص ٢٠؛ المسرحيّة لنجم، مصدر سابق، ص ١٥٤.

(٤) عيد، حسن: تطوّر النقد المسرحيّ، مصدر سابق، ص ١٥٤؛ تيمور: طلائع المسرح العربيّ، مصدر سابق، ص ٤٣ وما بعدها.

(٥) مجلّة المسرح المصريّة، العدد ٦٦، تشرين أوّل ١٩٦٠، مصدر سابق، ص ٤٧؛ دراسات في المسرح والسينما عند العرب، للنداو، مصدر سابق، ص ١٤٩-١٥٠؛ المسرحيّة لنجم، مصدر سابق، ص ١٥٤؛ طلائع المسرح العربيّ، لتيمور، مصدر سابق، ص ٤٦-٤٧.

(٦) مجلة المسرح المصريّة، العدد ٦٦، تشرين أوّل ١٩٦٠، مصدر سابق، ص ٤٧؛ المسرحيّة، لنجم، مصدر سابق، ص ١٥٦.

وحين أَلَّف فرح أنطون<sup>(٣)</sup> مسرحيته «مصر الجديدة» و«مصر القديمة»، ومثلها أبيض سنة ١٩١٣، توالى المسرحيات الجيدة التي أخذت تتجه صوب المشكلات الاجتماعية.

وقد تُرجمت لهذا المسرح الاجتماعي أفضل المسرحيات الغربية، فترجم الشاعر خليل مطران (١٨٧٢-١٩٢٢) مسرحيات شكسبير الخالدة، «عطيل»، «ماكبث» و«تاجر البندقية»، تخالف تلك الترجمة التي قام بها من قبل اسكندر قلدس وكامل حنين، كما ترجمت مسرحيات موليير ترجمة جيدة.

وجرى في هذا المضمير الاجتماعي إبراهيم رمزي، حيث أَلَّف مسرحياته: «الحاكم بأمر الله»، «البدويّة» و«قلب المرأة». كما أتيح للمسرح جمهرة صالحة من الممثلين الذين تخرّجوا في معاهد باريس، أو تتلمذوا على من تخرّجوا منها، أمثال عزيز عيد وعبد الرحمن رشدي<sup>(٤)</sup>.

لم يكن للمسرحية الفكاهية إذا شأن

هذا، لم يخرج مسرح جورج أبيض من الناحية الوظيفية عن الأهداف التي توفر عليها أيام الشيخ سلامة حجازي، ومن أتى بعده، ونهج نهجه، لذلك أصاب مسرحه ما أصاب المسارح من قبله من انصراف الجمهور عنها، لأنّها لم تحدثه عن أموره ومقدرات حياته، ليستمر الارتباط بينهما قوياً، والشيجة متينة<sup>(١)</sup>. ولكن، على الرغم من ذلك، كان لفرقة جورج أبيض الفضل الكبير في نشر الوعي المسرحي لدى الجمهور بصفة عامّة، فلم يقتصر عرض نشاطها على القاهرة والإسكندرية فحسب، بل طافت على كافة المدن في الصعيد والمحافظات حتى أسوان في أقصى الصعيد، فلاقت نجاحاً وإقبالاً لم تلقه أيّة فرقة غيرها من جمهور العاصمة والمدن<sup>(٢)</sup>.

ومع جورج أبيض تنتقل المسرحية الغنائية إلى المسرحية الاجتماعية، وقد هيأ لها بعد عودته من فرنسا سنة ١٩١٠، حيث درس أصول التمثيل، على أساتذة أكفاء.

(١) تطوّر النقد المسرحي في مصر، لعيد، مصدر سابق، ص ٢٢.

(٢) السيوفي، ألوان من النشاط المسرحي، مصدر سابق، ص ١٢٨-١٢٩؛ المسرحية لنجم، مصدر سابق، ص ١٥٤-١٥٦؛ جراسة في المسرح والسينما عند العرب، للنداء، مصدر سابق، ص ١٥١-١٥٢ وانظر الهامش أيضاً.

(٣) قام برحلة إلى لبنان وسوريا، وعاد منها في أوائل ١٩١٢ ثم إلى فلسطين وتونس وطرابلس والجزائر.

(٤) محام من مواليد القاهرة (١٨٨١-١٩٤٠)، درس الحقوق وعمل محامياً في قلم القضايا «الأوقاف»، ثم استقال من وظيفته، وأغلق مكتبه ليحترف المسرح مع جورج أبيض سنة ١٩١٢ ثم عاد للمحاماة وإلى المسرح مرة ثانية سنة ١٩١٧، حيث أَلَّف فرقة تحمل اسمه، من أدواره: تيمور في «لويس الحادي عشر» وكرادو في مسرحية «الموت المدني». راجع: فنّ الممثل العربي، لزكي طليمات، مصدر سابق، الحاشية، ص ٥٤؛ تطوّر النقد المسرحي في مصر، لعيد، مصدر سابق، ص ٣٤؛ طلائع المسرح العربي، لمحمود تيمور، مصدر سابق، ص ٤٤-٤٦.

يذكر خلال المرحلة التي قطعها المسرح من بداياته حتى عام ١٩٠٧، إلا أن الشيخ سلامة حجازي قد اعتاد أن يختتم حفلاته التمثيلية بفصل مضحك، الهدف منه إضحاك الجماهير ليس أكثر، ولم يكن موضوعاً بذاته. ولكن عزيز عيد قام بالمحاولة الأولى للرواية الكوميديّة، وكون فرقة مثّلت على مسرح دار التمثيل العربي، وروايته كانت «ضربة مقرعة» ولكنّه لم ينجح في المحاولة.

ونرى أن جورج أبيض قد قدّم عام ١٩١٣ مسرحيات محمد جلال عثمان، ولكنها سقطت سقوطاً كبيراً كاد يودي بالفقرة نفسها، فترك جورج هذا النوع نهائياً. ولكن، عندما انضمت فرقة أبيض إلى فرقة حجازي، وانتقلت في عام ١٩١٥ إلى دار الأوبرا، لتحيي موسمها هناك، انتهز عزيز عيد الفرصة، وكون فرقة الكوميدي، وعمل بها على مسرح برنتانيا، وضمت هذه الفرقة المجموعة الضخمة من الممثلين، وعلى رأسهم نجيب الريحاني (١).

ونستطيع أن نقول إنّ وجود جورج أبيض في هذه المرحلة التاريخية من حياة الأمة العربيّة، يُعدّ وجود ثورة درامية في

محيط الفنّ في مصر أولاً، ثمّ في البلاد العربيّة ثانياً (٢)، ويتضح ذلك من عدّة شواهد، منها:

١ - أصبحت دار الأوبرا تستقبل الفرق العربيّة، بعد أن كانت وقفاً على الفرق الأجنبيّة (٣).

٢ - ضمّ إلى فرقته وجوهاً جديدة مثقّفة، أمثال: عبد الرحمن رشدي. وكان انضمامه للمسرح ثورة في عالم التمثيل، حيث تغيّرت نظرة المجتمع إلى الأفضل، وكان عالي الثقافة وواسع الخبرة.

٣ - بداية الهواية، حيث أصبح الفنّ حافزاً لطبقة ممتازة من المتعلّمين وأولاد الذوات الذين أخذوا يدخلون الفنّ هواة، ويعملون فيه.

٤ - الوعي الفني: إنّ ما قدمه لنا جورج أبيض في هذه المرحلة من تاريخ المسرح العربي، هو قائم على أصول جديدة أتى بها من دراساته ومشاهداته في فرنسا، يُعدّ أوّل خطوة حقيقيّة نحو إيجاد فنّ صحيح، مبنيّ على الدراسة الأصولية ومتصل بتراث المسرح الأوروبي العتيّد (٤). هذه الخطوة جذبت إلى فرقته جمهوراً ممتازاً من كبار رجال الدولة، والأدب والعلم، ولذا انتشر

(١) نجم، المسرحيّة، مصدر سابق، ص ١٥٧.

(٢) مجلّة المسرح المصريّة، العدد ٦٦، تشرين الأوّل ١٩٦٠، مصدر سابق، ص ٤٩.

(٣) المصدر نفسه. (٤) نجم، المسرحيّة، مصدر سابق، ص ١٥٧.

الوعي الفني، وكسب الجمهور طبقة راقية ومعلّمة.

٥ - الرقص والموسيقى: اهتمّ بالعنصر الموسيقي والأوبرالي، فكانت فرقته تضمّ ١٢ عازفًا و١٨ منشدًا، على رأسهم عبد الحميد علي، كذلك كانت تضمّ فرقة للرقص تقدّم عملها في المشاهد التي تتطلب إنشادًا أو رقصًا، ولم يكن للفرق التمثيلية في ذلك الوقت عهد، لا بالموسيقى الوترية ولا بالرقص<sup>(١)</sup>.

٦ - إنّه أوّل من شجّع كبار المؤلفين وأجزل لهم العطاء، فكان بذلك أن كسب للمسرح أعمالاً أدبية ذات قيمة كبيرة، تأليفًا وترجمة<sup>(٢)</sup>.

٧ - رفع أجور الممثلين بنسبة ٥٠٪.

٨ - العناية بالإخراج: لم تكن الفرق تهتمّ بالإخراج، حتّى ظهر عزيز عيد<sup>(٣)</sup> أوّل مخرج في فرقة جورج أبيض<sup>(٤)</sup> وكان لفرقته الفضل في تركيز العمل المسرحي على دعائم من العلم والثقافة بدلاً من الارتجال الذي كان سائدًا من قبل. ولعلّها

كانت أوّل فرقة عربية تهتمّ بالإخراج المسرحي القائم على الأصول والأسس المدروسة، ما أتاح لعبقرية جديدة في الإخراج تمثّلت في مدرسة عزيز عيد الذي كان أوّل مخرج لفرقة جورج أبيض.

٩ - إنّه أوّل من عني بالإعلانات عن مسرحه، ولم يكن الإعلان قاصرًا على باب المسرح، بل كان يلجأ إلى لصق الإعلانات في الشوارع وعلى جدران المقاهي، وفي الأماكن البارزة التي ساعدت على تقاطر الجمهور عليه وتشجيعه له. وكانت الإعلانات تتضمن معلومات كافية عن المسرحية والمؤلف والممثلين، ومكان كلّ عرض وموعده، وأسعار الدخول، إلى غير ذلك<sup>(٥)</sup>.

١٠ - الألحان: قصد الشيخ سلامة ليلحنّ له المقطوعات التي أعدت للروايات التي ابتدأ بها، وهكذا أظهر الشيخ سلامة أوّل ألحان مسرحية تسجل على نوته كتبها عبد الحميد علي، ورأس الفرقة محمود رحمي<sup>(٦)</sup>.

(١) مجلة المسرح المصرية، العدد ٦٦، تشرين الأول ١٩٦٠، مصدر سابق، ص ٤٩.

(٢) المصدر نفسه، ص ٤٩.

(٣) راجع: تاريخ المسرح العربي، لفؤاد رشيد، مصدر سابق، ص ٦١-٦٣؛ فنّ التمثيل العربي، لزكي طليمات، مصدر سابق، ص ٥٧؛ طلائع المسرح العربي لمحمود تيمور، مصدر سابق، ص ٢٢-٢٣؛ دراسات في المسرح والسينما عند العرب، للنداو، مصدر سابق، ص ١٦٢.

(٤) راجع: فنّ الممثل العربي لزكي طليمات، مصدر سابق، ص ٥٧؛ مجلة المسرح المصرية، العدد ٦٦ تشرين الأول ١٩٦٠، مصدر سابق، ص ٤٩.

(٥) المصدر السابق، ص ٤٩. (٦) تاريخ المسرح العربي لفؤاد رشيد، مصدر سابق، ص ٦١-٦٣.

## اندفاع المثقفين إلى المسرح

وكانت تضحية المحامي «عبد الرحمن رشدي» بمهنته تعدّ في ذلك الوقت مغامرة جسورة، أحدثت تيارًا فكريًا دفع كلّ شغوفٍ بالفنّ إلى اقتفاء أثره.

وهكذا كان عبد الرحمن رشدي رائدًا في اندفاع المثقفين إلى المسرح. رجلٌ آخر ربّما لا يذكر اليوم اسمه أحد.. وهو محمّد عبد الرحيم، مدرّس التاريخ بمدرسة السعيدية - شقيق القصصي المعروف محمود طاهر لاشين - الذي كوّن فرقة أنصار التمثيل التي ضمت عددًا من الشباب المثقف، مثل محمد تيمور وسليمان نجيب وأحمد رامي وعبد العليم العيلمي ومحمد عبد القدوس وغيرهم وقد أخرج لهم جورج أبيض بعض المسرحيات.

وبين هؤلاء المتجهين إلى المسرح كان محمد تيمور بن أحمد باشا تيمور، الذي نشأ في أسرة أرستقراطية، درس في فرنسا مدّة أربع سنوات، فأثر عليه ذلك تأثيرًا عظيمًا في بلورة ميله الواضح لفنّ التمثيل...

ودخل محمد تيمور إلى المسرح من أعرض أبوابه، فكتب أربع مسرحيات سبق

ومع جورج أبيض وما قدّم من مسرحيات في أسلوب فنّي<sup>(١)</sup>، يكون المسرح العربي في مصر قد جاوز طور النشأة، وتكون المسرحية الصحيحة قد ظهرت أولياتها، ويكون الأدب العربي في مصر قد رأى النور، وظهرت نماذج وليدة منه، وخاصة في أواخر تلك المرحلة التي تنتهي بثورة سنة ١٩١٩ التي اجتاحت كلّ شيء، وجرفت كلّ نشاط. ولم يكن أمام الفرق المسرحية إلا أن تسير مع الثورة، وتندفع بانديفاعها حتى لا تتحطّم وتندثر، أو تنكمش وتبعد عن تيارها، حتى لا تُسحق وتتبدّد<sup>(٢)</sup>.

وقد أثر ظهور جورج أبيض في الشباب المثقف تأثيرًا بالغًا، فأقبلوا يؤلّفون نوادي مختلفة مثل جمعية أنصار التمثيل والسينما، وجمعية ترقية التمثيل، ونادي الكتبخانة، وفرقة عبد العزيز حمدي.

وأقبلت على هذه النوادي فئة جديدة متعلّمة، اتجهت إلى المسرح بدافع الحبّ والهواية، لا بدافع الحاجة، فرأينا المعلّم والمحامي والطالب يصعدون إلى خشبة المسرح.

(١) المسرح الشريّ، مندور، مصدر سابق، ص ٢٠؛ طلائع المسرح العربي لمحمود تيمور، مصدر سابق، ص ٤٦-٤٧.

(٢) حسن عيد: تطوّر النقد المسرحي في مصر، مصدر سابق، ص ٣٧؛ ألوان من النشاط المسرحي، لمختار سيوفي، مصدر سابق، ص ١٢٠-١٢٩.

ذكرها، واشتغل بالصحافة، فكان يكتب نقدًا مسرحيًا صادقًا جمعه أخوه محمود تيمور في كتاب باسم «حياتنا التمثيلية».

ولم يكتفِ محمود تيمور بالكتابة للمسرح في الصحافة، ولكنّه ظهر أيضًا كممثّل. وعندما عيّن في السراي في سلك التشريفات، لم يطق المقام إلاّ عامًا وبعض عام، ثمّ استقال ليعود من جديد إلى المسرح.

وأعطى محمد تيمور المسرح دفعات قويّة بكتابته للمسرحيّات، وتوجيهه للممثّلين بالنقد، ثمّ اشتراكه وهو ابن الأسرة الكبيرة، مع الممثّلين في وقت كان التمثيل فيه عيبًا وسبّة. ولكنّ ثقافته كانت تدفعه إلى إرضاء موهبته، وضرب أفضل المثل<sup>(١)</sup>.

ومهما يكن من أمر إعراض الجمهور عن كافّة المحاولات التي قامت بين عامي ١٩٠٩ و١٩١٢ ومن عدم إقباله على التمثيل، إلاّ أنّ تلك المرحلة كانت رحبة للنهوض بالتمثيل، والخروج بالمسرحيّة من النوع الغنائيّ إلى الأنواع الأخرى الفنّيّة، وكان فضل جورج أبيض على المسرح

العربي يكمن أساسًا في إيقاظه لوعي مرتادي المسرح في العالم العربي إلى وجود المسرح الكلاسيكي بإمكانياته المختلفة، وإلى قيامه بتربوية زملائه وتلامذته على استساغه أصنافًا جديدة من القيم الفنّيّة. ومن ذلك مثلاً الحاجة إلى ترجمات دقيقة وأمينّة للمسرحيّات الأجنبيّة، وإلى الإعداد الجاد لكلّ مسرحيّة، الأمر الذي دفع أصحاب الأقلام العربيّة إلى الإقبال على النقل والترجمة في مختلف ألوان الأدب بحثًا عن المعرفة، ورغبةً في الأخذ عن الغرب أخذًا موثوقًا بصحّته<sup>(٢)</sup>.

وعندما أعلنت الحرب العالميّة في صيف سنة ١٩١٤، أعلنت معها مصر الأحكام العرفيّة بوصفه نظامًا لحكم البلاد في أثناء هذه الحرب. ففرضت قيودًا شديدة، ورقابة على الصحافة والمسرح والأغاني، الأمر الذي أوقف الحركة الفنّيّة، وسبّب إعاقة ركب الفنّ المسرحيّ إلى حدّ كبير، فقد أوقف عرض مسرحيّات كثيرة، وشطب مشاهد كاملة من مسرحيّات أخرى، وأصبح التمثيل يتمّ تحت المراقبة. ومع ذلك انضمّ جورج أبيض إلى الشيخ سلامة حجازي، وكوّنوا فرقة عرفت بجوقة أبيض

(١) فؤاد رشيد: تاريخ المسرح العربيّ، مصدر سابق، ص ٧٧؛ ألوان من النشاط المسرحيّ، مصدر سابق، ص ١٢٨-١٢٩.

(٢) لنداو، دراسات في المسرح والسينما عند العرب، مصدر سابق، ص ١٥٣، فنّ الممثّل العربيّ، لزكي طليمات، مصدر سابق، ص ٤٨.



وحجازي<sup>(١)</sup>، أعادت تقديم المسرحيات التي اشتهرت بها كل فرقة منهما من قبل.

إذا كانت الحرب قد أوقفت الحركة الفنيّة من جهة<sup>(٢)</sup>، فهي قد ساعدت على الاتصال بين الشعب العربي والشعوب الأوروبيّة اتصالاً مباشراً من جهة ثانية، حيث انتشرت الجيوش الاستعماريّة بلغاتها المختلفة، فأثار هذا الاحتكاك أو الاتصال المباشر، اهتمام الشعب العربي، فحرّك كوامن الخيال فيه، وساعد على الإسراع باهتمامه في طرائق حياة هؤلاء الغازين للأرض والعادات، فتهيأت النفوس أكثر للترحيب بالفنّ على اختلاف أنواعه، كما ساعد على تحرير المرأة<sup>(٣)</sup> التي استجمعت قدرتها على الحركة والصمود بعد الحرب الأولى. وكان هذا الأمر بحدّ ذاته ثورة من الوجهتين الاجتماعيّة والأخلاقيّة، وبعد أن كانت المغنّيات والراقصات يُعتبرن من الفئة الساقطة أخلاقياً، نجد أنّ الأمر قد اختلف بعد الحرب الأولى، وأصبح في مقدور أيّ فرد أن يصحب معه إلى المسرح رفيقة جميلة، من دون زجر أو إيلاّم من أحد،

فانجذب عدد من الفتيات الجميلات إلى خشبة المسرح في سنوات ما بين الحربين، ومن هنا أيضاً كان ظهور كثير من الفرق الحديثة.

إنّ النموّ المستمرّ في عدد الفرق<sup>(٤)</sup>، مع تنوّع عروضها، يُعدّ واحداً من أقوى الدلالات على شغف الجمهور بالفنّ عامّة وبالمسرح على وجه التحديد. وإذا نظرنا إلى فرقة أبيض وحجازي، من خلال هذا المنطلق الاجتماعيّ والسياسي، نجدها تستمرّ في تقديم عروضها رغم جميع القيود التي كانت تفرض على النصّ المسرحي، وتحيي موسمها السنويّ في أواخر سنة ١٩١٥ على مسرح الأوبرا، الذي كان وقفاً على الفرق الأجنبيّة. وبذلك خلا مسرح برنتانيا الذي كانت تشغله فرقة أبيض وحجازي. وعلى مسرح دار الأوبرا قدّمت الفرقة مسرحيات «نبي الفراعنة» و«قلب المرأة» للطفي جمعة، و«مدام سان جين» و«في سبيل الوطن» ثمّ أعادت مسرحيات مثل «الشريف الياباني»، «الحاكم بأمر الله»، «لويس الحادي عشر»،

(١) سعاد أبيض، كتاب جورج أبيض، مصدر سابق، ص ١٤٢؛ طلائع المسرح العربي، لمحمود تيمور، مصدر سابق، ص ٤٣.

(٢) راجع: مجلّة المسرح المصريّة، العدد ٦٦، تشرين الأوّل ١٩٦٠، مصدر سابق، ص ٤٨.

(٣) راجع عن تحرير المرأة: تحرير المرأة لقاظم أمين، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٠.

(٤) فرقة أبيض وحجازي - فرقة عكاشة - فرقة منيرة المهديّة، وعزيز عيد، وعبد الرحمن رشدي. راجع: دراسات في المسرح والسينما عند العرب، للنداور، مصدر سابق، ص ١٤٩؛ طلائع المسرح العربي، لتيمور، مصدر سابق، ص ٤٣.

و«عطيل»، وقد أحييت الفرقة آخر موسم لها سنة ١٩١٦ على مسرح الأوبرا بعد أن أحييت موسماً كبيراً في بلاد الشام<sup>(١)</sup>.

وفي وسط هذه الصعاب، حاول عزيز عيد أن يدخل الفنّ الكوميديّ إلى حقل نشاطه المسرحي، ليكون له فرقة متخصصة في تقديم هذا اللون من الأعمال المسرحية، وضمّ إليها الممثلين الذين تمرّسوا في الفنّ الكوميديّ بعدئذ، وأصبح من أعلامه: نجيب الريحاني، حسن فائق، اسطفان روستي، أمين عطالله، وروز اليوسف<sup>(٢)</sup>. ولكن على ما يبدو أنّ الجمهور العربي في مصر، في تلك المرحلة التاريخية، لم يعجبه هذا اللون من المسرحيات، فانصرف عن فرقة عزيز عيد بشكل دعاه يفكر في وسيلة فعّالة يجذب بها اهتمام الناس، فأعلن عن ظهور أول ممثّلة مصرية<sup>(٣)</sup>، وهي منيرة المهديّة التي

كوّنت لنفسها فرقة خاصّة، ومثّلت بعض روايات الشيخ سلامة، مثل: «صلاح الدين» و«روميو وجوليت» و«عائدة» و«صدق الإخاء»، وكان تصدر جميع إعلاناتها بتلك الكلاشيه: «أول ممثّلة مصرية» والعجيب في هذا أنّها لم تمثّل على الإطلاق دور السيّدة، وإنما كانت تقوم بأدوار الشيخ سلامة حجازي، وتلبس ملابس الرجال، وتمتشق الحسام. ومع هذا، فقد أحبّها الجمهور، وأقبل عليها مأخوذاً بصوتها الساحر<sup>(٤)</sup> وخصوصاً بعد أن ألف الجمهور صوت سلامة حجازي الجميل.

#### نجيب الريحاني (١٨٨٧-١٩٤٩)<sup>(٥)</sup>

وُلد نجيب الريحاني في القاهرة سنة ١٨٨٧، وكان جدّه الأوّل عراقياً، وقد تشرّب بالروح الشعبية من البداية، لأنّه خرج من حوارى القاهرة بحكم نشأته من أسرة فقيرة تعتّرت بها الحياة من البداية.

(١) راجع مجلّة المسرح المصريّة، العدد ٦٦، تشرين الأوّل ١٩٦٠، مصدر سابق، ص ٤٨.

(٢) راجع: ألوان من النشاط المسرحي، لمختار سيوفي، مصدر سابق، ص ١٣٠؛ تاريخ المسرح العربيّ، لفؤاد رشيد، مصدر سابق، ص ٨٧.

(٣) يعقوب صنوع، أوّل من درّب الفتيات وأظهرهنّ في فرقته. ومنذ ذلك الوقت بدأت السيّدة تمثّل دورها، وكانت جميع الممثّلات اللاتي ظهرن حتى عام ١٩١٥ من الأقطار العربيّة، ومعظمهنّ من لبنان، لا ينافسهنّ في ذلك أية فتاة مصرية على الإطلاق، حتّى أعلن عزيز عيد عن ظهور أول ممثّلة مصرية، وهي منيرة المهديّة. وكان القرداحي أوّل من قدّم زوجته، ثمّ الممثّلة اليهودية الموهوبة ليلي. راجع: كتاب جورج أبيض لسعاد أبيض، مصدر سابق، ص ١٧١-١٧٣؛ دراسات في المسرح والسينما عند العرب، للنداو، مصدر سابق، ص ١٣٦.

(٤) راجع مجلّة الدوحة، العدد ٦٤، السنة السادسة، نيسان ١٩٨٠، ص ١١٧.

(٥) عن حياته، راجع: ليلي نسيم أو سيف، كتاب نجيب الريحاني وتطوّر الكوميديا في مصر، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧٢.

وأبيض. وبعد عام التحق بفرقة عزيز عيد، الذي تعلّم منه الكثير الذي يتّصل بالكوميديات وفنون نقلها والتعبير عنها<sup>(٢)</sup>، ولكنّه قد تفهّم أخطاء عزيز عيد، وبخاصّة خطّاه في تقديم الفودفيل<sup>(٣)</sup> وقد اشتهر باسم «موليير الشرق» منذ شبابه<sup>(٤)</sup>، وانتهى إلى تقديم فرقة تمثيلية اختصت بتقديم هذا اللون من الأعمال المسرحية. وقد بدأ الريحاني أوّل الأمر بتقديم مشاهد هزليّة فرانكو أراب<sup>(٥)</sup>، من فصل واحد. ثمّ قدّم بعد ذلك هزليّات غنائيّة راقصة، ذات فصول ثلاثة، ومع ذلك لم يلبث أن خلص إلى مرحلة أساسيّة من «الخلق الفنّي الذاتيّ»، ومن هنا انبثقت شخصيّة الخالدة كشكش بك<sup>(٦)</sup>.

وشخصية الريحاني لها شأن في المسرحيّة العربيّة في مصر، المنتزعة من صميم حياة الشعب، تساق في أسلوب

وكان الريحاني من صغره خفيف الظلّ متهكّمًا ساخرًا، وابن نكتة، كما قال عنه بديع خيرى، ولم ينل قسطًا وافيًا من التعليم، فقد ترك الدراسة وهو شاب، والتحق عاملاً في أحد المصارف. وكل ما عُرف عنه من هوايات واهتمامات أنّه كان يتمنّى أن يكون شاعرًا، ولكنّه كان يهوى التمثيل، وساعده الحظّ من البداية أن يكون له زميل يشابهه في المصرف العقاريّ المصريّ الذي اشتغل فيه، وكان هذا الزميل هو عزيز عيد، رائج الإخراج المسرحيّ، فارتبط به الريحاني، وشاركه جهده الباكر على مدار العشر سنوات الأولى من القرن العشرين في تكوين العديد من الفرق المسرحيّة الصغيرة الفاشلة إلى أن قامت الحرب العالميّة الأولى<sup>(١)</sup>.

دخل نجيب الريحاني الحياة الدراميّة عام ١٩١٤، ثمّ التحق بفرقة حجازي

(١) فيما يختص بهذه الفترة من حياة الريحاني، أنظر «سلسلة تاريخ حياتهم بأفلامهم» في المجلّة المصريّة الأسبوعيّة «دنيا الفنّ»، ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٦، ص ١٣.

(٢) الفودفيل: نوع من الاسكتشات الدراميّة الخفيفة التي تتخلّلها الأغاني والرقصات، وصنوف الترفيه الأخرى. وكانت من الأعمال الشائعة جدًّا في فرنسا، ومنها انتشرت، وربما تعود تسميتها إلى الشاعر الفرنسي أو باسيلين O. Basselin الذي وُلد في فودي فير Vau ou Vol de Vire بنورماندي Normandy عام ١٩٤٨. راجع: فنّ الممثل العربيّ، لزيك طليمات، مصدر سابق، ص ٥٨، الحاشية؛ دراسات في المسرح والسينما عند العرب، للنداو، مصدر سابق، ص ١٦٣.

(٣) المصدر السابق، ص ١٦٣.

(٤) هو نوع لا وجود له في أي مسرح من مسارح العالم، إذ هو خليط من اللغتين العربيّة والفرنسيّة.

(٥) أنظر: مذكرات فاطمة رشدي، الكتاب الأوّل: أيام من حياتي، ط ٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٧١، ص ٢٨-٢٩؛ طلائع المسرح العربيّ، لمحمود تيمور، مصدر سابق، ص ٩٦-٩٨.

(٦) المصدر السابق، ص ١٦٣.

وقد اشتهر بأدوار البربري، واصبح المنافس القوي لفرقة الريحاني<sup>(٤)</sup> وحمل لقب «بربري مصر الوحيد». والبربري، لفظة عامية مصرية كانت تُطلق على أبناء إقليم النوبة، على الحدود بين مصر والسودان، ولكن هذا اللفظ اختفى الآن.

ونستطيع القول إن فرقة الريحاني وشخصية كشكش بك، وفرقة الكسار وشخصية البربري عثمان، تعبران عن روح العصر وانعكاسات ما يدور في وجدان الجمهور، هذا فضلاً عن أنهما تقدمان نموذجين من نماذج المجتمع العربي في مصر، لهما أصالتهما المحليّة، ووجودهما الواقعي في الحياة<sup>(٥)</sup>.

ولقد كان الريحاني قادراً على مسابرة التطورات الجديدة وعلى اللحاق بها، عندما كان يخدم قضية التقدم والتنوير، إلا أنه كان يكره من المجتمع قسوته وماديته وتكالبه على المال، وكان متمسكاً بمثله، وبرغم معرفته الواعية بالوقائع الحديثة للحياة المصرية، فإن الآلام التي عانتها مصر الحديثة لم تنعكس آثارها في فنّه فقط، بل انعكست في روحه أيضاً<sup>(٦)</sup>.

تهكمي لاذع يُظهر عيوب الناس، ويضحكهم عليها في مقدرة فنيّة بارعة، وقدرة فائقة في الإخراج والتمثيل، وكان أبرع من اعتلى منصّة المسرح في مصر، وإن كانت لغة مسرحياته عامية، ومعظمها من تأليفه هو وزميله بديع خيرى<sup>(١)</sup>. وأحسن مسرحياته التي قدّمها: «حسن ومرقص وكوهين» وصلت إلى درجة من النجاح أدّت إلى إعادة تمثيلها غير مرّة<sup>(٢)</sup>. ومن أبطالها عباس فارس وعادل خيرى.

كان النجاح الذي صادف الريحاني في شخصية كشكش بك، وهو عمدة من الريف، باع محصوله من القطن وقدم إلى القاهرة وجيوبه مليئة بالذهب، فيلتف حوله فريق من الحسان يلتهم تلك الثروة في لحظات معدودات، ويعود إلى قريته «كفر بلاص» يعضّ بنان الندم، حافزاً لأصحاب الملاهي الأخرى لكي يحذوا حذوه، وينسجوا على منواله، ولكنهم لم يصلوا إلى مستواه<sup>(٣)</sup> إلى أن قام علي الكسار بدور خادم بربري، لا يظهر إلا بضع دقائق على المسرح، فتنجح المسرحية، ويصفق له الجمهور كثيراً، حتى انتزع بطولة المسرحية من مصطفى أمين.

(١) الدسوقي، عمر: المسرحية، مصدر سابق، ص ٣٩-٤٠.

(٢) الأهرام، ٢٧ تموز ١٩٥٢، ص ١٧. (٣) روز اليوسف، ٢٤ أيار ١٩٥٤، ص ٣٤.

(٤) رشيد، تاريخ المسرح العربي، مصدر سابق، ص ٨٩؛ أنظر: دراسات في المسرح والسينما عند العرب، للنداو، مصدر سابق، ص ١٧٠-١٧١. (٥) طليعات، فنّ الممثل العربي، مصدر سابق، ص ٧٣-٧٦.

(٦) نسيم، ليلي: نجيب الريحاني وتطور الكوميديا في مصر، مصدر سابق، ص ٢٩٩.

## يوسف وهبي وفرقة رمسيس

من مواليد القاهرة سنة ١٨٩٦، من أسرة مصرية ميسورة الحال، تعود إلى أصول تركية. استهل حياته الفنية بالقاء المونولوجات في محافل السمر، وكان يظهر في منتديات أهل الفن، مصاحباً لشقيقه إسماعيل وهبي المحامي الذي كان في مقدّمة المترجمين للمسرح والمعنيين به من الشباب المثقف<sup>(١)</sup>.

رحل إلى إيطاليا ليدرس الفن المسرحي هناك وتلمذ على يد لياتوني. وهناك في إيطاليا، التقى بمغنية الأوبرا لويزلون التي أصبحت زوجته، ولم يعد إلى مصر إلا بعد وفاة أبيه الذي حاول أن يمنعه من التمثيل في الوقت الذي كان فيه المسرح الجدي راکداً، حيث تخالفت فرقة أبيض وغيرها من الفرق، ولم يبرز في الأفق إلا فرقة الريحاني وفرقة الكسار وغيرهما من الفرق الهزلية، تُضاف إليهما فرقة منيرة المهديّة، التي هي إلى الغناء أقرب منها إلى التمثيل<sup>(٢)</sup>.

وفي هذه الظروف والملابسات، وضع يوسف وهبي في اعتباره أنه لا بدّ من

تأليف فرقة مسرحية ممتازة لتنهض بالحياة المسرحية على أرض مصر العربية، وخصوصاً بعد أن تتلمذ في إيطاليا على أستاذه «ليانتوني» وعرف المسرح هناك عن كثب. ولم يمض عليه في مصر كبير وقت حتى أُلّف «فرقة رمسيس» التي أسّسها عام ١٩٣٢، ولم تلبث أن أصبحت الفرقة المفضلة لدى جمهور النظارة.

أول مسرحية قدمتها فرقة رمسيس، هي مسرحية «المجنون» التي اقتبسها عن رواية سينمائية إيطالية<sup>(٣)</sup>، وقد مثل فيها بطولة المجنون، فهز المشاعر بروعة مواقف، وصدق أدائه، حتى خيل للمشاهدين حقاً أنه هارب من مستشفى الأمراض العقلية<sup>(٤)</sup>. ويبدو أنّ له غراماً خاصاً في التعبير البارع عن شخصيات تعاني من بعض التعقيدات الباثولوجية «المرضية»، أو أيّ شيء من هذا القبيل، وإلا لما حسبه جمهور النظارة هارباً فعلاً من مستشفى المجانين.

وفي عام ١٩٣٣، طلق زوجته، مغنية الأوبرا، وتزوج سيّدة مصرية ثرية، وقد يكون زواجه منها رغبة في استثمار مالها في إقامة مسرح جديد، ودار للسينما، وكافتيريا تضمّ جوقة موسيقية، بالإضافة

(١) تيمور، طلائع المسرح العربي، مصدر سابق، ص ٧٦؛ راجع: فنّ الممثل العربي، لطيمات، مصدر سابق، ص ٩٣.

(٢) المصدر نفسه، ص ٧٧-٧٨.

(٣) تيمور، طلائع المسرح العربي، مصدر سابق، ص ٧٨.

(٤) المصدر نفسه، ص ٧٨.

دافعة عندما قرّر إحياء العنصر الموسيقي فيه<sup>(٤)</sup>.

وتُعدّ فرقة رمسيس أكبر حدث مسرحي وقع في الشرق العربيّ خلال الثلاثينات حتّى منتصف الأربعينات، أي من سنة ١٩٣٢ إلى سنة ١٩٤٥ لأنّها استطاعت أن ترفع راية المسرح الجدّي، وأن تردّد طغيان المسرح الهزلي، وأن تروّضه<sup>(٥)</sup>.

وقد كان يوسف وهبي واحداً من أهمّ أبناء الطبقة الراقية الذين شغفوا بالتمثيل، وآثروه على مظاهر الوجاهة الاجتماعيّة، فاكسب الفنّان المسرحيّ من خلال ذلك قيمة واحتراماً اجتماعياً لم يكن يناله من قبل. وقد استمرّت وتساعدت جهود يوسف وهبي إلى أواخر الخمسينات تقريباً، وقدم الكثير من المسرحيّات المؤلّفة والمترجمة.

### توفيق الحكيم (١٨٩٨-١٩٨٧)

قبل أن نتناول المسارح الحكوميّة في مصر، لا بدّ لنا من وقفة قصيرة مع الأديب الكبير توفيق الحكيم الذي خدم المسرح العربيّ أجلاً خدماً، وارتفع بنتاجه الأدبيّ

إلى بعض منشآت أخرى. ولما لم تحقّق هذه المشروعات الفائدة المتوقّعة لها، وافق على أن يرأس الفرقة القوميّة سنة ١٩٣٥، التي حملت اسم الفرقة المصريّة<sup>(١)</sup>، كانت أنشأتها الحكومة المصريّة، ودعت أقطاب الأدب ليشرّفوا عليها من أمثال: أحمد ماهر، مصطفى عبد الرزاق، طه حسين، توفيق الحكيم وخليل مطران. وكان من المنتظر أن ينهض هؤلاء بالمسرح ويغذّوه بالأدب الرفيع، وفي اسمائهم ضمان لاجتذاب الطبقة المثقّفة للمسرح، ولكن جمهرة الشعب هي التي تغلّبت، وآثرت ألواناً معيّنة من المسرحيّات، فيها مسرح وفكاهة، وكثير من التهريج، ثمّ إنّ السينما قد اجتذبت إليها كبار الممثلين لما فيها من الربح الوافر<sup>(٢)</sup>.

من الإنصاف القول: إن يوسف وهبي أنقذ المسرح الجدّي من الانهيار<sup>(٣)</sup>، كما أنّ أهمّ إسهاماته هو تأكّيده على المشكلات الاجتماعيّة في الأعمال الدراميّة التي كتبها أو عرضها، وعلى هديه سار كثيرون ممّن هم أقلّ منه مقاماً، ثمّ أعطى للمسرح قوة

(١) روز اليوسف، ٥ حزيران ١٩٥٤، كان راتبه مئة جنيه + ٢٥٪ من الإيراد، ص ٤٢.

(٢) الدسوقي، المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٤٠.

(٣) تيمور، طلائع المسرح العربيّ، مصدر سابق، ص ٧٩.

(٤) لنداو، دراسات في المسرح والسينما عند العرب، مصدر سابق، ص ١٦٠.

(٥) طليعات، فنّ التمثيل العربيّ، مصدر سابق، ص ١١١.

يمكن العودة إلى طلائع المسرح العربيّ لتيمور، للإطلاع على أعلام مسرح رمسيس مثل روز اليوسف، وفاطمة رشدي، وزينب صدقي، وأمينة رزق، ص ٨١-٩٣.

هذه المرحلة من حياته وحياته جيله في قصته الكبيرة «عودة الروح» التي نشرها سنة ١٩٢٣، ومع ذلك، فإن القصة لم تكن الفن الأدبي الذي استهواه في بادئ الأمر، أو في حادثته البكر، بل كانت المسرحية التي أخذ يكتبها منذ سنة ١٩١٨، والتي تعبّر عن اتجاهه القومي، حيث كتبها بطريقة الرمز الذي يحميه من الاستعمار البريطاني، الذي كان متسلطاً على الرقاب، وأطلق على المستعمر اسم «الضيف الثقيل»، فكان هذا الرمز يشير إلى الاحتلال في صورة عصرية انتقادية، وكان موضوع المسرحية يدور حول محام هبط عليه ذات يوم ضيف، ليقم عنده يوماً فمكث شهراً، وما نفعت في الخلاص منه حيلة ولا وسيلة<sup>(٣)</sup>. ولكن أصل هذه المسرحية مفقود، لأسباب لا يذكرها توفيق الحكيم نفسه. إن المسرحيات الأولى التي كتبها توفيق الحكيم أصبحت لا تليق بمستواه الفكري والفني والأدبي، فتنازل عنها، وشطبها من سجل حياته الأدبية، لذلك لم تبق إلا عناوين هذه المسرحيات، ومنها: «المرأة الجديدة» وقد قدّمتها فرقة عكاشة سنة ١٩٢٦، وفيها يتناول الحكيم وضع المرأة المصرية في

عن كل من سبقه من التأليف المسرحي المنشور، سواء في مصر أم في غيرها من الدول العربية، حتى أصبحت مصر بتوفيق الحكيم، تحوز قصب السبق في ميدان الفن المسرحي على بقية بلدان العالم العربي، وارتفعت بالأدب العربي في مصر من الحدود المحلية إلى آفاق رحيبة، حتى أصبح أمام الأدب العربي في مصر بضع خطوات يخطوها إلى الأمام، لتجد لأدبها المسرحي مكانة عالمية بين آداب الأمم<sup>(١)</sup>.

وُلد توفيق الحكيم بالاسكندرية سنة ١٨٩٨ في رأي المؤرخين، وفي سنة ١٩٠٢ كما يؤكد هو نفسه، من أم تركية وأب مصري، كان من رجال القضاء، وقد ورث عن أمه ثروة ذات قيمة، معظمها من الأرض الزراعية.

تخرّج في مدرسة الحقوق سنة ١٩٢٥ ولكنّه لم يكن شغوفاً بدراسة القانون قدر شغفه بالفنون الأدبية، وبخاصة «فن المسرح» وهو طالب في المدارس الثانوية، وإن كان قد بدأ محاولات بقرض الشعر، غير أنّ النهضة المسرحية التي قامت في مصر بعد ثورة سنة ١٩١٩، جذبت إليها توفيق الحكيم<sup>(٢)</sup>. وقد صور توفيق الحكيم

(١) إسماعيل أدهم: توفيق الحكيم، الفنان الحائر، مصدر سابق، ص ٣٤.

(٢) راجع عن حياة توفيق الحكيم كتابه عودة الروح؛ ومحمد مندور: مسرح توفيق الحكيم؛ وكتاب توفيق الحكيم لإسماعيل أدهم وإبراهيم ناجي، والمسرحية للدسوقي.

(٣) راجع مقدمة كتابه مسرح المجتمع، مكتبة الآداب ومطبعها، القاهرة، د.ت.

محل، فالأيام قد أثبتت أن سفور المرأة لم يؤثر في فكرة الزواج بصورة تدعو إلى الانزعاج، أمّا تززع الحياة الزوجية العصرية من أثر الإختلاط فقد يكون موضع اعتبار<sup>(١)</sup>. ومع كلّ هذا، فإنّ من الطبيعي جداً أن تنضج ملكته الفنيّة في باريس، حيث شغف بالمسرح والقصص والموسيقى<sup>(٢)</sup>.

ومن هذه المسرحيات التي ابتداءً بها الحكيم إنتاجه الأدبيّ، يتّضح لنا أنّه كان خاضعاً لتطوّرات الفنّ السائدة في عصره، فمنها ما يتّخذ الطابع الكوميديّ السائد عندئذ، ومنها ما يتّخذ الطابع الغنائي الذي كان الجمهور لا يزال متعلّقاً به، مثل مسرحيّة «علي بابا» التي كتب بعض أجزاءها في صورة زجل عامّي<sup>(٣)</sup>.

عاش توفيق الحكيم في فرنسا من أواخر عام ١٩٢٥ إلى أواسط عام ١٩٢٧، وكانت حياته في هذه المرحلة انصرافاً لمتابعة تطوّرات الفنّ المسرحيّ والقصصيّ، ومشاهدة روائع المسرحيات الفنيّة على مسارح باريس الكبرى، وكانت طبيعته المرنة تعطيه مقدرة على التحوّل والتمثيل لما يقع تحت بصره<sup>(٤)</sup>.

المجتمع ومدى الحرّية التي ينبغي أن يُسمح بها في هذا الشأن، وقد كان موقفه المتحفّظ من قضايا الاختلاط والسفور، كما كان تصويره لمزالق الانحراف التي يمكن أن تتعرّض لها المرأة في معتك الحياة العامّة - كان هذا جميعه بدايةً لما عُرف به الحكيم شطراً من حياته من حذر وتزمّت - ولا نقول عداوة - إزاء الجنس اللطيف، وإن كان قد برّر هذا الحذر في مقدّمة الطبعة الحديثة من هذه المسرحيّة حين قال: «كان مصدر الخوف والقلق، كما سجّلته المسرحيّة، راجعاً إلى ناحيتين: أثر السفور في فكرة الزواج عند الشباب من الجنسين، وأثر الاختلاط السافر في الزوجيّة المستقرّة وحياة الأسرة، وقد كان القلق والخوف على الشباب من أن ينصرفوا عن الزواج، ما دامت المرأة قد خرجت لهم سافرة، وأن يجدوا في تقارب الجنسين وسهولة الاتصال بينهما ما يطفئ رغبة التلاقي عن طريق الزواج. كما كان الخوف والقلق من السفور في الأسر، واختلاط زوج هذه بزوجة ذاك أو بغيرها، أن يؤدي الأمر إلى انهيار الحياة الزوجية. ومامن شك في أنّ بعض تلك المخاوف لم يكن لها

(١) مقدّمة المرأة الجديدة- المسرح المتنوع.

(٢) مسرح توفيق الحكيم لمحمّد مندور، صدر سابق، ص ١٠؛ المسرحيّة، للدسوقي، مصدر سابق، ص ٤١.

(٣) مسرح توفيق الحكيم، لمندور، مصدر سابق، ص ١١.

(٤) توفيق الحكيم، الأدهم وناجي، مصدر سابق، ص ٩٣.



٣ - والقصص الديني، مثل مسرحية أهل الكهف، وسليمان الحكيم.

٤ - وأساطير الفراعنة، مثل مسرحية إيزيس.

ويؤكد لنا في مقدّمة كتابه «مسرح المجتمع» بأنّ انتقاله بين فنون المسرح المختلفة، إنّما كان استجابة لظروف الحياة العامّة التي أحاطت به، وتطوّر تلك الظروف<sup>(٢)</sup>. ونستطيع القول إنّ الحكيم قد ابتدأ في صدر حياته الأدبية ثلاثة اتجاهات في التأليف المسرحي:

١ - الاتجاه نحو معالجة القضايا الوطنية العامّة، ولو عن طريق الرمز، على نحو ما فعل في مسرحية «الضيف الثقيل» وهو الاستعمار البريطاني.

٢ - الاتجاه نحو المسرح الغنائي الذي يتعلّق به جمهور النظارّة، الذي يفضّله على المسرح الاجتماعيّ الدراميّ الخالص، وقد تمثّل هذا عند الحكيم في مسرحيته «علي بابا». ولكننا نلاحظ أنّ محاولاته لم تتّجه بعد ذلك في هذين الاتجاهين.

٣ - الاتجاه الذي ظلّ يتابعه بين أونة وأخرى، وهو الاتجاه نحو المسرحية الاجتماعيّة الذي ابتدأه بمسرحية «المرأة

وفي سنة ١٩٢٧ استدعي الحكيم إلى مصر، وعيّن وكيلاً للنائب العام لمدة عامين، وكانت أوّل مسرحية كتبها بعد عودته من فرنسا إلى مصر، هي مسرحية «أهل الكهف» سنة ١٩٣٣، وقد أحدثت ضجة أدبية اشتهر معها. وموضوعها هو الصراع بين الإنسان والزمن. وتعدّ هذه المسرحية من المسرحيات الذهنية أو التجريدية غير المستمدة من الواقع، وهي أوّل عمل فنيّ يكتبه توفيق الحكيم باللّغة العربية الفصحى<sup>(١)</sup>.

وإذا ألقينا نظرة فاحصة على مسرحيات توفيق الحكيم بعامّة، نراه ينتقل عبر المسرحيات بين فنون المسرح المختلفة، من اجتماعية، إلى ذهنية، إلى نفسية، رغبةً في أن يملأ ما يستطيع ملأه من هذا الفراغ الفنيّ، ومن هنا كان انتقاله بين الموضوعات المنتزعة من بيئته وعصره، لذلك نجده يستقي مصادر موضوعاته الذهنية من:

١ - أساطير اليونان القدماء، مثل أوديب ملكاً، وجماليون، وبراكسا، أو مشكلة الحكم.

٢ - وأساطير ألف ليلة وليلة، مثل مسرحية شهرزاد.

(١) الدسوقي، المسرحية، مصدر سابق، ص ٤٦.

(٢) مقدّمة مسرح المجتمع، وقد اهتم بهذه القضية في كتابه: زهرة العمر، وأيضاً حين تساءل عن موقف الكاتب العربيّ من المذاهب الأدبية الغربية، وانتهى إلى أن يؤثر التجارب في كلّ مضمّار حتى يكشف نفسه ويتوقف عند أسلوب معين.

الجديدة» ذات الطابع الكوميديّ، ونحن نلاحظ أنّ قضية المرأة قد شغلت توفيق الحكيم، لمدة طويلة من حياته، نتيجة لظروف حياته الخاصّة، وتجاربه مع المرأة<sup>(١)</sup>.

وقد استطاع توفيق الحكيم بهذا الجهد الكبير أن يرسّي قواعد المسرحيّة في أدبنا العربيّ، وأن يسدّ الفراغ في كلّ الجهات، وهو يعدّ اليوم الكاتب الأوّل للمسرحيّة النثريّة العربيّة<sup>(٢)</sup> في العالم العربيّ، من حيث خصوبة نتاجه وجودته وتنوّعه، كما أنّه أفاد كثيرًا من المدة التي قضاهها في باريس، حيث شاهد مسرحيّات شتّى، وتأثّر في مسرحه الذهنيّ بمسرحيّات إبسن النرويجي، وبرنارد شو الإيرلنديّ، وفي مسرحه الاجتماعيّ بالمسرحيّات الفرنسيّة المعاصرة<sup>(٣)</sup>.

نخلص من هذا كلّّه إلى أنّ الحكيم أخذ اشتغاله بالدراما مأخذ الجدّ، فكتب عددًا كبيرًا من المسرحيّات عبّر فيها عن فلسفته، كما عبّر فيها عن تفكيره الاجتماعيّ والسياسيّ، محاولاً في الوقت نفسه أن يقدم أفكارًا بتقنيّات أوروبية.

وباعتباره أبًا للدراما المصريّة، أراد أن

يصل إلى تنوير المصريّين، وإعداد جيل جديد من كتاب المسرحيّات، ولكنّ مسرحيّاته أبعد ما يمكن أن تكون نسحًا عن المسرح الأوروبيّ، فهو يضمّن مسرحه الأدب الفولكلوريّ، وألف ليلة وليلة، والمعتقدات الدينيّة في الشرق الأوسط. وفي هذا التوحيد برزت إلى الوجود الدراما العربيّة الحديثة التي تزدهر الآن، وتتسع على يد عديد من كتّاب الدراما الشباب، لكلّ منهم تقنيّته وفلسفته<sup>(٤)</sup>.

### مساهمة الدولة في تثقيف الفنّان

أسهمت الدولة في تثقيف الفنّان، إذ أرسلت إلى الخارج بعثات دراسيّة كانت أوّلاها بعثة زكي طليمات إلى فرنسا عام ١٩٢٥، ومن بعدها بعثة الفرقة القوميّة التي كانت تتكوّن من فتوح نشاطي ومحمّد متولي للإخراج، وصالح الشيتي للديكور والملابس، وحلمي رفلة للماكياج. وإلى ألمانيا ذهب سراج منير لدراسة الإخراج.

وعاد فتوح نشاطي ليعمل في المسرح حاملاً ثقافة الخارج، ملماً إماماً كاملاً باللّغة الفرنسيّة التي تعلّمها في صغره. وفتوح قارئ جيّد واسع الثقافة والاطلاع،

(١) مندور، مسرح توفيق الحكيم، مصدر سابق، ص ٢١.

(٢) سنتناول موضوع المسرح الشعريّ لاحقاً عندما نتناول هذا النوع من المسرح.

(٣) الدسوقي، المسرحيّة، مصدر سابق، ص ٤٩.

(٤) نادية رؤوف فرح، يوسف إدريس والمسرح المصريّ، دار المعارف بمصر، ١٩٧٦، ص ٧٧.

حمل إلى القاهرة بذورًا من فكر هذا الجيل، نبتت وأثمرت في مسارحنا.

كانت ثمرة هذه البعثات إنشاء معهد التمثيل عام ١٩٣٠، بناءً على اقتراح من الطلبة محاضرات زكي طليمات الذي عين مديرًا له. وكان يحاضر في هذا المعهد الأستاذ طه حسين الذي كان يلقي على الطلبة محاضرات في تاريخ الأدب المسرحي.

ورغم أن حلمي باشا وزير المعارف في وزارة إسماعيل صدقي باشا الرجعية والذي اشتهر بأنه «وزير التقاليد»، أغلق هذا المعهد في عام ١٩٣١ أي بعد عام واحد من افتتاحه، إلا أنه افتتح معهدًا جديدًا خاصًا كان يحاضر فيه جورج أبيض وزكي طليمات، وتدرّب فيه الممثل النابغة شفيق نور الدين.

واستمرّ هذا المعهد الأهلي يمارس عمله حتى أنشئت الفرقة القومية عام ١٩٣٥. وكانت هذه الخطوة خطوة هامة من الدولة لحماية الثقافة والفن الرفيع. وشكّل لجنة من أئمة الفكر سبق أن ذكرنا أسماءهم للإشراف عليها وتوجيهها، وكانت الفرقة تضمّ ثلاثة من اللامعين فيحقل الثقافة هم: جورج أبيض وعزيز عيد وزكي طليمات، تحت إدارة أديب شاعر فنّان هو خليل مطران.

وحدثت خلافات دفعت زكي طليمات إلى الاستقالة، ولكنه ظلّ محتفظًا بحيوية فكرته في إنشاء معهد جديد للتمثيل، وكافح في سبيل ذلك طويلاً حتى تحقّقت فكرته عام ١٩٤٤، وافتتح المعهد مسائيًا، كان تابعًا لوزارة المعارف باسم «معهد التمثيل العربي» ثم ضمّ سنة ١٩٤٦ لوزارة المعارف باسم «المعهد العالي لفنّ التمثيل العربي» ثم تغيّر الاسم إلى المعهد العالي للفنون المسرحية في نيسان عام ١٩٥٨، حتى ضمّ إلى وزارة الثقافة في أول تموز ١٩٥٨.

استمرّ المعهد برسالته، وكان هذا هو الارتباط العلميّ الأوّل بين الفنّ والثقافة في مصر. المحاولات التي ذكرناها سابقًا، والشخصيات المتعلّمة التي اندفعت إلى رحاب الفنّ، كانت تندفع بدافع الرغبة الذاتية، وتمارس هوايتها، وتبذل طاقات فردية. والفنّ المسرحيّ عمل جماعيّ يحتاج إلى تعاون فنّي وتقارب فكريّ.

وكافح زكي طليمات أيضًا ليرسل الخريجين في بعثات إلى الخارج. واتجه النظر إلى فرنسا التي درس فيها. وسافر إليها حمدي غيث ونبيل الألفي عام ١٩٤٩، حيث أمضيا ثلاث سنوات في زيارات متّصلة للمسارح، وتدريبات على أساتذة مشهورين مثل جان لوي بارو<sup>(١)</sup>.

(١) نادية رؤوف فرح، يوسف إدريس والمسرح المصريّ، مصدر سابق، ص ٧٧.

## الفرق الحكومية

كانت فرقة رمسيس بداية موجات النشاط التي ظهرت في مرحلة ما بين الحربين العالميتين، وقد لاقت من النجاح ما استحق ذكره في الصفحات السابقة، ولكنها في النهاية لم تستطع مقاومة عاصفة الأزمة العالمية في بداية الثلاثينات، فأغلقت أبوابها، وبدأت أزمة تشرد وضياح تهدد الفنانين. وكانت هذه البذرة الأولى للتفكير في إنشاء فرقة حكومية، لترعى الفنانين، وتحفظ المستوى الفني الرفيع، فكانت الفرق القومية<sup>(١)</sup>، والمسرح القومي، ثم توالى الفرق حتى أصبحت ست فرق رسمية.

## المسرح القومي

هو أقدم المسارح المصرية المعاصرة وأعرقها، وقد أنشأته الحكومة المصرية في ١٥ أيلول عام ١٩٣٥ عندما بذلت أولى محاولاتها في ترقية التمثيل العربي ودعمه، فأنشأت الفرقة القومية المصرية، وأسندت إدارتها لشاعر القطرين خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩) الذي حاول جاهداً في بادئ الأمر أن يضم إليها جميع عناصر المسرح، وكاد يوفق إلى ذلك لولا تعنت

أصحاب الفرق، فقد أبوا الانضمام إلا بشروط قاسية مجحفة لم يقرها المدير ولا اللجنة.

وقد رسمت اللجنة العليا للفرقة سياسة فنية خاصة، وهي تلتزم بإخراج الروائع العالمية مترجمة بأقلام الصفوة من أهل الأدب، وحرمت عليها أن تخرج ولو مسرحية واحدة باللغة العامية. واستدعى المدير جميع الممثلين والممثلات، وفاوضهم في الانضمام، واتفق معهم على المرتبات، وذلك على أساس آخر ما كانوا يتقاضونه في الفرق المنحلة. ورضخ الجميع للأمر الواقع<sup>(٢)</sup>.

اختتمت الفرقة القومية أول موسم لها برواية «نشيد الهوى» على مسرح الأوبرا بتاريخ ٢ نيسان ١٩٣٦. وهذه المسرحية من تأليف الكاتبين الفرنسيين «روبير دي فليور» و«فرانسيس دي كراسيه»، ترجمة الدكتور عبد السلام الجندي، وإخراج زكي طليمات وتمثيله. وقام حسين رياض وزكي رستم وفتوح نشاطي وزينب صدقي وفردوس حسن وفؤاد شفيق ونجمة ابراهيم وعمر وصفي ومحمود رضا وفؤاد فهيم بالأدوار الرئيسية وعلى رأسهم زكي طليمات.

(١) أحمد حمروش، خمس سنوات في المسرح، مصدر سابق، ص ٨٦.

(٢) فتوح النشاطي، خمسون عاماً في خدمة المسرح، مصدر سابق، ص ٩١.

«نشيد الهوى» أو «عبيد الهوى»، كما قال ناقد في مجلة «الصباح»، وهو منديل الحبيبة وبضع زهرات من البنفسج احتفظ بها محبّ مدى خمسين عاماً يتنشق عبيرها الذي يثير ذكرياته الحلوة والمريرة على السواء. أمّا المحبّ فهو القس أرمسترونج، وأما المحبوبة فهي الكافاليتي، مغنية الأوبرا الإيطالية، وقد تحابّ الإثنان بمجرد أن تحدّث الواحد منهما مع الآخر، لكنهما ما كادا يخطوان الخطوة الأولى في طريق الحبّ حتّى ألفيا الطريق كلّهُ أشواكاً وعقبات.

### فرقة المسرح المصري الحديث

في شهر آب عام ١٩٤٢ حلّت الفرقة، وتكوّنت من أفرادها فرقة أخرى جديدة، وأجري تعديل شامل في إدارتها. وفي أيلول ١٩٥٠، صدر قرار وزاريّ بتكوين فرقة جديدة تضمّ خريجي المعهد العالي لفنّ التمثيل العربيّ، وسمّيت باسم فرقة المسرح المصريّ الحديث، وأسندت إدارتها العامّة والفنيّة إلى زكي طليمات، الذي حقّق فكرة جديدة من أفكاره، وهي إنشاء فرقة «المسرح المصريّ الحديث» التي جمعت خريجي معهد التمثيل جميعاً... ولم ينضمّ للفرقة القوميّة إلا كمال حسين ومحمّد الطوخي.

وبدأت الفرقة بداية جيّدة، أحسنت اختيار المسرحيّات، وأظهرتها في صورة طيبة. وعاد المبعوثان إلى فرنسا غيث والألفي، يقدمان تجاربهما التي بعثت في المسرح حيويّة جديدة.

ولكن الفرقة جنحت فجأة إلى إغراء المادّة، وتحولت من تقديم «قصّة مدينتين»

وهكذا انتهى موسم الفرقة القوميّة الأوّل، وقد حفل بأعظم المسرحيّات. وبعد إجازة قصيرة، ابتدأت التدريبات لموسم سنة ١٩٣٧<sup>(١)</sup>.

وكانت الفرقة تابعة لوزارة المعارف العموميّة، ثمّ حوّلت سنة ١٩٤٥ إلى وزارة الشؤون الاجتماعيّة. وفي عام ١٩٣٦ استدعى من فرنسا الخبير «إميل دابر» لوضع تقرير عن أنجح الوسائل لإيجاد نهضة مسرحيّة.

وتولّى الإخراج زكي طليمات وعزيز عيد، كما استدعى المخرج الفرنسي

(١) خمسون عاماً في خدمة المسرح، ص ١٠٢.

الفرقة المصرية الحديثة، وأسندت إدارتها إلى يوسف وهبي، ثم إلى يحيى حقي. وفي تشرين الثاني ١٩٥٦ صدر قرار وزاري بتعيين أحمد حمروش مديرًا لها، وقد تحوّل اسمها إلى المسرح القومي بتاريخ أول آذار ١٩٥٨ الذي كانت سياسته تستهدف مساندة مؤلف الدراما المصري، للوصول إلى المسرحية الإنسانية التي يمكن أن تُعرض في المجال العالمي، وتوسيع رقعة الجمهور المسرحي<sup>(٢)</sup>.

#### الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى

بعد مسرحية «الكترا»، قدّمت الفرقة القومية مسرحية «الثائرة الصغيرة» وهي مسرحية مترجمة لمع فيها حسين رياض وأبدع في أداء دور الماركيز دي مونكلار. ثم هبّت العاصفة وحدث انقلاب مفاجئ أطاح باللجنة العليا والفرقة القومية، وربما كان للسياسة دخل كبير في هذا الانقلاب. فقد وُلّيت الوزارة الوفديّة الحكم سنة ١٩٤٢. وفي أثناء تولّي عبد الحميد عبد الحقّ وزارة الشؤون الاجتماعيّة التي كانت الفرقة القومية تابعة لها، صدر قرار الوزارة بحلّ اللجنة العليا وإلغاء الفرقة القومية، وذلك في ١٥ أيلول ١٩٤٢، وعلى أثر هذا،

و«البخيل» وغيرهما من المسرحيات الجيدة إلى تقديم «بابا عاوز يتجوز»، «شروع في جواز»، «كسبنا البريمو»، وغيرها من المسرحيات الهائلة الهابطة التي حقّقت في وقت من الأوقات أرباحًا ماديّة، ولكنها أسقطت المشروع من أساسه، وجعلت خريجي المعهد يرتدون إلى مرحلة المسرح الهازل، ويبعدون عن الفنّ، ويتخلّون عن قدسيّته، بينما كان الأمل المعقود على هذه الفرقة أن تحمل لواء الثقافة في الحياة المسرحية.

ومألاً للأسف القلوب عندما هوت هذه الفرقة واضطرت الحكومة إلى جمعها مع الفرقة القومية في فرقة واحدة أطلق عليها اسم «الفرقة المصرية الحديثة» عام ١٩٥٣ قبل أن تمضي على مولدها ثلاثة أعوام فقط<sup>(١)</sup>.

وفي شباط ١٩٥١، عاد يوسف وهبي مديرًا حتّى حزيران سنة ١٩٥٢، ثمّ عيّن فؤاد رشيد مديرًا للفرقة في أول حزيران ١٩٥٢، حتّى عيّن جورج أبيض في تشرين الأوّل ١٩٥٣.

وفي عام ١٩٥٢ صدر قرار وزاريّ بضمّ الفرقتين في فرقة واحدة باسم:

(١) خمسون عامًا في خدمة المسرح، ص ٢٠٧.

(٢) مجلّة المسرح المصريّة، العدد ٣١ خاص بالمسرح، تمّوز ١٩٦٧، ص ٤٥-٤٦.

زوجها المصري «سميحة» و«جميل نايلي»، كما انضم إلى هذه الفرقة «سليمان نجيب»، وإدمون تويما وحلمي رفلة وأنور وجدي وجورج عيد ورولان أبرام وأندرية بيرو ويلا باكنر وإدجار خير وسعاد أبيض، وكان فتوح نشاطي مخرج هذا الفريق، وقام بأدوار الفتى الأول. ورُصدت كل جهوده لهذه الفرقة الوليدة. وقد مثّلت - أول ما مثّلت - على مسرح الأوبرا رواية «لويس الحادي عشر» بالمناظر والملابس الفخمة التي كانت قد صمّمتها للفرقة القومية، فنجحت نجاحًا عظيمًا، واستفاضة أنهار الصحف الفرنسية المحلية بالثناء على الإخراج والتمثيل.

وكتبت جريدة «لا بورص اجيبسيان»، تقول عن جورج أبيض: «إنّه يشبه إلى حد بعيد «إميل باننجز» و«هاري بور»<sup>(٢)</sup>.

### فرقة الطليعة

بعد تقديم الفرقة القومية «الست هدى» و«المهرج» انشغل فتوح نشاطي في هذه المرحلة بمشروع مهم: الطليعة، وللطليعة حكاية تصدّى لها ناقد «البلاغ» في مقال تلخّصه في ما يأتي:

اقترح فتوح نشاطي أن تؤلّف الفرقة

عقد مؤتمر ضمّ بعض أعضاء اللّجنة القديمة ونفراً من الأدباء والمخرجين وأصحاب الفرق تحت رئاسة الوزير، للنظر في الإبقاء على الفرقة أو حلّها، وأبى كبار الأدباء من أعضاء اللّجنة القديمة، ومنهم الدكتور طه حسين والأستاذان خليل مطران وأحمد أمين، الاشتراك في هذا المؤتمر لأنّه لم يؤخذ رأيهم قبل أن تُصدر وزارة الشؤون قرارها بحلّ اللّجنة. وعلى أثر هذا المؤتمر وقّع الوزير قراراً وزارياً بتكوين فرقة جديدة أطلق عليها اسم الفرقة المصرية للتمثيل والموسيقى. وقد نصّ هذا القرار على تغيير اللّجنة العليا السابقة وتكوين لجنة برئاسة وزير الخارجية محمّد صلاح الدين، وعضوية محمّد الشريف، ويوسف وهبي، ومحمّد عبد الوهاب، وزكي طليمات، مهمتها تكوين الفرقة الجديدة ووضع النظام الإداري والفني الذي ستسير عليه<sup>(١)</sup>.

### فرقة جورج أبيض الفرنسية

في مطلع سنة ١٩٤١ كوّن جورج أبيض فرقة من هواة المسرح الفرنسي، وعلى رأسهم مدام «ستيلا فلوريا» الممثلة الفرنسية المعروفة، ومعها ولداها من

(١) خمسون عاماً في خدمة المسرح، مصدر سابق، ص ١٨٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٢١٦.

وبدأت البروفات في جوّ عاصف تخلّته  
المعاكسات الصبيانيّة من طرف بعض كبار  
ممثلي الفرقة القوميّة الذين توجسوا شرّاً  
من هذه الحركة الفنّيّة، وخشوا على  
مراكزهم، ولكنهم لم يأبهوا لذلك وصمدوا،  
واضطروا في وقت ما، إلى العمل بعد الظهر  
بين تدريبي الصباح والمساء، كي لا  
يتعارض عملهم مع عمل الفرقة الكبيرة.

وقد وُفق أفراد الطليعة جميعاً في  
التمثيل، خصوصاً يحيى شاهين، وحسن  
سالم، في المسرحيّة الأولى، وحسن حلمي  
وزوزو نبيل في المسرحيّة الثانية، وعباس  
يونس وشفيق نور الدين ومحمّد توفيق في  
المسرحيّة الأخيرة. وعقب تمثيل هذه  
المسرحيّات أمام اللّجنة العليا، شعر أولو  
الأمر في الفرقة القوميّة بوجوب إعداد  
احتياطي فني من جنود مدرّبين على أحدث  
نظم النضال، فافتتحوا معهداً استخلصوا  
من فئات المتقدّمين إليه فئة أكثر ثقافة  
وأخصب تربة، وكانت نواة صالحة للمجد  
المنشود. فأرسلت إلى انكلترا كما أرسلت  
إلى ألمانيا بعثات من بعض أفراد الفرقة من  
ذوي الماضي المحمود، فاستكملوا  
دراساتهم وعادوا مخرجين ورسّامين<sup>(١)</sup>.

القوميّة شعبةً من الشباب الناشئ فيها من  
تلاميذ معهد التمثيل وهواة الفرقة المثقّفين،  
وأن تقوم هذه الشعبة في مصر مقام «فرقة  
الطليعة» في فرنسا، فتمثّل مسرحيّات  
ملائمة لها، كلّ مسرحيّة من فصل واحد،  
فتنعقد أواصر التعارف بين الجيل الجديد  
من الممثّلين والممثّلات وبين أفراد  
الجمهور. فإذا ما توطّدت على الزمان هذه  
الأواصر، وبدأت سنّة الله في الخلق تطوي  
الجيل الحاضر، لم يصب اليتم المسرح  
الناشئ، ووجدنا للأسف أخلاقاً، وللأبطال  
أنصاف أبطال تمشي بهم السنون نحو  
البطولة.

عرض الأمر على الأستاذ خليل مطران  
فأيدّه كلّ التأييد كما أيدته لجنة المسرح،  
وأخذت هذه الطليعة، المكوّنة من شباب  
الفرقة القوميّة في عمل البروفات على ثلاث  
مسرحيّات ذات الفصل الواحد: «الأول  
والأخير» وهي دراما من ترجمة الأستاذ  
أحمد علّام، والثانية «انتحار توت عنخ  
أمون»، وهي كوميديا، من ترجمة الأستاذ  
سليمان نجيب، والثالثة وهي فودفيل، من  
ترجمة الأستاذ فتوح النشاطي.

فالمسرحيّات الثلاث من أنواع مختلفة.  
وفي هذا التنوع تدريب للمثّلين وترفيه عن  
النظارة.

(١) خمسون عاماً في خدمة المسرح، مصدر سابق، ص ١٧٠-١٧١.



## فرقة التلفزيون المسرحية

أنشئت في ١٢ شباط ١٩٦٢.

بدأت بثلاث فرق هي:

١ - فرقة النهضة.

٢ - فرقة الحرية.

٣ - فرقة السلام.

تاريخياً لتطوّر المسرح، وتضمّن برنامج الموسم الأوّل على هذا الأساس «الخالة فانيا» لتشيكوف، و«الفرس» لأسخيلوس، و«الحيوانات الزجاجية» لتنسي وليامز، و«الكراسي» لليونسكو على أن يفتتح المسرح بنصّ تشيكوف.

وفي آذار سنة ١٩٦٤، قدّم مسرح الجيب أوّل مسرحية مصرية في أدب اللامعقول، وهي مسرحية «يا طالع الشجرة»، لتوفيق الحكيم، وأخرجها سعد أردش، ثمّ قدّم عملين تجريبيين لشوقي عبد الحكيم، وهما «شفيفة ومتولي» و«المستنجي» في سهرة واحدة أخرجهما كمال عيد، وعرضتا على مسرح الحديقة الفرعونية في نيسان ١٩٦٤.

ورسالة مسرح الجيب ليست مقصورة على التجريب بمعناه الضيق، أي محاكاة للمحاولات التي تُعرض هنا وهناك في المسرح الأوروبي وغيره، وإنما التجريب على الصعيد الاجتماعي المصري، يتحوّل تلقائياً إلى الخلق، متعدّياً حدود التجربة لمحاولة استنبات الفكرة المسرحية المصرية، وبالتالي المؤلف المسرحي المصري. وهذا لن يتأتى إلا إذا ارتبط المسرح بالقاعدة الفكرية الرئيسة للمجتمع المصري، بمعنى أن يتغلغل المسرح

قدّمت الفرق الثلاث في موسمها الشتوي الأوّل أربع مسرحيات، ثمّ قدّمت ستّ مسرحيات في موسمها الصيفي الأوّل. ثمّ توالى إنتاج فرقة التلفزيون المسرحية، فقدّمت في موسمها الشتوي الثاني ١٨ مسرحية، ثمّ ١٦ مسرحية في الموسم الصيفي الثاني، ومع بداية الموسم الشتوي الثالث تقرر إعادة تنظيم فرق التلفزيون المسرحية في أربع شعب تضمّ عشر فرق.

## مسرح الجيب

صدر القرار الوزاري رقم ٣١ سنة ١٩٦٣ في ٢٠ شباط بإنشاء مسرح الجيب، وتعيين سعد أردش مديراً له.

وبدأ التخطيط الموضوعي للمسرح، وكانت اللجنة<sup>(١)</sup> قد رأت أن تبدأ باستعراض متنوع لتراث المسرح العالمي، ليقدم خلاله مسرح الجيب عرضاً فكرياً

(١) تشكّلت اللجنة برئاسة توفيق الحكيم وعضوية كلّ من رشاد رشدي وصقر خفاجة، وعلي الراعي.

المصريّ إلى الضمير التاريخي المصريّ، والإنسان المصريّ، كي يتّسم بطابع المحليّة، والمحليّة هي أولى درجات العالميّة<sup>(١)</sup>.

### مسرح الحكيم

أنشئ في موسم ١٩٦٣-١٩٦٤ وذلك بعد تقسيم فرق التلفزيون المسرحيّة العشر إلى شعب أربع، ويتكوّن مسرح الحكيم من فرقة واحدة تضمّ ثمانية عشر ممثلاً وممثّلة، وخمسة من الفنيين، واثنين من الإداريّين، ويضمّ أجهزة أخرى غير الفرقة المسرحيّة وهي: نادي المسرح - مركز التدريب المسرحي - مجلة المسرح.

وقد أشرفت على مسرح الحكيم منذ إنشائه لجنة تنفيذيّة<sup>(٢)</sup>.

### المسرح العالمي

أنشئ في موسم ١٩٦٣-١٩٦٤ وذلك بعد تقسيم فرق التلفزيون المسرحيّة العشر إلى أربع شعب أيضاً.

وينقسم المسرح إلى ثلاث فرق، تضمّ ثمانية وأربعين ممثلاً وإثنا عشر فنّيّاً وثلاثة إداريّين، وقد أشرف على المسرح العالميّ منذ إنشائه حمدي غيث<sup>(٣)</sup>.

### المسرح الحديث

أنشئ في موسم ١٩٦٣-١٩٦٤ بعد تقسيم فرق التلفزيون المسرحيّة. وينقسم المسرح الحديث إلى فرق ثلاث تضمّتسعة وأربعين ممثلاً وممثّلة، وأحد عشر فنّيّاً وثلاثة إداريّين. وقد أشرف عليه منذ إنشائه ثلاثة من الفنّانين هم على التوالي: محمّد توفيق، كامل يوسف وحمدي غيث.

### المسرح الكوميدي

أنشئ في موسم ١٩٦٣-١٩٦٤، وينقسم إلى ثلاث فرق، ويضمّ تسعة عشر ممثلاً وممثّلة، وإثنا عشر فنّيّاً وثلاثة من الإداريّين، وقد أشرف عليه منذ إنشائه ثلاثة من الفنّانين، هم على التوالي: محمود السباع، عبد المنعم مدبولي وسعيد أبو بكر<sup>(٤)</sup>.

### المسرح بعد الثورة ٢٣ تمّوز ١٩٥٢

نحن لا ننكر أنّه كان للمسرح وجود قبل ثورة ٢٣ تمّوز ١٩٥٢، ولكنّه كان وجوداً مبعثراً، يرتبط بقيام فكرة مسرحيّة أو أخرى، فإذا زالت زال المسرح معها.

ورغم ما كانت تصادف هذه الفرق من نجاح، وما كانت تقوم به من جهاد، فقد كان

(١) مجلة المسرح المصريّة، العدد ٣١ خاص بالمسرح، مصدر سابق، ص ٢٧١-٢٧٨.

(٢) المصدر السابق، ص ٢٧٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٧٦.

(٤) مجلة المسرح المصريّ، العدد ٣١، مصدر سابق، ص ٢٧٦.

ينقص المسرح عامل الاستمرار، وبالتالي عامل النمو المطرد. وباختصار، لم يكن المسرح بناءً عضويًا قابلاً للنمو أو قادرًا عليه كما هي الحال في أيّ بناء عضويّ، ويكفي أن توفيق الحكيم ظلّ يكتب للمسرح وحده حوالي ربع قرن ويزيد، من دون أن يقوم إلى جانبه كاتب آخر يشبهه، أو يختلف عنه، إذا استثنينا الجهود الفرديّة لعزیز أباطة في المسرح الشعري، ولحمود تيمور في المسرح الواقعي، ولكنها ظلت مع ذلك، جهودًا فرديّة، لأنها لم تستطع أن تكون في مجموعها حركة مسرحيّة، ولا أقول مدرسة أو اتجاهًا.

كانت الثورة إذًا نقطة انطلاق للمسرح، لأنها كانت نقطة انطلاق لروح الشعب التي ظلت حبيسة لمدة من الزمن. وليس أدلّ على أصالة الثورة المصريّة وارتباطها بالجذور من أنّها بثت الروح في المسرح المصريّ. فالمسرح منذ البداية يحتلّ مكانة الصدارة في التعبير غير الرسميّ عن الأهداف والآمال التي قامت الثورة من أجل تحقيقها، وكما أنّ الثورة بناء عضويّ ينمو سنة بعد سنة، كذلك كان المسرح ولا يزال.

لقد استطاع المسرح بفضل هذه الجهود جميعًا، ورغم كلّ العقبات التي صادفته أو

وضعت في طريقه، أن يستمرّ في الحياة، وأن ينمو ويتطوّر، فقد استمدّ حياته أصلًا من الثورة المستمرّة.

إنّ ثورة ٢٣ تموز ١٩٥٢ مسؤولة أولاً وقبل كلّ شيء عن النهضة المسرحيّة في مصر، لأنّ المسرح مرتبط أكثر من أيّ فنّ آخر بالشعب وحياته الشعب، والثورة هي التي أعادت إلى الشعب إحساسه بكيانه الجماعيّ، وبذلك أعطت المسرح قيمة كان قد فقدتها، أو على الأصحّ، كان يفقدها. وإلى جانب هذا، طالبت الثورة - عن طريق غير مباشر - المسرح بأن يرتبط بحياة الجماهير، وأن يكون مرآة لوعي الجماهير، تعكسه، وتعمّقه، وتطوره أيضًا، ومن ثمّ كان إحساس المسرح بمسؤوليّاته وإحساس الناس بأهميّة وإقبالهم عليه<sup>(١)</sup>.

وثورة ٢٣ تموز صحوّة كبرى للشعب العربيّ، انعكست بشكل واضح في المسرح وفنونه وجماهيره وكتّابه ورجاله. ومهما اختلفت العروض بشكل المسرحيّة، بين سنة وأخرى، ومهما تشعبت ألوانها وتباينت، فليس هناك من شكّ في أنّ النموّ مستمرّ، لأنّ الصحوّة مستمرّة.

ولم يكن ممكنًا في عهد الثورة أن تضعف قبضة الثقافة على المسرح، ولم

(١) مجلّة المسرح المصري، العدد ٦، سنة ٦٤، ص ٩؛ مجلّة المسرح المصري، العدد ٣، السنة الأولى، يونيو ١٩٦٤، ص ٩.

يكن معقولاً أن يُترك القديم على قدمه، والذابل في ذبوله.

ولقّحت الفرقة بدماء ثقافيّة جديدة، نبعت من إنشاء وزارة للإرشاد القوميّ تشرف على الشؤون الثقافيّة، ويتولّاها رجلٌ يؤمن بالثقافة هو السيّد فتحي رضوان، ويعمل معه علّمٌ من أعلام الثقافة الدكتور حسين فوزي، ويتولّى إدارة مصلحة الفنون فنّان كبير هو يحيى حقي.

هؤلاء المثقّفون جميعاً شاءوا للفرقة القوميّة أن تنفض عنها أوارق الخريف، وتطعم حياتها بالفكر والثقافة. ولم تقف نظرتهم عند حدود الفرقة المصريّة الحديثة أو المسرح القوميّ فيما بعد، وإنّما تخطّتها إلى معهد التمثيل الذي كانت الدراسة فيه ما تزال مسائيّة.

تحوّل المعهد إلى معهد نهاري في ٤ تشرين الأوّل ١٩٥٨، وتولّى إدارته سعيد خطاب المدرّس السابق بمدرسة الفنون التطبيقية.

وانقسم المعهد إلى ثلاثة أقسام أحدها للنقد، والآخر للتمثيل، والثالث للديكور. وتغيّرت شروط الالتحاق به، فاصبح لا يقبل إلاّ حاملي الشهادة الثانويّة العامّة أو ما يعادلها للرجال، وكذلك بالنسبة للفتيات، بعد أن كان يقبل حملة الشهادة الابتدائية وخريجي المدارس المتوسطة.

ولم يعد المعهد يمنح الفتيات كما كان يدفع لهنّ في الماضي ستة جنيهاً شهرياً، وإن كان عميد المعهد يعمل على إعفاء جميع الطالبات من المصاريف التي خفضت بقرار من وزير الثقافة إلى خمسة عشر جنيهاً لكلّ المصاريف الإضافية، بعد أن كانت واحداً وعشرين جنيهاً.

وقام بالتدريس في المعهد نخبة من أستاذة فنون الدراما في مصر مثل الدكتور محمّد مندور، والدكتور محمّد القصاص، والدكتور صقر خفّاجة، والدكتور بدر الديب، والدكتور علي الراعي، كما اشترك في التدريس دريني خشبة وعبد الرحمن صدقي وحسن محمود ورشدي صالح وعبد الفتاح البارودي للصحافة.

وفي قسم الديكور يدرّس الفنّانون صلاح عبد الكريم، وعبد الفتاح البيلي، وسعيد خطاب، ويحيى الزيني.

وفي قسم التمثيل يدرّس أحمد علّام، ونبيل الألفي، وكمال يس، وعبد الرحيم الزرقاني.

هذه الخطوات الواثبة في حياة المعهد العالي للفنون المسرحية استتبعته جهداً كبيراً في ترجمة الكتب الأجنبية إلى العربية، لأنّه من المعروف أن تدريس اللغات الأجنبية في مدارسنا الثانويّة لا يؤهل الطالب للقراءة بها خاصّة وأنّ القليلين من خريجي الجامعة هم الذين تدفعهم هواياتهم

الصادقة للالتحاق بالمعهد مثل الفنّانة عايدة عبد الجواد التي تخرّجت في قسم اللّغة الإنجليزيّة بكلية الآداب ثمّ التحقت بالمعهد، وعملت به أوّل معيدة، فسجّلت بذلك انتصارًا للمرأة المثقّفة<sup>(١)</sup>.

إنّ تاريخ المسرح المصري منذ عام ١٩٥٣، عام الثورة المصريّة، هو تاريخ الاجتهادات الحكوميّة التي بذلت للنهوض بفنّ المسرح، فأنشأت الفرق، وبنّت المسارح، الأمر الذي يدعو إلى استعراض أهمّ التطوّرات التي حدثت:

١ - قامت الدولة ببناء مسرح الجمهوريّة، ومسرح الهرم، ومسرح المقطم، ومسرح الجيب، الذي احترق وانتقل إلى القصر الفرعوني، ومسرح البالون في القاهرة، وكذلك عددًا آخر من المسارح في المدن المصريّة.

٢ - تحويل بعض دور السينما إلى مسارح.

٣ - تكوين فرقة للمسرح الغنائيّ، فقدّمت أوبريتات: «العشرة الطيّبة»، و«يوم القيامة»، و«البروكة»، ولكنها أوقفت أعمالها لنقص العناصر الفنّيّة التي يؤمل توفرها بعد تخرّج الدفعات الجديدة من «المعهد العالي للموسيقى» الذي افتتح لسدّ حاجة

الفرق من الموسيقيّين والعازفين وأفراد الكورال وغير ذلك.

٤ - إنشاء شعبتين للمسرح القوميّ، واحدة تتخصّص في المسرحيّات العالميّة، والثاني للمسرحيّات المحليّة، إلا أنّ الشعبتين لم تحافظا فعلاً على هذا التخصّص.

٥ - إنشاء خمس عشرة فرقة تابعة للتلفزيون، تقدّم كلّ منها مسرحيّة جديدة كلّ أسبوع تقريبًا.

٦ - إنشاء مسرح الجيب أواخر عام ١٩٦٢، والذي كان يديره سعد أردش. وغاية هذا المسرح، كما يشرحها مديره: هو أن يكون مركزًا للبحوث المسرحيّة ومعملاً للتجريب يأخذ في اعتباره الحدود الواقعيّة للجمهور ومكانته من الثقافة المسرحيّة والفنّيّة بوجه عام. وقدّم المسرح موسمين ضمًّا عددًا من المسرحيّات التجريبيّة «قبل لعبة النهاية» لصموئيل بيكيت، و«الكراسي» ليونيسكو، و«الاستثناء والقاعدة» لبريخت، و«يا طالع الشجرة» للحكيم.

٧ - إنشاء الفرقة الاستعراضيّة الكبرى التي تقدّم أعمالها على مسرح البالون، وكان آخرها «الليلة العظيمة».

٨ - قيام فرقة الحجاوي، ورضا،

(١) أحمد حرموش: خمس سنوات في المسرح، مصدر سابق، ص ٢٠٧، ٢٠٨، ٢٠٩.

وقد تأثّر المسرح العربيّ في مختلف أقطاره إلى أبعد حدّ بالمسرح المصريّ، ونهضته واتجاهاته، ومنحى تطوّره، وبخاصّة أنّ مصر كانت البلد الذي أنجب أعمق الكتاب المسرحيين وأكثرهم جديّةً وتنوعاً<sup>(١)</sup>.

ونيللي مظلوم للفنون الشعبيّة، بالإضافة إلى الفرق التي كانت قائمة وهي: فرقة الريحاني، ورمسيس، وإسماعيل يس، والمسرح الحرّ.

ورفد هذه النهضة فيض من التراجم التي تناولت شرائح الأعمال المسرحيّة في العالم، والدراسات الجادّة عن مختلف الفنون المسرحيّة وتاريخها وخالقها.

---

(١) مجلّة المعرفة السوريّة، عدد خاصّ بالمسرح، العدد ٣٤، كانون أول ١٩٦٤، ص ٢٠٠-٢٠١.

## الاستعارة وصورة الوَحْشَة والموت في شعر الصعاليك

د. رامز يزبك

في بناء القصيدة، يستطيع الشاعر من خلالها إظهار ذاته وقدراته الفنيّة. سأحاول في هذا البحث أن أركز على قضيتي الوَحْشَة والموت في شعر الصعاليك معتمداً على الصورة الاستعارية وأثرها في إخراج التجربة الوجدانية وتجسيد الشحنات العاطفية.

لا يخفى على المتتبع لتجربة الصعاليك الشعرية كيف خرجوا على سلطة القبيلة وعاشوا التشرّد في الفيافي والقفار، بعيداً عن أي سلطة، ومارسوا القتل والفتك والسلب. يعني ذلك أنهم اتخذوا القرار بالثورة والتمرد ولجأوا إلى الطبيعة وعاشوا الوَحْشَة والتوحش.

رأوا الموت بأعينهم مراراً وتكراراً وانتموا إلى القساوة معتمدين على القوّة والسيف غير أن المفارقة تكمن في التجربة الإنسانية المتجسدة في التجربة الشعرية التي عبّرت عن رؤيتهم وقدموا من خلالها

### المقدّمة

لقد زخرت كتب التراث بنتاج الشعراء الصعاليك وتجربتهم الشعرية، وتعددت الأبحاث التي حلّت وشرحت ورصدت ذلك النتاج الشعري بصفته ظاهرة تستحق الدراسة والتحليل. والمتتبع لهذا الموضوع يجد مجموعة من الكتب التي تناولت شعرهم. كتاب «تاريخ الأدب العربي» لشوقي ضيف، و«تاريخ الشعر السياسي» «لأحمد الشايب» و«تاريخ الآداب العربية» لكارلو ناليو، و«وكلام البدايات» لأدونيس.

إن شعر الصعاليك مصدر ثري للتجارب الواقعية في العصر الجاهلي وصدر الإسلام والعصر الأموي، فشعرهم مرآة تعكس حياتهم، وتكشف لنا عن عمق التجربة الشعرية، فالشاعر منهم يستعين بإمكانات اللغة وطاقاتها التعبيرية، ليشكل صوراً تفيض بالخيال الخصب، وبالتالي فالصورة تكون بمثابة الارتكاز الأساسي

أنفسهم إلى العالم. إنهم فرسان متمردون وشعراء فاتكون، اعتمدوا القوة وحياسة العزلة وتميزوا بالسرعة الفائقة في تنفيذ غاراتهم على القوافل والمسافرين ومن الأمثلة على ذلك ما قاله الشنفرى:

إذا الأَمْعُرُ الصَّوَانُ لَأَقَى مَنَاسِمِي  
تَطَايِرَ مِنْهُ قَادِحٌ وَمُفَلِّلٌ

إن هذه الصورة التي قدّمها لنا الشاعر تظهر مدى السرعة في الجري حيث إنه يجري على الصوان ويقدح الشرر المتطاير من قدميه.

لقد انتمى هؤلاء الشعراء إلى إنسانية خاصة بهم جعلتهم في موقع الفرادة في هذه التجربة على الرغم مما اعترأها من عُنفٍ وما شابها من قصصٍ وروايات لكن الأساس في سيرتهم رفضهم الخضوع لسلطة القبيلة والتمرد عليها. لقد تناول أدونيس هذا الأمر في كتابه كلام البدايات حين تطرّق إلى تجربة عروة بن الورد: «فالعالم الشعري الذي يخلقه لنا عروة في قصائده هو عالم الاحتفاء بالإنسان والمعاناة في سبيل تحقيق هذا الاحتفاء. إنه عالم المشاركة الإنسانية. وقد حول حياته إلى كفاح من أجل تحقيق هذه المشاركة، وكان هذا الكفاح يكتسي طابعاً تمردياً<sup>(١)</sup>،

بمعنى أنه كان كفاحاً ضد الراهن الجائر الذي يستغلّ الإنسان ويستهيّن به»<sup>(٢)</sup>.

بالعودة إلى موضوع البحث «الاستعارة وصور الوَحْشَة والموت في شعر الصعاليك» سأقف عند تجسيد المجرّد بالحسّي والقدرة على التأثير في نفس المتلقي، ثم أستعرض بعض النماذج الشعرية وكيف قدّمت لنا انفعالاتهم وتجاوزوا من خلالها اللغة المعجمية إلى اللغة الإيحائية، وتحديدًا في صور الموت الذي تحدثوا عنه بكثرة في معجمهم اللغوي وعلاقة ذلك بحياة الوَحْشَة التي قادت إلى التوحش في التعبير عن السلوك للشاعر الصعلوك الذي عاش طريداً في البراري يبيث الطبيعة نجواه ويصارع الضواري ويجعل من المتخيل واقعاً يحاوره ويخاطبه، ويجسّد لنا الاتجاه النفسي الذي حكم هؤلاء الشعراء فجاءت رؤيتهم متميزة لها نكهة خاصة بهم وحدهم عبّرت عن الآلامهم وآمالهم.

وإذا كانت التجربة الشعورية انفعالية، فالانتقال لا يُرسم إلا بالصورة، التي هي جوهر الشعر وبنائوه الذي يشكله الشاعر من صور جزئية تتضافر فيما بينها لتشكل الصورة الكلية.

(١) أميل بديع يعقوب، ديوان الشنفرى، ص ٢٨.

(٢) أدونيس، كتاب البدايات، ص ١٠٩.



## ١ - البنية الاستعارية التجسيدية:

ينطلق الشاعر من خلالها ليضفي على الجمادات أو الكائنات الأخرى الصفات الإنسانية «هي البنية القائمة على الصفات الإنسانية على كل المحسوسات المادية والأشياء المعنوية والظواهر الطبيعية والانفعالات الوجدانية، وبث الحياة فيها التي قد ترتقي فتصبح حياة إنسانية تهب لهذه الأشياء عواطف آدمية وخلجات إنسانية»<sup>(١)</sup>، وتضحى الصورة في روح الأشياء ذاتها بعيداً عن العقل «وهنا تصبح الصورة الشعرية وسيلة شعورية مهمة غايتها التعبير عن الأشياء والارتقاء بها إلى مرتبة الإنسان مستعيرة صفاته ومشاعره»<sup>(٢)</sup>، وهي مبنية على أساس «تعليق العبارة على غير ما وضعت له في أصل اللغة على جهة النقل للإبانة»<sup>(٣)</sup> فهي لا تغيّر المعنى بل تغيّر طبيعته ونمطه وتنتقل به من معنى مفهومي إلى معنى انفعالي يعبر عن تفاعل الذات الشاعرة مع موضوعها<sup>(٤)</sup>، ومحورها يكمن في تجاوز اللغة الدلالية إلى اللغة الإيحائية، من خلال «ألفاظ لا تقصد لذاتها وإنما لمعانٍ ودلالات نستشفها من خلال وجودها في السياق

مرتبطة بما تقتضي أحكام النظم والمعاني النحوية»<sup>(٥)</sup>.

إن شعرية الصورة، ومدى براعة خيال الشاعر يُقاسان بنجاحه في بناء استعاراته وقد عبّر الجرجاني عن هذا المنحى فقال: «ومن الفضيلة الجامعة فيها أنها تبرز هذا البيان أبداً في صورة مستجدة، تزيد قدره نبلاً وتوجب له الفضل فضلاً، وإنك لتجد اللفظة الواحدة قد اكتسبت بها فوائد جمّة، حتّى تراها مكررة في مواضع، ولها في كل واحد من تلك المواقع شأن مفرد، وشرف منفرد، وفضيلة مرموقة وخالبة»<sup>(٦)</sup>.

فضلاً عن ذلك فإن للاستعارة قدرة على استيعاب التجارب الوجدانية وتجسيد الشحنات العاطفية وتحويل الأشياء المعنوية إلى صورة حسية مجسّمة فتنتقل إلى عالم الخيال والتأمل.

سوف أقدم بعض النماذج الشعرية لشعراء صعاليك للوقوف على جماليات الاستعارة في نتاجهم الشعري حيث اعتمدوا على ملكة التجسيد وجسموا الكائنات فخلعوا الحياة على ما لا حياة فيه، وجعلوا الأمور المجردة شاخصة أمام الأعين، وصار فاقد الحياة حياً متحرّكاً من

(٢) فاضل عبود التميمي، حضور النص، ص ١٤٧.

(١) سيد قطب، النقد الأدبي، ص ٦١.

(٣) الروماني، النكت في إعجاز القرآن، ص ٧٩.

(٤) بنية اللغة الشعرية، جان كوهن، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، ص ٢٠٥.

(٥) أحمد عبد السيد الصاوي، فن الاستعارة، ص ١٣٢. (٦) عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص ٤٣.

خلال الاستعارة ننفعل ونتفاعل معه، ولعل هذا ما أدى إلى وفرة نماذج الاستعارة التشخيصية عند الصعاليك، ومنها رسم صورة للجوع وتجسيده كأنه إنسان دائن يطلب دينه عند الشنفرى وهو يماطله، فيذهل ويكف عن السؤال، كما يقول:

أُدِيمُ مِطَالَ الْجُوعِ حَتَّى أُمِيَّتُهُ  
وَأَضْرِبُ عَنْهُ الذُّكْرَ صَفْحًا فَأَذْهَلُ<sup>(١)</sup>

انطلاقاً من البيت الشعري نجد كيف حوّل الشاعر (الجوع) إلى شخص يماطله ولا يتجاوب معه، وبالتالي فإن (الجوع) الذي أعطاه الهوية الإنسانية يملّ من الشاعر ويتخلى عن السؤال.

ومن صور التجسيد قوله:

ويومٍ مِنَ الشُّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ  
أَفَاعِيهِ فِي رَمْضَانِهِ تَنْمَلَمَلُ<sup>(٢)</sup>

أراد الشاعر في هذا البيت أن يبيّن شدة حرارة ذلك اليوم، فشبهه ما قد يُرى من شدة الحرّ بخيوط العنكبوت، وحذف المشبه به وترك لازمة من لوازمه «لعابه» على سبيل الاستعارة المكنية، وهي استعارة أضفت على المعنى زيادة مهمة جعلتنا نتخيل مدى حرارة الطقس في ذلك اليوم وكيف أن الشاعر يتحدّى قسوة الطبيعة.

وبالعودة إلى لفظة (أفاعيه) الواردة في

البيت الشعري لا بد لنا من الوقوف ملياً عند دلالات اللفظة وأبعادها النفسية التي ترسم لنا صورة للشاعر الصعلوك. لماذا لم يستبدل لفظة (أفاعيه) بلفظة أخرى تشير إلى المعنى؟ من هنا نستحضر الواقع النفسي لهؤلاء الشعراء، وكيف ربطوا بين الصورة الشعرية وذلك الواقع فالأفاعي بالنسبة للإنسان رمزٌ من رموز الخطر وهي تحمل في جوفها السم الزعاف والذي يؤدي بدوره إلى الموت والفناء.

إن توظيف البنية التجسيدية في الصورة الاستعارية تقوم أحياناً بالكشف عن نفسية الشاعر المأزومة، إذ تحتم عليه جواً من اللاوعي، وعدم إدراك ما يعتريه من إحساسات مؤلمة، لذلك يعتمد إلى هذه الصورة ويقدمها لنا في إطار تجسيدي لتفاعل معه ونتخيل مقدار التجربة القاسية التي يعانها في حياته.

إن إدراك الصعلوك عالمه الواسع كوّن لديه رؤيته الخاصة، التي يستطيع من خلالها أن يحسّ تعاطفاً بين الكائنات، ويدرك الوحدة بين أجزائها، وهو يلجأ إلى التجسيد من أجل إبراز أحاسيسه وانفعالاته ومواقفه، ولعل تأبط شراً صوراً لنا ذلك وهو يصف شجاعته وقوة سيفه بقوله:

(٢) أميل بديع يعقوب، ديوان الشنفرى، ص ٧٨.

(١) يوسف شكري، ديوان الصعاليك، ص ٤١.

قَلِيلُ النَّشْكِ لِلْمُهَمِّ يُصِيبُهُ  
 كَثِيرُ الْهَوَى شَتَّى النَّوَى وَالْمَسَالِكِ  
 يَظُلُّ بِمَوْمَاءٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا  
 جَحِيشًا وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمِهَالِكِ  
 وَيَسْبِقُ وَقْدَ الرِّيحِ مِنْ حَيْثُ يَنْتَحِي  
 بِمُنْخَرَقٍ مِنْ شَدَّةِ الْمِتْدَارِكِ  
 إِذَا خَاطَ عَيْنَيْهِ كَرَى النَّوْمِ لَمْ يَزَلْ  
 لَهُ كَالِيٍّ مِنْ قَلْبِ شَيْحَانَ فَاتِكَ  
 إِذَا هَزَّهُ فِي عَظْمِ قَرْنٍ تَهَلَّلَتْ  
 نَوَاجِذُ أَفْوَاهِ الْمَنَايَا الضُّوَاجِكِ  
 يَرَى الْوَحْشَةَ الْأَنْسَ الْأَنْبَسَ وَيَهْتَدِي  
 بِحَيْثُ أَهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ (١)

إن المتأمل في هذه الأبيات يستنتج بوضوح براعة الشاعر في التجسيد وكيف يغيّر في هوية الأشياء، ويخرج عن النسق الموضوعي. لقد وضعنا الشاعر أمام كمّ من الاستعارات التي قدّمت لنا الصورة النمطية للشعراء الصعاليك، فهم الفرسان الشجعان الأقوياء الذين لا يرهبون الموت ولا يخشون الوحشة والوحدة يندفعون باتجاه المنايا غير أبهين بالمصير الذي ينتظرهم إنه عالمهم الخاص غير المنطقي، فالإنسان يألف المجتمعات وصحبة البشر والحياة الطبيعية الهادئة، أما هؤلاء الشعراء فنجدهم يندفعون وراء الغزو والقتال والتحدّي

والتشرد في أرجاء الصحراء المترامية الأطراف، وعندما يطلقون العنان لاستعاراتهم تتبدى لنا الدلالات المعبرة عن الواقع الذي ذكرناه.

إن تراكم الاستعارات في هذه الأبيات وتعدّها في قوله: (ظهور المهالك وفد الرياح، خاط عينيه كرى النوم، تهللت نواجذه، أفواه المنايا، الضواحك، يرى الوحشة) جعل النقّاد يضعونها في باب الاستعارات البديعية<sup>(٢)</sup> وقد أسهمت هذه الاستعارات مع البنية التجسدية في قوله (ظهور المهالك وتهللت نواجذ أفواه المنايا) في تشكيل مشهد استعاري جعل للدهر ظهرًا وللموت نواجذ يضحك بها مستعيرًا لها هذه الصفات من الإنسان ليحوّلها إلى صورة مرئية متحركة. لقد غير في هوية الأشياء وأسند للمنايا لازمة من لوازم الإنسان وهي النواجذ فارتدت المنايا بذلك هوية جديدة هي هوية الإنسان واتخذت المنايا الهوية البشرية وهو بذلك خرج خروجًا كليًا من النسق الموضوعي إلى النسق الفني الفكري وجعل الصورة ترسخ في ذهن المتلقي الذي اتخذ من الخيال وسيلة من أجل تفكيك الصورة والتمعن في أبعادها، كذلك قدم لنا الشاعر صورة واضحة عن البعد النفسي الذي خضع له

(١) ذو الفقار شاکر، دیوان تآبط شرًا وأخباره، ص ١٥٢. (٢) أبو هلال العسكري، کتاب الصناعین، ص ٣١٧.

الشاعر الصعلوك في تلك التجربة التي عاشها.

إن تكرار هذه الاستعارة في أكثر من موضع عمل على تعميق الدلالة الإيحائية، وبهذا فإن كل بيت له قوته الأدبية والتعبيرية بوصفه جزءاً فعالاً ومتلاحماً مع الأجزاء الأخرى في تكوين بنية كلية تنظيم أجزاء النص كله ضمن بناء فعال قادر على توصيل المعنى إلى المتلقي. إنه الشجاع الصبور الذي لا يشكو كثيراً، موطنه المفازة التي يعيش فيها دون أن يأبه بالموت أو يخشاه لشدة حماسته وجرأته ويشير في الأبيات إلى سرعة عدوه فهو يسبق الريح بعدوٍ سريع ومتلاحق وإذا خاط الكرى عينيه فإن قلبه مستيقظ. وانظر كيف حوّل الكرى إلى إنسان يخيّط ويعطيه (النوم الخفيف) ووظيفة إنسانية ويستمر في تبديل هوية الأشياء ليحولها إلى إنسان يحس ويشعر ويعمل. وكل ذلك من أجل ترسيخ الصورة التي أراد إيصالها إلينا وجعلنا نشعر به ونلمس عمق المعاناة التي يحيها الشاعر الصعلوك في تلك البراري الموحشة ومع ذلك فهو قليل التشكي.

ونرى وظيفة أخرى أراد الشاعر إثباتها انطلاقاً من هذه الاستعارات التجسيدية، وهي صورة القوة التي قدّمت ظللاً موحية ومؤثرة ومجسدة لكل من الدهر والموت، لغرض زرع الخوف والرهبة في أعدائه

والمتربصين به كنوع من إبراز القوة وعرض الشجاعة وترسيخها في شخص الصعلوك، وهذا مؤداه أن كل من يفكر بمنازلته لا بدّ أن مصيره سيكون الموت المحتوم. إن هذه الصورة تجسدت في الفعل (تهللت) وقد وفق الشاعر في استخدام هذا الفعل حيث أدّى وظيفته التعبيرية خصوصاً مع المسند إليه (نواجهه) لقد رسم لنا هذا التعبير صورة واضحة للشاعر الفارس المحارب الذي لا ينازل إلا من يماثله قوة وشجاعة وإن نهاية المباراة محسومة في نهاية المطاف حيث ستكون الغلبة للشاعر الصعلوك والموت ينتظر عدوه.

إن الشعراء الصعاليك برعوا في الحرب النفسية وسخروا تلك الاستعارات للتعبير عن ماهيتهم وقدموا من خلالها صورة لخشونة العيش وشظف الحياة التي عاشوها، هم زرعوا في قلوب من يفكر في ملاقاتهم الرعب والخوف. مما لا شك فيه إنّ في ذلك لفظة بارعة من جانب هؤلاء. إنه نوع من كسب المعركة قبل وقوعها، ومن يريد أن يواجه هؤلاء، أو يضع حداً لتصرفاتهم يجب أن يفكر ملياً قبل الإقدام على أي احتكاك أو مبارزة معهم، وهذا الأمر يحسب للشعراء الصعاليك، وهم في نهاية المطاف سينتصرون على أعدائهم، وقد جسّد ذلك الشنفرى وهو يصور انتصاره على أعدائه بقوله:

تَضَحُّكَ الضَّبْعُ لِقَتْلَى هَذِيلٍ  
وَتَرَى الذُّبَّ لَهَا يَسْتَهْلُ  
وَعِتَاقُ الطَّيْرِ تَهْفُو بِطَانًا  
تَتَخَطَّاهُمْ فَمَا تَسْتَقْلُ<sup>(١)</sup>

وَأَذْهَمَ قَدْ جُبْتُ جَلْبَابَهُ  
كَمَا اجْتَابَتْ الْكَاعِبُ الْخَيْعَلَا  
إِلَى أَنْ حَدَا الضُّبْعُ أَثْنَاءَهُ  
وَمَزَّقَ جِلْبَابَهُ الْأَيْلَا<sup>(٢)</sup>

لقد شكل الشاعر من البنية التجسيدية التي أعطى فيها (الضبع) صفة الضحك فأسند بذلك لها هوية إنسانية، فالإنسان هو الذي يضحك وليس الضبع، غير في ماهية الأشياء وبدل في الهويات. إن هذه المشاهد الشعرية تستطيع أن تنقلنا بيسر وبسهولة إلى عالمهم، عالم الفك والبطش. لقد عبّرت هذه الصورة التجسيدية عن شجاعة الصعلوك وبأسه في الانتصار على أعدائه، وتحويل مشهد الانتصار إلى صورة تجسيدية تقرب المعنى في ذهن المتلقي وترسخ فلسفة القوة التي آمن بها الشاعر الصعلوك، إن جاز التعبير، إضافة إلى وضعنا في أجواء الحياة القاسية التي يألّفها أو ربما لنقل تماهى معها ووطن نفسه على القبول بها مكرهًا لأسباب أتينا على ذكرها في المقدمة وأهمها تمرده على نظام القبيلة وخروجه على المأثور التقليدي الذي حكم المجتمع العربي خصوصًا في العصر الجاهلي فاستعان بالتجسيد الاستعاري ليدل على هويته معتمدًا عناصر التشويق والإثارة ونجد ذلك في قوله تأبط شرًا:

إن السياق الخاص لهذه البنية التجسيدية يختزن عناصر تشويقية فاعلة تكشف عن مديات واسعة من التأمل المستند إلى الوصف، وما يتولد عنه من مؤثرات تحفز خيال المتلقي وتستفز حالة التأمل الفكري والخيالي لديه. فتوظيف الشاعر المقابلة بين (الصبح) و(الليل) له دلالة تكمن في تجسيد الليل وتشبيهه بالرجل الذي ينقض عليه ويمزق جلبابه. والشاعر عندما أراد تقديم الليل عبّر عنه بلفظة (أدهم) فانظر لما تختزنه هذه اللفظة من ظلام حالك وسواد قاتم، وتعتمد هذه الصورة على البعد النفسي، ورؤية الشاعر للواقع الذي يعيشه لذلك نراه يكني الليل برجل يرتدي ثيابًا، وعندما يريد أن يصف قدرته على اختراق ظلمته، يكنّي له بقوله «ومزّق جلبابه الأيلا» وفي ذلك إشارة إلى السواد الدامس، وتبدو صورة الصبح واضحة في كشف الظلمة وسيره لاختراقها، فالصبح يقحم على الليل ظلمته ويبدد جمعه ويحدو نحوه. إن إبداع الشاعر يتجلى في تجسيد الطاقات الفنية

(١) علي ناصر غالب، شعر الشنفرى الأزدي، ص ١٢٠. (٢) كارلو نالينو، تاريخ الآداب العربية، ص ٧٢.

وتستخيرها بهدف إيصال الصورة التي يريد، وإخراج الرؤية إلى العالم مرتكزاً على الدلالات التي يعمل على تكاملها بهدف تقديم البنية الدلالية الكبرى التي تخدم رؤيته.

«إن الإبداع الشعري يأتي من قدرة الشاعر على هتك أستار اللغة، وتفتيق أكامها، ليستخرج ما بها من طاقات عنيفة كامنة في خلاياها، وعلى قدر امتلاكه لطاقات اللغة والحياة، فإنه يمنحها من الشخصية والكيان ما يجعلها قادرة على الاستثارة والتحريك، وهذا أروع هدف وأسمى غاية للشعر»<sup>(١)</sup>.

انطلاقاً من تلك النماذج التي قدمناها عن الصورة الاستعارية في نتاج الشعراء الصعاليك نجد انسجاماً ملحوظاً بين لغتهم وصورهم، فهم يستمدون تلك الصور من البيئة التي عاشوا فيها، وعمدوا إلى توظيف طاقاتهم النفسية واللغوية لخدمة صورهم فوجدنا كيف أن الجانب الحسي التجسدي قد غلب على الجانب المعنوي عند تشكيل الصورة ففاضت صورهم بالخيال الخصب حتى ولو كان ذلك الخيال يشير في بعض صورهِ إلى القسوة والتوحش كما وجدنا صورة الشنفرى خصوصاً عندما طالب الغول بالمباذعة، وهذا الموضوع سأتناوله

في القسم الثاني من البحث الذي أتناول فيه موضوع الموت والوَحْشَة في شعر الصعاليك وكيف أدّت الاستعارة وظيفتها في هذا الإطار.

وإذا كانت الفروسية قتالاً وبطشاً وفتكاً، فإن لها جانباً آخر أيضاً فيه من الصور التي تضجّ بالحنين وتصبح العلاقة حميمية بين الأشياء التي يعطيها الشاعر هوية إنسانية ونجد ذلك في قول الشنفرى:

إِذَا زَلَّ عَنْهَا السَّهْمُ حَنَّتْ كَأَنَّهَا  
مُرَزَّاةٌ عَجَلَى تَرِنُّ وَتُعُولُ<sup>(٢)</sup>

في هذا البيت أراد الشنفرى أن يصور عمق العلاقة التي يراها بين سهمه وقوسه فلم يجد غير الاستعارة سبيلاً، فشبّه ما تحدثه القوس من صوت عند الرمي وكأنه أنين الثكلى. حذف المشبّه وصرح بالمشبّه به. لقد أعطى القوس هوية جديدة وغير في ماهية الأشياء وبذلك عمد إلى التجسيد فحولها من مجرد آلة صماء إلى ثكلى تبكي وتعمل على فقدان القوس وكأننا أمام علاقة إنسانية حميمية تمثلت في الأنين على فقد العزيز والحبیب.

٢ - الوَحْشَة والموت في شعر الصعاليك  
واستعاراتهم:

إن حياة التشرّد والعزلة التي عاشها

(١) السعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث، ص ١٦. (٢) إميل بدیع يعقوب، ديوان الشنفرى، ص ٧٨.

إن هذا الشعور الدائم بالوحشة والتفكير المستمر بالموت أوجد لغة شعرية تعبر عن رؤيتهم واعتمدوا صوراً استعارية بدلت في الهويات وحوّلت الجماد إلى صور مرئية متحركة.

استناداً إلى ما تقدّم نستعرض بعض النماذج الشعرية التي رسمت حالة الوحشة والخوف، وتناولت الموت من خلال صورٍ عديدة، وهذا تأبط شراً يصف رفيقه المتشرد بقوله:

يَظَلُّ بِمَوْمَاةٍ وَيُمْسِي بِغَيْرِهَا  
جَحِيشًا، وَيَعْرُورِي ظُهُورَ الْمَهَالِكِ  
يَرَى الْوَحْشَةَ الْأُنْسَ الْأُنَيْسَ وَيَهْتَدِي  
بِحَيْثُ إِهْتَدَتْ أُمُّ النُّجُومِ الشَّوَابِكِ<sup>(١)</sup>

إن هذين البيتين يرسمان لنا صورة عن حياة التشرد الأساسية التي يحيها الصعلوك في القفار الموحشة التي تنعكس وحشة في الحياة وتأثيراً قاسياً على نفسيته الأمر الذي يدفعه إلى معانقة السيف والتحفز الدائم للقتال الذي لا مجال فيه إلا للشراسة والضراوة لأنه إن لم يكن القاتل فهو المقتول، وهذا ما ينعكس بالتالي توحشاً في الفعل والسلوك. كيف لا؟ وهو يرى الوحشة وطناً له وأنيساً!.

وإذا تناولنا نموذجاً آخر من شعر تأبط

الصعلوك، بعيداً عن قبيلته طريداً في الصحراء منخرطاً في بيئة تعتمد على الغزو والقتال والسلب والكر والفر جعلت حياته في خطر دائم. إن ذلك الخطر جعله يتوجس دائماً من فكرة الموت التي تلازمه، أضف إلى ذلك الانعكاس النفسي الذي جعله يعيش منفرداً ضمن مجموعات صغيرة تحيا الوحشة والتوحش في السلوك، كل ذلك جعله يرسم لنا صوراً تدل على الموت وكيفية مواجهته. لقد حفل حقلهم المعجمي بالكثير من الأفعال والعبارات التي تشير إلى هذا المنحى (المنية، الموت، غير خالد، تموت، الميتة، نعشي، أُغَيَّبُ) ويثير هذا التنوع في ذكر الموت إلى أن الصعلوك كان يعيش همّاً قاسياً ومعاناة صعبة. يتربص به الموت في كل لحظة من حياته، لأنه مطلوب لعدالة المجتمع يومذاك ومطارد ومستهدف لذا تولدت في داخله روح الاستهانة بالموت كنوع من التحدي في مواجهة القلق الذي يعانیه. إن ذلك التحدي دفعه إلى العبث والشجاعة والإقدام وتحدي المخاطر والشراسة في القتال، لأن سقوطه مرّة واحدة يعني نهايته وموته على أيدي خصومه. ونحن نجد في أغلب أشعارهم حالة القلق والمرارة والشعور بالوحدة التي لا نصير لهم فيها إلا سيوفهم.

(١) علي ذو الفقار شاعر، ديوان تأبط شراً، ص ١٥٣.

شراً، نجده يرسم لنا من خلاله لوحة تعبر عن القسوة والتوحش:

فَأُضْبِخْتُ وَالْغُولُ لِي جَارَةٌ  
فَيَا جَارَتَا أَنْتِ مَا أَهْوَلَا!  
وَطَالِبْتُهَا بُضْعَهَا فَالْتَوْتُ  
بِوَجْهِ تَهَوَّلَ فَاسْتَفْوَلَا  
فَقُلْتُ لَهَا يَا أَنْظِرِي كَيْ تَرِي  
فَوَلَّتْ فَكُنْتُ لَهَا أَغْوَلَا<sup>(١)</sup>

إن حياة الوحشة التي يعيشها الشاعر الصعلوك جعلته يخبرنا بأن الغول قد أصبحت جارة له. إن المتمعن في هذه الأبيات يلمس قساوة التجربة التي يعيشها الشاعر تأبط شراً. فهو المنقطع عن المجتمع الإنساني إلى حد ما، والذي يعيش حياة الوحشة والتشرد، منعزلاً عن الحياة الطبيعية التي يحياها أي إنسان سوي يحب الحياة الهانئة ويسلك السلوك القويم بعيداً عن مخاطر الحياة الناجمة عن الصعلكة وحياة الغزو والسلب. إن من البديهي أن يكون هذا المصير الذي يلاقه بعد الوحدة والانفراد وبذلك يُضحى جازاً للغول التي وجد فيها الهول والشدة، أما الصورة فتبدو في أقسى تجلياتها حين يطالب تلك الغول بالمباذعة فانظر إلى عمق الحياة الوحشية التي يعيشها هذا الإنسان. يطلب الزواج من الغول وهي الكائن المخيف المتجسد في

ذهنه الأمر الذي دفعه إلى المبالغة ليرسم لنا حياة التوحش التي يعيشها. ومن يطلب ودّ الغول بدافع الزواج يجعلنا نتخيل مدى الوحشة، والغربة، والعزلة. إن هذه العوامل مجتمعة ستدفعه بلا شك إلى السلوك المتوحش ليجد في نسب الغول حلاً يعوض عنه انقطاعه عن المجتمع الإنساني والحياة البشرية العادية التي ينعم بها أي إنسان في هذه الأرض. ولا يكتفي الشاعر بهذا الموقف بل يتدرج في المبالغة ليقدم لنا صورة أكثر قساوة وأعمق تأثيراً حين أخاف الغول بمنظره الذي بلغ الذروة بتقديم نفسه للمتلقي بأنه أشد تغولاً من الغول نفسها.

فَقُلْتُ لَهَا يَا أَنْظِرِي كَيْ تَرِي  
فَوَلَّتْ فَكُنْتُ لَهَا أَغْوَلَا

إنها مرحلة التوحش التي تفوق التصور، والتي تقدّم لنا صورة من صور حياة الصعاليك الذين اتخذوا من الصحراء والبراري ملجأً لهم، وعاشوا الوحشة والتوحش بأقصى صورها.

أضف إلى هذه الصورة التي قدّم لنا الشاعر من خلالها وصفاً لحياته، صورة أخرى يستنتجها كل من يتتبع نتاج الشعراء الصعاليك، تتضمن في طياتها تهديداً وتخويقاً لكل من يفكر في مواجهة

(١) أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ج١٨، ص ١٥٣.



لَعَمْرُكَ مَا بِالْأَرْضِ ضَيْقٌ عَلَى أَمْرِي  
 سَرَى رَاغِبًا أَوْ رَاهِبًا وَهُوَ يَعْقِلُ  
 وَلِي دُونَكُمْ أَهْلُونَ: سَيِّدٌ عَمَلَسٌ  
 وَأَزَقَطُ زُهْلُولٌ وَعَرْفَاءُ جِيَالٌ  
 هُمُ الْأَهْلُ لَا مُسْتَوْدَعُ السَّرِّ ذَائِعٌ  
 لَدَيْهِمْ وَلَا الْجَانِي بِمَا جَرَّ يُحْذَلُ<sup>(١)</sup>

إنه التمرّد على القبيلة الذي أدّى إلى  
 الوَحْشَة المفضية إلى التوحش. هو العالم  
 الذي وجد فيه الشاعر أنسه وصحبته. إن  
 هذا التمرّد، دفعه إلى توظيف البنية  
 التجسيدية في تشكيل يستبدل من خلاله  
 مجتمعاً جديداً بمجتمع القبيلة.

هذا المجتمع الذي شكل الصعلوك  
 أفراداً وعناصره بناءً لرؤيته التي شاءها  
 وارتضاها. ربما لتعويض النقص الذي  
 يعيشه والمتجسّد في بعده عن المدنية، أو  
 لنقل عن المجتمع الذي يسكنه الناس  
 الطبيعيون لذلك سعى إلى إيجاد العالم  
 البديل والصحة البديلة.

الأصحاب هم: (الذئب، والنمر، والضبع)  
 وكنى عنهم بقوله: (سيد عمّلس، وأرقت  
 زهلول، وعرفاء جيال) إنهم الرهط، أو  
 الأهل. خلع عليهم بعض صفات البشر حين  
 تمنى أن تكون موجودة في مجتمع قبيلته.  
 إنهم عائلة لا تربطه بهم روابط الدم؛ إنما

الصعلوك، فالشريد الذي يعيش في الفيافي  
 ويجاور الغول ويطلب الزواج منها هو  
 إنسان مرعب مخيف ومن يواجهه لا بد أن  
 مصيره الحتمي هو الهلاك. هي رسالة  
 مباشرة لكل من يفكر في مواجهة الصعلوك  
 الذي خبر شظف الحياة وألف النمط  
 الوحشي، وجاور الغول، بل وعرض عليها  
 الزواج، سوف يحسب ألف حساب لهذا  
 الرعب المتنقل.

نحن إذاً أمام نموذج يعلن الانفصال  
 التام عن المجتمع الحضري، وهو يستمد  
 وجوده من خلال قوته وشدّته إنه الفعل  
 الذي يثبت الذات ويفرض الرهبة على الآخر.

وإذا كان (تابط شرًا) قد قدّم نفسه بهذه  
 الصورة، فإن شاعرًا آخر هو (الشنفرى)  
 وضعنا في جوّ عالمه الجديد أيضًا، ذلك  
 العالم الذي هاجر إليه وارتضى لنفسه  
 الحياة فيه وهو بذلك فرح مسرور بإخوانه  
 الجدد: الذئب، والنمر، والضبع، للدلالة على  
 الوحشة والانفراد في ذلك العالم الخاوي  
 من السلوكيات التي تعبّر عن الرقة  
 والأحاسيس والطباع المرهفة. عبر عن  
 عالمه بقوله:

وَفِي الْأَرْضِ مَنْأَى لِلْكَرِيمِ عَنِ الْأَذَى  
 وَفِيهَا لِمَنْ خَافَ الْقَلَى مُتَعَزِّلٌ

(١) إميل بديع عقوب، م س، ص ٥٥.

الحيّز الجغرافي هو الذي فرض ذلك، إنه الجدل بين الذات والواقع الذي يعيشه الشاعر. إنه التعبير عن الغربة الفعلية التي يعيشها، والوحدة التي جنحت بخياله إلى رسم هذه الصورة وتشخيص تلك الكائنات المتوحشة من خلال الصحبة. الإنسان هو الذي يصاحب الإنسان. أما أن يكون وحش البراري هو الصحاب والأنيس وكاتم السرّ فهذا يأخذك إلى البعد النفسي الذي تحكم بخطابه وسلوكياته فقدّم نفسه إلى العالم على هذه الشاكلة ورسم لنا بذلك صورة الصراع بين الفرد والمجتمع. هو الفرد المنبوذ من طرف المجتمع الظالم بنظره فكان لا بد من أن يقدم لنا نفسه على صورة الفارس الثائر المتمرد الذي يرتضي لنفسه الوحشة والوحدة والتوحش على حياة الخنوع والخضوع لقوانين القبيلة.

ومثله فَعَلْ تَأْبَطْ شَرًّا حِينَ رَسَمَ صُورَةَ لُغْرِبَتِهِ وَبَعْدَهُ عَنِ مَجْتَمَعِهِ:

يَبِيْتُ بِمَعْنَى الْوَحْشِ حَتَّى أَلْفَتَهُ

وَيُصْبِحُ لَا يَحْمِي لَهَا الدَّهْرَ مَرْتَعًا<sup>(١)</sup>

لا شك بأن نزيل البراري والقفار بات يألف الوحش ويأنف البشر وقد أعطى الوحش هوية الألفة وبدّل في ماهية الأشياء

بخروجه عن النسق الموضوعي ليشير إلى مقدار الألم الذي يعتصره تجاه مجتمعه وقومه.

الوحش هو الأليف وكأنه الإنسان الذي يلجأ إليه لبيثه نجواه بعيداً عن القبيلة فاستعار لازمة من لوازم الإنسان وهي الألفة واسندها إلى الوحش مختزلاً الفرد في المجتمع ومستعياً عنه بالوحش وهو بذلك أبقى المشبّه وحذف المشبه به «والاستعارة تقوم على الاختزال، لأن المذكور أحد الطرفين، ورغم ذلك نراها تصل الطرفين؛ لأن الفاعل في المعنى يكون المشبّه به، وهي أبلغ من التشبيه لتجاوزها الانطباعات العامة عند الشاعر، كقولهم عن القمر إنه «ملك الليل» فلا تتوقف رؤية الشاعر له بأنه قرص أبيض لامع، ولذلك جعلها النقاد من مقومات الحكم على الشاعر؛ لأنها لا تعتمد على حدود التشابه الضيقة بقدر ما تعتمد على تفاعل الدلالات الذي هو - بدوره - انعكاس وتجسيد لتفاعل الذات الشاعرة مع موضوعها»<sup>(٢)</sup>.

ومن الشعراء الذين عقدوا الأحلاف والصحبة مع الوحوش وعاشوا الوحشة في القفار عبيد بن أيوب العنبري الذي رسم لنا ذلك الواقع بقوله:

(١) أبو الفرج الأصفهاني، م س، ص ١٢٧.

(٢) جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص ٢٤٤.

كأني وأجال الأطباء بقفرة  
لنا نسب نزعاه أضح دانيا  
رأين ضئيل الشخص يظهر مرة  
ويحفي مزاراً ضامر الجسم عارياً  
فأجفلن نقراً ثم قلن ابن بلدة  
قليل الأذى أمسى ولكن مصافياً  
ألا يا طباء الوحش لا تشهرني  
وأخفيني إن كنت فيكن خافياً  
أكلت عروق الشري معكن والتوى  
بحلقي نور القفر حتى وزانيا  
أبيت ضجيع الأسود الجون في الهوى  
كثيراً وأثناء الحشاش وسادياً<sup>(١)</sup>  
نجح الشاعر من خلال توظيف عدة بني  
تجسيدية في سياق شعري للدلالة على  
حالته ووحشته مستنداً إلى طاقة تخيلية  
تصور لنا الأطباء وهم مدركون لحالته  
«ضامر الجسم عارياً» يحاورونه  
ويحادثونه، لقد أضحى الأليف وهو قليل  
الأذى بالنسبة لهم فأضفى على الأطباء  
الصفات الإنسانية خصوصاً عندما قبلوا به  
جاراً وأنيساً مستعيضاً بهم عن المجتمع  
البشري لأنهم باتوا الملاذ في تلك القفار  
الموحشة أن هذا الشاعر الفاتك نظير  
الشعراء الصعاليك في التعبير عن وحدته  
وغربته التي يحياها بعيداً عن الحكام  
والسلاطين.

إن الوحشة التي عاشها الشاعر  
الصعلوك جعلته دائماً أسير فكرة الموت،  
فهو في تشرده أو سعيه وراء رزقه، أو في  
أي عملية من عمليات السلب والسطو تبقى  
صورة الموت راسخة في ذهنه لذلك نراه  
يتحداه حيناً ويخشاه أحياناً. ونجد شاعراً  
كعروة بن الورد حين يتحدث عن الجوع  
والفقر وسعيه في سبيل رزقه يجسد  
الفكرة بقوله:

دعيني أطوف في البلاد، لعلي  
أفيد غني، فيه لذي الحق محمل  
أليس عظيماً أن تلم ملامة  
وليس علينا في الحقوق معول  
فإن نحن لم نملك دفاعاً بحدوث  
تلم به الأيام فالموت أجمل<sup>(٢)</sup>

تبدو لنا من خلال البيت الأخير فكرة  
الموت راسخة في ذهن الشاعر الصعلوك،  
فعروة بن الورد يرى أن الموت أجمل من  
الحياة إذا لم يصل إلى مبتغاه ويحقق  
المسعى الذي يعمل من أجله بعد أن فقد  
الطمأنينة في مجتمعه وانقطعت الصلة بينه  
وبين ذلك المجتمع الذي اعتبره خارجاً عليه  
وتنكر له، فدفعه إلى متابعة الاغتراب  
والضياع.

(١) نوري حمود القيسي، شعراء أمويون، ج١، ص ٢٢٧.

(٢) ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، ص ١٣١.

كذلك فعل الشنفرى حين تحدّى الموت  
رافضاً الذلّ والهوان في قوله:

أديم مطال الجوع حتى أميته  
وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل<sup>(١)</sup>

لقد حوّل (الجوع) إلى شخص يماطله  
ويرفض أن يتجاوب معه، أعطاه الهوية  
الإنسانية ليخبرنا عن الملل الذي أصابه،  
والشاعر حين يجسّد الجوع ويحوّله إلى  
إنسان يعقل فإنه أراد من خلال تغيير هوية  
الشيء أن يضعنا في أجواء المعاناة يحيها  
وهو على الرغم من هذه المعاناة فإنه  
يرفض الذل والخنوع ويصبر على الجوع  
في موت. إنه التحديّ في مواجهة القلق الدائم  
والوحشة والغربة، لكن جوهر الأمر أن  
فكرة الموت ملازمة للصلوك وهي تتراوح  
بين المواجهة والتحدي من جهة والخوف  
الدائم على المصير من جهة ثانية.

ومن الاستعارة التي جسّدها الصعلوك  
في فكرة الموت ما قاله أبو النشاش  
النهشلي:

إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَسْرَحْ سَوَامًا وَلَمْ يَرِحْ  
سَوَامًا وَلَمْ تَعْطِفْ عَلَيْهِ أَقَارِبُهُ  
فَلَمَمْتُ حَيْرٌ لِلْفَتَى مِنْ قُعُودِهِ  
فَقِيرًا وَمِنْ مَوْلَى تَدِبُّ عَقَارِبُهُ

وَلَمْ أَرَ مِثْلَ الْفَقْرِ ضَاجِعَهُ الْفَتَى  
وَلَا كَسَوَادِ اللَّيْلِ أَحْفَقَ طَائِبُهُ  
فَمَتُّ مُعْدِمًا أَوْ عِشْ كَرِيمًا فَإِنِّي  
أَرَى الْمَوْتَ لَا يَنْجُو مِنَ الْمَوْتِ هَارِبُهُ<sup>(٢)</sup>

نراه يفضل الموت على الحياة  
الخاملة، مع أن سياط الفقر أخذت منه  
كلّ مأخذ الأمرن الذي دفعه إلى تشكيل  
بنية تجسّدية أعطى الفقر من خلالها  
صفات الإنسان عندما جعل الفتى  
يضاجعه. لقد كرر الشاعر لفظة (الموت)  
ثلاث مرات ليصل في نهاية المطاف إلى  
أن الموت أمرٌ محتوم وقضاء مبرم ولن  
ينجو منه الإنسان في نهاية المطاف  
مهما فكر بالهروب. إنها الفكرة الملازمة  
للشاعر الصعلوك كما أسلفنا، وبات غنيًا  
عن الشرح الحديث عن هذه الفكرة  
ومبرراتها.

إلى ذلك نجد أن الصعلوك في كثير من  
الأحيان يقدّم عزة النفس حتى ولو كان  
مهراها الموت يقول أبو خراش الهذلي:

وَإِنِّي لِأَثْوِي الْجُوعَ حَتَّى يَمْلَنِي  
فَيَذْهَبَ لَمْ يُدْنِسْ ثِيَابِي وَلَا حَزْمِي  
وَأَعْتَبِقُ الْمَاءَ الْقُرَاحَ فَأَنْتَهِي  
إِذَا الرَّأْدُ أَمْسَى لِلْمَزْلَجِ ذَا طَعْمِ

(١) يوسف شكري، ديوان الصعاليك، ص ٤١.

(٢) محمد نبيل طريفي، ديوان اللصوص، ج ٢، ص ٢٨٦.

## مخافة أن أحييا برغم وذلة وللموت خيرا من حياة على رغم<sup>(١)</sup>

بعد أن أعطى الجوع هوية جديدة وأسند إليه فعل (يملني) وجسده بصورة العاقل الذي يشعر بالملل خلص إلى الفكرة المركزية المتمثلة في رفض الذلة والمهانة، وفضل الموت الكريم على الحياة الذليلة واعتبر أن الصبر على الجوع والفقر خيرا له من موقف ذليل. إنه العنفوان الذي يدفعه إلى تقديم الموت. ذلك الموت المتوقع في كل لحظة لكل صعولك طريد في الصحارى المجربة.

إن التحدي الذي عاشه الصعلوك في حياته جعله يختزن صورة الموت في ذهنه دائما وكانت مشاهداته الدائمة - في الصحراء المترامية الأطراف والمجربة والقاسية - ترسم صوراً موحية يستخلص منها طريقة عيشه في بعض الأحيان. راقبوا عناصر الطبيعة وهم يجوبون الصحراء وعرفوا طباعها وغزلوا من ذلك بعض صورهم الشعرية وقد برع تأبط شرا في رسم تلك الصور حين راقب الضبع التي اقترنت صورتها بصورة الموت دائما في شعرهم.

عابوا طريقة عيشها في تحصيل قوتها الذي يدفعها إلى نبش القبور بهدف

الحصول على الطعام حتى باتت بنظر الشاعر رمزاً للموت لما تحمله من فتك وتوحش وشراسة وإصرار على القتل وفي ذلك يقول:

فَزَحْرَحْتُ عَنْهُمْ أَوْ تَجِنِّي مَبِيَّتِي  
بَغْبِرَاءٍ أَوْ عِرْفَاءٍ تَغْدُو الدَّفَائِنَا  
كَأَنِّي أَرَاهَا الْمَوْتَ لَا دَرَّ دَرُّهَا  
إِذَا أَمَكَنْتُ أَنْيَابَهَا وَالْبِرَائِنَا<sup>(٢)</sup>

إن صور الفتك التي عاينها في أنثى الذئب (غبراء) أو الضبع (عرفاء) رسمت في ذهن الشاعر صورة قاسية جسدها بالموت (كأنني أراها الموت). مما لا شك فيه إن هذه الصورة تجعل جذوة العزم تتوقد في داخله بهدف التحدي ومواجهة الصعاب في تلك الصحراء الموحشة موطن الريح والوحش وعالم الأسطورة التي تتضمن فكرة الغول والجن، أمام هذا الواقع لا بد من الشجاعة ومواجهة الموت مهما كانت الظروف صعبة وقاسية. إن تلك الوحوش التي تجسد الموت تركت انطباعات قاسية في ذهن الشاعر الصعلوك فهو يعيش في صراع دائم مع الدهر والمجتمع الأمر الذي انعكس على تجربته الشعرية فكانت لها خصوصية ميّزتها في كثير من السياقات عن غيرها من صور الشعراء الجاهليين.

ونجد عروة بن الورد عندما يواجه

(١) دار الكتب المصرية، ديوان الهذليين، ج٣، ص ١٢٧. (٢) علي ذو الفقار شاكر، م س، ص ٢١٧.

خصمه ويقتله، يوظف صورة الضبع وهي تمكن برائتها من فريستها وتأكله بعد موته:

**فَأَتْرُكُهُ بِالْقَاعِ، رَهْنًا بَبْلَدَةٍ**

**تَعَاوَزَهُ فِيهَا الضَّبَاعُ الْخَوَامِعُ** (١)

أصبحت الضبع ملازمة لفكرة الموت تلك الضبع لن تتوانى عن تمزيق الأجساد إلى أشلاء والتهامها.

أمام هذه المشاهد القاسية وظروف الحياة الخسنة والمعقدة في تلك القفار لا بد للصلعوك أن يكون جديرًا بالحياة وهذا ما يُملي عليه الصبر مقترنًا بالقوة والعزيمة والبأس، شكل الموت بالنسبة له هاجسًا مستمرًا، وإن قال قائل بأن فكرة الموت متمثلة في ذهن كل إنسان يحيا على هذه البسيطة نقول إن ذلك صحيح ولكنها ليست هاجسًا ملازمًا له كما الصلعوك لأن ظروف العيش مختلفة كثيرًا، فالصلعوك حين يموت قد لا يُدفن جسده في الثرى لذلك فإن فكرة الموت بالنسبة له فكرة مركبة تنطوي على نوعين من الخشية: الأولى تتمثل في الموت، والثانية في المصير بعد الموت. وهنا، لا أتحدث عن الماورائيات بل العالم الواقعي الملموس والمتمثل في مشاهدات الصلعوك لفعل الضبع بعد موت الإنسان أو مقتله في الصحراء الموحشة. إنه تحدُّ من نوع آخر

يواجهه الصلعوك، وصورة مؤلمة ارتسمت في خياله.

إن هذا النوع من التحديّ جسده الشنفري الذي لم يخش على جسده من الضبع لذلك طلب إلى قاتليه ألا يدفنوه:

**فلا تقبروني إنَّ قبري مُحَرَّمٌ  
عليكم، ولكن أبشري أمَّ عامرٍ  
إذا احتملت راسي وفي الرأسِ أكثرِي  
وَعُودِرَ عِنْدَ الْمَلْتَقَى ثَمَّ سَائِرِي  
هَنَالِكَ لَا أَرْجُو حَيَاةً تَسْرِنِي  
سمير الليالي مُبْسَلًا بِالْجَرَائِرِ** (٢)

هكذا خاطب الضبع (أبشري أمَّ عامرٍ)، قمة في الشجاعة والجرأة، هو يعلم مصير من لا يُلحد في قبرٍ، إنها نهاية بين أنياب الضبع وبرائتها ومع ذلك يطلب من قاتليه ألا يدفنوه ليتحول بذلك إلى وليمة للضبع.

إن الضبع بالنسبة للصلعوك الذي يعيش في الصحراء موت ثانٍ يخشاه ويحسب له الحساب، وإذا كان الشنفري قد تحدى هذا الموت فإن شاعرا آخر لم يكن على الدرجة عينها من الثبات، فانظر إلى الأعم الهذلي يصور لنا خشيته من ميته يصبح معها طعامًا للضبع وقد قال في ذلك:

**وَحَشِيْتُ وَقَعَ ضَرِيْبَةٌ  
قَدْ جَرَّبَتْ كُلَّ التَّجَارِبِ**

(١) ابن السكيت، م س، ص ٦٠.

(٢) يوسف شكري، م س، ص ٢٩.

## فأكونُ صيْدَهُمْ بها وأصيرُ للضُّبُعِ السَّوَابِغِ<sup>(١)</sup>

إنه الخوف على المصير بعد الموت، أو لنقل إنه الخوف من الموت الثاني المتمثل في تحوُّله إلى طعامٍ للوحوش بعد موته. إن تلك الصور الدامية والقاسية التي رسمها الشعراء الصعاليك تقدّم لنا نموذجًا عن شظف الحياة التي عاشوها، تلك الحياة المحكومة بالخوف والقلق والوَخْشَة ومشاهد التوحش جعلت فكرة الموت تحوّل حياة الصعاليك إلى حياة متوترة مضطربة فلا ملاذ يأوي إليه يدفع عنه نواثب الدهر، ولا موطن يتخذة مستقرًا له يحيا فيه الحياة الهانئة، فتحوّلت فكرة الموت إلى دلالة جوهرية قدّمت نموذجًا عن حياة الشعراء الصعاليك وساهمت في تقديم استعارات رائعة أضفت على لغة الصعاليك الشعرية أبعادًا جمالية خرجت عن النسق الموضوعي للأشياء حين جسّدت الجماد وبثت فيه الروح وحملته بإيحاءات رائعة وضعت المتلقي في عمق الجو النفسي الذي يحياه الصعلوك واستطاع من خلال لغته الشعرية أن يقدم نفسه إلى العالم على تلك الصورة التي قدّمها.

### الخاتمة:

كشفت الشواهد التي اعتمدها كيف أبدع الصعلوك في تشكيل الصورة الاستعارية معتمداً على توظيف البنية التجسيدية التي عبّرت عن نفسية الشاعر المأزومة.

لقد عمد الشاعر الصعلوك إلى الصورة الاستعارية لغرض مشاطرته وجدانياً وقد نجح في وضع المتلقي في جوٍّ من الانفعال والتفاعل. عرفنا معاناته وهمومه في مجتمع تركه طريد الهَمِّ والخوف والجوع والوَخْشَة والموت، لذلك استبدل القبيلة بمجتمع جديد عاش قوانينه وفق رؤيته التي ارتضاها هو ورأها مناسبة لإرضاء طموحه في العيش الكريم بعيداً عن مجتمع القبيلة وممارسته التي رأى فيها الظلم والجور. ثم إن الصعاليك نجحوا انطلاقاً من استعاراتهم في تشكيل صورٍ فنية عبّرت عن رؤية امتلكوها مجسدين فيها حياتهم بصورة تثير المتلقي. برعوا في الجانب الإيحائي للألفاظ، ومنحوا نصوصهم سمة التأثير في النفس وشحذ الخيال.

(١) دار الكتب المصرية، م س، ج ٢، ص ٧٧.

## المصادر والمراجع

- ١ - أبو هلال العسكري، كتاب الصناعتين، تحقيق علي الجبائي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر العربي الكويت، ط٢، ١٩٧١م.
- ٢ - أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، دار التوجيه اللبناني، بيروت - لبنان، (د.ت).
- ٣ - ابن السكيت، شرح ديوان عروة بن الورد، تحقيق عبد المعين الملوحي، مطبعة مديرية إحياء التراث، دمشق، (د.ت).
- ٤ - أحمد عبد السيد الصاوي، فن الاستعارة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٩م.
- ٥ - أدونيس، كتاب البدايات، دار الآداب، ط١، ١٩٨٩.
- ٦ - الرماني، النكت في إعجاز القرآن، تحقيق محمد خلف الله، ومحمد زعلول سلام، دار المعارف القاهرة، (د.ت).
- ٧ - السعيد الورقي، لغة الشعر العربي الحديث مقوماتها الفنية وطاقاتها الإبداعية، دار النهضة، بيروت، ١٩٨٤م.
- ٨ - إميل بديع يعقوب، ديوان الشنفرى، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٢، ١٩٩٦م.
- ٩ - جابر عصفور، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار التنوير، بيروت، ط٢، ١٩٨٣م.
- ١٠ - جان كوهن، بنية اللغة الشعرية، ترجمة محمد الولي ومحمد العمري، الدار البيضاء المغرب، دار توبقال للنشر، ط١، ١٩٨٦م.
- ١١ - دار الكتب المصرية، ديوان الهزليين، ١٩٤٨م.
- ١٢ - سيد قطب، النقد الأدبي، دار الشروق، بيروت، (د.ت).
- ١٣ - عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، دار المطبوعات العربية، (د.ت).
- ١٤ - علي ذو الفقار شاکر، ديوان تأبط شرًا وأخباره، دار العرب الإسلامي، ط٢، ١٩٩٢م.
- ١٥ - علي ناصر غالب، شعر الشنفرى الأزدي، راجعه الدكتور عبد العزيز المانع، ط١، ١٩٩٨م.
- ١٦ - فاضل عبود التميمي، حضور النصّ قراءات في الخطاب البلاغي النقدي عند العرب، دار مجدلوي للنشر والتوزيع، ٢٠١٢م.
- ١٧ - كارلو نالينو، تاريخ الآداب العربية، تقديم طه حسين، دار المعارف مصر، ١٩٧٠م.
- ١٨ - محمد نبيل طريقي، ديوان اللصوص في العصر الجاهلي والإسلامي، منشورات محمد علي بيضوي، دار الكتب العالمية، بيروت لبنان، ط١، ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.
- ١٩ - نوري حمود القيسي، شعراء أمويون، مؤسسة دار الكتب للطباعة والنشر، جامعة الموصل، ١٩٨٦م.
- ٢٠ - يوسف شكري فرحات، ديوان الصعاليك، بيروت دار الجليل، ط١، ١٩٩٢م.



## سمات الصيغة التعبيرية الوجدانية لأدب... ما بعد الحداثة

### د. بهيه ظهران الطويل

الحديثة هو عبارة عن صوت الحرّية والتحرّر الذاتي المتألق بفضل ثبات الشخصية والتحرّر من قيود خنقت الفرد وأسرته في قالب تقليديّ لم يمكنه من تحقيق ذاته.

لقد عُرفت الوجدانية، مع آثار جبران الأولى في لبنان، التّمرد على الأعراف والتقاليد ومع شكيب الجابريّ في سوريا منطلقاً حقيقياً لها، وقد منحها توفيق يوسف عواد في ظل الواقعية دعمًا لخصائصها بتصويره الشقاء والألم واليأس. وكذلك مع حنا مينا، فقد عرفت الاحتكاك بالطبقات الدُّنيا في المجتمع، وذلك بتصوير الكادحين الباحثين عن لقمة الحياة. ومع هاني الرّاهب انطلقت من هموم الشّباب وضياعهم والأزمات التي تواجههم.

لقد تجلّت الوجدانية في جَمي ظروف سياسية معيّنة، ووضع اقليمي تشوبه تقلّبات ونكبات خلّفت مجتمعات قلقة على

### توطئة:

الوجدانية هي موقف الإنسان الذي يؤمن ويشعر في عالم يتجاوزه، وهي موقف من التوقّف عن الايمان بأنسنة هذا الكون، وانطلاقاً منها، وقف الإنسان أما والكون وجها لوجه، فتشنج إزاء الأبدية وناضل ضدّ الموت والهوان، فأهمل الأديب الوجدانيّ حبّ المدهش وحسّ السرّ، وتفاعل مع الحروب والثورات والممارسات اليومية التي يعيشها، وعبر عنها بطريقة فجّة انطلاقاً من واقع، لا من الواقعية التي "تتطلب من الكاتب والقارئ معاً أن يجلسا على مقعد المراقب"<sup>(1)</sup>. إنما مع الأدب الوجدانيّ كان عقد القران بين المعنى المألوف للحياة ونكهتها وطعمها والمنطق، منطلق الأديب وإرادته وحقّه في تأطير الأحداث وتفسيرها ودالاتها.

إنّ الأدب الوجدانيّ في الرواية العربيّة

(1) ألبيريس: «الاتجاهات الأدبية في القرن العشرين»، ترجمة جورج طرابيشي، منشورات عويدات ١٩٦٥، ص ٤٤.

تقوم على تفوق العاطفة على العقل وغلبة الإحساس على الفكرة الواضحة والتعبير عن القلق والحزن والمشاعر، هناك نقاط اختلاف تقضي بالتمييز بين الاتجاهين: فالرومنسية، كانت أداة تعبير عن تغيير جذري في المجتمعات الأوروبية وانتقال إلى نمط حياة جديدة مختلفة كل الاختلاف عن الحياة القديمة، والجديد شمل كل القطاعات حتى الأدب الذي انتقل من الكلاسيكية إلى الرومنسية.

أما المجتمعات العربية، فعلى الرغم مما أصابها من تغيرات وتحولات، بقي التحول فيها بطيئاً، وبقي الجديد متصلاً بالأصل والتراث، لهذا بقيت الأنشطة الثقافية متصلة بكل الاتجاهات الأدبية آنذاك، فالواقعية كانت سائدة يومئذٍ، أي في النصف الأول من القرن العشرين، لكنها لم تصلح للتعبير عن داخلية النفس ومعاناتها في مجتمع كان عرضة للتحوّل والتغيير، لهذا وجّه الأديب اهتمامه إلى ما يؤمن به فيتخطى تصوير الواقع الخارجي ليصل إلى التعبير عن وقعه على نفسه ووجدانه.

لكن ما أخذ على التعبير الوجداني هو أنه تعبير خاص عن المواقف والأحاسيس، لهذا أهمله الدارسون لما «لمسوا فيه من

مصيرها، فتطوّرت نحو المأساوي وبانت شخوص الرواية الوجدانية معرّاة من كل ثوب، يحركها الكاتب للوصول إلى أعماق ما في الإنسان، فتكون القصّة عندها تجربة تسقط على البطل فتجرّده من كل الترفيحات الصغيرة التي تأتيه بها الحياة المبتذلة لتنضج صورته وحقيقته<sup>(١)</sup>. أما قمة نجاح الكاتب، فهي عندما ينظر إلى عالم شخوصه ويتحرّك على مختلف الصّعد من دون إهمال الماضي وأحداثه، عندها تتحقّق غايته ويكون نجاحه.

إن الرواية العربية لم تكتمل إلا في العصر الحديث، أي بعد أن تألّقت فيها الموضوعات وبت نسيجها متكاملًا، إلا أنّ الذاتية والتجارب العاطفية ليست جديدة على التعبير الأدبي. «لكننا نفرّق بين العواطف الإنسانية العامّة التي يكاد لا يخلو منها أدب إنساني في أيّ عصر من العصور، و«العاطفية» التي تمثّل موقفًا خاصًا من الحياة والطبيعة والمجتمع»<sup>(٢)</sup>.

وانطلاقًا من الذاتية، تغاضى بعض الدارسين عن تمييز الوجدانية من الرومنسية لما وجدوا من نقاط تشابه بين الاتجاهين. ونشير هنا إلى أنه على الرغم من نقاط التشابه بين الاتجاهين، والتي

(١) المرجع السابق، ص ٨٢.

(٢) عبد القادر القظّ: «الاتجاه الوجداني في الشعر العربي المعاصر»، بيروت، دار النهضة العربية، ١٩٨١، ص ١٠.

مظاهر خاصّة تتسم بالسلبية والتشاؤم والشك في طبيعة الحياة والناس»<sup>(١)</sup>.

بينما الخطّ الوجدانيّ هو خطّ يمثّل مرحلة حضاريّة معيّنة. إنه المظهر الفنّي للتعبير عن حال العصر والمجتمعات. من هنا يمكن احسبان النتّاج الوجدانيّ ممثلاً لمرحلة أفرزته، فبات وثيقة عنها ولها.

صحيح أنه أخذ على هذا النتّاج أنه تعبير عن «حالات نفسية من حيث تأثرها باللذة أو الألم غير مؤدية إلى المعرفة»<sup>(٢)</sup>، وحالة تعبّر عن الخصوصية والذاتية، وهي انطباعية تنبع من الأنا ولا تُحاكي الأنا الأخرى، وهي ترجمة لانفعالات وأحاسيس متفاعلة تحت تأثير ظرف خاصّ حمل إلى الوجدان أحكاماً ومعايير لا تتوافق مع معايير المنطق ومقاييسه، لأن المنطق أحكامه ثابتة لا تقبل الخلل وتؤدي إلى المعرفة التي هي وليدة تدرّج طبيعي للإدراك من الحالة الحسية المادية إلى الحالة الذهنية التحديدية، فهي المنطق بعينه وهي ترجمة للملاحظة والتدقيق في أحكام لا تقبل الشك طالما هي واحدة في مفهوم الجميع. ولكن من خلال نظرة شاملة إلى الأدب الوجدانيّ تتبيّن لنا مواقف مختلفة لأدباء وجدانيّين، من قضية ما أو من الحياة.

كلّ قضية في الحياة يمكن أن تكون مجالاً لتجربة واقعية أو رومنتية يصور فيها المعبر موقفه ويخرجها غنية بالدلالات، وناطقة بعاطفته وإحساسه بالحياة والواقع. وأمام القضية الواحدة، يمكن الكلام على طائفة من المواقف التي يعبر أصحابها عنها، كلّ بطريقته، فيكون الموضوع واحداً، لكنّ المواقف مختلفة ومنوعة، إنّما الموضوع يبقى مادة البحث فيهمّ الباحثون به وبما يتضمّنه من معان نفسية وأخلاقية، ودلالات بيئية زمانية وحضارية. إنّ الكاتب الوجدانيّ يعبر من خلال كلامه عن مطالبه ومشكلاته التي يعايشها فيتخبّط فيها، ويغدو عمله هادفاً إلى بثّ رسالة معيّنة، وذلك من طريق الأدب.

### الوجدانية والتيارات الروائية:

الدليل الواضح على تقدّم المجتمع وحيويّته يتمثّل في الحركة المستمرة والمتجددة في كلّ مجالاته بحيث ينعكس التقدّم الاقتصادي والاجتماعي على التقدّم الأدبيّ. والتغيير الاجتماعيّ يستدعي تغييراً في القيم التي تحكم المجتمع، فيرفض القديم البالي ويتكيف مع الظروف الجديدة، ويستتبع ذلك تغييراً في داخلية الأفراد وروحهم ينعكس على حضاراتهم.

(١) المرجع السابق، ص ١٢.

(٢) جبور عبد النور: «المعجم الأدبي»، ص ٢٨٩.

أما المجتمع العربي، فبعد تفتّحه على الحضارة الأوروبية، بدت له الحضارة العربية، قياساً على الحضارة الغربية، هزيلة، ما هزّه وأحدث في نفسه ردّة فعل عنيفة نتيجتها أن تمرّد الكثيرون على حضارتهم تمرّدًا عنيفًا وراءه إحساس بالنقص دفعهم إلى الشك بقيمتهم.

وهذه الحركة وقف في وجهها بعض الأدباء فعملوا على كشف الأصالة العربية، منكرين أية صلة للفنّ الروائي المعاصر بالأدب الأوروبي، راّدين أصوله إلى جذور عميقة مستمدّة من التراث القديم. وقد قال فاروق خورشيد بأن الاتجاهات المختلفة للقصة المعاصرة ليست متأثرة باتجاهات القصة الأوروبية، وإنما تتأثر في اختلافها بهذا التراث القديم<sup>(١)</sup>. وإذا أطلعنا على نتاجنا الروائي نجدنا نشكو من أن روائيينا لا يقدمون تعبيرًا عميقًا وكاشفًا للتغيرات التي يمرّ بها مجتمعنا العربي. ولا يقفون عند صدى الانفعالات التي تدور في نفسيات أجيالنا، خلا بعض الصّور العامّة في الإنتاج الذي يردنا من الخارج، وكأنّ أدباءنا لا يعانون الإحساس بمشاكلنا. لكنّ إذا عرضنا لنتاجنا الروائي نجدنا أمام أساليب حديثة يعود كلّ منها إلى ذاتيّة

واضعه، بمعنى أنّ أسلوبه هو تجسيد لآصاله المباشر والعميق بمجتمعه والشعب العربي.

### الرّومنتيّة التّيّار العاطفي:

في أواخر القرن الثامن عشر وأوائل التاسع عشر قام مذهب أدبيّ هو الرّومنتيّة، وذلك على أنقاض الكلاسيكيّة التي تتمثّل بتيّار عقليّ، على عكس الرّومنتيّة التي تتمثّل بتيّار عاطفيّ يؤمن أربابه بأنّ الشعور والفهم أساسان للادراك، كما أنّ العقل في تنظيمه للأمر يخضع للشعور بالجمال و«الجمال هو دعامة كلّ نشاط إنساني. وهو أساس ما في الإدراك نفسه من نظام ومن صيغة فنّيّة تظهر فيها شخصية الإنسان وأصالته»<sup>(٢)</sup>.

قديمًا قرّر الفلاسفة أن للعاطفة مكانًا في الفلسفة، وأنّ ما تقوم به النفس من النّشاط الصادر عن الحواسّ منحصر في «الرّغبة التي يثيرها القلق، وبها تتتابع عواطفنا وتتجدّد وتتكاثر، فتكتسب حياتنا كلّ ما لها من معنى»<sup>(٣)</sup>. أما مصدر الرّغبة فهو العاطفة، إلّا أنّ قضيّة الجمال قد شغلتهم واعتبروا أنّ الجمال هو الدّوق والدّوق فرديّ، ما ردّ الجمال إلى الذاتيّة، أمّا

(١) حمد ابراهيم الهواري: «مصادر نقد الرواية في الأدب العربي الحديث في مصر»، دار المعارف، ١٩٧٩، ص ٤٥.

(٢) Albert BEGVIN: "Le Romantisme allemand", Paris, 1949, p. 130.

(٣) P. HAZARD: "La Pensée européenne au XVIII<sup>ème</sup>", Paris, 1946.

على الصّور الذاتيّة، ونفس الشّاعر الغنائيّ هي مرآة لما حوله.

### البرناسيّة والواقعيّة تتابعا

بعد الرّومنيّة كانت البرناسيّة التي تقوم على فلسفة مثاليّة قوامها الجمال الذي لا يتمثّل في سوى الشّكل، فاستقلّ شعرهم عن كلّ غاية اجتماعيّة أو خلقية، إلا أنّ ثقة النّقاد والكتّاب كانت قد عظمت في تلك الفترة، فراحوا يعملون على خروج الإنسان من حدود ذاته طلباً للمعرفة الصّحيحة، وذلك من طرق العقل لا القلب كما يراها الرومانيّون.

وفي الفترة عينها بدأ يزدهر المذهب الواقعيّ في القصة المسرحيّة والتشابه بينه وبين البرناسيّة هو الدّعوة إلى الموضوعيّة مع التّقة بأنّ العلم يحلّ جميع المشكلات الإنسانيّة<sup>(٢)</sup>. والمذهب الواقعيّ استقى مادة تجاربه من مشكلات العصر الاجتماعيّة، ومن واقع الطبقات الدّنيا، ومن أدنى أعماق النفس الإنسانيّة، فراح دعائه يصوّر الآفات وصولاً إلى إضاءة المجتمع بها. وقد زاد «زولا» على الواقعيّة دور التجربة التي بها يحرك شخصيّاته في دائرة وقائع خاصّة، ليبرهن أنّ توالي الحقائق يتمّ طبقاً

الغاية من الأدب فهي لهم ثورة على شرور المجتمع وألم نابع من جمال الضّمير ونقائه، وأدب يهتم بمصالح الفرد وينتصر له ضدّ مظالم المجتمع.

لقد كان جمهور الرومنتيكيين من الطبقة الوسطى، بينما أسلافهم الكلاسيكيون كانوا من الطبقات الأرستقراطية، ما يعني أن تفتّح الرومنتيكيين وتطلّعهم إلى الأمام سمح للقراء بأن يقتدوا بهم ويطالبوا بحقوقهم وأن يفتّشوا عن مكانة اجتماعيّة لهم، فيصبحوا الناطقين بقيمهم الحقّة، لا بقيم غيرهم. لقد كانوا يدافعون عن طبقة مهضومة الحقوق، وكان أدبهم كان ممهداً لثورة إنسانيّة. هذا من حيث الموضوعات، أما النّاحية الفنيّة، فقد وجدوا قوالب ثلاث مقاصدهم وأهدافهم.

وبفعل الرومنتيكيين، نهض الشّعر الغنائيّ الذي يفهم أصحابه الخيال مؤكّداً للصّور التي تُعدّ تجسيداً للمشاعر والأفكار، وقد قالت مدام دو ستال الدّاعية الأولى إلى الرومنتيكية في فرنسا بأنّ في داخل كلّ امرئ مشاعر ذاتيّة، والخيال هو الذي يكسب هذه المشاعر صورة وحيّة<sup>(١)</sup>.

أمّا الاعتداد بدور الخيال، فقد أثر في السموّ بمرتبة الشّعر الغنائيّ الذي يقوم

Mme de STAEL: "De l'Allemagne, 3<sup>ème</sup> partie, Chap. VIII. (١)

BRUNCHVIG: "Notre Littérature contemporaine étudiée dans les textes", 1949, p.4. (٢)

لما أدت إليه الوقائع المدروسة في العلوم<sup>(١)</sup>.

وكأنَّ الغاية من «التَّجربة» الأدبيَّة هي كفاية التَّجربة العلميَّة: أي أن يصير المرء سيِّداً مسيطراً على العالم لتوجيه ظواهره بغية تغيير القيم الاجتماعيَّة نحو ما هو أفضل. بشكل آخر نقول إن التجريبيين دعاة للخلق الإنسانيِّ من طريق التجربة، إلا أن التجريبيين يكرهون أن يختموا قصصهم بمغزى.

#### الرّمزيَّة ثمَّ الوجودية:

أمّا في الشَّعر، فقد خلف خطَّ الرّمزية البرناسيَّة، وهو الأهم بعد الرومنسيَّة. فالرّمز هو الصِّلة بين الذات والأشياء، وكلَّ تعبير رمزيِّ في موضعه مشعّ موح بألوان الايحاءات النفسيَّة. لذلك كان للرّمزيَّة أثرها في الشَّعر العالميِّ الحديث، وقد صاحبت الاتجاه الواقعيِّ في الشَّعر.

أما المذهب الأدبيِّ الذي استقرَّ في آداب القرن العشرين فهو المذهب الوجوديِّ، وهو كما يدلُّ عليه الاسم، يُعنى كلَّ العناية بالوجود الإنسانيِّ، ومن مبادئه دراسة جواهر الوجود للتحقُّق من الموجودات. أمّا الظروف المعقّدة التي ينوجد فيها الإنسان،

كعوامل الوراثة والبيئة والصِّفات الخُلقيَّة، فهي التي تضع الإنسان في موقف<sup>(٢)</sup>، والتزامه به يستتبع ادراك قيم إنسانيَّة واجتماعيَّة.

ان ما أورده هو موجز قصير للاتِّجاهات الأدبيَّة الأوروبيَّة التي تركت أثرها العميق في أدبنا الحديث، وكان لا بدَّ من أن نتأثَّر بها فتشدُّنا إلى أدبنا القديم لنأخذ منه وننطلق في نهضة أدبيَّة متسلِّحين بتركة الأسلاف، ساعين لبلوغ الكمال باتِّجاهات أدبيَّة حديثة.

#### طليعة التجديد في الوطن العربي:

وبدأت معالم التجديد تظهر في ما قدّمه المحدثون من صدق في التَّعبير عن التجارب، وفي التَّعبير عن الآلام تعبيراً صادقاً كما كانت الحال مع خليل مطران (١٨٧٢-١٩٤٩) في قصائده. وهذه الخاصَّة كانت جديدة في الشَّعر العربيِّ، ففي «المساء» رأى الشَّاعر الطَّببيعة مرآة لنفسه المتألِّمة، فراح يقارن حالها بأحاسيسه، فأثت تجربته ذات طابع إنسانيِّ واجتماعيِّ. وكذلك في قصيدته «في تشييع جنازة» نعى المجتمع الذي تقف تقاليده البالية عقبه في طريق العواطف الصادقة. هو التَّوقف عند العواطف في خطِّ النزعة

(١) E. ZOLA: "Le Roman expérimentale", Paris, 1928.

(٢) راجع محمد غليمي هلال: «الادب المقارن»، ص ٢٨٩.

الرومنتيكية، لكنّ العودة إلى الذات وتصوير المشاعر والأفكار بصورة مستمدّة من تجارب الكاتب وبيئته، بطريقة تُظهر صدق الفكر والمشاعر، إنّما تمتّ إلى النزعة التجديديّة في أدبنا العربيّ. كذلك الأمر بالنسبة إلى الخيال الذي وُصف دوره بمنتهج الصّور المعبّرة عن أعماق النفس فيختلف بذلك عن الوهم.

### عالم الأدب وعالم الذات:

لقد كثرت المذاهب الأدبيّة وتنوّعت، ولا حاجة لأن نذكر تاريخ أوروبا العامّ لنكشف صراع المذاهب الأوروبيّة فيها، ويكفي أن نطرح علاقة الأدب بغيره من العوامل، جاعلين أحدها سبباً والآخر نتيجة لكي نلقي الضوء على محور اهتمامنا، وهو الأدب الذي يرتبط بفكر الإنسان ووجدانه. من هنا نجد من الضّروري أن نرجع إلى فهم التّغييرات الأدبيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة.

وعلى الرّغم من انتشار الكلاسيكيّة مثلاً، وهي التي تتّسم بالعقلانيّة والموضوعيّة والتزام القواعد والمحاكاة<sup>(١)</sup> والأخلاق، فقد ظهرت حركات تتميّز بالتّعبير التلقائيّ عن فيض مشاعر قويّة، جزاءً آمال خابت أو قلق عميق ناجم عن شعور دينيّ غامض، وسوى ذلك من

أحاسيس وردّات فعل تصدر عن الإنسان، الفرد الاجتماعيّ. وبما إنّ الإنسان لا غيره هو موضوع للأدب، شعره ونثره، ولما كان هذا الإنسان هو من يعيش في قلب الحضارة التي هي عرضة للتغيّرات والصراعات، وخاضعة للتطوّر والتقدّم، فإنّ ما يدخله من خوف من التناقض الحادث بين طمأنينة تهتزّ وإمكانات شخصيّة معرّضة للانهايار، تكون نتيجته حرمانه من أمانه النّفسيّ والاجتماعيّ.

من هنا لا يمكن للأديب أن يكون صادقاً في التّعبير عن عالمه، مصوّراً واقعاً بذاتيّته رغم اقتناعه بانفصال العالمين: عالم الأدب وعالم الذات.

### خصوصيّة النّص الوجدانيّ:

تعدّدت الآراء تعريفاً بالوجدانيّة، فبعضها نظر إليها كوجه من وجوه الرّومنسيّة، والآخر حاول تفسيرها من خلال مقارنتها بالمدارس الأدبية الأخرى، غير أنّ مصطلح الوجدانيّة يستعصي تعريفه بسطور عدّة، وذلك لأنّ كلّ تصنيف سريع يدخل في النّمطيّة والانغلاق، فتضيق آفاقه ليصبح مقولة جامدة متحرّجة<sup>(٢)</sup>. فماذا من إضاءات عليها؟

(١) مبدأ أرسطي جعلها أرسطو الصفة الجوهرية للفنّ.

(٢) برتولود بريخت: «في الواقعية» ترجمة للنسخة الفرنسية، طباعة الأراس، ١٩٧٠، ص ٧٦-١٧٣.

## بين الواقعية والوجدانية:

يركّز أرسطو في كتابه «فنّ الشعر» على أنّ الأدب محاكاة (mimisis) للواقع، لكنّ ضمن قواعد وأصول، ثمّ وضع لهذه المحاكاة خطوطها العريضة في معالجته بعض الأنواع الأدبية كالمهابة والملحمة. لكنّ محاكاة الواقع لا تعني نقله كما هو بل إجراء اختيار فيه يستند إلى أساس ثابت ومعايير جمالية، وكرّدة فعل على ذلك اعتمد عدد من الأدباء الواقع الطبيعي، بمعنى أنّهم استنسخوه فجاءت الأعمال الأدبية الجديدة تصوّر الواقع المعيش لا ما يجب أن يعاش.

ومن تحديدات الوجدانية أنّها الصدق في التعبير عمّا تشعر به النفس في محيطها، ما يؤكّد أنّ العمل الأدبي صورة صادقة لصاحبها وواقعه ومحيطه.

ونلاحظ استعمالات كثيرة لكلمة «الوجدانية» فهناك وجدانية تتعلّق بمشروع الكاتب الذي يهدف إلى الخروج على القواعد الفنيّة الأدبية، وهناك وجدانية من وجهة نظر القارئ، فإمّا أن يقبل بخطّ الأديب أو أن يثور عليه.

لكن، ومهما اختلفت استعمالات المصطلح، يبقى للكتابة الوجدانية أبعاد كثيرة، لأننا من خلالها يمكن أن نكشف أسرار العلاقات الاجتماعية، وأن نفضح الأفكار السائدة والأحوال السياسيّة. إنّها صورة مضمون اجتماعي له أبعاده، ومن خلالها يمكن معالجة أحوال المجتمع والفرد

فيه، وهذا ما يستدعي من القارئ انتباهًا إلى هدف العمل وأبعاده، بعد قراءة متأنية لما خلف السطور. إنّ في الأدب الوجدانيّ إحالة إلى واقع اجتماعي، وارتباطًا عميقًا بالحياة، أداته هي اللغة.

## اللغة والوجدانية:

بما أن بنية اللغة تخضع لقوانين ذاتية، وحيث أنّ الكاتب ينقل الأمور بحسب تصوّره لها بشكل متّصل بوعيه وثقافته والايديولوجية التي يلتزم، فإنّ في ذلك ما يسمح بتصنيف عمله بالذاتي والشخصي بعيداً من الإجماع والتعميم.

عليه.. فإن من سمات النصّ الوجدانيّ:

١ - رسم البيئة وتأطير الجو العام للشخصية: يعتمد النصّ الوجدانيّ على إشارات وإيحاءات تسمح بتأطير البيئة التي تجري فيها الأحداث والزمن الذي تجري فيه، ما يسمح للقارئ بأن يتبيّن الإطار العام للحادثة، فيتفهّم عندها الشخصية وتفاعلها مع الأحداث، وتمكّنه من دراستها وتفهمّ خلفيّة تصرّفها وردّة فعلها.

٢ - لا إحالات تاريخية: على عكس النصّ الواقعيّ، لا نجد في النصّ الوجدانيّ إحالات تاريخية تسمح باتخاذ وثيقة تاريخية دقيقة، فهو لا يرتبط بحثييات مجتمعية وتاريخية وإنسانية محدّدة، ولا يتعلّق بتاريخ.

٣ - إنّ غياب الإحالات التاريخية يستتبع عدم إدراج أسماء وتواريخ دقيقة



وموثقة، لكن ذلك لا يعني انتفاء الدلالات الاجتماعية من القصة، فالغائب التسجيل الواقعي لا الواقعي بمعناها العام، أي إمكانية الحصول والوقوع.

٤ - لا استنادات إلى مراجع: ذكرنا أن الإحالات والتسجيلات إنما هي لتوثيق النص وإعطائه صفة الواقعية التسجيلية، لهذا ترانا في النص الوجداني لا نُعوّل على المراجع والإحالات الدقيقة، لأن الهدف من العمل هو أبعد من اعتباره مرجعاً.

٥ - البعد الاجتماعي: في النص الوجداني تركيز على البعد الاجتماعي، ومحاولة لوصف الشخوص في محيطهم ومجتمعهم للتوصل إلى التركيز على تفاعلهم مع ما يفرضه عليهم هذا المجتمع من عادات وتقاليد وظروف اجتماعية واقتصادية.

٦ - اللجوء إلى التعبير الذاتي: كثيراً ما يلجأ الكاتب الوجداني إلى السرد الذاتي أو إلى توقف الشخصية عند أفصاحها أو إيحائها الذي يوضح لنا موقفها من قضية أو موقف ما. وهذا الإفصاح هو خير دليل على ما يتوخى الكاتب إيصاله أو التعبير عنه.

٧ - بعكس النص الواقعي، وعلى الرغم من الصدق الذي تتميز به التعبيرات، تبقى المعاني في النص الوجداني غامضة بعض الشيء، أي إنها تسمح وتتقبل مجموعة من التأويلات المختلفة، ما يجعل القارئ لا

يهمل ما بين السطور ولا خلفيات الأحداث وأبعادها.

٨ - دور الخيال في النص الوجداني: هو فيه خيال متذكّر إلى حد بعيد، وكأنّ الراوي ينطلق من أمور حياتية فينذكرها ليرويها. ولئن كان الخيال خلافاً في بعض الأحيان بحسب مقتضيات القصة فإنه يبقى قريباً من الحقيقة، بعيداً كل البعد عن المغالاة والخرافة واللامعقول.

٩ - ما يميّز به النص الوجداني هو أنه، انطلاقاً من موضوعاته الحياتية، يُعدّ ذا إنطلاقة واقعية، بمعنى أنه يتضمّن تعاقباً بين ثنائيات متعدّدة. فعلى سبيل المثال نرى الحياة إلى جانب الموت، والغنى إلى جانب الفقر، بصرف النظر عن المفاجآت التي قد تُحوّل مسار الرواية. ففي بعض النصوص انطلاقات جديدة في إثر سكون، تحوّل مسار الرواية، وهذا ما يسمّيه الدارسون نصّاً غير مستقرّ.

وصل العالم الخارجي بالعالم الداخلي: بعض النصوص، منها التخيلي مثلاً، يركز على الجزئي والمقتطع، فيغدو عالم البطل مقتطعاً ومحدوداً، في حين أن النص الوجداني إضاءات ونوافذ على العالم الواسع، متيحاً لقاء الأنا بالآخرين وانفتاح الخاص على العامّ.

مع ذلك نقول، يبقى النص الوجداني حراً لا يتقيّد بقوالب، وبعيداً من أي تحديد أو مكننة.

## مشروع «أليسار» لترتيب وتنظيم وضع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت

د. عماد هاشم

عليها، وقد ضمنت حق الساكنين بالبقاء، سكنًا وعملاً، عبر تأمين البديل السكني والحرفي.

هذه المؤسسة تقوم باستملاك مؤقت للعقارات التي تقع ضمن نطاقها (الغبيري، الأوزاعي)، وتعمل على بناء مساكن بديلة لأزمة الفقر الموجودة فعلياً في جزء من الأوزاعي والجناح وحرش القليل، ضمن مخطط توجيهي كامل يتضمن إنشاء حدائق وممرات وتوسعات وبنية تحتية حديثة، وتستغل ما تبقى من أراضي في استرداد التكاليف التي ستدفع (كما كان مخططاً) في المباني السكنية البديلة لهؤلاء السكان، أي أن آلية عمل «أليسار» مبنية على قاعدة البديل السكني للقائمين الذين يسكنون ضمن نطاقها<sup>(١)</sup>.

تتوزع التجمعات السكنية التي تتركز

تعود نشأة مشروع «أليسار» إلى أولى حكومات الرئيس الراحل رفيق الحريري عام ١٩٩٢، حين طُرحت آنذاك فكرة إنشاء شركة عقارية لمنطقة الاوزاعي أسوة بالشركة العقارية في «سوليدير». لكن بعد معارضة الأهالي والقوى السياسية التي تمثلهم لإنشاء شركة عقارية شبيهة بشركة سوليدير في وسط بيروت على أرض مساحتها أكبر بثلاثة أضعاف مساحة «سوليدير»، أنشئت المؤسسة العامة لترتيب منطقة الضاحية الجنوبية الغربية لمدينة بيروت - أليسار بموجب المرسوم رقم ٩٠٤٣ تاريخ ١٩٩٦/٨/٣٠، وهي تتمتع بالشخصية المعنوية والاستقلال المالي والإداري وتهدف المؤسسة إلى ترتيب منطقة الضاحية الجنوبية الغربية لمدينة بيروت، وترتبط المؤسسة برئيس مجلس الوزراء الذي يمارس الوصاية الإدارية

(١) مصادر مؤسسة «أليسار».

الرقص والنوادي الليلية إضافة إلى أماكن الاستجمام والرياضة - النوادي الرياضية - المسابح - مرافئ استجمام خاصة (مارينا) مراسي لليخوت والقوارب - الحمامات البحرية والشاليهات، كذلك الإنشاءات المخصصة للخدمات التربوية والدينية والصحية والرياضية بما فيها قاعات الاحتفالات والمدارس وقاعات الاجتماعات والمكتبات العامة والمتاحف والمعارض الفنية.

منطقة «أليسار» تعتبر امتداداً طبيعياً وجغرافياً وصحياً لمدينة بيروت وعلاقتها العضوية بالضاحية الجنوبية، إلى جانب عدم وضوح التملك العقاري في «الضاحية»، يكاد يقتصر على منطقة مساحتها ٥ ملايين متر مربع، مما يجعل المساحات الخضراء قليلة جداً في المخطط التوجيهي لحساب الاستثمارات الخاصة. في حال نجد أنه ليس من مكان لأهالي هذه المنطقة ضمن هذا المخطط التوجيهي، الذي سيغير في حال تنفيذه معالم المنطقة بصورة جذرية.

### ٣ - ١ - أهمية الموقع الجغرافي لمنطقة «أليسار»

تقع منطقة مشروع «أليسار» على الأطراف الجنوبية لمدينة بيروت، وتمتد على طول مداخلها الثلاثة: طريق المطار،

في نطاق عمل «أليسار» على ستة مواقع أساسية هي: المرامل، الأوزاعي، الرمل العالي، وفي الغبيري: حرش القليل، صبرا وحي الزهراء. يبلغ مجمل عدد الوحدات السكنية ١٠١٢٠ مسكناً، معظم من يقطنها هم من ذوي الدخل المتدني والمحدود وضمن مناطق التعديلات على أملاك غيرهم، وتبلغ المساحة الإجمالية لهذه المجمعات نحو ٥٠٢٠٠٠ متر مربع<sup>(١)</sup>.

ومن خلال مراجعة التصميم التوجيهي يتضح أن هذه المنطقة معدة لتكون مركزاً سياحياً وتجارياً وامتداداً جغرافياً لمناطق عين المريسة والروشة وبوابة لبنان المنفتحة على مطاره الدولي. وقد قسّم هذا المرسوم هذه المنطقة إلى عدة أجزاء تنظيمية وحدد في كل منطقة وجهة استعمالها والأبنية التي ستقام على أرضها، والتي يمكن اختصارها بالمباني المخصصة للسكن، المباني المخصصة للاستعمالات التجارية وصالات العرض والمكاتب بما فيها المكاتب الحكومية والمهنية، إضافة إلى الخدمات المالية والخدمات المصرفية والتأمين، الاستعمالات الترفيهية بما فيها قاعات السينما والمسارح والبولينغ والفنادق والشقق المفروشة - الموتيلات والمطاعم والمقاهي والبارات وقاعات

(١) تقرير غير منشور أعدته شركة «أليسار» عام ٢٠٠٥.

مشروع «أليسار» فتتكامل مع مدخل بيروت الجنوبي الوحيد - خلدة الأوزاعي- لتستوعب كل الحركة من الجنوب باتجاه بيروت وبالعكس، وهذا ما أعطى هذه المنطقة ديناميكية اقتصادية، تجلت باكراً منذ الستينات، وما زالت في كل الخطط الإستراتيجية والإنمائية للعاصمة. أضف إلى ذلك أهمية طريق المطار الذي يربط العاصمة بمطاراتها الدولي والذي على امتداده ترسم الصورة الأولى لبيروت أمام الزائر الأجنبي. كما أن المدينة الرياضية سيكون لها تأثير نوعي على الحركة العقارية في محيطها.

خريطة رقم: ١ - صورة جوية تبين حدود مشروع «أليسار» بالنسبة لحدود بلديات الضاحية الجنوبية وبيروت  
حدود منطقة اليسار العقارية



المصدر: بلدية الغبيري

طريق الجناح - السفارة الكويتية - الكولا، والطريق الساحلية حتى حدود مطار بيروت الدولي.

تتألف حدودها من البحر المتوسط غرباً، طريق المطار شرقاً، مطار بيروت الدولي جنوباً، وشارع «عدنان الحكيم» - جهة بيروت المدينة - شمالاً. طولها ثلاثة كيلومترات تقريباً - من الجنوب إلى الشمال - وعرضها الوسطي يتراوح بين ١,٣٠ - ٢,٤٠ كلم، فتكون مساحتها الإجمالية ٥٦٠ هكتاراً، سيضاف إليها ٢٥ هكتاراً من المساحة المرادومة على الشاطئ قرب المدرج الغربي المستحدث لمطار بيروت.

تشمل منطقة مشروع «أليسار» كلا من مناطق الأوزاعي، الرمل العالي، حرش القليل، الجناح وصبرا. من هذه المساحة هناك ٢٣٠ هكتاراً من الأراضي المستثناة من التخطيط (هناك ٣٤ هكتاراً من الأراضي المستثناة تعتبر شاغرة)، كذلك استثنيت المناطق المرتبة، ومرافق العبادة والمؤسسات الاجتماعية العامة<sup>(١)</sup>.

وهذا ويساهم انحدار الأرض باتجاه الغرب في قسم كبير من الموقع بتميز المناطق الداخلية منها بأطلالة دائمة على البحر مما يعطيها جاذبية خاصة ومميزة.

أما الطرقات الرئيسية الثلاث في منطقة

(١) تنظيم أوضاع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت، دراسة دار الهندسة، ٢٠٠٤.

### ٣ - ٢ - المشاريع البديلة

لم تبادر «أليسار» إلى تنفيذ ما كان مخططاً من أبنية بديلة، وبعد سنة ٢٠٠٠، طرح الرئيس رفيق الحريري مشروعاً جديداً يقوم على استبدال فكرة «أليسار» التي تتطلب اموالاً طائلة، بفكرة أخرى، منشؤها قرض كويتي بقيمة ١٥٠ مليون دولار، تم تخصيصه لمنطقة الأوزاعي، يصرف منه ١٢٠ مليون دولار لإنشاء بنية تحتية وإعادة ترتيب المنطقة بمخطط توجيهي يجعلها صالحة للتنمية الذاتية من خلال المشاريع الخاصة لاحقاً، وفي الوقت نفسه، يتم توسيع الشارع الرئيسي وبناء جسر للمنطقة. حيث اعترض الأهالي لخشيتهم من أن تكون هذه الفتحة سبباً لإهمال الأوزاعي بالكامل، حيث تسارعت الأحداث بشكل دراماتيكي أدى إلى إقفال الملف.

في ربيع عام ٢٠٠٦، عاد مشروع «أليسار» إلى طاولة المفاوضات من جديد حيث اقترح تحويل «أليسار» من مؤسسة عامة إلى شركة عقارية، وهي صيغة ستؤدي إلى تغيير في جوهر المشروع من الخرائط إلى الجهات الممولة إلى طريقة التعامل مع المقيمين.

وكان قد سبق في أيار من العام ٢٠٠٤، أن أرسل رئيس الحكومة حينئذ الرئيس رفيق الحريري، بوصفه ممثلاً لسلطة الوصاية على المشروع، اقتراحات إلى

مجلس إدارة «أليسار» لتعديله، بعدما أوكل التعديل إلى دار الهندسة، وسقط التعديل في مجلس إدارة «أليسار»، بعد اعتراض «حزب الله» على التعديلات المقترحة.

وقد تبين من خلال الدراسات التي أعدتها دار الهندسة أنه لم يعد لجسر الأوزاعي من وجود، كما تم إلغاء المجمعات السكنية في المرامل وحرش القليل وصبرا وشاتيلا وقرب نادي الغولف، وهي تشكل بديلاً للمساكن في الجناح والأوزاعي والمارمل وحرش القليل وصبرا، ويبلغ عددها ١٣٩١٢ مسكناً بموجب الإحصاءات التي قامت بها «أليسار» إضافة إلى إلغاء أربعة مراكز تعليمية ومراكز حرفية ومجمعين استهلاكيين في تلة المرامل وحرش القليل. وجرى استبدال المرفأ الشعبي في منطقة المدورة بمرفأ للصيادين، مع تصغير المساحة التي كانت مخصصة للمسبح، ويترتب على تلك التعديلات إجراء عمليات ضم وفرز جديدة للأراضي بعد إلغاء التجمعات السكنية، بالإضافة إلى إعادة تنظيم العلاقة بين المالكين المقيمين.

### ٣ - ٣ - الوضع الحالي في منطقة

#### «أليسار»

إن إحدى مهام مخطط «أليسار» المعلنة هي إعادة إسكان المقيمين في المنطقة المراد ترتيبها في أماكن تناسب التوزيع

- متوسط عدد الغرف: ٥,٦٣ ٪ من السكان يعيشون في غرفة وغرفتين.  
- متوسط مساحة المسكن: ٩٠ م<sup>٢</sup> في كل منطقة المشروع.

### ٣ - ٣ - ١ - لمحة عن النسيج العمراني الحالي

يتألف النسيج الاقتصادي - الاجتماعي من وظائف السكن والتجارة والصناعات الخفيفة والمطاعم الصغيرة والأفران، هذه الوظائف تتداخل جغرافياً بشكل عام، مع

الجديد للوظائف والنشاطات، مع تأمين متاجر ومحترفات بدل التي ستهدم لتنفيذ هذا المخطط.

ودراسة الوضع الحالي تكتسب أهميتها في إطار استخلاص خصائص النسيج العمراني الحالي بهدف إيجاد الشروط المناسبة للتكيف مع ظروف الانتقال إلى الوضع الجديد.

جدول رقم: ١ - معطيات إحصائية حول السكن والسكان في «أليسار»

المجموع	المرامل	صبرا(*)	الأوزاعي	الجناح(*)	بئر حسن حرش القتيل(*)	المنطقة المتغيرات
١١١٠٢٠	١٩٠٠	٤٣٤٦٠	٢٩٨٦٠	١٩٢٨٠	١٦٥٢٠	عدد السكان (نسمة)
١٩٣٧٥	٣٤١	٧٥٤٥	٥٢٣٠	٣٣٧٦	٢٨٨٣	عدد الأسر
٥,٧٣	٥,٥٧	٥,٧٦	٥,٧١	٥,٧١	٥,٧٣	متوسط أفراد الأسرة
٧٢٠٨	١٧٠	٢١٢٧	٢٠٢٢	١٥٠٩	١٣٨٠	عدد الأبنية
١٩٤٠١	٣٤٣	٧٦٣٠	٥١٩٨	٣٣٥١	٢٨٧٩	عدد الشقق
١٨٢,٥	٧,٧٥	٤٢,٤	٧٦,٣٥	٢٨,٥	٢٧,٥	المساحة (هكتار)
٦٠٨,٣٢	٢٤٥,١٦	١٠٢٥	٣٩١,٠٩	٦٧٦,٤٩	٦٠٠,٧	الكثافة (فرد/هكتار)
٨٢,٩	٧٤,٧	٧٩	٧٦,٥	٨٨,٧	٩٢,٨	نسبة المساكن من طابق وطابقين ٪

طغيان وظيفة السكن بعيداً عن الطرق الرئيسية لتترك المكان على طول المحاور لبقية النشاطات مثل التجارة والصناعات الخفيفة والخدمات الأخرى. أما على جوانب الطرقات الداخلية المتعرجة والتي رسمها التمدد العمراني غير المنظم، فيمكن أن تختلط وظيفة السكن مع النشاطات

المصدر: دار الهندسة - تنظيم أوضاع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت - ٢٠٠٤.  
(\*) مناطق تقع ضمن حدود بلدية الغبيري.

- المعطيات الإحصائية الحالية في منطقة مشروع «أليسار»:

- متوسط السكن في المنطقة: ٥,٦٠ ٪ من السكان سكنوا ما قبل عام ١٩٨٧.

الأخرى، مع ملاحظة كثافة الثانية عند الاقتراب من أماكن السير القوية.

في طبيعة الوظائف مع توزيعها الجغرافي المتعلق بخطوط المواصلات وبالعلاقة المنطقة بمحيطها، كلها عوامل لها التأثير المباشر على تشكيل النسيج الاجتماعي - الاقتصادي والعمراني للمنطقة، وعبر سبر تطوره.

### ٣ - ٣ - ١ - ١ - خطوط المواصلات والتوزيع الجغرافي للوظائف

الطريق الساحلي هو الشريان الحيوي الذي يستوعب معظم حركة المواصلات بين بيروت وضاحيتها من جهة والجنوب من جهة ثانية، وبالتالي، فإنه يستقطب على جانبه معظم النشاطات التجارية والحرفية.

تأتي في درجة ثانية الخطوط المتفرعة عن الخط الساحلي، وهي: الأوزاعي، الرمل العالي وحرش القتيل - جسر المطار - السفارة الكويتية - جسر المطار. كل هذه المتفرعات تستقطب حجمًا غير محدد من النشاط الحرفي والتجاري، وفي هذا الإطار يبدو طريق الأوزاعي - الرمل العالي هو الأكثر حظًا في استقطاب المؤسسات التجارية والصناعية لوفرة الأراضي القابلة للاستيطان على جانبه وقوة حركة السير عليه.

وعلى صعيد المواصلات تشكل منطقة

مشروع «أليسار» حلقة وصل بين بيروت والجنوب، وبين الضاحية الجنوبية والجنوب، وبين الضاحية الجنوبية وبيروت، وكذلك هي حلقة وصل مع طريق دمشق الدولي.

بين بيروت والجنوب تتم الصلة عبر الطريق الساحلي باتجاه الروشة من جهة، وباتجاه السفارة الكويتية - الكولا من جهة ثانية.

وبين الضاحية الجنوبية والجنوب يتم الاتصال عبر طريق الأوزاعي - الرمل العالي والأوزاعي - السفارة الكويتية - جسر المطار.

وبين الضاحية الجنوبية وبيروت المدينة، هناك خطان رئيسيان هما: طريق المطار - مستديرة شاتيل - البربري، وطريق الغبيري - جسر المطار - السفارة الكويتية - الكولا أو الطريق الساحلي.

أما الاتصال مع طريق دمشق الدولي، فتتم عبر طريق الكولا - السفارة الكويتية - المشرفية - الحازمية.

أما على صعيد الطرقات الداخلية، فإننا نجد ضيقة ملتوية وغير معبدة في بعض الأحيان، وقد تكون مرصوفة بالباطون أحيانًا أخرى، عرض الطريق الرئيسي منها يتراوح بين ثلاثة إلى أربعة أمتار على الأكثر.

### ٣ - ٣ - ١ - ٢ - التصميم التوجيهي العام للمنطقة

استناداً للتصميم التوجيهي العام لضواحي مدينة بيروت الصادر عام ١٩٦٤ والمعدل عام ١٩٧٠<sup>(١)</sup>، فإن منطقة مشروع «اليسار» تقسم إلى أربعة مناطق أساسية حسب نظام البناء لضواحي بيروت، إضافة لثلاث مناطق أخرى واقعة ضمن بلدية بيروت نفسها وذلك على الشكل التالي:

- المنطقة ١، وتضم أحياء: الجناح، المدينة الرياضية، صبرا، شمال طريق الجناح حتى البحر في الغبيري، إضافة لأحياء الأوزاعي شرق الطريق الرئيسي امتداداً حتى الرمل العالي والمرامل.

صورة رقم: ١ - الشارع الرئيسي منطقة المرامل في الأوزاعي



المصدر: الباحث عام ٢٠١٤.

هذه المناطق مخصصة في الأساس

للسكن والتجارة، معدل الاستثمار السطحي فيها ٣٠-٤٠٪ (النسبة بين مساحة المسقط الأفقي للبناء ومساحة العقار) وعامل الاستثمار العام ١,٤-٠,٩ (النسبة بين مساحة البناء عن كامل طوابقه المحسوبة في الاستثمار ومساحة العقار)، بحيث يسمح بارتفاع أقصى وقدره ٥-٦ طوابق<sup>(٢)</sup>.

- المنطقة ٢، وتشمل أحياء: صبرا شمال المخيم، إضافة لشريط صغير جنوب طريق الجناح في الغبيري، معدل الاستثمار السطحي فيها ٥٠٪ وعامل الاستثمار العام يساوي ١,٦٥. ويسمح فيها بارتفاع قدره أربعة طوابق. وقد حدد التصميم التوجيهي أن الواجهات الخارجية في كلا المنطقتين (١ و ٢) يجب أن تشاد بالحجر الطبيعي بنسبة لا تقل عن ٦٠٪ من مساحتها الإجمالية.

- المنطقة ٣، مخصصة للمطاعم، والحمامات البحرية، والمؤسسات السياحية والفندقية والشاليهات والسكن الخاص. وهي تمتد على طول الشاطئ حتى حدود توسيع المطار. معدل الاستثمار السطحي فيها ٢٠٪ وعامل الاستثمار العام ٠,٤.

- المنطقة ٤، وتقسّم بدورها إلى ثلاثة أجزاء، وتشمل بشكل أساسي أحياء: بئر

(١) «قانون وأظمة البناء في لبنان»، التصميم التوجيهي العام لضواحي بيروت (جمع وتنسيق جورج سماحة وإشراف النقيب الياس النمار)، نقابة المهندسين في لبنان، ١٩٩٥، ص ٣٩٥-٤١٣.

(٢) نفس المصدر.



حسن، حرش القتيل، الجناح - الأوزاعي جنوب الجناح في الغبيري.

خصصت لتوسيع حرم المطار لا يسمح فيها بالبناء.

وفي هذه المنطقة يحرم البناء من أي نوع كان في القسم الجنوبي من حرش القتيل وجنوب مخيم صبرا، ويصنف ليبقى منطقة حرشية فقط. كما يخصص للمنفعة العامة باعتبارها أملاً للدولة كل من ثكنة المضاد وملعب الغولف، أما باقي اجزاء المنطقة فإنها مخصصة للبناء شرط أن ترتب وتستثمر من قبل شركة عقارية. أو بواسطة الضم والفرز، وذلك على ضوء مخطط حجمي تضعه المديرية العامة للتنظيم المدني.

إن هذا يعني، فيما لو طبق حينها إنه كان بإمكان منطقة مشروع «اليسار» أن تستوعب نحو ٢٤٠-٢٥٠ ألف نسمة على الأكثر، موزعين على مناطق مفرزة ومرتبة ومنظمة. إلا أن أعداداً مشابهة قد توزعت بطريقة عشوائية على المناطق التي سيعاد ترتيبها فيما توزع عدد مماثل آخر على المناطق التي استثنيت من عملية إعادة الترتيب.

عامل الاستثمار الأقصى ١,٤ ومعدل الاستثمار السطحي الأقصى ٤٠٪، بحيث يسمح بارتفاع قدره خمسة طوابق.

ومع أن هذا المخطط التوجيهي لم يطبق، فإن الحركة التجارية الرئيسية تمحورت تلقائياً على خطوط المواصلات، أما التجارة القائمة على التوزيع الخفيف للأغذية فإننا نراها منتشرة داخل الأحياء. وتبدو حركة التجارة كثيفة على الأوتوستراد الساحلي من الأوزاعي حتى الجناح وكذلك على طريق الأوزاعي الرمل العالي.

- المنطقة ٥، تقع ضمن نطاق بلدية بيروت وتتبع احياء صبرا (أرض جلول)، معدل الاستثمار السطحي فيها ٥٠٪ والعام ٣,٥. وهي مخصصة للسكن والتجارة.

أما الصناعات الخفيفة، فهي موزعة أما على طول طرقات الأحياء الداخلية السهلة الوصول فضلاً عن جوانب الطرقات الرئيسية.

- المنطقة ٦، وهي منطقة المقابر والمعروفة بمقبرة الشهداء (الفرنسيين).

بالنسبة لقطاع الخدمات، فإنه يقتصر على وجود عدد من الدوائر الرسمية والمستشفيات والمراكز الصحية، إذ لا

- المنطقة ٧، وتشكل الامتداد الطبيعي لغرب أوتوستراد طريق المطار، مخصصة للسكن والتجارة أيضاً، معدل الاستثمار العام فيها ٠,٧٥.

وأخيراً هناك منطقة واسعة، قد

### ٣ - ٣ - ٢ - ١ - الأحياء والشكل المعماري للسكن

الأحياء الداخلية كسائر البناء في تلك المناطق لم تقم بفعل تخطيط أو تنظيم مدروس، ولذلك جاءت صورتها بالغالـب عبارة عن أزقة تضيق وتتسع وتتعرج وسط ازدحام المنازل وضيق المداخل والمسالك. ومنازل هذه الأحياء تمتاز بقربها من بعضها البعض وتكون أحياناً كثيرة متلاصقة تماماً، غير أن كل وحدة سكنية (المنزل الواحد) تمتاز باستقلاليتها عن الوحدة الأخرى، فالبيت الواحد له حدوده ومساحته المعروفة واستقلاليتها لجهة المصارف الصحية والتمديدات المائية والكهربائية وغيرها. على خلاف ما هي عليه الحال في الأبنية والعمارات التي تزداد فيه القواسم والخدمات المشتركة بين المساكن (المصعد، الكهرباء، الماء...).

### ٣ - ٣ - ٢ - مواصفات المساكن

يفيد المسح الخاص بتوزيع المساكن تبعاً لعدد الغرف (بالمئة)، وذلك حسب الجدول رقم: (٤٠) والرسم البياني رقم: (٢٣) التاليين:

جدول رقم: ٢ - عدد الغرف في مساكن منطقة «أليسار»

وجود لخدمات سياحية بالمعنى الواسع للسياحة، ولا خدمات اجتماعية، وقد نستطيع أن ندرج في قطاع الخدمات المطاعم التي تقدم المعجنات، وهي منتشرة على طول الطريق الساحلي في منطقة الأوزاعي والجناح، إنما تبقى هذه الخدمات ذات مستوى متدن، وهي موجهة للعابرين، وليست مقصودة من خارج المنطقة.

### ٣ - ٣ - ٢ - مواصفات السكن

ترمي عملية إعادة الإسكان إلى إنشاء ١٠١٢٠ مسكناً، بما يتسع لحوالي ٥٨ ألف نسمة<sup>(١)</sup>، مع متوسط حجم الأسرة يساوي ٥,٧، أي ما يقارب ٥٤,٤٪ من مجموع الناس المعنيين (اللبنانيين) الموجودين في منطقة المشروع (يقدر عدد السكان الإجمالي بنحو ١٣٠ ألف نسمة، ستطال عملية إعادة الترتيب اللبنانيين منهم فقط (٨٢٪)، لكن لن تكون لكل الباقي مساكن داخل منطقة مشروع «أليسار» إذ أن قسماً منهم سيتم إخلاؤه بهدف إقامة الأوتوسترادات، والذين يعيشون في مساكنهم التي بنوها بأنفسهم على مراحل من الإسمنت وحجر الباطون غير المكسو وغير المدهون أحياناً.

(١) دراسة الجدوى الاقتصادية لمشروع «أليسار»، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، تقرير غير منشور، آب ١٩٩٧، ص ٣٣.

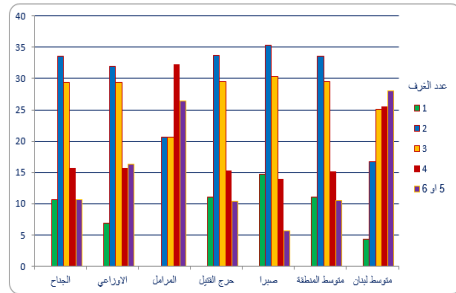
المنطقة عدد الغرف	الجناح(*)	حـرش القتيل(*)	صبرا(*)	الاوزاعي	المرامل	متوسط الغبيري	متوسط المنطقة	متوسط لبنان
١	١٠,٦٨	١١,١	١٤,٧	٦,٨٨	٠	١٢,١٦	١١,١	٤,٢٥
٢	٣٣,٥٣	٣٣,٦٨	٣٥,٣٦	٣١,٩٣	٢٠,٥٩	٣٤,١٩	٣٣,٦١	١٦,٧٦
٣	٢٩,٣٨	٢٩,٥١	٣٠,٣٣	٢٩,٣٨	٢٠,٥٩	٢٩,٧٤	٢٩,٥٨	٢٥,١
٤	١٥,٧٣	١٥,٢٨	١٣,٩١	١٥,٦٨	٣٢,٣٥	١٤,٩٧	١٥,٢٣	٢٥,٦
٥ أو ٦	١٠,٦٨	١٠,٤٢	٥,٧	١٦,٢٥	٢٦,٤٧	٨,٩٣	١٠,٤٨	٢٨,١

تقارب الـ ٦٠٪. وهذا قد يعود إلى حداثة الاستيطان في هذا الحي الذي ظل محميًا حتى أواخر الثمانينات.

### كثافة السكن داخل المسكن

يبلغ متوسط عدد الأفراد المقيمين في الغرفة الواحدة حوالي الشخصين، ويصل في بعض الأحيان إلى ثلاثة، وهي نسبة تعتبر عالية بالمقاييس الاجتماعية.

رسم بياني رقم: ٢٣ - توزيع مساكن منطقة «أليسار» حسب عدد الغرف



الجدول الاحصائية لمسح المعطيات الاحصائية للسكان والمساكن ١٩٩٤ - ١٩٩٦ - وزارة الشؤون الاجتماعية بالتعاون مع صندوق الأمم المتحدة للسكان (جدول رقم ٣-٣، ص ٧٣) / دار الهندسة - تنظيم أوضاع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت - ٢٠٠٤. ص: ١٧.

الجدول الاحصائية لمسح المعطيات الاحصائية للسكان والمساكن ١٩٩٤-١٩٩٦- وزارة الشؤون الاجتماعية بالتعاون مع صندوق الأمم المتحدة للسكان (جدول رقم ٣-٣، ص ٧٣) / دار الهندسة - تنظيم أوضاع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت - ٢٠٠٤. ص: ١٧. (\*) مناطق تقع ضمن حدود بلدية الغبيري.

بأن ثلثي المساكن على مستوى المنطقة كلها مؤلف من غرفتين أو ثلاث غرف، أما الباقي فهو موزع بالتساوي تقريبًا على مساكن مؤلفة من غرفة واحدة أو أكثر من ثلاث غرف. ما يعني أن العائلات الكبيرة تسكن في عدد محدد من الغرف، وذلك مقارنة مع المتوسط الموجود في لبنان، والذي يشير إلى أن نصف المساكن مؤلفة من ثلاث وأربع غرف.

على صعيد كل حي بمفرده، نجد أن متوسط عدد الغرف في المسكن يظل يقترب المتوسط العام في الأحياء ما عدا في المرامل، حيث نجد نسبة المساكن المؤلفة من غرفتين وثلاث غرف تقارب الـ ٤٠٪، بينما تلك المؤلفة من أكثر من ثلاث غرف

Executive Summary, Dar Al Handassah, Beirut, Feb 1996.

### ٣ - ٣ - ٣ - البنية الاقتصادية

إن ما يميز النشاط الاقتصادي لمنطقة مشروع «اليسار» الراهن، هو توجهه إلى زبائن الطبقة الوسطى وما دون: فمتاجر المفروشات في الأوزاعي مقصودة بسبب أسعارها المتدنية نسبياً من خارج المنطقة، إذ أن الإنشاءات غير الشرعية وفرت على مؤسسات المنطقة عبء الكلفة العقارية مما سمح للتاجر بالبيع بأسعار منافسة، إلا أن عدم شرعية الإنشاءات كان له تأثير سلبي على استقطاب الشركات الكبيرة، مما حرم المنطقة من هذه الشركات رغم أهمية الموقع المغربي في الحالات العادية.

أما التأثير الخاص للموقع، فقد كان في تركيز المتاجر والصناعات الخفيفة على مدخل بيروت الجنوبي، البعض منها يعني المارة عبر هذا المدخل والبعض الآخر قصده الزبائن من مناطق مختلفة.

بشكل عام هناك عنصران حيويان استفادت منهما الحركة الاقتصادية الحالية في منطقة مشروع «اليسار»: الموقع على المدخل الجنوبي لبيروت، والأسعار المنافسة في مجال التجارة والصناعات الخفيفة.

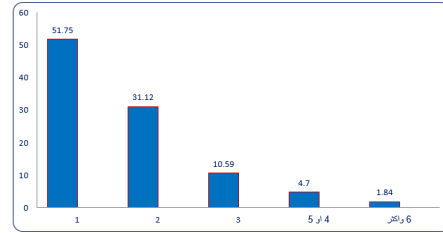
### عدد الطوابق وعدد المساكن في المبنى

يغلب على منطقة المشروع الانتشار الأفقي للمساكن، إذ أن نسبة ٨٢,٨٧٪ منها لا يتجاوز ارتفاعها طابقين (العدد الإجمالي للأبنية يصل إلى ٧٢٠٨ بناءً تضم ١٩٤١١ وحدة سكنية<sup>(١)</sup>)، وذلك كما يظهر في الجدول رقم: (٤١) والرسم البياني رقم: (٢٤) التاليين:

جدول رقم: ٣ - متوسط عدد الطوابق في منطقة «اليسار»

عدد الطوابق	١	٢	٣	٤ أو ٥	٦ وأكثر
النسبة٪	٥١,٧٥	٣١,١٢	١٠,٥٩	٤,٧	١,٨٤

Source: Planning and Development of Beirut South-Western Suburbs, survey report, Executive Summary, Dar AlHandassah, Beirut, Feb 1996.



رسم بياني رقم: ١ - متوسط عدد الطوابق في منطقة «اليسار».

Source: Planning and Development of Beirut South-Western Suburbs, survey report, Ex-

(١) Planning and Development of Beirut South-Western Suburbs, survey report, Executive Summary, Dar Al Handassah, Beirut, Feb 1996, P:8.

## ٣ - ٣ - ١ - أنواع النشاطات الاقتصادية

يمكن تقسيم هذه النشاطات إلى ثلاثة أقسام تقليدية: تجارة، صناعة، وخدمات.

### أ - التجارة

إن أكثر من ٧٠٪ من النشاط التجاري يقوم على الأنواع التالية: تجارة المواد الغذائية، الحلويات، الأفران، الأدوات المنزلية، المفروشات، مفروشات الأطفال، و مواد البناء وقطع السيارات. أما باقي النشاطات التجارية فموزعة على الشكل التالي: تجارة عامة، ألبسة وأحذية، سجاد وموكيت، برادي وديكور، وتجهيزات مكتبية.

الأنواع الثلاثة الأولى (تجارة المواد الغذائية، والحلويات والأفران) تتعلق بشكل رئيسي بحركة السير على طريق الأوزاعي، وهي تشكل ربع الحركة التجارية تقريباً. أما تجارة الأدوات المنزلية، المفروشات، مفروشات الأطفال و مواد البناء، فإنها قد اكتسبت هوية خاصة بها على مر السنين وزبائنها يقصدونها من الضاحية الجنوبية وبيروت.

تجدر الإشارة إلى أن تجارة المفروشات أصبحت ذات شهرة على الصعيد الوطني، وبعض الناس يقصدون معارض الأوزاعي

من البقاع والجنوب، وقد شهد عددها تطوراً مستمراً، إذ ارتفع من حوالي الاربعين مؤسسة سنة ١٩٨٢، إلى ما يفوق الستين عام ٢٠٠٥<sup>(١)</sup>. ومقارنة مع بيروت المدينة، يعتبر مستوى البضاعة المعروضة من المستوى الوسط وما دون، وهذا الأمر ينطبق على تجارة الأدوات المنزلية أيضاً.

أما بالنسبة لتجارة مواد البناء، فإنها قد استقرت في هذه المنطقة لتوفر المساحات الكبيرة نسبياً التي يحتاجها هذا النوع من التجارة.

### ب - الصناعة

في هذا النوع نجد صناعة القازانات، أشغال حديدية، ألمنيوم، زجاج، ألبسة، أحذية، أدوات كهربائية، تدفئة وتبريد، تجهيز مطاعم وفنادق، لوازم قطع كهربائية، خدمات صناعية، مشتقات بترولية ومحطات بنزين، محلات تصليح السيارات، دواليب، ونيون آرمات.

أما باقي النشاطات، فإنها تخدم منطقة واسعة من بيروت، وضاحيتها الجنوبية، لا سيما صناعة الألبسة والأحذية وقطع غيار السيارات وصناعات الألمنيوم وتجهيزات المطاعم والفنادق.

### ج - الخدمات

منطقة مشروع «أليسار» فقيرة جداً

(١) Clerc - Huybrechts, Valérie - Les quartiers irréguliers de Beyrouth, IFPO, Beyrouth, 2008.p. 124.

### ٣ - ٣ - ٢ - أهمية النشاطات الاقتصادية

يقدر العدد الإجمالي للمنشآت الاقتصادية التي ستطالها عملية إعادة الترتيب في «أليسار» بنحو ٣٦١٠ وحدات تتوزع بين تجارة وخدمات وصناعات خفيفة ومحترفات وبنسبة ٥١,٤٪ (١٨٥٦) للأولى و٤٨,٦٪ (١٧٥٤ وحدة) للثانية<sup>(١)</sup>. يذكر أن العدد الكلي للمنشآت في منطقة «أليسار» يقدر بنحو ٤٧٤٩ منشأة بين محلات تجارية (١٩١٠) ومحترفات (٢٤٠٨) وخدمات (٤٣١)<sup>(٢)</sup>.

وفيما يلي يظهر الرسم البياني رقم: ٢٥ توزيع النشاطات الاقتصادية في منطقة مشروع «أليسار» حسب عدد المؤسسات فيها:

تستوعب التجارة حوالي الـ ٤٠٪ من اليد العاملة من أبناء المنطقة، وتستوعب الصناعات الخفيفة والمخازن والمعارض نحو ٢٢٪ ليبقى في الإدارات الحكومية ٩٪ وفي البناء ٦٪، والنسبة المتبقية في نشاطات أخرى غير محددة.

بالخدمات، إذ يوجد فرع بنك واحد. كذلك قليلة جداً هي شركات السفر ومكاتب المحامين وغيرها. أما بالنسبة لمحلات تصليح الدواليب ومحطات الوقود، فإن وجودها ونوع الخدمات التي تقدمها على علاقة بحركة المرور المرتبطة بالمدخل الجنوبي تحديداً.

وعلى طول الشاطئ الذي يصل إلى نحو ٥,٢ كلم تتمركز بعض المؤسسات مثل «السمرلاند» و«الكورال بيتش» و«الكوت دازور» على مساحة تقدر بنحو ١٠,٥٪ من مساحته الاجمالية.

صورة رقم: ٣ - منتجع السمرلاند في الجناح



المصدر: الباحث عام ٢٠١٤.

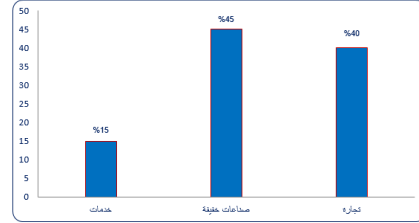
### د - متفرقات

نجد في هذا النوع بعض التجارات أو الصناعات القليلة التي لا تتفق والتصنيف السابق، ومنها: مكاتب، عطورات، مجوهرات، هدايا وأزهار.

(١) دراسة الجدوى الاقتصادية لمشروع «أليسار» - مصدر سابق، ص: ١٠٠.

(٢) تنظيم أوضاع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت، مصدر سابق، ص: ١١.

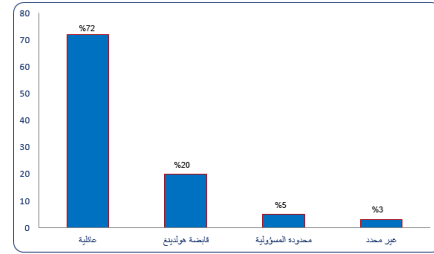
رسم بياني رقم: ٢ - توزيع النشاطات الاقتصادية في منطقة «أليسار»



المصدر: دار الهندسة - تنظيم أوضاع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت - ٢٠٠٤. ص: ٢٨.

على صعيد ملكية المؤسسات، نجد إن الطابع الفردي - العائلي يغلب على الجزء الأكبر، منها (٧٢٪) يعمل فيها الأب وبقية أفراد أسرته، وهو ما يتضح من خلال الرسم البياني التالي رقم: ٢٦.

رسم بياني رقم: ٣ - ملكية المؤسسات في منطقة «أليسار».



المصدر: دار الهندسة - تنظيم أوضاع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت - ٢٠٠٤. ص: ٣٠.

وبحسب مسح دار الهندسة فإن ٨٢٪ من هذه المؤسسات لا تملك فروعاً خارج

المنطقة. كما أن ٦٩٪ من أصحاب هذه المنشآت يقيم داخل المنطقة وأن ٥٤,٣٪ من موظفيها وعمالها هم من أبناء المنطقة<sup>(١)</sup>. أما دخلها الشهري فإنه يتعدى الألف دولار أميركي في ٣٦٪ من إجمالي المؤسسات، بينما يتخطى العشرة آلاف دولار في ١٣٪ منها.

٣٥٪ من هذه المؤسسات قائمة على عمل أصحابها، إذ لا عمال لديها، ٥٠,٥٪ يتراوح عدد عمالها بين واحد وخمسة يفيد المسح الصناعي للمؤسسات الصغيرة التي قامت به وزارة الصناعة والنفط إن ٦٨٪ من هذه المؤسسات تستخدم أقل من ٥ اجراء، وحوالي ١٥٪ تستخدم ما بين ٥-٩ عمال، و١٧٪ تستوعب بين ١٠-٥ عمال، أما المؤسسات الباقية (٥٪) فتستخدم أكثر من عشرة عمال<sup>(٢)</sup>.

وهذا الواقع يشير في الحقيقة إلى مدى الضعف الذي تعاني منه هذه المؤسسات على المستوى المالي والقانوني والإداري، وبالتالي، الاجتماعي، إذ أن إزدهارها مرتبط إرتباطاً وثيقاً بصاحبها الذي ربما سيواجه تحديات كبيرة في الانتقال من بيئة اجتماعية إلى أخرى، وكذلك في الانتقال من شروط منافسة ملائمة تأقلم معها على

(١) تنظيم أوضاع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت، مصدر سابق، ص: ٢١.

(٢) نتائج المرحلة الثانية من المسح الصناعي، السفير ١٩٩٥/١٢/٢٢.

مدى سنوات عديدة إلى محيط إقتصادي مختلف كلياً.

٣ - ٤ - الوضع المستقبلي في إطار مخطط «أليسار».

٣ - ٤ - ١ - أهداف المشروع ودوافعه

إن إعادة ترتيب منطقة مشروع «أليسار» يأتي في إطار خطة شاملة من أهم أهدافها الأساسية المعلنة هي التالية<sup>(١)</sup>:

أ - تحسين شروط السكن من خلال الإزالة التدريجية للسكن غير الشرعي، وبناء منازل لذوي الدخل المحدود.

ب - دمج منطقة مشروع «أليسار» في مخطط بيروت الكبرى، عبر تحرير الشواطئ الرملية في الجناح وتخصيصها لنشاطات الترفيه والسياحة، وعبر توسيع وتحسين شبكة الطرق الرئيسية، وذلك بعد تحديد استعمالات الأرض المسموحة.

ج - تحسين الشروط البيئية من خلال تنفيذ مشاريع البنى التحتية.

د - استثمار أفضل للتنمية من خلال تغيير استخدامات الأراضي.

هـ - إيجاد إطار قابل للتطبيق قانونياً ومرحلياً ومالياً.

ولا يخفى أن هذه الأهداف فرضها

الواقع الجغرافي لمنطقة «أليسار» باعتبارها جزءاً متمماً وهاماً من بيروت الكبرى، نظراً لموقعها المميز، مما يجعلها على علاقة بمعظم مخططات الطرق الرئيسية ومشاريع التطوير الأخرى الجاري تنفيذها أو دراستها ضمن بيروت الكبرى، الأمر الذي يجعل المنطقة في ظل المخطط التوجيهي العام الجديد عرضة لتغييرات أساسية، سواء لناحية مستوى ونوعية النشاط الاقتصادي فيها، أو لجهة عدد السكان وتوزعهم الطبقي.

فبيروت الكبرى تشهد أو شهدت تنفيذ ودراسة عدد كبير من المشاريع والاستثمارات الضخمة، أبرزها ما يلي:

- المشاريع العقارية مثل مشروع «سوليدير» في الوسط التجاري، ومشروع «لينور» لساحل المتن الشمالي.

- أتوستراد خلدة - الكوكودي، الأوتوستراد الدائري، أتوستراد الأوزاعي - الانيسكو، الأتوستراد البحري، وصلة الحازمية - المطار، أتوستراد شاتيلا - الكفاءات - الشويفات، أتوستراد الحدث - طريق المطار، الأتوستراد العربي، طريق الحدث - حي السلم - الكوكودي.

- مشروع تطوير مرافق النقل البحري

(١) دراسة الجدوى الاقتصادية لمشروع «أليسار» - مصدر سابق، ص: ١٦.



والجوي (مرفأ ومطار بيروت والمنطقة والسوق الحرة فيه).

- مشاريع المراكز التجارية قرب المدينة الرياضية، في شارع عدنان الحكيم ومركز بيروت التجاري.

- مشروع قصر المؤتمرات.

- مجمع المستشفى الحكومي.

- مجمع المعاهد التقنية في بئر حسن.

يذكر أن هذه المشروعات الاستثمارية تتزامن مع مشروعات عامة تطال في المستوى الأول الضواحي الجنوبية والشرقية، لرفع مستوى الخدمات عبر تطوير وتأهيل البنى التحتية من كهرباء وإتصالات ومجاري ومياه وطرق فرعية، وذلك من ضمن مشروع إعماري وضخم<sup>(١)</sup>.

من هنا يتضح الدور الحاسم لموقع منطقة «أليسار» الجغرافي في نجاح العديد من المشروعات المذكورة، ومن ناحية أخرى، فإن المضاعفات السلبية المحتملة التي قد تترتب من جراء بقاء الضواحي المحيطة بمدينة بيروت - ومنها منطقة «أليسار» - غارقة في مستنقعات البؤس والفوضى، في وقت تشهد فيه المدينة

تطوراً كمياً ونوعياً كبيراً فرض توسيع مظلة الإعمار لتطال البنى التحتية في تلك الضواحي. خاصة وأن بقاء أحزمة البؤس والفوضى على حالها يمكن أن يشكل تهديداً ضمنياً، ليس على الاستثمارات فحسب وإنما على مسار تطور المدينة برمتها.

### ٣ - ٤ - ٢ - التحولات الاقتصادية

#### والسكنية المرتقبة

يركز مشروع «أليسار» على الدور الطبيعي لمنطقة الضاحية الجنوبية الغربية من حيث مميزات موقعها. إنه دور التجارة والخدمات: «فعلى مشارف بيروت وعند المدخل الجنوبي للعاصمة وعلى الطريق الرئيسي نحو وسط بيروت التجاري، لا يملك مشروع «أليسار» إلا أن يكون إنعكاساً لمشروع «سوليدير»، إلا أن الظروف المحيطة بمشروع «أليسار» فرضت عليه ضغوطاً مختلفة وأملت عليه شروط تخطيط ميزته عن «سوليدير» بطريقة تعاطيه مع الواقع الحالي»<sup>(٢)</sup>.

### ٣ - ٤ - ٢ - ١ - الوظائف

الوظائف المسموح بها هي: سكن، تجارة، خدمات، صناعات خفيفة، ومراكز رياضية.

(١) دراسة مجلس الأنماء والأعمار المقدمة إلى مؤتمر «إعادة إعمار لبنان والتحول الإقليمي المرتقبة»، نشرته صحيفة النهار، بتاريخ: ١٦/١٠/١٩٩٤.

(٢) «أليسار»: الواقع والتحول، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، تشرين الثاني ١٩٩٨، ص: ٧٦.

جدول رقم: ٤ - الوظائف والمساحات المخصصة لها في «أليسار»

النسبة/ %	المساحة (هكتار)	الإستعمال
٣١,٦	١٨٥,١	سكن خاص حالي مستثنى
١٠,٧	٦١,٧	سكن خاص مخطط (ذوي الدخل المحدود)
١,٩	١١,١	تجاري ومسكن مفتوح على المدينة
١,٣	٧,٦	مراكز تجارية / أسواق تجارية
٣,٥	٢٢	مؤسسات كبرى
١,٧	٩,٦	صناعات خفيفة/ محترفات
٤,٧	٢٧,٨	لتطوير أستعمالات مختلفة
٩,٤	٥٤,٩	منشآت رياضية كبرى
٢,٨	١٦,٥	فسحات خضراء مفتوحة / ٤ مقابر
٢,٤	٢٥	تطوير الشاطئ + الردم
٢,٤	١٤	مساحات للمناطق البحرية
٢٥,٧	١٥٠,٧	مواصلات (طرق + طرق مشاة)
١٠٠	٥٨٦	المجموع

ثلاثة تتجه من الجنوب إلى الشمال تتمثل في أتوسترادات: الكوكودي، طريق المطار، والطريق الساحلي. بحيث أن كل محور يتميز بنوع النشاطات مستقل ومختلف عن الآخر، هذا الفصل في استقطاب النشاطات يؤمن سهولة المواصلات، إضافة إلى طريق رئيسي آخر سيقام فوق الردم غرب الطريق الساحلي بهدف إنشاء مناطق تجارة وترفيه جديدة ومستحدثة، بحيث يخدم المجمعات التجارية والسكنية والسياحية، ويؤمن التنقل السريع بين المناطق والوسط التجاري مروراً بساحل بيروت.

طريق الكوكودي - الكولا سيكون المدخل السريع إلى وسط بيروت ويخدم في نفس الوقت المدينة الرياضية والمجمعات التجارية لقربها منها.

أما طريق المطار، فسيكون منطقة تجمع المكاتب، فقد صُنّف محيطه بـ «سكن ومكاتب».

أما طريق الأوزاعي نفسه فسيتم تعزيزه وتوسيعه لعرض ٦٠ متراً ليستوعب قسماً مهماً من حركة السير القادمة من الجنوب، وبوضعه المستقبلي سيصبح واحداً من أهم الشرايين الرئيسية التي تشكل مدخلاً إضافياً للعاصمة، خاصة أنه يتصل عند نهايته بأتوستراد مدخل الجناح - الاونيسكو<sup>(١)</sup>.

المصدر: مؤسسة أليسار - دراسة الجدوى الاقتصادية، المركز الإستشاري للدراسات والتوثيق، ١٩٩٦.

### ٣ - ٤ - ٢ - ٢ - خطوط المواصلات الرئيسية والتوزيع الجغرافي للوظائف

بخلاف وظيفة السكن التي تمتد على منطقة مشروع «أليسار»، فإن بقية النشاطات توزعت على محاور استقطاب

(١) المخطط التوجيهي لمنطقة «أليسار» - مجلس الإنماء والأعمار، ١٩٩٤.

### ٣ - ٤ - ٢ - ٣ - الموصفات السكنية

المقصود بالسكن هو مساكن ذوي الدخل المحدود التي أخذت مؤسسة «أليسار» على عاتقها تأمينها بدلاً من المساكن التي سوف تهدم. والقاعدة الأساسية المعلنة هي تقديم سكن جديد بنفس مساحة السكن القديم مع احترام مساحة دنيا للسكن الجديد تساوي ٩٠ م<sup>٢</sup> تقريباً.

الكثافة الفعلية في مناطق مجتمعات سكن ذوي الدخل المحدود ستقارب الـ ٩٤٥ فرد/هكتار، وهي كثافة عالية جداً وأعلى بكثير مما هو موجود حالياً (٦٠٨ أفراد/هكتار). وعليه، يمكن تصور ما ستكون عليه المنطقة بمقارنة الكثافة عام ١٩٩١ في كل من الغبيري (٧٢٥/هكتار)، والرمل الشمالي (٧٩٠ فرد/هكتار)، وحي الحسينية في منطقة «حي السلم» (١٢٠٠ فرد/هكتار)<sup>(١)</sup>.

### ٣ - ٥ - ملاحظات على المشروع

إن مشروعاً بهذا الحجم يستدعي كمّاً هائلاً من الملاحظات وي طرح أسئلة كبيرة

واستفسارات برسم السياسة الإعمارية في لبنان، ويثير مخاوف جدية على الصعيد المختلفة:

### ٣ - ٥ - ١ - على الصعيد العمراني - المدني

يتخذ هذا الموضوع أهميته من حيث أنه يعني إعادة إسكان أشخاص من طبقات اجتماعية متدنية ووسطى وحشرهم في مجتمعات سكنية بأعلى كثافة ممكنة حتى يتسنى إستغلال المساحات الباقية بما ينسجم ومستوى الخدمات المطلوبة<sup>(٢)</sup>.

فمن الناحية الإنسانية، يجب في دراسة الحلول المعمارية البديلة للمساكن وإعادة الإعتبار لهذه الفئة المهملة من السكان من حيث إعادة التخطيط لتلبية حاجاتها المتنوعة كي تتأقلم بالتدرج مع حداثة المجتمع المدني وتشكل نسيجاً اجتماعياً وإقتصادياً مستقرّاً.

### ٣ - ٥ - ٢ - على الصعيد الاقتصادي

إن تنفيذ مشروع «أليسار» سيجعل المنطقة تشهد دورة اقتصادية جديدة ونشطة في المجال العقاري والسياحي

(١) المسح الميداني للضاحية الجنوبية، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، إعداد فرع بنك المعلومات، دراسة غير منشورة، ١٩٩١.

(٢) الإقتصاد اللبناني، ملخص إحصائي، تجمع رجال الأعمال اللبنانيين، مديرية الإحصاء المركزي، بيروت ٢٠٠٣، ص: ١٨.

مناطق أخرى مناسبة عوضاً عن المخاطرة بتكديس كل الأنشطة في مجتمعات تجارية قد لا تلاقي النجاح المطلوب؟

### ٣ - ٥ - ٣ - على صعيد الوضع الاجتماعي

بين الماضي والمستقبل تغيير جذري قد يصيب النسيج الاجتماعي، إنه تغيير لا بد منه يفرض دراسة المرحلة الانتقالية بدقة، لأن نجاحها شرط من شروط نجاح المشروع.

إن الآثار الاجتماعية المرتقبة بعد تنفيذ المشروع، يتعلق بشكل أساسي على مستوى العلاقات التي ستتأتى من حشر السكان في مجتمعات ضخمة كتلك التي تمثلها المجمعات المخططة، حيث تختلف ظروف العلاقة القائمة عن تلك المنتظرة. هل كان فعلاً من الضروري حشر السكان في مجتمعات ضخمة مستقلة وهل فعلاً من الضروري تقليص المساحة المخصصة للسكان إلى أقصى حد لتحقيق الجدوى الاقتصادية من المشروع؟

وللتخفيف من آثار التغيير الاجتماعي يمكن التعويض عن بعض العادات بأخرى تشبهها وظيفياً بالإمكان تأمينها في الإطار الجديد لمشروع «أليسار»، فقد يكون من الواجب درس ترتيب المساحات الخضراء،

والبناء والمواصلات، فيما تبقى دورة النشاطات الاقتصادية الحالية تسير بشكل متناقل بالمقارنة مع النشاطات الأولى. وبالتالي، عيش مواطني المنطقة والجوار على هامش الدورة الاقتصادية فيها، يطرح مخاوف جدية من مخاطر هذا الواقع على الإستقرار الاجتماعي والاقتصادي في المنطقة. فهل فعلاً سيكون هناك إقتصادان متجاوران لكنهما غير متقاطعين، الأول: إقتصاد محلي تتسم مؤسساته بصغر الحجم وهو غير قادر على النمو والتوسع، بفعل المساحات المحدودة، وبفعل عدم قدرته على تحمل تكاليف الاستثمارات الجديدة، والثاني: الإقتصاد كبير الحجم الذي ينتمي وظيفياً إلى اقتصاد بيروت المرتكز على الوسط التجاري فيه، وعلى مركزة الأموال والاستثمارات في اتجاه واحد هو قطاع الخدمات على حساب بقية النشاطات الاقتصادية<sup>(١)</sup>.

في ظل هذه الأجواء الاقتصادية هل سينجح مشروع تجميع المتاجر أم أنه سيلاقي نفس المصير الذي لاقته من قبل مجتمعات أسواق الروشة التجارية في بئر حسن؟ أم هل من الأفضل لأصحاب هذه المتاجر أن يتقاضوا بدلاً مادياً عن مؤسساتهم الحالية يمكنهم من إيجاد

(١) «أليسار»: الواقع والتحويلات - مصدر سابق، ص: ٩٤.

فإن لها أهمية توازي أهمية السكن من الناحية الاجتماعية، إنما يبدو أن المساحات الخضراء والأماكن العامة ليست كافية كما يجب.

إن مشروعاً بهذا الحجم يطال هذا العدد الكبير من السكان والمؤسسات لا بد له لتأمين عوامل نجاحه واستقراره على المدى البعيد من توفير دراسات وحلول أعمق وأشمل في مختلف المجالات العمرانية والاقتصادية، وخاصة الاجتماعية.

## المراجع والمصادر

- المسح الميداني للضاحية الجنوبية، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، إعداد فرع بنك المعلومات، دراسة غير منشورة، ١٩٩١.
- الإقتصاد اللبناني، ملخص إحصائي، تجمع رجال الأعمال اللبنانيين، مديرية الإحصاء المركزي، بيروت ٢٠٠٣، ص: ١٨.
- «اليسار»: الواقع والتحديات، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، تشرين الثاني ١٩٩٨.
- المخطط التوجيهي لمنطقة «اليسار» - مجلس الإنماء والأعمار، ١٩٩٤.
- تنظيم أوضاع الضاحية الجنوبية الغربية لبيروت، دراسة دار الهندسة، ٢٠٠٤.
- «قانون وأنظمة البناء في لبنان»، التصميم التوجيهي العام لضواحي بيروت (جمع وتنسيق جورج سماحة وشراف النقيب الياس النمار)، نقابة المهندسين في لبنان، ١٩٩٥.
- دراسة مجلس الأنماء والأعمار المقدمة إلى مؤتمر «إعادة إعمار لبنان والتحديات الإقليمية المرتقبة»، نشرته صحيفة النهار، بتاريخ: ١٦/١٠/١٩٩٤.
- دراسة الجدوى الاقتصادية لمشروع «اليسار»، المركز الاستشاري للدراسات والتوثيق، تقرير غير منشور، آب ١٩٩٧.
- نتائج المرحلة الثانية من المسح الصناعي، السفير ١٩٩٥/١٢/٢٢.
- تقرير غير منشور أعدته شركة «اليسار» عام ٢٠٠٥.
- Planning and Development of Beirut South-Western Suburbs, survey report, Executive Sunnary, Dar Al Handassah, Beirut, Feb 1996, P:8.
- Clerc-Huybrechts, Valérie - Les quartiers irréguliers de Beyrouth, IFPO, Beyrouth, 2008.

## الظاهرة الدينية بين نار الحرب وجنة السلام أجوبة صادمة على أسئلة ممنوعة

حسن خليل غريب

على جوع. وإذا كانت تضمن مصلحة الأقوى، الذي كان ينتصر فيها الإنسان على أخيه، لكنها كانت مغمّسة بدماء البشر الأضعف، ومتوّجة بنهب أملاكهم واستعباد أفرادهم؛ وفي هذه المعادلة ما فيها من تناقض مع قيمة إنسانية خلقها الله بنفوس البشر أنهم كلهم سواسية، لأنهم كلهم من خلق وتكوين خالق واحد. لهم جميعاً الحق بالعيش بسعادة وكرامة وحرية.

نتيجة استمرار الصراعات البشرية، حتى تلك التي واجه فيها الإنسان البدائي عوامل الطبيعة الأشد قوة منه، فتعبّد لها، وخشي من سطوتها، فابتكر طقوس عبادتها كسباً لمرضاتها لعلّها تحميه مما لا طاقة له بمواجهته، أدّت تلك النتيجة بالإنسان منذ فجر التاريخ إلى التفتيش عما يحميه، وما يجلب له السعادة في حياته؛ ولما تعب من الانتظار بالحصول على سلامه الذاتي في المرحلة التي يحيها قبل أن يموت، راح

أولاً: الصراعات الدينية: تأصيل تاريخي

مقدمة

طالما عرف تاريخ البشرية المعروف، منذ خلق التكوين الأول حتى هذه المرحلة، مآسي صراعات البشر التي لم تهدأ لحظة من اللحظات التاريخية. تلك الصراعات التي أصبحت كأنها القدر المحتوم الذي رافق الإنسان، منذ مرحلته البدائية الأكثر تعاسة بتخلّفها حتى مرحلته الراهنة المتقدمة في علومها. ومع ذلك، فلن نستطيع أن نقول إن هناك وجهاً بدائياً للحروب كان يستخدم فيها البشر العصا أو المقلاع، ووجهاً متقدماً ومتطوراً يستخدم فيها البشر اليوم أعلى درجات الأسلحة المتقدمة، لأن الحروب ليست بأدواتها بل بمقاصدها ونتائجها. وهذا الاستنتاج ظاهر ومؤكّد بأن الحروب لم تُصَبَّ في يوم من الأيام في مصلحة الإنسان بل كانت وما زالت تزيد تعاسة على تعاسة، وألماً على ألم، وجوعاً

يفتّش عما يضمن سلامه بعد الموت. وهكذا وبالتفتيش عن عامل السلام غير المنظور كانت ظاهرة التدين مترافقة مع الإنسان منذ بداية التكوين، وهكذا خلق كل إنسان إلهًا غير منظور راح يعبده إرضاءً له لكي يوفّر له عوامل السعادة أثناء حياته وبعد مماته. كان هذا يتم في مرحلة كان يقوم الإنسان بتشكيل إلهه من حجر أو طين، أو يقوم بتنزيهه عن التشكيل.

## ١ - الصراعات الدينية مظهر لصراعات الآلهة:

وراحت الظاهرة الدينية تشهد تطورات لافتة من جيل إلى جيل ومن قرن إلى قرن، ومن مكان إلى مكان؛ وكان البشر جميعهم ينشدون من تعلقهم بتلك الظاهرة السلام الدنيوي والسلام الأخروي. كانت هكذا وما تزال هكذا، ينتشر التدين ويعم، والمآسي والآلام تستمر أيضًا جنبًا إلى جنب الحروب المتواصلة. وإذا كانت أهداف الحروب بشكل عام، في كل الأمكنة والأزمنة، الحصول على الموارد المادية؛ فإنها تطوّرت إلى مستوى الاقتتال باسم الآلهة، وباسم الأديان والفرق المتشعبة عنها، وخيضت تحت مزاعم التكليف الإلهي بالقتال لنصرة هذا الإله أو ذاك. ووصلت في معظم الأحيان إلى استغلال ظاهرة صراعات الآلهة وتوظيفها من أجل النهب الاقتصادي بالاستيلاء على ثروات الشعوب واستعباد أبنائها.

ولما كانت الصراعات ظاهرة من ظواهر التسابق على لقمة العيش والحياة المادية المريحة، فقد انتقلت إلى صراعات حول طريق الخلاص في الآخرة، وهذا ما أغرق الذين اعتنقوا الأديان السماوية في حروب لم تعرف لها نهاية، وأغرقت البشرية بما يسمى الصراعات بين الآلهة. وكانت الصراعات بين الآلهة الأكثر دموية في تاريخ البشرية. ولأن منطقتنا العربية كانت مهبطًا للأديان السماوية، ولأن الصراعات بين الآلهة كانت الأكثر ظهورًا في هذه المنطقة كان ما سنكتب عنه في هذا العمل محصورًا فيها وعنها. وأما دافعنا فكان في محاولة الإجابة على تساؤل قد يكون ممنوعًا عند المتفقيهيين بالدين: هل كانت الأديان السماوية على هذه المنطقة نعمة أم كانت نقمة؟ وهل هي طريق للحروب، أم هي طريق للسلام؟

ومن أجل الحصول على إجابة تشفي غليل العقل الذي كان هبة الخالق للمخلوق، ربما تكون تلك الإجابة صادمة على مقدار ما يكون عليه السؤال ممنوعًا.

## ٢ - قراءة في أسس معرفة الروح عند الإنسان البدائي:

مما ينقله التاريخ لنا، أن الإنسان منذ التكوين الأول المعروف عاش في العصر الحجري، حيث كان عديد البشر قليلًا، والرزق بما تعنيه الموارد الطبيعية كثير.

ما يوفّر له من حاجات، فابتكر التمايم التي تقيه من شرور قوى خفية اعتقد بوجودها؛ أو تقديم الصلوات والخضوع لقوى أخرى طلباً لرضاها. ولعلمه أن هناك من لا يستطيع لقوته صداً أو مقاومة، فقد أخذ ينظر بعين الإعجاب به أو الخوف منه، أو تقديم الشكر له لما يقيه من المخاطر، أو ما يوفر له ما يحتاجه في سبيل البقاء. فوجد تلك العوامل في ظواهر الطبيعة كالشمس والقمر والرياح، تلك التي تقيه مثلاً من الظلام بقوة النور. فوجد في الشمس مصدرًا للدفع في مقاومة الصقيع. ووجد في الرياح العاتية ما يهدد حياته، وفي قوة الصخور التي تقيه من عتو الرياح. وأكثرها تعقيداً في ما يصيبه من أذى أو خير مما يجهل مصدره، فقد عبّر عن خوفه منها أو ارتياحه إليها برموز وطوامم، إما أن يخزّ أمامها شاكرًا وإما خائفًا. وكانت الأشباح والأرواح الشريرة من تلك الرموز التي كان الإنسان يخشاها.

وكان من الأشد من بينها غموضًا تلك المتعلقة بالموت، مما لم يجد له مردًا، أو تفسيرًا، ولكنه على الرغم من كل ذلك، لم يفكر الإنسان البدائي يومًا ما بأن الإنسان يزول بزوال الجسد المنظور والمحسوس، بل على عفويته وبساطته آمن بأن هناك شيئًا خفيًا لا يموت بموت الجسد، ففكّر بخلّاص ذلك الشيء الخفي الذي ترك الجسد، واحتاط لحمايته من الشرور بعد

والعصر الحجري يعني أن الإنسان كان يعيش في حالة من التخلف المادي والمعرفي. وإذا كان هدفنا مركزًا على استقراء الحالة الروحية عند الإنسان في هكذا ظروف، فنحسب أن القراءة في تلك المرحلة بعين أنتربولوجية قد تقودنا إلى استنتاجات وتحديد رؤى في كيفية تكوين الأفكار الغيبية، أي تلك التي يفسّر بها القوى القاهرة التي تؤثر على حياته، أو تلك التي تحدد مصيره بعد الموت. ومعرفة المصير بعد الموت هي المشكلة الأكبر التي ما زالت تؤرقه حتى في عصر التكنولوجيا المتسع الآفاق.

لقد اختبر الإنسان البدائي بحسه العفوي أن الموت مصير كل المخلوقات ومنه مصير الإنسان. وقد تكون مشاهداته العيانية وخبرته الحياتية، هي العامل الأول الذي فجّر عنده الأسئلة عن مصير من ماتوا. وذلك بعد أن شاهد الإنسان البدائي أن أمه قد ماتت، وأن أباه قد مات، وأن أخاه أو أخته ممن كانوا في عائلته قد ماتوا. فتوقّف عند سؤاله نفسه: أين ذهبوا؟ وما هو مصيرهم؟

وفي موازاة ذلك، ولأن عوامل الطبيعة التي تفوق قوتها قوة الإنسان، بما لا يستطيع ردّ مخاطرها، أو صنع ما يوازئها بالقوة، أو القدرة؛ فقد توصل الإنسان إلى اكتشاف عامل يخاف منه، أو يشكره على



الموت. وعلى الرغم من أنه لم تكشف الأبحاث بعد عن المسمى الذي كان الإنسان يطلقه على ذلك الشيء الذي يغادر الجسد، وإنما كان يرمز إلى اعتقاده بوجود تلك القوة الخفية، بأنه كان يدفن بعض الحاجات المادية إلى جانب الجثة عندما يوارىها التراب، يقيناً منه أن الميت، أو الشيء الذي لم يموت، قد يحتاجها بعد مماته؛ بما في هذا السلوك من دلالة على وجود الاعتقاد بالحياة بعد الموت.

لا يُخَيَّل للقارئ أن يفهم من هذا أن المقدرة الفكرية عند الإنسان البدائي كانت متقدمة، بل إن المخيلة التي يمتلكها كانت بمستوى الغريزة، التي يمارسها من دون أن يعي مصدرها كغريزة الخوف مما يهدد السلامة، أو غريزة الجوع عندما تفرغ المعدة، وغريزة التناسل التي كانت تعني له اللذة الجسدية. وهذا شبيه بعلاقة الوالدين مع المولودات التي يُنجبانها من صبيان أو بنات.

وإذا عرفنا أن ظاهرة عطف الأم على أولادها هي غريزة فطرت المرأة عليها، هي ذاتها لم تتطور منذ عشرات الآلاف من السنين، فهذا العامل أيضاً كان هو ذاته عند الأم البدائية كما أصبح عليه عند الأم التي امتلكت أعلى درجات الرقي في العلوم. وكذلك ظاهرة التساؤل عن المصير بعد الموت الذي كان يؤرق الإنسان البدائي

ويدفعه إلى اعتقادات شتى، هي ذاتها الظاهرة التي ما زالت تؤرق الإنسان الذي بلغ درجات عالية جداً من الوعي والعمق الفكري، والذي لم يصل حتى الآن إلى أجوبة يقينية حاسمة؛ فالظاهرة هي ذاتها التي شغلت تفكير الإنسان في كل الأزمان وكل العصور. وهي التي لم يصل فيها الإنسان بعد إلى يقين كاف لتفسيراته وتأويلاته واعتقاداته. تلك الاستمرارية في هذه الظاهرة تدفعنا للتساؤل: هل لأنها ظاهرة شاملة كل الأزمنة والأمكنة يمكننا اعتبارها غريزة؟ وهل هي شبيهة كما هي علاقة الوالد بالمولود؟ وكما هي غريزة الجنس كعامل لاستمرار التوالد من أجل استمرار الحياة البشرية؟ وكما هي غريزة الجوع كعامل لإبقاء الجسد حياً؟

إن غريزة النسب إلى والدين عند الطفل البدائي، هي ذاتها عند الطفل في المرحلة المعاصرة. وهذا يدل على أنها غريزة تتساوى عند الإنسان منذ العصر البدائي الأول، على سذاجة أسس المعرفة التي كان يمتلكها، وصولاً إلى العصر الحديث، على عمق أسس المعرفة التي يمتلكها.

وكذلك هل الفضول البشري في معرفة مصير الإنسان بعد الموت، ولأنها ظاهرة عامة تتشكل في المستوى ذاته عند الإنسان في كل الأماكن وكل الأزمنة، هل هي غريزة تبعاً لعموميته ولاستمراريتها.

### ٣ - هل التمييز بين الجسد والروح مسألة غريزية؟

كل ما توصلت إليه الأبحاث هو أنها أكدت أن الإنسان، في مختلف عصور تطوره، ميّز بين مكونين للإنسان، وهما الروح والجسد، وإن اختلفت معرفته لهذا التمييز بين السطحية والعمق. وإذا كانت ملكة هذا التمييز ليست غريزة، بل هي أقرب منها إلى الغريزة، ويدل على ذلك هو أنها معرفة يشترك فيها كل البشر في كل العصور وفي كل الأمكنة.

ولهذا أصبح من المؤكد أن البشرية تتشارك بمسألتين غريزيتين، وهما:

- **العلاقة الغريزية القوية التي تشدُّ أواصر العلاقة بين ذوي النسب البيولوجي الواحد، بحيث يعبر عنها بنواة التماسك بين أفراد الأسرة الواحدة، وبغض النظر عن الاستثناءات لأنها تقع خارج القواعد الثابتة والتي لا يُبنى عليها حين الكلام على تأسيس المجتمع الإنساني.**

- **والتمييز بين الجسد والروح، التي تعبر عنها ظاهرة الموت، بحيث لم تخرج عن مفهوم أن الإنسان لا يفنى. ومن هذا الفصل ابتدأت إشكالية مصير الإنسان بعد الموت.**

وتحضرنا، هنا، قضية طالما أثارت انتباه الإنسان في كل الظروف والأزمان،

تتعلق بمعرفة ما هي القوى التي تتحكم بمسار حياة الإنسان في الدنيا، ومصيره بعد الموت.

### ٤ - استمرار الاعتقاد بالحياة بعد الموت ليست مسألة عبثية:

تدرّجت أسس تلك المعرفة بداية من التفتيش عن القوى الطبيعية القاهرة التي تتحكم بمسار حياة الإنسان قبل الموت. وصولاً إلى التفتيش عن معرفة القوى الخفية التي تتحكم بمصيره بعد الموت. فكانت في بداية الأمر تتشكل من العوامل التي يراها الإنسان ويلمسها بشكل مادي ظاهر، والتي عُرفت بـ (عبادة القوى الطبيعية) الفائقة القدرة على تهديد حياة الإنسان، أو توفير أسباب الحياة من شعب أو لذات على اختلاف مستوياتها؛ ووصلت إلى التفتيش عن العوامل الخفية التي تخيلها الإنسان منذ بداية تكوينه، والتي عبّر عنها بالأشباح بداية، وبالأرواح الشريرة تارة أخرى، ولاحقاً بالقوة الإلهية المتعارف عليها بين الأديان السماوية. كل هذا مروراً بما سطره الفلاسفة القدماء من تعليقات نظرية تمثّل التعبير عن وحدة الوجود، ووحدة الخالق، وعلاقة العلة الأولى بالمعلول. وبمثل هذا التطور، وباختلاف وجهات النظر في تفسيرها، كانت الإشكالية واحدة في كل الأزمان والأمكنة، وهذه الحقيقة تستدعي الوقوف عند استمرارها للتفكير والاهتمام بها.

وإذا كانت الشعوب والقبائل، بل حتى الأفراد، في لجوئهم لتفسير القوى الغامضة التي تفوق قدرتها قدرة الإنسان، قد توصلت إلى فكرة الطوطم، فإنما كان لكل قبيلة طوطم رمزاً. وقد أضفى الإنسان البدائي على رغبته، في الإيمان بطوطمه، قوة سحرية يمكن التحكم بمفعولها عن طريق عدد كبير من الممارسات الرمزية؛ ومنها السحر والشعوذة؛ وما إلى هناك من تفسيرات وتأويلات وتخيلات.

وعلى الرغم من تباين التصورات العقلية واختلافها، نجد أن ما بينها رابط واحد لا يمكن إنكاره، هو ملازمة هذه المشكلة لدى الإنسان على الرغم من كل المتغيرات المعرفية ومستوياتها في كل الأزمنة والعصور والأمكنة، وإن في استمراريتها وشموليتها، ما يسمح لنا باعتبارها، غريزة، أو ما يشبه الغريزة، التي تعبر عما يشبه اليقين؛ ومفادها أن من خلق غريزة الجوع والعطش والتناسل والعطف والحنان والتضحية والإيثار الأبوي أو الأموي، قد خلق أيضاً غريزة الفضول لمعرفة أسرار الحياة والموت. ولهذا، وعلى الرغم من لايقينية الاعتقاد بأن أسرار الموت والحياة لم تُخلق كغريزة، ملازمة للإنسان، لسبب عبثي؛ بل هو سر آخر يواكبه من أجل البرهان على أن خلق الإنسان ووجوده ليس عبثياً. ولأن البشر كل البشر تجمعهم وحدة

التساؤلات، ولن يتخلى الإنسان عنها مهما طال الزمن، فمن المسؤولية الإنسانية أن يتم تنظيم هذا الاعتقاد من أجل مصلحة الإنسان كفرد، ومصلحة الإنسانية وعلاقات البشر البينية.

### ثانياً: في نقد النص الديني

#### ١ - الاعتقاد بالأديان السماوية تحولت من نعمة إلى نقمة؟

إن مفهومنا للأديان السماوية التي كانت أرضنا العربية مهبطاً لها، الموسوية والمسيحية والمحمدية، يتحدد بأنها ارتقت بمفهومها للإله من التشكيل الصنمي المادي إلى تجريده عن المادة. وارتقت به من تعددية الأصنام إلى الدعوة لإله واحد غير منظور. كما نادت بأنه لا إله إلا الله الواحد الأحد، الذي على الإيمان به يمكن للإنسان أن يجد خلاصه في الدنيا، وأن يضمن خلاص نفسه بعد الموت.

ولأن الأديان السماوية، هي المتبقي لدى معظم أبناء البشر، والتي استقطبت بتفسيراتها وتأويلاتها نصف عدد سكان الكرة الأرضية تقريباً، والتي انتشرت في شتى أرجاء الكون انطلاقاً من منطقتنا العربية. وعلى الرغم من أن ما يساوي نصف تعداد البشر يدينون بأديان أخرى، كما هو حاصل في الصين والهند، ومعظم دول شرق آسيا؛ ولأن منطقتنا تشهد أكثر

الصراعات الدينية حدّة، منذ بداية التبشير بها، فإننا سوف نتناول الأديان السماوية بالبحث والعناية، لنتساءل:

- لماذا تكاد الصراعات الدينية تقتصر، بشكل واسع وواضح، على منطقتنا العربية؟

- ولماذا لم تعرف مرحلة الأديان الوثنية تلك الحدة من الصراعات، وإنما العكس كان هو الصحيح، ألم يجمع عبدة الأوثان أو ثانهم في مكان واحد؟

- لماذا لا نرى ظاهرة الصراعات بارزة في دول شرق آسيا التي تنتشر فيها البوذية والكونفوشية؟

- لماذا لا تنتشر ظاهرة الصراعات الدينية في دول الغرب، خاصة وأنها نقلت الأديان السماوية عن منطقتنا التي كانت مهداً لها؟

هذه الأسئلة وغيرها الكثير، يدفعنا إلى التساؤل بإلحاح وجرأة: هل الأديان السماوية نعمة للمجتمعات العربية أم نقمة؟

إن أسرار الحياة والموت، كما عبّرت عنها وقائع التطور البشري منذ التكوين الأول للإنسان في هذه المنطقة من العالم، كانت الشاغل الدائم والمستمر، للسكان منذ العصر الحجري وصولاً إلى عصرنا الراهن. فقد تطور مفهوم الإله عند المجتمعات البدائية من التشكيل المادي إلى التجريد الفكري.

فالطوطم، في المجتمعات الوثنية، هو أي كيان يمثل دور الرمز للقبيلة التي يُجمع أفرادها على عبادته، وأحياناً يُقدّس باعتباره المؤسس أو الحامي لهم. وكانت الطوطمية معروفة عند عرب الجاهلية، وكان لكل قبيلة صنم خاص بها على صورة حيوان أو جزء من الإنسان يقوم بتشكيله من حجر أو تمر. ومما تذكره كتب التاريخ أن العرب قد جمعوا أصنامهم في الكعبة، وكانوا يتعبّدونها على تعدد أصنامهم، ولم يذكر التاريخ أنهم تصارعوا حولها.

وعلى الرغم من تعدد الطواطم والرموز عند المجتمعات الكبرى أو الصغرى، لم يثبت التاريخ أن الحروب بين القبائل والتجمعات، التي لكل منها طوطمها الخاص، كانت تدور من أجل التبشير بقوة هذا الطوطم أم ذلك. بل كانت الحروب تدور في الغالب الأعم من أجل التوسع في الأرض، أو الغزو من أجل الحصول على الغنائم؛ بينما كان دور الطوطم فقط هو أنه كان يمثل رمزاً لهذه القبيلة أو تلك، والتي تعتقد أنه يحميها ويحرسها.

وهنا تحضرنا واقعة مؤرخة في ذاكرة تاريخ المنطقة، هي أن الأصنام على تعددها بين القبائل والعشائر والتجمعات البشرية، كانت مجموعة في هيكل واحد، كما كان حاصلاً عند الفراعنة، وكما كان حاصلاً في الكعبة في مكة؛ وعلى الرغم من كل ذلك،

فلم يسجل التاريخ أن تعدد الأصنام كان قد شكّل سبباً للاقتتال بين عبدها على تعدد أصنامهم وطواطمهم؛ بل كانت كل مجموعة بشرية تؤدي واجبات العبادة والطقوس لطوطمها أو لصنمها جنباً إلى جنب المجموعات الأخرى. وباستذكارنا لتلك الظاهرة، فإنما لكي نشير إلى أن الإنسان، منذ تلك العصور السحيقة في التاريخ، كان أميل منه للاعتراف بحرية الآخرين بالاعتقاد الديني، من دون أن يتدخل أحد بحرية الآخر. وبذلك يمكننا الاستنتاج بأن الصراعات الدينية لم تأخذ طريقها بين التعدديات الوثنية، على الرغم من كثرتها وسعة انتشارها منذ العصور السحيقة في تاريخ البشرية المعروف.

## ٢ - في نصوص الأديان السماوية ما يحض على التكفير وعلى قتال الكافرين:

وبما أن الفرعون أخناتون حاول أن يوحد الأصنام في صنم واحد يمثل (الشمس)، وهو ما يشبه الدعوة إلى عبادة إله واحد، ثار ضده الكهنة وضغطوا من أجل الإبقاء على تعدد الأصنام، احتراماً لمعتقد كل شريحة من شرائح المجتمع المصري. ولم تهدأ ثورة الكهنة المصريين إلاً عندما ألغوا فكرة تجميع المعتقدات بمعتقد واحد، وعادت الحياة العقيدية التقليدية إلى مساراتها السابقة.

كما تذكر المصادر المتوفرة، أن النبي

موسى كان يعيش في بلاط أخناتون، وعندما حدثت الثورة ضده لأنه دعا إلى توحيد الآلهة بإله واحد؛ ولأن النبي موسى كان من مؤيدي الفرعون أخناتون بالتوحيد، هرب إلى أرض فلسطين للنجاة من ثورة الكهنة، لتبدأ مسيرة ما عُرف لاحقاً بظاهرة الأديان السماوية التي دعت إلى وحدانية الله؛ فجاء السيد المسيح ليحدث ثورة على الحاخامات اليهود الذين استسلموا لهيمنة الإمبراطورية الرومانية؛ ومن بعده جاء النبي محمد ليحدث ثورة على نظرية التثليث المسيحية. وبين هذا الانتقال وذاك، كانت عقائد الأديان السماوية الثلاث تحض على قتل كل من لا يعتقد بطريقتها في الإيمان بالله.

ولذلك تذكر وقائع التاريخ أن ظاهرة تكفير الآخرين، والأمر بقتلهم، يؤرّخ لها بانتشار الأديان السماوية. وعن هذا سنضع شواهد من نصوص تلك الأديان، التي تؤكد ما جاء في هذا الاستنتاج:

- أولاً: جاء في العهد القديم للتوراة، سفر تثنية التشريع، الفصل الثالث عشر: (١) إذا قام بينكم متنبئ... (٢) وقال لك تعال إلى آلهة غريبة... فنعبدها. (٣) فلا تسمع كلام هذا المتنبئ... (٥) وذلك المتنبئ أو رائي الحلم يقتل... حتى ولو كان أخوك أو ابنك أو ابنتك أو زوجتك أو صديقك.

- ثانياً: العهد الجديد: وحتى لو لم

يُوجد نص حول ذلك في العهد الجديد من الكتاب المقدس، كانت محاكم التفتيش المسيحية في أوروبا، التي كانت تُنزل الأحكام القاسية بالمهرطقين، أي الذين لا يدينون بمذهب الكنيسة الحاكمة، دليل واضح على أن كل فرقة من المسيحيين كانت تكفّر الأخرى، باتهامها بالهرطقة. وتاريخ محاكم التفتيش حافل بوقائع تلك الأحداث.

– **ثالثاً: وأما في الإسلام، واستناداً إلى الكتاب والسنة:**

– **فقد جاء في القرآن الكريم:** ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١] و﴿لَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [المنافقون: ٦] ﴿هُمُ الْعَدُوُّ فَاحْذَرهُمْ﴾ [المنافقون: ٤] ﴿قَتَلْنَاهُمْ اللَّهُ أَتَىٰ يَوْمَئِذٍ الْغَافِقُونَ﴾ [التوبة: ٣٠] ﴿قَتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ﴾ [التوبة: ٢٩].

– **وجاء في السنة النبوية:** نُقل عن الرسول أنه قال: (من ارتدَّ منكم عن دينه فاقتلوه). وجاء أيضاً: (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم بحق الإسلام وحسابهم على الله).

وفي كل تلك النصوص التي وردت في كتب الأديان السماوية، وغيرها ما يدعو إلى قتال الذين لا يؤمنون بعقيدة هذا الدين السماوي أو ذلك؛ وهذا ما يتنافى مع ما جاءت به من دعوات إلى المحبة بين بني البشر، والدعوة إلى الحوار، وبالتالي هي أحسن. ولكن لم تقف الأمور عند هذا الحد، بل تعدتها إلى التنفيذ بحيث أكّدت الوقائع المتلاحقة ذلك.

في وقائع الصراعات الدينية ما يؤكد تنفيذ النصوص بأفعال صحَّ فيها القول: إن أقسى أنواع الصراعات كانت تتم تحت ستار الدعوة إلى الدين. ولأنها كثيرة جداً غطت من الزمن قرونًا عديدة، وهي ما تزال سارية المفعول ما إن تخبو لفترة حتى تعود نيرانها إلى الظهور من تحت الرماد من جديد. ولذلك سنقوم برصد جزء منها، والجزء هنا يكفي للبرهان على خطورة تلك الصراعات.

– **المظهر الأول:** كان في مشاركة اليهود بالتحريض على السيد المسيح منذ باكورة دعوته، الأمر الذي أدى إلى صلبه من قبل السلطات الرومانية.

– **المظهر الثاني:** كان في انقسام الكنيسة المسيحية، قبل ظهور الإسلام، إلى كنيستين شرقية وغربية. فبنت كل منها لنفسها دولة تحكم باسم المسيح، هذا ناهيك عن أن الكنيستين لم تتصارعا مع

الوثنية بل كان الصراع بينهما بشكل مباشر. وما محاكم التفتيش، والاتهام بالهرطقة، التي استخدمت فيها أقسى أنواع التعذيب والحرق، بالمناوئين للكنيسة من أبنائها، سوى المظهر الأكثر وضوحاً فيما نرمي إليه.

– **المظهر الثالث:** كان في انقسام المسلمين إلى فرق ومذاهب، كل منها ينسب لنفسه بأنه يمثل (الإسلام الصحيح). ولم تهدأ الصراعات بين الفرق الإسلامية بعد وفاة النبي محمد، حتى بلغت أكثر مظاهرها حدّة في القرنين الرابع والخامس الهجري. وهي ما تزال مستمرة حتى الآن، أي في هذه المرحلة التي بلغت فيها الصراعات ذروتها وأكثرها دموية.

– **المظهر الرابع:** كان في الصراعات المسيحية – الإسلامية، بدأت في إسقاط الدولة البيزنطية (الروم)، في العشر الأخيرة من الدعوة الإسلامية. وتمددت بوصول المسلمين إلى قلب القارة الأوروبية. وتجددت تحت راية ما عُرف بالتاريخ بـ (الحملة الصليبية) التي شُنَّ فيها الأوروبيون حملات استعادة القدس، لإعادة بناء الهيكل، فكانوا يستقرون فترة ويتراجعون أخرى.

– **المظهر الخامس:** منذ أوائل الثمانينيات من القرن العشرين، بدأ ظهور تيار اليمين الأميركي المتطرف، الذي يعتقد

بأن معركة الخير والشر التي ستكون أرضها منطقة هرمجدون في فلسطين، ستمهد لظهور (المسيح المخلص). وفيها سينتصر الخير على الشر. وفي ظل أهداف هذا التيار انتمى بعض الرؤوساء الأميركيين إليه، ومن أشهرهم دونالد ريغن وجورج بوش الأب ودونالد ترامب، ورحوا يعدون لتلك المعركة من خلال زرعهم نواة لها في تأسيس دولة يهودية في فلسطين. ومن أول تطبيقاتها كان احتلال العراق في العام ٢٠٠٣، ومشروع الشرق الأوسط الجديد الذي أخذ طريقه للتطبيق في العام ٢٠١٢.

٣ – **في التحريض الطائفي حروب دائمة أو مشاريع حروب كامنة تحت الرماد:**

يفتخر الإنسان أنه استطاع أن يرتقي بالدعوات الروحية، التي حُضت عليها الأديان السماوية، من مستوى تجسيدها بحجر أو ثمر، إلى مستوى عالٍ من التجريد بأن الله غير المنظور هو الذي يحميها ويحرسها. فالاعتقاد بأن الصنم أو الطوطم، الذي يعجز عن حماية نفسه، هو الذي يمكنه أن يحمي الروح بعد الموت، ويحمي الإنسان في حياته ويضمن سعادته، هو اعتقاد بدائي لا يتناسب مع قوة العقل عند الإنسان.

وطالما كان الجزء غير المنظور من

الأكثر تبسيطاً لتقريب الفكرة من مدارك العامة، إلا أن التبسيط وسم الدين بسمات المادية؛ وهبط بها من سموها الروحي، الذي تدركه العقول النيرة، إلى مستويات مادية ذهبت بسمو الفكر وهبطت به إلى ما دون مستواها السامي. وعن ذلك نرى أن هناك فرقاً شاسعاً بين لذة الروح التي يتذوقها الإنسان نتيجة إتمامه عملاً خيراً، وبين انتظاره ثمناً مادياً موازياً لذلك العمل. فالجنة والنار هما رمزان فكريان لعذاب النفس أو سعادتها، وتلك سمة غريزية مغروسة في النفس الواحدة لكي تشكل معياراً للذة والسعادة من جهة، وللعذاب من جهة أخرى.

#### ٤ - الأمر بالقتل ليس صفة إلهية، بل هو نزعة شر بشرية:

بما أن النزعة النفعية، التي ألصقتها الدعوات السماوية، بالله كخالق للكون، لا يجوز أن تشكل صفات لمن خلقه لأنه ليس بحاجة لبشر عبيد خاضعين، يقوم بتعذيبهم في النار إذا أخطأوا، ويقوم بإسعادهم إذا أصابوا؛ وهو بذلك، وكما صورتها النصوص الدينية، كمن يقوم بتشكيل أجهزة أمنية تراقب البشر، وأجهزة تحقيق، وأجهزة محاسبة ومساءلة، قد تصل إلى أضعاف أضعاف ما أمر بخلقه من بشر، خاصة أن بعض الدعوات الدينية تنسب إلى بعض الأجهزة مما يزعمون خلقها، ملائكة

الجسد هو ما غادره بعد الموت، فاحترام قوة العقل يقتضي تجريد الإله عن كل صفة مادية، وهي شبيه بالروح التي تغادر الجسد من دون أن تراها عين أو تسمعها أذن. وهذا ما دعت إليه الأديان السماوية، على الرغم من أنها، بطريقة أو أخرى، راحت تجسده بمقدمات ونتائج محسوسة؛ وتضفي عليه صفات يتميز بها البشر، كمثل حاجته لعبادة الإنسان؛ أو تهديده ووعيده الموجّهان للمخطئين من بني البشر؛ فظهر بصفات القاهر والجبار والمنتقم، وما إلى هناك من أوصاف تميّز الحكام من بني البشر، خاصة منهم الذين طغت عندهم نزعة الشر على نزعة الخير فسعوا لبناء أمجادهم الخاصة، بينما الله خالق البشر لسر إلهي، وليس لنزعة نفعية أخرى. وحتى قضايا الثواب والعقاب، والتهديد بالحرق بالنار، والوعد بالدخول إلى الجنة، لم تسلم من تشكيل الله على مواصفاتها. وما الوعد والوعد سوى صفات بشرية، وإنما الله قد خلقهما في النفس البشرية معاً وترك للإنسان حرية الاختيار بواسطة التفاضل بينهما. وبذلك

وبناء عليه، فقد فاقت سيئات التشكيل فضائل التجريد. وأصبح الدين عند عامة البشر، تعني التخويف والترهيب، من مظاهر مادية خالصة. وإذا كان السبب يعود إلى ما يحسبه المتفقهون بالدين الوسيلة



الخير وملائكة الشر، الذين يدخلون مخادع البشر وعقولهم وأفئدتهم، وحتى تحت ألبستهم ليراقبوا، ليس ما يصدر من أفعال فحسب، بل ما يقبع في عقول البشر وأفئدتهم من أفكار ونوايا أيضًا.

وهل كان الله بحاجة إلى خلق كل ذلك لمراقبة البشر ومحاسبتهم، وهو كان قادرًا على أن لا يخلق الإنسان عما خلقه عليه؟ بل في قدرته أن يخلق إنسانًا مطيعًا وملتزمًا يعفي بها نفسه من ممارسة التعذيب والقهر، وهو الذي لا يصدر عنه سوى صفات الخير والرفاة والعدل.

وإذا ما شكك البعض فيما نقول استنادًا إلى أن ما جاء في الكتب المقدسة إنما هو كلام الله، فنجد ما ندحض به أي تشكيك بالقول إن الله، خالق الكون، ليس بحاجة إلى كلام يصدر عنه، بل هو يخلق في البشر المقدرة على ارتكاب النقيضين، الشر والخير، وخلق في الإنسان المقدرة على التمييز بينهما، وترك له الحرية بالاختيار بينهما. وفي ذلك سرٌّ يمكننا الاستنتاج بأن حرية الاختيار فيه لذة ما بعدها لذة. كما أن في حرية الاختيار ما يُميّز به سر خلق البشر على هذه الطريقة، عن سر خلق ما يُرمز إليه بالملائكة. ففي الأولى حركة دائمة بين نقيضين تخلق الفرح باختيار طريق الخير، والألم باختيار طريق الشر. وفي كل هذا ما فيه من انتشار مسألة

وجود النقيضين في كل مناحي الحياة، ولعلّ في هذا ما فيه من حركة دائمة تشعر الإنسان بأنه يستطيع أن يخلق أفعاله بنفسه؛ وليس كمثّل رمز الملاك الذي تمّت برمجته على أداء وظيفة محددة من دون أي تدخل لعامل الإرادة عنده. ولعلنا نكتشف من وجود الأضداد سر من أسرار الكائن البشري. فالملائكية لا لذة فيها ولا مكابدة، بل هي مجرد عمل روتيني تؤديه آلة صماء كما يحصل في برمجة الكومبيوتر، وغيره من الآلات الألكترونية الحديثة. فلنتصوّر إنسانًا ملائكيًا لا تشغل باله ملكة الصراع بين ضدين في نفسه كيف ستكون حالته؛ ونتساءل ما هو المعنى الحقيقي من وراء خلقه؟

### ثالثًا: رؤية نظرية في تهذيب أسس المعرفة الدينية

#### ١ - صراع الأضداد في العقل البشري سر وجوده

لولا وجود شيطانية الشر لما كان هناك معنى لوجود ملائكية الخير. فالشيطانية والملائكية تكمل إحداهما الأخرى. وما هو معنى وجود كاهن (جبران خليل جبران) لو لم يكن (شيطانه) موجودًا. تلك مقدمة لا بُدّ من الإشارة إليها لكي نتعمّق بدراسة ثنائيات المتناقضات الكامنة في النفس البشرية.

وإذا كان الله خالقًا للإنسان، فهو وحده

المسؤول عما خلق. وهو وحده المسؤول عن خلقه. لقد خلق الله الإنسان على هذا المثال، وخلق فيه كل أنواع النزعات لأنه يعرف تمامًا أن صراعها يؤدي إلى حركة دائمة في النفس البشرية، فهو قد ﴿فَأَلَمُهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [الشمس: ٨]، ولم يفرض عليها لا التقوى ولا الفجور، بل خلق فيها قوة التمييز، فعليها أن تختار ما يحقق سعادتها، ورفض ما يولد الألم والتعاسة.

فخلق ثنائية التناقضات سر الخالق في المخلوقات. فمن لا يكابد سر الألم لا يشعر بلذة الشفاء. ومن لا يعاني من الجوع لن يشعر بلذة الشبع. ومن لم يعطش لن يشعر بلذة الشرب. ومن لا يعاني من ألم الفراق لن يشعر بلذة اللقاء. ومن لا يخاف من الظلام لن يتمتع بإشراقه النور. ومن لا... لن... وهكذا تطول اللائحة. وهنا لن نتوقف أكثر أمام سر خلق التناقضات في النفس البشرية الواحدة. كما لن نتوقف أمام ثنائية الاختيار والإلزام، لأن الخالق لو أراد أن يلزم الإنسان بجانب واحد لما كان قد خلق غريزة ثنائية التناقضات في ذاته؛ ولهذا ترك الخيار أمام الإنسان ليأخذ مجراه، لكي يبقى العقل بحركة دائمة، يختبر ليختار، حتى يصل من خلال نتائج اختياره إلى الخيار الصحيح. ولأن الله خلق اللذة في اختيار الإيجابي، وخلق غريزة الألم في الجانب السلبي، ستكون النتيجة في أن

الإنسان في خياراته سيختار كل ما يولد السعادة واللذة. وفي المقابل، وإذا كانت معالجة الجانب النفعي الذاتي لا تعتبر كافية لاستكمال الاستنتاجات، فيبقى معالجة الجانب الغيري، لكون الإنسان يعيش خارج ذاته بسبب وجود الإنسان الآخر. وعن ذلك، وإذا لم يأخذ الإنسان كفره منفعة الآخر بعين الاعتبار، فمن خلال استقراء التجارب البسيطة منها، يمكن للإنسان الفرد أن يولي جانب المنفعة الغيرية الاهتمام الكافي لتؤكد له أن التفتيش عن المنفعة الأنثى ليست كافية إذا تجاهل المنفعة الغيرية؛ وعن هذا يمكننا الاستدلال بأن الفرد عندما يعمل لمنفعته الذاتية فقط، فسوف يجد في المقابل أن الآخر إذا عمل أيضًا لمنفعته الذاتية، فسوف تتصارع المنفعتان فيحل الألم مكان اللذة، ليجد كل منهما أن لذة الأنا تتكامل مع لذة الآخر.

## ٢ - من صراع المتناقضات في النفس البشرية تبدأ مرحلة تهذيب التربية الروحية

ولأن مسألة الروح كانت شغل البشرية الشاغل منذ بداية التكوين الأولى، فهي إذن ذات أهمية بالغة في حياة الإنسان؛ وقد أكدت أهميتها عناية الإنسان بعبادة الأوثان الرموز للقوة الخفية، وكذلك أكدت الأديان السماوية أهميتها عندما آمنت بالخالق مجرداً عن كل لوثة مادية.

أفعالهم. ولم يقف هؤلاء ولا أولئك عند هذا الحد بل أضفوا على أنفسهم صفة الوكالة عن الخالق بحساب الخاطئين. ووظفوا وكالتهم، التي لم يعرف أحد كيف نسبوها إلى أنفسهم، ليمارسوا كل أنواع التعذيب، ليس بمن أخطأوا بل بمن لم يؤمن بما يؤمنون به من معتقدات غيبية. وعلى الرغم من ذلك، فقد استمرت الصراعات، وسوف تستمر إلى نهاية الكون إذا ما ظلَّت طرق المعرفة الروحية على التقليد ذاته منذ مئات القرون، إذا لم يكن منذ آلافها. وفوق هذا وذاك، فقد حموا وناقوا أكبر الحكام العتاة، ودافعوا عن الموسرين والأغنياء الذين يكسبون الذهب والفضة بمقادير تفوق تصور الفقراء والمحتاجين والجائعين. فهم إذا برروا دفاعهم عن الأغنياء بأن الفقر والغنى هو شأن من شؤون الخالق، يعطي من يشاء بغير حساب؛ ويعظون الفقراء بأن يصبروا انتظارًا لتعويضهم بعد الممات.

وإذا كنا لن ننتظر تغييرًا من حراس الأديان وكهنتها، طالما لم يغيروا بطرائق العمل لخالص أنفس البشر بعد الموت؛ ولأنهم عجزوا عن أي تغيير لتخليص البطون الخاوية من الجوع؛ كما عجزوا عن إيقاف حمامات الدم التي تجري أنهارًا في صراعات الآلهة العبثية، نرى من حقنا الاجتهاد في التفتيش عن وسائل جديدة للتربية الروحية، طالما هي ثابت من ثوابت

ولأن الأديان السماوية لم تستكمل عملية التجريد بشكل كامل، فقد جرّدت الخالق من أي تشكيل مادي، لكنها حافظت على طريق الوصول إلى معرفته بطرق مادية، حسابًا منها أنها الأقرب لمفاهيم العامة من البشر. واستكملت خطأها بأنها أضفت على طريق الوصول إلى خلاص أنفسها بعد الموت وسائل مادية، وصلت إلى حدود تصوير الخالق بصفات البشر الأكثر شدة وبأسًا وانتقامًا؛ وهذا الذي دفعها إلى اعتبار نار جهنم مقرًا للخطاة والمذنبين؛ وجرى ذلك باعتماد ما يعرفه البشر بالنار الدنيوية لكي يدركوا كم أن عذاب النار الأخروية أشد وأقسى. هذا ما أمسك به الكثير من وعاظ الأديان السماوية وأضفوا على تلك النار أوصافًا لا يمكن لعقل بشري أن يألّفها، بل يرفض التعذيب بنار الدنيا رفضًا مطلقًا، فكيف بهؤلاء يرضون أن تصدر عن إله رحيم؟ هذا ناهيك عن أفاعي القبر، وعذابات القبر، وشدة قسوة من يستقبلون الميت بالقبر...

حسب كل المنتمين للأديان، أنه لا بُدَّ للخطاة أن يلقوا بعد الموت حسابًا يتناسب مع أفعالهم الخاطئة؛ وحسبوا أيضًا أن الإنسان إذا تأكد أنه لا حساب ولا مساءلة بعد الموت يعني أنهم سيرتكبون أخطاء أكثر، ليخلصوا إلى نتيجة أنه لا بُدَّ من التذكير بعذاب أخروي لهم لكي يرتدعوا عن

الواقع البشري، وثابت من ثوابت المعرفة الإنسانية.

وهنا، سنعالج مسألتين اثنتين، ولكنهما متلازمتان، وهما:

- مسألة الخروج من عقد التربية الروحية التقليدية على مستوى الأفراد في الإرشاد الديني، وكذلك في المعاهد التربوية المدنية.

قرن من الزمن تقريباً فصلنا عما قاله الشاعر القروي رشيد سليم الخوري، كافية لتقدّم البرهان على أن الوطن العربي يعاني من مرض الطائفية منذ قرون عديدة. والطائفية التي يقصدها هنا لها علاقة بالأديان السماوية وليس غيرها لأن العرب لا يؤمنون بأديان أخرى، خاصة بعد أن تمّ القضاء على الوثنية. بل يخاطب الشاعر كل من اعتنق ديناً سماوياً؛ وفيما قاله إفصح واضح عن أن الأديان التي اعتنقها العرب بدلاً من أن تكون نعمة عليهم، ونعمة على العالم أجمع، فإنها تحوّلت إلى نقمة تنخر في أسس وحدتنا القومية والوطنية. وقد بلغ به الحنق من تلك النقمة أنه أعطى وحدة المجتمع العربي أولوية على الأديان. وعن ذلك، أنشد قائلاً:

هبوني عيداً يجعل الغرب أمةً  
وسيروا بجثمانى على دين برهم  
فقد مرّقت هذي المذاهب شملنا  
وقد حطمتنا بين نابٍ ومنسم

سلامً على كفرٍ يوحد بيننا  
وأهلاً وسهلاً بعده بجهَنم

وإذا كان الله هو الذي أمر بالدين، فإنما من أجل خير البشرية ووحدها. ولم يأمر بنشر الدين لغاية في ذاته، بل بما فيها من خير للناس، تنشر المحبة والعدل والمساواة؛ والتقوى التي تحضُّ عليها الأديان السماوية، كما نفهمها، هي سلوك دروب القيم العليا، وليس كما يحسب الملايين من الدعاة للدين بأن الله أراد من الحضُّ عليها أن تكون قاعدة لعبادته. إن الله ليس بحاجة إلى عبودية أحد، خاصة أنه هو المنزّه عن النفعية وكل ما له علاقة بأوصاف للبشر. وإذا كان الله قد خلق البشر، فإنما لكي يكونوا موحّدين، يأمرهم بالمعروف وينهون عن المنكر، على قاعدة ﴿عَلَيْكَ أَلْبَلُغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد: ٤٠]، وليس لكي يقاتلوا لنصرته كما يزعم الكثيرون من المتفقيهيّن؛ لأن الله ليس بحاجة إلى من ينصره. فإنما النصره هي تطبيق القيم العليا التي في تطبيقها خير للبشرية.

كل ذلك، يُرتّب على المؤسسات الدينية من جانب، والمؤسسات الرسمية من جانب آخر، أن يُعيدوا النظر بأساليب التربية الروحية التقليدية، وذلك بالعمل من أجل ما يلي:

- الإقلاع عن كل ما يدعو إلى تكفير

الأخر، لأن التكفير هو نوع من الحساب، ومن الثابت أن الحساب هو شأن من شؤون الخالق. وكل من يسعى إلى تكفير الآخر، يعني مساءلته وحسابه وإصدار الحكم عليه، وهذا يعني أن الفاعل إنما ينيب نفسه مكان الخالق، وهذا هو السطو صراحة على مسؤولية الله عن خلقه؛ ومن يتكَبَّ هذه المهمة فهو كمن يعتبر أن الله عاجز عن القيام بذلك.

- الإيمان بأن الله قد خلق في الإنسان ملكة الاختيار بين الخير والشر، ومهمة من يتصدى لمهمة الوعظ والفتوى لا تتعدى مسؤولية الكشف عن فضائل الخير ومساوئ الشر. وهناك نصوص واضحة، ومنها: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ، وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦]. وأما الاجتهاد بأن الله قد نسخها، وأمر بالحرب، فيتهافت في مواجهة القاعدة المنطقية التي تقول: لا يمكن لمتغير أن ينسخ ثابتاً. إن استخدام القتال هو وسيلة لتطبيق القيم العليا مثلاً إذا أصرَّ الظالم على ظلمه؛ بينما حرية الاختيار هي الهدف الثابت، وهي القيمة العليا، التي من أجلها يستخدم الإنسان وسائل التوجيه والتي هي أحسن، أو بالحوار الفكري، أو حتى بالقتال من أجل رفع الظلم عن المظلوم، ومن أجل الدفاع عن حرية الإنسان في التفكير والاختيار.

- إن التربية الروحية التقليدية تستند إلى وسيلة التخويف خاصة فيما يتعلق بأوصاف نار جهنم، على تعددها ورهبتها وفضاعتها، تلك الأوصاف التي تغدقها المؤسسات الدينية، ويتبارى المرشدون في وصف فضاعتها، بتعداد أنواع التعذيب التي تبدأ بحساب القبر، ولا تنتهي بأبشع صفات التعذيب في نار جهنم التي تنتظر المذنب بعد الموت؛ وإنه بدلاً من ذلك، على المؤسسة الدينية أن تقوم بتهديب وسائل تلك التربية، وذلك بإعداد مرشدين روحيين يمتلكون ثقافة عصرية يضعون مناهج جديدة للتربية الروحية يلتزم بها المكلفون بالإرشاد في أماكن العبادة، ولعل في استحضار بعض التجارب عند الأديان الأخرى ما يفيد في ذلك، والتي تقوم على القواعد والأسس التالية:

### ٣ - الاعتراف بأن خلاص الأنفس في الآخرة يتم عن أكثر من طريق:

على أثر زيارة البابا بنديكتوس السادس عشر إلى لبنان، في ١٤ أيلول ٢٠١٢، وتوقيعه ما أطلقت عليه الكنيسة الكاثوليكية اسم (الإرشاد الرسولي)، واتتنا الفكرة للاستفادة مما جاء فيه من إيجابيات.

متجاوزين مواقف البابا السياسية من قضايا أمتنا العربية، ومتجاوزين الحملة المشبوهة ضد النبي محمد، الرسول العربي، التي يروّجها الإعلام الغربي

والصهيوني، سنركّز اهتمامنا على الجانب الروحي فيما جاء بهذا الإرشاد، وهو حق لنا يحفظه مبدأ حرية الرأي كمواطنين في دول تتعدد فيه الأديان السماوية والمذاهب المتفرعة عنها. وهذا الرأي لا يلزمنا بأي تغيير في مبادئ إيماننا الروحي، بل نعتبر اختيارنا لتلك المبادئ حقاً شخصياً وفردياً نُسأل عنه أمام الله عز وجل، وليس أمام أي أحد آخر ممن يزعمون أنهم (يمثلون الله على الأرض).

بداية نرى أنه كما في الإسلام دعوات تحسب أن النفس المسلمة هي الوحيدة الناجية من النار، كذلك في المسيحية دعوات مماثلة. وكما في الإسلام دعوات لتغيير مبدأ (لا إكراه في الدين)، كذلك في المسيحية هناك دعوات مشابهة.

وكما تفرّع الإسلام إلى مذاهب يحسب كل مذهب منها أنه الفرقة الناجية من النار، وغيره من المذاهب الأخرى هي من الفرق الضالّة؛ وعلى قاعدة هذا الزعم تبادلت المذاهب المختلفة اتهامات التكفير والتضليل والتفسيق، فتقاتلت وتذابحت وتكافرت وتفاسقت، تحت ذريعة احتكار كل منها لموقع الفرقة الناجية من النار. كذلك تفرّعت المسيحية إلى مذاهب يحسب كل منها أنه المذهب الوحيد الذي يحتكر تعاليم المسيحية بينما غيره من المذاهب والفرق سلكت طريق الهرطقة فأخضعها المذهب

الأقوى لمحاكم التفتيش والحكم عليها بالموت أو الحرق.

وكما في الإسلام انتصرت دعوات النقل على العقل، وساد من بعدها عصر التخلف، كانت المسيحية قد سبقتها إلى ذلك.

ومن بعد أن سادت مذاهب النقل الإسلامي مئات السنين، وأخلى العقليون مواقعهم خوفاً من القتل والتنكيل، جاء العصر الحديث ليحمل أملاً جديداً في تاريخ الثقافة العربية بـ (فورة عقلية تنويرية) بين أوساط المفكرين العرب. وما تزال (الفورة) تشق طريقها وإن بصعوبة، فإن ثورة العقل في الدول المسيحية كانت قد سجّلت نصراً على النقل قبل أكثر من ثلاثة قرون مضت من تاريخ الدول المسيحية.

وإذا كان انتصار (ثورة العقل) في أوساط المفكرين الغربيين على (النصوصيين المسيحيين) لم يؤد إلى إلغاء المسيحية، وثورة العقل لم تكن تريد ذلك؛ كما لم يؤد إلى عقوبات إلهية بتلك الدول، بل على العكس عرفت عصوراً متقدمة جداً من النهضة والرقي؛ وكان من أهمها أن التكافر والاتهام بالهرطقة قد ودعا المجتمعات الغربية إلى غير رجعة، واحتل كل مذهب ديني مسيحي مكانه، واحتفظ بكرسيه ومواقعه على الصعيد الدستوري لكل دولة غربية مدنية. وفي المقابل لم يؤدّ انتصار النقليين في الإسلام إلى مكافآت

إلهية، بل على العكس من ذلك عرف الإسلام عصوراً من التخلف والظلمة وما يزال. ولم تقف النتائج عند هذه الحدود بل تخطته وقفزت فوقه ليبقى التكافر والتفاسق والتضالل يشكل منهجاً، يعتبره المتمذهبون السيف المسلول في يد أبناء المذهب (الناجى الوحيد من النار)، والسيف المصلت على رقاب أبناء المذاهب الأخرى، التي ليست، حسب زعم ذلك المذهب، أكثر من رقاب الـ (مرتدين) والـ (ضالين) والـ (فَسَقَة)؟؟!!...

وإذا كانت معالجة الكنيسة في الغرب، في السنين القليلة الماضية، لإشكالية (الردة) قد لامست طبيعة العصر ورافقه ووجدت في تعاليمها بما يتقارب مع مبدأ (لا إكراه في الدين)، وهي بذلك لم تتجاوز فحسب إشكالية الخلاف بين المذاهب المسيحية، بل تجاوزت إشكالية الخلاف بين الأديان كذلك، فإن الخطوة التالية المقابلة، لكي يتم تفجير الألغام بين حدود الأديان مركونة على عاتق المؤسسات الدينية الإسلامية التابعة لكل المذاهب الإسلامية وفرقها. وتدليلاً على أن الكنيسة الكاثوليكية جاءت لتعالج تلك الإشكالية، في إرشادها الرسولي، نقرأ نصاً يؤكد ذلك، ومما جاء فيما أعلن عنه خلال زيارة البابا ما يلي: (المسلمون يتقاسمون مع المسيحيين الاقتناع بأن الإكراه في الدين

غير مقبول، خصوصاً إذا تم بواسطة العنف).

وإذا كان اعتقاد (خلاص الأنفس في الآخرة) هو المبدأ الذي أسس لكل اتهامات التكفير والهرطقة والردة والتفسيق والتضليل بحق الآخرين، من أبرز المبادئ التي تدعو إلى التعصب فالتقاتل فالتذابح بين الأديان والمذاهب، قد ولّى إلى غير رجعة. هذا المبدأ عالجه الإرشاد الرسولي، الصادر عن بابوية روما منذ سنوات، على الشكل التالي، وبما يؤدي بمعناه: إن خلاص الأنفس في الآخرة أكثر من طريق غير طريق المسيحية، ومنها طريق الإسلام وسواه.

وبمثل تلك الدعوة تكون الكنيسة الكاثوليكية قد قطعت نصف المسافة تجاه الاعتراف بالمعتقدات الدينية الأخرى، وما على أصحاب تلك المعتقدات إلا أن يقطعوا نصف المسافة الآخر.

قطع نصف المسافة يقتضي إعادة النظر بالقاعدة الفقهية التي تجعل المتغير يلغي الثابت، ومن أجل تأصيل مبدأ الاتهام بالردة، والصراع الفقهي الدائر حول أولوية الدعوة للإسلام بالحوار أو بالقوة، نوجز بما يلي:

في المرحلة المكية من النص القرآني، سادت مبادئ (لا إكراه في الدين)، و(وجادلهم بالتي هي أحسن\* إنما أنت

مبشر لست عليهم بمسيطر). بينما الدعوة إلى نشر الإسلام بالقوة جاءت لاحقاً في المرحلة المدنية. وحولها جاء النص القرآني ﴿فَإِذَا أَسْلَخَ الْأَشْهُرَ الْحُرْمَ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَأَحْضُرُوهُمْ وَأَقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ إِن تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ عَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ٥].

وعلى قاعدة الناسخ والمنسوخ حسب الفقهاء المسلمون أن (آيات القتال) قد نسخت (آيات الحوار)، فغلبوا أسلوب الدعوة للإسلام بالقوة. ولكن تناسى الفقهاء أن (آيات القتال) كانت مرحلية فثبتوها، وأصبحت بمثابة مبادئ ثابتة بالدعوة إلى الإسلام.

لا شك فيه بأن الدعوة للإسلام وغيره لا يجوز أن يتم بغير الحوار، لأن الحوار هو الاعتراف بمبدأ الحرية، والحرية ثابت قيمي إنساني، وهو بالتالي (مبدأ إلهي مقدس)، تؤكد نصوص القرآن المكية إسلامياً، كما تؤكد نصوص كل المفكرين على مستوى البشرية جمعاء، ومنها نصوص المعاهدات الدولية وفي المقدمة منها مؤسسات الدفاع عن حقوق الإنسان. كما أنه لا شك فيه أن مبدأ القوة مبدأ مرحلي من الواجب استخدامه في حالات استثنائية ومنها الحالة التي تتعرض فيها الحرية الإنسانية لأي خطر. واستناداً إليه يكون مبدأ الحرية

ثابتاً، ومبدأ القتال متغيراً، وبناء على أسس المنطق بكل أشكاله نؤكد أن المتغير لا يجوز أن ينسخ (أي يلغي) الثابت، أي أن مبدأ (القتال) لا يجوز أن يلغي مبدأ (الحوار).

وإذا كان من الصعوبة بمكان إقناع الحركات الإسلامية السياسية بتلك المبادئ لأنهم سيأتون بنصوص أخرى يدحضون بها ما نعتبره حقائق، فإننا نراهن على دور المؤسسات الدينية الرسمية في أن تبادر إلى إعادة النظر بما نعتبره إشكالية الاعتراف بالأديان الأخرى، وإلغاء المصطلحات الفقهية: (الفرقة الوحيدة الناجية من النار)، و(الفرقة الضالة) وغيرها من المصطلحات التي تزرع حب التنافس والتقاتل والتسابق من أجل (دخول الجنة)، لأنها مصطلحات تعمق الشرخ والفرقة ليس بين أبناء الأديان المختلفة فحسب، بل بين أبناء المذاهب المختلفة المتفرعة عن الدين الواحد أيضاً.

وأخيراً، هل يمكننا أن نعترف بأن لخلاص الأنفس في الآخرة أكثر من طريق؟  
**٤ - كيف يطبّق الغربيون مبادئ الحرية بالاعتقاد؟**

لم تدع الحركة التنويرية في الغرب إلى إلغاء الدين، وإنما فصلت مهمة رجل الدين عن السياسة، واعتبرت أن مهمته الإرشاد الروحي فقط، ومنع التحريض المذهبي



والديني؛ هذا وإن شدّت بعض التيارات عن هذا المبدأ، فإنما علينا أن نحاكم الدولة المدنية في الغرب على المبادئ التي رسمتها لنفسها، وليس على الحالات الشاذة التي تظهر هنا أو هناك، التي قد يكون وراءها أغراض سياسية وأمنية. ومما يُنقل عن تقاليد العبادة في أماكنها، والتي دأب الغربيون على ممارستها في الأوساط الشعبية، هو أن لرجل الدين أن يمارس دوره في الإرشاد وتنوير المتدينين في فضائل المذهب، ويمنع عليه التحريض ضد المذاهب الأخرى، والأديان الأخرى. وإذا تجاوز مهمته فعلى الحاضرين أن ينهوه عن ذلك، وإذا أصرَّ على سلوكه، فيمكن لأي مواطن أن يشكوه للمحاكم المدنية، أو للمؤسسة الدينية الأم. وهي بدورها تقوم بمحاسبته على أخطائه، وتنزل العقاب به، إما نقلاً إلى مكان آخر، وإما فصله عن المؤسسة الدينية التي يتبع إليها.

والديني؛ هذا وإن شدّت بعض التيارات عن هذا المبدأ، فإنما علينا أن نحاكم الدولة المدنية في الغرب على المبادئ التي رسمتها لنفسها، وليس على الحالات الشاذة التي تظهر هنا أو هناك، التي قد يكون وراءها أغراض سياسية وأمنية. ومما يُنقل عن تقاليد العبادة في أماكنها، والتي دأب الغربيون على ممارستها في الأوساط الشعبية، هو أن لرجل الدين أن يمارس دوره في الإرشاد وتنوير المتدينين في فضائل المذهب، ويمنع عليه التحريض ضد المذاهب الأخرى، والأديان الأخرى. وإذا تجاوز مهمته فعلى الحاضرين أن ينهوه عن ذلك، وإذا أصرَّ على سلوكه، فيمكن لأي مواطن أن يشكوه للمحاكم المدنية، أو للمؤسسة الدينية الأم. وهي بدورها تقوم بمحاسبته على أخطائه، وتنزل العقاب به، إما نقلاً إلى مكان آخر، وإما فصله عن المؤسسة الدينية التي يتبع إليها.

وأما عن الصورة في المجتمع العربي أو الإسلامي، بالنسبة للتبشير الديني، فتختلف كلياً عن الصورة التي يظهر فيها في الغرب. وقد ينال المرشد الروحي الديني في الشرق مكافآت، من قبل الكثير من التيارات الدينية السياسية، بمقدار ما يكون تحريضه على المذاهب الأخرى، أو الأديان الأخرى، قاسياً ومؤلماً. وللأسف يُعتبر الشاذ في مجتمعاتنا هم رجال الدين الذين ينهون عن التحريض ويحضون على مبادئ الإرشاد

## ٥ - الشذوذ في التبشير الديني في الغرب استثناء، أما الشذوذ في الشرق فمبدأ عام.

إن القاعدة الشاذة الموجودة في الغرب، فهي خروج شخص أو فئة تعمل على سبِّ وشتم المعتقدات والرموز الإسلامية، بأشكال استفزازية واستعراضية مثيرة، ومصدر هذه الظاهرة ليس دينياً، بل هو مجرد عمل إعلامي تقف وراءه أجهزة

الروحي الذي يعرِّز عوامل الوحدة بين أبناء المجتمع على اختلاف انتماءاتهم الدينية والمذهبية.

وما انتشر الكتب الدينية في المجتمع العربي أو الإسلامي التي يجتهد في محتواها كثير من رجال الدين من دون مسؤولية غير اكتسابهم الأجر في الآخرة كما يقولون؛ تلك الكتب التي تحتل قراءتها المرتبة الثانية بعد كتب الأبراج وكتب الطبخ، ليست سوى مظهر لافت يفسِّر لنا مستوى الثقافة الروحية المتخلِّفة للكثير من المواطنين العرب والمسلمين. وإذا عرفنا أن الكتب الدينية التي تُنشر وتُباع لا تخضع إلى أي إشراف من الدولة أو المؤسسات الدينية لعرفنا فداحة المشكلة، بحيث تنتشر كتب التحريض والتعبئة التي قد يقوم بها من ينتسبون إلى سلك رجال الدين ممن لا ضوابط لفتاواهم، بل غالباً ما تتسم بطابع التحريض والتعبئة.

وطالما أن الواقع هو ما هو عليه من فلتان، يتذرَّع فيها رجل الدين بحديث الرسول الذي يحض على الاجتهاد، قائلاً: من اجتهد فأخطأ له أجر واحد، ومن اجتهد فأصاب فله أجران. وطالما حضَّت فتاوى فقهاء المسلمين على وجوب التقليد، أو أن يكون المسلم مقلداً أحد المراجع وجوباً لكي يفتي عنه؛ يعني ذلك أن المسلم يضمن خلاص نفسه في الآخرة طالما أن وزر

الخطأ يقع برقبة المفتي. وطالما أن المفتي يضمن الأجر إذا أصاب أو أخطأ، فيعني هذا فلتان كبير في التربية الروحية، وفتان أكبر في فوضى الفتاوى المتناقضة، وفتان على غاربه في وحدة المجتمع. ولهذا، من أجل تجاوز المحنة التي تتعرَّض لها مجتمعاتنا، نرى أولوية التركيز على قضيتين مهمتين، وهما: تهذيب التربية الروحية على شتى المستويات، ونشر ثقافة الدولة المدنية.

#### رابعاً: رؤية عملية في تهذيب المعرفة الدينية

لافتين إلى أهمية المستوى الخطير الذي تتميز به الثقافة الشعبية من حالة الانفعال الشديد، حالة الانفعال تلك تقود الحالات الشعبية إلى المزيد من الوقوع في الحفر التي تعدها أجهزة المخابرات الصهيونية والغربية التي تعمل على إبقاء حالة الاحتقان الطائفي على درجات عليا من الغليان. ومن هذا نعتبر أن غياب ترشيد الثقافة الدينية يشكل سبباً مهماً في تعميق الشروخ الطائفية بين مكونات المجتمع العربي أو الإسلامي، والتي تصل إلى الحدود التي يعجز فيها العقلاء عن مداواتها.

وإنه في كل مرة تظهر فيها وسائل الاستفزاز التي تمارسها أجهزة المخابرات الصهيونية، تتم مواجهتها بحملات عارمة من الاحتجاج الإعلامية والتظاهرات وتوقيع

وعن ذلك، ولأن وسائل الشتم والسباب والتحقير، هي ما تحظره كل القوانين في العالم، فيمكن المؤسسات المعنية، دينية أو رسمية مدنية، أن ترفع الدعاوى القضائية إلى الدول المعنية ضد الأفراد أو المؤسسات الموجودة على أراضي تلك الدول، أي تلك المؤسسات أو الأفراد الذي يمارسون الوسائل المنافية للقانون والأخلاق.

وأما كيف يمكن ترشيد الثقافة الدينية وتهذيبها؟

#### ١ - رؤية في أسس ووسائل تهذيب التربية الروحية:

كل هذه المثالب التي يتَّسم بها المستوى الثقافي لبعض رجال الدين، كما يتَّسم بها مستوى الثقافة الروحية وضالتها عند الأكثرية العظمى من مجتمعاتنا، تدعونا إلى تحميل المسؤولية للأجهزة الرقابية في الدولة المدنية، وكذلك تحميل المسؤولية إلى المؤسسات الدينية، ولا نستثنى من المسؤولية كل الأحزاب والحركات العلمانية، خاصة تلك التي اعتبرت أن من ثوابتها الوقوف في وجه بناء الدولة الدينية، والتبشير بالدولة المدنية.

#### أ - وأما عن الدولة الوطنية المدنية وأجهزتها الرقابية، ومناهج التربية والتعليم:

فنرى أن عليها العناية بمجموعة من الثوابت التربوية، ومن أهمها:

العرائض، وتنعكس ردًا ليس على تلك الوسائل وأكثر منها أنها تنعكس سلبيًا على علاقات المواطنة داخل المجتمع العربي، وتعيد المواطن من جديد إلى التحصن وراء طائفته أو دينه. ولكن هل يمكننا أن نطرح فرضيات لحلول نواجه بها تلك الحملات المخابراتية؟

ماذا لو تجاهلنا تلك الظواهر، ولم نردَّ عليها؟

ولأن وسائل التحريض الشاذة عن السياق العام للتربية الروحية في الغرب، ذات أهداف تحريضية واستفزازية، ولكنها ليست لغاية دينية، بل لغايات مخابراتية تنشُد التحريض والتعبئة في مجتمعاتنا المؤهلة لردود فعل غير مدروسة، تؤدي إلى المزيد من التخندق الطائفي.

ولأنها محدودة في المجتمع الغربي، نتساءل: ماذا لو قمنا بتجاهلها مرة تلو المرة؟

وبتجاهلها، يتم إبطال الأهداف والنوايا المفصودة من ورائها؛ وبإبطال مفاعيل هذا السلاح، سيبطل استخدامه.

يقول البعض إنه علينا أن (ننصر الله)، و(ننصر مقدساتنا)، و(ننصر رموزنا الدينية). متناسين أن الله ليس بحاجة إلى نصره أحد. ومقدساتنا ورموزنا طالما هي على حق، فإن حسن الحق فيها هو الذي ينصرها، وليس الصراخ والتظاهر.

- اعتبار التربية الوطنية التي تشدُّ لحمه المواطنين وعلاقتهم لها الأولوية على أي إرشاد آخر. وإن بناء علاقات تقضي بأن يسبق الدفاع عن الوطن كل علاقة أخرى، فالوطن للجميع حسب المفاهيم السياسية الحديثة خاصة تلك التي أثبتت التجارب نجاعتها. ومحاربة أية نزعة، ومنها النزعات الدينية والمذهبية، التي تعتبر أن الدفاع عن الدين وعن المذهب يسبق أي دفاع آخر. وعلى الدولة أن تحاسب المواطن، أو المؤسسات، التي لا تلتزم بالثوابت الوطنية. ولهذا السبب تُعتبر أنظمة المحاصصات الطائفية من أخطر أنواع الأنظمة حتى ولو جُمِلت بأكثر أنواع المساحيق الديموقراطية، لأن بها تصبح الديموقراطية مطيئة لأغراض ومصالح النخب الطائفية، مضافاً إليها دعم رجال الدين المذهبيين للنخب السياسية الذي يضيفي دعمهم في كثير من الأحيان كثيراً من القدسية على وظيفة رجل السياسة.

- أن تلعب دوراً في وضع أسس لمناهج تربوية تعنى بتربية أخلاقية لا تستند إلى مسألة خلاص الأنفس بعد الموت، ليس بترغيب بالجنة ولا ترهيب من النار، بل إلى تربية تحض على الخير لصفاته الإنسانية الحميدة. وتنهى عن الشر لصفاته الخبيثة.

- أن تترك الإرشاد الديني لرجاله، وذلك التزاماً بقواعد المواطنة وثوابتها. وهذا ما سنقوم بتفصيله في الفقرة التالية.

**ب - وأما عن المؤسسات الدينية،** فنعتبر أن من أهم مهماتها التالية:

- بداية، أن تلتزم بالاعتراف للآخر بحق الاعتقاد الديني. وإذا عُقدت مؤتمرات التقريب بين الأديان والمذاهب، فمن الأولى إعلان المؤتمرين على إلغاء مبادئ التكفير. وإلزام المرشدين بالامتناع عن محاسبة الأديان الأخرى، والابتعاد عن كل ما يسيء إلى هذا المبدأ ويتناقض معه تحت طائلة الحسم والحزم في مساءلة كل من يشدُّ عن هذا المبدأ.

- الإعلان عن حظر فتاوى التكفير تحت طائلة الخضوع للمحاسبة أمام المؤسسات الدينية أو مؤسسات الدولة المدنية. وأن يستتبع هذا بالإشراف على إصدار الكتب الدينية، واتخاذ إجراءات منع نشر تلك الكتب، ما لم تحظ بموافقة المؤسسات الدينية الرأسية.

- إعداد المرشدين الدينيين، ليس الذين يتقنون قواعد الفقه الديني لأديانهم، بل إلى جانب هذا أن يكتسبوا ثقافة الأديان والمذاهب الأخرى، وكذلك إلى اختصاصات علمية في العلوم الإنسانية، كالفلسفة وعلم النفس والاجتماع...

## ج - وأما عن الأحزاب العلمانية، والمؤسسات الأهلية، والجمعيات الثقافية،

فينتهي دورها بالنسبة للتبشير بالإيمان الديني، عند حدود الاعتراف بحرية الاعتقاد، وليس الخوض بشكل هذا الإيمان أو لونه أو رايته. لأن مسألة الإشارة إلى الإيمان الديني وضرورة الحضّ عليه، هو تجاوز لمهمة تلك المؤسسات. فالإلزام أفراد أي مؤسسة منها بها، سيفتح الباب واسعاً أمام سلسلة من الإشكاليات التي تعرف كيف تبدأ، ولكنها لن تعرف متى تنتهي. ولهذا حتى قضية الإلزام بالإيمان بالله على أهميتها ليس في الأديان السماوية فحسب، بل لمكانتها العميقة في الفكر الإنساني أيضاً، سيفتح البوابة أمام إشكالية تحديد طريق معرفته أو الوصول إليه؟ هل هو عن طريق اليهودية أم المسيحية أم الإسلام؟ وإذا كان مثلاً عن طريق المسيحية فحسب أي كهنوت سيكون؟ وإذا كان عن طريق الإسلام، فحسب أي فقه سيكون؟

وهنا لا يمكن الركون إلى بعض المعالجات التي تقول: (نحن مع الإسلام الصحيح)، أو (نحن مع المسيحية الصحيحة)، لأن هذه ليست معالجات موضوعية، بل هي تزيد المشكلة تعقيداً. وإذا عرفنا أن الإسلام تفرّع إلى مئات الفرق والمذاهب. وإذا عرفنا أن المسيحية

تفرّعت إلى عشرات الفرق والمذاهب. والأمر كذلك، كانت كل فرقة أو كل مذهب يعتبر أنه يمثل الإسلام الصحيح، أو يمثل المسيحية الصحيحة. وإذا دخلت الأحزاب في هذه المتاهة فإنها تقود نفسها إلى الغرق بما غرقت به الفرق الدينية في الإسلام والمسيحية. وأما الحل فيمكن في أن تنأى الأحزاب الوطنية العلمانية بنفسها عن الدخول إلى الإيمان بالله من بوابة التفتيش عن أفضل طرق الإيمان به، ويكفيها أن تعترف بحرية الاعتقاد أولاً، وبفصل الدين عن السياسة ثانياً، وأن تمنع المنتسبين إلى الأديان والمذاهب من التحريض والتعبئة ضد الأديان الأخرى أو المذاهب الأخرى.

وبغير ذلك، ستنتفح بوابات الإشكاليات على مصراعيها، وستعود بالبشرية إلى خط البداية التي انطلقت منها الأديان السماوية، خاصة عندما تجاوزت رسالاتها بتعميق القيم الإنسانية العليا، وانجرت إلى متهات تكفير بعضها البعض الآخر. ولذلك فإن الغرق بإعادة التفتيش عن هوية للإيمان الروحي، أو العمل على حصر هذا الإيمان بطريق واحد، سيتجدد الخلاف وتعود موجات التكفير إلى ما كانت عليه قبل انتشار أفكار الدولة المدنية.

## ٢ - تعميق ثقافة الدولة الوطنية المدنية الحديثة:

لم تكن فكرة قيام الدولة المدنية سوى

الغربية التي اتخذت مسار العلمنة فغابت ظواهر الحروب الدينية واستتب السلم الأهلي بين أبناء المجتمع الواحد، فانصرفوا إلى تطوير وسائل التنمية الاقتصادية والاجتماعية والبشرية من أجل توفير كل وسائل العيش الكريم؟

وَألا يكفي برهاناً على ذلك أن الحالة الشرقية الإسلامية، خاصة بعد الانتشار الكبير لظواهر التيارات الدينية السياسية، تؤكد انتشار الحروب الدينية بشكل يحاكي التجارب الأليمة السابقة، ويتفوق عليها بشراستها، ودمويتها، ووحشيتها؟

وإذا كانت الدولة المدنية تشكل شبكة الخلاص للبشر قبل الموت، فلنترك إشكالية خلاص أنفسهم بعد الموت للخيارات الفردية. وحيث أكدَّت التجارب المعاشة أن الأديان السماوية بدلاً من أن تشكل خشبة للخلاص قبل الموت وبعده، فقد حوَّلتها التيارات السياسية الدينية، بإصرارها على إعادة إحياء الدولة الدينية، إلى نقمة تأكل أخضر البشر ويأسهم، وتغدق عليهم الآلام والمآسي، بديلاً لمظاهر السعادة والفرح.

وإن الأمر من كل ذلك، وحيثما سادت مناهج الأنظمة السياسية الدينية، أو أنظمة الطائفية السياسية، نجد أن طبقات النخبة في تلك الطوائف والأديان هي المستفيدة منها بحيث تُتخَم بشتى مظاهر الغنى واليسر، بينما الطبقات الفقيرة هي التي

استجابة لحاجة المجتمعات للعوامل التي تجمعها ولا تفرقها؛ ولهذا كانت مبنية على أساس (فصل الدين عن الدولة) على خلاف ما كانت تقوم عليه الدولة الدينية. علماً أن الدولة الدينية، بعد التجارب التي مرَّت بها الشعوب، أصيبت بالفشل، سواءً أكانت دولة مسيحية أم كانت دولة إسلامية. بينما أثبتت تجارب الشعوب، في التاريخين الحديث والمعاصر، أن الدولة المدنية استطاعت أن تلغي عوامل التفرقة والتفتيت الديني والمذهبي، كما أن تعزُّز عوامل الوحدة بين أبناء المجتمع الواحد المتعدد الانتماءات الدينية والمذهبية. فهي تركت مسألة الاعتقاد الديني للحرية الفردية، بحيث يختار المواطن طريق خلاص نفسه بعد الموت من دون تدخل الدولة فيه. فالاعتقاد الديني كان سبباً أساسياً في تمزيق المجتمع المدني الواحد في ظل الدولة الدينية لأنها كانت تتدخل في تحديده، وتحاكم من لا يلتزم به وتحكم عليه بالردة أو بالهرطقة. وعن ذلك، فقد عانت أوروبا من محاكم التفتيش؛ كما عانى الشرق العربي من محاكم الاستتابة.

إن هذه الحقائق تشكل سبباً كافياً وضرورياً لرفض قيام إعادة تأسيس الدولة الدينية، والبديل منه الدعوة لبناء الدولة على أسس مدنية.

ألا يكفي أن نعود للتذكير بالحالة

تدفع الثمن فتعاني من الفقر والمرض والحرمان وشدة العسر. وبين هذا وذاك تجد معظم رجال الدين، ماعدا القلة منهم، يمالئون زعماء الطوائف ويقفون إلى جانبهم يفتون لهم متناسين أن واجبهم هو العمل من أجل الفقراء والمساكين، والوقوف في وجه الطغاة الذين تمتلئ جيوبهم وتنتفخ على حساب الجائع والمريض والفقير.

وهنا، لا نرى حاجة للتفصيل بما على الدولة المدنية أن تقوم به، لأن تجارب الدول هي أكثر من أن تُحصى وتُعدّ؛ وإذ نتوقف عند هذا الحد، فإنما نترك التفصيل للاختصاصيين من التكنوقراط

والأكاديميين، فهم الأجدر والأكثر كفاءة في رسم صورة واقعية لما يجب أن تكون عليه الدولة المدنية العادلة. وهنا، لا يفوتنا التمييز بين الأكاديمي الملتزم بمصلحة المجتمع عن الأكاديمي الملتزم بمصلحة الطبقة الحاكمة. وذلك كالتمييز بين رجال الدين الذين اختاروا الوقوف إلى جانب الحاكم، أو أولئك الذين يستغلون الدين لمآرب سياسية أو مشاريع دينية سياسية، وبين رجال الدين الذين اختاروا الوقوف إلى جانب الأكثرية العظمية الفقيرة من المجتمع، وأقلعوا عن الحلم بإعادة تأسيس دولة دينية أثبتت فشلها عبر التاريخ.

## العودة إلى الجذور دراسة وتحليل في رواية «قلق» لجميل جبر

د. هيبه عبد الصمد<sup>(1)</sup>

أُكيد في مصيره سوى الموت. إنه كائن يلجّ الحياة من عدم لا يفسّر، ويغيب بعد وجوده في عدم آخر أصعب تفسيرًا من الأول. وخلييل، بطل رواية «قلق»، إنسان ظهر منذ المشهد الأول في الرواية مظهر الإنسان الملقى في العالم وحيدا يتخبّط بين وحدة المكان وقسوة الزمان. فلا يعي في وجوده سوى هذا «الفراغ» الذي يحيط به ويكبّل حريته وقدرته على الانطلاق. ولكن هل هذا هو مفهوم الإنسان للإنسان؟ وهل وجود الإنسان في هذا العالم ليس سوى انتظار لقوة الموت التي لا تقهر؟ إن تجارب خليل الصّعبة التي مر بها لم تكسره بل خلقت منه إنسانا قويا وجد جذوره في ذاته التي وجدها بعد أن تصدّعت في غياهب القلق ومataها الضياع.

«الجذور التي طال تفتيشي عنها خارج عني قد تبزغ في اعماقي وتنمو وتتأصل. والقلق الذي حاولت، عبثًا، خداعه لسوف أعصره حبرًا وأصباغًا، فلعلي لا استمر لا شيء».

بهذه الكلمات اختتم جميل جبر روايته «قلق»، وبهذه السطور وجد بطل الرواية الخيط الرفيع بينه وبين معنى وجوده كإنسان. فمن هو هذا الإنسان؟ وما هي ماهية وجوده؟ وهل يعقل أن يولد الإنسان ويحيا دون أن يصير شيئًا؟ ولماذا يصير؟ ولمن؟ وإلى أي مدى يستطيع الإنسان أن يمدّ جذوره ويثبت وجوده كإنسان تميّز بعقله عن سائر المخلوقات؟

يقول الفيلسوف هايدجر بأن الإنسان في ذاته هو كائن ملقى في العالم. ولا شيء

(1) أستاذة مساعدة في اللغة الانكليزية/الجامعة اللبنانية بيروت ١٠/١١/٢٠١٨.



موضوع بحثنا، نجد البطل خليل يصارع ويحاول بكلّ طاقته البشريّة أن يطرد القلق من حياته ويرمي أثقال الفراغ بعيدا عن حياته ليبدع معنى لوجوده كإنسان يحيا من أجل الحياة ويبعث الأمل في نفوس الضّعفاء.

فرغم ان خليلا كان رسّاما موهوبا، إلا أنه لم يستغل موهبته ليعيش. إلى ان ساقته الظروف إلى لقاء «ثريا»، المرأة التي أحب، إذ حثته على السّعي وراء تحسين أوضاعه علّهما يوما يجتمعان في بيت واحد وزوجا وزوجة. تلا ذلك مساعدته لها ووقوفه بجانبها واحتضان تعاستها بحرارة حبّه وحنانه عليها. ومع توالي الأحداث يعرف القارئ أن لثريا طفلة صغيرة اختطفها من أحضانها عمّتها وهذا ما سبّب في أول محاولة لانتحارها والتي باءت بالفشل. وليزرع الأمل في نفسها الضائعة، فقد وجد لها عملا تقوى به على ظروفها. ثمّ أتى اليوم المشؤوم حيث كانا قد تواعدا فيه على اللقاء ولم تأت. لقد انقلبت بها السيّارة ونقلت إلى المستشفى على أثر إصابة عمودها الفقري الذي تسبّب بشللها. هذه الحادثة كانت السبب الثاني لمحاولتها الانتحار بعد أن أصيبت بحالة انهيار عصبي حين علمت باستحالة شفائها. خليل يصاب بالإحباط اذ يشعر بأنّه قد فقد الأمل في كلّ الأشياء حوله، خاصّة أنّه فقد أمّه

حكاية خليل لم تبدأ مع بداية الحدث في الرواية. إن حكايته كانت قد بدأت يوم «ألقي» في العالم حيث تسرّب القلق إلى حياته من كل مجهول تحتضنه لحظات المستقبل. فكان بحثه عن الاستقرار والسكينة والهروب من ظروف الحياة القاهرة مصدرا لانزعاجه الدائم وحرزته الأزلي. إن خليلاً تدحرج في دوامة الفراغ يبحث عن ذاته ليحققها وما إن وجد من يملأ هذا الفراغ حتى اصطدم بواقع الظروف الاجتماعية التي حبسته في حلقة مفرغة من جديد. فَقَدَ خليل كل الذين بالأمس، ولفترة زمنية محدودة، كانوا قد ملأوا عليه حياته وديناه. وفي ختام مأساته قرر ان ينتفض ويزيل غبار الانكسار عنه لايامانه القويّ بأنّ «الإنسان كالنبته لا يعيش بدون جذور» (جبر ص: ٥٠).

والجذور إذا ما رويت تموت، وفي يد خليل وُلد الأمل الذي به سوف يروي جذوره ولو بعد حين. وبذلك يتغلب على الفراغ الذي يقوده إلى «العدم» الغامض الذي فيه يضيع الإنسان واليه ينتهي وجوده. إلا أنّ هذا الإنسان كائن بذاته وليس تابعا إلى أية قوّة خارج إرادته. وبذلك يكون هو الأصل للوجود ولا شيء موجود خارج نطاق وعيه. واذا ما استسلم لواقع فرضته عليه الظروف، أصبح اللأشياء بمعنى إلا إنسان. وفي الرّواية،

وحبيبته في أوقات متزامنة. يسافر خليل هروبا من الألام التي ألمت به بعد حادثة أمه، ثريا، ثم مرض أمه فموتها علّه يقوى على الظروف. لكنه يعود فور علمه بوقوع الأحداث في بلده لبنان إذ يشعر بمدى المسؤولية الملقاة على عاتقه كمواطن لبناني ملتزم. فحقيقته كإنسان تجعله مواجهًا لا متجنبًا.

لكن تسلسل الأحداث السريعة الإيقاع في الرواية لا يقل أهمية عن العديد من المواقف الإنسانية التي أشارت إليها القصة بشكل مباشر. فكانت مواقف دقيقة دقت نواقيس الرهبة في قضية الإنسان وعلاقته بذاته وبما يدور حوله من أحداث وأشخاص ومعطيات. وجميل جبر تناول في هذه الرواية الكثير من القضايا الإنسانية الحساسة التي أعطتها الكثير من الرنق والرقي الإنساني، منها الانتحار والفقر وظلم المجتمع وعلاقة الإنسان بالطبيعة وبالأخر.

هناك مسألتان متميزتان كانتا ركنين لا يستهان بهما إذ يشيران إلى النزعة الإنسانية في الرواية. ولقد اعتبرت النزعة الإنسانية بمثابة: «ثورة حقيقية» على حد قول الداوي في كتابه موت الإنسان (الداوي ص: ١٩٠). إنها ثورة الإنسان على الحياة وتقاليد المجتمعات واستضعاف القوي لمن هو أضعف. فأول ما يصطدم به الإنسان

هو المجتمع إذ يجد فيه ما يعيق حرّيته فيثور للدفاع عنها ولاثبات وجوده. والنزعة الإنسانية: «هي كل فلسفة تخص الإنسان بمكانة ممتازة في هذا العالم. وتعزو إليه القدرة على المبادرة الحرة والإبداع، وتعتبره متحليًا بالوعي وبالإرادة، وبالتالي مسؤولًا عن أفعاله وعن تحريره» (الداوي ص: ١٩١).

فالمسألة الأولى في رواية «قلق» هي هوية ثريا. ثريا هي المرأة التي تعرّف بها خليل في أحد النوادي الليلية حيث تورط القارئ، كما خليل وأصحابه، بظنّه السوء بها. إلا أنّ حدس خليل ومضيّه وراء شعوره بصدقها قلب المقاييس وجعل خليل يرى ما عجز مجتمع بأسره أن يراه. فالإنسان يحكم على الآخر من خلال المرأة التي تعكس وضع هذا الآخر الإنساني قبل أن يقرأ ظروفه التي تلفّ صورته الحقيقية بظلام يأكل النور الإنساني بداخله. وأصحاب خليل كلهم تهاكوا على سمعة ثريا وشكّوا بها وبمصداقية حبّها لخليل. حتى صديق خليل المقرّب منه ويدعى سعيد، حدّر خليلًا أكثر من مرة ونصح بالابتعاد عنها لأنه يرى أنها لا تليق به. وهناك بعض أقارب خليل الذين رأوه معها إذ أخبروا أمّه بأنه يصرف على مومس: «راقبي ابنك فهو يعيش رقاصة تمتصّ ماله وشبابه» (جبر ص: ٧٤). فكان حكم أمّه

على ثريا غيابياً كحكم الناس عليها. ولكنَّ إنسانية خليل أضاءت شعلة الحقيقة في قلبه وعينيه فرأى ثريا الإنسانية المظلومة والمعذّبة، وأبى ان يكون والمجتمع حليفاً عليها. فقرّر الوقوف بجانبها ونصرها وإن أدّى ذلك إلى شعوره بالقلق من جرّاء تحمّله عبء مسؤوليّتها. فمن وجهة نظر الوجوديين، إنّ الإنسان غير مفصول عن الآخر. هويصنع نفسه من هذا الآخر ويحقّق به وجوده. وإذا كانت النتيجة صراع ثريا مع الموت في نهاية الرواية، فذاك لأنّه قدرها.

والقدر هو دائماً الأقوى حتّى على الحب. هذا الحب الذي تحوّل إلى محبّة في قلب خليل إذ يقول «تحوّل حبي لها إلى محبة. صرت اشعر قربها الآن شعور الأخ نحو اخته» (جبر ص: ١٨١). انه هذا الحب الذي بدّله في يوم من الأيام وملاً فراغ حياته وسرقه من وحدته وجعله إنساناً ينظر إلى الحياة نظرة أمل وتمنّ: أسألتني احياناً لماذا احبها.. فإذا الجواب: أحبّها لأنني في ساعة ما شعرت ان شيئاً قد تبدل فيّ وأني صرت انظر إلى الحياة غير نظرة. حتى طريقة مشيّي تغيرت بعد أن عرفتّها. خطاي صارت تنقر الارض بعزم وصرت اتنفس بغير ضيق (جبر ص: ١١٥).

فالحب حكاية طويلة أولها الإنسان وآخرها الإنسان. والحب هو هذه الجذور

التي تعلّقه بالحياة اكثر واكثر وتخلق منه بدعة إنسان. والحب أيضاً يجعل من الإنسان نبع عطاء يضيف إلى وجوده معنى: «ما أحلى ان يفعل الإنسان شيئاً، أن يحس أن لوجوده شأنًا» (جبر ص: ٧٨). الحب هو كل ما جدّد في خليل حين ساعد ثريا وأمّن لها عملاً شريفاً تساعد به نفسها على مقاومة ظروفها الأليمة العسيرة. فالإنسان بطبيعته يحتاج إلى ان يكون شيئاً ما، يحتاج إلى شيء ما يحرك أحاسيسه وينقله من عالم الفراغ واللأوجود إلى عالم موجود. فهو: «يحتاج دائماً إلى ما يصبوب إليه حسه. إلى ما يجعله محور الدائرة في حياته» (جبر ص: ٨١). إنّ الإنسان يجعل من وجوده محوراً لوجود الآخرين ومن الآخرين محورا لوجوده.

أما المسألة الثانية التي تشير إلى النزعة الإنسانية العميقة في هذه الرواية هي علاقة الإنسان بالطبيعة وإيمانه بوجوده من خلالها. وهذه العلاقة تبرز واضحة في شخصية أم خليل أو على الأقل كما أظهرها لنا خليل. إنها المرأة العجوز التي تتربص للقدر بتسلحّها بجذورها، والتي تتحدّى الموت من خلال تعلّقها بمصدر الحياة، بالارض الطيبة. تلك الطبيعة الطبيعيّة التي لم تدنّسها يد الآلة ولا ضجيج أشباح المدينة. انها قصّة غرام قويّة تعكس حب الإنسان لذاته البشرية وثقته بمقدرته على

وعى الوجود من خلال وعيه لذاته. فأم خليل: «غريبة في تعلقها بالأرض انه الغرام بالذات ولا بد لكل إنسان من شيء يتعلق به» (جبر ص: ٧٠). وهذا الشيء هو الجذور التي مضى خليلاً أكثر من نصف عمره يبحث عنها خارج ذاته ولم يجدها إلا حين تصالح مع نفسه وقرّر كإنسان ان يبحث عنها في أعماقه حيث تنبت وتتأصل. وربما هذا هو الفرق الشاسع بين تعلق أمه بالجذور، أصل الإنسان، الأرض، وبين تعلق خليل باللاشيء او بالزوال. فتعلقه بثريا أدّى به إلى الفراغ. وتعلقه بأمه أيضاً أدّى به إلى الفراغ لأن ما تعلق به من أشياء جذورها لم تكن تمتد إلى أبعد من العدم، من الموت. والنتيجة هي حتماً أن يعي ذاته. فبين أسراب الوحدة سافر وخلف افاق الحرية غرد ليرسو على مرفأ القلق الأبدي. فيقول بعد عودته إلى بيت أمه قريب وفاتها: «بقي لي هذا الجذر فتواري، صرت وحدي... وحدي... يلقني الفراغ حتى اهدابي، وينحرنى القلق: قلق إلى يومي. وإلى غدي وإلى ما بعد غدي» (جبر ص: ١٥٠).

وتقول الفلسفة الوجودية في القلق على لسان سارتر بأن: «القلق يفسّر بمسؤولية مباشرة تجاه بقية الناس الذي يلزمهم القلق ذاته. إنه ليس بحاجة يفصلنا عن العمل بل هو جزء منه» (سارتر ص: ٢٣). ويضيف

سارتر بأن «القلق لا يؤدّي إلى السكون، بل إنه قلق بسيط يختبره كل الذين تحمّلوا مسؤوليات» (سارتر: ص ٢٢). وخليل رجل تحمّل مسؤولية من أحب وقدّر أوضاعهم وخاف عليهم ويقلقه رحيالهم ولكنه غير مستسلم. رغم أن القلق يحلّق في سماء حياته ويشكل خطراً على مساره في سياق يومياته. وقد يكون هذا القلق هو الدافع الذي يحثّه على العمل أكثر وهذا يدعم قول الوجوديين بأن القلق يجعل الإنسان يعمل أكثر لأنّ القلق مرافق للعمل. فحين يعمل الإنسان يقلق وحين لا يعمل لا يقلق.

والقلق الدائم على من يحب، أدّى بخليل إلى حالة من الإحباط لفترة غير وجيزة، فلم يجد رفيقه سعيداً سبيلاً إلا أن ينصحه بأن يبحث عن جذر ثابت أصيل يكسّر به جليد وحدته: «فتش لك عن جذر ثابت يا خليل. لا يجوز ان تبقى وحدك» (جبر ص: ١٦٥). ولكن بما ان الإنسان «كالنبته لا يمد جذوره إلا حيث يوائمه المناخ. ويكاد يستحيل عليه كما يستحيل عليها أن يعيش في غير بيئته» (جبر ص: ١٤٦)، فلقد قرر خليل ان يفعل شيئاً ما وأن يواجهه لا أن يهرب. والمواجهة تبدأ بأن يبتعد هذا الإنسان عن الإحباط والحزن وأن يتصالح مع نفسه ويعرّزها بالثقة لعلّه يصير شيئاً: «لعليّ أفعل شيئاً. لعليّ أكون شيئاً» (جبر ص: ٢٠١). والشّعور بالإحباط قد يعتمّ بريق الحياة

والإنسان اذا تمسك بالحياة طرد اليأس والقلق وفهم ماهية وجوده وقيمه كإنسان. أما صراع البقاء فهو فقط لمن يستحق الحياة ويؤمن بأنها مواقف تحدي، كلما اتعبتنا تعمقت جذورنا بها اكثر. والموج الذي لا يبتلع الضحية يخلق منها سداً عتيداً.

### المصادر والمراجع

- ١ - الداوي، عبد الرزاق، موت الإنسان في الخطاب الفلسفي المعاصر. (هيدجر، ليفي ستروس، ميشيل فوكو) دار الطليعة - بيروت. ك١، ١٩٩٢.
- ٢ - جبر، جميل، قلق (راويّة). منشورات دار الطليعة - بيروت. الطبعة الأولى. ك ١٩٦١٢
- ٣ - سارتر، جان بول، الوجودية فلسفة إنسانية. ترجمة حنا دميان، دار بيروت. ١٩٥٤.
- ٤ - نجدي، نديم، إضاءات نيتشوية. (ما قبل الكلام... وما بعده) دار الفارابي - بيروت. الطبعة الأولى ٢٠٠٢.

ويُبعد الإنسان عن شعوره بأنه إنسان. وكما يصفه نديم نجدي: «ان الشعور بالإحباط لا يضاهي كربه شعوراً آخر لخيبة نفسك من نفسها الحالمة كانت بتحقيق الأمر الذي ظننته كافياً للرّضى على النفس. فتحقق ولم ترض» (نجدي ص: ١٠٥). وخلييل أراد العمل، أراد الحبيبة، أراد الأم، وأراد الوطن. وبتحقيقه ما كان يصبو إليه لم يرض لأنّ النّفس دائمة البحث عما هو مفقود خاصّة في الرّمن المفقود. واذا وجد، فقد فقدَ هذا الشيء بمجرد وجوده فتفرغ النفس للبحث عن آخر. وكل ما تبحث عنه نفس الإنسان من اجل تحقيق الذات هي اشياء خارج الذات. وكما يقول سارتر: «إن الإنسان لا يحقّق وجوده الإنساني بإتجاهه نحو ذاته، بل بسعيه نحو غاية خارجية هي في حدّ ذاتها تحرير له وتحقيق لوجوده».

(سارتر ص: ٦٠).

وما تحقيق وجود الإنسان في الحياة سوى اثبات بأنه شيء ما لأنّ اللاشيء قد ينتمي إلى أي شيء دون ان يحتاج إلى الجذور. أمّا الذي يريد ان يكون شيئاً في هذه الحياة يجب ان يقوى على الظروف وان يبصم قدما في عالم الوجود الذي أتى إليه ومنه ينتقل، والغموض يكتنف الرحلة بأكملها.

## الدِّفاع عن الأطروحة: أساليب واستراتيجيات ومهارات

### د. كميل مخايل

مناقشة أسئلة الممتحنين وانتقاداتهم والرّد عليها من دون عقبات معرفية كبيرة. يعرض الباحث دور هذه المهارات والخبرات في إغناء الحصيلة الثقافية لطالب الدّكتوراه وفي نجاح مسيرته المهنية لاحقاً أو تبعاتها المفترضة على نيّله فرصاً توظيفية بعيد تخرجه.

**الكلمات المفاتيح:** أطروحة، ممتحن، خطاب، أساليب، استراتيجيات، مهارات، خبرات، أسئلة، انتقادات.

### ٢ - مقدمة:

في زمن تنوّعت فيه كثيراً الاختصاصات الأكاديمية وكثر طلاب الدّكتوراه والأطروحات على حدّ سواء، بات التركيز في الجامعات ينصب على نوعية الأطروحات، وبالتالي تطورت كثيراً الأبحاث المرتبطة بتقييم الأطروحات وكيفية الدِّفاع عنها. يشغل هذا الموضوع الآن حيزاً كبيراً من منهجية كتابة الأطروحات في أدبيّات كتابة الأطاريح في الجامعات والمعاهد

### ١ - ملخص:

يتناول هذا البحث دراسة موضوع الدِّفاع عن الأطروحة بُعيد انتهاء طالب الدّكتوراه من كتابة أطروحته. يتفرّع هذا الموضوع إلى مرحلتين، مرحلة ما قبل المناقشة ومرحلة المناقشة؛ يبدأ الباحث بعرض الرّكائز الأكاديميّة للدِّفاع عن الأطروحة، إذ لا يزال بعضها غامضاً حتى الآن، ومن ثمّ يشرح بعض الإشكاليات التي قد تعترض طالب الدّكتوراه أثناء إعداد خطابه، ومنها إشكاليّة تحديد وظيفة الخطاب ومضمونه وتضمينه الرّد على بعض أسئلة الممتحنين وانتقاداتهم المفترضة. ثم يتطرّق الباحث إلى الأسلوب المناسب الذي يجب أن يعتمد عليه طالب الدّكتوراه في كتابة خطابه أو في مناقشة أسئلة الممتحنين بنجاح من جهة، كما يتطرّق إلى الاستراتيجيات التي على طالب الدّكتوراه اللجوء إليها لتحقيق الهدف نفسه من جهة أخرى. يتناول البحث أيضاً بعض المهارات والخبرات الواجب اكتسابها بهدف

الخبرات المناسبة التي يجب اكتسابها قبل مناقشة الأطروحة؟

هذه هي بعض المسائل التي قد تساهم أحياناً إما في تشتيت تركيز طالب الدكتوراه، وإما في نجاحه؛ لذلك فإن هذا الأمر يحتم على طالب الدكتوراه اعتماد استراتيجية واضحة تجعل من المسار البحثي الذي اعتمده الطالب مساراً بحثياً متماسكاً. هذا المسار لا يبدأ بكتابة الأطروحة، بل يبدأ بكتابة مشروع البحث وينتهي بالدفاع عن الأطروحة أو «مناقشة الأطروحة» وفقاً لما يرد دائماً في إعلانات المعهد العالي للدكتوراه للآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية - الجامعة اللبنانية والتي ينشرها على موقعه الإلكتروني (١:٢٨)<sup>(١)</sup>. لذلك من المهم أن يكون طالب الدكتوراه جاهزاً للدفاع عن أطروحته قبل الموعد المحدد.

لقد كتبت هذا البحث ما بين منتصف عام ٢٠١٢ وبداية عام ٢٠١٨، وذلك خلال إعدادي لشهادة الدكتوراه وبعيد نيلها؛ وبالتالي هذا البحث هو نتيجة تجربة شخصية، ناهيك عن حضوري أو مشاركتي في حوالي خمسين نشاطاً أكاديمياً، منها حضور عدد كبير من مناقشة الأطروحات

الغربية، لأنّ منهجية الدفاع عن الأطروحة تعكس إلى حدّ كبير ثقافة طالب الدكتوراه وأساليب تفكيره التي اكتسبها وطورها إبان كتابة أطروحته، نظراً إلى أنّ الدفاع عن الأطروحة يرد في نهاية مسار بحثي طويل ومضنّ.

هذا المسار البحثي قد يمتد فترة تدوم أقله حوالي ثلاث سنوات، لذلك سيسعى طالب الدكتوراه بعيد الانتهاء من كتابة أطروحته إلى نيل أفضل درجة علمية يمكنه الحصول عليها؛ ولكن هذا السعي المشروع قد يصطدم بعقبات نفسية ومعرفية عديدة. وبالتالي يعدّ تذليل هذه العقبات أمراً رئيساً للنجاح في مناقشة الأطروحة. بالنسبة إلى العقبات النفسية، فإن طالب الدكتوراه يواجه هاجس مناقشة أطروحته أمام الممتحنين، مما يسبب له توتراً ملحوظاً.

أمّا بالنسبة إلى العقبات المعرفية، فإن طالب الدكتوراه سوف يكون مدعوّاً إلى التأمّل في مقارنة أسلوب الدفاع عن أطروحته، وغيره من المسائل، أذكر منها هنا على سبيل المثال: هل يعدّ الأسلوب التربويّ الأسلوب المناسب للدفاع عن الأطروحة؟ وما هي المعلومات التي يجب أن يتضمّن خطابها؟ وما هي المهارات أو

(١) يمثل الرقم الأول رقم المصدر وفقاً لترتيبه الوارد في فهرس المصادر، أما الرقم الثاني فيمثل رقم صفحة المصدر الواردة فيها المعلومة المذكورة في متن البحث.

في المعهد العالي للدكتوراه، وحضور ورشات عمل، وحضور أو مشاركة في أكثر من مؤتمر، ناهيك عن المراجع التي اطلعت عليها والمذكورة في نهاية البحث.

### ٣ - الدِّفاع عن الأطروحة: المفهوم والأسس

تبين لي من مشاهدتي لكثير من مناقشة الأطروحات، وأثناء إعدادي لهذا البحث، أن مصطلح (الدِّفاع عن الأطروحة) يثير قلقًا كبيرًا في نفوس طلاب الدكتوراه؛ إلا أن هذا القلق مبالغ فيه أحيانًا، فالطلاب غير متهمين بشيء ليدافعوا عنه أمام الممتحنين، والممتحن بدوره ليس إلا أستاذًا أكاديميًا يقرأ الأطروحة ويكتب تقريرًا مفصلاً يقدم فيه توصياته (٥٦٤:١٤). وربما يعود سبب ذلك، أي قلق الطلاب، إلى أنهم لا يتدربون على مناقشة الأطروحة أو لا يتحضرون لمناقشتها في بعض الاختصاصات في الجامعة اللبنانية أو في غيرها. لذلك يعرف الباحثون المتخصصون مفهوم الدِّفاع عن الأطروحة بأنه فرصة للقيام بأبحاث، وهو بالتالي ليس تهديدًا لطلاب الدكتوراه (٢١٩:٧).

وتبين لي أيضًا أن الدِّفاع عن الأطروحة هو أشبه باجتماع أو مقابلة علنية مع مجموعة من الممتحنين الذين يريدون التأكيد من مسائل عديدة، إلا أن هدفهم الرئيس هو نجاح الطالب وحصوله على درجة علمية

يستحقها، وتقديم نصائح بناءة لطالب الدكتوراه، وذلك بهدف تحسين أطروحته، سواء أكان ذلك في لبنان أم في خارجه (٥٦٤:١٤). والممتحن يهتم كثيرًا بهذه النصائح التي يضمنها تقريره الخطي أو التي يقولها في سياق المناقشة، لأن دورهم كمتحن يتطلب ذلك.

بالنسبة إلى مصطلح «الدِّفاع عن الأطروحة»، أو «مناقشة أطروحة» فإنه يعدّ ترجمة للمصطلح (Soutenance) (٨٥٧:٦)، هذا الأخير يشتق بدوره من مصطلح آخر وهو (Soutenir) الذي يفيد في معجم روبير الصغير المعاني الآتية:

\* تذرع بحجج منطقية.

\* عرض أطروحة ودافع عنها أمام لجنة تحكيم (١٤١:٢٤).

أما بالنسبة إلى معنى مصطلح أطروحة (Thèse) فهي المذكرات أو الأعمال الموضوعية والقضايا التي يتعهد المرشح لنيل درجة دكتور بالدِّفاع عنها (١٤٥٧:٣). والأطروحة هي أيضًا وثيقة تعكس مقدرة طالب الدكتوراه على ممارسة المسائل الآتية:

\* التّفكير بوضوح.

\* التّعبير بإيجاز عن أفكاره المنطقية.

\* التّمييز بين ما هو مهم وما هو عادي.

\* إبراز كفايات تخصصية.



\* تحليل المعطيات وتوضيح النتائج  
(٢٠٩:٧).

بناء على ما ورد للتو، يمكن استنتاج  
المسائل الآتية:

\* الدِّفاع عن الأطروحة هو عمل  
حجاجي في جوهره، وبالتالي يتطلَّب الدِّفاع  
عن الأطروحة مهارات حجاجية.

\* الدِّفاع عن الأطروحة هو عرض  
لمعلومات منسقة، وهو كثيرًا ما يتمُّ أمام  
جمهور وممتحنين، وبالتالي يتطلَّب كفايات  
ومهارات في كيفية عرض المعلومات،  
والتَّواصل مع الآخرين.

\* الدِّفاع عن الأطروحة هو دفاع عن  
مجموعة قضايا متماسكة وردت في عمل  
متكامل. وبالتالي يتطلَّب الدِّفاع عن  
الأطروحة الإمام بكل تفاصيل الأطروحة،  
ومكان ضعفها وقوتها معًا.

بالنسبة إلى مكان ضعف الأطروحة أو  
أخطائها، سأتطرق إلى أهمها في المبحث  
(٢:١١)؛ أما بالنسبة إلى مكان قوة  
الأطروحة، فلكل أطروحة خصائصها  
المميزة، إلا أنَّ هناك معايير عالمية تجعل  
من العمل البحثي الأكاديمي عملاً مميزاً،  
يمكن إيجاز هذه الأخيرة على النحو الآتي:

\* الأطروحة عمل فني بامتياز، أي أن  
الطالب قام بهندسة أبواب الأطروحة  
وفصولها بدقة متناهية، كما قام بتوليف  
المعلومات ببراعة، ناهيك عن براعة التَّطبيق.

\* الأطروحة عمل إبداعي.

\* الأطروحة متناسقة ومترابطة، حيث  
كل شيء فيها متناسق مع غيره.

\* الأطروحة نتاج فكري يتميز بالاعتدال  
والبديهية.

\* أسلوب كتابة الأطروحة يتميز  
بخصيصة الدقة والاتقان.

\* الأطروحة عمل خال من الشوائب، أي  
أنها قابلة للنشر (٣٧٩:٢٠).

هذا كان في ما خصَّ مفهوم الدِّفاع عن  
الأطروحة ومعاييرها، أمَّا في ما خصَّ  
أركان الدِّفاع عنها، فإن مناقشة أطروحة  
الدكتوراه تتركز على أربعة أركان، وهي:

\* خطاب المناقشة.

\* المؤسسة التَّعليمية.

\* الممتحنون والأسئلة.

\* طالب الدكتوراه (٣:٢١-٤).

هذه الأركان هي مهمة جداً، وسأعرض  
تفاصيلها تباعاً في الصفحات الآتية.

#### ٤ - الدِّفاع عن الأطروحة: مرحلة ما قبل موعد المناقشة

بادئ ذي بدء، أريد تحديد الإطار  
المعرفي العام لمرحلة مناقشة الأطروحة  
والتخطيط لها. تتطلب كتابة الأطروحة  
مهارات عديدة ومتنوعة، ومنها مهارات  
بحثية وإنشائية، وكثيراً ما ينتج عن

مهارات متطورة، سواء أكانت مهارات بلاغية أم إعلامية ترتبط بتقديم الأطروحة (١٦:٢١).

هذه المهارات المفترضة باستطاعتها مساعدة طالب الدكتوراه إذا ما أحسن توظيفها في مناقشة أطروحته، فليست كل المناقشات تصل إلى نهايات سعيدة<sup>(١)</sup>؛ كما أن تحديد موعد لمناقشة الأطروحة لا يعني أن دور الطالب البحثي انتهى، بل إن كل ما يعنيه ذلك هو أن الممتحنين مقتنعون أن الأطروحة جيدة بما فيه الكفاية لمناقشتها (٢٧٤:١٩). لذلك يتحتم على طالب الدكتوراه أن يكتسب بعض المهارات والخبرات الضرورية، وهذه الأخيرة تقع على النحو الآتي:

٤ - ١ - يعدُّ الخطاب الذي يلقيه طالب الدكتوراه بُعيد إعلان بدء المناقشة فرصة جديدة لطالب الدكتوراه لإضافة حجج جديدة، أو توضيح حجج قديمة، حجج تساهم في ترسيخ النتائج التي توصل إليها وذكرها في متن الأطروحة أو في نهايتها. هذا الخطاب يجب أيضًا أن يطمئن نفوس الممتحنين، ويهدأ من قلقهم المشروع إزاء الأطروحة والطالب نفسه، لا أن يثير شك

الاستخدام الحذق لهذه المهارات أطروحات ممتازة. إلا أن مهارات الدفاع عن الأطروحة تختلف عن مهارات كتابة الأطروحة، يتطلب الدفاع عن الأطروحة مهارات جديدة (١٥:١٤٥)، ويجب على طالب الدكتوراه محاولة اكتسابها قبل الموعد المحدد لمناقشة أطروحته.

هذه المهارات تشمل المقدرة على الحجاج، والمقدرة على التواصل والتفاعل مع الممتحنين، والمقدرة على الإلقاء الجيد، والإنصات وغيرها من المهارات. وبالتالي ليست هذه المهارات مهمة فحسب، بل هي حاجة لا يستغنى عنها لطالب الدكتوراه في مرحلة الإعداد لمناقشة الأطروحة، لا سيما وأن هذه الأخيرة قد تكون أحيانًا أهم مرحلة في مسيرة الحصول على شهادة الدكتوراه.

ونظرًا إلى أهمية اكتساب مهارات جديدة للدفاع عن الأطروحة، ربط الباحثون الغربيون بين تعريف الدفاع عن الأطروحة واكتساب مهارات جديدة؛ كتبت إحدى الباحثات المتخصصات في هذا الموضوع ما يأتي: الدفاع عن الأطروحة هو حدث تواصلية رفيع المستوى، وهو يتطلب

(١) في بداية عام (٢٠١٧)، وأثناء إعدادي لهذا البحث، شهدت مناقشة أطروحة في العلوم الاجتماعية في المعهد العالي للدكتوراه - بيروت - حيث تعرض فيها طالب الدكتوراه لانتقادات عنيفة بسبب سوء استعماله للبرنامج الإحصائي (SPSS) في متن أطروحته، وفي نهاية المناقشة نال درجة (مقبول)، الأمر الذي أثار استياءه بشدة.

المتحنيين ويعزز قلقهم، لأن الممتحن يريد الحفاظ على مصداقيته، ولا يريد أن يكون مسؤولاً عن إعطاء طالب الدكتوراه شهادة لا يستحقها (٢١٨:١١).

وهو، أي الخطاب، لا يمكن بأية حال أن يكون تكراراً حرفياً لما كتبه طالب الدكتوراه في بداية أطروحته بهدف تعريفها، لأن تكرار ذكر المكتوب في بداية الأطروحة، وأمام مجموعة من متحنيين أذكياء قاموا بتمحيص أطروحة طالب الدكتوراه، سوف يكون دفاعاً ناقصاً وخطأً غير مبرر (٣٢:١٦).

إلا أن ذلك لا يعني أن طالب الدكتوراه غير مدعو إلى تعريف أطروحته، بل على العكس، إن طالب الدكتوراه مدعو إلى تقديم أطروحته والتعريف بها، إنما بأسلوب يعكس جديته وذكاءه معاً. ولكن كيف يتجلى ذكاء طالب الدكتوراه وجديته في كتابة خطاب المناقشة؟ وما علاقة ذلك بالمرحلة التي تسبق المناقشة؟ الجواب عن هذين السؤالين يكمن في المسائل الآتية:

٤ - ٢ - لما كانت المرحلة التي تسبق المناقشة قد تستغرق شهوراً طويلة، فإن طالب الدكتوراه مدعو لإغناء معلوماته وتطوير مهاراته. هذه المرحلة تعد فرصة لطالب الدكتوراه لإغناء ثقافته وإجراء أبحاث معمّقة تزوده بأفكار جديدة، أفكار تسمح لطالب الدكتوراه بفهم مكامن ضعف

أطروحته من جهة، وباستنباط حجج جديدة قد يستخدمها لاحقاً في دفاعه عن الأطروحة، إذ من شأن ذلك أن يظهر الطالب مثقفاً وخبيراً في حقل اختصاصه أثناء مناقشة أطروحته (١٨٧:٢٣). لذلك تبرز هنا أهمية قيام طالب الدكتوراه بأبحاث متصلة بموضوع أطروحته. هذا الإجراء يندرج في إطار إعداد طالب الدكتوراه لنفسه إعداداً علمياً.

٤ - ٣ - تعدّ علاقة طالب الدكتوراه الجيدة بالدكتور المشرف من المسائل الاستراتيجية، وبخاصة في المراحل الأخيرة من كتابة الأطروحة. يمكن لطالب الدكتوراه في هذه المرحلة أن يستعين بخبرات الدكتور المشرف (٨:١٧). تشمل هذه الأخيرة أسلوب الدفاع عن الأطروحة، وكيفية التّواصل مع الممتحنين أثناء جلسة مناقشة الأطروحة، وإمكانية توسط الدكتور المشرف لصالح طالب الدكتوراه قبل جلسة المناقشة أو خلالها، وبخاصة إذا ما أثّرت مسائل معينة، أو إذا ما اعترض أحد الممتحنين على بعض المواضيع الواردة في متن الأطروحة.

هذه المسألة هي في غاية الأهمية، لأن اللغظ الذي قد يحصل أثناء جلسة المناقشة، أو الذي قد يرد في تقرير الممتحنين، وعلى الرّغم من أنه يرتبط بأسباب علمية تتعلق بموضوع الأطروحة في أغلب الأحيان،

لتبادل الأفكار والخبرات بين طالب الدكتوراه وزملاءه أو أساتذته الدكاترة.

وإذا ما أحسن طالب الدكتوراه الاستفادة من النشاطات المذكورة أعلاه، فقد تكون هذه الأخيرة ذات قيمة مضافة؛ فإذا ما اشترك طالب الدكتوراه في هذه النشاطات، فإنه يمنح نفسه فرصة اختبار قدراته واكتشاف مكامن ضعفه، سواء أكان ذلك في إعداد الخطابات، أم في إلقائها، أم في اكتشاف قدراته الحجاجية على إقناع المشاركين في هذه النشاطات بأفكاره. وتكتسب هذه النشاطات قيمة أخرى، إذ تعد تجلياً من تجليات الممارسات الثقافية للجامعات في بلد ما؛ ولما كانت هذه الأخيرة ترتبط بالمنهج التربوي، فإنها تعكس فلسفة الجامعات للدراسات العليا؛ وبالتالي قد تقدم هذه النشاطات لطالب الدكتوراه أفاقاً جديدة للتعرف على فرص عمل جديدة.

#### ٥ - خطاب المناقشة: الوظيفة والمضمون

خطاب المناقشة هو خطاب يقدم معلومات أو معرفة بأسلوب ونمط يحدده طالب الدكتوراه. يحاول طالب الدكتوراه بواسطة هذا الخطاب تقديم أطروحته وإقناع الممتحنين بصوابية أفكاره ومنهجيته البحثية ونتائجها، وبالتالي يحاول بذلك تحسين درجته العلمية التي سيحصل عليها

ولكنه أحياناً يرتبط بأسباب إيديولوجية، وبخاصة في لبنان، الوطن المتعدد الثقافات. فليست كل الأطروحات ذات طابع لغوي، بل كثير منها يعد ذات طابع فلسفي أو اجتماعي، حيث تتضمن أفكاراً سياسية أو دينية غير متفق عليها. لذلك يبرز هنا دور الدكتور المشرف كحليف يدافع عن رأي طالب الدكتوراه (١٨٥:٢٣)، ويشرح أفكاره، ويزيل أي لغط مفترض في تأويل المفاهيم والمعلومات الواردة في متن الأطروحة.

٤ - ٤ - يعد حضور مناقشة الأطروحات لطلاب الدكتوراه، سواء أكان ذلك في المعهد العالي للدكتوراه أم في غيره من المعاهد أو الجامعات اللبنانية، يعد أمراً مهماً جداً. هذه المناقشات تعد مصدراً جيداً ومعيناً فعالاً لخبرات يسعى طالب الدكتوراه إلى الحصول عليها (٢١٧:٧)، ويمكن لطالب الدكتوراه أن يتعلم منها كثيراً من الأمور. باختصار، يساعد حضور مناقشات الأطروحات وغيرها على اكتشاف العادات المتبعة في هذه المناقشات من جهة، وبخاصة اكتشاف الثابت والمتغير في مناقشات الأطروحات، واكتشاف ما هو مطلوب من طلاب الدكتوراه من جهة أخرى. ويضاف إلى ذلك، يعد حضور الأيام الدكتورالية والمؤتمرات والندوات البحثية التي تعقد في الجامعات اللبنانية أو في غيرها من الجامعات، يعد فرصة مهمة

٥ - ٤ - أسئلة البحث: ينتج في أغلب الأحيان عن كل إشكالية جوهرية إشكاليات فرعية. لذلك يذكر طالب الدكتوراه في هذه الفقرة الإشكاليات الفرعية على شكل أسئلة. هذا الأمر يعكس فهم طالب الدكتوراه لمسائل أطروحته.

٥ - ٥ - منهجية البحث: ترتبط إشكالية البحث بمنهجيته ارتباطاً وثيقاً، وبالتالي على طالب الدكتوراه أن يشرح منهجية بحثه، وأن يسوّغ اختياره لها، لأن هذه المنهجية سينتج عنها نتائج وتوصيات.

٥ - ٦ - تحديات الأطروحة: لكل أطروحة تحديات معينة، وهذا الأمر كثيراً ما يترافق مع العمل البحثي؛ وإذا ما ذكر طالب الدكتوراه هذه التحديات في خطابه أمام الممتحنين، فإنه بذلك اقترب من الباحث الموضوعي والمتواضع، وتحاشى بذلك بعض الانتقادات التي قد توجه إليه.

٥ - ٧ - نتائج الأطروحة: يذكر طالب الدكتوراه في هذه الفقرة أهم نتائج أطروحته، وبخاصة النتائج التي ترتبط بإشكالية أطروحته، أو النتائج التي قد ترتبط بأفاق بحثية محتملة؛ فمعظم الأبحاث الجيدة تؤدي إلى طرح أسئلة جديدة أكثر من الإجابة على أسئلة قديمة (٧:٢١٣). تعد هذه الفقرة ذات شأن، لأن ذلك يعكس مقدرة طالب الدكتوراه البحثية، ولأن النقاش في جلسة المناقشة كثيراً ما يدور

في نهاية المناقشة، ناهيك عن أنّ خطاب المناقشة يعكس أيضاً تطور الطالب الفكري والفلسفي. يتميز أيضاً هذا الخطاب بأنه خطاب علني يلقي أمام مجموعة من الممتحنين وجمهور من المثقفين، ولما كان التكلم علناً يثير خوف كثير من الناس، فإن إعداد الخطاب والتدرب عليه هو حل جيد (١٥:٦٥-٦٧).

أمّا بالنسبة إلى محتوى خطاب المناقشة فإنه يشمل ما يأتي:

٥ - ١ - الشكر: يبدأ طالب الدكتوراه بتقديم الشكر للدكتور المشرف وللممتحنين، والاعتراف بفضلهم، وتقدير ملاحظاتهم التي أغنت الأطروحة. هذا الأمر يعكس امتنان الطالب وتواضعه العلمي، فالأطروحات تنتج عن عمل مشترك يشارك فيه الدكتور المشرف والممتحنون في أغلب الأحيان، ومن الخطأ التغاضي عن ذلك (٨:٥٩٣-٥٩٤).

٥ - ٢ - إشكالية البحث: يعرض طالب الدكتوراه بداية موضوع أطروحته، وذلك بشكل مختصر جداً، ومن ثم يعرض إشكالية بحثه.

٥ - ٣ - أهمية البحث: ينتقل طالب الدكتوراه من إشكالية بحثه إلى التكلم عن أهميته، ويشدد طالب الدكتوراه على ما يمكن أن يقدم بحثه من معرفة إلى حقل اختصاصه.

حول نتائج الأطروحة. لذلك، على طالب الدكتوراه أن يصوغ هذه الفقرة بعناية ودقة.

#### ٥ - ٨ - توصيات ونقاش: يعرض

طالب الدكتوراه توصياته التي ذكرها في نهاية أطروحته، أو يحاول أن يفتح آفاقاً جديدة لدراسات جديدة؛ ومن الجدير ذكره هنا، أن طالب الدكتوراه مدعو لكتابة خطابه وتحريره بأسلوب تربوي (١٧:١٣)، لا أسلوب دفاعي، لأن الأسلوب الأوّل يتيح للطالب أن يشرح أفكاره ويظهر مواهبه الحجاجية والمعرفية من دون تكلف أو غرور في عرض المعلومات، فالأطروحات كثيراً ما تكون ذات نمط حجاجي (١٨:٢٣). ويضاف إلى ذلك، كتب أحد المتخصصين في موضوع الدفاع عن الأطروحة وأسلوبه أن مناقشة الأطروحة ليست المناسبة الملائمة للتصرف بعدوانية أو الإجابة بأسلوب دفاعي (١٩:٢٧٥).

والدفاع عن الأطروحة أو المناقشة هي تجربة فريدة من نوعها يمر بها طالب الدكتوراه، وقد لا تتكرر؛ لذلك تعدّ هذه التجربة فرصة يحاول فيها تضمينها مشاعره وأسلوب تفكيره (٢٧:٨٧)، ناهيك عن أسلوب عمله ومعلوماته. وبالتالي إذا ما استرسل طالب الدكتوراه بعرض معلوماته الغزيرة، أو إذا ما تباهى بها، فإنّ ذلك يعد خطأ غير ضروري، لأن الممتحنين يهتمون

بمسائل أخرى (٢٧:٨٧)، أهمها ما قدمته الأطروحة من معرفة علمية جديدة (١٩:٢٧٦). لذلك من المستحسن أن يستخدم طالب الدكتوراه الأسلوب التربوي في عرض المسائل التي يتألف منها خطابه، لأن وظيفة هذا الأخير هي التعريف بأطروحته من جهة، والتعريف بشخصية الخطيب أو طالب الدكتوراه وثقافته العامة من جهة أخرى.

كما أنني اقترح على طلاب الدكتوراه عدم اللجوء إلى الاستشهاد في خطاب المناقشة إلا إذا كان ذلك ضرورياً جداً، لأنّ الاستشهاد قد يظهر الطالب ضعيف الحجج، أو غير مستقل بتفكيره، ولم يطور أساليب تفكيره بما فيه الكفاية. وقد عاينت أثناء إعدادي لهذا البحث عدداً لا بأس به من الطلاب الذين استعانوا بأسلوب الاستشهاد أو الذين لم يستعينوا بأسلوب الاستشهاد وأظهروا كفايات تواصلية وتفكيرية مميزة أثناء المناقشة، وهؤلاء فاقوا النوع الأول عدداً ونجاحاً في نهاية المناقشة.

#### ٦ - التدرّب على إلقاء خطاب المناقشة:

تتبع مرحلة كتابة خطاب المناقشة مرحلة التدرّب على استظهاره وإلقائه، وهذه المرحلة الأخيرة تعد من المسائل المساعدة على نيل درجة مميزة في نهاية المناقشة، لأن ذلك يعطي انطباعاً بأن طالب الدكتوراه

ضرورية يجب اكتسابها قبل موعد المناقشة، سواء أكان الإلقاء في اللغة العربية أم في غيرها من اللغات الأجنبية.

٦ - ٢ - التدرّب على استخدام اللغة العربية الفصحى: ما من شك أن الإلقاء الجيد يترافق مع استخدام الفصحى في المناسبات العامة، وبخاصة أثناء إلقاء الخطابات ومناقشتها. وبالتالي على طالب الدكتوراه التدرّب على استخدام الفصحى بطلاقة وعفوية، لأن ذلك سيساهم مساهمة مباشرة في إزالة معوقات الاتصال، وبخاصة تلك التي ترتبط بالمرسل، ومنها المقدرة على الصياغة الواضحة للرسالة (١٥١:١). فالاستخدام السليم للفصحى قد يساهم في إزالة أي لغط دلالي محتمل أو تخفيف وطأته أثناء مناقشة الملاحظات التي أدلى بها الممتحنون، وسيجعل تركيز الممتحنين ينصب على محتوى خطاب طالب الدكتوراه، لا شكله، ناهيك عن أن ذلك قد يحسن في نهاية المناقشة الدرجة العلمية التي سينالها الطالب.

واستخدام الفصحى بطلاقة وعفوية يعدّ أيضًا مهارة يجب اكتسابها قبل موعد المناقشة، ناهيك عن أنّ ذلك قد يساعد طالب الدكتوراه في مسيرته المهنية لاحقًا. وكثيرًا ما يترافق استخدام الفصحى مع مهارات أخرى، الأمر الذي يجب الانتباه عليه قبل موعد المناقشة.

هو طالب جيّدٍ قام بإعداد خطابه بتأنٍ، ناهيك عن أن ذلك يساعد طالب الدكتوراه على التّواصل مع الممتحنين والجمهور، وذلك بواسطة استخدام لغة جسده، لا سيما لغة العيون. هذه الأخيرة تعد مهارة تواصلية مفيدة لطالب الدكتوراه، ويجب عليه محاولة اكتسابها قبل موعد المناقشة. تتيح هذه المهارة أيضًا لطالب الدكتوراه إدارة جهده وتركيزه بذكاء أثناء مناقشة أطروحته. لذلك على طالب الدكتوراه التدرّب بذكاء على المسائل الآتية:

٦ - ١ - التدرّب على الإلقاء الجيد: ويكون ذلك بالتدرّب على مخارج الحروف وقواعد الإلقاء، نحو: الإظهار، والإدغام، والإخفاء وغيرها. فهذه كلها تساعد الخطيب، أو طالب الدكتوراه، على الرّبط بين موضوع الإلقاء، والأداء الجسديّ - النفسيّ، والأداء الصوتيّ التعبيريّ (١٠٤:٥) أثناء مناقشة الأطروحة، لأن ذلك سيخفف الجهد المعرفي المستخدم في جلسة المناقشة، وبالتالي سيخفف توتر الطالب.

هذا التوتر يعدّ مسؤولاً عن كفاءة عمليات التّفكير (٣٤٠:١٢)، وفعاليتها، وآليات اتخاذ القرار الذي قد يلجأ إليه طالب الدكتوراه أثناء الرّد على الأسئلة أو مناقشة الملاحظات أو الانتقادات التي أدلى بها الممتحنون. لذلك يعدّ الإلقاء الجيد مهارة

## ٧ - مناقشة الأطروحة مناقشة وهمية:

للوقت، لأن حسن استخدامه يعدّ مهارة، وفوائد استخدامه المباشرة وغير المباشرة عديدة، أهمها:

\* يوحى استخدام الباور بوينت بأن طالب الدكتوراه قام بتحضيرات جدية للدفاع عن أطروحته (٣٠:٢١).

\* يتيح استخدام الباور بوينت تنظيم المعرفة الواردة في خطاب الطالب، مما يرفع نسبة التفاعل والتواصل مع الممتحنين والجمهور (٧١:١٥) على حدّ سواء.

\* يساعد استخدام الباور بوينت طالب الدكتوراه على التخلص من رتابة الخطاب المكتوب (٦٧:١٥).

\* يعطي استخدام الباور بوينت انطباعاً بأن طالب الدكتوراه مطلع على علوم الحاسوب، الأمر الذي قد يساعده على نيل فرصٍ توظيفية في المراحل اللاحقة، نظراً إلى قدرته على التأقلم مع العلوم الجديدة واستخدامها (٣٠:١٦).

## ٩ - خطوات أخيرة وضرورية قبيل مناقشة الأطروحة:

\* إعادة قراءة الأطروحة قراءة نقدية (١٤٧:٢١)، وذلك قبل أسبوعين من موعد المناقشة. هذا الإجراء يندرج في إطار إعداد الطالب لنفسه إعداداً معرفياً لمناقشة أطروحته بنجاح (١٤٧:١٥).

ينصح كثير من الباحثين في الدراسات التربوية، وبخاصة الباحثون الغربيون، بأن يقوم طالب الدكتوراه بمناقشة أطروحته مناقشة وهمية مع مجموعة من زملائه الطلاب، وذلك لتقييم استراتيجيات مناقشة الأطروحة، والمكون اللغوي لخطاب المناقشة والأداء المرافق له، وكيفية الردّ على الانتقادات أو الأسئلة الموجهة للطالب، ومقدرته على التفاعل معها (١٤٥:٢١). لذلك أنصح طلاب الدكتوراه بتنظيم مناقشة وهمية مع زملائهم الطلاب، وإذا كان هذا المطلوب صعب التحقيق، فإنه يمكن الاستعاضة عنه بمشاركة الطلاب بنشاطات رديفة ذكرتها سابقاً.

## ٨ - استخدام العرض التوضيحي (Power Point):

يعدّ استخدام العرض التوضيحي، أو الباور بوينت في المعهد العالي للدكتوراه للآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية-الجامعة اللبنانية، استخداماً اختياريّاً، وذلك كما تبين لي من حضوري لحوالي ثلاثين مناقشة أطروحة في المعهد المذكور. ولكن، ولما كان ذلك اختياريّاً، هل يعدّ استخدامه مضيعة لوقت الطالب وجهده؟ وما الفائدة من استخدامه؟

لا يعد استخدام الباور بوينت مضيعة



\* وضع استراتيجية لافتراض الأسئلة الصعبة والإجابة عليها، وكثيراً ما يتم ذلك بالاستقصاء عن الممتحنين، واختصاصهم، وأعمالهم المنشورة (١٧٢:٢٥)، وأسلوبهم في طرح الأسئلة ومناقشة الأطروحة.

\* محاولة نشر أجزاء من الأطروحة أو الاشتراك بندوات بحثية بهدف التدرّب على إلقاء الخطابات والإجابة على الأسئلة تحت الضغط.

\* التدرّب على بعض البرامج التي ترتبط بمهارات مناقشة الأطروحة.

\* تطوير القدرات الفكرية ورفع كفاءتها وفعاليتها (٩٢:٢٧).

## ١٠ - الدفاع عن الأطروحة: مرحلة المناقشة.

مناقشة الأطروحة مناسبة يعلن عنها المعهد العالي للدكتوراه قبل حوالي أسبوعين، وذلك عبر موقعه الإلكتروني على شبكة الإنترنت. وكثيراً ما يتم الاتصال بطلاب الدكتوراه قبل فترة محددة من موعد المناقشة لإبلاغهم بتاريخ المناقشة ووجوب الحضور إلى المعهد المذكور. ويلاحظ في هذا السياق أن مناقشة الأطروحة هي نشاط أكاديمي يكافئ عليه المعهد المذكور، لذلك تعد مناقشة الأطروحة مناسبة علنية يمكن أن يرتادها كل طالب أو مثقف يهتم بها.

كما اتخذت مناقشة الأطروحة في الآونة الأخيرة طابعاً إعلامياً، حيث يعرض فيها كثير من الطلاب المعلومات المهمة مستخدمين الباور بوينت، مما يسمح برفع نسبة التفاعل بين الطالب والجمهور والممتحنين، ناهيك عن أن مناقشة الأطروحة تدوم لفترة تمتدّ بين ساعتين وثلاث ساعات، الأمر الذي يمنح كل مشارك في هذه المناقشة فترة كلام تقدر بعشرين دقيقة، كما تتألف لجنة التحكيم من خمسة أعضاء في أغلب الأحيان.

ومن الجدير ذكره هنا، هو أنّ بعض الباحثين المتخصّصين ربطوا نجاح المناقشة بمقدرة طالب الدكتوراه على إظهار كفاءاته ومهاراته كباحث مستقل (١٧٥:٢٥)؛ أي مقدرة طالب الدكتوراه على إظهار مهاراته الفكرية والبحثية المستقلة. ومنهم من ذكر أنّ نجاح المناقشة يرتبط بمقدرة طالب الدكتوراه على إظهار مضمون أطروحته والبرهنة على جودتها، ناهيك عن كيفية إدارة المناقشة وإجرائها (٩١:٢٧-٩٤).

بناء على ما ورد أعلاه، ونظراً إلى تنوع الاختصاصات في المعهد العالي للدكتوراه من جهة، وإلى الطابع العلمي لمناقشة الأطروحة من جهة أخرى، تتنوع أساليب تقديم الأطروحة أو الاستراتيجيات التي يمكن أن تؤثر في الممتحنين وتساهم في

نجاح المناقشة، وبالتالي تتنوع أهدافها. فما هي هذه الأساليب؟ وما هي طبيعة الاستراتيجيات الخطابية؟

قبل الإجابة على هذين السؤالين، أشير إلى ضرورة دخول طالب الدكتوراه إلى مركز إجراء المناقشة قبل ساعة ونيف من موعد المناقشة. كما عليه أن يرتدي ثياباً تليق بالمناسبة (٢٥١:١٠)، سواء أكان رجلاً أم امرأة، ومن الضروري أيضاً اصطحاب جهاز الحاسوب المحمول إذا ما أراد طالب الدكتوراه استخدام الباور بوينت، ناهيك عن اصطحاب دفتر وقلم لتدوين الملاحظات. هذا الإجراء يساعد على إعطاء انطباعات إيجابية عن طالب الدكتوراه. أما بالنسبة إلى الأساليب أو الاستراتيجيات، فإنّ الجواب يكمن في المسائل الآتية:

#### ١٠ - ١ - تقديم الأطروحة:

يبدأ طالب الدكتوراه بتقديم أطروحته مباشرة عندما يعلن رئيس اللجنة بدء المناقشة ويعطيه الإشارة بالكلام، وهنا على طالب الدكتوراه أن يحسن تنفيذ ما تدرب عليه سابقاً، وبخاصة اتقان الأساليب العرضية وممارسة الاستراتيجيات الخطابية، وغيرها من المسائل التي يراها طالب الدكتوراه ضرورية لنجاح المناقشة. كما عليه أن يضمن خطابه الذي تدرب عليه المسائل النوعية الآتية:

#### \* نوعية شرائح الباور بوينت

**المستخدمة:** كأن يهتم طالب الدكتوراه بلون الشرائح، ومقروئية الأرقام، وحجم الخط، ووضوح الجداول إذا ما وجدت.

\* **نوعية الخطاب:** كأن يختار طالب الدكتوراه استراتيجيات الإقناع نظراً إلى تأثيرها التداولي (٢:٤٤٤-٤٤٥)، لأنه من أهداف طالب الدكتوراه إقناع الممتحنين بأفكاره؛ فيختار المفردات المناسبة والجمل القصيرة، ويحسن إدارة الوقت واختيار الأفكار المعروضة، ناهيك عن إيجازها ببراعة أسلوبية.

\* **نوعية السلوك:** كأن يظهر طالب الدكتوراه دوافعه بذكاء، ويحسن استخدام صوته الجهوري وبخاصة إذا كان رجلاً، ونبرته، واستخدام لغة جسده (١٣:٦-٧). وعلى طالب الدكتوراه أيضاً الانتباه إلى مسألة إظهار حماسه لموضوع أطروحته (٩:٢٦)، لأن ذلك يساعده على إقناع الممتحنين بأفكاره. هذا الإجراء الأخير يندرج في إطار إعداد طالب الدكتوراه لنفسه إعداداً نفسياً.

\* **نوعية التّواصل:** كأن يتقن طالب الدكتوراه آداب التّواصل، ويحسن التّواصل مع الممتحنين. فالتّواصل مع مجموعة من الممتحنين المثقفين يتطلب من طالب الدكتوراه مناداتهم بالاسم الأول، لا باسم الشهرة، ومناقشتهم إذا استدعى الأمر بصوت منخفض، وإظهار احترامه وتقديره

لجهد الممتحنين، لأنهم وبالإضافة إلى الدكتور المشرف هم المعنيون المباشرون بقراءة الأطروحة وتقييمها، فالأطروحة كتبت من أجلهم فقط (٢٢٩:١٨).

**\* نوعية العرض:** كأن يحسن طالب الدكتوراه إخراج المعلومات والتعريف بها أمام الممتحنين والجمهور؛ فعندما يبدأ طالب الدكتوراه عرضه يجب عليه الإشارة إلى ذلك، كذلك الأمر عند الانتهاء من عرضه، وعليه أيضا التمهّل عند ذكر المعلومات المهمة (٦٨:١٥).

هذه الإجراءات التي وردت للتوفي سياق البحث تدرج في إطار إعداد طالب الدكتوراه لمضمون كلامه وأسلوبه وللوسائل السمعية والبصرية التي تساعد على مناقشة الأطروحة بنجاح. لذلك، قد تترك هذه الإجراءات انطباعاً إيجابياً عند الممتحنين بُعيد تقديم طالب الدكتوراه لأطروحته. هذا الانطباع، وبالإضافة إلى غيره، قد يشجع أحياناً الممتحنين على تخفيف حدة انتقاداتهم الموجهة إلى طالب الدكتوراه.

أما إذا قدم طالب الدكتوراه أطروحته باستخفاف أو تسرع، فإن ذلك قد يعرضه لانتقادات عنيفة، وقد صادفت هذا الأمر في المعهد العالي للدكتوراه في أثناء حضوري مناقشة أطروحة في اللغة العربية وآدابها في شهر كانون الثاني عام ٢٠١٨ بهدف

الإعداد لهذا البحث، حيث اكتفى طالب الدكتوراه بذكر اسمه، واسم الأطروحة، وشكر اللجنة من دون أن يقدم أطروحته البتة. لذلك على طالب الدكتوراه أن يتنبه إلى أن التقديم المتسرع لأطروحته قد يوحى للممتحنين أن طالب الدكتوراه كتب أيضا أطروحته بتسرع (٣٨٤:٢٠). وبالتالي يحتاج طالب الدكتوراه إلى أن يعطي انطباعاً إيجابياً أثناء مناقشة الأطروحة، لأن هدفه الرئيس هو تحسين درجته العلمية أو علامته التي سيحصل عليها في نهاية المناقشة.

#### ١١ - الأسئلة والانتقادات

##### واستراتيجيات الرد عليهما:

بُعيد تقديم طالب الدكتوراه لأطروحته، يطلب رئيس لجنة التحكيم من أعضائها الشروع في إلقاء كلماتهم تباعاً؛ هذه الكلمات تأخذ شكل تقرير شفهي في أغلب الأحيان، فيضمنه الممتحنون آرائهم وانتقاداتهم، فمنهم من يشيد بإيجابيات العمل، ومنهم من يفند سلبياته فقط، إنما كثيراً ما ينحو الممتحنون إلى تنفيذ السلبيات أولاً، ثم يشيدون بالإيجابيات على حدّ سواء.

هذا المنحى في مناقشة الأطروحة هو سلاح ذو حدين، فمن جهة قد يواجهه طالب الدكتوراه انتقادات عنيفة جداً، مما قد يدفعه إلى الرد على الانتقادات أو الأسئلة بتهور،

الانتقادات والأسئلة أثناء مناقشة الأطروحة. ومن هذه الأخيرة، أي الأسئلة، أبدأ:

#### ١١ - ١ - الأسئلة:

بادئ ذي بدء، تحدد المؤسسة التعليمية المعايير المعتمدة في مناقشة الأطروحات وتقييمها، والكثير منها يتشابه جداً بين الجامعات، والقليل منها يتفرد بها كل جامعة على حدة. فإذا ما كانت الأطروحة التي يناقشها الممتحنون جيدة جداً، فإن اهتمامهم يميل أكثر إلى اختبار الطالب وقدراته الذهنية وصفاته الأخلاقية، ناهيك عن مناقشة النتائج التي توصل إليها طالب الدكتوراه (١٨٥:٢٣). بعبارة أخرى، إذا كانت عيوب الأطروحة غير مهمة، فإن الممتحنين يتضاءل اهتمامهم بمناقشة عيوب الأطروحة المفترضة (١٩:٢١)، وينصب تركيزهم على امتحان طالب الدكتوراه نفسه. وبالتالي على طالب الدكتوراه توقع ذلك والإعداد له، وبخاصة إذا كانت أطروحته جيدة جداً، فالتوقع سمة من سمات الذكاء الإنساني.

أمّا إذا كان هناك شك حول جودة الأطروحة التي كثيراً ما تتمحور حولها مناقشة الأطروحة (٥٦٨:١٤)، فإن الممتحنين سوف يسعون إلى التأكد من مسائل عديدة، وذلك باستخدام الأسئلة المباشرة وغير المباشرة، والانتقادات. هذه المسائل هي في غاية الأهمية، وعلى طالب

أو من دون براعة، وذلك قبل أن ينصت إلى كل ما قد يقوله الممتحن، الأمر الذي قد يخفض الدرجة العلمية التي سينالها في نهاية المناقشة. من جهة أخرى، قد يردّ طالب الدكتوراه على الانتقادات التي تعرض إليها بحنكة وبراعة، الأمر الذي قد يحسن درجته العلمية في نهاية المناقشة.

هذه الأسئلة أو الانتقادات تكون متنوعة جداً في أغلب الأحيان، وكلما اطلع طالب الدكتوراه على نماذج منها، وبخاصة تلك التي ترد في سياق المناقشة أحسن اختيار الرد المناسب. ترتبط هذه الأسئلة أو الانتقادات بتقييم المهارات الكلامية المستخدمة في كيفية الدفاع عن الأطروحة، أو تقييم الأطروحة نفسها، أو تقييم أداء طالب الدكتوراه أثناء مناقشة الأطروحة (٨٨:٢٧-٩٠). هذه المسائل هي مهمة جداً، وهي ذات طبيعة عامة نظراً إلى تنوع الاختصاصات في الجامعات، لذلك سأقوم في الصفحات الآتية بتفصيل أهم ما ورد فيها.

بناءً عليه، تتجلى أهمية مواجهة الأسئلة والردّ عليها ببراعة، ناهيك عن مواجهة الانتقادات وكيفية الردّ عليها. وبالتالي تبرز أهمية التحلي بمهارات معرفية عديدة، مهارات تسمح لطالب الدكتوراه بأن يتفاعل إيجابياً مع الممتحنين، وبأن يستخدم الاستراتيجيات المناسبة للردّ على

\* مناقشة آفاق الأطروحة وتبعاتها على غيرها من الدراسات (٢٧٠:١٩).

وقد يلجأ الممتحنون إلى استراتيجيات ذكية لطرح أسئلتهم، فتتنوع كثيراً ولأسباب عديدة، أو قد يكتفون بأسئلة قليلة ومحددة، إنما أسئلة مهمة جداً، مما قد يربك طالب الدكتوراه. هذه الأسئلة تتميز بمهارة أسلوبية في أغلب الأحيان، والرّد عليها يتطلب أيضاً مهارة أسلوبية، لأنّ الذي يطرح السؤال هو ممتحن متمرس، وهو كثيراً ما يكون قد طرحه سابقاً على طالب ما.

هذا الرّد يبدأ بالإنصات، لا الاستماع فقط؛ والفرق بينهما واضح، الاستماع هو رد الفعل العضوي الجسم - الأذن تحديداً - تجاه الصّوت، أما الإنصات فهو إدراك واع للأصوات التي تسمعها، ويتسم بكونه مهارة، وتكون نية المنصت هي فهم ما يقال وما المقصود، ومن ثمّ تحديد الإجابة الملائمة (٢١٥:٤).

وبالتالي تتجلى أهمية الإنصات كمهارة يضيفها طالب الدكتوراه إلى غيرها من المهارات للإجابة على الأسئلة المتنوعة التي يطرحها الممتحنون. إلا أن الإنصات يعد المرحلة الأولى من مراحل الإجابة على الأسئلة. يضيف المتخصصون في الدراسات التربوية مرحلتين اثنتين، المرحلة الثانية هي إعادة صياغة السؤال بروية

الدكتوراه محاولة إدراجها في خطابه بأسلوب عفويّ وذكيّ، أذكر منها ما يأتي:

\* التأكيد من أن الطالب المائل أمام الممتحنين هو نفسه الذي كتب الأطروحة، أي التأكيد من موثوقية العمل والطالب.

\* التأكيد من أن الطالب يدرك أهمية العمل البحثي الذي قدّمه للجنة التّحكيم بهدف مناقشته.

\* التأكيد من أن الطالب يدرك الإطار الأدبيّ العام لموضوع أطروحته.

\* التأكيد من أن أطروحة الطالب قدمت معرفة علمية جديدة.

\* التأكيد من أن الطالب قادر على الدّفاع عن أطروحته (٥:٢٦).

\* التأكيد من أن الطالب باحث محترف (١٣٧:٢٢).

ويهدف الممتحنون أحياناً أثناء مناقشة الأطروحة إلى الاستفهام عن مسائل نظرية غامضة، أو مناقشة أشياء أخرى. وهي تقع على النحو الآتي:

\* البت في المسائل النّظريّة المشكوك فيها والواردة في الأطروحة.

\* مناقشة النّظريات والأفكار مع خبراء في الموضوع المطروح.

\* إعادة تزويد طالب الدكتوراه بنصائح لتحسين أطروحته.

بهدف التّفكير في الجواب، والمرحلة التّالّثة هي الإجابة على السّؤال أو الأسئلة المطروحة (١٤٨:١٥).

أما بالنّسبة إلى التنوّع في طرح الأسئلة، فإنّه استراتيجيّة يستخدمها الممتحنون لأهداف عديدة، منها مثلاً أن الممتحن يريد فقط جواباً عن سؤال ما، وهذا القصد من السّؤال نادراً ما يحصل. وهناك احتمال آخر هو أن الممتحن يريد التّأكد من أن الطّالب يعلم الإجابة على السّؤال الموجه إليه، وهذا القصد من السّؤال هو أكثر شيوعاً من سابقه. أما الاحتمال الأخير فهو أن الممتحن يريد إعلام غيره من الممتحنين بأنه يعلم الإجابة على السّؤال المطروح (٣٠٢:٩)؛ هذا القصد من السّؤال يهدف إلى التّباهي، وهذا ما سأتطرق إليه أدناه.

بناءً عليه، على طالب الدّكتوراه معرفة أنماط هذه الأسئلة وأهدافها، وذلك بهدف الإجابة عليها. وكلما كانت الأسئلة محددة زادت صعوبتها؛ وبالتالي على طالب الدّكتوراه الحدّك المساهمة في إدارة المناقشة واختيار الأسئلة، ويكون ذلك بمعرفة تفاصيل أطروحة بشكل دقيق جداً، وبتحرير خطاب المناقشة بأسلوب يسمح له بتوقع بعض الأسئلة، أي بترك بعض الثّغرات المعرفية ليُسأل عنها، مما يسمح بإعطاء انطباعات إيجابية عن الطّالب. ويمكن التعرف على بعض أنماط هذه

الأسئلة أثناء حضور مناقشة الأطروحات، أو الطلب من الدّكتور المشرف تزويد طالب الدّكتوراه بنماذج من الأسئلة التي يتوقعها. كما تذكر الدراسات المتخصّصة في مناقشة الأطروحات كثيراً من أنماط هذه الأسئلة، وهذه بعض النّماذج الشهيرة:

- \* أسئلة مباشرة وأسئلة غير مباشرة.
- \* أسئلة مفتوحة، وأسئلة مغلقة.
- \* أسئلة افتراضية (ماذا لو، افترض أن).

\* أسئلة عامة، وأسئلة خاصة.

\* أسئلة سهلة، وأسئلة صعبة.

\* أسئلة طويلة.

\* أسئلة استفزازية.

\* أسئلة الفرصة الثانية.

\* أسئلة مركبة (٦٧:٢١-٩٠).

أخيراً، اقترح على طلاب الدّكتوراه أن يجيبوا فقط على الأسئلة الموجهة إليهم من دون زيادة أو نقصان، فلا هذه تفيد ولا تلك تفيد أيضاً. ومن الجدير ذكره هنا، وبالإضافة إلى ما ورد أعلاه، على طالب الدّكتوراه، وبعناية واهتمام، تدوين الأسئلة أو الملاحظات التي يدلي بها الممتحنون أثناء المناقشة (٢٧٦:١٩)، لأن ذلك يعكس احترامه وتقديره لأسئلة الممتحنين وجهدهم على حدّ سواء. هذا الإجراء الذي ورد أعلاه يندرج في إطار إعداد الطّالب

لاستراتيجيات الإجابة على الأسئلة المتنوعة.

#### ١١ - ٢ - الانتقادات:

كتب أحد المتخصصين عن موضوع الانتقادات والرّد عليها أثناء المناقشة ما يأتي: إن الحياة هي عشرة في المائة ما يحصل لنا وتسعون في المائة كيف نستجيب لها (٢٢٠:١٨).

هذا الكلام الواضح يعني أنّ أسلوب الرّد على الانتقادات قد يساهم في تحديد مسار المناقشة، ومنها ما قد يحصل بعد الانتقادات. لذلك إذا ما تعرض طالب الدكتوراه إلى انتقادات عنيفة، فعليه أن يميز بين نوعين منها، نوع يقصد به الطالب نفسه، ونوع يقصد به انتقاد الدكتور المشرف أو أحد الممتحنين. ويكون أحد أسباب هذا النوع الأخير هو خلافات سابقة بين الممتحنين أنفسهم، أو بين أحد الممتحنين والدكتور المشرف في أغلب الأحيان.

أضاف المتخصصون أيضًا في الدراسات التربويّة نوعين آخرين من الانتقادات، الأول هو أنّ الممتحن يريد إظهار سعة معرفته وتفوقه الأكاديمي على زملائه بهدف التأثير في نفوس الممتحنين أو الجمهور. وكثيرًا ما ترد هذه الأخيرة على شكل أسئلة طويلة ومعقدة، وحتى على شكل أجوبة (٣٠٢:٩). والنوع الثاني هو أنّ

الممتحن الذي لم يدل بانتقادات عنيفة هو ممتحن لم يقرأ الأطروحة بتأنٍ (٢١٩:٧)، وبالتالي الانتقادات التي أدلى بها هي نتيجة طبيعية لهذه القراءة النقدية.

هذه الانتقادات قد تساهم في تشتيت انتباه الطالب وتركيزه أثناء المناقشة، لأنّ ردة الفعل البديهية على مواجهة الانتقادات هي اختيار الأسلوب الدّفاعي (٢٢٠:١٨). لذلك عليه محاولة حل هذه المشكلة، إما بوضع استراتيجية مناسبة، وأما باعتماد أسلوب مناسب للرد. بالنسبة إلى الاستراتيجية المناسبة، فإنني أنصح طلاب الدكتوراه بمحاولة اختيار لجنة تحكيم متجانسة، وذلك بالتعاون مع الدكتور المشرف. كما أنصح باختيار ممتحنين يعرف عنهم تفهمهم لمشاكل الطلاب من جهة، وخبرتهم بالإطار العام للأطروحة من جهة أخرى.

أما بالنسبة إلى الأسلوب المناسب للرد على الممتحنين، فعلى طالب الدكتوراه بداية، وبالرغم من صعوبة الأمر، أن يعتبر الانتقادات مساهمة من الممتحنين لتحسين أطروحته من نواح عديدة (٢٢٣:١٨)، أي أن الممتحنين شركاء في كتابة الأطروحة؛ وبالتالي عليه الاتصاف بالحكمة والرزانة والهدوء، ويكون ذلك بعدم تحدي الممتحن، وباحترام رأيه، كأن يقول طالب الدكتوراه: «هذه المسألة سوف انتبه إليها أكثر لاحقًا»

\* الأخطاء المرتبطة بتطبيق البرنامج الإحصائي (SPSS).

\* الأخطاء المرتبطة باختيار عنوان الأطروحة.

\* الأخطاء المرتبطة بكتابة المقدمة ومضمونها وعدم كتابة الملخصات في نهاية الفصول.

\* الأخطاء المرتبطة بكتابة الخاتمة وإشكالية تضمينها نتائج الأطروحة، إذ ليس هناك إجماع بين الممتحنين حول هذه الأمور.

هذه كانت بعض الأخطاء التي قد تسبب انتقادات عنيفة لطالب الدكتوراه. لذلك عندما يحاور طالب الدكتوراه منتقديه، ويهدف تخفيف تبعات الانتقادات على النتيجة النهائية لمناقشة الأطروحة، يجب عليه أيضا إظهار الصفات أو الخبرات الآتية وممارستها معاً:

\* **الانفتاح الفكري:** تتيح هذه الصفة لطالب الدكتوراه مناقشة الأخطاء والمعلومات الواردة في أطروحته، وبخاصة إذا ما أثارها الممتحنون؛ أما إذا لم يتصف طالب الدكتوراه بالانفتاح، فإن الممتحنين سرعان ما سيلاحظون ذلك، مما قد يعرض طالب الدكتوراه لانتقادات أكثر عنفاً.

\* **الصدق:** هذه الصفة هي ركيزة الباحث الناجح، ومن دونها لا قيمة للصفات الأخرى.

أو أن يكتفي طالب الدكتوراه أثناء رده على منتقديه برد مقتضب جداً، كأن يقول على سبيل المثال: «أنا احترم ملاحظتكم، وليس لدي ما أضيفه عليها». وقد تبين لي أنه الأسلوب الأفضل في المناقشات التي شهدتها في المعهد العالي للدكتوراه.

هذا الأسلوب في الرد على الممتحنين يمكن الاستعانة به أيضاً إذا ما تعرض طالب الدكتوراه لانتقادات النوع الأول الذي ذكرته أعلاه، أي الانتقادات التي يكون طالب الدكتوراه هو المقصود فيها. هذه الأخيرة تكون متنوعة في أغلب الأحيان، ولا يمكن حصرها بمسألة واحدة أو أكثر، وأهمها يتناول ما يأتي:

\* الأخطاء اللغوية.

\* الأخطاء المرتبطة بتطبيق منهج البحث.

\* الأخطاء المرتبطة بتدوين المصادر والمراجع، وبخاصة الأجنبية.

\* الأخطاء المرتبطة بفهرسة المصادر والمراجع والملاحق.

\* الأخطاء المرتبطة باختيار نماذج البحث أو عيناته.

\* الأخطاء المرتبطة بتطبيق منهجية البحث، وبخاصة الأخطاء المرتبطة بتقسيم الأطروحة إلى مقدمة وأبواب وفصول وخاتمة وعدد صفحات كل فصل، أو عدد صفحات الأطروحة كلها.



من أنّ العفويّة أو الفكاهة قد تساهمان أحياناً في زيادة نسبة التّفاعل بين الممتحنين وطالب الدّكتوراه، فإنني اقترح على هذا الأخير الالتزام بما تدربّ عليه سابقاً أو بما اكتسبه من مهارات من دون زيادة أو نقصان، وبخاصة إذا كانت خبرته في النّشاطات الأكاديمية العلنية أو إجراء المقابلات ضعيفة.

هذه المهارات أو الخبرات هي مهمة جداً، ويمكنها أن تساهم في نيل طالب الدّكتوراه درجة علميّة مميزة إذا ما أحسن توظيفها. ومن الجدير ذكره هنا هو أنّ العالم الفيزيائي الشهير ستيفن هوكينغ (Stephen Hawking) الذي توفي بتاريخ ١٤/٣/٢٠١٨، وأثناء عرض فيلم سينمائي في دور السينما يسرد قصة حياته في عام ٢٠١٤، تضمّن هذه الفيلم عرض مناقشة أطروحته. يسرد الفيلم المعنون «نظرية كل شيء» (The Theory of Everything) أن العالم المذكور تعرض لانتقادات عنيفة أثناء مناقشة أطروحته، وأنه أظهر نضجاً في مناقشة الانتقادات والرّد عليها؛ وبالتالي ساعده ذلك على متابعة مسيرته العلميّة المليئة بالإنجازات والجوائز العالمية، على الرّغم من أنّه كان مصاباً بمرض خطير.

#### ١٢ - خاتمة:

أخيراً، لقد حاولت في هذا البحث مقارنة

**\* النضج:** تتيح هذه الصفة لطالب الدّكتوراه تحمل مسؤوليّة أعماله والوفاء بتعهداته الواردة في مشروع البحث ومعاملة زملائه بأسلوب أخلاقي وعادل، ناهيك عن احترام أفكارهم (٢٧٥:١٩).

**\* المقدرة على البحث الممنهج:** أي أن يعتمد الباحث الشك المنظم عند الضرورة، ويتعامل معه بأسلوب موضوعي يتناسب مع الحالة التي يواجهها (١٦٢:٢٥).

**\* الاتصاف بالأخلاقيات:** تتيح هذه الصفة الابتعاد عن الانتحال، كما تمنح الباحث مصداقية ضرورية لنجاحه لاحقاً في مسيرته المهنية.

**\* التّفكير النقدي:** تتيح هذه الصفة إظهار ثقافة الطّالب العامة.

**\* الكتابة الأكاديمية:** تتيح هذه الصفة إظهار الباحث ككاتب محترف اكتسب مهارات عديدة.

**\* المهارات النّواصلية مع الممتحنين** (٢٦:٣-٤).

وينبغي أن يتذكّر طالب الدّكتوراه أيضاً أن مناقشة الأطروحة هي مقابلة مباشرة مع متخصصين في مناقشة الطلاب؛ وبالتالي يساهم الالتزام بمعايير المقابلة الناجحة وغيرها من المعايير التي اطلع عليها أو التي تدربّ عليها قبل موعد المناقشة في نجاح المناقشة. وعلى الرّغم

يعد الأمر غامضاً، بل أصبح أكثر وضوحاً من ذي قبل. ولما كان الأمر كذلك، فإنه يمكن اختبار كثير من الأفكار التي قد تساهم في نجاح عملية المناقشة، سواء أوردت في هذا البحث أم في غيره.

## المصادر

### المصادر العربية:

- ١ - حجازي، مصطفى، الاتصال الفعال في العلاقات الانسانية والإدارة، بيروت، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ٢٠٠٠.
- ٢ - الشهري، عبد الهادي بن ظافر، استراتيجيات الخطاب، بيروت، دار الكتاب الجديد المتحدة، ٢٠٠٤.
- ٣ - لالاند، أندريه، موسوعة لالاند الفلسفية، تعريب خليل أحمد خليل، بيروت، عويدات، المجلد الثالث، ٢٠٠٨.
- ٤ - فادم، تيري جيه، فنّ السؤال، اطرح أسئلة أفضل تحصل على إجابات أفضل، الرياض، مكتبة جرير، ٢٠١١.
- ٥ - قاسم، رياض زكي، تقنيات التعبير العربي، بيروت، دار المعرفة، ٢٠٠٠.

### المصادر الأجنبية والإلكترونية:

- 6 - Baraké, Bassam (1998), *Larouse*, Academia, Beyrouth.
- 7 - Bergquist, Peter (2004), "Advice From the Examiners", In Burton, Suzan and Steane, Peter (eds), *Surviving your Thesis*, London, Routledge, pp. 209-219.
- 8 - Bourne, Philippe E. (2007), "Ten Simple Rules for Making Good Oral Presentations", *Plos Computational Biology*, Vol. 3, N° 4, pp. 593-594.
- 9 - Cone, John D., and Foster, Sharon (2010), *Dissertation and Theses*, Washington, American Psychological Association.

موضوع الدّفاع عن الأطروحة من وجهة نظر طالب الدّكتوراه، كما حاولت الإضاءة على بعض المعايير التي يمكن لطالب الدّكتوراه أن يستنير بها بهدف مناقشة أطروحته بنجاح وتميز. وأشارت أيضاً إلى بعض المعايير التي يركز عليها الممتحنون بهدف تقييم أداء الطلاب. فالمناقشة هي امتحان شفهي للطلاب قدر ما هي تقييم خطي وشفهي للأطروحات، وهذا ما يجب أن يتذكره طالب الدّكتوراه دائماً. لذلك تطرقت إلى أهمية إعطاء انطباعات إيجابية بهدف التأثير في الممتحنين، لأن هذه الأخيرة قد تكون ذات تأثير إيجابي وفعال على الممتحنين، وربما تساعد طالب الدّكتوراه على نيل درجة علمية مميزة يستحقها.

تبين أيضاً في هذه البحث أن الإعداد المسبق والجيد لمناقشة الأطروحة هو مسألة جوهرية لنجاح المناقشة، والإعداد يشمل أسلوب الكلام، ومضمونه المعرفي. كما تبين أنه بالإمكان تفكيك موضوع الدّفاع عن الأطروحة أو مناقشة الأطروحة إلى مراحل بهدف الإعداد لها، بدءاً بمرحلة ما قبل المناقشة وعناصرها، وانتهاء بمرحلة المناقشة وعناصرها. لذلك تعد مناقشة الأطروحة موضوعاً قابلاً لمقارنته من جهات نظر عديدة، أي هي قابلة للتمحيص والدّراسة والتنظير، وبالتالي لم

- 18-Mathews, John (2004), "Responding to Criticism", In *Burton, Suzan and Steane, Peter (eds), Surviving your Thesis, London, Routledge, pp. 220-231.*
- 19- Mauch, James E. and Park, Namgi (2003), *Guide to Successful Thesis and Dissertation, New York, Basel.*
- 20- Mullins, Gerry and Killey, Margaret (2002), 'Its's a PhD, not a Nobel Prize': How Experienced Examiners Assess Research Theses, *Studies in Higher Education, Vol. 27, 1 4, pp. 369-386.*
- 21- Murray, Rowena (2009), *How to Survive your Viva, Berkshire, Open University Press.*
- 22- Philips, Estelle M. and Pugh, Derek S. (2005), *How to Get a PhD, Berkshire, Open University Press.*
- 23- Roberts, Carol M. (2010), *The Dissertation Journey, California, Corwin.*
- 24- Robert, Paul (2010), *Le petit robert, Paris, Sejer.*
- 25- Rugg, Gordon and Petre, Mariam (2004), *The Unwritten Rules of PhD Research, Berkshire, Open University Press.*
- 26- Smith, Peter (2004), *The PhD Viva, London, Palgrave Macmillan.*
- 27- Tinkler, Penny and Jackson, Carolyn (2002), "In the Dark? Preparing for the PhD Viva", *Quality Assurance in Education, Vol. 10, N<sup>o</sup> 2, pp. 86-97.*
- 10- Cryer, Pot (2006), *The Research Student's Guide to Success, Berkshire, Open University Press.*
- 11- Dunleavy, Patrick (2003), *Authoring A PhD, London, Palgrave Macmillan.*
- 12- Eysenck, Michael, W. et al. (2007), "Anxiety and Cognitive Performance Attentional Control Theory", *Emotion, vol. 7, M<sup>o</sup> 2, pp. 336-353.*
- 13- Finkel, Alain (2015), *Suggestion pour la presentation orale et visuelle, Ecole normale suprieure de Cachan, pp. 1-15. Valable sur: <http://www.isv.fr/~finkel/bases-recherche/> Consulté le 10/1/2018*
- 14- Golding, Clinton et al. (2014), "What Examiners Do: What Thesis Students Should Know, *Assessment & Evaluation in Higher Education, Vol., 39, N<sup>o</sup> 5, pp. 563-575.*
- 15- Gosling, Patricia and Noordam, Bart (2006), *Mastering your PhD, Germany, springer.*
- 16- Kunst, Oliver (2011), "A (not so) Serious Guide to an Excellent Oral Presentation", In *Baehar, Johanna and Kreis, Ute (eds), How to Survive your PhD, Hamburg, University of Hamburg, pp. 30-33.*
- 17- Levine, Joseph, S., *Writing and Presenting your Thesis or Dissertation, pp. 1-14. retrieved from: <http://www.learnerassociates.net/dissthes/dissguid> Consulted at 1/3/2018*

## النحويّ المغبُون: أبو جعفر الرُّؤاسيّ (١٩٣هـ)

د. أكرم محمّد نبها

على وزن (مفاعل)، ك (مساجد، ومنابر،  
وصوامع..)، فلا تنون وتُجرّ بالفتحة عوضاً  
عن الكسرة.

ولمّن صرّف ونون حجتان: صرفيّة  
وصوتية.

١ - الحجة الصّرفيّة: (سلاسلا)  
مصروفة لأنّ الأصل في الأسماء الصّرف،  
وترك الصّرف لعارض فيها، والعرب  
صرفت ما لا ينصرف في الشعر، «حكى  
الكسائيّ والفراء وغيرهما من الكوفيين أنّ  
العرب تصرف كل ما لا ينصرف، إلا (أفعل  
منك)، ولو كان خطأ ما أدخلوه في  
أشعارهم، وكلّ ما يجوز في الشعر يجوز  
في الكلام»<sup>(٢)</sup>، واحتجّوا لرأيهم بأمثلة  
كثيرة من الشعر، لا مكان لها ههنا.

٣ - صرف (سلاس) وعدم صرفها

قال تعالى: ﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ سَلْسِلًا  
وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، اختلف القراء  
في قراءة (سلاس)<sup>(١)</sup>:

١ - فريق صرفها ونونها (سلاسلاً)،  
ووقفوا عليها بالألف، وهي قراءة أهل  
المدينة وأهل الكوفة كنافع، وأبي بكر عن  
عاصم، والكسائيّ، وهنا يرد الإشكال: كيف  
تنون هذه اللفظة وهي ممنوعة من الصّرف؟

٢ - وفريق لم يصرفها ولم ينونها  
ووقف بغير ألف، وهي قراءة ابن كثير،  
وأبي عمرو، وحمزة، وبذلك تكون اللفظة قد  
جرت بحسب قواعد اللغة المقرّرة، فمُنعت  
من الصّرف لأنّها من صيغ منتهى الجموع

(١) راجع: الفراء: معاني القرآن، ج٣، ص٢١٤. وأيضاً: كتاب معاني القراءات: الأزهري، ص٥١٨. وأيضاً:  
النحاس: إعراب القرآن، ص١٠٣٧. وراجع أيضاً: ابن زنجلة: حجة القراءات، ص٧٣٧.  
(٢) النحاس: إعراب القرآن، ص١٠٣٧. وراجع: ابن زنجلة: حجة القراءات، ص٧٣٨.

٢ - الحجة الصوتية: لما كان إلى جانب (سلاسل) لفظتان متصرفتان (أغلالاً وسعيراً) فإنهم أتبعوا (سلاسل) بهما، «وإن لم تكن (سلاسل) رأس آية فهي تُشاكل رؤوس الآي، لأنَّ بعدها (أغلالاً وسعيراً)»<sup>(١)</sup> وهما رأس آية، فأجريت مجراهما، أي أنَّ لفظة (سلاسل) صُرفت ونوّنت لتوافق الإسمين قبلها وهما (شاكراً وكفوراً)، والإسمين بعدها وهما (أغلالاً وسعيراً)، وهذه الموافقة يسميها أهل اللغة (الإتباع والمزاوجة)، وهي طريقة متبعة في كلام العرب بغرض التناسب والإنسجام الموسيقي بين الألفاظ ولو كان ذلك على حساب الصّرف والنحو؛ من ذلك قولهم (هذا جحرٌ ضبٌّ خرب) ومن حقّ (خرب) الرفع لأنه نعت لـ (جحر)، ولكنّ اللسان العربي أثر الجرماء للفظة المجرورة قبلها (ضبٌّ) طلباً للإنسجام الصوتي؛ ومثله قوله صلى الله عليه وآله وسلم في حديث سؤال الملكين: (لا دريت ولا تليت)، وكان الأصل أن يقال: ولا تلوت، فجاء بلفظ (تليت) مزاوجة لقوله: (دريت)، وذلك لغرض الإنسجام الصوتي بين الكلمتين.

وحجة من لم يصرف (سلاسل) «فلأنّه

جمع لا نظير له في الواحد، وهو نهاية الجمع، فثقل فمنع من الصّرف»<sup>(٢)</sup>.

وكان الرُّؤاسي والكسائي يقفان على (سلاسل) بالألف، لأنهما «حكيا عن العرب الوقوف على ما لا ينصرف بالألف لبيان الفتحة، فقد صحت هذه القراءة من كلام العرب»<sup>(٣)</sup>، ويعضد هذا أنّ الرّسم القرآني جرى على اعتبار حالة الوقف بالألف، بقصد التنبيه على إشباع الفتحة عند الوقف، بحيث تصبح ألفاً، من أجل أن تتوافق الفواصل حالة الوقف.

إنّ القراءات القرآنية روايات مسموعة، ورسم المصحف سنة متبعة، ومجيء لفظ (سلاسل) مصروفًا قراءة صحيحة متينة، يعضدها رسم المصحف، وهي موافقة للغة العربية الفصيحة، «والقرء لا تقرأ بكل ما يجوز في العربية، فلا يقبح عندك تشنيع مُشنع مما لم يقرأه القرء مما يجوز»<sup>(٤)</sup>.

وبقي أن أشير إلى مسألة في القياس اللغوي، إنّ القرآن هو الذي ينبغي أن تُقاس صحّة اللغة العربية عليه، وليس العكس، إذ ليس من الصّواب أن نقيس لغة القرآن على مقياس قواعد معيارية مُستنبطة من لغة العرب وأشعارهم بالإستقراء الناقص، «والكتاب أعرب وأقوى في الحجة من

(١) ابن زنجلة: حجة القراءات، ص ٧٣٨.

(٢) النحاس: إعراب القرآن، ص ١٠٣٧.

(٣) م. ن: ص ١٠٣٧.

(٤) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٢٤٥.

الشعر»<sup>(١)</sup> بل علينا أن نجعل القرآن أصلاً ونقيس عليه أشعار العرب، وفروع اللغة، وليس العكس.

#### ٤ - قراءة (عبد الطاغوت)

قال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ أُنَبِّئُكُمْ بِشَرِّ مِّنْ ذَلِكَ مَثُوبَةً عِنْدَ اللَّهِ مَن لَّعَنَهُ اللَّهُ وَعَظِمَ عَلَيْهِ وَجَعَلَ مِنْهُمْ الْقِرَدَةَ وَالْخَنَازِيرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ أُولَئِكَ شَرٌّ مَّكَانًا وَأَضَلُّ عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٦٠].

اختلفوا في قراءة قوله تعالى: ﴿وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ﴾ «على عشر قراءات»<sup>(٢)</sup>، اثنتان منها من القراءات السبع»<sup>(٣)</sup>، وما يهمننا منها:

١ - قرأ الجمهور (وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ)، ويكون إعرابه: (عَبَدَ) فعل ماضٍ معطوف على الفعل قبله (جعل)، و(الطاغوت) مفعول به، وعليه يكون تقدير المعنى: «وجعل منهم القردة والخنازير ومن عبَد الطاغوت»<sup>(٤)</sup>، «وعلى هذا يكون الموصول محذوفاً، وذلك لا يجوز عند البصريين»<sup>(٥)</sup>، وجاء فاعل

الفعل (عَبَدَ) مفرداً «لأنَّ الكلامَ محمولٌ على لفظ (مَنْ) دون معناه، وفاعله ضمير (مَنْ) كما أنَّ فاعل الأمثلة المعطوف عليها ضميرُ (مَنْ)، فأفردَ لحمل ذلك جميعاً على اللفظ، ولو حُمِلَ الكلُّ على المعنى، أو البعض على اللفظ والبعض على المعنى، كان مستقيماً»<sup>(٦)</sup>.

٢ - «قرأ حمزةٌ وحده (وَعَبَدَ الطَّاغُوتِ)، ويكون (عَبَدَ) هنا اسماً مثل (يَقِظُ و نَدَسُ)، وهو في معنى الجمع، وما بعده مجرورٌ بإضافته إليه، وهو منصوب بـ (جعل)»<sup>(٧)</sup>، «فكأنه قال: وجعلَ منهم عَبَدَ الطَّاغُوتِ، وليس (عَبَدَ) لفظ جمع، ولكنّه واحدٌ يراد به الكثرة»<sup>(٨)</sup>، قال الفراء: «الباء تضمُّها العربُ للمبالغة في المدح والذم، نحو: رجلٌ حذرٌ ويقظٌ، أي مبالغ في الحذر، فتأويل (عَبَدَ) أنّه بلغ الغاية في طاعة الشيطان»<sup>(٩)</sup>.

٣ - «وقرأ أبو جعفر الرؤاسي النحوي

(١) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ١٤.

(٢) راجع: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد ٢، الجزء ٦، ص ١٣٦. وأيضاً راجع هذه القراءات وإعرابها في: العكبري: التبيان في إعراب القرآن، ج ١، ص ٣٥٤ و ٣٥٥.

(٣) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد ٢، الجزء ٦، ص ١٣٦.

(٤) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٣٢٤.

(٥) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ذيل الآية ٦٠، من سورة المائدة. وراجع أيضاً: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد ٢، الجزء ٦، ص ١٣٦.

(٦) أبو علي الفارسي: الحجة للقراء السبعة، ج ٢، ص ١٢٤ و ١٢٥.

(٧) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد ٢، الجزء ٦، ص ١٣٦.

(٨) أبو علي الفارسي: الحجة للقراء السبعة، ج ٢، ص ١٢٤.

(٩) ابن زنجلة: حجة القراءات، ص ٢٣١.

وَعُبِدَ الطَّاغُوتُ كَقَوْلِكَ (ضُرِبَ زَيْدٌ) لَمْ يَسْمَ فاعله»<sup>(١)</sup>، فيكون (عُبِدَ) فعل ماضٍ للمجهول، و(الطاغوتُ) نائب فاعل مرفوع، «والبناء للمجهول وحذف الراجع، بمعنى: وَعُبِدَ الطَّاغُوتُ فيهم، أو بينهم»<sup>(٢)</sup>.

## ٥ - إدغام الرّاء في اللّام

اختلف البصريّون والكوفيّون في إدغام الرّاء في اللّام بعدها في مثل قوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [الأحقاف: ٣١]، فمَنع البصريّون الإدغام، وأجازه الكوفيّون.

قال أبو حيّان: «ذهب الخليل وسيبويه وأصحابه إلى أنّه لا يجوز إدغام الرّاء في اللّام من أجل تكريرها، وأجاز ذلك: يعقوب، وأبو عمرو، والكسائي، والفراء، وأبو جعفر الرّؤاسيّ، وهؤلاء الثّلاثة رُوّس الكوفيّين، حكوه سماعاً عن العرب»<sup>(٣)</sup>.

إنّ إدغام الرّاء في اللّام عَزِي إلى أبي جعفر الرّؤاسيّ، وأجازه الكسائيّ<sup>(٤)</sup>.

والفراء قياسيًّا كراهة تكرير الرّاء»<sup>(٥)</sup> في مثل قوله تعالى: ﴿فَيَغْفِرْ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٨٤]، وقوله تعالى: ﴿فَأَغْفِرْ لَنَا﴾ [آل عمران: ١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ [النساء: ٦٤]، وقوله تعالى: ﴿يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ﴾ [نوح: ٤]، وهؤلاء الثّلاثة المتقدّمون، الذين أجازوا إدغام الرّاء في اللّام، «هم رُوّس الكوفيّين، حكوه سماعاً عن العرب»، قال الفراء: «.. وتدغم الرّاء من (يغفر) عند اللّام»<sup>(٦)</sup>، والحجة الصوتية لهذا الإدغام عند الكوفيّين «أنّ الرّاء إذا أدغمت في اللّام صارت لامًا، ولفظ اللّام أسهل، وأخفّ من أنّ تأتي ب (راء) فيها تكرير وبعدها (لام) وهي مقاربة للرّاء، فيصير كالنطق بثلاثة أحرف من موضع واحد، فطلب التخفيف من ذلك»<sup>(٧)</sup>.

ونلاحظ أنّ رواية إدغام الرّاء في اللّام قد نقلها أكابر النحاة والقراء من الكوفيّين: الرّؤاسيّ والكسائيّ والفراء،

(١) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ذيل الآية ٦٠، من سورة المائدة. وراجع أيضًا: الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد ٢، الجزء ٦، ص ١٣٦.

(٢) القرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ذيل الآية ٦٠، من سورة المائدة. وراجع أيضًا: الزمخشري: تفسير الكشاف، ج ١، ص ٦٣٩.

(٣) أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، ذيل الآية ١٢٦ من سورة البقرة.

(٤) السيرافي: إدغام الفراء، ص ٤٠ و ٤١.

(٥) راجع: الأسترابادي: شرح شافية ابن الحاجب، ج ٣، ص ٢٧٤. وأيضًا: أبو حيّان: تفسير البحر المحيط، ذيل الآية ١٢٦ من سورة البقرة.

(٦) الفراء: معاني القرآن، ج ١ ص ٢٠٦.

(٧) راجع: - ابن يعيش: شرح المفصل للزمخشري، ج ٥، ص ٥٤٤. وأيضًا: مكي بن أبي طالب: الكشف عن وجوه القراءات السبع، ج ١ ص ٢٤٢. وأيضًا: الأسترابادي: شرح شافية ابن الحاجب، ج ٣، ص ٢٧٤.

ونقلها ثعلب<sup>(١)</sup> عن الفرّاء، وهم رؤوس الكوفيين، على ما ذكرنا.

وأدغم يعقوب الحضرمي<sup>(٢)</sup> من البصريين الرّاء في اللّام، موافقاً رواية الكوفيين التي تعكس جانباً من جوانب اعتزازهم بالقراءات القرآنية، وإن خالفت ما يدعى بقياس البصريين، وطعن الزمخشري في قراءة إدغام الرّاء في اللّام، قائلاً: «ومُدغم الرّاء في اللّام لاحقٌ مخطئٌ خطأً فاحشاً»<sup>(٣)</sup>، وعلّة خطئها ولحنها أنّها لم تكن على قواعد البصريين، ومن قواعدهم أنّ الرّاء لا تدغم إلا في مثلها، لما فيها من التكرير، وهو لا يتحصّل في إدغامها في اللّام<sup>(٤)</sup>، وتعقب أبو حيان الزمخشري في تفسيره قائلاً: «لسان العرب ليس محصوراً في ما نقله البصريون فقط، والقراءات لا تجيء على ما عمله البصريون ونقلوه»<sup>(٥)</sup>، وعنى (بالبصريين) نحاتهم<sup>(٦)</sup> وخاصةً سيبويه، حيث احتذى به علماء العربية في البصرة حذو النعل بالنعل، من دون تدبّر

لما نقله غيرهم، أو تمحيصٍ للهجات القبائل التي سكنت البصرة وجوارها، وقد أنكر سيبويه إدغام الرّاء في اللّام لم يجوزه في مثل قوله تعالى: ﴿يَعْفُرُ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [الفتح: ١٤] بحجة «أنّ الرّاء مكرّرة، وهي تفشي إذا كان معها غيرها»<sup>(٧)</sup>.

إنّ منع إدغام الرّاء في اللّام مذهبُ البصريين، وقد أجازته الكوفيون، وحكوه سماعاً، منهم: أبو جعفر الرّؤاسي، والكسائي والفرّاء.. ورواه من قرأ البصرة أبو عمرو، ولسان العرب ليس محصوراً فيما نقله البصريون فقط، والقراء من الكوفيين ليسوا بمنحطّين عن قراءة البصرة، وقد أجازوه عن العرب فوجب قبوله، والرجوع إلى علمهم ونقلهم، إذ من علم حجةً على من لم يعلم»<sup>(٨)</sup>.

ولا مانع صوتياً يمنع من إدغام الرّاء في اللّام، طلباً للخفة ودفعاً للإستثقال، وهو ضربٌ من ضروب إدغام المتقاربين «وما بينهما من التقارب حتّى كأنهما مثلان»<sup>(٩)</sup>،

- (١) أحمد بن يحيى (أبو العباس) المعروف بثعلب (ت ٢٩١هـ)، كان إمام الكوفيين في النحو واللغة، حفظ كتب الفرّاء، فلم يشدّ منها حرف. (راجع: القفطي: إنباه الرواة على أنباه النحاة، ج ١ ص ١٣٨).
- (٢) السيرافي: إدغام الفرّاء، ص ٤٢. وراجع أيضاً: ابن يعيش: شرح المفصل للزمخشري، ج ٥ ص ٥٤٤.
- (٣) الزمخشري: تفسير الكشاف، ج ١ ص ٣٢٦. (٤) سيبويه: الكتاب، ج ٢ ص ٤٩٧.
- (٥) أبو حيان: تفسير البحر المحيط، ذيل الآية ٢٨٦ من سورة البقرة.
- (٦) الأسترابادي: شرح شافية ابن الحاجب، ج ١ ص ١٤٢. (٧) سيبويه: الكتاب، ج ٢ ص ٤٩٧.
- (٨) الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ذيل الآية ٢٨٤ من سورة البقرة. وراجع أيضاً: السمين الحلبي: الدر المصون في علم الكتاب المكنون، ج ٣ ص ٢١٤.
- (٩) الألوسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ذيل الآية ٢٨٤ من سورة البقرة.



الثَّقَات، هو الذي وجَّه مثل هذه الإدغامات وأباحها، «والقرء لا تقرأ بكل ما يجوز في العربية»<sup>(٤)</sup>.

#### ٦ - قراءة (تقلب)

في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ﴾ [الأحزاب: ٦٦] «قرأ العامة (تُقَلَّبُ) مبنياً للمفعول، (وجوهُهم) رفع على ما لم يُسمَّ فاعله. وقرأ الحسن وعيسى والرؤاسي (تَقَلَّبُ) بفتح التاء أي: نَتَقَلَّبُ، (وجوهُهم) فاعلُ به»<sup>(٥)</sup>. قال الفراء: «ولو قرئت (تَقَلَّبُ) و(نُقَلَّبُ) كان وجهين»<sup>(٦)</sup>.

#### الرؤاسي الزاوي

قلنا أنَّ الرؤاسي كان مُحدِّثاً ثقةً مأموناً، فقد كان من ثقات محدثي الإمامية، قال الشيخ الطوسي في رجاله: «محمد بن الحسن بن أبي سارة، أبو جعفر، أسندُ عنه»<sup>(٧)</sup>، «روى هو وأبوه عن أبي جعفر الباقر (٥٧هـ - ١١٤هـ) وأبي عبد الله الصادق (٨٠-١٤٨هـ) عليه السلام»<sup>(٨)</sup>، وما أريد

وهذا ما يؤيده الدرس الصوتي الحديث، فكلاهما «صوت لثوي متوسِّط بين الشدَّة والرِّخاوة، ولا يكاد يُسمع للراء حفيف»<sup>(١)</sup>، والتكرار في الراء لا يمنع إدغامه في ما دونه، فهو أمرٌ عديمي عارض، لا متأصل في الراء، لذلك لا يقويها»<sup>(٢)</sup>، هذه المماثلة التراجعية في حال الإتصال قد أدغمت الراء في اللام «فصارت لاماً، ولفظ اللام أسهل وأخف من أن تأتي براء فيها تكرير وبعدها لام، وهي مقاربة للفظ الراء، فيصير كالنطق بثلاثة أحرف من موضع واحد»<sup>(٣)</sup>، هذا الضرب من المماثلة أمّن الخفة والسُهولة ودفع الثقل الحاصل من التكرير في الراء، واقتصد في الجهد العضلي، بأن ارتفع اللسان رفعةً واحدة طويلة في زمنها.

إنَّ إدغام الراء في اللام على رواية الرؤاسي والكوفيين ينم عن علم بالأسس الصوتية التي شهدها زمانهم، فقد عرفوا أنَّ الحرفين المتقاربين إذا اجتمعا تأثر أحدهما بالآخر، وهذا الإدغام يؤيِّده الدرس الصوتي الحديث، ثمَّ إنَّ نقل الرواية عن الشيوخ

(١) إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، ص ١٩٩.

(٢) أحمد بن عبد الغني الدماطي (المعروف بالبناء): إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، ص ٣٥.

(٣) ابن يعيش: شرح المفصل للزمخشري، ج ٥ ص ٥٤٤.

(٤) الفراء: معاني القرآن، ج ١، ص ٢٤٥.

(٥) أبو حيان: البحر المحيط، ذيل الآية ٦٠ من سورة الأحزاب، ج ٧، ص ٢٥٢. وراجع أيضاً: السمين الحلبي: الدر المصون في علم الكتاب المكنون، ذيل الآية ٦٠ من سورة الأحزاب.

(٦) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ٣٥٠.

(٧) الشيخ الطوسي: رجال الشيخ الطوسي، رقم الترجمة ٤٠٣٨.

(٨) النجاشي: رجال النجاشي، ص ٣٢٤، رقم الترجمة ٨٨٣.

تسليط الضوء عليه في هذا المبحث هو روايته عن أبي عمرو بن العلاء، قال أبو الطيب اللغوي: «أخذ الرؤاسي الحروف عن أبي عمرو بن العلاء (١٥٤هـ)، وحدث عن ابن الأعرابي وعن نفطويه»<sup>(١)</sup>، وإليك هذه المرويات

### ١ - تسكين حركة الإعراب تخفيفاً

نقل الفراء عن الرؤاسي رواية، قال: «حدثني الرؤاسي عن أبي عمرو بن العلاء (لا يحزنهم) جزم»<sup>(٢)</sup>، والجملته مقطع من الآية ١٠٣ من سورة الأنبياء، قال تعالى ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ وَتَتَلَقَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ هَذَا يَوْمُكُمْ الَّذِي كُنْتُمْ تُوعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠٣].

إنَّ الفعل (يَحْزَنُهُمْ) فيه لغتان: (حَزَنَ يَحْزَنُ) و (أَحْزَنَ يُحْزِنُ)، «والأولى أفصح»، وبها قرأ الكوفيون في جميع القرآن»<sup>(٣)</sup>، ثم إنَّ موضع الإستشهاد في رواية الرؤاسي عن أبي عمرو قوله «(لا يحزنهم) جزم»، بحيث أنَّ الرواية تتحدث عن سكون على النون في الوقت الذي نجد فيه أنَّ الفعل في موضع رفع بالضمة الظاهرة؛ وحتى نفهم مراد الفراء من استشاده بقراءة أبي عمرو

لا بدَّ من أن نورد السياق الذي جاءت فيه الرواية.

قبل هذه الرواية عن الرؤاسي كان تفسير الفراء منصباً على قوله تعالى ﴿أَسْتَكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئِ إِلَّا بِأَهْلِهِ﴾ [فاطر: ٤٣]، قال الفراء: «وقوله (مَكْرَ السَّيِّئِ) الهمزة في (السَّيِّئِ) مخفوضة، وقد جزمها الأعمش وحمزة لكثرة الحركات، كما قال ﴿لَا يَحْزَنُهُمُ الْفَزَعُ الْأَكْبَرُ﴾ [الأنبياء: ١٠٣]، وكما قال الشاعر:

إذا اعوججن قلت: صاحب قوم

.....

يريد (صاحب قوم) فجزم الباء لكثرة الحركات»<sup>(٤)</sup>

نلاحظ أنَّ الفراء عامل الآيتين والبيت الشعري المعاملة نفسها من حيث تسكين ما حقه الإعراب، وقاس عليه ما رواه الرؤاسي عن أبي عمرو بن العلاء، وأنا أنقل لك نصاً للفراء نفسه قد التفت فيه إلى مسألة صوتية مهمة وهي استئصال توالي الحركات، قال الفراء: «وقوله ﴿أَنْزَلْنَاهَا﴾ [هود: ٢٨] العرب تسكن الميم التي من

(١) أبو الطيب اللغوي (٣٥١هـ): مراتب التحويين، ص ٣٩.

(٢) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ٣٧١.

(٣) أبو جعفر النحاس: إعراب القرآن، ص ٥٦١.

(٤) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ٣٧١. وتتم البيت: (بالدو أمثال السفين العموم) «والدو معناه الفلاة الواسعة، وقيل: الدو المستوية من الأرض» ابن منظور: لسان العرب، ج ٥، ص ٣٣٣.

١ - إستثقال توالي ثلاثة صوائت قصيرة، هي الضمة.

٢ - إستثقال الكسرة المتبوعة بضمّة، والعكس.

٣ - إستثقال الكسرتين المتوالييتين، أو الضمّتين المتوالييتين.

إستثقل العربيُّ توالي ثلاثة صوائت قصيرة، ومثَّل لها الفراء بقوله تعالى (أَنْلِزْمُكُمُوهَا)، حيث تواتت ثلاثة ضمّات على الميم والكاف والميم الثانية، فلجأ اللسانُ العربيُّ إلى تسكين الميم الأولى، مع أنّها حركة إعراب، تخفيفاً، ولو كانت الضمّة فتحةً لما سكنت تخفيفاً لأنّ توالي الصوائت فُقدَ، ولأنّ الفتحة خفيفةٌ بذاتها.

هذا التسكينُ الذي لجأ إليه اللسانُ العربيُّ فسَرَهُ القدماءُ على أنّه ضربٌ من التخفيف، هذا التخفيف علّله المحدثون أنّه نتيجة تغيّر في البنية المقطعيّة للكلمة، بحيث يقلّ عدد المقاطع، على الشكل التالي:

أَنْلِزْمُكُمُوهَا = ء + ن + ل + ز + م  
- + ك + م + و + هـ + ا -

= ص + ح + ص + ح + ص + ح + ص  
ح + ح + ص + ح + ح + ح = (٧) مقاطع  
بينما نجد أنّ هذه المقاطع السبعة

اللُّزوم، فيقولون: (أَنْلِزْمُكُمُوهَا)، وذلك أنّ الحركات قد تواتت فسكنت الميمُ لحركتها وحركتين بعدها وأنّها مرفوعة، فلو كانت منصوبة لم يُسْتَثَقَل فتخفّف، إنّما يستثقلون كسرةً بعدها ضمّةً أو ضمّةً بعدها كسرةً أو كسرتين متوالييتين أو ضمّتين متوالييتين، فأما الضمّتان فقولهُ: (لَا يَحْرُزُهُمْ) جزموا النون لأنّ قبلها ضمّةً فخففت كما قال (رُسل)، وأما الكسرتان فمثل قوله (الإبل) إذا حُففت، وأما الضمّة والكسرة فمثل قول الشاعر: (من الطويل)

وناعٍ يُخَبِّرُنَا بِمُهْلِكَ سَيِّدٍ  
تَقَطَّعَ مِنْ وَجْدِ عَلَيْهِ الْأَنَامِلُ

وإن شئت تُقَطَّع، وقوله في الكسرتين:

إِذَا اءَوْجَجْنَ قَلْتَ صَاحِبِ قَوْمٍ

يريد (صاحبي) فإنّما يُسْتَثَقَل الضمّ والكسر لأنّ لمُخرجهما مؤونةً على اللسان والشفتين تنضمّ الرّفعة بهما فيثقل الضمّة، ويمال أحدُ الشدّقين إلى الكسرة فتري ذلك ثقيلًا، والفتحة تخرج من حَرَقِ الفم بلا كُلفة» (١).

نقلت النّص بطوله لأهمّيّته على المستوى الصّوتي، ففيه يحدّد الفراء أسباب ثقل توالي الصّوائت القصيرة، وثقلها متأتّي مما يلي:

(١) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ١٣ و ١٤.

تحوّلت إلى مقاطع ستّة عند تسكين الضمة على الميم الأولى:

أُنزل مُكموها = ء + ن + ل + ز + م + ك  
ك + م + و + هـ = ا

= ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح  
ح + ص ح + ص ح + ص ح = (٦) مقاطع

هذا التغيير في البنية المقطعية غرضه دفع التنافر الحاصل من توالي الصوائت المتماثلة، وتخفيف الضمة إلى سكون إقتصاداً في الجهد العضلي عبر تقليل عدد المقاطع من سبعة إلى ستّة.

وعلى منواله ما رواه الرؤاسي عن أبي عمرو بن العلاء من قراءة قوله تعالى (لا يَحْزَنُهُمْ) حيث توالى أربعة صوائت قصيرة هي الضمة على الزاي والنون والهاء والميم، فلجأ إلى إبدال ضمة الإعراب على النون بسكون تخفيفاً، بحيث تحوّلت مقاطع الكلمة من خمسة إلى أربعة، على الشكل التالي:

يَحْزَنُهُمْ = ي - ح + ز + ن - هـ  
- م + هـ

= ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح  
+ ص ح (خمسة مقاطع صوتية)

يَحْزَنُهُمْ = ي - ح + ز + ن + هـ + م -

= ص ح + ص ح + ص ح + ص ح + ص ح  
ح (أربعة مقاطع صوتية)

إنّ القراءة القرآنية المتواترة المروية بالأسانيد الصحيحة التي لا تقبل الشكّ روتها الأمة جيلاً عن جيل، عن أفصح الخلق سيدنا محمد (ص)، ولأنّه قرأ بها وأقرأها لأصحابه، بالصورة التي وصلت إلينا متواترة كما هي فإنّها لا يتطرّق الشكّ إليها، وعلى النحاة أن يقبلوها كما هي، لا أن يردّها ويُعمّلوا قواعدهم المعيارية فيها، أي عليهم أن يقعدوا قواعدهم عليها، لا أن يعملوا قواعدهم المعيارية فيها، فيردّوا ما خالف قواعدهم، ويقبلوا ما وافقها.

## ٢ - نصب (أن تأتيهم) أو جزمها؟

قال تعالى: ﴿فَهَلْ يُنظَرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنْتُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذَكَرْتَهُمْ﴾ [محمد: ١٨].

قرأ جمهور الناس (أن تأتيهم) بنصب الفعل المضارع، وقرأ أهل مكة فيما رواه الرؤاسي عن أبي عمرو بن العلاء (إن تأتيهم) بجزم المضارع، على أنّه فعل الشرط، قال الفراء: وحدثني أبو جعفر الرؤاسي قال: قلت لأبي عمرو بن العلاء: ما هذه الفاء التي في قوله: ﴿فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾؟ قال: جوابٌ للجزاء. قال: قلت: إنّها (أن تأتيهم) مفتوحة؟ قال: فقال: معاذ الله إنّما هي (إن تأتيهم). قال الفراء: فظننت أنّه أخذها عن أهل مكة، لأنّه عليهم قرأ، وهي

أيضاً في بعض مصاحف الكوفيين: (تأتهم) بسينة<sup>(١)</sup> واحدة، ولم يقرأ بها أحدٌ منهم<sup>(٢)</sup>. وقبل الغوص في إعراب القراءتين أفسرُ معاني بعض مفردات الآية.

قوله تعالى ﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ﴾ (هل) حرف استفهام فيه معنى النفي، و(ينظرون) بمعنى (ينتظرون)، والمعنى: فليس ينتظرون إلا الساعة. ﴿بَغْتَةً﴾ فجأة. ﴿السَّاعَةَ﴾ يوم القيامة. ﴿أَشْرَاطُهَا﴾ جمع (شَرَطٌ) أو (شَرَطٌ) وهو العلامة والأمارة على وجود شيء.

**معنى الآية:** «وكيف للكفار النجاة إذا جاءتهم الساعة، فإنهم لا ينفعم في ذلك الوقت الإيمان والطاعات لزوال التكليف عنهم»<sup>(٣)</sup>.

سبق القول أن جمهور الناس قرأوا قوله تعالى ﴿أَنْ تَأْتِيَهُمْ﴾، وعليه يكون إعراب الآية على الشكل التالي:

**فهل:** الفاء حرف استئناف. (هل): حرف استفهام، فيه معنى النفي. **ينظرون:** مضارع مرفوع، والواو فاعل، عائد على كفار مكة؛ والجملة الفعلية لا محل لها من

الإعراب لأنها إستئنافية. إلا: حرف حصر. **السَّاعَةَ:** ظرف زمان. **أَنْ تَأْتِيَهُمْ:** (أن) حرف نصب ومصدر؛ و**(تَأْتِيَهُمْ):** مضارع منصوب بفتحة ظاهرة على الياء، والضمير (هم) مبني في محل نصب مفعول به، عائد على كفار مكة؛ والمصدر المؤول (أن) تأتيهم) واقع في محل نصب بدل احتمال من (السَّاعَةَ)، أي: ينظرون إتيان الساعة؛ وجملة (تأتيهم) لا محل لها من الإعراب لأنها صلة الموصول الحرفي (أن). **بَغْتَةً:** حال من (السَّاعَةَ) منصوبة **فقد:** (الفاء)<sup>(٤)</sup> حرف عطف، عطفت جملة على جملة؛ (قد): حرف تحقيق. **جاء:** فعل ماضٍ مبني على الفتح الظاهر على آخره. **أَشْرَاطُهَا:** فاعل مرفوع، والهاء جرّ بالإضافة. والجملة الفعلية لا محل لها من الإعراب تعليلية لمفاجأة الكفار.

على قراءة الجمهور تكون الآية ذات شطرين أو جملتين:

✓ الأولى: (فهل ينظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة؟) جملة إستفهامية إنكارية مشوبةً بالتهكم والتهديد والوعيد لكفار مكة. ✓ والثانية: (فقد جاء أشراطها) جملة

(١) كذا في الأصل، والصحيح بسنة واحدة (راجع: تفسير الطبري، ذيل تفسير الآية ١٨ من سورة محمد). والمقصود بسنة واحدة أن رسمها هكذا (تأتهم) وليس (تأتيهم)، فالقرآن لم يكن منقوفاً، فالسنة الواحدة أي التاء من غير نقطتين فوقها.

(٢) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد ٦، الجزء ٢٦، ص ٣٨.

(٣) هذه الفاء يقال لها الفاء الفصيحة، تفيد معنى التعليل.

خبريةً مُستأنفة، والفاء فيها عطفت جملة على جملة.

وأما على قراءة **الرؤاسي** المروية عن أبي عمرو بن العلاء وأهل مكة فإن الآية مكونة من شطرين أو جملتين أيضاً، هما:

√ الأولى: (فهل ينظرون إلا الساعة؟) جملة إستفهامية إنكارية تهكمية.

√ الثانية: (إن تأتيم فقد جاء أشراطها) جملة شرطية.

إن: حرف شرط جازم. **تأتيمهم**: فعل مضارع مجزوم بحذف حرف العلة، والفاعل ضمير مستتر تقديره (هي) يعود على (الساعة)؛ والضمير المتصل (هم) مبني في محل نصب مفعول به. وجزم الفعل (تأتيمهم) على أنه فعل الشرط هو قراءة أبي عمرو بن العلاء، والراوي لها هو **الرؤاسي**، قال **الرؤاسي** لأبي عمرو: «(أن تأتيمهم) مفتوحة؟ قال أبو عمرو: معاذ الله، إنما هي (إن تأتيمهم)»<sup>(١)</sup>، ويرجح الفراء أن تكون قراءة أبي عمرو هي قراءة أهل الكوفة «لأنه عليهم قرأ»، وما يدعم قراءة الجزم أن الفراء رآها في «بعض مصاحف الكوفيين (تأتيمهم) بسنة واحدة، ولم يقرأ بها أحد منهم».

**بغنة**: حال منصوبة بالفتحة. **فقد**: (الفاء) رابطة لجواب الشرط، بينما هي في

قراءة الجمهور عاطفة. و(قد) للتحقيق. **جاء أشراطها**: جملة فعلية واقعة في محل جزم «جواب الشرط»، على رأي أبي عمرو بن العلاء، قال له **الرؤاسي**: «ما هذه الفاء في قوله (فقد جاء أشراطها)؟ قال: جواب للجزء»<sup>(٢)</sup>؛ وعلى رأي آخر «جواب الشرط هو ﴿فَأَن لَّهُمْ إِذَا جَاءَهُمْ ذِكْرُهُمْ﴾ [محمد: ١٨] والتقدير: إن تأتيمهم...فإن لهم الذكرى»، قال في الكشف: وفي الإتيان بـ (إن) مع الجزم بالوقوع تقوية أمر التوبيخ والإنكار»<sup>(٣)</sup>.

### ٣ - تحقيق الهمزة وتخفيفها

نقل الفراء الكوفي رواية عن **الرؤاسي**، و**الرؤاسي** بدوره نقلها عن أبي عمرو بن العلاء في قراءة قوله تعالى ﴿تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ﴾ [سبأ: ١٤]، فقال (منسأته) بغير همز، هذه الرواية التي نقلها الفراء عن **الرؤاسي** في قضية همز (منسأته) جاءت في معرض قصة نبي الله سليمان وعلاقته بالجن.

حدّد الفراء معنى (المنسأة) بقوله: «وهي العصا العظيمة التي تكون مع الراعي، أخذت من: نَسَأْتُ البعير: زجرته ليزداد سيره»<sup>(٤)</sup>، ولعصا سليمان قصة في القرآن الكريم، نوردها بسرعة.

(٢) م. ن: ج ٣، ص ٦١.

(١) الفراء: معاني القرآن، ج ٣، ص ٦١.

(٣) راجع: - أبو حيان الأندلسي: تفسير البحر المحيط، ذيل الآية ١٨ من سورة محمد. وكذلك: ابن عادل اللمشقي: الباب في علوم الكتاب. وأيضاً: الألويسي: روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني.

(٤) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ٣٥٦.

وحديثنا منصباً على قوله تعالى ﴿وَسَاءَ مَا يَحْكُمُونَ﴾، قال الفراء: «همزها عاصم والأعمش، ولم يهمزها أهل الحجاز ولا الحسن، ولعلهم أرادوا لغة قريش، فإنهم يتركون الهمز. زعم أبو جعفر الرؤاسي أنه سأل عنها أبا عمرو فقال: (منسأته) بغير همز، فقال أبو عمرو: لأنني لا أعرفها فتركتُ همزها»<sup>(١)</sup>.

إن ظاهرة تحقيق الهمزة أو تخفيفها وتسهيلها يعود إلى ظروف ما يحيط بكل بيئة من البيئات العربية، «فتحقيق الهمزة مظهرٌ من مظاهر البداوة، وتسهيلها أو التخلص منها مظهرٌ من مظاهر الحضرية»<sup>(٢)</sup>، فالتسهيل كان سائداً في الحواضر الحجازية عند قريش في مكة، وعند أهل المدينة وعند هذيل، وتحقيق الهمزة كان سائداً في بوادي وسط شبه الجزيرة وشرقيها، بيد «أن التحقيق هو الأصل كسائر الحروف، والتخفيف استحسان»<sup>(٣)</sup>.

إن عملية تحقيق الهمزة تحتاج إلى جهد عضلي مما يجعلها من أصعب الأصوات مخرجاً، فهي مسبقة بمرحلتين قبل

الإنفجار، وهما قطع النفس والإنطباع، ثم تأتي المرحلة الثالثة: الإنفجار، والمرحلتان الأخيرتان (الإنطباع والإنفجار) متداخلتان لا يمكن الفصل بينهما، أو النظر إلى إحداهما دون الأخرى<sup>(٤)</sup>، ولذلك مالت قريش وأهل الحجاز إلى تسهيلها، مما نحا بهذا الصوت إلى أن يصبح من الصوائت، أو شبيهاً بها، لنقطة التضييق الحنجري المصاحبة له، هذه الصعوبة في إخراجها أشار إليها الخليل، وعلماء اللغة من بعده، بقوله: «الهمزة صوت مهتوت في أقصى الحلق»<sup>(٥)</sup>، وسُميت الهمزة مهتوتة لأنها تخرج «من الصدر كالتهوع، فتحتاج في صدورها إلى صوت قوي شديد»<sup>(٦)</sup>، وهي نبرة في الصدر تخرج باجتهاد»<sup>(٧)</sup>.

خلاصة الأمر، إن تحقيق الهمزة يحتاج إلى جهد عضلي أكبر، «ولها نبرة كريهة تجري مجرى التهوع، ثقلت بذلك على لسان المتلقظ بها، فحفظها قوموهم أكثر أهل الحجاز، ولا سيما قريش، وحققها غيرهم، والتحقيق هو الأصل كسائر الحروف، والتخفيف استحسان»<sup>(٨)</sup>، فالتخفيف غرضه: الاقتصاد في الجهد العضلي،

(٢) مهدي مخزومي: مدرسة الكوفة، ص ١٨٠.

(١) م. ن. ج ٢، ص ٣٥٦ و ٣٥٧.

(٣) الأستريادي: شرح شافيه ابن الحاجب، ج ٣ ص ٣٢.

(٤) كمال محمد بشر: علم اللغة العام (الأصوات)، ص ١١٢.

(٦) أبو حيان: إرتشاف الضرب، ج ١ ص ١١ و ١٢.

(٥) الفراهيدي: العين، ج ٣ ص ٣٤٩.

(٨) ابن جني: سر صناعة الإعراب، ج ١ ص ٤١.

(٧) سيبويه: الكتاب، ج ٢ ص ١٤٩.

والابتعاد عن الثقل، وهو استحسان وليس بضرية لازب، هذا التخفيف للهمزة هو ما رواه الرُّؤاسي عن أبي عمر بن العلاء في قراءة (مِنْسَأْتَهُ)، قال الفراء: «زعم لي أبو جعفر الرُّؤاسي أنه سأل عنها أبا عمرو فقال: (مِنْسَأْتُهُ) بغير همز»<sup>(١)</sup>، هذه القراءة السهلة المخففة مستحسنة، لأنَّ فيها اقتصاداً في الجهد العضلي، وابتعاداً عن الثقل.

#### ٤ - إجراء (سبأ) وترك إجرائها

لَمَّا تَفَقَّدَ نَبِيَّ اللَّهِ سَلِيمَانَ الطَّيْرَ وَجَدَ أَنَّ  
الهدهد من الغائبين، فهَدَّدَ وتوَعَّدَ، ولما عاد  
الهدهد مكثَّ غير بعيد عن سليمان، وقال له  
معتذراً عن غيابه ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ  
بَقِيٍّ﴾ [النمل: ٢٢].

اختلف الفراء في قراءة كلمة (سبأ)،  
فمنهم من صرفها، وآخرون منعوها<sup>(٢)</sup>.  
«قرأ عامة قراء المدينة والكوفة (من

سبأ) بالإجراء، وقرأ بعض قراء أهل مكة  
والبصرة (من سبأ) بترك الإجراء»<sup>(٣)</sup>. قال  
الفراء: «زعم الرُّؤاسي أنه سأل أبا عمرو  
عنه فقال: لست أدري ما هو»<sup>(٤)</sup>، وفسر  
الفراء قول أبي عمرو هذا على أنه ذهب  
مذهباً في إعراب (سبأ)، وهو منعها من  
الصرف (من سبأ)، وعلل ذلك أن «العرب  
إذا سمَّت بالاسم المجهول تركوا إجراءه»،  
واستشهد لذلك بقول الأعشى:

وتدفن منه الصالحات وإن يُسيء

يكن ما أساء النار في رأس ككبأ

فكانه جهل (الككب) فمنعه من الصرف.

واستشهد الفراء على منع العرب من  
الصرف ما تجهله بقول الأعرابي أبي  
السَّقَّاح السَّلُولي، يقول: (هذا أبو صعُور  
قد جاء) فلم يجره لأنه ليس من عاداتهم في  
التسمية. قال الفراء: الصُّعور شبيهه  
بالصمغ<sup>(٥)</sup>.

(١) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ٣٥٧.

(٢) قبل الخوض بما نحن فيه، ألفت إلى ما في قوله تعالى (من سبأ بنياً) من جناس بديع، وعلماء البلاغة يسمونه (تجنيس التصريف)، وهو عبارة عن انفراد كل كلمة عن الأخرى بحرف، قال السكاكي: (والمتجانسان إذا وردا على نحو قوله تعالى (سبأ بنياً) سمي هذا الجناس: مزدوجاً، ومكروراً، ومردوداً). قال الزمخشري: «وقوله ﴿وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بِنَبِيٍّ بَقِيٍّ﴾ [النمل: ٢٢] من جنس الكلام الذي سماه المحدثون (البديع)، وهو من محاسن الكلام الذي يتعلّق باللفظ، بشرط أن يجيء مطبوعاً، أو يصنعه عالمٌ بجوهر هذا الكلام، يحفظ معه صحّة المعنى وسدادته، ولقد جاء ههنا زائداً على الصّحة، فحسن وبدع لفظاً ومعنى، ألا ترى أنه لو وضع مكان: (بنياً) (بخبر) لكان المعنى صحيحاً، وهو كما جاء أصحّ ليمّا في التّبأ من الزّيادة التي يطابقها وصف الحال» راجع: (الزمخشري: تفسير الكشاف، ج ٣، ص ٣٤٨ و ٣٤٩) وراجع أيضاً: (السكاكي: مفتاح العلوم، ص ٥٤٠).

(٣) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن (المعروف بتفسير الطبري)، ذيل الآية ٢٢ من سورة النمل.

(٤) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ٢٨٩. (٥) م. ن: ج ٢، ص ٢٩٠.



إنَّ من صرف لفظة (سبأ) من قرءاء المدينة والكوفة قد ذهبَ ألى إنَّه «رجل اسمه سبأ»<sup>(١)</sup>.. وإن كان سبأ رجلاً أجري، لأنَّه لا يراد به الجبل بعينه»<sup>(٢)</sup>، ومَن لم يصرِّفه من قرءاء مكَّة والبصرة فقد جعله اسماً للقبيلة أو البقعة، ويكون منعه للصرف بسبب العلميَّة والتأنيث، قال الطَّبْرِيُّ «وإن لم يجِرْ فلائنه يجعل اسماً للجبل وما حوله من البقعة»<sup>(٣)</sup>.

قلنا في ما سبق أنَّ الفراء فهمَ من قول أبي عمرو بن العلاء للرؤاسي «لست أدري ما هو» أنَّه ذهب مذهباً، وهو منع لفظة (سبأ) من الصرف، وعلَّة المنع عنده أنَّ العرب تمنع من الصِّرف الأسماء المجهولة التي لا تعرفها، وما يدعم رواية الرؤاسي قراءة أبي عمرو بالمنع من الصِّرف ما حكاه سيبويه، قال: «وكان أبو عمرو لا يصرِّف (سبأ)»<sup>(٤)</sup> ولكنَّ علَّة المنع عند

سيبويه غيرها عند الفراء، قال «بجعله اسماً للقبيلة»<sup>(٥)</sup>.

وقد اعترض أبو جعفر النَّحاس على فهم الفراء هذا بقوله: «وتأوَّل الفراء على أبي عمرو أنَّه منعه من الصرف لأنَّه مجهول، وأنَّه إذا لم يعرفِ الشَّيء لم ينصرف، وأبو عمرو أجلُّ من أن يقول مثل هذا، وليس في حكاية الرؤاسي عنه دليل أنَّه إنما منعه من الصِّرف لأنَّه لا يعرفه، وإنَّما قال: لا أعرفه، ولو سُئل نحويٌّ عن اسم فقال: لا أعرفه، لم يكن في هذا دليلٌ على أنَّه يمنعه من الصِّرف بل الحقُّ على غير هذا، والواجب إذا لم تعرفه أن تصرِّفه، لأنَّ أصلَ الأسماء الصِّرف، وإنَّما يُمنع الشَّيء من الصِّرف لعلَّةٍ داخليةٍ عليه، فالأصل ثابتٌ فلا يزول بما لا يُعرف، واحتجاجه بـ (ككب) لا معنى له، لأنَّ (ككب) جبلٌ معروف، مُنَع من الصِّرف لأنَّه بقعة، وإنَّ كان الصِّرف فيه حسناً»<sup>(٦)</sup>.

(١) سبأ: سبأ اسم رجل يجمع عامَّة قبائل اليمن يُصرِّف على إرادة الحيِّ ويترك صرِّفه على إرادة القبيلة، وهو سبأ بن يشجب بن يعرب بن قحطان؛ وقيل (سبأ) اسم بلدة كانت تسكنها، وقال الزجاج سبأ هي مدينة تُعرف بمأرب من صنعاء على مسيرة ثلاث ليالٍ؛ وضربت العرب بهم المثل في الفرقة لأنه لما أذهب الله عنهم جنتهم وعرق مكانهم تبدَّوا في البلاد؛ قال الأزهري في التهذيب: «وقولهم ذهبوا أيدي سبأ أي مُتفرِّقين شُبهوا بأهل سبأ لما مرَّفهم الله في الأرض كلَّ مُمرِّقٍ فأخذ كلُّ طائفةٍ منهم طريقاً على جدة، واليَدُ الطَّرِيق، يقال: أخذ القوم يدَ بحرٍ فقبل للقوم إذا تفرَّقوا في جهاتٍ مختلفة ذهبوا أيدي سبأ أي فرَّقتهم طرُقهم التي سلَّوها كما تفرَّق أهل سبأ في مواطن في جهاتٍ مختلفة أخذوها» (راجع: الأزهري: تهذيب اللغة، ج ١٣، ص ١٠٥ و ١٠٦. وراجع أيضاً: ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ٩٩).

(٢) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن (المعروف بتفسير الطبري)، ذيل الآية ٢٢ من سورة النمل.

(٣) م. ن: ذيل الآية ٢٢ من سورة النمل.

(٤) سيبويه: الكتاب، ج ٢، ص ٣٢.

(٥) م. ن: ج ٢، ص ٣٢.

(٦) أبو جعفر النَّحاس: إعراب القرآن، ص ٦٢١.

والصَّوَابُ فِي ذَلِكَ أَنْ نَقُولَ: إِنَّ قِرَاءَةَ (سبأ) بِالصَّوَابِ وَالْمَنْعَ قِرَاءَتَانِ مَشْهُورَتَانِ، وَقَدْ قَرَأَ بِكُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا جَمْعٌ مِنْ مَشِيخَةِ الْقِرَاءَةِ، فَبِأَيْتِهِمَا قَرَأَ الْقَارِئُ فَمُصِيبٌ، «وَمَا جَاءَ التَّوْقِيفُ فِيهِ أَنْ (سبأ) اسْمٌ رَجُلٍ فِي الْأَصْلِ، فَإِنْ صَرَفْتَهُ فَقَدْ صَارَ اسْمًا لِلْحَيِّ، وَإِنْ لَمْ تَصْرِفْهُ جَعَلْتَهُ اسْمًا لِلْقَبِيلَةِ مِثْلَ (ثَمُودَ)، إِلَّا أَنْ الْإِخْتِيَارَ عِنْدَ سَبْيُوِيهِ الصَّوَابِ، وَحَجَّتُهُ فِي ذَلِكَ قَاطِعَةٌ لِأَنَّ هَذَا الْإِسْمَ لَمَّا كَانَ يَقَعُ لِلتَّذْكِيرِ وَالتَّنْأِيثِ كَانَ التَّذْكِيرُ أَوْلَى، لِأَنَّهُ الْأَصْلُ وَالْأَخْفُ»<sup>(١)</sup>.

#### ٥ - قِرَاءَةُ (وَرَبَاتٍ)

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأُنْبِتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ﴾ [الحج: ٥].

هَذِهِ الْآيَةُ تَتَنَاوَلُ نَزُولَ الْغَيْثِ، وَمَا يَصْنَعُهُ فِي الْأَرْضِ، فَإِنَّكَ تَنْظُرُ إِلَيْهَا فَتَرَاهَا هَامِدَةً يَابِسَةً، فَإِذَا نَزَلَ الْغَيْثُ تَحَرَّكَتْ بِذُورِهَا فِي بَاطِنِهَا، وَرَاحَتْ تَنْمُو وَتَزِيدُ، حَتَّى يَصْبِحَ مَنَظَرُهَا بَهِيجًا مَمْتَعًا، يُسَرُّ النَّاطِرِينَ.

يَقَالُ: هَمَدَتِ الْأَرْضُ: جَفَّتْ فَلَمْ تَنْبِتْ. وَ(اهْتَزَّتْ) الْأَرْضُ: أَحْصَبَتْ وَأُنْبِتَتْ. وَ(رَبَّتْ): الرَّبْوُ: الزِّيَادَةُ وَالنَّمُو. يَقَالُ: (اهْتَزَّتْ الْأَرْضُ وَرَبَّتْ) أَي زَادَتْ وَانْتَفَخَتْ لَمَّا يَتَدَاخَلُهَا مِنَ الْمَاءِ وَالنَّبَاتِ.

قَرَأَ الْجُمْهُورُ ﴿وَرَبَّتْ﴾ مِنْ بَابِ: رَبَا يَرْبُو، وَقَلْنَا أَنَّ الرَّبْوَ هُوَ الزِّيَادَةُ، وَالْأَرْضُ تَرْبُو أَي «تَزِيدُ بِمَا يَخْرُجُ مِنْهَا مِنَ النَّبَاتِ، أَي أَنَّ الْأَرْضَ تَحَرَّكَتْ بِالنَّبَاتِ وَانْتَفَخَتْ»<sup>(٢)</sup>.

وَرَوَى «الرُّؤَاسِيُّ عَنْ أَبِي عَمْرٍو (وَرَبَاتٍ) بِأَلْفٍ مَهْمُوزَةً»<sup>(٣)</sup>، وَرَوَيْتُ كَذَلِكَ عَنِ الْمَدَنِيِّ، قَالَ الْفَرَّاءُ: «حَدَّثَنِي أَبُو عَبْدِ اللَّهِ التَّمِيمِيُّ عَنْ أَبِي جَعْفَرِ الْمَدَنِيِّ أَنَّهُ قَرَأَ (اهْتَزَّتْ وَرَبَاتٍ) مَهْمُوزَةً، فَإِنْ كَانَ ذَهَبَ إِلَى الرَّبِّيَّةِ الَّذِي يَحْرُسُ الْقَوْمَ فَهَذَا مَذْهَبٌ، أَي: ارْتَفَعَتْ حَتَّى صَارَتْ كَالْمَوْضِعِ لِلرَّبِّيَّةِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَرَادَ مِنْ هَذَا هَذَا فَهُوَ مَنْ غَلَطَ قَدْ تَغَلَطَ الْعَرَبُ»<sup>(٤)</sup>.

أَرَادَ الْفَرَّاءُ أَنَّ قِرَاءَةَ الْهَمْزِ تَكُونُ مِنَ الْفِعْلِ (رَبَا)، «نَقُولُ: رَبَا يَرْبُو رَبَاءً: بِمَعْنَى عُلَا وَارْتَفَعَ. وَالرَّبِّيَّةُ هُوَ الْعَيْنُ، وَالطَّلِيْعَةُ الَّذِي يَنْظُرُ لِلْقَوْمِ لئَلَّا يَدْهَمَهُمْ عَدُوٌّ، وَلَا يَكُونُ إِلَّا عَلَى جَبَلٍ أَوْ شَرَفٍ يَنْظُرُ مِنْهُ،

(١) م. ن: ص ٦٢١.

(٢) الطوسي: التبيان في تفسير القرآن، المجلد ٧، الجزء ١٧، ص ٢٩٣. وراجع أيضًا: الزمخشري: تفسير الكشاف، ج ٣، ص ١٤٢.

(٣) ابن عطية المحاربي: المحرر الوجيز، ذيل الآية ٣٩ من سورة فصلت.

(٤) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ٢١٦.

إعرايه»<sup>(٣)</sup>، قال الفرزدق يمدحُ عبدَ الملك بن مروان<sup>(٤)</sup>، ويهجو جريراً: (من الطويل)  
**وَعَضُّ زَمَانٍ، يَا ابْنَ مَرَوَانَ، لَمْ يَدَعْ  
 مَنَ الْمَالِ إِلَّا مُسْحَتًا، أَوْ مُجَلَّفًا**

هذا البيت استشهد به الفراء في معرض تفسيره قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُمُ مُوسَىٰ وَيَلَّكُم لَّا تَقْتَرُوا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا فَيُسْحِتَكُم بِعَذَابٍ وَقَدْ خَابَ مَن آفَرَئِيَ﴾ [طه: ٦١]، وموضع الإستشهاد قوله تعالى ﴿فَيُسْحِتَكُم﴾؛ «قرأ أهل الكوفة (فَيُسْحِتَكُم)، وهي لغة نجد وبنو تميم، والباقون (فَيَسْحِتَكُم) وهي لغة الحجازيين»<sup>(٥)</sup>، والفعالان (سَحَت) و (أَسَحَت) معناهما واحد، وهو الدلالة على الإستئصال والنفاذ، ويستعملان في الإهلاك والإذهاب، ويُقال: مَالٌ مَسْحُوتٌ وَمُسْحَتٌ: أي مُذَهَبٌ به، ومُستأصل لم يبقَ منه بقيةٌ؛ وقريبٌ منه: المَالُ المُجَلَّفُ: وهو الذي ذهبَ معظمُهُ، وبقِيَ منه شيءٌ يسير.

والفرزدق في البيت السابق نجده

وإنما أنثوا (الرَّبِيئَةَ) لَأَنَّ الطَّلِيْعَةَ يُقَالُ لَهُ (العين) إِذْ بَعِيْنُهُ يَنْظُرُ، وَالْعَيْنُ مُؤَنَّثَةٌ، وَإِنَّمَا قِيلَ لَهُ عَيْنٌ لِأَنَّهُ يَرعى أُمُورَهُمْ وَيَحْرُسُهُمْ»<sup>(١)</sup>.

وعليه، يكون معنى الآية إذا قرئت (وربأت) بالهمز أي: «ارتفعت حتى صارت كالموضع للرَّبِيئَةَ»، وكانَّ الأرضَ بالماء تتناولُ وتعلو.

وإن لم يكن هذا ما أرداه القارئان أبو عمرو بن العلاء، في ما رواه عنه الرُّؤاسي، والمدني «فهو غلطٌ قد تَغَلَطَهُ العَرَبُ، فتقول: حَلَّاتُ السَّوِيْقِ (أي حَلِيَّتُ)، وَلِبَّاتٌ بِالْحَجِّ (أي لَبِيَّتُ)، وَرَثَاتُ المَيْتِ (أي رَثِيَّتُ) يهمن، وهو مما يُرْفَضُ في القراءة»<sup>(٢)</sup>.

## ٦ - عطف المرفوع على المنصوب

بيتٌ من الشَّعر للشاعر الفرزدق شغلَ النُّحويين، وأكثروا من الإحتيال له كي يخرجَ موافقًا لقواعدهم المعيارية، وهو «بيتٌ لا تزالُ الرُّكْبُ تصطكُ في تسوية

- (١) ابن منظور: لسان العرب، ج٦، ص٦٩. وراجع: المعجم الوسيط، ص٣٢١.
- (٢) الفراء: معاني القرآن، ج٢، ص٢١٦. أي أنَّ همز (ربأت) كما تهمز العرب (حَلَّاتٌ وَلِبَّاتٌ وَرَثَاتٌ) يصح في الكلام اليومي للعرب، ولا يصح في القراءة. (السويق: طعامٌ يُتَّخَذُ مِنَ الحنطة والشَّعير).
- (٣) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٢٨هـ): تفسير الكشاف، ج٣، ص٧٠. (ومعنى تصطكُ: تتضارب وتضطرب في تسوية إعرايه)، ويعني أن هذا البيت صعبُ الإعراب، يقال: اضْطَكُّوا بالسيف أي تضاربوا بها، وهو اُفْتَعَلُوا مِنَ الصَّكِّ، قُلِبَتِ النَّاءُ طَاءً لِأَجْلِ الصَّادِ.
- (٤) عبد الملك بن مروان بن الحكم الأموي القرشي (٢٦-٨٦ هـ)، أبو الوليد، إستعمله معاوية على المدينة وهو ابن ١٦ سنة، إنتقلت إليه الخلافة بموت أبيه مروان بن الحكم (سنة ٦٥هـ). (الزركلي: الأعلام، ج٤، ص١٦٥).
- (٥) راجع: - الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسين الطبرسي (٥٦١هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد =

يتحسّر ويتألم من شدة الزمان عليه، بحيث أنه استأصل ماله، ولم يبق منه بقية قليلة أو كثيرة.

وموطن الإشكال في رواية هذا البيت أنّ الشاعر عطف المرفوع على المنصوب في قوله: (..مُسْحَتًا أو مُجَلَّفًا)، وهذا ما أجهد النحويين كي يجدوا لهذا العطف التخريج<sup>(١)</sup> المقنعة، فلم يفلحوا، قالوا:

١ - (مُجَلَّفًا): مرفوعٌ بفعلٍ مضمر دلّ عليه (لم يدع)، أي «أنّ (لم يدع) فسّر على أنّه بمعنى (لم يبق)»<sup>(٢)</sup>، وعليه، «يكون رفع (مُجَلَّفًا) على المعنى، وهو قول أبي عليّ الفارسي»<sup>(٣)</sup>.

٢ - (مُجَلَّفًا): مرفوعٌ على أنّه مبتدأ خبره محذوف، وكأنّه قال: «أو مُجَلَّفًا كذلك، وهو قول الفراء»<sup>(٤)</sup>، وعلى تخريج الفراء تكون (أو) عطفت جملةً إسميةً على جملةٍ فعليةً.

٣ - (مُجَلَّفًا): مرفوعٌ بعطفه على الضمير المستتر في إسم المفعول (مُسْحَتًا)، وكان من حقّ هذا أن يفصل بينهما بتأكيد ما، «حكاة هشام عن الكسائي، وهو لا يشترط ذلك، وهو جائز في الضرورة عند الكل»<sup>(٥)</sup>.

هذا التحايل وهذه التخرجات النحوية كلامٌ كالضريع، لا يُسمن ولا يُغني من جوع<sup>(٦)</sup>، فهم أجهدوا أنفسهم وعقولهم كي يخرجوا قول شاعرٍ على معاييرهم القواعدية، بحيث أن الشاعر قد رفع كلمة من حقّها النصب، ولم يأتوا بشيء يرضي ويُقنع، «قال أبو عمرو بن العلاء: لا أعرف لرفع (مُجَلَّفًا) وجهًا؛ وكان يونس لا يعرف لها وجهًا؛ قلت ليونس: لعل الفرزدق قالها على النصب، ولم يأبه؛ فقال: لا، كان يُنشدها على الرفع، وأنشدنيها رؤبة بن

= الرابع، الجزء السادس عشر، ص ١١٠. أيضًا: ابن النحاس: إعراب القرآن، ص ٥٤٠. أيضًا: ابن الجزري، محمد بن محمد الدمشقي (٨٣٣هـ): النشر في القراءات العشر، ج ٢، ص ٢٤٠.

(١) كسر الأئمة بعض مصادر الرباعي (فعل)، فقالوا: قسم تقسيم وتقاسيم، وكلف تكليف وتكاليف، وتصنيف وتصانيف، وتخريج وتخريج..

(٢) الطبرسي: مجمع البيان في تفسير القرآن، المجلد الرابع، الجزء السادس عشر، ص ١١٢.

(٣) علي بن عدلان الموصلي النحوي (٥٨٣/٦٦٦هـ): الإنتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب، ص ٢٩.

(٤) الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري (٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، ج ٤، ص ٢٨٥. وأيضًا الأزهري: كتاب معاني القراءات، ص ٢٩٤.

(٥) أبو محمد عبد الله بن محمد بن السيد البطلبوسي (٥٢١هـ): الحلل في شرح أبيات الجمل، ص ١٤٤.

(٦) قال تعالى ﴿لَيْسَ لَهُمْ طَعَامٌ إِلَّا مِنْ ضَرِيحٍ﴾ ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ ﴿الغاشية: ٦-٧﴾. قال الفراء: «وهو نبت يقال له: الشبريق، وأهل الحجاز يسمونه الضريع إذا يبس، وهو سم»، وقال ابن الأثير: هو نبت بالحجاز له شوكة كبار يقال له الشبريق. (الفراء: معاني القرآن، ج ٣، ص ٢٥٧).

العجاج على الرَّفْع»<sup>(١)</sup>؛ ولو أَنَّهُم قالوا: إِنَّ الفرزدقَ اضطرَّ إلى قافيةٍ مرفوعةٍ فرفع (مُجَلَّفٌ) ولا شيءَ غير ذلك لأراحوا واستراحوا، ولَكان أهلُ الإعرابِ قد وفَّروا جهودَهُم في طلبِ علَّةِ الرَّفْع، ولم يأتوا بشيءٍ يُرضي، «ومَن ذا يخفى عليه، من أهلِ النَّظر، أنَّ كلَّ ما أتوا به من العللِ احتيالٌ وتمويهٌ؛ وقد سألَ بعضُهُم الفرزدقَ عن رفعه إِيَّاه فشتَمَهُ، وقال: عليَّ أن أقولَ، وعليكم أن تحتجَّوا!»<sup>(٢)</sup>.

«بفتح الياء وكسر الدال، وعندها ترتفع (مُسَحَّت)، وتخريجها واضح، وهو أن يكون من (ودع في بيته) والمضارع (يدع) واسم الفاعل (وادع)، بمعنى: (بقي يبقى فهو باقٍ)، فيرتفع (مُسَحَّت) بالفاعلية، ويرفع (مُجَلَّفٌ) بالعطف عليه، ولا بدَّ حينئذٍ من ضميرٍ محذوفٍ تقديره: (من أجله أو بسببه) ليرتبط الكلام»<sup>(٤)</sup>، وفي روايةٍ تخريجٍ أورده صاحب اللسان، قال: «ويروى إلا مُسَحَّتٌ أو مُجَلَّفٌ، ومَن رواه كذلك جعل معنى لم يدع لم يتقارَّ، ولم يبق»<sup>(٥)</sup>.

### الرَّؤاسيُّ الشاعر

قال الخطيب البغدادي: «كان الرَّؤاسيُّ عالماً بالعربية أديباً ثقةً»<sup>(٦)</sup>، وحاولت أن أعثر على شيء يؤكِّد لنا شاعرية الرَّؤاسيِّ وباعه في الأدب فلم تسعفني المراجع إلا بالنزر اليسير الذي لا يُسمن ولا يغني من جوع، وهذا ما وجدته في معجم الأدباء لياقوت<sup>(٧)</sup>.

وهناك روايةٌ أخرى للبيت نقلها الفراء عن الرَّؤاسيِّ برفع (مُسَحَّت)، قال الفراء: «حدَّثني أبو جعفر الرَّؤاسيُّ عن أبي عمرو بن العلاء، قال: مرَّ الفرزدق بعبد الله بن أبي إسحاق الحضرميِّ النَّحويِّ فأنشده هذه القصيدة: (... من المال إلا مُسَحَّتٌ أو مُجَلَّفٌ)؛ فقال عبد الله للفرزدق: علامَ رفعت؟ فقال له الفرزدق: على ما يسوءك!»<sup>(٣)</sup>، وتخريج رفع (مُسَحَّت) على هذه الرواية مرتبطٌ بحركات الفعل (يدع)

حدَّث محمد بن جعفر الأشعبي عن

(١) ابن سلام الجُمحي: طبقات الشعراء، ص ٢٠.

(٢) ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، ص ٤٠، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط ٦، ١٩٩٦ م.

(٣) الفراء: معاني القرآن، ج ٢، ص ١٨٢.

(٤) العكبري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري (٦١٦هـ): اللباب في علل البناء والاعراب، في معرض تفسيره قوله تعالى ﴿فَسَجَّكَرُ﴾ [طه: ٦١].

(٥) الأزهري: كتاب معاني القراءات، ص ٢٩٤. وراجع: ابن منظور: لسان العرب، ج ٧، ص ١٣٣.

(٦) الشيخ عباس القمي: الكنى والألقاب، ص ١٩٦.

(٧) ياقوت الحموي: معجم الأدباء، المجلد ٦، ص ٥٧٤ و ٥٧٦. وراجع: السيوطي: بغية الوعاة، ص ٣٤.

الرُّؤَاسِيّ قال: قلتُ لأبي جعفرٍ محمَّد بن عليٍّ<sup>(١)</sup>: إنَّ لي تجارةً بالنَّيل، أَفَأَشْتَرِي بالنَّيلِ دارًا؟ فقال: اشترِ ما يَنْفَعُكَ، فَرُبَّ عَزْلَةٍ كانت داعيةً خَيْرٍ، وإِيَّاكَ وجميعَ ما يعينك، فأما ما لا يعينك فإِيَّاكَ وإِيَّاه.

وحدَّث عبدُ الله بن جعفر عن عليِّ بن المبارك الأحمَر عن الكسائيِّ قال: كان للرُّؤَاسِيّ امرأةٌ من أهل النّيل تزوّجها بالكوفة، وانتقلت إليه من النّيل، وشَرَطَتْ عليه أنّها تُلمُّ بأهلها في كلِّ مُدَّة، فكانت لا تُقيمُ عندهُ إلا القليل، ثمَّ يَحْتَاجُ إلى إخراجها وردّها، فَمَلَّ ذلك منها وفارقها وقال فيها: (من مجزوء الكامل)

بانتَ لمن تهوى حُمُولُ  
فأسفُتُ في أثرِ الحُمُولِ  
أتبعتهم عينًا عليـ  
هم ما تُفِيقُ من الهُمُولِ  
ثم ازعويّت كما ازعوى  
عنها المُسائلُ لِلطُّولِ  
لاحثٌ مخائلُ خُلفِها  
وخلافُها دون القُبولِ  
مَلَّتْ وأبدتْ جَفْوَةً  
لا تَرَكْنَ إلى مَطُولِ

ولأبي جعفر الرُّؤَاسِيّ قصيدةٌ منها: (من الوافر)

ألا يا نفسُ هل لك في صيام  
عن الدُّنيا لعلَّك تهتدينا  
يكونُ الفِطْرُ وقتَ الموتِ منها  
لعلَّك عندهُ تستبشِّرنا  
أجيبيني هُديتِ وأسعفيني  
لعلَّك في الجنانِ تُخلِّدنا  
استنتاج:

من كلِّ ما تقدّم، أكون قد أرسيتُ قواعدَ يمكن أن يُشاد عليها منهج الرُّؤَاسِي في النّحو واللّغة في مقبل الأيام، وما خلصت إليه يمكن إجماله بما يلي:

- ١ - إجماع الرّواة على تزكية أبي جعفر الرُّؤَاسِيّ، فهو رجلٌ صالحٌ مأمونٌ ثقة.
- ٢ - الرّواة مجمعون على أستاذيّة الرُّؤَاسِيّ للمدرسة الكوفيّة في النّحو واللّغة، وخاصّة أستاذيّةه للكسائيّ والفراء، وهو أوّل مَنْ وضع من النّحويين الكوفيين كتابًا في النّحو اسمه (الفیصل).
- ٣ - محمَّد بن الحسن الرُّؤَاسِي كان راوية أحاديث، فقد روى عن إماميين هما: الباقر والصّادق.

(١) أبو جعفر، محمد بن عليّ بن الحسين بن عليّ بن أبي طالب عليه السلام، وهو الإمام الخامس من أئمّة أهل البيت عند الشيعة، وهو الملقب بالباقر (٥٧-١١٤هـ)، وكان الرُّؤَاسِيّ ممّن روى عن الإمام الباقر وابنه الإمام جعفر الملقب بالصادق.

٤ - أبو جعفر كان قارئاً، وله اختيارٌ في القراءة تروى.

٥ - ما أثبتته من روايات الرؤاسي وحكاياته وآرائه النحوية واللغوية، مضافاً إليها ما نقلته كتب التراجم من مؤلفات مفقودة له، كل ذلك، يؤكد أنّ الرجل كان شيئاً مهماً، وأنه كان فرساً بين فرسان في ميدان النحو واللغة والرواية والقراءة والأدب.

أتمنى أن أكون قد وقّيت هذا النحوي المغبونَ أبا جعفر الرؤاسي نزرًا يسيرًا من حقه، وحقه المهدور لا يُعاد إليه إلا عند العثور على كتبه الكثيرة، وكلّي أمل أن تكون كتبه محفوظةً في خزائن الكتب عند أولئك الذين نهبوا ثروات العالم العربي والإسلامي أيام الإستعمار والإحتلال، وآخرها ما فعله الأمريكي في ثروات العراق، فقد جعل ثرواته الفكرية والفنية والأثرية نهباً منتهب، وأنا لا أدعي أنني قد قمّشت كل آراء الرؤاسي في علم القراءات واللغة والنحو، ولم أترك زيادةً لمستزيد، وإنما جمعتُ منها ما وسعني ذلك على قدر جهدي، فمن يجد شيئاً من آراء الرؤاسي فلا يبخل بالإستدراك، وما قدمته لا يرسم صورةً واضحة المعالم لمنهج الرؤاسي في دراسة اللغة والنحو، وإنما أرسيت قواعد يمكن البناء عليها في مستقبل الأيام، وأرجو أن تكون الأيام والسّنون القادمة كفيلةً برسم

صورة واضحة المعالم لمنهج الرؤاسي النحوي واللغوي فيخرج من دائرة الغبن إلى دائرة الإنصاف.

### قائمة المصادر والمراجع

- ١ - القرآن الكريم.
- ٢ - إبراهيم أنيس: الأصوات اللغوية، مكتبة الأنجلو، مصر، ط ٥، ١٩٩٥.
- ٣ - إبراهيم أنيس: في اللهجات العربية، مكتبة الأنجلو، مصر، ط ٥، ١٩٩٥.
- ٤ - إبراهيم أنيس: من أسرار اللغة، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، ط ٦، ١٩٧٨ م.
- ٥ - ابن الجزري، محمد بن محمد الدمشقي (٨٣٣هـ): النشر في القراءات العشر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢.
- ٦ - ابن الجزري، محمد بن محمد الدمشقي (٨٣٣هـ): غاية النهاية في طبقات القراء، نشر الكتاب براجسترسر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٦ م.
- ٧ - ابن السكيت، يعقوب بن اسحاق (٢٤٤هـ): الكنز اللغوي، نشره أوغست هفتر، وطبعته المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩٠٣.
- ٨ - ابن العربي، محمد بن عبد الله المعروف (٥٤٣هـ): أحكام القرآن، تحقيق علي محمد الجاوي، دار الجيل، بيروت - لبنان، ١٩٨٨ م.
- ٩ - ابن جني (٣٩٢هـ): سر صناعة الإعراب، تحقيق حسن هندراوي، الدار الشامية للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٤.
- ١٠ - ابن خالويه، الحسين بن أحمد (٣٧٠هـ): الحجّة في القراءات السبع، تحقيق أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩.
- ١١ - ابن خلكان، قاضي القضاة شمس الدين (٦٨١هـ): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، دار صادر، بيروت، لبنان، د. ت.
- ١٢ - ابن سيده: المخصص، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ١٩٩٨.

- ١٣ - ابن سيده، علي ابن اسماعيل (٤٥٨هـ): المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هندراوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠.
- ١٤ - ابن عادل الدمشقي، عمر بن علي بن عادل (٧١٤هـ): تفسير اللباب في علوم الكتاب، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ١٩٩٤م.
- ١٥ - ابن عباد، إسماعيل (٣٨٥هـ): المحيط في اللغة، تحقيق محمد حسن آل ياسين، علم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٩٤.
- ١٦ - ابن فارس، أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا (٣٩٥هـ): الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها، علق عليه ووضع حواشيه أحمد حسن بسح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٧.
- ١٧ - ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم (٢٧٦هـ): الشعر والشعراء، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ٦، ١٩٩٦م.
- ١٨ - ابن منظور الإفريقي (٧١١هـ): لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ٢٠٠٣.
- ١٩ - ابن عيش، موفق الدين أبو البقاء يعيش بن علي بن يعيش الموصلية (٦٤٣هـ): شرح المفصل للزمخشري، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.
- ٢٠ - أبو البركات، عبد الرحمن بن أبي الوفاء بن عبيد الله الأنباري (٥٧٧هـ): نزهة الألباء في طبقات الأدباء، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ٢٠٠٣.
- ٢١ - أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي (٣٥١هـ): مراتب التحويين، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ٢٠٠٩.
- ٢٢ - أبو زكريا، يحيى بن زياد الفراء (٢٠٧هـ): معاني القرآن، تحقيق أحمد يوسف نجاتي و محمد علي النجار، دار السرور، لبنان، د.ت.
- ٢٣ - أبو عبيدة، معمر بن المثنى التميمي (٢١٠هـ): مجاز القرآن، دار الفكر ومكتبة الخانجي، ط ٢، ١٩٧٠م.
- ٢٤ - أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم (٣٥٦هـ): أمالي القالي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٦م.
- ٢٥ - أبو علي القالي، إسماعيل بن القاسم (٣٥٦هـ):
- البارع في اللغة، مكتبة النهضة، بغداد، دار الحضارة العربية، بيروت، ط ١، ١٩٧٥م.
- ٢٦ - أحمد بن علي النجاشي (٤٥٠هـ): رجال النجاشي، تحقيق السيد موسى الشبيري الزنجاني، مؤسسة النشر الاسلامي، قم - إيران، ط ٦، ١٤١٨هـ.
- ٢٧ - أحمد بن محمد بن اسماعيل (٣٨٨هـ): إعراب القرآن، تحقيق د. زهير غازي زاهد، عالم الكتب، بيروت، لبنان، ٢٠٠٥.
- ٢٨ - أحمد بن يوسف بن عبد الدايم المعروف بالسمين الحلبي (٧٥٦هـ): الدر المصون في علم الكتاب المكنون، تحقيق د. محمد أحمد الخراط، دار القلم، دمشق، د. ت.
- ٢٩ - الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة المجاشعي البلخي (٢٢١هـ): معاني القرآن، قدّم له وعلق عليه إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٢.
- ٣٠ - الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (٣٧٠هـ): تهذيب اللغة، دار الصادق للطباعة والنشر، دون تاريخ.
- ٣١ - الأزهرى، أبو منصور محمد بن أحمد الأزهرى (٣٧٠هـ): كتاب معاني القراءات، حققه وعلق عليه الشيخ أحمد فريد المزدي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩.
- ٣٢ - الأستراباذي، محمد بن الحسن الأستراباذي (٦٨٦هـ): شرح شافية ابن الحاجب، تحقيق وضبط محمد نور حسن و محمد الزفزاف و محمد محي الدين عبد الحميد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٧٥.
- ٣٣ - الألوسي، محمد بن عبد الله الحسيني الألوسي (١٢٧٠هـ): روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق علي عبد الباري عطية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٤.
- ٣٤ - الأنباري محمد بن القاسم الأنباري: الزاهر في معاني كلمات الناس، تحقيق حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط ١، ١٩٩٢م.
- ٣٥ - الأندلسي، أبو حيان (٧٤٥هـ): إرتشاف الضرب من لسان العرب، تحقيق مصطفى النحاس، القاهرة، ١٩٨٤.



- ٣٦ - الأندلسي، أبو حيان (٧٤٥هـ): تفسير البحر المحيط، تحقيق علي معوض وآخرين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.
- ٣٧ - البركاوي، عبد الفتاح: دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، دار المنار، القاهرة، ١٩٩١.
- ٣٨ - بروكلمان، كارل: فقه اللغة السامية، ترجمة رمضان عبد التواب، جامعة الرياض، ١٩٧٧.
- ٣٩ - البناء، أحمد بن محمد بن عبد الغني الدمياطي الشهير بالبناء (١١١٧هـ): إتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر، وضع حواشيه الشيخ أنس مهرة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦.
- ٤٠ - الجاحظ (٢٥٥هـ): البيان والتبيين، ج ٣، ص ٤٢٧، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، صيدا - لبنان، ط ٢٠٠٨م.
- ٤١ - الجرجاني، علي بن محمد الشريف الجرجاني (٤٧١هـ): كتاب التعريفات، تحقيق محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار النفائس، ٢٠٠٣.
- ٤٢ - الجوهري، اسماعيل بن حماد الفارابي: تاج اللغة وصحاح العربية، تحقيق عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة الرابعة، د.ت.
- ٤٣ - حسن الصدر: تأسيس الشيعة لعلوم الإسلام، منشورات الأعلمي، طهران، د.ت.
- ٤٤ - خير الدين الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، لبنان، ط ٥، ١٩٨٠م.
- ٤٥ - الذهبي (٧٤٨هـ): سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، ط ٩، ١٩٩٤م.
- ٤٦ - رمضان عبد التواب: فصول في فقه العربية، مكتبة الخانجي، مصر، ط ٦، ١٩٩٩م.
- ٤٧ - الزبيدي، محمد بن الحسن الزبيدي الأندلسي (٣٧٩هـ): طبقات التحويين واللغويين، دار المعارف، مصر، ط ٢، من سلسلة «ذخائر الأدب»، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم.
- ٤٨ - الزبيدي، محمد بن عبد الرزاق الحسيني الزبيدي (١٢٠٥هـ): تاج العروس من جواهر القاموس، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٧.
- ٤٩ - الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشري (٥٣٨هـ): تفسير الكشاف، رتبه وضبطه وصححه محمد عبد السلام شاهين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥.
- ٥٠ - سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (١٨٠هـ): كتاب سيبويه، منشورات مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٩٠.
- ٥١ - السيرافي (٣٦٨هـ): أخبار التحويين البصريين (ومراتبهم وأخذ بعضهم عن بعض)، تحقيق محمد إبراهيم البناء، دار الإعتصام، مصر، ط ١، ١٩٨٥م.
- ٥٢ - السيرافي، أبو سعيد (٣٦٨هـ): إدغام القراء، دراسة وتحقيق د. محمد علي عبد الكريم الرديني، دار أسامة، سوريا، ١٩٨٦.
- ٥٣ - السيوطي: الاقتراح في علم أصول النحو، مطبعة حيدر آباد، ط ١، ١٣١٠هـ.
- ٥٤ - السيوطي: بغية الوعاة، غني بتصحيحه محمد أمين الخانجي، مطبعة السعادة، مصر، ط ١، ١٣٢٦هـ.
- ٥٥ - السيوطي، الإمام جلال الدين السيوطي (٩١١هـ): الأشباه والنظائر في النحو، وضع حواشيه غريد الشيخ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.
- ٥٦ - السيوطي، الإمام جلال الدين السيوطي (٩١١هـ): المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرحه وصححه محمد أحمد جاد المولى و محمد أبو الفضل إبراهيم و علي محمد الجاوي، دار إحياء الكتب العربية، مصر، د.ت.
- ٥٧ - السيوطي، الإمام جلال الدين السيوطي (٩١١هـ): همع الهوامع في شرح جمع الجوامع، تحقيق أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٨.
- ٥٨ - الشوكاني، محمد بن علي بن محمد الشوكاني (١٢٥٠هـ): فتح القدير، تحقيق محمد بن رياض الأحمد، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، ٢٠٠٢.
- ٥٩ - الصغاني، الحسن بن الحسن الصغاني (٦٥٠هـ): العباب الزاخر، دار الرشيد للنشر، ١٩٨٠.
- ٦٠ - الطبرسي، الشيخ أبو علي الفضل بن الحسين الطبرسي (٥٦١هـ): مجمع البيان في تفسير القرآن، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، د.ت.

- ٦١ - عباس القمي: الكنى والألقاب، مكتبة الصدر، طهران، د.ت.
- ٦٢ - عبد الحسين الشبستري: أصحاب الأمام الصادق، مؤسسة النشر الإسلامي، إيران، ط١، ١٤١٨هـ.
- ٦٣ - عبد الحق بن عطية المحاربي المعروف ب(ابن عطية): المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، دار ابن حزم، بيروت، ٢٠٠٢.
- ٦٤ - عبد الرحمن بن محمد بن زنجلة(٤٠٣هـ)، أبو زرعة: حجة القراءات، تحقيق سعيد الأفغاني، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.
- ٦٥ - عبد الصبور شاهين: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط١، ١٩٨٧.
- ٦٦ - عبد الله بن عقيل العقيلي(٧٦٩هـ): شرح ابن عقيل، إنتشارات سيد الشهداء، قم- إيران، ١٤١١هـ.
- ٦٧ - عبد الله بن محمد بن السيد البطلبوسي(٥٢١هـ): الحلل في شرح أبيات الجمل، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٣م.
- ٦٨ - العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل بن مهران(٣٩٥هـ): الفروق اللغوية، تحقيق محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٦.
- ٦٩ - العسكري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العسكري(٦١٦هـ): التبيان في علوم القرآن، وضع حواشيه محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ١٩٩٢.
- ٧٠ - العسكري، أبو البقاء عبد الله بن الحسين العسكري(٦١٦هـ): اللباب في علل البناء والاعراب، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان، ١٩٩٥.
- ٧١ - علي بن عدلان الموصلبي النحوي(٥٨٣/٦٦٦هـ): الإنتخاب لكشف الأبيات المشككة الإعراب، تحقيق: د. حاتم صالح الضامن، مؤسسة الرسالة، ط٢، بيروت، ١٩٨٥.
- ٧٢ - الفارسي، الحسن بن أحمد بن عبد الغفار، أبو علي الفارسي(٣٧٧هـ): الحجة للقراء السبعة، وضع حواشيه وعلق عليه كامل مصطفى الهنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠١.
- ٧٣ - الفراهيدي، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد(١٧٥هـ): كتاب العين، تحقيق د. مهدي مخزومي وإبراهيم السامرائي، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان، ١٩٨٨.
- ٧٤ - القرطبي (المفسر)، محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري(٦٧١هـ): الجامع لأحكام القرآن الكريم، تحقيق ياسين الأيوبي، دار الأرقم، بيروت، ٢٠٠٦.
- ٧٥ - القفطي، أبو الحسن علي بن يوسف القفطي(٦٢٤هـ): إنباه الرواة على أنباه النحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
- ٧٦ - كمال بشر: علم اللغة العام (الأصوات)، دار المعارف، مصر، ط٥، ١٩٧٩.
- ٧٧- لرازي، محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي(٦٠٦هـ): التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ٢٠٠٠.
- ٧٨ - المبرد، أبو العباس محمد بن يزيد بن عبد الأكبر الثمالي الأزدي(٢٨٦هـ): المقتضب، تحقيق حسن حمد وإميل يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ١٩٩٩.
- ٧٩ - محمد بن أبي يعقوب اسحاق المعروف بالوزراق: كتاب الفهرست للنديم، تحقيق رضا-تجدد الحائري المازندراني، طهران، ١٩٧١م.
- ٨٠ - محمد بن الحسن الطوسي(٤٦٠هـ): رجال الشيخ الطوسي، تحقيق جواد القيومي الأصفهاني، مؤسسة النشر الاسلامي، قم- إيران، ١٤١٥ هـ. ش.
- ٨١ - محمد بن سلام الجُمحي(٢٣١هـ): طبقات الشعراء، تحقيق محمد سويد، دار إحياء العلوم، بيروت- لبنان، ط١، ١٩٩٨م.
- ٨٢ - محمد بن عمران المرزباني(٢٩٧-٣٨٤هـ) إختصار أبي المحاسن اليعموري، : نور القيس المختصر من المقتبس، عني بتحقيقه رودلف زلهام، الناشر فرنس شتاينر، بئيسبادن، ١٩٦٤م.
- ٨٣ - محمود السعران: علم اللغة مقدمة للقارئ العربي، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د.ت.

- ٨٤ - المرادي، الحسن بن قاسم المرادي (٥٧٤٩هـ):  
الجنى الداني في حروف المعاني، تحقيق د. فخر  
الدين قباوة و محمد نديم فاضل، دار الكتب العلمية  
بيروت لبنان، ١٩٩٢.
- ٨٥ - مكّي بن أبي طالب القيسي (٤٣٧هـ): الكشف عن  
وجوه القراءات السبع وعللها وحججها، الشركة  
المتحدة للتوزيع والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٨٧.
- ٨٦ - المناوي، محمد بن عبد الرؤوف المناوي: التوقيف  
على مهمات التعاريف، تحقيق محمد رضوان  
الداية، دار الفكر، لبنان، ٢٠٠٢.
- ٨٧ - مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة، دار الرائد  
العربي، بيروت، لبنان، ١٩٨٦.
- ٨٨ - مهدي المخزومي: مدرسة الكوفة (ومنهجها في  
دراسة اللغة والنحو)، دار الرائد العربي، بيروت،  
لبنان، ١٩٨٦.
- ٨٩ - ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت  
بن عبد الله الرومي الحموي (٦٢٦هـ): معجم  
الأدباء، حققه وضبط نصوصه د. عمر فاروق  
الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، لبنان، ١٩٩٩.

## البعد النفسي في رواية «امراة في الخمسين» للكاتبة هيفاء بيطار

د. طارق عبود<sup>(١)</sup>

أرادت الكاتبة تسليط الضوء على سلطة الرجل القاهرة التي يمارسها على المرأة في المجتمع العربي، فحشدت حكايات لشخصيات نسائية عانت معظمها من عقد نفسية واضحة أفصحت الكاتبة عنها على لسان نساء الحكاية اللاتي تحدثن في نصف الرواية الأول البطلة باسمهن، وما لبثت أن منحتهن حرية البوح في النصف الثاني من الرواية.

تعاني البطلة ورفيقاتها من الشخصيات عقدة العلاقة مع الآخر، ولا سيما مع الرجل، الذي لم يروا فيه إلا ذلك الوحش الكاسر المغرور الذي يريد تحطيم أحلام النساء، ويدمر مستقبلهم، من خلال استحضار موضوعات العمل المنزلي والإنجاب والغطرسة والاستغلال الجنسي والمادي، وإلى ما هنالك من أحداث أسقطتها

تكتب الطيبية السورية هيفاء بيطار روايتها «امراة في الخمسين» مدركة أنّ الفن القصصي باب واسع ومشعر لقول الأفكار وطرح المواقف، والتعبير عن آراء الكاتب والشخصيات من قضايا الحياة المتنوعة، ومشكلات المجتمع، لأنّ صفحات الرواية تختزن بين طياتها كثيرًا من التجارب الإنسانية، ولأنّ «الرواية ممارسة رمزية لغوية تتداخل فيها مستويات خطابية مختلفة، تاريخية اجتماعية حضارية ذهني»<sup>(٢)</sup>.

لقد قاربت الروائية هيفاء بيطار قضية إشكالية ومعقدة، بحيث إنّ خلافات كبيرة ومتباينة كانت وما زالت تحكم النظرة إلى دور المرأة وعلاقتها بالشريك الرئيس في الحياة، وهو الرجل، وخصوصية المجتمعات الشرقية، ولا سيما العربية.. لقد

(١) دكتور في الجامعة اللبنانية.

(٢) حسين خمري، فضاء المتخيل منشورات الاختلاف الجزائر ط ٢٠٠٢/١.

ومن أمراض ومشاكل سلوكية. «فالمنهج النَّفسيّ في النقد، هو تلك الآليات الأدوات الإجرائيّة، التي يعتمدها الناقد في فهم أسرار الأدب و دراسته، مرتكزاً على نظريات علم النَّفس، التي جاء بها «سيغموند فرويد» وتبعه فيها عدد من علماء النَّفس»<sup>(٢)</sup>.

### علاقة علم النَّفس بالأدب

يُحسبُ المنهج النَّفسيّ من اتجاهات النقد الحديثة، «وهدفه أن يحلّل لغة النص الأدبي، ليصل إلى مخبّات النَّفس اللاشعورية للكاتب، عن طريق دراسة شبكة الإشعارات والصور البلاغية المضمرة في بنية الأثر، أي إنّ هذا الاتجاه يجمع بين الأسس النَّفسية، والأسس النقدية، ليقف على حقيقة منطق اللاشعور من خلال لغة النَّص، ولغة اللاشعور»<sup>(٣)</sup>.

بدأ «المنهج النَّفسيّ» بشكل علمي منظم مع بداية علم النَّفس ذاته منذ مائة عام تقريباً، أي في نهاية القرن التاسع عشر بصدور مؤلفات (سيغموند فرويد) في التحليل النَّفسيّ وتأسيسه لعلم النَّفس، استعان في هذا التأسيس بدراسة ظواهر

الرواية على شخصياتها، لتقول إنّ الرجل هو العدو الأوّل للمرأة، وفي الرواية دعوة إلى النّساء للتحرر من سلطته بأي شكل من الأشكال، وصولاً إلى الطلاق والافتراق.. «ما يدفع بالرواية إلى خانة الكتابة النسوية التي تنهض على تصفية الحساب مع الذكر بحسبه عدواً ووحشاً أخفقت كل المحاولات لأنسنّته. ولم يدفعه تمسكها بملكية جسدها إلا إلى النطق بكلمة «طلاق» لأنّ هويته الذكوريّة لا تتحقق - حسب فهمه للرجولة - إلا في استعباد المرأة»<sup>(١)</sup>.

### المنهج المتبع

تعج الرواية بالحالات النَّفسية التي تكلمت على نفسها، وظهر واضحاً أن الكاتبة قاربت مشكلات شخصياتها من منظور نفسي، فأوحت غير مرة أن فلانة مصابة بعصاب أو في عقدة الكراهية والانتقام، أو بعقد حملتها من الطّفولة، لذا رأينا أنّ منهج التحليل النَّفسيّ هو المنهج الملائم للإتكاء عليه في تحليل هذه الرواية، وليكون هو المنهج الذي سنستخدم أدواته ليدلّنا على ما حملته الشّخصيات من أزمات نفسية،

(١) كمال، الرياحي، امرأة في الخمسين.. ذاكرة المحو الذكوري، الجزيرة نت ٢٠١٥/٨/١٥.

(٢) صلاح الدين ملفوف، نظريات علم النفس في الرواية العربية الحديثة «رواية السراب أ نموذجاً»، مجلة الآداب واللغات، ورقة، عدد ٩، د ط، د ت ص ٢٠١.

(٣) منال بن قسبية، المناهج النقدية الأدبية «قراءة في كتاب الفكر النقدي الأدبي المعاصر لحמיד لحمداني» رسالة ماجستير، ٢٠١٦-٢٠١٧ ص ١٥

في ذاته، ولكنه يسجّل عليه بعض الاعتراضات الجزئية، كموقف الناقد «سيد قطب» الذي أعرب عن ذلك بوضوح، فيقول إنه جميل أن ننتفع بالدراسات النفسية، ولكن يجب أن تبقى للأدب صبغته الفنية، وأن نعرف حدود علم النفس في هذا المجال»<sup>(٢)</sup>.

«والمنهج النفسي هو محاولة لتفسير الأدب على أساس نفسي، وتجدر الإشارة إلى أن علماء النفس أو التحليل النفسي لم يقصدوا أولاً إلى إيجاد «منهج نفسي» للنقد الأدبي، وكل ما كان منهم أنهم «رأوا أن العمل الفني صورة من صور التعبير عن النفس، وعلى هذا الأساس درسوه، حتى لا يدعوا ثغرة في بناء مذهبهم»<sup>(٤)</sup>. وهذا ما برهنه زين الدين المختاري في كتابه مدخل إلى نظرية النقد النفسي، «على أن مورون لم يقف عند فرضيات التحليل النفسي ذاتها، وإنما تجاوزها إلى تنوير الآثار الأدبية، وخلق قراءة جديدة لها، فهو ينطلق من عوامل ثلاثة تكوّن الإبداع الأدبي هي: الوسط الاجتماعي وتاريخه، وشخصية الأديب وتاريخه، واللغة وتاريخها»<sup>(٥)</sup>.

الإبداع في الأدب والفن كتجليات للظواهر النفسية<sup>(١)</sup> وثمة اختلاف بين النقاد في مقاربة المنهج النفسي، فمنهم من «أعلن عداه الواضح له ك«محي الدين صبحي» الذي أبدى معارضته لهذا المنهج، على الأقل كما طبقه خريستو نجم في دراسته الطبيعية، والرغبات المكبوتة في شعر الأختل الصغير، حيث امتعض من التركيز على الطفولة الأولى للمبدع، وإلغاء السنوات اللاحقة من عمره، لأن في ذلك حيفاً على إنسانية الإنسان، ومصادرة لعمر كامل من التجارب والثقافة والوعي، هذا العمر الذي لا شك انه يحرك العقدة الطفولية أو يقويها، كما أن الناقد النفسي في - نظر صبحي - يرتكب خطيئة كبرى حين يسوي بين الشخصية الشعرية وشخصية الشاعر، من دون اعتبار أن الشخصية الأدبية شخصية افتراضية، وعليه فإن الخلط بين الشاعر وبين الشخص التاريخي، خطأ فادح، لذا يسقط المنهج النفسي بأكمله»<sup>(٢)</sup> جملة الآراء التي وقفت من هذا المنهج موقفاً وسطياً، غير منكرة فعالية المنهج النفسي

(١) صلاح، فضل، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١ ص ٦٤، ٦٥.

(٢) يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، ١٤٣٠هـ، ص ٢٧.

(٣) يوسف وغليسي، مناهج النقد الأدبي ص ٢٨.

(٤) عبد العزيز عتيق: في النقد الأدبي، د ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٢، ص ٢٩٥.

(٥) زين الدين المختاري: مدخل إلى نظرية النقد النفسي، د. ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، بيروت، لبنان، ١٩٩٨ ص ١٧.

«تقول بيطار في لقاء لها موقع مع الجزيرة نت: «أنا لا أفصل على الإطلاق بين الكاتب ونصّه، لأنّه مهما كان موضوع الكتابة، فالكاتب يُعبّر عن رؤيته، وهو صاحب رسالة ورؤية»<sup>(٣)</sup> تتحدث الكاتبة هنا عن نفسها، في تصريح واضح بعدم فصل النص عن كاتبه، لكننا لن نجاري الكاتبة فيما ساقته، في إنّ نصّها تعبير عن رؤيتها ونظرتها إلى الحياة. وسنتكلم على رؤية الشّخصيات ككائنات ورقية غير واقعية، ولو أنها تمثّل في أمكنة كثيرة شخصيات وأحداثاً واقعية.. «أنا في معظم أعمالي أعتد على «المونولوج» الداخلي، خاصة في روايتي «أفراح صغيرة، أفراح أخيرة»، وروايتي الأولى «يوميات مطلقة»، وهي سيرة ذاتية لمعاناتي مع المحاكم الروحية المسيحية التي حكمت علي بالهجر لمدة سبع سنوات حتى حصلت على الطلاق. الغوص في أعماق النّفس البشرية هو فعل الكتابة كما أوّمن به»<sup>(٤)</sup>.

### السلطة الذّكوريّة وإخفاق العلاقات محور الرواية

الرواية بوح جمعي لنساء تنوعت مشكلاتهنّ النّفسية والشخصية، فوزّعت

ويعمل التاريخ والمجتمع واللغة بالتحديد في إنسان من لحم وعظم، ويتكون المنهج النّفسيّ من فهم هذا الإنسان»<sup>(١)</sup>. «وكان «فرويد» أول من طبّق هذا المنهج على الأدباء والفنانين، فرأى الفن تعويضاً عن الإحباط... ثم كان إدلر ونظريته في الاحتجاج الرجولي، نتيجة لعقد النقص التي يعانيتها كل إنسان في صغره. فإذا الفنان عصابي يبحث عن إثبات الذات وتأكيدها»<sup>(٢)</sup>.

وسيكون التركيز في هذا البحث على شخصيات النصّ الروائيّة الحبرية، بغضّ النظر عن شخصية الكاتب الحقيقية وارتباطها بالنص، لأنّ في ذلك افتتات واضح عليه، وليس من المنطقي ربط أي عمل أدبي بحياة الكاتب الحقيقية، كما فعل غير ناقد توسّل التحليل النّفسيّ في نقده للعمل الأدبي. لذا سيكون الكاتب معزولاً كلياً عما ورد في الرواية، وما تخللها من حالات شعورية ونفسية. مع أنّ الكاتبة هيفاء بيطار منحتنا فرصة أن نسقط ما كتبتّه في نصّها عليها ككاتبة، من خلال ربط شخصيات الحكاية وما حملته من عقد نفسية، بشخصية الكاتبة وسلوكها ونظرتها إلى الحياة والعائلة والرجل والمجتمع

(١) أندرسون أمبرت: مناهج النقد الأدبي، مكتبة الآداب، ترجمة طاهر أحمد مكي، طبعة خاصة ٢٠٠٠ ص ١٢٨.

(٢) خريستو، نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي ص ٣٢.

(٣) مقابلة مع الجزيرة. نت، هيفاء بيطار: رسالتي كسر صمت النساء، ٢٠١٥/١/١٥.

(٤) مقابلة مع الجزيرة. نت، هيفاء بيطار: رسالتي كسر صمت النساء، ٢٠١٥/١/١٥.

ينحاز السرد الروائي إلى الصوت النسوي الحاضر بقوة، فتدلي الشخصيات بدلوها، وهي تقارب عددًا من الهموم الإنسانية، في حين يغيب الصوت الذكوري كليًا، وكأنها محاولة للتعويض عن الظلم الذي لحق بالمرأة<sup>(٢)</sup> تنتهي الحكاية بإنشاء نارٍ للنساء اللاتي بلغن عمر الخمسين، وانطلقت نشاطاته الثقافية والاجتماعية.

في الرواية «تواصل البطلة فعل التعرية والحفر في ذهنية الرجل الذكورية المتورمة، التي تحكم علاقته بالمرأة تحت ثقل الأقدعة، إن هذا المخيال الذكوري المحكوم بنزعة الفحولة، هو ما تصطدم به بطلة الرواية في علاقتها مع الرجل منذ لقائها الأول معه»<sup>(٣)</sup>.

تقول هيفاء بيطار في إحدى مقابلاتها: «في الواقع كتبت سيرة ذاتية ناقصة في روايتي الأولى «يوميات مطلقة» والتي هي رد فعل على مجتمع ذكوري مجحف بحق المرأة، خاصة المطلقة وكانت رواية ثار من القوانين الكنسية الظالمة التي تحكم على المرأة التي تطلب الطلاق بسنوات طويلة من الهجر. لكن في أعمالها اللاحقة لم أعتد أبدًا على سيرتي الذاتية إذ كانت قصصي

الكاتبة الحكي بين شخصيات الرواية، في «منتدى الخمسين» الذي تعاني المنتسبات إليه من مشكلات كبيرة «لأربعين امرأة تجاوزنا الخمسين، مطلقات، متزوجات، عوانس، وحدنا الرقم خمسون»<sup>(١)</sup> فابيولا ووفاء وابتهاال وكاتيا وفتون ونجاة وريم، واحدة تعاني من أنها قبيحة الوجه، ولكنها طبيبة البنج الأكثر شهرة في المدينة، وأخرى تعاني من فقد الأمومة، وتجعل التبني قضيتها، وأخرى يستبد بها ألم خاص، لأن ولدها يعاني من قصور ذهني، وأخرى تريد سلوك طريق الشهرة، وارتقاء سلم المجد بأي وسيلة، حتى لو باعت نفسها لمنتج ستييني، فكان جسدها جسر العبور إلى الأضواء، لكن القاسم المشترك بين حكايات نساء الخمسين هو الإحباط واليأس، وظلم الرجل وتخلّفه وحقارته وأنانيته، كما قالت كل الشخصيات، حتى إذا ما وجدت الكاتبة رجلاً قد يكون إيجابياً، ألصقت به تهمة الهروب من الواقع، عبر لجوئه إلى الخمر لنسيان أنّ ابنه من ذوي الاحتياجات الخاصة، ورمت بكل المسؤولية على والدته التي تقبلت هذه الظروف، وحوّلتها إلى فرصة تهذب من خلاله نفسها، وتنظر إلى الحياة نظرة مختلفة.

(١) هيفاء بيطار ص ١٧٢.

(٢) طارق عبود، امرأة في الخمسين، صدم الوعي الجمعي، صحيفة السفير، ٣٠/١٢/٢٠١٤.

(٣) محمد بكري صحيفة العرب، لندن، ٨ آذار ٢٠١٦.



ورواياتي عن نساء وحالات إنسانية كنت شاهدة عليها، وبالفعل أنا مؤمنة أن الكاتب يجب أن يكون عالي الثقافة وأن يقرأ كثيراً بعلم النفس...

لقد كتبت عن كثير من الناس الذين صادفتهم في حياتي، وتمثلت معاناتهم، لكن تظل الكتابة من رحم الألم الأكثر تأثيراً في القارئ، الألم الإنساني واحد»<sup>(١)</sup>.

«تكتب بيطار رواية ذات نفس بسيكولوجي، منطلقة من نفسية امرأة الخمسين، وقد ساعدها اختصاصها في الطب لاقتحام هذه العوالم المظلمة والمسيسة حتى حسبت من المسكوت عنه في السرد النسوي. تمثل سن الخمسين سن الخطورة الأنثوية، أو شيطان منتصف النهار الذي تستفيق فيه المرأة على جسدها وقد بدأ في الترهل ودخول ما يعرف بسن اليأس»<sup>(٢)</sup>.

لقد تكلمت الرّواية وحدها، وقالت ما تريد، وقوّلت الآخرين ما لم يقولوا، من دون تسويغ لهذه المعرفة التي ادعتها، بحيث لم نسمع صوتاً غير صوتها، إلى منتصف الرّواية، فتكلمت نيابة عن الجميع، وباسمهم وأفصحت عن مشاعرهم وآرائهم

في موضوعة الطلاق والنّظرة إلى المرأة، كل ذلك لتقنع نفسها، وتقنع المتلقي أنها مقهورة ومضطهدة ومظلومة، وأنّ الظروف جميعها تقف ضدها وضدّ المرأة. «إنّ روحي قوية، ولن يهزمني هؤلاء السفلة الذين يدافع معظمهم عن زوجي بحجة: لو لم تكن سيئة لما طلقها زوجها وهجرها. المرأة هي المدانة دوماً»<sup>(٣)</sup> وحتى عندما منحت الرّوائيّة الأصوات الأخرى فرصة الكلام والبوح، كانت تريد أن يقولوا ما تحب أن تسمعه، لئلا تكون وحدها من يقارب الزواج والعلاقة مع الآخر بهذه الطريقة. فرغبت أن تورّع الأدوار، وتتعدّد الأصوات لتكسر الصمت المدوّي، لأنها عانت من قلق الهجر الذي يتجسّد بالخوف من فقدان الصوت الأنيس حوله «ولا شك أنّ فقدان الصوت، يعني فقدان المحبوب، كما في العقيدة الفرويدية. ألم يقل أحد الأطفال لصاحب سيكولوجيا الأعماق: إنّ خوفه من الظلام كان يتبدّد كلما سمع صوت خالته تخاطبه»<sup>(٤)</sup>.

### الطلاق تيمة الرّواية الأكثر بروزاً

لقد كان واضحاً أنّ الرّوائيّة تريد تسليط

(١) موقع «عالم نوح» الإلكتروني، دمشق أيار ٢٠١٢.

(٢) كمال الرياحي، إمراة في الخمسين، ذاكرة المحو الذكوري، الجزيرة. نت ٢٠١٥/٥/٢.

(٣) هيفاء بيطار، إمراة في الخمسين ص ٥٩.

(٤) خريستو نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي ص ١٠١.

الضوء على مشكلة اجتماعية تفتت مؤخرًا بشكل كبير في المجتمعات العربية، والتي تنوعت أسبابها بحسب العاملين في علم الاجتماع، ولكن الكاتبة أحالت الأسباب جميعها إلى السلطة الذكورية والظلم الذي يلحقه الرجل بالمرأة. نجد البطلة تعاني انفعالاً عاطفياً مفرطاً يحول دون التكامل السوي، فإذا بها ضحية التجاذب والازدواجية، وهذا مرده إلى تجربة طلاقها المرة مع طفل عمره شهرين» وجدت نفسي امرأة وحيدة مع طفل عمره شرين، مطلقة ومنبوذة، ويرشقني الناس من حولي بنظرات تحقيرية دونية<sup>(١)</sup>. ثم نراها تكابر وتدعي أنها فخورة بلقب (مطلقة) «كم أجد متعة ومغزى أنني تحولت إلى امرأة مطلقة، وأنا في الثالثة والثلاثين، لأن المجتمع يصر على ان يضع المطلقة في خانة معينة»<sup>(٢)</sup> إضافة إلى أنها حاولت التعويض عن هذه المشكلة بتفانها بهذه الصفة «كنت أذوق السمعة السيئة التي تحوم حول المطلقة، أحسها كرائحة خفيفة ممزوجة بالهواء...»<sup>(٣)</sup>.

### الطلاق من منظور في علم النفس

«يعتقد المحللون النفسيون أن حالات الطلاق ترجع إلى عوامل نفسية لا شعورية،

وتدخل في نطاق علم النفس المرضي، أي أن الشخص الذي لا يرى حلاً للأزمات التي تتخلل بالضرورة الحياة الزوجية، إلا الانفصال والطلاق، ليس بالشخص السوي، وهو مريض نفسيًا، والسبب في عدم نضجه العاطفي. وهي من الأساليب السلوكية التي اكتسبها عندما كان طفلاً، والتي كانت عاجزة عن تحقيق التكيف الناجح في ميادين نشاطه المختلفة مع والديه وإخوته وأصدقائه، وهو يستخدم في حياته الزوجية الأساليب الخاطئة نفسها التي استخدمها من قبل، الأساليب التي توحى بالأنانية الزائدة، وعدم الثقة في النفس، والخوف من المسؤولية، وحب التملك والسيطرة الزائفة»<sup>(٤)</sup>. لذا نرى البطلة، وبعض الشخصيات قد توسلوا هذا الطريق وسيلة للهروب من المسؤولية التي يحسبونها ثقيلة عليهم، مع أن الأسباب التي ساقتها الراوية، هي مشاكل تعترض أي مشروع للزواج، فالعقبات التي واجهت البطلة وباقي الشخصيات تدل على أنها ومعظم صديقاتها قد كن يعانين من أزمات نفسية حادة. فنرى إلى البطلة تسوق سبباً ليس وجيهاً لقذف كل هذا الحقد في وجه زوجها/ طليقها، لأنه طلب منها وضعية

(١) الرواية ص ٥٦.

(٢) الرواية ص ٥٦.

(٣) الرواية ص ٦٦.

(٤) يوسف مراد، سيكولوجيا الجنس ص ١٠٨.

الفلاسفة. فالاغتراب النَّفسيّ، يجعل من الإنسان بلا هوية، ويصعب عليه الاندماج في المجتمع، فيصبح بلا روح، وجسده خالٍ من الإحساس والتّفاعل مع الآخر. ويرى هيجل «أنّ تحقيق الطبيعة الجوهرية للإنسان، تستدعي استنطاق وجوده في بنية اجتماعية، تتضمن أنساقاً تتوافق وطموحاتها؛ لأنّ مجرد وجوده غير كاف، بل يتطلب التجاوز إلى ما هو أبعد؛ أي الاتصال و التفاعل الضروريين»<sup>(١)</sup>.

«ينشأ الاغتراب النَّفسيّ من التناقض بين الإنسان والعالم الخارجي، بين الواقع وبين الخيال، بين ما هو عليه، وبين ما يحلم به، بين ما يملكه وما يطمح إليه، فينفصل المرء عن ذاته الإنسانيّة الحقّة، وبهذا المعنى يحمل ذلك التعبير، فكرة الفقد الكلي لإنسانيّة الإنسان»<sup>(٢)</sup>. يكشف ما تعانيه البطلة عن صراع دفين وعنيف تشطر نفسها إلى شطرين، نفس أرادت أن تحيا حياة سوية، تنتعم فيها بالحب والعاطفة من الرجل، الجزء المكمل في الحياة البشرية، ونفسٌ تفيق من سباتها فتعيش كل حالات الاضطراب التي خلفتها تجربتها غير الناجحة مع الشريك. تجلى ذلك في قولها

معينة في الممارسة الجنسيّة، وانهالت عليه بكل انواع الشتائم، وحملته أوزار كل الموروثات الاجتماعيّة والثقافية في المجتمعات الشرقية. ولاحقاً قالت إنّ لم يزر ابنها وتركه، وما إلى ذلك من الحجج التي يسوقها أي طرف يريد تسويغ قراره بالطلاق، والذي مرده إلى العقد النَّفسيّة التي تتحكم بسلوكه. فإذا كان كل زوجين يقعان في مشكلة ما، يطلبان الطلاق، فالبشرية كلها تصبح مطلقة. والدليل أن البطلة أقامت عدداً كبيراً من العلاقات ولم تستطع أن تبني علاقة حب، أو علاقة تستطيع فيها التعايش مع الآخر، وكانت دائماً ما ترمي التهمة على غيرها.

### الاغتراب النَّفسيّ

يحدد «كارل ماركس الاغتراب النَّفسيّ أنه: «الفقد الكلي للإنسانية، ونزعها من مجالات الحياة الاجتماعيّة والحسية، وهذا راجع إلى الظروف الإنسانيّة، التي تعيشها هذه الذات، فلا تتضح بذلك الهوية، ولا النمط من الاغتراب من خلال تحليل فلسفي للماهوية، أو جوهرية الروح الإنسانيّة تعين علينا أن نتنبأ آراء بعض

(١) سماح خروف، الاغتراب في الرواية كراف الخطايا - لعبد الله عيسى لحيلح، لحيلح، (دراسة ماجستير)، اشراف، محمد رزمان، تخصص: أدب حديث، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات الأجنبية، جامعة حاج لخضر، باتنة ٢٠١١ ص ٤٧.

(٢) سماح خروف، الاغتراب في الرواية ص ١٧.

«لكن ثمة لحظات من الحزن كانت تفاجئني، كما لو أنّ أشياء كنتُ أطمئنها عميقاً داخلي قد ظهرت على سطح وعيي، تلك اللحظات من الزمن المباغت والغدار تشعرني أنّ عمري يسرق مني، وبأنني أريد تغيير مجرى حياتي، كنت أعني في تلك اللحظات ذلك الجزء المغيب من روعي والذي يرغب بحياة مغايرة، رغم القرف والاشمئزاز كنتيجة لزواجي الكارثي... وأخاف أن أتخيّل نفسي أنني بعد سنوات سأصير عجوزاً ووحيداً، لا شيء يعوّض هدر السنوات، أكون ضريبة الزواج الفاشل باهظة لهذه الدرجة؟»<sup>(١)</sup>.

تعيش البطلة حالة من التمزق الداخلي ومن الغربة والعدوانية التي تستدعي النكوص، مسترجعة أيام عزوبيتها، قبل خوضها تجربة الزواج. «رغبتُ أن أركض وأركض وأرمي نفسي في البحر، لأنني شعرت أنني أتخمس داخل ذاتي كحلزونة تتقوقع داخل قوقعتها... صرّتُ صنماً، ووجدتني أحسنّ إلى تلك اللحظات، وأنا أستمتع بترف وحدتي، أجلس في سريري أقرأ أو أحلم بالحب والمستقبل»<sup>(٢)</sup>.

لقد عاشت شخصيات الرواية غربة نفسية، بسبب المشكلات اللاتي عانت منها،

وبسبب الإخفاق الكبير في العلاقة مع الرجال، وبسبب الاعتراض على دور الرجل، والسلطة الذكورية الممنوحة له في المجتمع. تقول «وفاء» التي أرادت الثورة على الحياة الزوجية التي حسبتها مقبرة للمرأة، فقررت إنهاء هذه الحالة، حتى لو أدى ذلك إلى نزوة التدمير أحياناً، وهو الانفصال والطلاق وتشنت الأسرة، «يخبرنا (ماندل) أنّ في أعماق الإنسان قوة استثنائية من النزوات العدوانية التي يمكن إرجاعها إلى ما سمّاه (الجرح النرجسي الأصلي)<sup>(٣)</sup>» «لكنّ إحساسي بالضيق وبمشاعر غريبة انقضّت علي من الخوف والقلق والرغبة وبالهرب، كنت أتخيّل أنني أفرّ خارج البيت الذي عشتُ فيه أكثر من ربع قرن، أركض وأركض حتى أصل إلى اللانهاية. كنتُ أنظر إلى ابنتي فأراها سعيدة مشرقة عاشقة، وأسقط عليها روعي، فأتخيّل أنها ستعيش ما عشته، وستشعر بما أشعر به. كانت خطوبتها صفة لي كي أواجه حقيقة ما عشته، مع رجل اسمه زوجي، واسمي زوجته.. عشت عمري معه تعيشه، لكنني أوهم نفسي أنّ تعاسة الزواج طبيعية، وأنّ تعاستي ما هي إلا ضريبة يجب أن أدفعها من أجل سعادة أولادي.

(٢) هيفاء بيطار امرأة في الخمسين ص ٨٣.

(١) هيفاء بيطار امرأة في الخمسين ص ٨١.

(٣) خريستو نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي ص ٧٢.

في قفص جميل أنيق تخنقني تحفه الباهظة الثمن»<sup>(٣)</sup>. تبين لنا وفاء أنها أقنعت نفسها أنها ضحية هدر قيمتها الذاتية، مما أفقدها الشعور بالأمان، فعاشت مأزقاً نفسياً يحتاج إلى حل. ولم تجد هذا الحل إلا في طلاقها وانفصالها عن زوجها، «لأنَّ الإنسان المقهور مضطر إلى اعتماد أولوياته الخاصة في الدفاع عن خطر (أناه)»<sup>(٤)</sup>.

لقد عاشت (فتون) طبية التخدير الأكثر شهرة في المدينة حالة اغتراب روحي عميقة، لعدم تمتعها بالحد الأدنى من مقومات الجمال، فأثر ذلك في نفسيتها، فتحوّلت إلى عُصابية تعاني من ضآلة نفسها، فكرهت المجتمع، وأحالت كل إعجاب أو مقدمات علاقة ما، إلى طمع الآخر بأموالها الكثيرة، فعدت مهیضة الجناح، وأرادت التعويض عن ذلك باقتناء الساعات الفاخرة، والأحذية والملابس، وخضعت لعمليات تجميل عديدة «ولكن ظلت روحي معذبة، بأنني لا أستحق السعادة والحب كبقية النساء. وتقدّم الطامعون لخطبتي، فحاولت أن أضلل نفسي، وأصدق أنهم أحبوني لذاتي، كان بإمكانني أن أتزوج من أحدهم، وأن أحرر من وصمة عائس»<sup>(٥)</sup>.

وإنني في مراحل كثيرة كنتُ أوهم نفسي أنني سعيدة...»<sup>(١)</sup> لقد كان واضحاً أنّ وفاء تعيش غربة في بيتها الزوجي، وتحسب أنّ واجباتها تجاه أولادها وأسرتها ظلمٌ يلقى على عاتقها وحدها، لأنّ زوجها دائم السفر والترحال بسبب عمله. كنتُ أفرج على نفسي كيف ينزلق بي الزمن يوماً بعد يوم، وسنة بعد سنة، والمشهد ذاته يتكرر أبداً: أنا مع أولادي الثلاثة في البيت أتابع دروسهم وأصطحبهم إلى الطبيب، ونسافر من حين إلى آخر في رحلات سياحية، نادراً ما يكون زوجي معنا بحجة العمل»<sup>(٢)</sup>.

لقد عاشت وفاء حالة نكوص أيضاً، وهي تحنّ إلى الزمن الذي كانت فيه فتاة، وما كانته قبل الزواج، في عملية تفريغ النفس من شحناتها «كنتُ أتماهى مع أولادي وأغرق في تفاصيل حياتهم، كي أنسى ذاتي، وأنسى المرأة التي كنتها قبل الزواج، ولكن لم أستطع أبداً أن أخنق شعوري بالتحسّر الدائم على نفسي القديمة، نفسي التي أتخيلها شابة مفعمة الحيوية، واثقة بالحياة وسعيدة. لقد خذلت تلك الشابة وتركتها وحيدة على رصيف الحياة، وبعثت نفسي لرجل، لزوج، يسجنني

(١) هيفاء بيطار امرأة في الخمسين ص ٩٧ . (٢) هيفاء بيطار امرأة في الخمسين ص ٩٨ .

(٣) امرأة في الخمسين ص ٩٨ . (٤) خريستو، نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، ص ٧٢ .

(٥) هيفاء بيطار امرأة في الخمسين ص ١٤٠ .

لقد انسحب الاغتراب النَّفسي على شخصيات الحكاية كلها، فظهرت فيها مأساة العقد المتشابكة تنبع من أعماق الكبت، وهو الذي حفر عميقًا في نفوس الشَّخصيات، ولا يتسع المجال لنورد كل ما تكلمت عليه نساء الحكاية، لكثرت، ولإتاحة المجال لمعالجة قضايا أخرى.

### الأمراض الذهانية

#### النرجسية:

لقد تبين من خلال السرد أنّ غير شخصية من شخصيات الحكاية تعاني من أمراض ذهانية تنوعت بين النرجسية والعصاب والسّاديّة والبارانويا وغيرها. «والشخص العصابي يخضع في صورة غير واعية إلى نظام يقلع فيه عن بعض المتعة أو القوة، أو هو ينزل بنفسه الألم كيما يضمن نوعًا آخر من القوة، أو نوعًا آخر من المتعة»<sup>(١)</sup>.

تحكّمت بالبطلة حالة من التبخيس مارسها عليها الرجل الذي مثله الناقد المشهور، ما جعلها محبطة وتعيسة، بحيث أنه تمادى في استعراض فحولته، أمامها، وهي الخارجة توها من علاقة غير ناجحة،

بل كارثية مع زوجها تارة، ومع عدد من الرجال تارة أخرى، فكان واضحًا في خطابه تلك النرجسية التي تتحكم في كلامه «أنا املك جموعًا وقدرات فكرية وجنسية خارقة، ولا يمكن أن أكتفي بامرأة واحدة»<sup>(٢)</sup>.

إنّ «إحساس المرأة بالنقص العضوي، وما يسببه هذا الإحساس من قلق وغيره وحسد وعداوة، يؤدي بها إلى تركيز الاهتمام حول نفسها، ونزعتها إلى النرجسية، ما يؤدي إلى نوع من حبّ الذات، أطلق عليه علماء النَّفس النرجسية، وما يترتب على ذلك من اهتمام بجمال جسمها، وجاذبيته، وبالتالي اهتمامها بأساليب الدلال ووسائل الإغراء»<sup>(٣)</sup> لذلك رأينا البطلة تعود إلى الحديث عن جسدها كلما حانت لها الفرصة، وتلقي باللائمة على الآخر، أنه لم يول هذا الجسد حقه من المديح أو الإعجاب أو التمتع بالتفاصيل التي تريدها هي «تمكنت من الاستحواذ على انتباهه، لأنني كنت أعرف أنني أملك جاذبية من نوع خاص، تجعل كل رجل يرغب في اكتشاف السر الذي جذبه نحوي»<sup>(٤)</sup>. «تعريت في سريره بكامل وعيي وإرادتي، معلّقة

(١) عز الدين اسماعيل، التفسير النفسي للأدب، دار العودة، ودا الثقافة، بيروت لا. ت. لا. ط. ص ٢٩.

(٢) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين، دار الساقى، بيروت ٢٠١٥ طبعة أولى ص ٨.

(٣) يوسف مراد، سيكولوجيا الجنس، دار المعارف، الطبعة الثانية لا. ت. ص ٥٢-٥٥.

(٤) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ١٣.

احتقاري لزدواجيته وبخله على المشجب الأنيق في زاوية...ربما أردتُ أن ألوي ذراعه حين أفقاً عينيه بجسدي المتناسق الجميل الذي يضاهاه جسد فتاة في الثلاثين»<sup>(١)</sup>. وبعد ممارستها الجنس مع الناقد تقول: «قال لي متجاوزاً غروره: لم أشعر بهذا نشوة مع امرأة. كنت سعيدة لأنني مشتتة ومعشوقة ومرغوبة، كنت سعيدة ومنتشية بذلك العزف الجميل لجسدينا على أوتار الرغبة»<sup>(٢)</sup>.

«تعدد عالمة النفس «هورني» عشرًا من الحاجات العُصابية، منها الحاجة إلى الحب والتقبُّل، بمعنى أن نحَبَّ ونشعر أننا محبوبون، والحاجة إلى تحقيق المكانة وغيرها، وهذه الحاجات ليست غير طبيعية، فكل شخص لديه ما يدفعه أن ينال محبة الناس، وكل شخص يعاني من الصِّراعات طوال حياته. فالشخص السوي يستطيع أن تتكامل عنده هذه الاتجاهات جميعها، ويتعامل معها بحسب الظروف، ولكن العُصابي، تسيطر عليه إحدى هذه الاتجاهات، وتتحكم في سلوكه. فلكي يسوِّغ ما يفعله، يكون لنفسه لا شعوريًا صورة مثالية للذات، وعندئذٍ يكرِّس كل نشاطاته لأن يعيش هذه الصورة المثالية

والزائفة لنفسه، وأثناء ذلك يدمر كل علاقاته بالناس»<sup>(٣)</sup> «أنا واثقة انه يخافني، وأنه لن ينساني بسهولة، سأظلُّ أؤرقه وأدينه، إنه يعرف أنني من النوع الذي يسبر الأعماق، وها أنت الآن أسيري»<sup>(٤)</sup>.

تواصل الراوية تظهير نرجسيتها وإعجابها بنفسها، من خلال قولها إنها لم تحتفظ بالرسائل التي كانت ترسلها إلى عشاقها الكثر، وهي متأكدة بأنهم لا يزالون يحتفظون بها، لأنهم عشقوا كلماتها وتدقق المشاعر المرسومة بكلمات. «القاسم المشترك الأعظم بين عشاقني ولعهم بلغتي، بمفرداتي. وكانت تصيبهم حالة إدمان على كتاباتي، وكنت استمتع بتلك السلطة التي أمارسها عليهم»<sup>(٥)</sup>.

تشكّل هذه العلاقات العابرة، التي كان يمكن لها أن توقظ نداءات جسدها، مدخلاً لاستبطان علاقة المرأة في الخمسين بجسدها، والتعرف إلى فيزيولوجيته وقدرته على أنه ما زال مرغوبًا فيه من قبل الرجل، الأمر الذي يجعلها تتخذ من هذه العلاقة مختبرًا لمعرفة كل ذلك. في هذا السياق يقول كريستيان أوليفيه «إن حياة المرأة صحراء بيضاء هي (مرحلة الطفولة

(١) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٢٢.

(٢) فيصل عباس، التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية، المقاربة العيادية، ص ١١٦-١١٧.

(٣) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٢٨.

(٤) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٣١.

تدخل البطلة / الرّواية في حوار داخلي مع نفسها قائلة: «للأمانة أعترف أنني ألوم نفسي أكثر ممّا ألومهم، لأنني كنت عارفة أن علاقتي بهم مغشوشة، لتصل إلى بيت القصيد، لتكشف عن نرجسيتها» وأنني كنت أستمر في ما أسمّيه «علاقة حب» كي أحس بنشوة أنني مرغوبة ومشتهاة، وأنّ من غير المنصف أن يزوي جسدي الجميل الدافئ الذي يضجّ بالرغبات، كما تزوي ثمرة ناضجة تنتظر من يقطفها، ويمصّ عصيرها»<sup>(٣)</sup>. فالواضح أنّ البطلة تعترف بخطئها، وهي حال من يريد أن يتقي اللوم والعقاب المعنوي الذي يثير في نفسه عقدة الهجر، «إذ إنّ الإنسان يخشى من سوء العاقبة ما دامت لم تحدث بعد، أما وقد حدثت، فقد يطمئن إلى أنه لن يتعرض لما هو أسوأ منها»<sup>(٤)</sup>.

### البارانويا

سيطرت حالة من القهر والمهانة والضلالة على شخصيات الرّواية، فانعكست ثأراً وعدواناً على المحيط، ما ولّد حالة عصابية عندها، كانت البارانويا إحدى

والتصاقها بالأم)، تتبعتها واحة ملونة (وهي فترة الذروة من خلال العلاقة الزوجية، أو من دون زواج) تليها عودة إلى صحراء بيضاء»<sup>(١)</sup> لقد حاولت البطلة أن تطيل فترة الذروة في جسدها خوفاً من الأفول المنتظر، فبالغت في تنوع علاقاتها وتعددتها بحيث إنها اعترفت بذلك مع شيء من السخرية والاستهزاء «لا شك أن تخليص الرجل والمرأة من عقدهما الجنسيّة يحزّرهما من قيود الاغتراب، ولكنّ الإباحية ما كانت يوماً علاجاً للنفوس الضالّة، بل هي نكوص طفولي يعمد إليها الإنسان المقهور إثباتاً لذاته»<sup>(٢)</sup>.

تعترف البطلة / الصحفية انها خدعت الرجال جميعهم الذين كانت على علاقة بهم «عليّ أن أبوح لك بحقيقة هامة هي أنّ كل تجاربي السابقة (وهي قليلة جداً) ... وهنا انفجرت بضحك حتى سالت دموعي من تلك العبارة، واستحضرتُ تماماً تلك اللحظة الكاذبة... ياه كم تختلف أنت عن الرجال الذين عرفتهم. ما إن قرأت هذه العبارة حتى رميت الأوراق جانباً وانفجرت بالضحك، إذ تذكرتُ أنني قلتها لكل عشاقِي» (ص ٣٦).

(١) خريستو، نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، فصول في تحليل الفكر والادب والفن، دار الجيل، بيروت، طبعة أولى ١٩٩١ ص ١٨.

(٢) نوال السعداوي، الرجل والجنس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ١٩٧٦ ص ٨٢.

(٣) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٣٧-٣٨.

(٤) مصطفى حجازي، سيكولوجية الإنسان المقهور ص ١٧٦-١٧٧.



تجلياتها، وهي الحالة الذهانية التي تسيطر على المريض، وتدفع به إلى الاعتقاد بتعالیه واعتزازه بنفسه، وأنّ ما يقوله دائماً هو الصواب، إضافة إلى أفكار يعتنقها ويؤمن بها إيماناً وثيقاً بتعرضه للاضطهاد أو المؤامرة، ويفسّر سلوك الآخرين تفسيراً يتسق مع هذا الاعتقاد. «فالغرور الظاهر من خلال المبالغة، هو نتيجة الإحساس بالنقص الذي يعاني منه صاحبه لأسباب تعود إلى شعوره بالخصاء نتيجة لهذا، فجاء التعالي على الآخرين كآلية للدفاع عن النفس، وسدّ ثغرة الشعور بالنقص»<sup>(١)</sup>. «والمصاب بالبارانويا يشعر انه معرض للخطر من قبل أشخاص يعرفهم، ولا يعرفهم، ويبدو أنهم يتآمرون ضده، ويريدون تقييد حريته، ووضع حدّ لحياته، وفي كل الاستيهامات الناشطة لدى المصاب بالبارانويا تشعره أنّ ثمة أناس يكيدون له دائماً، وفي الوقت نفسه يتطور لديهم هوس العظمة Megalomania، الذي يحسبون فيه أنهم شخصيات عظيمة ومهمة جداً يحملون رسالة لشعبهم ولل البشرية»<sup>(٢)</sup>، ما يشير إلى أنّ البطلة مصابة بهذا المرض، هو التعبير المتكرر عن اعتدادها برأيها، غير مكرّرة

بمشاعر الطرف الآخر، الذين تتكلّم عليهم بالجمع، «وما يؤلمني أنني أحس بتشوش وضباب في ذهني حين أتذكر كيف كنت؟ لأنني - وبكل صدق أقول لكم - لست واثقة أنني أحببتكم، كنت أحب الحبّ، وليس أنتم. كنت ضحية هيمنة فكرة رهيبة عليّ»<sup>(٣)</sup>. دائماً ما نجد ما تضع اللائمة على الطرف الآخر، وأنها ضحية للاضطهاد وللظروف وغيرها، فيخلص المريض إلى أنه صاحب رأي لا يخطئ، وأنه مهم لدرجة إحساسه بالعظمة، وهذا ما يطلق عليه «هذاء العظمة» الذي يؤدي بالمريض إلى الاعتقاد أنه شخصية مرموقة بالغة الأهمية أو النفوذ، إضافة إلى انه محبوب ومطلوب. لذا نرى إلى البطلة تمدح كتابتها وأسلوبها الذي يستطيع أن يوقع أي شخص تحت تأثيره، فلا يستطيع الفكاهة من جمالية نصها، حتى إنها شخصياً لا تحتفظ بنسخ من رسائلها إلى عشاقها، وكانت متأكدة من احتفاظهم بها لأهمية مضامينها، لذا تجعل البطلة، كأى مريض يعاني من الذهان، من أنّ نصوصها مميزة، تعبيراً عن أهميتها الكبيرة، وعن استمرار تأثيرها في الآخر.

تسوِّغ الراوية لنفسها كل ما تفعله،

(١) ديزيره سقال، وديزيه فزي، الإبداع الأدبي والتحليل النفسي، دار كتابات طبعة أولى، بيروت ٢٠١٣ ص ٩٠.

(٢) ثيودور رايك، الحب بين الشهوة والأنا، تر ناثر ديب، دار الحوار، طبعة ثانية ٢٠٠٠ ص ١٢٠.

(٣) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٣٢-٣٣.

وترمي باللائمة على الآخر، المجتمع، العادات الموروثة، لتعلن أنها ضحية ومضطهدة، ما يشير إلى أنها مصابة بنوع من «هذاء الإضطهاد» «أظنني كنتُ إحدى ضحايا جبل تقديس الحرية الجنسيّة وتكريسها كعلامة على الصحة النّفسيّة والجسدية»<sup>(١)</sup>.

تستسيغ البطلة ممارسة دور الضحية المضطهدة المقهورة، بكل تفاصيل حياته. ولم توقّر البطلة والدها الذي اتهمته بالخنوع والضعف والمسكنة في تعامله مع زوجة ابنه التي كانت توجّه له الإساءات أمامه. إضافة إلى اتهامها مديرها في العمل بعدم احترامها فقط لأنها حملت صفة المطلّقة. وأنها عندما دعت صديقاتها إلى حفلة عشاء في بيتها، ولم تكلف واحدة نفسها عناء الاتصال والاعتذار. وعندما عادت مرة إلى بيتها، بدأت تضع اللوم على الجيران، واستنتجت من نظراتهم أنهم يشمتون بها، أو يشفقون عليها «والجيران يتفرجون عليّ بشفقة، وبالحد الأدنى من التعاطف، لعلمهم فكروا أنني امرأة عاقبة وسيئة حتى انتقم مني زوجي بتلك الطريقة. كان تعاطف الجيران يقزّزني إذ كنت أحتقر وأشتمّز من الشفقة... ورغم

انهياري في ذلك اليوم أمكنني ان أحس بمتعتهم وهم يرون امرأة منهارّة وقد عاقبها زوجها أحقر عقاب لأنه باع أثاث المنزل وغير القفل... لم اكن وقتها أفهم لماذا يكره الناس المطلقات، ولماذا يصرون ان يصلقوا بهن صفات تحقيرية، فالمرأة المحترمة والمقدسة هي الزوجة والأم التي تعيش في كنف وزج، أما المطلقة فهي المرأة الناشز، المتمردة، التي عصت الأوامر التي سنّها سيّدها، أي زوجها، مدعوّمًا بسلطة القوانين الاجتماعيّة والدينيّة»<sup>(٢)</sup>. والظاهر أنّ البطلة تعاني مما أسماه علماء النّفس بـ «الإسقاط» projection، وفيه «يلجأ (الأنا) إلى إخراج الدفعات العدوانية، وينسبها إلى العالم الخارجي، أو إلى اشخاص منه، فبدلاً من أن يقرّ بأنه يكره شخصاً ما، فإنه ينسب هذا الكره إلى الشخص المكروه نفسه، واتهامه بذلك، لأنّ ضمير الشخص قد يعدّبه، فبهذا الاتهام يخفّف عنه العذاب بالإدعاء الدائم أنه مضطهد»<sup>(٣)</sup> والإسقاط، هو بالطبع الطور الأشد أهمية في السيرورة النّفسيّة، تمكن صياغته على النحو التالي: «أنا أكرهه أتمنى أن يحبني رغم أنني أكرهه إنه لا يحبني إنه يكرهني» وعبر إسقاطه الكراهية الأصليّة

(١) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٣٨.

(٢) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٥٧ - ٥٨ - ٥٩.

(٣) فيصل عباس، التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية (المقاربة العيادية) ص ٣٧.

## كاتيا تعاني من السّاديّة

كانت «كاتيا» طبيبة نسائيّة مشهورة أيضاً، والدها محام لامع، لكنها شعرت أنّها مضطهدة ومقهورة في بيتها منذ طفولتها «كنا ككل أسرة عادية، أم وأب وأطفال، والدي محام لامع، وأمّي ربة منزل تعيش كخادمة، كنا ثلاث بنات وصبيين، وطلّت أمّي مضطهدة ومرذولة من قبل أبي وأسرته إلى أن أنجبت الصبيين، وكنت الطفلة الأقل رعاية واهتماماً في الأسرة، ربما لأنني خيبتُ أمل الجميع حين انتهى الحمل الثالث لأمي بإنجابي»<sup>(٤)</sup> تحوّلت فيما بعد إلى امرأة مكسورة، ونفس مشتتة أرادت الانتقام من كل الذكور الذين التقتهم، ما أصابها بالسّاديّة. ويتمتع المازوشي عادة بالإيذاء النّفسيّ والجسديّ للشعور بالراحة أو النشوة، ويحبّ أداء دور المظلوم والضّحية في العلاقة للفت الانتباه وكسب العاطفة. «يأخذ نظام التّسلط والقهر على المستوى اللاواعي شكل العلاقة السادومازوشية، وذلك عبر طرف قاسٍ، ظالم، مستبد، ينزل الأذى والعذاب بضحيته، لا يستطيع أن يشعر بالوجود إلا من خلال تبخيسها، وتسبب الألام لها. لا يشعر بالقوة إلا من خلال التحقق من ضعف

اللاواعية الخاصة على شخص ما، فإنّ البارانويي يبدو لنفسه بمثابة ضحية لعداء ذلك الشخص»<sup>(١)</sup>.

إنّ العلاقات الإنسانيّة تمر بفترات متباينة من المحبة والكرهية ومن التراجع والتقدم، ولكن الكبرياء الجريحة المتأتية من سوء تصرف أحد الشريكين، تبقى في صدارة الموقف، حيث تكون العلاقة الجنسيّة هي الميدان الذي يعبر فيه كل شخص عن مشاعره، مبادرة أو تراجعاً، ولو أنّ النّساء هن أكثر تحسّساً لأي تصرف يصدر من الرجل في أثناء علاقته مع الشريك، مما يجعل هذا الشريك بمثابة الخصم أو العدو في أحيان كثيرة، وكان «كونغريف» محقّقاً حين قال «لا تعرف السماء صورة غضب مثل صورة حبّ انقلب إلى بغضاء، ولا يعرف الجحيم روحاً منتقمة كروح امرأة مزدراة»<sup>(٢)</sup>. «لذا تعبّر النّساء عن كبريائهن الجريحة، جنسيّاً بواحد من الاتجاهين - ضد الرجل أو ضد أنفسهن بإذلال مازوشي للذات، فهنّ يردن إما تبخيس الرجل أو تبخيس أنفسهنّ، كما لو أنّهنّ يماهين أنفسهن مع الرّجل، أو أنّهنّ يدمجنه بكيانهن»<sup>(٣)</sup>.

(٢) م.س، ص ١٨٠-١٨١.

(٤) هيفاء بيطار امرأة في الخمسين ص ١٣٠.

(١) ثيودور رايك، الحب بين الشهوة والأنا، ص ١٢١.

(٣) م.س، ص ١٨١.

الضحية الذي كان هو سببه. هذا الطرف المتسلط لا يستقر له وزن إلا حين يدفع بذلك المقهور إلى موقع الرضوخ العاجز المستسلم، إلى الموقع المازوشي. جوهر علاقة السّادية ولبّها هما علاقة سطوة، لا يستطيع المتسلط السادي أن يكون إلا من خلال التعزيز الدائم لسطوته. السّادية في الأصل هي عدوان قبل أن تكون جنسًا<sup>(١)</sup>. وهو ما فعلته الطّيبية كاتيا لاحقًا بالرجال الذين كانت تمارس معهم الجنس، لتثبت لهم عجزهم، وقلة مكانتهم، وتعذبهم. «لم أعاشر رجالاً إلا بهدف إهانته وإذلاله، كنت أتفنن في جعل الرجال يُتيمون بي، وما إن استدرجهم إلى السرير تاركة إياهم يعتقدون أنهم - هم - من استدرجني حتى أبدأ بانتقادهم، والتذمّر من ضعفهم الجنسي، وسوء أدائهم، وأتركهم حطامًا. كنتُ أشعر أنني أغتصبهم، وأتلذذ بتوسلهم لي، لكي أعيدهم إلى جنة أنوثتي. لم يفهموا لماذا كنتُ أطردهم، كما أهشّ ذبابًا. كنتُ كمن يصرخ في وجه كل رجل أضاعه مرة واحدة، واحدة فقط: ما أنت سوى قضيب، يجب كسر رأس غرورك، تؤمن أنّ من حقا أن تستلذّ وتستمتع، وإنّ على شريكك أن تكتفي باستمتاعك، أريد أن

أسنّ لكم القوانين يا سفلة، يا قحاب»<sup>(٢)</sup>.

### كاتيا تعاني من عقدة الخصاء

تمثّل كاتيا، كما كل نساء الرّواية، وضعية الإنسان المقهور، وهي تعاني بالذات من عقدة خصاء تجلّت في سردها لحكايتها أمام صديقاتها، حيث تكلمت على تصرفات والدها عندما كانت تشعر أنه يستعرض أعضائه الجنسيّة أمامها وأمام أخواتها ووالدتها، يساعده في ذلك أخوها «كنتُ في العاشرة من عمري برعمًا طاهرًا، ينفّث على عالم البلوغ المؤلم المربك، وأجد أبي المصاب بمرض الاستعراض الجنسي لعضوه يذلّني، ويمارس عليّ وعلى أخواتي الاستعباد الجنسي، كان سلوكه تحرشًا فاضحًا، لكن لم تكن هناك أدلة تدينه، وزاد من قرفي موقف أمي - الخادمة - التي تعيش من أفضاله علينا، بل صرت أفكّر حين أعلنت ثورتي عليه بأنّ أمي تعيش بفضل عضو أبي»<sup>(٣)</sup>. لقد كان واضحًا أنّ كاتيا تعاني من عقدة الخصاء، لأنّ «قلق الخصاء يزعزع كيان الإنسان المقهور ويخلّ بتوازنه، فهو يولّد الآلام المعنوية التي لا تحتمل، والتي تمسّ صورة الذات وقيمتها، وتصيب الاعتبار في الصميم»<sup>(٤)</sup>

(١) مصطفى حجازي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ص ٨٨.

(٢) الرواية ص ١٣٥. (٣) الرواية ص ١٣٢.

(٤) مصطفى حجازي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ص ٩٠.

وظهر ذلك ايضاً من خلال رؤيتها إلى والدها وشقيقها، وللرجال عمومًا، ومن خلال وضعية القهر التي تعاني منها، مع أنها لم تقل شيئاً عن ظلمها غير أنها كانت آخر العنقود، وكان والدها ينتظران ذكرًا، وعندما وُلِدَتْ أهملها الجميع، وأوكلوا تربيتها إلى أختها. ربما شكّلت هذه الحالة عندها نوعاً من المظلومية والقهر «بدأت خيالات مريضة تغزو خيالي، وتقض مضجعي وتلاحقني في أحلامي، صار العالم كله الذي أعيشه خاضعاً لسلطة القضيبي. قضيبي يتباهى بفحولته أينما تلفت، حين أقرأ يترأى لي قضيبي أخي أو أبي، كيف يجلسان، وكيف أرى جزءاً من خصيتيهما أو حشفتيهما»<sup>(١)</sup>، «إنّ وضعية الإنسان المقهور تفجّر قلق الخساء، الذي يتضمن الشعور بالتهديد الدائم، الذي قد يأتيه في أي لحظة، من الخارج (من المتسلط، وكل أدوات السلطة) من ناحية، ويتضمن مشاعر العجز وعدم الاكتمال، تميّز وجوده الذي يُعاش تحت شعار المهانة من ناحية أخرى»<sup>(٢)</sup>. تقول كاتيا، عندما أنبتّها أمها لما خرجت من غرفتها بسرّوها الداخلي، وصارت تتبختر أمام الجميع «

إنصبّ عليّ وابل من التقريع والشتائم، ووصفني أخي الأكبر بالمنحلة، وكاد ينطق كلمة عاهرة لولا صراخ أمي أن كفى، وأمرتني أن ألبس بنطال البيجاما.. صرخت يومها وأنا ابكي من الغيظ والإحساس بالظلم: ولكن ألا ترينهم يتبخترون بيننا بسرّوايلهم فقط؟ وكان الجواب أن اخصري.. وخرست، ولكن ظلّ إحساس دائم بالإهانة والألم والاستعباد الجنسي، ومشاعر غامضة عدوانية لا أعرف طبيعتها تمامًا تسيطر عليّ»<sup>(٣)</sup> تتنامى عقدة الخساء عند كاتيا، فتعيش صراعاً مريباً بينها وبين مجتمعها المتمثل بهذا الفائض من الذكورة، فكانت دائماً ما تذكر الذكورة كعنوان هزيمتها النّفسيّة. «قضيبي يتباهى باستعراض فحولته، ممثلاً لسلطة ذكورية تذلل المرأة وتحدّد لها دورها وخصيبتها وكيانها، القوانين التي يسنّ بها الرجال المحرمات والممنوعات والمسموحات، كل قوانينهم وتشريعاتهم يكبتونها في قضيبيهم. قلمهم هو القضيبي. وجدت نفسي محاربة شرسة لسلطة القضيبي...»<sup>(٤)</sup>.

تكشف «كاتيا» عما يدور في نفسها، فيتبيّن للقارئ أنها مصابة بنوع من

(١) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ١٣٣.

(٢) مصطفى حجازي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ص ٨٩-٩٠.

(٣) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ١٣٣.

(٤) الرواية ص ١٣٤.

العُصاب المتأتّي من سنوات طفولتها الأولى، من خلال ما واجهته من إهمال، في مقابل اهتمام ملحوظ بأخوتها الذكور في البيت، ما جعلها تتبنّى قضية مواجهة ظلم الرجال والانتقام منهم عامة، من دون تحديد الصالح منهم والطالح، في تعميم مرضي، أرادت من خلاله كاتيا، وهي الطّبيبة النسائيّة المشهورة، ومن ورائها الكاتبة، وهي طبيبة أيضاً، إثبات أنّ الظلم اللاحق بالمجتمع، ولا سيما بالنساء سببه الرجل، لذا كرّست حياتها للانتقام والتشفي وتفريغ حقدّها ومرضها من خلالهم، وقالت إنّ هدف انتقامها ليس من أجل قضية أكثر عدالة بل من أجل الانتقام فقط. «والمحب عندما يحب، يستبعد الكراهية، ويصفو قلبه للحب، والكراهية من غرائز الموت، وهي قد تفلح في استبعاد الحب وتحل محله... والغرائز تختار موضوعاتها التي يكون فيها اشباع رغباتها وحاجاتها واختيار الغرائز غريزي، أي لا إعمال فكر فيه ولا تمييز ولا مفاضلة، والغريزة بتوجهها إلى الموضوع، وتعلقها به تشحنه شحنًا نفسيًا يسميه فرويد «شحن الموضوع» لذا ركّزت كاتيا كل جهدها لتفعيل غريزة الكراهية والحقد اتجاه الرجل والمجتمع الذي يمنحه

الأفضلية والتقدّم»<sup>(١)</sup>. لقد عشت عمري أصارع هيمنة ذكورية، ونظامًا ذكوريًا متكاملًا، يهيمن على حياتنا - نحن النساء. كنتُ أحارب وأسخر كل طاقتي من أجل انتزاع السلطة القضيبية أو الذكورية، ولكن لم يكن صراعًا من أجل قيم أكثر إنسانية وعدالة، ومحبة، بل كان صراعًا حقودًا. شرسًا من أجل استبدال استبداد باستبداد. واستعباد باستعباد. كنتُ أتلذذ بسمعتي كأشهر طبيبة نسائيّة تجري عملية إعادة العذرية مجانًا للفتيات، كنتُ أشعر أنني أوجه ضربة قاضية لأبي الذي أذلّ براءة وطهارة مراهقتي وسحقها بميله إلى التفاخر واستعراض عضوه. لقد حولت سنوات عمري إلى رهان من سيكسر رأس من؟ هل المرأة المتجسدة بشخصي ستكسر الرجل المتجسد بشخص أبي أم العكس؟<sup>(٢)</sup> فهذا الغضب الذي عاشته كاتيا إن هو الا مظهر من مظاهر الميول التدميرية، في صراع مع نزوة الحياة. ولا ينقضي ما تعرضت له من تهميش إلا «بعدوانية تشكّل خطرًا على صاحبها، إذا لم يعتمد إلى عمليتي انشطار وإسقاط، هذه الوسيلة التي ذكرتها «أنا فرويد» في كتابها عن أليات الدفاع النفسيّة»<sup>(٣)</sup> لذا يلجأ

(١) فيصل عباس، التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية، المقاربة العيادية، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٩٦، ص ٣٦.  
(٢) امرأة في الخمسين ص ١٣٥.  
(٣) خريستو، نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، ص ٨٩.

الإنسان المقهور إلى «نبذ عدوانيته وإسقاطها على موضوع بديل يحمله الوزر، ويركز فيه السوء كله، وهكذا يفصل بين نفسه التي جسدت الخير، وبين الآخرين الذين جسدوا الشر»<sup>(١)</sup>.

يتفشى العصاب عند «كاتيا» بشكل واضح، وهو الذي «ينشأ من الاستراتيجيات التي يتبناها الفرد، في محاولته للتعامل مع القلق الأساسي، الذي هو شعور بعدم الراحة، والخشية وتوقع المكروه. والمصدر الأساسي للقلق هو العلاقات المضطربة بأبويننا ونحن أطفال، كأن نعاني في الصغر من النبذ أو التذليل المفرط والحماية الزائدة، أو نتعرض إلى العقاب الشديد، أو نكون محط نقد لاذعاً ودائماً، والنتيجة أن يشعر الطفل أنه معزول وغير آمن، وكأنه يعيش في عالم معادٍ، فيولد ذلك فيه شعوراً بالعداء المضاد»<sup>(٢)</sup>. لذا أفصح «كاتيا» عن عقدة الكراهية اتجاه الذكور بشكل عام، فنفت كل وجود للحب في حياتها، بل إنها كانت تتحامل على نفسها خشية الوقوع في الحب، فقضيتها تتمثل في عنوانين: الكراهية والانتقام، فأفنت شبابها من اجلهما «لم أحب رجلاً،

لا مكان للحب وسط الحقد والرغبة في الانتقام. ولم اكن أخشى شيئاً سوى الحب، عنده سيضيع هدفي، وتتغير أولوياتي، وهي تصغير القضيب وتحقيره، كرمز للهيمنة الذكورية. لقد عشت سنوات شبابي دون عاطفة، دون حب، كنت لأستمر في مرضٍ عهّرت نفسي بسببه، وهو الانتقام من السلطة الذكورية المتمثلة بالقضيب»<sup>(٣)</sup>.

لقد تفشى المرض في نفس «كاتيا»، حتى وصل إلى مرحلة خطيرة، فالكراهية والحقد كانا ينخران في رأسها ويعميان بصيرتها، وتحولت الدنيا كلها إلى مناسبات للانتقام والتشفي والحقد، ولم تغفر لوالدها ما ظنت أنه فعله بها، حتى وهو ممدّد جثة هامدة أمام أهله «لا أخفيك أنني لم اترحم على أبي، نظرتُ ببرود إلى جثته العارية وابتسمتُ بشماتة كأنتني اقول له: لقد مات ذكرك يا سافل. أنت أبٌ حقير. ورفضتُ أن ألبس الأسود، ولولا توصل امي وأختي لللبستُ الأحمر، ولكنني إكراماً لهنّ لبستُ الرمادي والكحلي شهرين فقط. لم أتصالح مع نفسي، ولم أشفَ من أحقادني إلا وأنا على اعتاب الخمسين»<sup>(٤)</sup>.

في نهاية اعترافها أمام صديقاتها في

(١) خريستو، نجم، في النقد الأدبي والتحليل النفسي، ص ٩٠.

(٢) فيصل عباس، التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية ص ١١٥.

(٣) امرأة في الخمسين ص ١٣٦.

(٤) امرأة في الخمسين ص ١٣٦.

جمعية الخمسين، تعترف «كاتيا» أنها كانت مخطئة، وأن الحقد والكراهية تحكّما بمنطق الرؤية لديها، فمنعها من مقاربة الحياة بشكل منطقي» كم كنتُ مخطئة ومضللة حين حاربتُ قوانينَ الطبيعة، وليس قوانين الرجال، كل من يحارب قوانين الطبيعة يخسر، لأنّ الحياة رجل وامرأة، وما بينهما حبٌّ. وأنا أعماني هوس الانتقام»<sup>(١)</sup>.

### فابيولا ساديّة

لم تكفِ البطلة بتظهير نفسها مضطهدة ومظلومة، إنما استحضرت تجربة أخرى لإحدى صديقاتها التي تعرفت إليها مؤخراً، فتروي حكايتها مع زوجها الذي كان يطمع بمال أبيها، ولكنه طلقها لأنه لم يحصل على مبتغاه، بعدما كانت تعيش معه حياة ممتعة، ولا سيما في موضوع العلاقة الجسدية التي قالت إنه كان مبدعاً فيها، ولكن عندما انفصلا وهي ما زالت في ذروة عطائها الجسدي - كما أوردت الراوية - سوّغت لها البطلة ما فعلته، والقرار الذي اتخذته انتقاماً من طليقها «وجدت نفسها بمواجهة ألمٍ معقد، فهي من جهة مصعوقة من ندالة ذلك الرجل ومن حقارته، ولكن جسدها يئنّ ألماً من الحرمان الجنسي والعاطفي، بعد أن اختفى وهي في ذروة تعلقها به، كانت كمن اتخذت قراراً بأنها ستضاجع كل رجال

العالم، ولم تنتقل فقط من عشيق إلى عشيق، بل صار يحلو لها أن تجمع عدة عشاق في الوقت نفسه، ولكنّ هذا السلوك لم يمنعها من أن تكون أمّاً عظيمة، تعبد ابنها، وحريصة على أن تغمره بحبها وحنانها وتهديه وقتها. «ويبدو أنها كانت تستلذ بسوء السمعة، فلم تكن تبالي بكلام الناس وفضائحها، ولم يستطع أحد من المقربين أن يثنيها عن مغامراتها ونزواتها. بل هي بدت من يتعالى ويحتقر من يتحدث عنها عن بسوء ويتهمها بالانحلال الأخلاقي»<sup>(٢)</sup>.

تنطبق حالة «فابيولا» على حالة المرأة الجريحة، بعد الذي حصل بينها وبين زوجها، مما حدا بها إلى ممارسة هذا التهور في العلاقة الجنسية مع كثير من الرجال، وهذا مردّه نفسياً إلى الثأر من ذلك الرجل، «لأنّ في بعض الأحيان تبدو العلاقات الجنسية غير الشرعية بالنسبة إلى المرأة، وكأنها ليست سوى إجراء انتقامي، ضرب من الثأر من الرجل، وتقليد كاريكاتوري غاضب لموقف، كما لو أنها ترمي إلى القول: «أنظر، ذلك هو ما فعلته، وما تعلمته منك» وغالباً ما يكون التحدي والاستهزاء، فضلاً عن الحقد، لا واعياً عند مثل هؤلاء النسوة. فالصلة الانفعالية مع

(١) امرأة في الخمسين ص ١٣٦.

(٢) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٧٥.



ذكرى الجريحة يتم اعتراضها ومقاطعتها، كم لو أنّ التذكّر كان مؤلماً جداً»<sup>(١)</sup>.

### رجال الحكاية يعانون من عقد نقص أيضًا

يعاني العنصر الذكوريّ من عقد نقص في الحكاية كما أوردت الأصوات النسائيّة في الرواية، فوالد «كاتيا» وأخواها يعانون من عقدة نقص قد تكون متأتية من حالات نقص في اللاوعي، فكان استعراضهم لفحولتهم، واعتزازهم بذكوريتهم، وهو ما فعله مارسه الناقد الأدبي المشهور المسكون بفائض القوة الجنسيّة الذي تباهى بها، وما فعله أيضًا المنتج الستيني الذي استغل وضع ابتهال المهزومة نفسيًا وداخليًا، وهو ما حاول زوج «فابيولا» إثباته من خلال علاقته الجنسيّة بها «فالإفراط في الذكورة تأخذ في غالب الأحيان أشكالاً استعراضية متعددة، وبمقدار توكيد هذه الذكورة في مظاهرها الخارجية، من خلال كل أنواع المبالغة بالقوة الجنسيّة القضيبية، والأهمية القصوى التي تُعطى لهذه القوة، بمقدار ما يكمن في اللاوعي مشاعر نقص وعجز. ويعبّر صفوان مصطفى عن ذلك تعبيرًا رائعًا بقوله» فالقوى التي يؤكد بها الشخص

ذكورته، أو أنوثته، متناسبة مع توكيد ضدها في اللاوعي (انعدام الذكورة، أو انعدام الأنوثة، وأبرز أشكال توكيد الذكورة هو القيمة المفرطة التي تُعطى للرجل، والرجولة التي يقابلها تبخيس مواز في شدّته للأنوثة. يتجلى التحقير من خلال اتهام الرجل أنه امرأة»<sup>(٢)</sup> إضافة إلى نرجسية الناقد التي تبدّت في تعامله مع البطلة ومع النساء الأخريات في الرواية، وعندما سألته الراوية عن ذنب المرأة - زوجته - التي أمهلها. ردّ بامتعاض: «إنها لا ترقى إلى مستواه الفكري»<sup>(٣)</sup> وأضاف من دون سؤال: كنت على علاقة مع أربع نساء دفعة واحدة، واستمرت علاقتي بهن لأكثر من ثلاث سنوات، ولم تعرف أي منهن أنني أخونها مع الأخريات...»<sup>(٤)</sup>.

### التسلط والقهر الاجتماعيّ

يتبيّن من خلال السرد أنّ البطلة تحاول التمرد أو الانعتاق من سلطة القهر المجتمعي الذي يمارس عليها، فتعيش حالة الإنسان المقهور، وتمارس انفعالاته وسلوكه، من خلال محاولتها الانكفاء على ذاتها، كأولية دفاع تسير في اتجاه التقوقع والانسحاب، بعدما أعلنت عجزها عن تغيير

(١) ثيودور رايبك، الحب بين الشهوة والأنثى، ص ١٨١.

(٢) مصطفى حجازي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ص ٩٠.

(٣) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٩.

(٤) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٨.

من هذا القهر المفروض عليها، عبر نكرانها للكثير من الأفكار والنظريات التي تشربتها في حياتها، وذلك عبر الهروب من تأثيراتها، ولا سيما في موضوع الحب والزواج. ويظهر السرد أنّ البطلة تعيش حالة متقدمة من هذا التسلط المتأّتي ربما من إخفاقها في الزواج، أو في علاقات الحب التي تكلمت عليها في غير مكان من الحكاية، فهي تقول حيناً إنّ العلاقة بين الرجل والمرأة أشبه بالضريبة، وهي الشر الذي لا بدّ منه، وتشير حيناً آخر أنها تحررت من عبودية الغريزة عندما وصلت إلى الخمسين» صار بإمكانني أن أهدق في وجه الحقيقة، لا غاية لي إلا أن أرى حقيقتي، إلى أي حد عشت في ضلال؟ ولماذا انجرفت إلى ممارسات لست مقتنعة بها... كنت أوّمن أنّ الحب هو ترف الحياة ورونقها، وأنظر بشفقة، وبشيء من التعالي إلى هؤلاء الذين يعيشون بلا حب، ولكنني كنت أتخطب في مشاعري، وتأتيني لحظات كاشفة وموجعة من الحقيقة بأنني أخلق الحب وأفعل المشاعر»<sup>(٢)</sup>. لذا «يحدّ الإنسان المقهور من طموحاته، فيتقبّل مصيره، أو يحاول إيها

المفاهيم والسلوكيات» وتشيع هذه الأواليات الدفاعية كثيراً في ردود فعل الإنسان تجاه حالات الإخفاق المتنوعة، مصحوبة بإحساس داخلي بالعجز وقلّة الحيلة، وتتأتى من حالات عديدة منها الإخفاق في العلاقات العاطفية أو المشاريع المهنية. ففي كل هذه الحالات يتعلم الإنسان أن يقمع رغبته حتى لا يشعر بالآلام الإحباط، ويقطع الصلة بموضوعات هذه الرغبة كي لا يثير في نفسه قلق الخواء، وما يجره من إحساس بانعدام القيمة»<sup>(١)</sup> و«تمارس المرأة في حالات القهر، التمرد، فترفض دور المرأة الخادم، المستلب اقتصادياً (لذا رأينا أنها أصرت غير مرة التذكير أنها دفعت فاتورة المطعم عندما كانت مع الناقد البخيل، والتعريف أنّ معظم النساء في الرواية كنّ مكثفيات مادياً) ودور آلة التفریح والمتعة عندما كانت متزوجة. فتثور على نمط الأنثى التي تراها انعكاساً لصورة أمها. وقد تشتت في هذا الرفض - كي تصل حد رفض أنوثتها بمجملها، من خلال التنكر لجسدها وخصائصه البيولوجية وحاجاته»<sup>(٣)</sup>. لذا، حاولت الراوية أن تتحرر

(١) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ص ١٠١.

(٢) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء المغرب، الطبعة التاسعة ٢٠٠٥ ص ٢٠٨.

(٣) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٣٨.

ذاته بتقبّل هذا المصير، ويغرق في بؤسه الذي يتخذ عندها طابع القدر والنّصيب»<sup>(١)</sup>.

عانت البطلة من تمزّق نفسي ووقعت تحت تأثير تجربتها المريرة مع الرجال ومع المجتمع الذي لا يرحم المرأة المطلقة ويحسبها في مرتبة متدنية، فأصبح القهر مغرورًا في نفس البطلة، لأنها تشعر أنّ كل ما حولها غريب ويشعرها بالقهر والغربة. «صار كل شيء في حياتنا مجبولاً بالقسوة، المشاعر والبشر والزمن، كنتُ غريبة وسط هذا العالم الجذاب البرّاق اللاهث وراء المتع والإنجازات وإشباع المعدة والغريزة، والاستمتاع حتى الحدود القصوى، طالما رغبت أن أدين نفسي وأتھمها بفشل قدرتي على التأقلم مع قيم العصر الحديث»<sup>(٢)</sup> وتستخدم البطلة المونولوج الداخلي في التعبير عن هذه المشاعر المكسورة والمحطّمة من جراء القهر والتسلّط «حين اخلتيت بنفسي مهدودة من التعب، فكرتُ بالقسوة، يا لهول القسوة التي يتعامل بها البشر مع بعضهم البعض، كيف استطاع أن يدوس على المشاعر الرقيقة الصادقة بيننا؟ أي هوة تفصل بين المرأة والرجل؟ أليس الحب أكبر

خدعة يحتاجها الاثنان ليخفيا مقدار اختلافهما؟ هل يوجد رجل يبقى هو نفسه حين ينتصب قضيبه؟»<sup>(٣)</sup> ويستمر شعور البطلة بالتسلط والقهر والغربة عن المجتمع الذي يقيم حرّيتها «كانت كل القيم مزيفة في حياتنا، وهذه هي التعاسة عينها، وهذا هو تعريف التعاسة: القيم المزيفة.. لماذا يريد المجتمع قمع الأفراد، وخاصة المرأة؟ لماذا يريد الناس إبلام الناس؟ من اين تأتي تلك السلطة المستبدة المتكئة على الدين لإتعاسنا، وتشويه علاقتنا بأجسادنا؟»<sup>(٤)</sup>.

### الصّراع الذات بين الشهوة والعقل

يمثّل التّعّد في مهام المرأة الحياتية ضغوطًا هائلة عليها، ما يجعلها مرتبكة في محطات كثيرة في علاقاتها مع محيطها القريب الأكثر تأثرًا في انعكاس نفسيّتها عليها وعلى الآخرين، لذا نجد هذا الصّراع يفرض نفسه على الذات الإنسانيّة وليس فقط على المرأة، ولكن بتأثير من البيئة الشرقية التي وُلدت فيها المرأة، لذا فإنّ الموازنة بين ما تطمح إليه المرأة، وبين ما هو متاح لها، أو ما يحدده المجتمع، ولا سيما في الحالات الاستثنائية كالانفصال والطلاق، يجعل خياراتها محدودة، بحيث

(١) مصطفى حجازي، التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور ص ١٠١.

(٢) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٨٨.

(٣) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٨٦.

(٤) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٧٠.

مؤلمة، ولا يمكن التصريح بها»<sup>(٣)</sup> تعيش البطلة حالة ضياع وصراع بين ما تريده، وبين ما يريده المجتمع والعادات والتقاليد «وكم كنت أشعر بالألم، وأنا أعي التناقض واستحالة الانسجام بين الحالتين، بين الأمومة والأنوثة»<sup>(٤)</sup> بين أن تبقى محافظة على سمعتها في مجتمع محافظ، وبين أن تمارس حقها في إقامة علاقة خارج مؤسسة الزواج، لكي تستمتع بجسدها، وتشبع رغباتها الجسدية. «لكي أكون أمًا مثالية، علي أن أضحي برغبتني الجنسية وعواطفني، وألاً أتحوّل إلى عار لابني إلى الأبد»<sup>(٥)</sup>. بهذه العبارة اختصرت الراوية، ومن ورائها الكاتبة لبّ هذا الصّراع فاللغة، وكما أظهر كثير من الكتاب «تترجم اللاوعي أكثر من الوعي الذي يعتقد أنه يترجم فيها إلى درجة حملت «جاك لاكان» على القول لاحقاً: «اللغة هي شرط اللاوعي»<sup>(٦)</sup>.

لقد مثّل الصّراع بين ما تشعر فيه البطلة وبين ما تخاف منه، صراع طبقات المثلث العقلي (الأنا والهو والأنا الأعلى) حيث تمثّلت (الهو) برغبة البطلة الكبيرة في

عليها المفاضلة بين رغباتها النّفسيّة والجسدية، وبين ما يُفرض عليها «وديناميات الشخصية عند فرويد تقوم على هذا التفاعل بين القوى الدافعة، والقوى المقيّدة، وبين الشحنات والشحنات المضادة، وترجع جميع الصّراعات في الشخصية إلى تعارض هاتين المجموعتين، ومعنى وجود صراع، أن التعارض بين المجموعتين قد طال»<sup>(١)</sup>. وتشير حالة البطلة في الرّواية إلى ذلك «كان عليّ أن اتوازن كما تتوازن ملعقة على حافة كأس، أن أصون ابني وأكون ملاذاً له وفخرًا، أو أن أعيش طاقة الأنثى التي أوّمن أنها حقي، ولا أحد له أن يسلبني هذا الحق»<sup>(٢)</sup> «الرغبة اللاواعية التي تبحث عن إرضائها تصطدم برقابة الوعي، وجزئياً أيضاً بما قبل الوعي، ومن هنا نفهم مدى أهمية فكرة «الصّراع النّفسي» الأساسية، الصّراع بين الرغبة والمحظور، بين الرغبة اللاواعية والرغبة الواعية... ويستمر هذا الصّراع في التداخيات، إذ غالباً ما يلاحظ فرويد إلى أي مدى تظهر الأفكار الكامنة غريبة على الذات

(١) فيصل عباس، التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية (المقاربة العيادية). دار الفكر العربي للطباعة والنشر، بيروت، طبعة أولى ١٩٩٦ ص ٣٧.

(٢) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٧٠.

(٣) دانيال برجيز وآخرون، مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة رضوان ظاها، عالم المعرفة ١٩٩٧ ص ٥٣.

(٤) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٧٠.

(٥) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٧٠.

(٦) فيصل دراج، نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء ١٩٩٩ ص ١٠٦.

وضع العصي في الدواليب لإعاقة أي حركة داخلية باتجاه الحياة. كيف عليّ ان أتعايش مع تلك اليافطة التي يريدون اختزالي فيها، وهي أنني مقدسة كأّم، ومرذولة ومحتقرة كامرأة؟. عليّ أن أقدم لهم شهوتي ورغبتني وعواطفي كي أحصل على مباركتهم لي كأمرأة محترمة»<sup>(٢)</sup>.

ويتمثّل الأنا هنا بـ «أنه هو الذي يدرك الخطر الخارجي، وكان فرويد يعتقد أنّ (الليبيدو) الذي يرفضه (الأنا) يتحول مباشرة إلى قلق عصابي»<sup>(٣)</sup> هو الذي يواجه الناس والمجتمع، ويتدبر الأمور، ويرسم الخطط، وتتحقق به الصورة الذهنية والأحلام، فإذا كان (الهو) لا منطقي فد (الأنا) منطقي ومنظم؛ ولأنّ عمليات (الأنا) ليست أصلية، أو أولية كعمليات (الهو) فإنّ «فرويد» يسميها عمليات ثانوية»<sup>(٤)</sup> فالأنا يعيش صراعاً بين إتباع غرائزه، وبين المبادئ والقيم الأخلاقية، فهو يحاول تحقيق التوازن بين هذين القطبين، ويشرف الأنا على الحركة الإرادية، ويقوم بمهمة حفظ الذات، ويقبض على زمام الرغبات الغريزية، التي تنبعث عن (الهو) فيسمح بإشباع ما يشاء منها، ويكبت ما

التمتع بمقدرات جسدها، الذي حُرّم من العلاقة الجنسيّة مع الرجل بسبب الطلاق مرة، وبسبب جهل الزوج / الطليق في التعامل معه مرة أخرى. وهي ترزح تحت ضغط مرور العمر والزمن من دون استغلال حقّها الطبيعي بالعلاقة الجنسيّة. والهو «هو المجهول، الذي نعلم عنه فقط من خلال تأثيراته، والهو يعني الماضي، يمثّل ميراث الأجداد، وما نولد به من مكونات نفسية وراثية، ويهتم بالغرائز والمكبوتات، فهو الواقع النّفسيّ الحقيقي للشخصية، وهو مخزن للرغبات الخفية، والهو» نظام يقوم على الموروث، لذلك، فهو الواقع الحقيقي للشخصية، وهو مخزن الغرائز، فإذا استثّرت، حدث التوتر، فإنّ الهو يعمل على خفض هذا التوتر ليعود إليه. و يطلق عليه «فرويد» (الليبيدو)، أو مبدأ (اللذة)<sup>(١)</sup> وهو في هذه الحالة يبحث عن إرضاء رغباته، ولا يهّمه المجتمع. «في قلب الليل ووعيي ينشطر إلى قسمين، قسم يدرك أية طاقة هائلة أضّم في جسدي الفتى، وأيّ توق يدفعني إلى الحياة، والقسم الآخر من وعيي يدرك تلك القوة المستبدة السّادية والوحشية القسوة، والتي تشبه

(١) فيصل عباس، التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية (المقاربة العيادية). ص ٣٣.

(٢) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ص ٦٩.

(٣) سيغوند فرويد، الكف والعرض والقلق، تر: محمد عثمان نجاتي، دار الشرق، بيروت، لبنان، ط٤ / ١٩٨٩ ص ٢١.

(٤) فيصل عباس، التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية (المقاربة العيادية) ص ٣٣.

يرى ضرورة كفته، مراعيًا ذلك مبدأ الواقع. ويمثّل (الأنا) الحكمة وسلامة العقل»<sup>(١)</sup>.

أما الأنا الأعلى، فهو النظام الذي وظفته الأخلاق يتخارج عن (الأنا) لأنّ هذا الجزء منه يتمثل في الأوامر الوالدية والنواهي، والقيم الاجتماعية والمثل الدينية، فهو الضمير الذي يحرك (الأنا) ويحميه من انزلاقاته اللاأخلاقية، ويدفعه إلى طريق الخير والأعمال الصالحة، «والأنا الأعلى، هو ذلك الأثر الذي يبقى في النّفس من فترة الطّفولة الطويلة التي يعيش فيها الطفل معتمدًا على والديه، خاضعًا لأوامرهما ونواهيهما. ويقوم (الأنا الأعلى) عادة بتقمص شخصية الوالدين، ومن يشبههما من المدرسين والمربين، بذلك تتحول سلطة هؤلاء الأشخاص الخارجية، إلى سلطة نفسية داخلية في نفس الطفل وتقوم بدور مراقبته»<sup>(٢)</sup> والأنا الأعلى يجسد الجانب المشرق من شخصية الإنسان، الذي ينير له الطريق، ويهدف إلى إيصاله إلى بر الأمان ويبعده عن الغرائز التي قد تدمره. تحاول البطلة الخروج من سجن (الأنا الأعلى) المتمثّل بالمجتمع والقيم والعادات، وتمنح مساحة أكبر (اللهو) «ما أحسه أنني

لن أقبل أن أعيش متفرجة على طاقة شبابي تُهدّر وتضيع، وعلى عواطفني تحترق في أتون الرغبة، وعلى جلدي التواق للمس والقُبل. كنتُ أدرك عمق حاجتي للذوبان في علاقة حبّ تشفيني وتساعدني على التخلص نهائيًا من دنس زوج كاد يدمرني نفسيًا.. وقد اتخذتُ قراري أن أكون كما أشتهي، وأن أكون سيدة حياتي، لكن خطأي كان أنني لم أدرك أنّ المجتمع غالبًا ما يكون سمًّا أيضًا، يدمّر طاقة الفرح في الروح، كان عليّ أن أتوازن كما تتوازن ملعقة على حافة كأس، وأن أصون ابني، وأن اعيش طاقة الأنثى التي أوّمن أنها حقي ولا أحد يحقّ له أن يسلبني هذا الحق، وكنت أشعر بالألم والتناقض واستحالة الانسجام بين الحالتين: الأمومة والأنوثة... فلكي أكون أمًا مثاليّة، عليّ أن أضحي برغبتني الجنسيّة وعواطفني، ألاّ أتحوّل إلى عار يلحق بابني إلى الأبد... لم أكن أعرف كيف أحقق ما أتوق إليه، فالحل الوحيد المقبول اجتماعيًا، إما زواج، وعيش الرغبة والجنس والحب، أو تحنيط وانعتاق. الجنس خارج الزواج زنا، والحب الذي لا يكلّل بالزواج دنس، ولم يكن الزواج واردًا في حالتي»<sup>(٣)</sup>.

(١) سيغموند فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثمانى نجاتي، ص ١٦.

(٢) سيغموند فرويد، الأنا والهو، تر: محمد عثمانى نجاتي ص ١٦.

(٣) هيفاء بيطار، امرأة في الخمسين ٧٠.

وطلاقها «تحوّلت إلى إنسانة عُصابية أقاوم هيمنتهم ورغبتهم في السيطرة عليّ، وصار تنفيسي الوحيد عن نغمتي تجاه تلك العقلية هو تلذذي باحتقاري للناس الذي كان يثور في داخلي، ويدوم في دوامات أشبع برغبة مريضة حُرّفت عن مسارها الطبيعي، فصارت حقداً لذيذاً»<sup>(٢)</sup>.

### خاتمة

تبيّن من خلال الدراسة السيكولوجية لرواية «امراة في الخمسين» إنّ الشّخصيات تعاني من الصّراع الداخلي، ومن التمزّق النّفسيّ الناتج من مشكلات اجتماعية ونفسية وتاريخية، بحيث تحوّلت بفعل الضغط والإخفاق إلى شخصيات عصابية تحمل عقداً نفسية جرّاء ما عانتها كل شخصية على حدة. ولا سيما البطلة التي عانت أزمات نفسية تحولت إلى حالات عصابية وذهانية، فهي المرأة الصحفية المثقفة، ولكنها في الوقت نفسه المرأة المطلقة في مجتمع ينظر إلى المطلقة كإنسانة غير مرحب بها، وهي المرأة الثلاثينية التي عانت صراعاً بين متطلبات الهو، ورقابة الأنا الأعلى ونداءه بالعزوف عما يؤثّر في سمعتها ومستقبل ابنها.

تدلّ حالة البطلة على ما يعترى نفسها من صراعات عميقة، بين رغبتها في ممارسة حياتها بشكل طبيعي، كأبي إنسان سوي، «فالمراة ترغب وتخشى في آن معاً، وكأنّ هناك غريزة مضادة لغريزة الجنس، ولا يتم تغلب غريزة الجنس إلا إذا ضحّت المرأة بأنانيتها وحبّها لذاتها. وهذه التضحية أشقّ على المرأة المتمدنة منها على المرأة التي تعيش عيشة ساذجة طبيعية، غير أن سعادتها الحقيقية تتوقف في نهاية الامر على مدى إخلاصها، وعمق تضحيتها»<sup>(١)</sup>. فالحاجات الجسدية الجنسية هي حاجات ضرورية ومؤثّرة في سلوك الإنسان، وقد تكون مصيرية في محطات كثيرة، لذا كانت محل اهتمام علماء النّفس فرويد بالجنس، وأعطاه الأولوية باعتباره القوة المحركة الأولى للسلوك. والجنس ليس غريزة واحدة، بل عدة غرائز، باعتبار أنّ الرغبة الشبقية تستحثّها عدة حاجات بالبدن، وتستثيرها مناطق مختلفة في الجسم، يسميها فرويد المناطق الشبقية»<sup>(٢)</sup> كل ذلك دفع البطلة إلى الاعتراف بأنها مصابة بمرض نفسي جرّاء أزمّتي زواجها

(١) يوسف مراد سيكولوجيا الجنس، ص ٥٩ - ٦٠.

(٢) فيصل عباس، التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية (المقاربة العيادية). ص ٣٥.

(٣) هيفاء بيطار، امراة في الخمسين ص ٦٩.

ولكنها جرّبت العلاقات مع كثير من الرجال الذين لم ترَ فيهم سوى مجموعة من الشهبانيين الذين يريدون من المرأة جسدها، ويجعلون منها جسراً لشهواتهم وغرائزهم. فصبّت عليهم جام غضبها.

ولم تكتفِ الكاتبة بالحديث عن البطلة فقط، بل منحت غيرها من الشخصيات النسوية الفرصة للتعبير عن معاناتهن مع الرجال، فظهرن يعانين فراغاً عاطفياً وروحانياً، وغربةً وضياعاً وقلقاً وتوترًا، بحيث ألقت هذه الأزمات بثقلها على العلاقات الإنسانية البينية، فاتشحت هذه العلاقات بتيمات السوداوية والظلم والقهر والانتقام والحقد والعقد النفسية المتنوعة، فبدأ العالم النفسي كئيّباً. وتبيّن أن غير شخصية من الشخصيات عانت من أمراض ذهانية، توزعت بين السادية والمازوشية والبارانويا. إضافة إلى غربة نفسية انسحبت على الشخصيات جميعها. ظهرت لنا تلك النتائج عبر التحليل النفسي للأدب، وهو ما اعتمدهناه منهجاً علمياً حاولنا عبره مقاربة هذه الرواية، بغضّ النظر عن الفرصة التي منحتنا إياها الكاتبة لاتهامها، وهي التي صرّحت في إحدى مقابلاتها أنها لا تفصل بين العمل الإبداعي وبين كاتبه. ولكن، لأننا ندرس العمل الأدبي دراسة علمية من خلال البحث العلمي الموضوعي،

ابتعدنا من تحميل الكاتبة مسؤولية ما أوردته من أفكار على لسان شخصياتها الورقية، وانصبّ الجهد على تبيان علاقات الشخصيات النسائية مع الخصم اللدود الذي مثله الرجل الذي غاب غياباً تاماً عن الحكاية، فلم نسمع في الرواية إلا الصوت النسوي، ما جعل العمل يبدو كأنه أحادي الصوت، الذي لا يريد أن يشارك أحداً فيما يقدمه من رؤى وأفكار ومواقف.

## المصادر والمراجع

### أولاً: المصادر:

١ - بيطار، هيفاء: امرأة في الخمسين، دار الساقى، طبعة أولى ٢٠١٥.

### ثانياً: المراجع العربية والمعربة

- ١ - اسماعيل، عز الدين: التفسير النفسي للأدب، دار العودة، ودار الثقافة، بيروت لا. ت. لا. ط.
- ٢ - أندرسون، أمبرت: مناهج النقد الأدبي، مكتبة الآداب، ترجمة: طاهر أحمد مكّي، طبعة خاصة ٢٠٠٠.
- ٣ - بن قسمية، منال، المناهج النقدية الأدبية «قراءة في كتاب الفكر النقدي الأدبي المعاصر لحמיד لحمداني» رسالة ماجستير، ٢٠١٦ - ٢٠١٧.
- ٤ - حجازي، مصطفى: التخلف الاجتماعي، مدخل إلى سيكولوجية الإنسان المقهور، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء المغرب، الطبعة التاسعة ٢٠٠٥.
- ٥ - خروف، سماح: الاغتراب في الرواية كراف الخطايا - لعبد الله عيسى لحيلح، لحيلح، (دراسة ماجستير)، اشرف، محمد رزمان، تخصص: أدب حديث، قسم اللغة والأدب العربي، كلية



- الأدب واللغات الأجنبية، جامعة حاج لخضر، باتنة ٢٠١١.
- ٦ - خمري، حسين: فضاء المتخيل منشورات الاختلاف الجزائر ط ٢٠٠٢/١.
- ٧ - دراج، فيصل: نظرية الرواية والرواية العربية، المركز الثقافي العربي الدار البيضاء ١٩٩٩.
- ٨ - رايبك، ثيودور: الحب بين الشهوة والأنا، تر: نادر ديب، دار الحوار، طبعة ثانية ٢٠٠٠.
- ٩ - سقال، ديزيره، وقزي، ديزيره: الإبداع الأدبي والتحليل النفسي، دار كتابات، طبعة أولى، بيروت ٢٠١٣.
- ١٠ - عباس، فيصل: التحليل النفسي والاتجاهات الفرويدية، المقاربة العيادية، دار الفكر العربي، بيروت ١٩٩٦.
- ١١ - عبود، طارق: امرأة في الخمسين، صدم الوعي الجمعي، صحيفة السفير، ٢٠١٤/١٢/٣٠.
- ١٢ - عتيق، عبد العزيز، في النقد الأدبي، د ط، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٩٧٢.
- ١٣ - فضل، صلاح، مناهج النقد المعاصر، دار الآفاق العربية، القاهرة، ط ١.
- ١٤ - فرويد، سيغموند: الكف والعرض والقلق، تر محمد عثمانى نجاتي، دار الشرق، بيروت، لبنان، ط ١٩٨٩/٤.
- ١٥ - المختاري، زين الدين: مدخل إلى نظرية النقد النفسي، د. ط، منشورات اتحاد الكتاب العرب، بيروت، لبنان، ١٩٩٨.
- ١٦ - مراد، يوسف: سيكولوجيا الجنس، دار المعارف، الطبعة الثانية لا. ت.
- ١٧ - نجم، خريستو: في النقد الأدبي والتحليل النفسي، فصول في تحليل الفكر والادب والفن، دار الجيل، بيروت، طبعة أولى ١٩٩١.
- ١٨ - وغيلسي، يوسف: مناهج النقد الأدبي، جسور للنشر والتوزيع، ١٤٣٠ هـ.

### المجلات والمواقع الالكترونية

- ١ - بكري، محمد صحيفة العرب، لندن، ٨ آذار ٢٠١٦.
- ٢ - الرياحي، كمال، امرأة في الخمسين . . ذاكرة المحو الذكوري، الجزيرة نت ٢٠١٥/٨/١٥.
- ٣ - موقع «عالم نوح» الالكتروني، دمشق أيار ٢٠١٢.
- ٤ - ملفوف، صلاح الدين، نظريات علم النفس في الرواية العربية الحديثة «رواية السراب أنموذجا» مجلة الآداب واللغات، ورقلة، عدد ٩، د ط، د ت.
- ٥ - هيفاء بيطار: مقابلة مع الجزيرة. نت، رسالتي كسر صمت النساء، ٢٠١٥/١/١٥.

## ثورة المناهج في عالم الفلسفة والعلوم

د. عبد الله توفيق شرقية

العصر الحديث... والحق أنّ المحصّلات  
الباذخة للعلم وفلسفته ونظريّته المنهجية  
في القرن العشرين كانت نتاجاً للثورة [أي  
ثورة المناهج]...<sup>(٢)</sup>.

وقد حاول بيكون - من خلال البحث  
عن منهج جديد في المعرفة يلائم روح  
العصر - إعادة بناءً شاملةً للعلوم والفنون  
والمعرفة الإنسانية<sup>(٣)</sup>، على حدّ قوله، تمكّن  
من التعامل مع الطبيعة وتسخيرها لصالح  
الحياة ومصالح الأحياء، وليكون العلم  
حديثاً عملياً نافعاً. وقد اقترنت محاولاته  
هذه بمحاولاتٍ أخرى جادّةً للانتقال من  
عصرٍ إلى عصرٍ من خلال التركيز على  
المنهج والمنهجية، ومن خلال التحوّل

يمكن لنا أن نتذكّر مقولة فرنسيس  
بيكون «المعرفة قوة»، «العلم قوةً وسطوة»،  
إن في وسع العلم أن يكشف عن روائع  
خلق الله، وأن يُستخدم لتحسين حالة  
الإنسان<sup>(١)</sup>. وهي المقولة التي أطلقها  
بيكون في القرن السابع عشر وأشار فيها  
إلى أهميّة تحويل المعرفة إلى منفعةٍ للحياة،  
وصار هذا القرن بموجبها وبما رافقها من  
رؤى في تجديد المناهج بمثابة «قرن  
المناهج»، حيث تفاعلت هذه الرؤى في  
القرون الثلاثة التي تلتها، حتى أوصلت  
العلم والبشرية إلى النتائج الكبرى التي هي  
عليه اليوم. لقد كانت «دعوى بيكون  
المنهجية أقوى تجريدٍ وتجسيدٍ لعصر العلم  
الحديث، أقوى تجسيدٍ للحدائث... ولروح

(١) عباس، فيصل. موسوعة الفلاسفة، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٦ م، ص ٨٨.

(٢) الخولي، يميني. فلسفة العلم في القرن العشرين. سلسلة عالم المعرفة، الكويت. العدد ٢٦٤، ٢٠٠٠، ص ٦٨ و١٧٧.

(٣) شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٨، ص ٨٠.

بالفلسفة من نطاق الأقيسة العقلية المجردة والنتائج الذهنية والورقية إلى نطاق العلوم التطبيقية والنتائج التجريبية الواقعية<sup>(١)</sup>.

كما اعتبرت ثورة المنهج من أهم ركائز النهضة وأسباب التقدم العلمي في العصر الحديث، ومن أهم العلامات الفارقة بين الماضي والحاضر. ولعل ذلك يشير إلى أهمية ملاحظة المنفعة المطلوبة من المعرفة، وتعويد الأجيال على ابتداء طرق لتفعيل معارفهم بحيث تصبح المعرفة جزءاً من عملية تقديم النفع لحياة الإنسان وفعاليتها في ذهنه، كما تغدو مغيرةً لطريقة عمله، بل تصبح بمثابة أجزاء متماسكة لمصنع إنتاج المعرفة لديه، بدل أن تكون قوالب جامدة في ذاكرته لا تتحرك إلا قليلاً، ولا تنتقل إلى الواقع إلا بصعوبة وجهد بالغين.

وفي هذا السياق نعثر على مقولات لبعض اللامعين في تراثنا تركّز على منفعة المعرفة وتفعيلها لدى الذات والآخرين من مثال مقولة الشافعي الإمام: «العلم ما نفع، ليس العلم ما حفظ»<sup>(٢)</sup>. وقريباً منها مقولة عبد الله بن المبارك: «أول العلم النية، ثم

الحفظ، ثم الفهم، ثم العمل، ثم النشر [التعليم]»<sup>(٣)</sup>.

وكثيراً ما نشاهد من حولنا بعض من لديه دربة في المنهج وإبداع في التركيب وقد تألق في أدائه وتميز في خبرته وأفاد من مخزونه بالرغم من توسط رصيده المعرفي. ولعل هذا ما يمكن تسميته بالمنهج التلقائي الذي «يؤدى فيه المرء تنظيمًا تلقائيًا لأفكاره ويرتبها فيما بينها كي يتأدى إلى المطلوب على أيسر وجه وأحسنه على نحو طبيعي»<sup>(٤)</sup>.

إنه المنهج الذي يهتدي إليه الباحث أو المثقف بنفسه بشيء من الروية وإعمال الفكر وتقليب النظر وإحكام الترتيب المنطقي لمعلوماته. بينما نرى كثيرين غيره ممن نالوا قصب السبق في المعارف والعلوم إلا أنهم لم ينالوا حظاً من الاستفادة من معارفهم، إما بسبب قصورهم في فهمها وعدم إعمال العقل في مضامينها، أو لقلّة اكتراثهم بقضية المنهج والمنهجية وطرق تبويبها وتنسيقها وإيجاد العلاقات بينها.

فلئن كان التأسيس المعرفي بمثابة

(١) انظر: الخولي، يمنى. فلسفة العلم في القرن العشرين. مرجع مذكور، ص ٥٨ - ٦١. وكذا: شيا، محمد.

مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذكور، ص ٩٠.

(٢) الذهبي، شمس الدين. سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، لا ت، ج ١٠، ص ٩٠.

(٣) القرطبي، ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، مؤسسة الريان، بيروت، ٢٠٠٣، ج ١، ص ٢٣٢.

(٤) بدوي، عبد الرحمن. مناهج البحث العلمي، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧ م، ص ٥ - ٦.

لتصبح عارفةً مستفيدةً من خبرتها لدى نفسها، كما لتصبح لدى الآخرين ذاتاً معروفةً منتجةً للمعرفة بينهم ومفيدةً لهم أيضاً.

ولا بدّ من وقفةٍ للإشارة إلى بعض الدلالات المستخدمة لكلمة «المنهج»، إذ تفيد هذه الكلمة معاني عديدة تفهم من السياق، ولعلّ من أهمّها الدلالات التالية:

- المنهج هو الطريقة التي يتّخذها الفرد لكي تسرع به إلى تحقيق هدفٍ معيّن<sup>(١)</sup>. أو هو النهج الأسلم والأقصر للوصول إلى المطلوب. وهذا ما يسمّيه البعض بالمنهج التلقائي.

- هو الترتيب الصائب المنسق للعمليات العقلية التي توجّه البحث وتساعد الباحث على تحليل المبادئ والأسس التي ينطلق منها، وصولاً به إلى الاستدلال أو الاستنباط أو الكشف عن الحقيقة أو غير ذلك من أهداف البحث ومقاصده<sup>(٢)</sup>.

- ويلاحظ أنّ المنهج على مستوى التفكير الفلسفيّ كان يشير إلى مجموعة أفكارٍ أبستمولوجيّةٍ مستمدّةٍ من مذهبٍ فلسفيّ معيّن، تعطي الباحث معالم على

حجارة البناء وأعمدته فإنّ المنهج هو بمثابة التخطيط ومراعاة الأبعاد الهندسية وملاحظة أسباب الراحة ووسائل الاستفادة من هذا البناء بالسكن أو بالعمل أو بالتعليم...إلخ. وهذا المثال على الفرق بين الشروع بالبناء دون تبصّر مسبقٍ مبرمجٍ بفوائده وبالجدوى منه، وبين تعيين فوائده ووضع خططه الدقيقة وفق هذه الفوائد قبل المضيّ في بنائه وأثناءه أيضاً - هو مثلاً واضحٌ على الفرق بين حمل المعرفة في الذهن وتخزينها في الدماغ وبين تفعيل أبنيتها وأنساقها في الواقع العمليّ، وجعلها مشروع عملٍ إنسانيّ يهدف إلى جني ثمراتٍ وفوائد حياتيّةٍ واجتماعيّةٍ وعمليةٍ وإبداعيةٍ من خلال تطوير الأداء المنهجيّ فيها.

وهذا ما يبرّر لنا القول بأنّ للمنهج أهميّة النصف أو أقلّ أو أكثر من النصف في عملية اكتساب المعرفة. ذلك لأنّ المنهج لا يساعد فقط على ترتيب المعلومات والمعارف والإفادة منها، بل ويساعد على تصنيع فوائدها، ويسمح بتراكمها ومضاعفة نتائجها، وتوطينها لدى الذات

(١) انظر: سلامة، عبد الحافظ وسمير أبو مغلي. المناهج والأساليب في التربية الخاصة، الدار العربية الأولى، عمان - الأردن، ٢٠٠١، ص ٩.

(٢) See: Runes, D. Ed., *Dictionary of Philosophy*, Item: methology, London 1944, p. 196-7. and: Bittle, C.N., *The Science of Correct Thinking, logic*, New York, 1970, P. 270.

نقلًا عن: قاسم. محمد. المدخل إلى مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٩م، ص ٥٢ - ٥٣.

البحث للعشوائية وأضحت المعرفة غير علمية<sup>(١)</sup>.

كما يمكن القول إن فكرة المنهج المتعارف عليها اليوم قد تبلورت في حقبة ما بعد عصر النهضة في أوروبا<sup>(٢)</sup>، وتحديداً في القرن السابع عشر الميلادي، مع الفيلسوف الفرنسي رينيه ديكارت (١٥٩٦ - ١٦٥٠) الذي يعتبر أبا الفلسفة الحديثة، والفيلسوف الأهم في المنهج الفلسفي، وفيلسوف العقل في عصر كان إعمال العقل فيه مغامرة. وقد وضع كتابه: **مقال في المنهج**، وبين فيه أهمية الجانب الرياضي للعلم، وكونه نموذجاً للمعرفة اليقينية ومنهجاً لتحصيلها<sup>(٣)</sup>.

كما وضع ديكارت قواعد المنهج الاستدلالي. فالنتائج تستنبط من مقدمات واضحة تماماً للعقل، مما يجعله على يقين أنها تصلح أساساً لكل معرفة ناتجة عنها. وقد تضمن كتابه المذكور إسهاماته في هذا المجال. كما أعلن فيه عن ضرورة إيجاد منهج فلسفي جديد، وطمع أن يكون هو رائد هذا المنهج، وقد تحدّث عن هدف هذا

درب النظر والبحث والاكتشاف. وبهذا المعنى العام فإن المنهج قديم قدم المذاهب الفلسفية منذ اليونان.

وسوف ننطلق من عجالةٍ ونظرةٍ سريعةٍ على التحوّل الكبير الذي طرأ على تاريخ الفكر البشريّ والمنعطف الذي مهّد للنهضة المعرفيّة في بدايات عصري النهضة والتنوير وصولاً إلى القرن العشرين وعصر العولمة الحالي فيما يلي.. ثم نسعى لبيان خصائص المنهج العلمي ودلالاته في واقعنا، ومن ثم نعرّج على فوائده، ونختم بضرورة الإفادة من المناهج المتعدّدة مع مراعاة تغليب المنهج المناسب في معالجة بحثٍ أو ظاهرة معينة.

## أ - ثورة المنهج في الفلسفة والعلوم

توصّلنا في المقدمة إلى بيان عظيم الأثر الذي خلعه الاهتمام بالمنهج على مسار تطوّر العلوم والفكر البشريّ عامّةً. فلقد ارتبط تقدّم البحث العلميّ وتحصيل المعرفة العلميّة بضرورة وجود منهج للبحث والتحصيل، فإن غاب المنهج خضع

(١) قاسم، محمد. المدخل إلى مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٩ م، ص ٥١.

(٢) عصر النهضة حركة ثقافية كبرى بدأت في إيطاليا أوائل القرن الرابع عشر الميلادي، ثم انتشرت في كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا وهولندا وأسبانيا، وبلاد أخرى، في أواخر القرن الخامس عشر الميلادي. وسرعان ما انتهى عصر النهضة تدريجياً في القرن السابع عشر الميلادي. انظر: الموسوعة العربية العالمية، مادة عصر النهضة.

(٣) انظر: الخولي، يمني. فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع مذكور، ص ٦٠. وكذا: عباس، فيصل. موسوعة الفلاسفة، مرجع مذكور، ص ٩١.

المنهج وعن قواعده وآليات تطويره ونتائج تطبيقه له.

ويُعتبر ديكارت من رواد العقلانية في الفلسفة الحديثة. فالكثير من الأفكار والفلسفات الغربية اللاحقة هي ثمرة التفاعل مع كتاباته التي دُرست وتدرّس من أيامه حتى يومنا هذا. لذلك يُعدّ أحد المفكرين الغربيين الأساسيين وأحد مفاتيح فهمنا للثورة العلمية والحضارة الحديثة. لقد غدا المنهج معه هو الكاشف والميزان الذي يدلنا على المعلومات الأكثر دقةً وصوابيةً، ويجنبنا المزيّف منها، ويأخذ بأيدينا إلى العثور على الكنوز الدفينة منها باستمرارٍ وبتقّةٍ وأمان. يقول في ذلك "المنهج هو مجموعة القواعد اليقينيّة البسيطة التي تكفل لمن يراعيها بدقّةٍ ألا يتوهّم الصدق فيما هو خطأ، وألا يبدّد مجهوداته الفكرية دونما هدفٍ، بل سيزيد من معرفته تدريجياً فيبلغ معرفةً حقيقيّةً في كلّ ما يمكن معرفته"<sup>(١)</sup>.

ومنذ عصر ديكارت أصبحت الفلسفة إلى حدٍّ بعيدٍ مرتبطةً بالمنهج. فقد أصبحت فلسفته ومنهجه - أو لنقل: فلسفة المنهج عنده - بمثابة مرحلةٍ فاصلةٍ في تاريخ الفلسفة، وأصبح ما بعدها يختلف عما

قبلها، فولد عصرٌ جديدٌ هو عصر المنهجية والنمذجة وإعادة النظر بالمعارف المكتسبة من الآخرين، وتأسيسها على أصولٍ عقليةٍ متينة، والانطلاق من البدائه والضروريّات إلى المعارف الجديدة من خلال ما عرف بالمنهج التحليلي الاستنباطي. «والذي لا شكّ فيه أن منهج البحث الفلسفيّ الذي يقوم على التحليل والتركيب وتمتزج فيه بشكلٍ أو بآخر كل المناهج العلميّة المعروفة من استقراءٍ واستنباطٍ وفرضٍ وجدلٍ... الخ والذي يعتمد على آلةٍ لغويّةٍ محدّدةٍ تتمييز بالدقّة في الألفاظ (الحدود) والتعاريف، والوضوح في المعنى، والتماسك في الفكر والأفكار المساقاة، هو المنهج الذي يسود كلّ العلوم بعامةٍ وتحتاجه»<sup>(٢)</sup>.

لقد أحدث ديكارت ثورةً في المناهج وأساليب التفكير أطلّت تاريخ الفلسفة بعده، وأعلت من مقام العقل البشريّ، ولفتت إلى أنّ هذه الأهمية للعقل لا تتحقّق إلا من خلال الانتباه إلى كيفية استخدامه. لقد أطلق ديكارت مقولته الشهيرة: «العقل أعدل الأشياء قسمةً بين الناس». وذكر بأنّ العقل الممنهج هو الذي يمكّن الإنسان من إبداع الجديد واكتساب الاستدلال على ما وراء المحسوس زماناً ومكاناً. وبه يكفّ الإنسان

(١) شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذكور، ص ٦٥.

(٢) فضل الله، مهدي. أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣ م، ص ١٥.

الروح العلمية التجريبية التناول الجزئي - وأحياناً التفتيتي - للموضوع، فانفسح رحاب الفلسفة لطابع العلم الجمعي التعاوني، لتتآزر الجزئيات معاً نحو التصور الأكمل للموضوع المتنامي دوماً<sup>(٢)</sup>.

وفي هذا السياق لم تعد المذاهب الفلسفية أبنيةً مصفوفةً من الحقائق الجاهزة، يكتفي اللاحقون بتريدها ما يقوله من سبقهم، بل أصبحت عمليات فتح للطريق أمام الأجيال، كي تتوالى عمليات الجهود الفتحية وتتواصل في حلقة متلاحقة ومتكاملة، يكون الجميع فيه على قدم المساواة باعتبار معيّن.

وبناءً على ذلك يمكن تعريف منهج التفكير الفلسفي بأنه «الإطار الفكري والفلسفي المبني على مجموعة من الأفكار والمبادئ والآراء التي تتم على أساسها دراسة مشكلة أو بحث قضية أو النظر في موضوع ما، أو تقييم عمل ما، أو نقد ورقة أو مشروع، سواء كان المستفيد من هذا المنهج قد تبنى مذهب هذا المنهج أم لا، وسواءً أكان ذلك الاتباع لهذا المنهج في المجال الفلسفي أم في المجالات الأدبية أو العلمية أو الفنية أو الحياتية... إلخ»<sup>(٣)</sup>.

نفسه عن الأمانى والأوهام، ويميّز بين الأشياء، ويحدس بالمستقبل، ويمسك عن مصلحة عاجلة آنية يسيرة من أجل الحصول على أخرى آجلة جلييلة. يقول في ذلك: «إنّ هناك حاجةً لمنهج في سبيل بلوغ الحقائق، وبدون ذلك فمثلنا مثل بعض الناس الذين يتحرّقون شوقاً للعثور على كنز فيجوبون الشوارع عليهم يعثرون على شيء يصادف أن يكون قد سقط من عابر سبيل... مثل هذا البحث غير المنظم يفسد نور بصيرتنا ويعمي قدرتنا العلمية»<sup>(١)</sup>. كما أحدثت ثورته صدمةً على الجمود والتقليد، وأرخت بظلالها على مذاهب الفكر ومناهج الفلسفة بعده.

وإذا أنعمنا النظر وجدنا أن فكرة المنهج بالمعنى الاصطلاحي انبثقت من الحقل الفلسفي وأصبحت ذات أهمية بالغة فيه، متأثرة بالمنحى العلمي، ومؤثرة في العلوم الكونية والتجريبية، ومن ثم على الحضارة البشرية وأحدثت نقلةً نوعيةً في العلوم والمعارف الإنسانية، ثم عادت لتصبغ الفلسفة الحديثة بصبغتها. ويمكن القول: لقد «أصبحت الفلسفة في القرن العشرين مناهج أكثر منها مذاهب، أي أسلوباً للبحث وطريقة للنظر». وبذلك «أخذت الفلسفة من

(١) شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذکور، ص ٦٥.

(٢) الخولي، يمينى. فلسفة العلم في القرن العشرين، مرجع مذکور، ص ٢٤٩-٢٥٠.

(٣) حلاوي، محمود. منهجية البحث الأكاديمي، دار الأرقم، بيروت، ٢٠١٠م، ص ١٤.

## ب - المنهج العلمي الحديث ودلالاته على واقعنا العربي

مع شيوع الحديث عن المنهج الفلسفي التحليلي أخذ ينتشر الحديث عن المنهج العلمي ولكنه اتخذ مساراً طويلاً من النقاش حول تقديم الملاحظة والاستقراء والتجربة على الفرض والتحليل أو العكس، حتى استقرّ النقاش، بنظر علماء مشهورين - مثل أينشتاين وكارل بوبر - إلى ضرورة الانتصار لتقديم الفرض العقلي على الملاحظة والاستقراء<sup>(١)</sup>.

وقد عُرف المنهج العلمي أنه المنهج الذي يعتمد على المزج بين الفرض العقلي والتجربة الحسية بالإضافة إلى الملاحظة والاستدلال. وذلك مقابل الجنوح إلى الغلو في ترجيح جانب التحليل على التجربة أو العكس. ففي ضوء المنهج الفرضي الاستنباطي ليست الملاحظة التجريبية هي مصدر الفرض العلمي بل هي مجرد محك له، أما مصدره فهو العقل الإنساني والإبداع. «إن وضع الفرض قبل الملاحظة بمثابة ثورة منهجية تكاد تشبه الثورة الكوبرنيكية... فتغيّرت منظومة المنهج،

والنظرة إلى طبيعة المعرفة العلمية وارتسم طريقاً لتطوّر متسارع في فلسفة العلم»<sup>(٢)</sup>.

فما هو هذا المنهج وما هي مميزاته؟

يمكن القول إن المنهج العلمي هو المنهج الذي يتميز بدرجة عالية من الانتظام، ويزاوج بين النظرية والواقع، بهدف تقديم تفسيرات للعالم المحيط بنا<sup>(٣)</sup>. فيدرس الظواهر الكونية القائمة في الأشياء، ويهتم بالوقائع الخارجة عن العقل، ويتوجّه إلى وصفها وتحليلها، ومن ثم إخضاعها للتجربة العلمية، عبر مجموعة من التقنيات والوسائل والأدوات والطرق المصمّمة لفحص الظواهر. أما الفرضية فهي اقتراح أولي يفكر فيه الباحث كتفسير مؤقت لظاهرة معينة أو كحل محتمل لمشكلة محددة، ثم يختبر الفرضية على الوقائع، فيما أن يستبقيها إذا تطابقت مع الوقائع، وإما أن يعدل فيها، وإما أن يتخلى عنها ويستبدلها بغيرها<sup>(٤)</sup>.

والهدف منه رفع مستوى الإنسان معرفياً وسلوكياً وحياتياً بشكل عام. أما بشكل خاص فالهدف منه الوصول إلى تفسير الظواهر الكونية والإنسانية بدقة وموضوعية.

(١) الخولي، يمني. فلسفة العلم في القرن العشرين. مرجع مذکور، ص ١٦٤ و ١٧٠.

(٢) الخولي، يمني. فلسفة العلم في القرن العشرين. مرجع مذکور، ص ١٧٣.

(٣) حسبيّة، مصطفى. المعجم الفلسفي، عمان، دار أسامة، ٢٠١٢، ص ٦٠٧.

(٤) شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذکور، ص ١٨.



المصادر والمصادر المعرفية للمنهج العلمي المعاصر. إذ يتبع المنهج العلمي الحديث مجموعة مقولات أو مصادر خاصة به، لا بد من التسليم بها كي تتحقق نتائجها. إنها مصادر لا تخضع لبرهان، ولكن صدق بحوث العلماء يضمن صحة الأخذ بها، كما أن وجود آلاف الأمثلة عليها يؤيد استمرار الاعتماد عليها<sup>(٢)</sup>. من هذه المصادر:

- **النظام (النسق)**، وهو أحد مفاهيم العقل الأساسية، ويشمل الترتيب الزمني والترتيب المكاني والترتيب العددي والسلاسل والعلل والقوانين والغايات<sup>(٣)</sup> ...

- **العلية أو السببية**، أي أن كل ظاهرة لها علّة سببتها وترافقت معها أو ترتبت عليها، فتتنظم أحداث الكون في تراتبٍ عليّ. فلكلّ علّة معلولٌ ولكلّ معلولٍ علّة. وهذه المقولة تسمح بالتعرف على كثيرٍ من أمور المستقبل العلمية ووقائع الوجود والحياة، سواءً في الفيزياء أو الطب أو الهندسة أو في الأمور الإنسانية كالاقتصاد أو السياسة أو الاجتماع.

مع ملاحظة الخلاف في طبيعة العلاقة التي تحكم هذا الارتباط، هل هي علّة عقلية

ويفترض المنهج العلمي عدّة أمور، منها:  
- هناك تكراراً وانتظاماً في الطبيعة وأشياءها المحيطة بها.  
- إمكان المعرفة بالطبيعة.  
- المعرفة ضرورية لتحسين ظروف حياة الإنسان.  
- للظواهر الطبيعية أسباباً طبيعية محددة.

- لا بد من تقديم أدلةٍ للتحقق من صدق المقولات المطروحة.

- لا بد من الجمع بين المنطق والمشاهدات الأمبريقية.

أما مميزاته فهي أنه:

- ذاتي التصحيح ويسمح بتطوير أدوات البحث.

- نظامي ترتبط أدلته بعضها ببعض.

- منضبط في تعميماته ونتائجها المتوجهة إلى الظهرة موضوع البحث.

- واضح وجميع قواعد البيان والاختبار محددة.

- يسمح بتراكم المعرفة وإعادة الدراسة للتأكد أو التعديل أو الإضافة<sup>(١)</sup>.

ولا بد هنا من إلماحٍ سريعٍ حول

(١) حسبية، مصطفى. المعجم الفلسفي، مرجع مذکور، ص ٦٠٧.

(٢) قاسم، محمد. المدخل إلى مناهج البحث العلمي، مرجع مذکور، ص ٨٦ - ٨٧.

(٣) وهبة، موسى. الموسوعة الفلسفية العربية، معهد الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٦، ص ٨١٣.

المكان ولا عن الذات ولا عن الموضوع، مما جعل النظرة إلى العالم تختلف عن النظرة السابقة إليه لدى نيوتن وما بعده، وجعل فكرة الاطراد في الطبيعة مشروطةً ومعرضةً للاحتتمالات المفتوحة. لقد قدمت النسبية ثورةً حقيقيةً للعلم وقلبت رأساً على عقب مفاهيم أبستمولوجيةً راسخةً كالحتمية والميكانيكية والعلية واطراد الطبيعة، ويقين قوانينها، والموضوعية، وكتل المادة المتحركة في مكانٍ مستوٍ من مطلق الماضي إلى مطلق المستقبل... «بحيث أصبح لدينا الآن حدًّا فاصلاً بين إبستمولوجيا العلم الكلاسيكي وإبستمولوجيا العلم في القرن العشرين»<sup>(٤)</sup>.

وهناك مقولاتٌ أخرى لا تقلُّ أهميَّةً في المنهج الحديث، مثل تكميم المعارف، أي تحويلها إلى رموزٍ وأرقامٍ قابلةٍ للإحصاء، والكتابة الرقمية الضوئية السيالة عبر الأثير وشبكة المعلوماتية. وتتزايد أهميَّة هذه المقولة، سواءً في تفعيل المعرفة أم تسهيلها أو إبداعها، وهي من أهم المقولات التي يهتمُّ بها الباحثون في المنهج الحديث.

لقد ظهر من ذلك كله أن المنهج الفرضي

ضروريَّة أم هي علَّة عَرَضِيَّة يمكن انفكاكها أو تخلفها، إذ قد يكون ارتباط حدثين ببعضهما جزافاً وعرضاً - كما يرى ديفيد هيوم مثلاً<sup>(١)</sup>... ومع ملاحظة أن قانون العلية تعرض لإعادة النظر مع انطلاق نظرية النسبية، التي أفرزت مفهوم «التآني»: Simultaneity الذي يعني استحالة الحكم بأن حدثاً وقع قبل أو بعد الآخر، كما يشترط التحديد العلي للأحداث الاستناد إلى علَّة سابقةٍ ومعلولٍ لاحقٍ في خطِّ الزمان الواحد المطلق<sup>(٢)</sup>.

- الاطراد في الطبيعة، وهي تعني أن العالم تنظمه قوانين معينة عامَّة بما يسوغ القول بأن ما حدث في الماضي يفيدنا علماً عما سوف يأتي في المستقبل. فكلُّ شيءٍ حدث وسوف يحدث هو مثالٌ لقانونٍ عامٍّ يجري بشكلٍ مطَّردٍ على وتيرةٍ واحدةٍ لا تتغير<sup>(٣)</sup>.

مع ملاحظة أن نظرية النسبية أضفت على مصادرة «الاطراد» فكرة المجال الموحد والكون المنسجم المترابط الذي يداخل ظواهره الكثير من التأثيرات المتبادلة، فلا يمكن فصل الزمان فيه عن

(١) منمنه، جميل. المنهج وإشكالية العلوم الإنسانية، مقالة: المنهج العلمي المعاصر من وجهة أبستمولوجية، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٥، معهد الإنماء العربي، بيروت، شباط ١٩٨٩، ص ٩٥.

(٢) الخولي، يمني. فلسفة العلم في القرن العشرين. مرجع مذكور، ص ٢٠٤.

(٣) الخولي، يمني. فلسفة العلم في القرن العشرين. مرجع مذكور، ص ١٣٤.

(٤) الخولي، يمني. فلسفة العلم في القرن العشرين. مرجع مذكور، ص ٢٢٦.

اتخاذ مواقف شخصية عقلانية منها، فطغى عليهم الانبهار بالفكر الوافد، وأهمل معظمهم قضية المنهج في قراءة الأفكار، ولم يعيروا الاهتمام اللازم بالمنهج في النظر إلى العلوم والمعارف الوافدة. مع أن هذا العمل المنهجي هو وحده الذي يمكن من ابتداع أساليب تفكير تتناسب والفكر العربي والواقع المعرفي للمجتمعات العربية، وتخرجها من وحدتها وواقعها البئيس التي هي فيه.

### ج - الفوائد المرجوة من دراسة المناهج الفلسفية والعلمية عامة

بما أن الفلسفة هي حبّ الحكمة - لا الحكمة فقط - فإن مهمة الفيلسوف هي البحث والتأمل والفهم والتفكير، وليس الجمع والحفظ والتقرير. وهذا ما تؤدّي إليه المناهج الفلسفية والعلمية. فهي تفيد الباحث فوائد كثيرة تجعل لها أهمية بالغة على تفكيره ونتائج هذا التفكير. ومن هذه الفوائد:

١ - **صفة العلمية.** بمعنى أن المنهج ينقل الشخص من مجرد كونه دارساً إلى باحث، ومن متلقٍ وناقلٍ أحياناً إلى محقّقٍ وناقدٍ عن طريق المناقشة النقدية والحوارات الحيوية والتأمل الحادّ.

الاستنباطي هو السبيل إلى الفعالية النامية باستمرار. إنه المنهج الذي لا يفترض مسبقاً وقائع ذهنية، ولا يعتمد على مجرد ملاحظات جزئية قابلة للتحوّل. إنه يسعى لكي يجعل من «كلّ قانونٍ مجردٍ فرضاً ناجحاً» وليس العكس، أي لا يحاول أن يجعل من كلّ فرضٍ ناجحٍ قانوناً، ولا يحاول أن يتخذ من الوقائع التجريبية تبريراً للعبارات العلمية. ولكنه يحاول بالمقابل أن يجعل كلّ خطوة ناجحة مبدأً للتجاوز والتقدّم، لكي يصبح هذا المنهج مواكباً لبناء العلم المصمّم على طبيعة الصيرورة والتقدّم المستمرّ، ويغدو نظريّة في الإبداع المستمرّ بلا توقّف<sup>(١)</sup>.

ولكن تأثير تلك التغييرات في الفكر والعلوم لم يسر إلى البلاد العربية والإسلامية إلا قليلاً مع الأسف. لكننا لا نزال بحاجة إلى ثورةٍ مشابهةٍ تحاول التأسيس لمرحلةٍ جديدةٍ من الإبداع في مناهج المعرفة، ثورةٍ تستجيب لضرورات التغيير وحاجات العصر، ولا تتصادم مع الواقع المعرفي والتاريخي لبلادنا، وتذكّر بكبار الفلاسفة والمفكرين العرب في العصور الماضية.

فقد دأب المفكّرون المعاصرون على استيراد المذاهب والمناهج جاهزةً دون

(١) الخولي، يمني. فلسفة العلم في القرن العشرين. مرجع مذكور، ص ١٧٣.

وهذه هي صفة «العلمية» التي يكسبنا إياها المنهج.

٢ - صفة النظامية. فللمناهج أهمية من حيث تجنب الباحث العشوائية أو الارتجالية، والاعتماد على الحظ السعيد. وقد أسلفنا كيف شبّه ديكارت الذي لا يمارس عمله الفكري من خلال منهج بمن يبحث عن الكنوز في سقط المتاع للمارة في الطرقات<sup>(٢)</sup>. إذن فالذي يعمل من خلال منهج رصين هو كمن ينقب في باطن الأرض بآلات الحفر والتقنيات الحديثة، التي تسهل الولوج إلى باطنها والوصول إلى لجج البحار وأجواز الفضاء، وتمكّن من استكشاف غرائب العلم واغتنام خيراته الكثيرة والاستفادة من ثروات الوجود المتنوعة. وهذا ما يمكن أن نسمه بصفة «النظامية» التي يكسبنا إياها المنهج.

٣ - صفة الإنتاجية. بمعنى أن المنهج ينتقل بالباحث من مرحلة التردد العادي للمعلومة - مثل النسخة من الكتاب - إلى كونه متفاعلاً معها يتأثر بها ومن ثم يعمل على إعادة تشكيلها من جديد، حتى يصبح مصنّعاً ومصدراً لها بعدما تكون قد اتخذت شكلاً آخر، ودخلت في ماهية أخرى بما يشبه صناعة العسل عند النحلة مثلاً.

ومعلوم أن الفلسفة تعني محاولة الإجابة عن مجموعة من التساؤلات العميقة التي يصحبها شعور بالقلق البالغ، والذي يدفع حثيثاً إلى تبني العمل العقلي والاشترك الشخصي الواسع بغية اكتشاف أسرار الكون والحياة<sup>(١)</sup>. وهذا ما يفترض وجود منهج يحمل على التثبت من المعلومة قبل تبنيها، والعمل على فحص مضمونها وعرضه على المقاييس العقلية، ومن ثم السعي لتحليل هذا المضمون والتفاعل معه ليصبح جزءاً من الحياة الفكرية والنشاط العقلي للإنسان في حال وجد متوافقاً مع قضايا العقل ومنطقه، أو ليوقف في مستودع الأفكار القابلة للأخذ والرد، أو ليُرفض ويُنبذ شأنه شأن المواد الدخيلة التي ينبغي التخلص منها.

ولذلك فإن المناهج تساعد على التوصل إلى معلومات يقينية مبرهنة وموضوعية، أو شبه يقينية، تتسم بصفة العلمية والاستناد إلى الحقائق والوقائع، وتبتعد عنها سمات التكهن والتوهم والذاتية وما شابه ذلك. فالفلسفة تنطوي على علم دقيق بمقدار ما فيها من معارف ومعلومات مؤكدة ثابتة غير مغلوبة. كما أن العلم ينطوي على فلسفة بمقدار ما فيه من نقد.

(١) انظر: الموسوي، موسى. من الكندي إلى ابن رشد، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٩، ص ١٩.

(٢) انظر: شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذکور، ص ١٦٢.

وبهذا ينتقل الباحث من شخصيّة الفرد المحدود إلى حيثيّة اكتسابه شخصيّة معنويّة اعتباريّة تتجاوز حدود شخصه إلى مجال مجتمعه وعصره، وربما إلى أماكن أبعد وأزمنة أطول، من خلال منهجه في النقد والتفسير، والتحليل والتركيب، والمقارنة والاستنتاج، والاستنباط والاستدلال... الخ، وصولاً إلى اتخاذ موقفٍ متميزٍ أو التوصل إلى قناعاتٍ وآراء جديدة. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه صفة «الإنتاجيّة».

#### ٤ - صفة الإبداعية. فالمنهج يمكن

الباحث من تحصيلٍ أوسع في مجالات العلم والمعرفة. فلا علم بغير منهجٍ علميٍّ، ولا فلسفة من غير منهجٍ فلسفي. وذلك لأنه يسهّل للشخص الحصول على أدوات التفكير الضرورية، ومعرفة الخطوط العامّة لمراحله وعناوين كلّ مرحلة. وبهذا يفتح المنهج للباحث - أو للعالم - آفاقاً واسعةً في الشكل والمضمون.

فمن حيث الشكل فهو يمكن الباحث المنهجيّ من أن يثري تعابيره المعرفيّة الخاصّة، ويعمل على تعديلها وإعادة تشكيلها، لتكون أكثر تعبيراً وانسجاماً مع روح الحقائق العلميّة، ومضامينها الواسعة. ومن حيث المضمون فإنّ المنهج يجعل

الباحث قادراً على ابتكار الجديد، وتأليف الأجزاء والتنسيق فيما بينها بما يحقق الأهداف والمقاصد من الأبحاث والدراسات. كما أنّه يجعل الباحث يتوقّف بعناية عند كلّ مرحلة من مراحل بحثه، تحريراً وثبناً وتحققاً، فيعيش مع الفكرة في مراحل نموّها وتطورها، ويتأكد من بدها معطياتها الجزئية، وتناسبها المنطقيّ من ما حولها، وانسيابها التسلسليّ مع ما قبلها وما بعدها، لتكون وحدةً أساسيّةً في مركّبٍ مزجيّ متراصٍّ ومتلاحمٍ بشدّةٍ وبتناسقٍ وبعناية. وهذا ما يمكن أن نطلق عليه صفة «الإبداعية والإعانة على استكشاف الحقائق» التي يكسبها المنهج.

#### ٥ - صفة الانسجامية. بمعنى أنّ

المنهج يفيد الباحث إفادةً عظيمةً في تجنيبه آفةً كبرى قد يقع فيها بعض الباحثين والدارسين، وهي آفة التناقض والتهافت في الأفكار، وهو تناقضٌ ضمنيٌّ غير بارزٍ أحياناً، وقد يكون بارزاً أحياناً أخرى. فالمنهج الرصين يجنب الانزلاق إلى مثل هذا الخطأ الفادح. «وإذا بدا في أيّ مرحلة من مراحل البحث شيءٌ من ذلك فيجب التوقّف والبحث عن سبب التناقض»<sup>(١)</sup>. وهذا ما يمكن أن ندعوه بصفة «التوافق والانسجام الذاتي للأفكار» التي يمكن أن يؤمّنّها المنهج.

(١) شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذكور، ص ١٥٦.

٦ - **صفة النزاهة العلمية.** فمن الفوائد الأساسية للمنهج: الحيادية وتجنب الأهواء والمبالغة في وصف المعطى، أو الانزلاق إلى التحيّز واتباع الميول الشخصية والأهواء الذاتية، بعيداً عن النزاهة والاستقامة العلمية. وهنا نقول: إن الفلسفة تتميز بأنها سعي دائم لتفحص كل جديد مستغرب غير مألوف، بالإضافة إلى تأمل القديم الراسخ المعروف؛ فتعتبر أن لها الحق في أن تشك في المعطى، بل تعتبر أن من واجبها أن تتوجه إليه فتتأمل في بنيته، وتدقق في عناصره، وتتفحص كلاً منها، كي تعيد النظر في مواده وتركيبه وطريقة بنائه، وتقدم طريقة جديدة في ذلك بغية تحسينه وتطويره<sup>(١)</sup>.

المنافع والغايات بدلاً من تقدير الحقيقة المجردة وتقديمها على كل غاية، والسعي إلى الحصول عليها بكل جهدٍ ومهما كان الثمن، مع السعي إلى بلورتها وإبرازها وتوضيح أحكامها<sup>(٢)</sup>.

وهذا ما يمكن أن نعبر عنه بصفة «التحقّق بالنزاهة والعقلانية والحيادية والجدية».

٧ - **صفة الحرّية الفكرية.** فمن أهمّ فوائد المنهج على صعيد الموضوع، أنه يفتح للباحث أفقاً رحباً على الحياة، ويمكّنه من نقل الفكر من قضايا خبريّة ونقاشات تاريخيّة إلى واقع معيوش، فيدفعه إلى إعادة النظر بكل ما استفاده من السابقين من أفكار ومفاهيم، وإلى التصدي لإشكاليات الواقع الراهن، ومن ثمّ إثارة التساؤلات حولها. وهذا ما يجعل حركته الفكرية تتسم بالمرونة، ويعطيه مروحة واسعة من التفكير، وذلك لأنه يمكّنه من التطرّق إلى جميع قضايا الحياة، ويجعل له الحق في المشاركة والاهتمام بكل ما حوله من شؤون المجتمع والعالم، لأن الموضوعات المعرفيّة كليّة غير جزئية. والفلسفة هي حقلٌ مخولٌ للسعي إلى

كما أنّ من واجبها أن تطوّر المعرفة البشرية عبر مناهج علميّة تتسم بالدقة والموضوعية، والاستناد إلى قواعد البدهة والوضوح والتمييز، واستيعاب عناصر المعطى كافة. بالإضافة إلى تجنب العيوب المعروفة والأخطاء الشائعة، كالميل مع الهوى الشخصي، وملاحظة الانطباعات المسبقة، والتسرّع في الأحكام، والتأييد العاطفي العشوائي، والتقليد الأعمى، وابتغاء

(١) انظر: مروة، كامل. المنهج المعياري والمنهج التجريبي في فلسفة التربية، رسالة دكتوراة - الجامعة اللبنانية، ١٩٩٧، ص ٤-٥.

(٢) انظر: فضل الله، مهدي. أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، مرجع مذكور، ص ٢٨-٢٩.

تفهّم واقع الحياة والعمل على نقده والإسهام في تطويره وإظهار قيمة الحياة وترقية مستواها. وهي فعلٌ عقليٌّ وممارسةٌ ذهنيّةٌ تتسم بالشمولية والعمق والاتساع، كما بالنقدية والحريّة والمنطقية.

وهذا ما يمكن أن نصفه بوصف «حريّة التفكير الفلسفي الصحيح» التي يؤمّن بها المنهج.

٨ - صفة الحوارية. بمعنى أن المنهج يمكن الباحث من استخدام طرق المعرفة ووسائلها، كالحوار مع الآخر أو مع الذات أخذاً وعطاءً. ومعنى ذلك أن يعتاد الباحث على اعتماد الطريقة الأهم في اكتساب المعرفة وهي الحوار. فبالحوار يتم إخضاع المفاهيم للتطبيقات العملية الواسعة، وإيراد الأمثلة الواقعية الحية<sup>(١)</sup>. وبه يمكن للشخص أن يفكر بصوت عالٍ وبمشاركة عقولٍ متكاملة فيما بينها لتصنيع هذه المعرفة الإبداعية. كما يفتح الطريق أمام عملية التأمل الذاتي، وهو حوارٌ صامتٌ، حيث يجرد المرء من نفسه وعقله شخصاً آخر مثله تماماً، ويسعى أن يكون موضوعياً ونزيهاً، لا يحابي ولا يجامل في الفكر والحقائق.

إن طاولة البحث التي تسعى للعثور على منهجٍ أو مناهج معرفية متماسكة كانت ولا

تزال تسهم مساهمةً أساسيةً في صناعة التقدّم في الفكر والحياة، وإعادة النظر في الفلسفات والمذاهب الكبرى المعروفة في التاريخ الفلسفي، كما في تشكيل العالم وتعديل مساراته وصياغة مستقبله وفق منطق التقدّم والتغيير نحو الأفضل والأكمل والأحسن.

إن المنهج المعرفي جزءٌ أساسيٌّ من حياتنا اليومية، وفي كلِّ مراجعةٍ ونقدٍ وتجديد. ولا يمكن أن يتقدّم البحث العلمي في مجتمعٍ ما أو في فترةٍ زمنيةٍ ما ما لم يكن هناك تطبيقٌ كافٍ للمناهج العلمية، واستخدامٌ ثريٌّ لأدواتها في قياس الظاهرة المبحوثة. فالمعرفة الكافية بمناهج البحث وقواعد التفكير هي التي تمكّن من إتقان الأبحاث وتلافي الخطوات المتعثّرة أو غير المفيدة.

#### د - الاختيار في الأبحاث بين المنهج الواحد والمناهج المتعدّدة

يجدر التذكير بأن النماذج الرئيسية لمناهج العلوم لا يعمل بعضها بمعزلٍ عن بعضها لآخر، بل قد ينشأ تداخلٌ ما عند الرجوع إليها واتباعها، ولو جزئياً. وقد ظهر في الدراسات التطبيقية أن المناهج تتداخل فيما بينها إلى حدٍّ بعيد، وهذا ما يفسح المجال باستخدام بعض المناهج المتقاربة

(١) انظر: الموسوي، موسى. من الكندي إلى ابن رشد، مرجع مذكور، ص ١٧.

- أو غير المتعارضة - مع بعضها في البحث الواحد.

ويشار هنا إلى أنّ هناك من يرفض تداخل هذه المناهج واستعمال أكثر من منهج واحد في البحث الواحد. وسبب ذلك أنّ هناك «ارتباطاً وثيقاً بين طبيعة الموضوع المعالج وطبيعة المنهج المستخدم. إنّ الموضوع المعالج يتأثر حكماً بالمنهج المعالج، وقد تتغير حقيقته إذا ما عولج بواسطة منهج غريب عن طبيعته، لأنّ الأصل هو أنّ لكل ظاهرة معينة منهجاً معيناً أكثر ملاءمةً من غيره للبحث فيها... هذا يعني أنّ على الباحث أن يحزم أمره ابتداءً، ويحدّد المنهج الذي يريد استخدامه في موضوع بحثه، ويذكر ذلك صراحةً في المقدمة»<sup>(١)</sup>.

وأرى أنّ الموضوع يحتمل أكثر من رأيٍ بحسب موضوعات البحث. صحيح أنّ الموضوع المختار يؤثر حكماً في اختيار المنهج أو المناهج المناسبة لمعالجته، فينبغي أن يكون هناك تناسبٌ ما بين الموضوع والمنهج المعتمد في دراسة ما. «فلو طبّقنا مثلاً المنهج النفساني على قطاع

مهمّ من قطاعات الفلسفة الإسلاميّة كالتصوّف مثلاً فإنّ النتائج المترتبة عن ذلك ستكون بعيدةً كلّ البعد عن أن تكون في صالح التصوّف وأصحابه ومريديه، إذ سيصبح التصوّف كنايةً عن نكوصٍ وسلبيةٍ وانهزاميّةٍ وتخيلٍ وانفصام شخصيّةٍ وعقدٍ نفسيّةٍ... الخ»<sup>(٢)</sup>.

لكنّ ذلك لا يلغي إمكانية التوليف بين المناهج في الجزئيات، والاستفادة من مجموعها في البحث الواحد، لأنّ ذلك يغني البحث ويسهّل عمل الباحث، ويجعله أكثر مرونةً مع مستجدّاته، وأقرب إلى الواقع العمليّ منه إلى النظريّ المجرد.

«إنّ اللجوء إلى منهجٍ توليفيٍّ متكاملٍ، وذلك بتركيب أدواتٍ من مناهج متعدّدةٍ هو ملمحٌ من ملامح المرونة التي تتمتع بها مناهج العلوم الإنسانيّة والاجتماعيّة الحديثة، وما يبعدها عن القوالب والأطر المسبقة، وعن الانتهاء بالتالي إلى نظريّاتٍ قاطعةٍ تكون عرضةً عند كلّ مفصلٍ للكسر. هذه المرونة هي سرّ بقاء المناهج من جهةٍ وموت النظريّات من جهةٍ ثانية»<sup>(٣)</sup>.

وهذا يعني أنّ هناك ضرورةً ما في

(١) فضل الله، مهدي. أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، مرجع مذکور، ص ١٥. وانظر: شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذکور، ص ١٠٥ - ١٠٦.

(٢) فضل الله، مهدي. أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، مرجع مذکور، ص ١٥.

(٣) شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذکور، ص ١٠١.



الإطلاع على النظريّات الفلسفيّة المختلفة قبل الشروع في أيّ بحثٍ من أجل الاستفادة من المناهج المتعلّقة بها، ومن أجل التوصل إلى نتائج جديدةٍ تتّصف بالعلميّة وتكون أكثر ملامسةً ومقاربةً لروح العصر العلميّة منها إلى التأمليّة البحتة. «إن التكامل في استخدام المناهج السابقة هو الذي يفضي إلى نتائج جديدةٍ وصحيحةٍ في آن. فالاستقراء إلى حدٍّ كبيرٍ هو منطق الاكتشاف والعثور أو الوصول إلى نتيجة. أما الاستنباط [ومعه الفرض] فهو منطق البرهنة على صحّة وصدقيّة اكتشافنا أو النتيجة التي بلغناها»<sup>(١)</sup>.

ولكن يبقى من المهمّ الحذر من الاقتراب إلى المحظور في هذا التوليف، وهو الانزلاق الذي يمكن أن يتطرّق إلى البحث عند كلّ خطوة، أي الانزلاق من المنهجية العلميّة إلى اللامنهجية اللاعلميّة، وهو المقصود الأساسي من دراسة المناهج والاهتمام بها. إذن «يبقى استدراكٌ ضروريٌّ هو: كيف نحمي هذا المنهج التوليفي الذي نمارسه غالباً من الانزلاق نحو اللامنهج، ونحو التفلّت من كلّ حدٍّ أو شرطٍ معرفيٍّ، وكيف يبقى هذا المنهج في حقل العمل المنهجيّ العلميّ تحديداً؟»<sup>(٢)</sup>.

## المراجع

- بدوي، عبد الرحمن. مناهج البحث العلميّ، وكالة المطبوعات، الكويت، ١٩٧٧.
- حلاوي، محمود. منهجية البحث الأكاديمي، دار الأرقم، بيروت، ٢٠١٠.
- الخولي، يمني. فلسفة العلم في القرن العشرين. سلسلة عالم المعرفة، الكويت. العدد ٢٦٤، ٢٠٠٠.
- سلامة، عبد الحافظ و سمير أبو مغلي. المناهج والأساليب في التربية الخاصة، الدار العربية الأولى، عمان - الأردن، ٢٠٠١.
- شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ٢٠٠٨.
- العسكري، أبو هلال. الفروق اللغوية، دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠١٠.
- الذهبي، شمس الدين. سير أعلام النبلاء، مؤسسة الرسالة، بيروت، لا ت.
- فضل الله، مهدي. أصول كتابة البحث وقواعد التحقيق، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٣.
- قاسم. محمد. المدخل إلى مناهج البحث العلمي، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٩٩.
- القرطبي، ابن عبد البر. جامع بيان العلم وفضله، مؤسسة الريان، بيروت، ٢٠٠٣.
- الموسوي، موسى. من الكندي إلى ابن رشد، بيروت، منشورات عويدات، ١٩٨٩.

## الموسوعات والمعاجم والمجلات والرسائل:

- عباس، فيصل. موسوعة الفلاسفة، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٦ م.
- مجموعة باحثين، الموسوعة العربية العالمية،

(١) شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذكور، ص ١٠١.

(٢) شيا، محمد. مناهج التفكير وقواعد البحث، مرجع مذكور، ص ١٠١.

- الرياض، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع،  
١٩٩٩.
- Runes, D. Ed., Dictionary of Philosophy, London  
1944.
- حسيبة، مصطفى. المعجم الفلسفي، عمان، دار  
أسامة، ٢٠١٢، ص٦٠٧.
- وهبة، موسى. الموسوعة الفلسفية العربية، معهد  
الإنماء العربي، بيروت، ١٩٨٦.
- منمنه، جميل. المنهج وإشكالية العلوم الإنسانية،  
مقالة: المنهج العلمي المعاصر من وجهة  
أبستمولوجية، مجلة الفكر العربي، العدد ٥٥،  
معهد الإنماء العربي، بيروت، شباط ١٩٨٩.
- مروة، كامل. المنهج المعياري والمنهج التجريبي  
في فلسفة التربية، رسالة دكتوراة - الجامعة اللبنانية،  
١٩٩٧.

### مواقع الإنترنت:

- أبو مروان، أهمية تطوير المنهج، الرابط على شبكة  
الإنترنت:  
<https://ikhwanwayonline.wordpress.com>

## دواوين شعريّة: عناوين ومضامين قراءة في ضوء علم اللغة النصّي

د. كاي الفغالي (\*)

وعناوين الكتب مثل عناوين الأفلام السينمائيّة فقد يكون العنوان فاحراً جذاباً، ويكون المضمون فارغاً تافهاً، وهذا من حرفة خداع العناوين حيث تصير «العناوين أدلّ على نقائضها منها على مفهوماتها، وألصق بأضدادها منها بمنطوقاتها»<sup>(١)</sup>، والعكس وارد أيضاً حين يكون العنوان تافهاً والمضمون راقياً.

بعض العناوين يكون عادياً، سليم الأداء، علمياً، غير بلاغيّ وهذا ما لا شأن لنا به في هذه الدراسة. والبعض الآخر يكون أدبياً بليغاً قوياً لافتاً غير مسبوق وهذه الأخيرة شديدة الأهميّة، على أنّ هناك عناوين تتشابه فترد متوأمة في كثير من الأحيان.

أولاً: في التقديم النظري:

١ - في العنوان: يسعى كلّ من مسّته حرفة الأدب إلى اختيار عنوان لافت لمؤلفه حتّى يستفزّ القارئ ويستثيره من البداية. فالعنوان هو أوّل مدخل إلى المضمون، لا بل هو المضمون كلّ في أحرف قليلة. واكتشاف العنوان حالة مضمّنية للكاتب في أغلب الأوقات. والعناوين لا تكون موفّقة أحياناً فيأتي العنوان جافاً غليظاً، بعيداً عن ذوق القراء منقّراً في أحرفه، ثقيلاً في إيقاعه، فيبعد القارئ عن اقتناء الكتاب.

لذا يحتاج العنوان إلى الكثير من التأمّني والدربة وحسن الاختيار، وعلى الكاتب أن يلبس ثياب القارئ جيّداً عند اختياره عنوانه.

(\*) أستاذ متخصّص باللغة العربيّة وآدابها، الجامعة اللبنانيّة، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة - الفرع الثاني. له محار الحبّ والتراب (شعر)؛ مسافر في النور والمطر (شعر)؛ المعلمّ والوردة (شعر)؛ شجرة اللوز (قصة)؛ الدرس الأخير (قصة)؛ فضلاً عن عدّة أبحاث لغويّة منشورة.

(١) العنوان والشاهد من مقالة لمصطفى لطني المنفلوطي في كتابه «النظرات». نقلاً عن الموقع الإلكتروني:

اللافتة ونحوه المختار، وصيغته المبتكرة المتجددة، وإيقاعه الجاذب.

ولكل نصّ سواء شعراً كان أم نثرًا أم موسيقى أم رسمًا أم... عنوان مهما كان حجمه. ويختلف العنوان عن الأفكار الرئيسة للمقاطع في أنّه يكون فنّيًا بلاغيًا، أما الفكرة الرئيسة فهي شارحة موضحة علمية.

قيمة العنوان في أنّه يوضع في أعلى النصوص، دائماً، وعلى غلافات الكتب، بارزًا، واضحًا، لافتًا، أنيقًا جميلًا. لأنّه الباب إلى الكتاب وإلى النصّ. والكتاب على ما يقال، يُقرأ من عنوانه، وما لم يكن كذلك، فحينذاك يكون لدينا انفصام في شخصية الكتاب وضياع لدى الكاتب.

وكلّما كان العنوان إيقاعياً غير معقد كان أقرب إلى الحفظ وأوحى بالجمال.

## ٢ - في إشارة العنوان:

«في أبسط أشكالها، تمّ تعريف إشارة بيرس (pearcean sign) على أنّها شيء ما يتّصل بشيء آخر لشخص ما في اعتبار ما أو قدرة ما»<sup>(٢)</sup>.

العنوان هو الإشارة الكبرى والأكثر كثافة. إنّه الإشارة الأولى التي توصل إلى عدد كثيف جدًّا من الإشارات المتلاحقة، في

وقد يعطي الكاتب عنوان أقصوصة أو قصيدة من داخل الكتاب للمؤلف كلّه، إذ يراها هي الأكثر تعبيرًا في سائر المضمون.

وقد يحمل العنوان فكاهة أو سخرية أو غموضًا أو فرحًا أو حزنًا أو ألمًا، إلخ... ولكنّ الأهمّ هو أن يطرق باب الذهن بقوة الغامض المنكشف لأنّ الناس تكره التعمية وتبعد عن المكشوف الظاهر.

يبحث علم اللغة النصّي في العلاقة بين مضمون النصّ وعنوانه، وينطلق في ذلك من أنّ «وضع عنوان النصّ يتأثر باعتبارات سيميولوجية ودلالية وبرجماتية، فللعنوان بما في ذلك العناوين الفرعية أو الداخلية قيمة سيميولوجية أو إشارية تفيد في وصف النصّ ذاته»<sup>(١)</sup>.

العنوان هو الجاذب المفتوح؛ هو اللافت الأوّل والأكبر والأساس، نجاحه يكمن في أن يحمل المضمون كلّه في كلمة أو اثنتين أو ثلاث أو أكثر، لكنّه في مطلق الأحوال يُظهر مقدرة الكاتب في السيطرة على مضمون فكره بأسلوب البلاغة القصوى والاختصار الأبلغ.

وللعنوان لغته الخاصة، فكرته القويّة

(١) محمّد العبد، اللغة والإبداع الأدبي، دار الفكر، القاهرة، ط، ١٩٨٩، ص ٤٨.

(٢) بول كوبلي: دليل راولنج لعلم السيمياء واللغويات، ترجمة هبة شندب، بيروت، المنظمة العربية للترجمة، ط١، ٢٠١٦. ص ٧٥.

في الشعر، ذلك أنّ لغة الشعر هي لغة التضمين والانزياح والغموض والكثافة والإشارة والترميز. هذه العناوين هي: «قالت لي السمراء»، «قصائد»، «أبجدية الياسمين»، «الرسم بالكلمات» لنزار قبّاني، «مكلّلة بالشوق» لباسمة بطولي، «لماذا تركت الحصان وحيداً» لمحمود درويش، «فتافيت امرأة» لسعاد الصباح، «قصائد على ورق الخريف» لجورج غريب، «أجساد من التاريخ» لجوزف غصين، «رخام الماء» لجوزف حرب.

هنا لا بدّ لي من لفت النظر إلى أنّ حجم المقاطع التحليلية يتفاوت بين عنوان وآخر، وذلك بحسب إدراك وصول المعنى المقصود إلى ذهن المتلقّي.

### ثانياً: في القراءة التحليلية:

١ - قالت لي السمراء<sup>(٣)</sup>: أوّل ما يميّز هذا العنوان إيقاعه: قالت ليس/سمراء: (مستفعلن فعلان)، وهو مشطور البسيط. فالعنوان إذاً إيقاعيّ هو، ولافت، لأنّ الصوت أساس في تكوين الأدب بدءاً من العنوان وخصوصاً لدى الشاعر، حيث إنّ أساس في الشعر كيفما ورد في أشكاله العديدة

علاقة دلالية تكون فيها هذه الإشارة التي انطلق بها دو سوسور<sup>(١)</sup> في البداية، قائلاً إنّ الكلام هو عبارة عن إشارات ذوات معاني، هي المعلم الأبرز. لكنّ الإشارة تبدأ واضحة بسيطة في درجاتها الأوّل لتصبح أكثر غموضاً وعمقاً في مراحلها المتطورة والمتقدّمة في النصّ حيث «المشار إليه السيميائي لا يمكن أبداً أن يكون مطابقاً للشيء الحقيقي، لأنّه وفقاً لرأي بيرس، معرفتنا ليست مطلقة بأيّ شكل من الأشكال»<sup>(٢)</sup>، فمعرفتنا تبقى بعيدة عن عالم الحقيقة أو ما يمكن أن يؤول إليه في مطلق الأحوال. الإشارة البسيطة في درجاتها الأوّل لا تحتاج إلى تحليل، يكفي القاموس لتحديد معناها، لكنّ الإشارة المتقدّمة تتطلب ثقافة وعمقاً واطّلاعا واسعاً، وقوّة مميّزة في التقاط الدلالة ذات المعنى المتحرّك في النصّ، وهي دلالة دائمة التولّد بمعنى أنّ معانيها لا تنتهي لأنها تتطوّر مع تطوّر والأشخاص الذين يتلقّون في الزمان خصوصاً.

لقد اخترت لعملي التطبيقيّ مجموعة من عناوين دواوين شعريّة لشعراء مختلفين، أكثرها لنزار قبّاني، وذلك لأهمّية العنوان

(١) هو عالم لغة سويسري يعتبر أب الدراسات اللغوية الحديثة.

(٢) بول كوبلي: دليل راوتلدج لعلم السيمياء واللغويات، ص ٧٥.

(٣) نزار قبّاني: «قالت لي السمراء»، بيروت، منشورات نزار قبّاني، ط ١، ١٩٤٤، وهو أوّل ديوان نشره نزار قبّاني في العام ١٩٤٤ (من المقدّمة).

التي يحددها كل على اكتشافه. والشاعر  
الغدّ يقصد الإيقاع في عنوانه، لأنّه يعرف  
أنّ الحسّ الإيقاعيّ يجب أن يفرض تأثيره  
من اللحظة الأولى لدى القارئ.

واللافت الثاني في العنوان هو أنّه بسيط  
الأداء اللغويّ فلا تحويل فيه سوى تأخير  
الفاعل، وقد تأخّر الفاعل هنا للسبب  
الإيقاعيّ الذي ذكرناه، أمّا المفعول به لفعل  
القول فهو مضمّر، يترك القارئ أمام الحيرة  
الجميلة لمعرفة كلام السمرء الذي هو في  
الوقت عينه مضمون الديوان. المضمون كلّ  
كامن في المفعول به المضمّر لفعل القول  
كما يوحي به العنوان، إذ يخرج المفعول به  
من المركّب الجمليّ ليصير حالة معنويّة  
تحتضن مضموناً بكماله. إذ «إنّ استخراج  
محتوى مضمّر ما، هو أن يتكبّد الشخص  
الذي يفكّ الترميز فائضاً من العمل التأويليّ  
الذي يساوي فائض العمل الإنتاجيّ الذي  
يتطلبه ترميز مثل هذا المحتوى»<sup>(١)</sup>.

والعنوان متلائم إسنادياً، فلا صورة  
فنيّة ظاهرة فيه. لذا فالنقطة المهمّة هي  
الإيهام الذي يحمله العنوان في مضامينه.

إنّ الإيهام في اللغة بحسب الوطواط يأتي  
بمعنى التخيل «ويكون بأن يذكر الكاتب أو  
الشاعر في نشره أو نظمه ألفاظاً يكون لها  
معنيان أحدهما قريب المعنى والآخر غريب  
فإذا سمعها السامع انصرف خاطره إلى  
المعنى القريب بينما يكون المراد منها هو  
المعنى الغريب»<sup>(٢)</sup>. والإيهام الأساسيّ الذي  
تقصّده الشاعر جاء عبر الإتيان بكلمة  
«السمرء»<sup>(٣)</sup>، وعبر إسناد فعل القول إليها،  
أي جعلها هي تقوم بالمبادرة. والرجل  
الشرقيّ يحبّ المرأة التي تقوم بالمبادرة  
العاطفيّة لأنّ هذا الفعل نادر لدى النساء  
الشرقيّات تقليدياً، ولدى النساء بشكل عامّ،  
فالمعروف أنّ المرأة تدفع بالرجل إلى أن  
يكون هو المبادر إجمالاً.

و«السمرء» في التراث الحضاريّ  
والثقافيّ العربيّ معلم عاطفيّ كبير، ذو  
دلالات قويّة على رأسها ما توحى به هذه  
الأنثى من الجاذبيّة والإغراء الشكليّين، فكأنّ  
السمرء هي الليل الغامض الحامل الأسرار  
الجماليّة في كلّ خفاياها. والسمرء في  
الشعر العربيّ تراثيّة، يقول سعيد عقل فيها:

(١) كاترين كيربرات - أوريكيوني، «المضمّر»، ترجمة ريتا خاطر، المنظّمة العربية للترجمة، بيروت، ط ١، ٢٠٠٨، ص ١٩.

(٢) عن: أحمد مطلوب: معجم المصطلحات البلاغيّة وتطوّرها، بيروت، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، مادة [الإيهام].

(٣) السمرء مؤنّث الأسمر، وقيل إنّ السمرء مأخوذة من السمر أي ظلّ القمر لأنّه متوسّط بين البياض والسواد. محيط المحيط [س م ر].

بساطته يختصر الحالة النفسية الشعريّة المعيشة لدى الشاعر في فترة شبابه التي سبقت أو تلت نشره ديوانه الأوّل: قالت لي السمراء.

## ٢ - قصائد<sup>(١)</sup>.

عنوانٌ نكرة. والنكرة تتميز بأنّها الأقرب إلى المجهول من المعرفة، والنكرة هي الأساس والمعرفة متحوّلة منها<sup>(٢)</sup>. والنكرة فيها إضمار وتشويق، لأنّها البداية والمعارف تأتي بعدها، والنكرة تحمل الخوف أحياناً وتشعل الرغبة في الاكتشاف. في عنوانه «قصائد»، لا تأتي النكرة لتخبرنا أنّ المضمون هو قصائد، إنّ ديوان ومضمونه لا يمكن أن يكون إلاّ القصائد. لكنّ النكرة التي تأتي صادمة بهذا الشكل، ترد لتوحي بما يتبع من صفات ممكنة لها أو مبتدأ يسبقها، ويمكن أن يكون الاحتمال الأوّل: هذه قصائد. وهو احتمال ضعيف، ويعطي القيمة للقصائد. والنكرة «قصائد» المفردة الوحيدة في العنوان توحي بعناوين أخرى هي الآتية: قصائد خارقة، قصائد ذات قوّة، قصائد مذهلة، قصائد بليغة... وبذا يكون المضمون هو النعت المحذوف للنكرة التي تصبح شبيهة

«سمراء يا حلم الطفولة وتمنّع الشفة البخيلة»، ويقول يحيى توفيق حسن: «سمراء رقي للعليل الباكي وترفقي بفتى مناه رضاك»... والسمراء شرقية تقليدياً، والعرب سمر ونسأؤهم سمر أو فيهنّ بياض على سواد وخصوصاً سواد الشعر والعينين. وهذا كان موضوع إغراء. إنّ كلمة السمراء الواردة أساسية في عنوان ديوان شعر لنزار قبّاني لا يمكن أن تكون اختياراً عفويّاً سهلاً، وإنّما المقصود منها إثارة الجاذبية في ذهن القارئ بالفعل نفسه الذي تثيره السمراء من جاذبية في ذهن الشاعر. ونحن متى دخلنا إلى القصائد الثمانية والعشرين في الديوان نجد أنّها في معظمها ذات عناوين إغرائية، أي إنّ العناوين تظهر وقوع الشاعر في الإغراء كما في مثل: «مذعورة الفستان، مكابرة، الموعد الأوّل، أنا محرومة، اسمها، غرفتها، حبيبة وشتاء، فم، رافعة الزهد، نهداك...» إنّ الشاعر أراد من خلال ذكر السمراء في العنوان نقل الإغراء والشهوة كلّها التي تحملها أبيات قصائده بشكل يبدو هادئاً في بنية العنوان السطحية لكنّه إيهامي قويّ في بنيته المعنوية العميقة، فهو بالرغم من

(١) نزار قبّاني، قصائد، بيروت، منشورات نزار قبّاني، لا ط، لا ت.

(٢) يقول ابن الأباريّ «إنّ النكرة هي الأصل، لأنّ التعريف طارئ على التنكير»: ابن الأباريّ، أسرار العربية، بيروت، دار الكتب العلمية، ط ١، ١٩٩٧، ص ١٧٥.

بالمعرفة إثر وضع الاحتمالات النحويّة في مكانها بعد النكرة، ويكون العنوان النكرة لوحة شبه غامضة بحاجة إلى النظر فيها طويلاً لفهم معناها، فالقارئ بحاجة إلى الغوص على الديوان عميقاً ليعرف ما إذا كان هذا العنوان يستحقّ هذه النكرة المشعّة على غلافه.

### ٣ - أبجدية الياسمين<sup>(١)</sup>.

عنوان يتضوّع عطراً طبيعياً، يخرج الضوع فيه من رنة الحرف الجميل، في مركّب إضافي هو في تقديره الأقرب خبر لمبتدأ محذوف، والتقدير: «هذه أبجدية الياسمين»، أو مفعول به على توهم الفعل والتقدير خذوا أبجدية الياسمين أو إليكم أبجدية الياسمين على تقدير اسم الفعل. والمركّب الإضافي هو مركّب معرفة، بإضافة النكرة إلى المعرف بـ«أل» التعريف، والجميل فيه أنّ الإيقاع المحتمل فيه منقسم إلى تفعليتين محتملتين، هما: أبجديّ (فاعلات) و تلياسمين (مستفعلان). يتميّز الإيقاع الأوّل بخلوّه من أحرف المدّ، فهو سريع الانطلاقة، فيما الثاني فيه حرفاً مدّ هما الألف والياء، ممّا يسمح بإطالة النفس في اللفظ للاستمتاع باستنشاق عطر الياسمين في الخيال عبر إعطائه الوقت

ليعبر العطر مع لفظه في الذاكرة. يبرز حرف الياء في اللفظة الأولى البعد الصوتي الأوّل للعنوان فيتّصل في ثلاثة مواقع: أبجدية ال يا سم ي ن، فنسمع (ي) تليها (يا): فيها نموّ نغمي للي الأولى، ثمّ (إي) وفي تحوّل من اللين إلى المدّ في الحرف عينه، وفيه ربط للحرف الذي يشكّل قطبة العنوان الظاهرة، وباقي الحروف رُفعت صوتياً عليه.

العنوان في معناه مفرح تتأزّر فيه لفظتان لتحملا الفرح والجمال عبر الصورة المستعارة، إذ يصبح الياسمين صاحب لغة في اختيار معجمي رائع، فالشاعر لم يقل لغة الياسمين بل أبجدية الياسمين، هو لم يرد أن يسمع لغة الياسمين بل أن يستعير أبجدية الياسمين ليكتب شعره الخاصّ بلغة الياسمين العطر.

٤ - الشعر قنديل أخضر<sup>(٢)</sup>، يتميّز هذا العنوان بأنّه ثلاثي المفردات، تركيبه جملة اسمية، مبتدأ معرف بـ«أل»، ميّزه الشاعر باللون البرتقاليّ على غلاف زيتي وترك الباقي باللون الأسود وفي هذا إشارة إلى تمييز المبتدأ عن الخبر، أمّا الخبر فهو نكرة موصوفة، منون؛ أمّا تفعيلات العنوان الاحتمالية فهي: مستفعلن فعّلن فعّلن / أششعرقن ديّلن أخضر.

(١) نزار قبّاني، أبجدية الياسمين، بيروت، منشورات نزار قبّاني، ط١، ٢٠٠٨.

(٢) نزار قبّاني، الشعر قنديل أخضر، بيروت، منشورات نزار قبّاني، ط١٦، ٢٠٠٠.



ينقسم العنوان فنياً إلى قسمين، ففيه صورتان: الشعر قنديل، تشبيهه بليغ، والقنديل أخضر وهي أقرب إلى الكناية.

دلاليًا يعتبر اللون الأخضر حامل الإشكالية الكبرى في هذا العنوان، فأن يكون الشعر قنديلاً، فكرة واضحة بأن الشعر يضيء في الظلمة والظلمة هنا هي ظلمة معنوية... أما أن يكون القنديل أخضر، ففي اللون الأخضر موصوفاً به القنديل مزيج جديد، الأخضر ضوء السبيل المفتوحة، مريح، مهدئ. وهو لون النبات، فيه فرح الحياة والنمو، فكيف به نور قنديل.

من هنا يفتح اللون الأخضر الأفق على مضمون القصائد، فيوحي بأنها قصائد خضراء، أو أنها مرسومة باللون الأخضر، أو أنها موضوعة في إطار أخضر أو أنها لوحة متوهجة باخضرار الشعر، وهذا يعني أن على القارئ أو السامع أن يتلقى شعر هذا الديوان في ضوء قنديل يسكب نوره خضرة ناضرة على الفكر الذي فيه.

#### ٥ - الرسم بالكلمات<sup>(٣)</sup>.

العنوان مركّب اسمي، هو في التأويل الأقرب خبر لمبتدأ محذوف يليه شبه جملة.

المبتدأ واقع صوتياً في إطار تفعيلة طويلة تتألف من أربعة مقاطع: مس تف ع لن. الشعر قن، بينما الخبر واقع في إطار تفعيلتين قصيرتين راقصتين: فعلن فعلن، ممّا يوحي بضرورة البطء والضغط الصوتي عند لفظ المبتدأ ثم تراخي النبذة تالياً وتسريعها. والعنوان اسمي يتألف من أسماء ثلاثة: اسم جنس واسم آلة وصفة على وزن أفعل. الحرف الأبرز فيه هو الراء الذي يرد ملفوظاً مرتين: واحدة في ختام المبتدأ والثانية في ختام التركيب: الشعر/ أخضر. وهو مضموم في المرة الأولى وساكن عند الوقف في الثانية. وصوت الراء يتميز بكرّته فهو صوت مجهور لثويّ مكرّر<sup>(١)</sup>، والراء الأولى يقطع موجاتها الضمّ، فيما الراء الثانية تأتي لتعوض عن الانقطاع الأوّل عند لفظها ساكنة، فيأخذ الحرف الممتدّ إلى الشعور حقّه بصوته كما يليق. والارتجاجة المقصودة هنا هي ارتجاجة بسيطة لكنّها بارزة.

أما بالنسبة إلى لفظة قنديل فكان بإمكان الشاعر مثلاً أن يقول «مصباح»، لكننا نفقد رقة اللام<sup>(٢)</sup> وسلاستها وانسيابها بعد حرف المدّ الياء.

(١) الصامت ر: مجهور لثويّ مكرّر: هيام كريدية، الألسنية - الفروع والمبادئ والأعلام، بيروت ط ١، ٢٠٠٣، ص ١٤٠.

(٢) الصامت اللام، أسنانيّ - لثويّ، جانبيّ، مجهور. المرجع نفسه. ص ١٣٨.

(٣) نزار قبّاني، الرسم بالكلمات، بيروت، منشورات نزار قبّاني، لاط، لا ت.

الإيقاع المرّجّح هو: الرسم بل (مستفعلن) كلمات (فعلان). وهو إيقاع لافت وجميل وحيّ.

لم يعنون الشاعر: «الرسم بالكلام»، الكلمات جمع مؤنّث سالم، أجمل وأوسع، لأنّه جمع تبقى الكلمة المفردة حرّة فيه من ضمن الجماعة. والجمع المؤنّث السالم يوحي بتطابير الكلمات، كأنّ كلّ كلمة تمثّل لوناً معيّنًا.

إنّه عنوان القصيدة الأولى في الديوان، وقد اختاره الشاعر لقوّة تعبيره. وقد ورد في البيت الأخير:

كلّ الدروب أمامنا مسدودة  
وخلصنا في الرسم بالكلمات<sup>(١)</sup>

الرسم هو صناعة اللوحة وتجسيد الأشكال بالألوان، واللوحة هنا هي لوحة الجمال، لوحة الحياة، لأنّها تفتح الدروب المسدودة، هي طريق الخلاص إلى حياة حرّة جميلة. طريق إعتاق من العبوديّة وإطلاق في عالم خاصّ ضمن العالم المسدود. الكلمات في الديوان هي ألوان، الألوان رموز الجمال والفرح، القصائد لوحات مرسومة تتماوج في النفس تماوج قوس القزح في سماء النفس.

لكي تصبح الكلمة لونًا، يجب أن تُكتب

بفرح، بمعاناة إنسانيّة تلد جمالاً وعمقاً وتأثيراً في النفس. كلّ قصيدة لوحة مختلفة من ضمن الأسلوب الواحد. لنزار أسلوبه الخاصّ في الرسم بالشعر. القصيدة اللوحة، تسمّر القارئ أمامها، تطرح عليه مجموعة كبرى من الاحتمالات، تسيطر على عقله، تمسك به من شعوره، تراوده، تسيطر عليه فلا تتركه إلاّ مربوطًا بها بخيط رفيع، فإذا أفلت لا مناصّ من أن يعود.

قصائد نزار في هذا الديوان فيها ألوان فرحة وألوان حزينة وألوان طبيعة، وألوان دافئة وألوان قويّة، وألوان مريحة خفيفة... فيها جميع الألوان. هو يعرف نفسه كيف يجعل الكلمات تمارس فنّ الرسم في العقول بحيث تعود لا تمحى مهما حاول النسيان استباحتها بسلطانه.

## ٦ - مكلّلة بالشوق<sup>(٢)</sup>.

أولى إشارات العنوان هي اسم المفعول مكلّلة، وإيقاعه: مفاعلتن فعّعلن / مكلّلة بشششوق. وهو خبر لمبتدأ محذوف لأنّ الخبريّة تفرض قوّة حضورها فيه. وفي العنوان محاكاة للعبارة الآتية: مكلّلة بالشوك، (إكليل السيّد المسيح)، وهي محاكاة جناسيّة، بتغيير حرف واحد، يغيّر التمثيل الثاني فيها المعنى في الكلمة<sup>(٣)</sup>.

(٢) باسمه بطولي، مكلّلة بالشوق، لا م، ط، ١، ١٩٩٦.

(١) م. ن.، ص ١٧.

(٣) في الانبناء الثاني أو التمثيل الثاني تحلّل المونيمات إلى وحدات صغرى أو دنيا ليس لها معنى تسمّى الفونيمات، =

(القاف هو الجواب الصوتي العمقي للكاف وهما صوتان غاريان، بمعنى أنّ الحرفين من فصيلة صوتية واحدة)، إذ إنّ تغيير حرف واحد، يغيّر معنى التعبير كلياً فينقله إلى حالة الصورة كما هي الحال هنا، فقد أصبح لدينا استعارة بالاسم، حيث يأخذ الذهن وقته ليعيد تنظيم الفكرة التي تأتي إليه، مفكراً بالشوك أولاً، وهي فكرة معيارية واضحة، ثمّ متدرّجاً إلى فهم إكليل الشوق، وفيه انتقال من الألم إلى الحبّ وإلى تغيير معنى الإكليل من إكليل ألم إلى إكليل حبّ. ويتغيّر معنى الإكليل فيصبح حالة شغف وليس شكلاً مادياً يوضح على الرأس، الإكليل هنا هو شعور يصيب الجسم كلّه ويترك أثره الفرح فيه.

#### ٧ - لماذا تركت الحصان وحيداً<sup>(١)</sup>.

أول ما يلفت الانتباه في العنوان هو أنّه تركيب استفهامي مصدر بأداة الاستفهام «لماذا». الاستفهام في العنوان يخلّصه من معناه الخبري، والعنوان في الأساس خبر يختصر المضمون، وكلّما كان العنوان قادراً على حمل المضمون، كان ناجحاً. إذًا، العنوان هنا تركيب إنشائي يوحى بالغموض منذ البداية ولا يفهم المضمون

من خلاله، بل يوحى بالغموض، وهذه قيمته المعوّضة عن فقدانه خبريته.

صيغ العنوان صوتياً على تفعيلية المتقارب «فعولن»: لماذا / تركتُ / حصان (فعول) / وحيدن.

يتميّز العنوان بالملاءمة الإسنادية، شكلياً، ولكنّه يحفل بالايحاءات الكثيرة التي تلخّص معنى الديوان بكماله.

هذا السطر وارد في قصيدة «الصبّار»<sup>(٢)</sup>، في سياق حزين يدور فيه حوار بين الوالد وابنه وهما في طريق الهجرة من فلسطين قسراً. وكان الابن يسأل أباه أسئلة كثيرة عن التهجير وأسبابه. ثمّ يطرح عليه السؤال: «لماذا تركت الحصان وحيداً؟». الأب يعطي إجابة هي أنّه ترك الحصان لئلاّ يترك البيت فارغاً وميتاً.

السؤال العنوان في سياق القصيدة يحمل ألم الشعب المهجر من أرضه بأكمله وكلّ أملّه أنّه سيعود يوماً إلى أرضه. السؤال المطروح على لسان الابن في سياق خطابي طويل من الأسئلة، يأتي مفاجئاً، فالأب أعطى ابنه كلّ الأجوبة المقنعة شكلاً

= ولكن لها وظيفة فارقة أو مميّزة أي إنّها تفرّق بين معاني المونيمات. هيام كريدية، الألسنية - الفروع والمبادئ والمصطلحات، ص ٢٠.

(١) محمود درويش، لماذا تركت الحصان وحيداً، بيروت، رياض الريس للكتب والنشر، ط ٢، ١٩٩٦.

(٢) م. ن.، ص ٣٣.

عن أسئلة ابنه، حول الرحيل، إلا هذا السؤال، اضطر الأب فيه إلى اختراع جواب، لا يبدو مقنعاً، فالحصان سيموت، والولد لن يعرف أن الحصان الذي يتعلّق قلبه فيه سيموت. قد يموت من الجوع أو من أيّ سبب آخر، وقد يقتل... الحصان في هذا السؤال هو الوطن، القرية، البيت، كلّ الأمور التي تركت وحيدة، في هذا الاضطرار المفاجئ للرحيل. هذا على الأغلب ما يُظهر بوضوح اختيار الشاعر هذا الاستفهام المركزي ليكون عنواناً لديوانه.

#### ٨ - فتافيت امرأة<sup>(١)</sup>

فتّ الشيء يفتّهُ فتّاً: دقّه وكسره بالأصابع، فهو فاتّ. والفتات هو ما تفتّت من الشيء المفتوت. والفتوت والفتيت هو المفتوت<sup>(٢)</sup>. عنوان الكتاب هو عنوان القصيدة الرابعة فيه، وقد يكون الاختيار وقع عليه، لأنّ الشاعرة تعرف أنّ فيه مضموناً تاريخياً يطرح إichاءات قويّة. يحمل العنوان مضمون قصائد الديوان بكماله، ويجعلك تدخل إلى الديوان وأنت في جوّ المعنى العامّ. ففيه وضوح تامّ لموضوعه، وهو موضوع المرأة الشرقيّة ضحيّة الرجل عبر التاريخ وأمته وأسيرته وذبيحته، زوجة وأختاً وابنة و... وأمّاً

أيضاً.. فالزوجة المحترقة هي أمّ محترقة من رجلها على الأقلّ. العنوان الواضح الخالي من الغموض في اختصاره المضمون لا يخلو من الجاذبيّة الأدبيّة القويّة التي تحمل تأثيراً ضمنياً قوياً في معانيها. إنّه عنوان أدبيّ ذو نفحة تاريخيّة؛ إنّ كلمة «فتافيت» هي اختيار مبنيّ على تاريخ في فنّيّتها، وهي صورة استعاريّة قويّة الجذب، فهي اقتربت من العاميّة اقتراباً كبيراً لتظهر الكيان المفتوت والمفتّت والمكسر بالنسبة إلى المرأة في الشرق. والملاحظة الثانية في العنوان ذي اللفظتين، هي المضاف إليه «امرأة» الوارد في صيغة النكرة، والشاعرة لم تقل «فتافيت امرأة شرقية» بل اكتفت بكلمة «امرأة»، لتعبّر عن هذه المرأة الشرقية النكرة التي هي كلّ امرأة في تاريخ هذا المشرق العربيّ، في «عصر التنك»<sup>(٣)</sup>، الذي يحتقر المرأة ويشيئها.

والمرأة المفتوتة في الديوان، تكسر رخامة قبرها وتخرج للمواجهة<sup>(٤)</sup>، إنّها مجنونة، مقهورة الجسد في حبّها كملايين النساء كما تقول، وهي مشدودة الأعصاب ضائعة كالسّمك الضائع في عرض البحار<sup>(٥)</sup>، وهي تعاني من جهل الحبيب إيّاها وتدعوها إلى الشعور بها وفهم عالمها

(١) سعاد الصباح: «فتافيت امرأة»، بيروت، ط٥، ١٩٨٩. (٢) محيط المحيط: [فتّ].

(٣) فتافيت امرأة، ص ٢٤.

(٥) م. ن.، ص ٢٦.

الغني، هذا العالم الأنثوي الضحية، الذي لم يره الرجل الشرقي لأنه لم ينظر ولا ينظر ولا يريد أن يرى إلا الخارج، هي تدعوه إلى اكتشاف كنوزها الشعورية الجريئة وقواها الفنية ومواهبها الروحية. إن تجاهل الرجل كما يبدو لنا من خلال القصيدة هو أكثر ما يفتت المرأة، حين ينظر إليها على أنها شكل ومتاع وقطعة حلوى<sup>(١)</sup>.

والمرأة في الديوان لا ترفض الاستسلام للرجل بل هي مستعدة للخضوع لحبيب يفهمها ومستعدة لأن تسلّمه مملكتها العاطفية والنفسية والعقلية إذا فهم قلبها وحاول أن يقرأ عمقها العاطفي<sup>(٢)</sup>. وهي البدوية الثائرة الهاربة من تاريخ قبلي ظالم، التي ترجو من الرجل أن يكون رجلاً لا ذكراً، وأن يتخلّى هو عن تاريخه الباطش لتنسى هي تاريخ ظلمه إياها<sup>(٣)</sup>، ترتفع الشاعرة إلى حالة من الحب السوي مع حبيب يفهمها<sup>(٤)</sup>، تعيش معه فرح الغرام وذكاء اللقيا، قبل أن تقلب الصفحة الصحيحة ويغرق المجتمع الذي

تتحدّث عنه بالنفط والمال ويعود الرجل إلى غرقه في تشييء المرأة الغربية وإهمال ابنة مجتمعه من جديد<sup>(٥)</sup>. المرحلة الأخيرة من الفتات هي حالة امرأة مفتتة تبكي على رجال بادوا وكانوا رجالاً في تاريخ العرب وهي تبكي غياب الرجال في هذا العصر<sup>(٦)</sup>.

#### ٩ - قصائد علي ورق الخريف<sup>(٧)</sup>

يتميّز العنوان باستهلاله بلفظة «قصائد» النكرة، وهي نكرة تترك المجال مفتوحاً أمام تخيل هذه القصائد<sup>(٨)</sup>. إن النكرة هنا تعطي القصائد معاني متخيّلة كثيرة فائقة الكثرة، غير مفهومة الأحوال، هل هي قصائد شاردة، تائهة، مغرمة، جريئة؟؟ إنّ الذهن يشرد ويتيه بفرح مع تيه هذه القصائد وشرودها؛ إنّها قصائد تطرح في تكوينها شبه لغز، نكرة جميلة مفتوحة المعاني غير مبهمة، أو غامضة، إنّها نكرة مفتوحة على المتخيّل، ويحصل الانتقال من المرفوع الواحد الوحيد في العنوان إلى الجرّ الذي يحمل معنى ارتماء القصائد على ورق الخريف، وورق الخريف ذو دلالة

(١) م. ن. : ص ٣٣-٣٨.

(٢) فتايت امرأة: ص ٦٧-٧٤.

(٣) م. ن. ، ص ١١٧-١١٨.

(٤) م. ن. ص ٣٩-٤٦.

(٥) م. ن. ، ص ٧٧-١١٤.

(٦) م. ن. ، ص ١٢٤-١٣٠.

(٧) جورج غريب: «قصائد علي ورق الخريف»، بيروت، دار طعنة، ط ١، ١٩٩٤.

(٨) النكرة منكثرة الأشخاص على قول ابن الزملاكاني، يتقاذف الذهن من مطالعها إلى مغاربا، وينظرها بالبصيرة من منسما إلى مغربها، فيحصل في النفس لها فخامة وتكتسي منها وسامة. وهذا فيما ليس لمفرده مقدار محصور بخلاف المعرفة فإنّه محصور بخلاف المعرفة فإنّه لوحد بعينه يثبت الذهن عنده ويسكن إليه. تراجع: أحمد مطلوب، معجم المصطلحات البلاغية وتطورها، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٩٦، ص ٣٨٤.

رائعة هنا، في هذا المجاز اللافت، حسياً  
أولاً: لونه الأصفر والحنين في تعبيره  
والسويداء العذبة حوله، وشكله المرمي على  
قارعة الطريق، واللوحة التي يمتثلها في  
الذهن وفي الواقع. والخريف هو الفصل  
الأخير، وهو فصل الختام، وهو شيخ  
الفصول وعجوزها، ففيه ارتماء ورؤية  
مسبقة للنهاية. وورق الخريف هنا هو أيام  
عمر الشاعر في شيخوخته الجميلة المثمرة  
التي ما زالت تنتج القصائد، فليس الخريف  
هنا خريف موت، إنه خريف عطاء، إنه  
سقوط للأيام أحرفاً على الورق الجميل، إنه  
خريف العمر الرائع لأنه ما زال فصل ثمر  
وهو ثمر أينع وشجر ما زال يعطي أفضل  
ثماره على الإطلاق وأنضجها.

من حيث إيقاعية العنوان، نلاحظ أنه  
مركّب على تفعيلة المتقارب، في حال سكّنا  
لفظة «قصائد»، فنقرأ إيقاعياً: قصائدُ / على  
و / رقل خ / ريف فعولن / فعول / فعول /  
فعل

وهذا ما يدلّ إلى أنّ الشاعر استهلّ  
إيقاعه من العنوان، وخصوصاً أنّ الشعر  
كلّه موزون في داخل الديوان.

إنّ قصائد الديوان هي خلاصات، من  
هنا تأتي أهميتها في أنها تعطي الدروس  
الأخيرة في حياة الشاعر، هي القطاف  
الناضج الجميل، وهي متنوّعة المعاني،  
فالخريف هنا هو العهد الأخير في حياة

الشاعر، وأوراقه هي أوراق ما قبل الرحيل،  
ومعانيه خلاصات في الحياة فلدينا: تعبير  
عميق عن معنى الألم والموت والقيامة في  
القصيدة الأولى، وفكرة رفيعة عن النحت  
والنحات في قصيدة «الصخر الباكي»،  
وافتحار بلبنان وبأدبائه في قصيدة  
«الأقلام المغنّية»، وفكر سياسيّ مستذكر  
كما في قصيدة «لبنان الجرح وغرارة  
القصب» وهي شكر لفئة سياسية على  
تكريم الشاعر، وقصائد مناسبات كما في  
قصيدة تكريم أحد الرهبان «ملاحم عظماء  
المسيحية»، وتكريم الجيش اللبناني «جيش  
لبنان»، إلى الأناشيد الملحنّة «تشرين ٩٣»،  
والعاطفة الوجدانية لبلدة الشاعر وهي  
الدامور «دامور»، والثناء والتذكّر «عروسة  
الشوف» التي يتذكّر الشاعر فيها الأديب  
مخايل الغريب، وهي منبرية وقد ألقاها  
الشاعر على منبر مدرسة الحكمة في  
بيروت سنة ١٩٩٣، إلى الغزل في  
«عصفورة النار»، و«صبا» و«شعرها  
المجنون»، والغزل الإباحي في «العمر  
القصير» والثناء في «أرزة من تنّورين». بعد  
نهاية الديوان يتّضح لنا تنكير  
«قصائد»، التنكير الذي يضحّم قيمة كلّ  
قصيدة محاولاً أن يعطيها حجماً فائقاً يراه  
الشاعر لها، إنّها أوراق خريفية يطويها  
الغريب ويطوي فيها قدرة أدبية كبيرة،  
ويمشي...

## ١٠ - أجساد من التاريخ<sup>(١)</sup>

أجسادٌ من التاريخ. الإيقاع المحتمل هو: مفعولن مفاعيلن، (أجسادن منتتاريخ) مع احتمال اعتبار التفعيلة الأولى مفاعيلن، وذلك بتقدير الهمزة المفتوحة المحذوفة واردة في انسيابية النفس مع البداية كتهيئة إيقاعية بالنفس، فتكون أجسادٌ في اللفظ وكأنّها (أجسادٌ)، وذلك بلفظ الـ «أ» الأولى بشكل خفي.

كلمة أجساد جمع تكسير نكرة للمفرد جسد، وهي موحية جنسياً، لأنّها توضح ضمناً أنّها أجساد نسائية، إذ ندر من تناول أجساد الرجال في الشعر. وكلمة أجساد تعرب خبراً لمبتدأ محذوف وهذا هو الأرجح، والتقدير هذه أجساد من التاريخ، ويمكن تقديرها خبراً لأنّ المحذوفة فيصبح التقدير (إنّها أجساد من التاريخ)، كما يمكن اعتبارها مبتدأ نكرة موصوفة بتقدير نعوت بعدها. فكلمة أجساد بهذا الشكل من الأداء، تعني عظمة هذه الأجساد، النكرة توحى بهذه العظمة لأنّها متّصلة حكماً بنعوت بعدها، والتقدير: أجساد رائعة، خارقة، هائلة، نادرة عملاقة.. إلخ. إنّها أجساد غير عادية سيرتها عقول نساء غير عاديات، فقد فهمت صاحبة كلّ جسد قوّة جسدها،

فأخضعت هذا الجسد لعقلها الفطن، وأخضعت حقبة من التاريخ لجسدها.

لكلّ جسد في الديوان قصيدة، فالجسد الأوّل في الديوان الأولى هو جسد حواء، التي أخضعت آدم لجسدها فطبعت تاريخ البشرية بهذا الإخضاع. الجسد الثاني جسد عشتروت إلهة الحبّ والشهوة، عشيقّة أدونيس، ربّة الأسطورة. إلى جسد دليلّة « بنت الشياطين» التي جعلت من شمشون الجبّار آلة بين يديها، هي الأنثى «العقوق الخؤون»، إلى سميراميس، ملكة بابل «المصون»، فاليسا ملكة صور، شقيقة بغماليون، فكليوباترة، فالمجدلية، فسالومة بنت هيرودية التي أخضعت هيرودس فقتل المعمدان لأجل جسدها، فشهريزاد وألف ليلة وليلة، فمارلين مونرو، فسيلفا الممثّلة الإيطالية الرائعة، وختاماً وفي بعد معنويّ كبير، السيّدّة العذراء، ذات الجسد النوراني الذي حمل المخلّص في جوفه.

## ١١ - رخام الماء<sup>(٢)</sup>

لغوياً، رخام خبر لمبتدأ محذوف، واقع في مركّب إضافيّ صوريّ فنيّ. في إطار الجملة الاسميّة الخبريّة. بيانياً هي استعارة، قوّة الحذف فيها تسند قوّة الاستعارة، استعارة الرخام للماء، الرخام الصافي

(١) جوزف الغصين ، أجساد من التاريخ، بيروت، ط١، ٢٠١١.

(٢) رخام الماء: جوزف حرب، بيروت، رياض الرّيس للكتب والنشر، ط١، أيلول ٢٠٠٧

يشبه الماء الصافي. هذا نوع جديد من الرخام ينحته الماء. صوتياً نلاحظ تبادل التأثير بين المقاطع الآتية: خا ماء مُل ماء. رخام الماء إيقاعياً تساوي التفعيلة: مفاعيلن. وتقرأ بالإيقاع الموسيقي: ت تك دُم تك. كلمة رخام توحى بالفخامة، والرفاهية والجمال والنحت والإبداع في هذا الصخر الرائع. والعنوان مرتاح ومرسل لفظياً لأنه ممدود وفيه زفير طويل قبل هبوطه على الهمزة.

رخام الماء هو عنوان الديوان وعنوان القصيدة الأخيرة فيه<sup>(١)</sup>، وخلاصتها أنّ الماء هو نحات الحياة، ففي كل شيء حي ظلّ للبحر، لأنّ ماء البحر المتبخّر غيمًا وشتاء هو السبب في هذا الجمال كله. ماء البحر ينحت الخضار في الأرض وينحت الناس وينحت الأنهار والسواقي والجداول والينابيع، وهذه كلها تنحت بدورها جمال الأرض وحياة البشر.

### خاتمة

يمضي الكثير من الأدباء أوقاتاً طويلة لإيجاد عنوان يلائم المؤلف شعراً كان أم نثرًا، وقد يستعين نفر منهم بآخرين في سبيل عنوان كما فعل الياس أبو شبكة حين

حمل ديوانه أفاعي الفردوس مع مجموعة عناوين إلى المعلم بطرس البستاني الذي لم يختار أيًا منها، بل نحاها جانبًا واختار لها هو عنوان أفاعي الفردوس<sup>(٢)</sup>.

لقد حاولت من خلال هذه الدراسة أن أظهر قيمة الجمال الذي يحمله عنوان ديوان شعريّ ما، في محاولة للكشف عن أن الطاقة الإبداعية الكبرى الكامنة في صناعة العناوين. فالعنوان هو المضمون، مضغوطًا بجمال وأناقاة وفنّ، بحيث يصبح تفكيكه متعة تشبه متعة فكّ الشيفرة العسكرية على غموضها. الشيفرة الفنية هنا رائعة، إشارة عميقة غامضة غير معقدة لكنها متكاثفة تحمل الفكر والفنّ كليهما في أحرف قليلة.

لا ينجح الكتاب إن لم يتوازّ العنوان مع المضمون قدرة وجذبًا. العنوان هو الممرّ الأوّل إلى الذهن. هو الباب الموحى بما في الداخل من الجمال، والباب يكون مغلقًا، حتّى يأتي قارئ يدير فيه مفتاحه فيفتحه ويدخل، لذلك نحن بحاجة لبارعين اثنين للدخول، صانع ماهر، وخبير في الدخول إلى الأعماق من دون كسر الباب الأساس أو التسلّل إلى النصّ من النافذة.

(١) م. ن.، ص ٤١٢.

(٢) نقلًا عن شبكة الألوكة الالكترونية، من مقالة بعنوان: عناوين الكتب ومعاناة الكاتب. www.alukah.net



## تَوَعَّلَ الكِتَابَ الإِلِكْتِرُونِيَّ: أَمْرٌ وَّاقِعٌ وَمُسْتَقْبَلٌ وَاعِدٌ

أ. إيمان كرامة

الذَّهَابُ إِلَى المَرْكَزِ المُحَدَّدِ الَّذِي تُقَامُ فِيهِ المَعَارِضُ مَعَ كُلِّ مَا يَسْتَتْبِعُهُ هَذَا الأَمْرُ مِنْ مَشَقَّةٍ وَنَفَقَاتٍ يُمَكِّنُ الإِسْتِعَاذَةَ عَنْهَا بِتَصَفِّحِ المَوَاقِعِ المَعْنِيَّةِ بِالمَعَارِضِ الإِلِكْتِرُونِيَّةِ.

هَذَا عَلَى الصَّعِيدِ الثَّقَافِيِّ العَامِّ، أَمَّا عَلَى الصَّعِيدِ التَّعْلِيمِيِّ الخَاصِّ، فَقد بَاتَ التَّنَافُسُ وَاضِحًا بَيْنَ العَدِيدِ مِنَ المَدَارِسِ عَلَى تَكْرِيسِ نَفْسِهَا رَائِدَةً فِي مَجَالِ الكِتَابِ المَدْرَسِيِّ الإِلِكْتِرُونِيِّ، وَذَلِكَ بِالقَدْرِ نَفْسِهِ الَّذِي بَاتَ التَّنَافُسُ فِيهِ عَلَى إِغْيَاءِ الأَلْوَاحِ التَّقْلِيدِيَّةِ (طَبِشُورٍ أَوْ لَوْحِ أَبْيَضٍ) وَاسْتِبْدَالِهَا بِالأَلْوَاحِ الذِّكِّيَّةِ. وَبِهَذَا المَعْنَى، صَارَتِ المَدَارِسُ تَتَغَنَّى بِمَا لَدَيْهَا مِنْ وَسَائِلِ التَّقَانَةِ الإِلِكْتِرُونِيَّةِ وَمَا يَسْتَتْبِعُهُ هَذَا التَّغَنِّيُّ مِنْ زِيَادَةِ الرِّسُومِ وَالأَقْسَاطِ وَالقُدْرَةِ عَلَى اسْتِجْلَابِ أَكْبَرِ قَدْرِ مِنَ التَّلَامِيذِ نَظْرًا لِمَا تَتَمَتَّعُ بِهِ تِلْكَ التَّقَانَةُ مِنْ مِصْدَاقِيَّةٍ قَدْ تَرَبَّوْا عَلَى أَيِّ مِصْدَاقِيَّةٍ أُخْرَى. وَعَلَيْهِ، كَيْفَ تَطَوَّرَتِ حَرَكَةُ الطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ تَارِيخِيًّا؟ وَمَا هِيَ أْبْرَزُ المَشْكَلاتِ الَّتِي تَحُولُ دُونَ اعْتِمَادِ

### توطئة

لَا نُغَالِي إِذَا قُلْنَا إِنَّ الحَدِيثَ عَنِ الكِتَابِ الإِلِكْتِرُونِيِّ اليَوْمِ لَمْ يَعد يُثِيرُ دَهْشَةَ وَاسْتِغْرَابًا شَأْنًا مَا يُثِيرُهُ الكِتَابُ الوَرَقِيَّ. فَالْحَيْزُ الَّذِي شَغَلَهُ الكِتَابُ الإِلِكْتِرُونِيُّ، فَضلاً عَنِ سَهولِ الوُصُولِ إِلَيْهِ فِي مَجَالِ الحَقْلِ الثَّقَافِيِّ بَعَامَّةً، قَدْ أَتَيْتِ عَلَى بَعْضِ مَا تَرَسَّبَ مِنْ قِيمِ موروثةٍ - قَدْ تَمْتَلِكُ صَوَابِيَّةً مَحَاجِجَتِهَا وَمَرَامِيهَا - بِشَأْنِ مَتْعَةِ الكِتَابِ الوَرَقِيِّ حَسْبًا وَالتَّفَاعُلِ مَعَهُ لِمَسًّا وَرَائِحَةً... وَهَذَا نَحْنُ نَشْهَدُ أَقْوَلُ تَدْرِيجِيًّا لِلجَرَائِدِ الوَرَقِيَّةِ فِي العَالَمِ بِأَسْرِهِ، حَيْثُ أَصْبَحَ بِمِكْنَتِنَا أَنْ نَتَصَفَّحَ جَمِيعَ الجَرَائِدِ إِلِكْتِرُونِيًّا مِقَابِلَ رِسْمِ اشْتِرَاكِ بَسِيطٍ أَوْ بِشَكْلِ مَجَانِي. وَيَذْهَبُ بَعْضُ المَسْتَشْرِفِينَ العَامِلِينَ فِي مَجَالِي الطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ إِلَى أَنَّ مَعَارِضَ الكِتَابِ سَتَتَلَاشَى بِدَوْرِهَا فِي غُضُونِ سَنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ، وَسَتَقَامُ مَعَارِضُ إِلِكْتِرُونِيَّةً بِشَكْلِ مُسْتَمَرٍّ تَجْمَعُ المَعْنِيينَ مِنْ جَمِيعِ دُولِ العَالَمِ فِي ضَرْبِ مِنَ التَّنَاقُفِ الفَعَّالِ، فَضلاً عَنِ تَذَلُّلِ مَشَقَّاتِ السَّفَرِ أَوْ

الكتاب الإلكتروني؟ وبالمقابل، أي فوائد جمّة يُمكن أن يوفّرها هذا النوع من الكتب؟ وهل ثمة حاجة إلى إرشاد الأهل نحو التّوظيف الجديد للتقنيّة الإلكترونيّة؟ وهل تُعدّ البيئة المُستفيد الأكبر من جرّاء اعتماد الكتاب الإلكتروني؟

في توظيف النّصّ والصّورة والصّوت بشكل يتفاعل فيه القارئ مع الكتاب الرّقميّ، ناهيك عن ظهور شبكة الإنترنت وما مثّلته من شبكة موسوعيّة على المستويات كافّة<sup>(١)</sup>.

### ١ - المسار التاريخي للكتاب الإلكتروني

منذ أن أقدم «يوحنا غوتنبرغ» على اختراع الطّباعة الحديثة، وذلك في منتصف القرن الرابع عشر، لم يعد الكتاب غبّ الطّلب كما كان يحصل من قبل، بل غدا يُنتج بشكل كبير، الأمر الذي استدعى تأسيس شبكات توزيع، استدعت بدورها العمل الجادّ على تطوير تقنيّات الطّباعة وآليّات التّوزيع، حتّى أمكن لأيّ مراقب أن يلحظ التّطوّر الكبير في صناعة النّشر حول العالم.

والواقع، أنّ صناعة النّشر قد شهدت تحوّلًا كبيرًا منذ أقدمت شركة أمازون<sup>(٢)</sup> في العام ١٩٩٤ على إيجاد آليّة جديدة لتوزيع وتسويق الكتاب الورقيّ العاديّ عبر شبكة الإنترنت وذلك للتّسهيل على القارئ من عبء النّزول إلى المكتبات واختيار كتاب لشرائه. وفي العام ١٩٩٨ بدأ أوّل توجّه لاستخدام الكتب والمراجع بشكل الكترونيّ، ليظهر من بعدها ما يُعرف بالأجهزة اللّوحيّة، لكنّ هذه الألواح لم تلقَ نجاحًا ولا رواجًا في بادئ الأمر، حتّى قامت شركة Sony في العام ٢٠٠٤ باختراع جهاز لوحيّ لاقى رواجًا واسعًا، تلتها في ذلك شركة أمازون من خلال طرحها جهاز Kindle وهو عبارة عن جهاز مخصّص للمطالعة أحدث ثورة هائلة في مجال الأجهزة اللّوحيّة، ليظهر من بعد جهاز الـ IPAD بنظام IOS وأجهزة السّامسونغ بنظام Android ووصل إنتاج بعض هذه

والواقع، أنّ النّشر الإلكترونيّ لا يعدو كونه التّطوّر الحقيقيّ لصناعة النّشر، بخاصّة مع ظهور أجهزة الحاسوب وانتشارها بشكل واسع في تسعينيّات القرن الماضي، فضلًا عن النّجاح الكبير الذي جسّدته الدّيجيتال ميديا والذي يتمثّل

(١) أحمد رشاد، المدير التنفيذي للدار المصريّة، وأمين صندوق الملتقى العربيّ لناشري كتب الأطفال.

(٢) موقع للتّجارة الإلكترونيّة والحوسبة السّحابيّة. تأسّس في العام ١٩٩٤، وهو أكبر مكاتب التّجزئة القائمة على الانترنت في العالم.

الأجهزة إلى أكثر من ٥٠ مليون جهاز في العالم وهي في تزايد مطرد.

نفسه أي عدم وجود بين محتويات الكتاب الإلكتروني وغيرها.

لكن ما يستحق التوقف عنده هنا، أن التجربة الأميركية السالفة الذكر لا يمكن تعميمها والقول، بالتالي، أن مستقبل الكتاب الورقي في خطر، ذلك أن هناك دولا أخرى لا تقل أهمية عن أميركا قد تراجعت فيها نسبة مبيعات الكتاب الإلكتروني بشكل ملحوظ (انكترا: تراجع نسبة المبيعات من ١٨ بالمئة إلى ١١ بالمئة)<sup>(١)</sup>. لكن التأكيد السابق، لا ينفي على الإطلاق أن المستقبل بالنسبة إلى المؤسسات والجامعات سيكون للكتاب الإلكتروني. وإزاء هذه الازدواجية، لا بد أن نعرض لبعض المشكلات التي تحد من رواج الكتاب الإلكتروني.

وعلى المقلب الآخر، نجد أن العديد من المؤسسات التعليمية ما زالت تواجه الكثير من التحديات من أجل تحقيق التعليم الإلكتروني وتفعيله، وذلك يعود في الأعم الأغلب إلى القنوات الحقيقية لدى كثير من رجال التربية والتعليم المتمثلة بضرورة تكريس القيمة الفضلى للكتاب الورقي. أضف إلى ذلك، تخلف البنية التحتية للاتصالات في العالم العربي الأمر الذي يحول دون استجلاب التجربة الغربية إلى بلادنا، ناهيك عن عدم اهتمام الدارس العربي بشكل عام باستخدام التكنولوجيا المتقدمة، واهتمامه بنيل الشهادة وحسب. وما يؤخذ بالحسبان هنا أيضا، هو عدم انتشار استخدام الحاسوب في كثير من الدول العربية، فضلا عن ضعف الوعي التكنولوجي لدى العديد من الناس، إذ يرون في التعليم الإلكتروني سلبا لمهارات هم في أمس الحاجة إليها حال الاستماع والكتابة والتفاعل مع الأقران وغيرها<sup>(٢)</sup>.

## ٢ - مشكلات تعرفل الكتاب الإلكتروني

لعل أبرز المشكلات التي تحول دون رواج الكتاب الإلكتروني هي مشكلة حقوق الملكية، فضلا عن حقوق النشر والتوزيع. مع العلم أن هذه المشكلة قد تم إيجاد حلول عدة لها، أبرزها عدم إمكانية تحميل الكتاب ولو بصيغة PDF إلا بعد موافقة الكاتب أو دار النشر، فضلا عن التأكد من عدم وجود نسختين متطابقتين من الكتاب الإلكتروني

لعل أبرز المشكلات التي تحول دون رواج الكتاب الإلكتروني هي مشكلة حقوق الملكية، فضلا عن حقوق النشر والتوزيع. مع العلم أن هذه المشكلة قد تم إيجاد حلول عدة لها، أبرزها عدم إمكانية تحميل الكتاب ولو بصيغة PDF إلا بعد موافقة الكاتب أو دار النشر، فضلا عن التأكد من عدم وجود نسختين متطابقتين من الكتاب الإلكتروني

(٢) أحمد رشاد، المرجع نفسه.

(١) أحمد رشاد، المرجع نفسه.

### ٣ - فوائد التّعليم الإلكترونيّ

حقيقة الأمر، أنّ للتّعليم الإلكترونيّ فوائد عديدة لا يُمكن حصرها، لكن يُمكن الإتيان على ذكر أبرزها:

(١) زيادة إمكانية الاتّصال بين الطّلبة في ما بينهم، وبين الطّلبة والمدرسة. فسهولة الاتّصال الإلكترونيّ كان من شأنها أن تُعزّز مجالات النقاش، إذ يكفي اللّجوء إلى البريد الإلكترونيّ من أجل تعزيز الحوار ومعالجة مختلف القضايا وسماع وجهات النّظر المتباينة وإبداء الآراء واتّخاذ المواقف كلّ هذا بيسر تامّ.

(٢) سهولة الوصول إلى العلم، إذ أتاح التّعليم الإلكترونيّ سهولة كبيرة في الحصول على العلم (ولا سيّما التّعلّم عن بُعد أو حضور محاضرات عبر الإنترنت) وفي أسرع وقت ممكن، فضلاً عن مراعاة ظروف الشّخص المتعلّم كافّة.

(٣) الإحساس بالمساواة: فهذا النّوع من التّعليم له فوائد جمة بالنّسبة للطلّاب الذين يشعرون بالخوف أو الخجل أو القلق إبّان أي مناقشة، ويأتي هذا النّوع من التّعليم ليجعل الطّلاب يتمتّعون بجرأة أكبر في التّعبير عن أفكارهم والبحث عن الحقائق<sup>(١)</sup>.

(٤) القدرة على تلبية الاحتياجات الاجتماعيّة، والوظيفة للمُلتحقين بالتّعليم الإلكترونيّ نظراً لما يتمتع به من مرونة وحدّاتية<sup>(٢)</sup>.

(٥) ارتباط التّعليم الإلكترونيّ بحاجات الأفراد التّطبيقية والمهنية والشّخصية والاجتماعية.

(٦) إمكانية تحويل طريقة التّدريس، إذ من المُمكن تلقّي المادّة العلميّة بالطريقة التي تُناسب الطّالب سواء أكانت مرئية أم مسموعة أم مقروءة، ناهيك عن توفير المناهج طوال اليوم وعلى امتداد جميع أيّام الأسبوع<sup>(٣)</sup>.

(٧) يُعدّ التّعليم الإلكترونيّ مظهرًا من مظاهر التّقدّم التكنولوجيّ، ففي عصر الثّورة الصّناعية كان لزامًا علينا الدّهاب إلى المدرسة، أمّا في عصر الثّورة المعرفية فباتت المدرسة هي التي تأتي إلينا في بيوتنا. فهذا النّوع من التّعلّم لا يتطلّب الحضور الفعليّ، فضلاً عن سهولة وتعدّد طرق تقويم الطّالب وتقليل الأعباء الإدارية بالنّسبة للمُعَلّم وتقليص حجم العمل في المدرسة، وهذا ما يطرح جملة مزايا يمتاز فيها أسلوب التّعليم الإلكترونيّ عن أسلوب التّعليم التّقليديّ. فهو، من جهة، يتجاوز

(٣) <http://electronicbook2.blogspot.com>

(١) <http://electronicbook2.blogspot.com>

(٢) <http://electronicbook2.blogspot.com>

المتعلّمين بشكل حادّ لا تستطيع المدارس التّقليديّة استيعابهم وبخاصّة في المراحل المتقدّمة ونعني المرحلة الثّانويّة مدرسيّاً، والمرحلة الجامعيّة لاحقاً. وعليه، يُمكن أن يكون هذا النّوع من التّعليم داعماً لأسلوب التّدريس التّقليديّ، وملائماً للكبار الذين ارتبطوا بوظائف وأعمال بحيث تفرض عليهم وظائفهم وأعمالهم التّغيّب عن صفوف الدّراسة. وبدهيّ القول، إنّ طبيعة المرأة المسلمة وارتباطها بفرضان عليها، في بعض الدّول الإسلاميّة، المكوث في المنزل فيأتي هذا النّوع من التّعليم ليثقف ربّات البيوت ومن يتولّين رعاية المنازل وتربية أبنائهنّ.

هذا على مستوى فوائد التّعليم الإلكترونيّ. لكن ماذا عن إيجابيات الكتب الإلكترونيّة التي توغّلت في مدارسنا إلى حدّ لم يعد بالإمكان ردّها على الإطلاق؟

#### ٤ - فوائد الكتب الإلكترونيّة EBooks

حقيقة الأمر أنّ فوائد الكتب الإلكترونيّة يمكن أن تُدرس على مستويين اثنين: المستوى العامّ، والمستوى الخاصّ ونعني به استخدام أولادنا الكتب الإلكترونيّة في المدارس.

على المستوى العامّ، يُمكن الإفادة من

حدود الرّمان والمكان في العمليّة التّعليميّة ويوسّع فرص القبول في التّعليم العالي وتجاوز عقبات محدوديّة الأماكن. ومن جهة أخرى، يُتيح هذا النّوع من التّعليم إمكانيّة التّغلب على الكثير من العوائق التي تحدّ من إمكانيّة الالتحاق بالتّعليم التّقليديّ شأن الانتظام والتّوقيت والمكان وظروف العمل والعمر ومتطلّبات القبول فضلاً عن كونه يُتيح فرصة الوصول إلى المُعلّم بسهولة ويسر تامّين حتّى في خارج أوقات العمل الرّسميّة.

والواقع، أنّ هذا النّوع من التّعليم يُراعي الفروقات الفرديّة بين المتعلّمين ويُمكنهم من إتمام عمليّات التّعلّم في بيئات مُناسبة لهم والتّقدّم حسب قدراتهم الذاتيّة، وهذا ما يُعزّز إمكانيّة نشر ثقافة العلم والتّدرب الذاتيين في المجتمع والتي بدورها تُمكن من تحسين وتنمية قدرات المتعلّمين والمتدربين بأقلّ كلفة ممكنة، وتخفّف الأعباء الإداريّة وتنجح في تكريس أساليب متنوّعة وفعّالة وأكثر دقّة وعدالة في تقويم أداء المتعلّمين<sup>(١)</sup>.

وبدهيّ القول، إنّ ثمة مبرّرات أدّت إلى ظهور التّعليم الإلكترونيّ ونموّه وإلاّ لما كان قد حقّق هذا النّجاح الباهر، ولعلّ أبرز هذه المبرّرات يكمن في زيادة أعداد

(١) <http://electronicbook2.blogspot.com>

من الكتب مُفيد للأطفال الذين يُواجهون تأخراً في النموّ على مستوى الذكاء الفكريّ، ونعني الأطفال ذوي الاحتياجات الخاصّة. فقد أبدى هؤلاء الأطفال تفاعلاً ملحوظاً، إذ تحسّنت مفرداتهم وقدرتهم على فهم كيفية تقسيم الكلمات إلى أجزاء صغيرة بعد أن استخدموا الكتاب الإلكتروني<sup>(٢)</sup>.

(٢) ثقل الحقيبة المدرسيّة: لقد أمكن - من خلال الاستعانة بالكتب الإلكترونيّة - الاستغناء عن حمولة زائدة وحقيبة مدرسيّة ممتلئة كانت تتسبّب في بعض الأحيان بتقوُّس ظهر العديد من التلاميذ، خاصّة إذا كان صفّهم يقع في إحدى الطوابق العاليّة (الطابق الخامس في بعض المدارس). لقد أصبح بوسع التلميذ أن يجلب كتبه كاملة من دون التذرّع بحجّة النسيان على لوح الكترونيّ لا يبلغ وزنه الـ ٥٠٠ غرام، كما بإمكانه أن يُسجّل جميع الملاحظات على صفحة خاصّة في هذا الجهاز، أو على الكتاب نفسه باستخدام تقنيّة الإصبع.

(٣) يؤمّن الكتاب الإلكترونيّ فرصة أسرع للتواصل مع الأهل، إذ بمقدورهم العودة إلى اللوح الرقميّ أو الإلكترونيّ بسرعة فائقة، فضلاً عمّا يرتبط بهذا الكتاب

الكتب الإلكترونيّة أثناء السّفر، فنحن بإمكاننا أن نُحمّل على أيّ جهاز الكترونيّ آلاف بل عشرات آلاف الكتب، من دون أن نواجه أيّ صعوبة وذلك بخلاف الكتب الورقيّة. أضف إلى ذلك، أنّنا لا نعاني على الإطلاق من مشكلة التخزين على اعتبار أنّ أيّ جهاز الكترونيّ هو مكتبة تتنقّل معك أينما ذهبت أو حلت، على عكس المكتبة الورقيّة التي تحتاج أمكنة واسعة وشاسعة لتخزينها. قل كذلك عن الأثمان، فثمن الكتب الإلكترونيّة غالباً ما يكون زهيداً قياساً إلى الكتب الورقيّة، وفي معظم الأحيان يتمّ تحميلها مجاناً<sup>(١)</sup>. فضلاً عن إمكانيّة التّحكّم في الخطّ أثناء عمليّة القراءة.

هذا على المستوى العام. أمّا على المستوى الخاصّ، أي استخدام الكتب الإلكترونيّة في المدارس فلها إيجابيات عديدة تتمركز في معظمها حول الإيجابيات الثّلاث الآتية:

(١) لا شكّ في أنّ الأطفال يتعلّمون مهارات القراءة من الكتب الإلكترونيّة ذات التّوعيّة التّربويّة الجيدة التي تُعزّز مهارات اللّغة والقراءة والكتابة، لكن ما يُعزّز إيجابيّة هذه الكتب على نحو قاطع هو أنّ هذا النّوع

(١) د. ابراهيم بن عبد الله المحيسن، التّعليم الإلكترونيّ ترف أم ضرورة، ورقة عمل مقدّمة لدوة: مدرسة المستقبل، جامعة الملك سعود، ص ١٦-١٧، رجب ١٤٢٣.

(٢) د. ابراهيم بن عبد الله المحيسن، المرجع نفسه، ص ١٦-١٧.

٦) يُمكن للوح الرقْمِي أن يستوعب مئات الكتب والملفات.

٧) توفير في الثروة البيئية من خلال الحفاظ على الأشجار، وعدم استعمالها للحصول على الأوراق المطبوعة.

٨) السرعة في الوصول إلى المعلومات أو المادة المطبوعة.

مما تقدّم، نجد أنّ الكتاب الإلكتروني حاجة ملحة تنضح بإيجابيات واسعة. لكن هذا لا يعني أنّه لا ينطوي على سلبيات تُقسم بدورها على مستويين اثنين: عام وخاص.

#### ٥ - سلبيات الكتب الإلكترونية

على المستوى العام، يُمكن تلخيص سلبيات الكتب الإلكترونية انطلاقاً من الإيجابيات التي توفرها الكتب الورقية.

فمن جهة، تتمثل القيمة المادية للكتاب الورقي في القدرة على إعادة بيعه، وهذه خاصية لا تمنحنا إيّاها الكتب الإلكترونية، فنحن لا نستطيع إعادة بيع الكتب الإلكترونية.

ومن جهة أخرى، توفر الكتب الورقية سهولة تامة وصحية للقراء، وذلك بخلاف الكتب الإلكترونية التي تتسبب في إيلام العين والتأثير المباشر عليها من خلال الإضاءة وتقنية الحبر الإلكتروني. أضف إلى ذلك، عدم احتياج الكتب الورقية إلى شاحن

من تحميل المفكرة الإلكترونية التي وإن ارتبطت بالكتابين الورقي والإلكتروني إلا أنّ فاعليتها تبقى أعمق وأكثر فاعلية على مستوى الكتاب الإلكتروني من حيث عدم القدرة على التدرّج بالنسيان وتقويت فرصة دراسة الدروس وحلّ الفروض والواجبات.

أضف إلى ذلك، إمكانية قراءة الطفل للكتاب نفسه مراراً من دون أن يصيبه تلف، فضلاً عن استمتاع الأطفال بالكتاب الإلكتروني أكثر من استمتاعهم بالكتاب الورقي.

وبشيء من التفصيل نرى أنّ لاستعمال الكتب المدرسية فوائد تفصيلية خاصة تتجلى في النقاط الآتية:

- ١) عدم نفاذ الكمية المطلوبة من الكتب.
- ٢) يرى حوالي ٨١ بالمئة من المعلمين أنّ اللوح الرقْمِي يدعم التعليم الصّفي.
- ٣) تمتلك بعض الكتب الإلكترونية خاصية الاستماع، إذ يُمكن للتلميذ أن يسمع النصّ بالإضافة إلى قراءته، وهذا ما يُساعد بالتحديد ذوي الصّعوبات التعلّمية كما أسلفنا القول آنفاً.

٤) تحديث المعلومات والمواضيع يتمّ بشكل أسهل.

٥) الاقتصاد في المصروف، فالكتب الرقْمية أقلّ ثمنًا بـ ٥٠ إلى ٦٠ بالمئة من الكتب الورقية.

للقراءة، وذلك بخلاف الكتب الإلكترونية التي إن نسيت شحن الجهاز أو كنت في مكان لا تتوفر فيه مصادر الطاقة الكهربائية فإنك ستُحرم من متعة القراءة.

على المستوى العام. أمّا على المستوى الخاص. فللكتاب الإلكتروني سلبيات عدّة يتمثل معظمها في ما يأتي:

(١) عدم استعمال الأهل استراتيجيّة قراءة مفيدة عند مشاركتهم أبنائهم في مطالعة الكتاب الإلكتروني. فقد أظهرت الدّراسات<sup>(١)</sup> أنّ الأهل لا يتحدّثون إلى أبنائهم أثناء قراءة الكتب الإلكترونية، فهم لا يُناقشون موضوع القصّة، وكيف يرتبط بحياة الطّفل، وإنّما يتمركز الحوار حول أضرار الضّغط واللمس والألعاب الموجودة والميزات التّفاعليّة في الكتاب الإلكتروني. ومن المعلوم أنّ الطّفل أحوج ما يكون إلى والده (أو والدته) ليُحاوِره حول أبعد ما هو مذكور في فقرة في الكتاب، أي ربط أحداث القصّة بتجربة شخصيّة.

(٢) يُتيح الكتاب الورقيّ، ولا سيّما القصّة، للطّفل إمكانيّة تحليلها والرّبط بين أحداثها. فقد أثبتت الدّراسات<sup>(٢)</sup> أنّ الطّفل يكتسب من الكتاب الإلكتروني المعلومات فقط، في حين يكتسب الطّفل الذي يقرأ في كتاب ورقيّ تفاصيل أكثر وأعمق، فضلاً عن

اكتساب قدرة مميّزة على ترتيب الأحداث وربطها بعضها ببعض.

(٣) إنّ استخدام الكتاب الإلكتروني في المدارس قد أظهرت تفلّت قسم كبير من التّلاميذ من الأنظمة والقوانين التي يُتيحها الكتاب الورقيّ ويكرّسها، على اعتبار أنّ اللّوح الرّقميّ ينطوي على ألعاب لا حدّ لها ولا حصر، وهذا ما يجعل التّلميذ يتلهّى عن الدّروس باللّعب أثناء الحصص الدّراسيّة. وإن كانت بعض المدارس قد لجأت إلى تقنيّة الرّقابة الصّارمة على أجهزة التّلاميذ إلا أنّ هذه التقنيّة أظهرت فشلاً إن لناحية إهدار وقت كبير في مراقبة كلّ جهاز على حدة، وإنّ إمكانيّة تخبئة الألعاب في ملفّات سرّيّة لا تصل إليها عين المراقب.

أضف إلى ذلك، الخوف المتأتّي من الآثار السّلبية للشاشة الإلكترونيّة على نظر التّلميذ، فضلاً عن الخوف من تدنيّ قدرة التّلميذ على الكتابة بالقلم.

يبقى أنّ الخوف الأكبر يتأتّي من احتمال أن تختفي كلّ التّطبيقات والدّروس بسبب فيروس الكترونيّ، ممّا يؤديّ إلى نتائج لا تُحمد عقبها ليس أبلغها العودة إلى نقطة الصّفر، وأمّحاء جميع الملاحظات المدوّنة على هامش الكتب الإلكترونيّة.

(١) د. ابراهيم بن عبد الله المحيسن، المرجع نفسه، ص ١٦-١٧.

(٢) د. ابراهيم بن عبد الله المحيسن، المرجع نفسه، ص ١٦-١٧.



الإلكترونيّة قد أصبحت أمرًا واقعيًا في مجتمعاتنا ومدارسنا وجامعاتنا، فما هي الإرشادات الواجبة الاتّباع من الأهل، للظفر بالنتائج المرجوة؟

#### ٧ - إرشاد الأهل على طريقة استخدام الكتاب الإلكتروني

يجدر بالأهل أن يُدركوا قبل كلّ شيء أنّ قراءة كتاب الكترونيّ أمر جيّد شكلاً ومضموناً، وبالتالي يُمكن أن يكون نشاطاً مُحفّزاً للطفّل. ومن ثمّ، يجب أن يُشاركوا الطّفّل في قراءته الكتب الإلكترونيّة ولا سيّما القصص منها، ومناقشتها معه، وإجراء حوار تفصيليّ ذلك أنّ هذا النوع من الحوار يُطوّر لغة الطّفّل فضلاً عن ملكتي القراءة والكتابة.

أضف إلى ذلك، ضرورة ربط أحداث القصّة بأحداث أخرى واقعيّة، الأمر الذي يُعزّز ملكة الفهم لدى الطّفّل، ويُعلّمه التّفكير في الحلول وفي النّتائج المنطقيّة لكلّ عام قام به بطل القصّة على سبيل المثال.

كما ينبغي على الأهل تقبّل ظاهرة الكتب الإلكترونيّة في المدارس، والتّعاطي معها كأمر واقع وعصريّ ومستقبليّ لا يُمكن الانفصال عنه أو الفكّك منه.

صحيح أنّ النّقاش ما زال محتدماً وغير محسوم حول ما إذا كان الأطفال يتواصلون أكثر أو أقلّ عند القراءة في الكتب

لكن كلّ السّلبيّات الأنفة الذّكر لا تكفي لوضع حدّ لاستخدام الكتاب الالكترونيّ، فقد أصبح أمرًا واقعيًا لا مفرّ منه اقتصاديًّا وتعليميًّا وبيئيًّا، لذا كان لزامًا علينا أن نعالج في ما تبقى لنا نقطتين بالغتي الأهميّة ونعني تحديداً: الكتاب الالكترونيّ والبيئة وكيفيّة اعتماد سياسة إرشاد تُسهم في تكريس فعاليّة هذا النوع من الكتب الذي أصبح أمرًا واقعيًا لا مفرّ منه على الإطلاق.

#### ٦ - الكتب الإلكترونيّة والبيئة

حقيقة الأمر، أنّ كلّ كتاب الكترونيّ يُنشر يحول دون قطع العديد من الأشجار. وقد لجأت العديد من المدارس إلى الاستغناء عن كافّة المعاملات والرّسائل الورقيّة والاستعاضة عنها بكتب الكترونيّة ورسائل الكترونيّة ومفكّرة الكترونيّة وتعميمات الكترونيّة. فلننتخيل مدرسة لا تُستخدم فيها ورقة واحدة! إنّه أمر ممكن وشيك الحصول، كيف لا وقد انعقد مؤتمر قبل أيّام خاصّ بالمدارس الخضراء التي استطاعت أن تُحدث فرقًا جوهريًّا في عدم استخدامها أي ورقة، (في حدود الممكن طبعًا). فمن شأن هذه التّدابير أن تحوّل دون تدمير الطّبيعة والمساس بأشجارها وهو أمر يستحقّ التّفكير العميق والتّوقّف عنده مطوّلًا.

وعليه، إذا كانت ظاهرة الكتب

وفي يقيننا أنّ الأيام القادمة، كما أسلفنا في التّقديم، ستشهد تراجعاً ملحوظاً لكلّ مستند ورقيّ، وستقام المعارض الإلكترونيّة، وسيقلّص دور الكتاب الورقيّ وإن كُنّا نكاد نجزم بأنّ الكتاب الإلكترونيّ لن يكون يوماً بديلاً للكتاب الورقيّ.

وفي مطلق الأحوال، إنّ الأمر الواقع الذي فرضه استخدام الكتاب الإلكترونيّ يشي بمستقبل واعد من حيث قدرته على تحقيق التّفاعل الحضاريّ والتّثاقف الفكريّ والعلميّ وتحقيق الحوار الكونيّ على مستوى لوح رقميّ في حدود كفّ اليد، وذلك رهان على سلام فكريّ ثقافيّ عالميّ عابر للحدود يُمكن أن يغفر للكتاب الإلكترونيّ كلّ زلّاته...

الإلكترونيّة، إلاّ أنّ بعض الدّراسات قد أظهرت أنّ التّواصل يزداد عند الأطفال الذين يقرأون الكتب الإلكترونيّة. وما بين كرّ وفرّ يبقى النّقاش حبراً على ورق إزاء سطوة الكتاب الإلكترونيّ، الأمر الذي يقتضي تقبّله كحقيقة أو كبداهة.

مع العلم بأنّ المناداة باستخدام الكتاب الإلكترونيّ لا يعني أن يُصبح هذا الأخير بديلاً نهائياً وحتمياً للكتاب الورقيّ. فنحن أحوج ما نكون إلى الكتاب الورقيّ أثناء القراءة الجماعيّة، وفي عمليّة الانتقاء والشراء والتّصفّح والتّفاعل، على الأقلّ بالنّسبة إلى المؤلّف وبالنّسبة إلى القراء الذين يتلقّون الكتب ممهورة بتواقيع أصحابها.

عود على بدء، لقد فرض الكتاب الإلكترونيّ نفسه في المجتمعات التّقافيّة والصّحفيّة والمدربيّة والعلميّة وغيرها، حتّى أصبح من النّافل الحديث عن مشروعيّته.

## الغياب والحضور وأنا في قصيدة لجمالك الوحشي قراءة سيميائية وجودية

أ. وداد طه

هي هذه الذات؟ هذا ما ستسعى الصفحات الآتية إلى اكتشافه عبر قراءة سيميائية وجودية. لذلك أسميت القراءة «الغياب والحضور وأنا» في قصيدة «لجمالك الوحشي».

يؤطر محمد البندر قصيدته بالعين. يقول:

«لجمالك الوحشي

عين لا ترى الأشياء إلا من خلال

سطوعه خلف

الضباب»<sup>(٢)</sup>

هذا الإطار الرؤيوي الواسع، يرسم طريق الذات شفيفاً نورانياً، عصي للمس، ويجعل تأويل معنى الجمال الوحشي للمخاطب الغائب أقرب إلى كونه مقدساً، بعيداً من الإثم، استناداً إلى المعنى

«إنّ الوجود الأصيل وحده، يحسّ بالمصير وبضربة القدر، بينما الوجود اللأصيل لا يحسّ بعبء أو ثقل»<sup>(١)</sup>، أعني الوجود الحرّ المقتدر بوعي على حمل الكون في ذاته وتمثلها فيه واحتوائها بجمال، الجمال بمعنى حدوث الحقيقة واستمراريتها في الزمن، ومدى ارتباطها بكيونة الإنسان وانفتاحه على ذاته، وانفتاح الوجود فيه ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، انفتاحاً قيمياً يحمل في ثناياه ومنشئه وصوره الدائمة التشكل، اقتدار الإنسان وفاعليته في الحياة والمصير، بحيث يصبح تاريخه عين صورته النهائية والمستمرة التشكل. هذا البحث اللاهث عن قيمة وجودية خالصة الجمال، هو ما نلمحه في قصيدة محمد البندر «لجمالك الوحشي». فكيف تشكّلت الذات / الكيونة جمالياً في الديوان؟ ومن

(١) أيوب نبيل، «نص القارئ المختلف ٢ وسيميائية الخطاب النقدي»، ص ٢٠٤. مكتبة لبنان ناشرون، ط ١، ٢٠١١.

(٢) البندر محمد، ديوان لجمالك الوحشي، دار الأمير، ط ٢٠١٦، ص ٩.

القاموسيّ لوحشي<sup>(١)</sup>، والذي يشير إلى كلّ ما هو بريّ أو غير مروّض أو ما ينبت في الجبال والأودية أو ما يبتعد من الناس وهو طرف اليد الأيمن أو الأيسر وهو صفة مشبهة بالفعل تدلّ على الثبات.

من هنا يكون الجمال وحشيًّا بمعنى أنّ الحقيقة ظاهرة وباطنة، خفية وقاسية وهي بعيدة متطرّفة، هذا الجمال أو الحقيقة المنشودة، البعيد المنال لها عين ترى الأشياء من خلف الضباب، كأنّها تلك العين التي ترى كلّ شيء؛ عين الله، أو عين الشيطان أو عين الرّوح، جوهر الإنسان، فجمال أو حقيقة المخاطب سواء أكان الله أم الذات هو في حضرة الغياب لأنه يرى من خلف الضباب، لكنّه غياب مؤكّد الحضور لأنّه يسطع من خلف الضباب، فكأنما الأشياء تبين له رغم محاولتها الاختفاء والتّستر، وكأنما ثقته بوجودها تزداد كلّما غابت، وهو بذلك يعلي من قيمة المخاطب ويجعله يمتلك قدرات غيبية أو فكرية تمكنه من سبر الحقيقة الوجودية مهما تلاشت في اليومي.

ولهذا الجمال «انبعاث الماء في جسد/

يسجيه ارتعاش الكأس/ حين تصبّه شفة/ العتاب»<sup>(٢)</sup>.

إنّ ما تشير إليه عبارة انبعاث الماء لدلالة على تجدد الحياة، في الجسد الموحى بالموت، هذا التضاد يضاف إلى المتضادات الكثيرة التي تقوم عليها القصيدة، والتي سنشير إلى دلالتها لاحقًا، أقول إن البندر يحاول أن يقول إنّ الجمال بكونه «حدث مجيء الحقيقة، فإنه لا يقوم بالشكل، إنما يقيم فيه، أي يقوم بالشكل الذي يشع بالكينونة»<sup>(٣)</sup> والذي «يتبدى وهو يحمل واقعًا...يصبح موضوعًا، وتتحول موضوعيته إلى اختبار إنساني»<sup>(٤)</sup> اختبار للمعاناة، وفهم لكون الموت حتمية وجودية لا مهرب منها طالما أنّ الإنسان موجود ووجوده متمثّل في الرّمن الذي لا بدّ نهايته الموت، ولكنّ هذه الحقيقة تخلق واقعًا واعيًا، تصبح فيه الذات في مواجهة المصير، مواجهة تجعلها تعلق على نفسها وبها، «وفي حين يدرك العامل على تحقيق وجوده الأصيل أنّ إمكانته النهائيّة هي الموت، فإنّ الوجود اليومي للأصيل يفترّ من فكرة الموت»<sup>(٥)</sup> وهذا ما لا يفعله خطاب

(١) <http://www.almany.com> بتاريخ الأربعاء ١٣ - ٧ - ٢٠١٦. الساعة الرابعة بعد الظهر.

(٢) الديوان، م. س، ص ٩.

(٣) أيوب نبيل، «نص القارئ المختلف ٢ وسيميائية الخطاب النقدي» م. س. ص ٢٠٩.

(٤) م. ن. ص ٢٠٩.

(٥) أيوب نبيل، «نص القارئ المختلف ٢ وسيميائية الخطاب النقدي» م. س. ص ٢٠٥.

الشاعر في المقطع السابق؛ إذ يتمثل الماء، عين الحياة للجسد وفيه وهو عين الموت، دارياً أن هذا الوجود صيرورته الدوام بدوام الماء، يعضده دوام اللغة وتجدها، المتمثلان في العتاب، الذي بدوره يلمح إلى الحب، فالعتاب لا يكون إلا بين شفاه محبة، وهو يستخدم اللغة، واللغة وسيلة كشف تتمثل الكلام الذي يعبر به الإنسان عن ذاتيته وتالياً يحققها، فكأن البندر يحاول أن يتمثل فاعلية الماء واللغة من أجل أن يعبر عن فاعلية الذات، وإن كانت محكومة بشكل هو الجسد، ومحتومة بمصير هو الموت، فإن الشاعر لا يعترف إلا بكون ذلك الجمال خارجاً على المؤلف، لأنه وعي أصيل للحياة. هنا تبدأ صورة الذات التي يشير إليها أو يرسمها بالتموضع، فتأخذ حيزاً مكانياً هو الجسد، وبعد أن بدأ بالعين الكاشفة، نراه ينزل إلى الأرض فيحكي عن غار، لكنه غار من قراءات غير مفهومة، لا نعرف على أي قلب نزلت ولكننا نعرف أنه: «لم يكن جبريلها يدري حكاية / ظلّه فوق السراب»<sup>(١)</sup>

هنا يقبل الشاعر الحقيقة فينسب اللادراية إلى جبريل، وهو روح الله الذي

أرسل إلى جميع الأنبياء بالوحي، ليجعل ذلك الجميل المخاطب، أكان الذات الأنا أم الله، أعلى شأنًا حتى يكون جبريل لادارياً أمام معرفته. مستخدماً القراءات أي اللغة مجدداً ولكن ليعبر عن تيه الذات فيها، وتالياً دوامية بحثها عن حقيقتها. من باب اللغة تحديداً يلج البندر عالم الأنا، فتحضر الذات / الكينونة للمرة الأولى في القصيدة، ويستخدم ضمير الأنا المتكلم فيقول:

«من أي زنبقة أطلّ مشرعاً / باب الصداق إذا تجاوزتُ التسلق / فوق جدران الغياب؟»<sup>(٢)</sup>

من بياض الزنبق الموحى بالعفة والنقاء، والملمح إلى مريم العذراء من طرف خفي، إذ أشارت الزنبقة إليها قديماً كما تذكر الموسوعة الحرة ويكيبيديا<sup>(٣)</sup>، الزنبق الذي يشير إلى الثالوث المقدس كما يعتقد، والمرتببط بالأرض والحب والمرأة، ينبثق خطاب الأنا المباشر في القصيدة، أنا طاهرة، بريئة، مختلفة، متميزة عن أشواك الواقع الذي تحيا فيه.

هذا التساؤل الحائر دليل على محاولة تجاوز للواقعي الذي يرتهن له الشاعر،

(٢) م. ن. ص ١٠.

(٣) [https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%81%D8%AD%D8%A9\\_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D9%8A%D8%A9](https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%81%D8%AD%D8%A9_%D8%A7%D9%84%D8%B1%D8%A6%D9%8A%D8%B3%D9%8A%D8%A9)

الساعة السادسة وخمسين دقيقة مساءً.

ولكنه لا يرتضي الركون إليه، وهنا تحديداً تتوضّح الذات أكثر، فتتكشّف عن كونها رافضة، مفكّرة، مريدة، متحدية للموت، حاضرة في واقع مرهون بغياب قسريّ، ولؤم متعمّد، ما يجعلها عرضة لصداق الفكر إن بالغت في التّساؤل، وهي طاهرة ساذجة في واقع قائم على القتل والتّعذيب، يشير إليه الغراب القاتل، أو الغراب الذي جاء ببشارة الموت حين أرسله نوح ليستطلع خبر الأرض كما تقول الأسطورة. هنا تبرز الذات اللّوامة أو الرّافضة لضعفها، وهي ذات متوجّعة نهشها الحزن ونخرها صوت البكاء المكتوم، ذات باحثة عن مصير مختلف تشكّله بأيدي سعيها إلى اكتمال عارٍ من كلّ أشكال الكمال، لوعيتها الضّمني بأنّ النّقصان هو عين الكمال، وبذلك يعود محمد البندر ضمناً، إلى تأليه تلك الذات أو رفعها إلى قدسية ما يريدها أو هو يؤمن بوجودها قابضة خلف طيّات ضباب الحاضر.

«صادفت عنقوداً تدلّي من عناق  
الشاربين»<sup>(١)</sup>

إنما يحتمل ذلك المعنى أن تكون تلك الذات مكتفية بعلمها بما ستؤول إليه، فلا هي تجزع ولا هي تموت في موت العابرين إلى موتهم، رغم أنها حزينّة نهشها صوت البكاء المكتوم، ولكنني لا أراه إلا بكاء العارفين بأنهم أنقى، المتألّمين على البشر في سعيهم إلى الموت بدلاً من محاولة تحديد مصيرهم بإرادة ووعي.

وهكذا بعد أن يشرّع الشّاعر ذاته على

من الطّبيعي أن تكون تلك الذات وحيدة لأنّها فريدة بين الدّوات، ورغم الخراب حولها فهي ثالث الوجود المقدّس كلّها، الأب والابن والرّوح القدس كلّها مجتمعة، في بتلات الرّزنيق التي يطلّ منها البندر، ينهشها غراب نفسها الأكل أيامها، لأنها أرقّ

(١) البندر محمد، ديوان لجمالك الوحشي، م. س، ص ١١.

مصراعيها، نراه يمدّها على المدائن  
والقبائل، مشيراً إلى اقتدارها على الحضارة  
وصانعيها في أن، فيقول:

«إلى جفونك تنتمي تلك القبائل/  
والمدائن/ فابتكر من جلدها ثوراً يناطح /  
كلّ قطعان السحاب»<sup>(١)</sup>

يذكرنا الشّاعر بملحمة جلجامش، حين  
هزم أنكيديو ثور السّماء، وهو كان أقوى  
الأسلحة التي أرسلتها الآلهة لتَهْزِمَه  
وصديقه، فما كان منهما إلا أن قتلاه، وما  
كان من الآلهة عندها إلا أن حكمت على  
أنكيديو بالموت، وعندما مات أنكيديو وراح  
جلجامش يبحث عن خلود له، فهم الحياة  
وتجلّت حقيقتها لقلبه... فما هو يعود إلى  
مخاطبة الآخر الغائب = الذات الكينونة،  
الوحشي مستعيراً من الأسطورة، أو هنا  
ملحمة الوجود جلجامش قوة الصّورة لثور  
السماء الذي يريد البندر لجميله المخاطب  
أن يناطح به الغيب، سحب الآتي، إذ يرمز  
السّحاب إلى المطر والمطر إلى احتمالات  
الحياة الغيبية، كما إلى الثورة على الحاصل  
ومحاولة تغييره، لأنه يرى في الآتي حقيقة  
الحياة والمصير، وهي ذات تتمثل قوة الثور  
وعناده وقدرته على التحدي. فكأنها تثور  
على نفسها وعلى واقعها في أن.

يقول في مقطع ختامي يتخلّى فيه عن

الابتداء بشبه جملة كما في المقاطع  
السّابقة، تخلّ يمهّد لانكشاف البحث وتجلي  
الحقيقة، وهو يؤكد لحمة القصيدة معنّى  
وبناءً من خلال الرّموز المستخدمة فيها،  
بدءاً بالعين مروراً بالغار والرّنبق والغراب  
ثم الثور وأخيراً المدينة، التي تجسد المكان  
المحسوس ولكنها في الواقع توحى  
بالمدينة الحلم أو المنشودة، والتي إليها  
ستظلّ روح الشّاعر ترنو، ما يذكر أو يلمح  
إلى مدينة أفلاطون الفاضلة، ويؤكد تالياً  
معاني أشرنا إليها عن تلك الذات، بكونها  
طاهرة فاضلة في واقع مأزقي أو وجود  
نازف.

«وجمالك الوحشي / قدس من طقوس  
العاشقين / وإلى مدينة عشقك المرصود  
باب / دخولها / يمتّ وجه قصيدي / شطر  
الحيبية / والكتاب»<sup>(٢)</sup>.

الآن وهنا تتحقّق المعجزة ويصرّح  
الشّاعر أنّ جمال مخاطبه هو جمال ذاتي،  
فتنبّج القصيدة نوراً هادياً، القصيدة التي  
تشير إلى الخيال والموسيقى والخلق  
والصّورة المتجددة بتجدد المعنى فيها  
طالما كان إنسان يقرأ، فتصبح اللغة  
التمثّلة بالشّعر، والحب المتمثل بالقصيدة،  
والبحث الدائم المتمثل بالمعرفة (الكتاب)  
مقصد البندر، وهكذا تتكشف الذات طقساً

(١) البندر، محمد، ديوان لجمالك الوحشي، م. س، ص، ١٢. (٢) م. س. ن، ص ١٢.

للحبِّ، نورًا، يعطي للحياة قيمتها وللشاعر استحقاق وجوده طالما هو يبحث عن المعنى والجوهر وعن الحبِّ... عن الجمال في تعريه وبعده وانكشافه الأخير في آن.

«إذا كانت ماهية الشَّعر تكمن حقيقة في أنَّها تعرض دازين<sup>(١)</sup> الإنسان إلى الوجود في كليته... فالسؤال هنا هو عن الإنسان بالنظر إلى وضعه في الوجود، عن حرّيته عن قدرته على الأمر والتنفيذ، عن نشاطه الخلاق أو المدمر، عن انحداره إلى الخضوع أو ارتقائه إلى السيادة... إلى الأم - الأرض... تعتبر اللغة أكثر الممتلكات خطورة، لأن دازين الإنسان يبلغ فيها خطره الفائق. فهو باللغة يذهب إلى مخاطره القصوى، يخاطر بنفسه معها ليفتح لها ثغرة على الكينونة... إذ في اللغة ينجز انكشاف الوجود»<sup>(٢)</sup>.

انطلاقًا من قول «هدجر» هذا يمكننا القول بأن محمد البندر في «لجمالك الوحشي» كان يبحث عن ذاته وحققها في اللغة، إذ هو بعد تيهه في المسافات وطرق الزاهبين وخمرة الشاربين، نراه يركن إلى حيث يحقق ذاته ووجوده، اللغة/الكتاب، وهو في تحقيقه هذا يضمن الاستمرارية

لكينونته وحرّيته وانفتاحه على جماله الخالد وتوحد الكون كلّ فيه، وبذلك يكون قد وضع نفسه في دائرة المكتسبات القصوى، وهو هدفه الأبعد من هذا الديوان، أن يتمحور، أن يتجسد ويتموضع ويكون، مطلقًا، حرًا، خالدًا، فائق الخطورة، خلاقًا، قادرًا على الإدهاش والسيطرة على المعنى، بل اللعب بالشَّعر، بجعل القارئ حائرًا حتى اللحظة الأخيرة، غير قادر على الإمساك بالمعنى، لغرابة الصّور والتراكيب وكثافتها ضمن هندسة إيقاعية غريبة التنسيق، وزمن متكسر، وحركة تصاعديّة هابطة للقصيد، واكتشاف والتصاق بالمكان. فكيف خدم كل ما سبق البندر في تحقيق كينونته؟

### نغم الروح والمكان:

أنبتت القصيدة على حركة تصاعديّة للذات؛ وهي حركة بحث والتفاف في الوقت ذاته، حركة دائريّة قلقية، تصل ولا تصل، ترتدّ وتتصاعد ولكنها لا تستقرّ، بل تبقى لولبيّة حركية في طريق انصهارها بالجمالي وسعيها إلى الحقيقة المطلقة التي تتمثل بالحقيقة الشخصية وتمثل الوجود كله من خلالها في الوقت عينه. يرى هدجر «أن وجود الإنسان وجود حركي

(١) «الدّازين هو الكائن الذي يتحدّد: ككينونة في العالم...» أيوب نبيل، نص القارئ المختلف (٢) وسيميائية الخطاب النقدي، م، س، ص ٢٠٤.

(٢) أيوب نبيل، «نص القارئ المختلف ٢ وسيميائية الخطاب النقدي» م. س. ص، ٢١٧.



متسائل»<sup>(١)</sup>، ويقول نيتشه: «الكائن  
صيرورة تعود دومًا. إنّه يخلق ويهدم، إنّه  
إرادة اقتدار أبدي وتجاوز قيمي»<sup>(٢)</sup>.

تبدأ القصيدة من مكان غير محدد، «عين  
ترى الأشياء» ثم يهبط الشاعر إلى الماء،  
المتدفق في الجسد، جسد مسجى، يوحى  
بالأرض والينابيع ويشير إلى الإنسان  
المكان الذي به ومنه وفيه يكون الوجود  
بشكل واضح، ثم يذكر ارتداد المسافات  
ويربطها بالظن، فتتوه الذات في مكونات  
عمقها الداخلي وتوغل في البحث العبثي،  
بعدها يصعد إلى غار، ويذكر الطلاس، ثم  
تطل الكينونة من زنبقة ويربط البحث عندها  
بالغياب، بعدها يسير في طرقات الذاهبين  
إلى موتهم، وعند الموت نشعر أنه يقاوم  
الغياب فيجد مدينة وقبائل، وأخيرًا يمم  
وجهه إلى الحبيبة التي يشير ذكرها إلى  
القلب في الإنسان، الروح وهي موضع  
العقل والإدراك الحقيقي، ويذكر معها  
الكتاب/المكان، اللغة وهي كما قلنا مسبقًا  
أخطر موجودات الكائن وأكثرها دوامًا.

هذه الحركة الارتدادية من أعلى إلى  
الأرض فالإنسان فالأعلى من جديد أو  
المجرد أو اللغوي هي محاولة لإعادة  
تشكيل الواقع، رفض الموت في اليومي  
بحركية واعية ترى إلى ذاتها وإلى

المستقبل من زاوية لها عين الله، كأنه راوٍ  
من خلف يفهم ذاته جيدًا، عالم بكل  
مكوناتها، رغم انفلاتها منه في بعض  
أزمنتها أو صيرورة تشكلها في الواقع  
اليومي، الذي يخشى الموت فيه، فيهرب عن  
سابق إصرار وتصميم منه إلى الأعلى من  
جديد، إلى أقصى ما عرفه القلب أو العقل  
وما هو باق بدوام الحياة والجمال. إلى  
اللغة.

هذه الحركة الارتدادية التصاعدية  
الالتفافية على الذات التاريخية والمستقبلية،  
فيها اقتدار الشاعر (الدارزين) على أن يكون  
ما يريد، وأن يعيد تشكيل ذاته وفق رؤاه  
لأنه وعى الوجود من حوله وعرف في أي  
مكان من تاريخه الشخصي والتاريخ  
الوجودي لجماعته، التي بدت في القصيدة  
كأنها غائبة لا فعل اقتدار لها، فجاء اختياره  
اقتدارًا على تحقيق حريته باختياره أين  
يريد أن يكون، وبحضوره في الذات  
وحضور الذات الكلية فيه ومطلق إرادة  
لحرية هذا الاختيار. نلاحظ كذلك أن المكان  
تجسد في لفظين أو كلمتين، لم ترتبطا بما  
يدل على الغياب، وهما القلب والكتاب. هكذا  
يتجاوز الشاعر قيم الحاضر أو غياب اقتدار  
جماعته وتيهها، كما يتجاوز حدود ذاته  
ويقتدر على تخطي ضعفها، فلا يستكين

(١) أيوب نبيل م. س. ص، ٢٠٤.

(٢) م. ن. ص، ٢٠٨.

الاسم والفعل بعد المقاطع التي استخدم فيها شبه الجمل: هذا الارتداد أو التذبذب بين الاسم والفعل، مع اختيار الحرف بداية، يشكل اللغة كلها تالياً؛ إذ الكلمة التي هي مصيره الأخير حيث الكتاب هي اسم وفعل وحرف، وهكذا تكون الذات الغائبة قد حضرت في تشكلات الكلام كلها، متخذة من اللغة ملاذاً أخيراً لحضور حقيقي، خلاق وأبدي.

لو أمعنا النظر في الأفعال المستخدمة وتسلسلها لتأكد ما نذهب إليه من حضّ الذات الفاعلة نفسها على النهوض من قعر اليومي إلى الخلود، حيث ابتداء باستخدام الفعل يسجّيه مع ما يوحيه من الموت، ثم قال يحتسي ما يوحى بالضياح والإيغال في التيه ومخامرة العقل الكلي أو غيابه، بعدها يستخدم يدري مسبقاً بنفي، مع إشارة طفيفة إلى الإيمان الذي قد يكون مصدر وعيه وانبعثت الذات من غيبها حين ذكر جبريل والوحي، ليطل من علياء طهر ثم «صادفت» دلالة على سير ما في طرق الحياة، ولا إرادة فعلية لاكتشاف الحقيقة، ولكنه بعد أن استخدم «أطل» بدأت حقيقة خفية تنجلي فاستخدم الفعل «تنتمي» ما يلمح إلى التموضع ضمن جماعة، وإن كان ذلك التموضع ليس الحيز المنشود للذات

حتى يصل إلى ذاته المنشودة الغائبة في حناياه المخفية والتي يعلم يقيناً أنها هناك، تنتظر أن يحررها من قيود تاريخها المكلل بالهزائم الشخصية والجماعية، وهو بذلك يعيد تشكيل قيمه ورؤاه على أساس أن المستقبل هو الماضي وأنّ الحاصل يمكن تغييره، وبذلك أيضاً يكون قد «ربح الوجود الحقيقي»<sup>(1)</sup> وحقق وجوده وفرادته.

### الدّلاي النحوي اللغوي وتشكّل الأنا

يبدأ الشّاعر مقاطع القصيدة بشبه جمل جاءت على التّوالي: لجمالك الوحشي/عين/ وله انبعث الماء في جسد/وبه ارتداد المسافة/لجمالك الوحش غار/من أي زنبقة أطلّ مشرعاً/فإلى جفونك تنتمي تلك القبائل. عدا المقطع الأخير الذي يبدأ بقوله: وجمالك الوحشي/قدس من طقوس العاشقين... هذه المقاطع التي يتقدم الخبر فيها على المبتدأ، ساعدت في تشكل الغياب وتقدمه على حضور الذات الأخير، بكونها شبه جمل لا جملاً تامة، وكونها تحتاج إلى ما يتم معناها ويعضدها كي تؤدي وظيفة معنوية تامة.

أمّا إذا لاحظنا المقاطع من الدّاخل فإننا نرى أنّ الارتداد أو الالتفاف على الذات ومحاولات الاقتدار قد تشكلت من تناوب

(1) أيوب نبيل، «نص القارئ المختلف ٢ وسيميائية الخطاب النقدي» م. س. ص ٢٠٥.

الباحثة عن نفسها، حتى استعمل فعل الأمر «ابتكر» كأنه يأمر ذاته بالانبعاث قوية مريدة، وعندها فقط استخدم الفعل «يممت» مع ما يحمله من إشارات إلى اليمين والقصد والإرادة المرتبطة بالخير والجمال.

إذا ما نظرنا إلى الضمائر فإن تناوبها بين المخاطب الغائب المذكر «لجمالكَ = الأنت / يسجيه، يحتسي، يدري = الهو. ثم الأنا المتكلمة تجاوزت، صادفت، يمتت = الأنا، أقول إن هذا التناوب هو عين ذلك الالتفاف المرحلي بينما كانت الذات مازالت غائبة حتى ملاقاتها حين أرادت، وحين «ناطحت» غيابها وضعفها لتكون. أمّا كون الذات الغائبة مفردة في جموع متواليات للأزمنة والأمكنة والأشخاص فتأكيد آخر على ضياعها في اليومي ومحاولاتها أن تحضر وتمكنها أخيراً أن تتوحد فيما هو أسمى منها وتتجلى من خلاله». لجمالكَ غار# من قراءات الطلاس / أطل مشرعاً # جدران الغياب / الذاهبين إلى أزقة موتهم # صادفت / حتى تتكشف أخيراً في توحدتها بكونها «قدس» # طقوس العاشقين. هذا القدس يبدو أكثر ألقاً من الطقوس مجتمعة، بل هو نورها وطريقها ومنه تغدو طقوس العاشقين حقيقة جزئية في كلية جمال الذات المتكلمة «يممت» لتعود صيغة المفرد المطلق الأعم للسيطرة فيستخدم: مدينة /

شطر / الحبيبة / الكتاب. وهي فرادة تذكر بالذات الإلهية أو الكلية الشاملة غيرها والمتوحدة فيه.

أما لجهة ابتداء الإسناد بمضاف ومضاف إليه كي يتم التعريف عن أي جمال يتحدث البندر، وتخصيص الجمال، أي الحقيقة التي هي الأنا، بالوحشي أي البدائي المطلق الأبعد، ثم استعمال ال التعريف في كلمتي الحبيبة والكتاب اللتين ختم بهما القصيدة، لخير تلميح إلى اقتراب الصورة من حقيقتها مكانياً، إذ إن التعريف بكلمتين منفصلتين إشارة إلى بعد الاكتمال ثم التعريف بالكلمة ذاتها إلماح إلى اكتمال الرؤية والتوحد مع الذات. وهو أشد وقعاً ودلالة على المقدس؛ فلا نقع للذات الإلهية مثلاً على صفة معرفة بالإضافة، بل جميعها معرف بذاته. (الله، الرحمن...) لا نغالي إن قلنا إن نسبة الوحشي إلى الجمال وهي صفة مشبهة بالفعل، تكسبها قوة وثباتاً لأن للصفة المشبهة قوة الفعل في الجملة رفعا ونصبا وخفضا، وهذه حال الجمال بكونه حقيقة مرادة، فهو يستطيع تشكيل الحياة على هواه، والذات التي بها هذه القوة هي الأنا الفاعلة التي يسعى إليها البندر. هكذا تعود الذات لتتبع وبذلك تكون كينونة الشاعر قد حضرت أرضا وآلهة وبشرًا وتاريخًا.

## الأنا والزمن

الكلي أو الأنا الآتي، هذا الأمر السائر في الآتي والذي يترد إلى الماضي في اللحظة عينها، ليقول: «يممت» كأنه لطالما مضى نحو المصير الحتمي له ولجماعته التاريخية التي يعبر عنها ضمناً، والتي يحاول أن يؤسس لها هوية تمرّ بكينونته الأصلية، من خلال إعادة الذات الضالة المجروحة إلى حقيقتها الفاعلة.

### الإيقاعي والرمزي والأنا

على وقع ارتداد الألف الممدودة في أرجاء القصيدة كلها «جمالك/ ترى/ الأشياء/ الماء/ العتاب/ الضياء/ الباكيات/ مشرعاً/ الصداق/ الطلاس/ تجاوزت/ الغياب/ لعابهم/ القبائل/ المدائن/ باب/ الكتاب».

يناغم الشاعر بين الواقع = غياب الأنا، والمنشود = حضور الأنا. ويؤلف سيمفونية من اللون الممزوج بالصوت الحائل المتماذي في البعد، وفي الوقت عينه يرمز ويلغز أحياناً أو يضمّن صورته دلالات مبتكرة ومعقدة يركبها على نغم روحه المتمردة على اللحن أولاً، والباحثة عن نغمها الخاص الفريد. فلا تنفصل الصورة الرمز عن الصوت وتالياً عن الإيقاع؛ إذ ترتاح الألف بعيداً فتعود وتمسكها الباء

بعد أن وقف البحث على دلالة اللغوي، سيحاول البحث أن يرصد دلالة الزمن وفعله في الأنا وفعل الأنا فيه. ويبدو الزمن في القصيدة حاضراً، إذ تسيطر صيغة المضارع: «يسجيه/ يحتسي/ ينعق/ يسيل/ تنتمي/ يناطح/ يدرى» وهو زمن مرتبط بحركة كما أنه مرتبط بفكر «يدري» ولكن الحركة لا فعل لها مغيراً أو محدثاً تجسدياً أو حضوراً للذات والكينونة إلا حين ارتبط الحدث بالماضي «تجاوزت/ ييممت» فكأن الماضي هو المستقبل الآتي. وكان الزمن الحاضر لا زمن فيه، فهو غير فاعل أو منكسر تلازمه مفردات الوجد «يحتسي جمر البداية/، أو آتياً بشؤم» ينعق مفتشاً عن سواة، أو موت «يسيل لعابهم» الموت أو الضحك والهزل العابث، إذ هو زمن الانكسار والضياع وتلازم أمكنة بعيدة المنال أو مستحيلة التشكل مكاناً كالضباب والسراب والظن والغياب، ما يشير إلى أن الزمن «يبتلع الناس في دوامة الهزائم والفراغ»<sup>(١)</sup>، لكن الشاعر يواجه هذا الانكسار الزمني المكاني ف« يعلن زمن الحقيقة/ الكينونة»<sup>(٢)</sup> بدءاً من ذاته فيأمرها بكونها الحقيقة عينها «ابتكر»، أيها الآخر أو

(١) أيوب نبيل، «نص القارئ المختلف ٢ وسيميائية الخطاب النقدي» م. س. ص ٢٣٣.

(٢) م. ن. ص ٢٣٣.

الحديث، فإنَّ الشَّعرية المنتسبة إلى الانزياح الأسلوبى تتوافر في القصيدة، فالشَّاعر «يعمد إلى تكثيف الدَّلالات في المفردات اللغوية ويجعل منها رموزاً»<sup>(١)</sup> أضفت إلى النغمية في المقاطع الصَّوتية المتكررة، دهشة كبرى وركبت المعنى تركيباً نحتاج عنده إلى الحفر عميقاً لنصل المعنى. كمثال على ذلك صورة الزَّنْبِق التي يطلُّ منها الشَّاعر على الغياب، ليطلع له غراب الخراب، هذا التَّضاد بين بياض الزنبق وطهارته وسواد الغراب وسوءته يوحي بالتضاد بين الواقع والمنشود عند الأنا الكينونة، أمَّا إيراد الكأس فرمز لضياع الشاربين في غمرات الحياة وسهوههم عن المعيش وغيابهم عن ذواتهم، أما الغار فهو رمز الوحي ينبئ بالآتي اليقيني، برغم أن الشَّاعر يلعب لعبة الانزياح حتى منتهاها عند هذا التركيب فجبيله جاهل لا يدري، ووحيه قراءات الطلاسم على روح تحيا في ظلال السَّراب، معانٍ ينزاح الواحد منها إلى الآخر، آخذاً في تعميق التضمين كي يوغل في تكثيف حالة الضياع التي تحياها الأنا باحثاً عن كينونتها.

هذه الصُّور تتشكل في بنية شكلية متناسقة النِّغم، تبرز في قدرته على ربط المقاطع وتقطيعها بشكل متوازٍ يعطيها

تردُّها إلى الواقع رغم تناوب الكلمات المستخدمة بين الحقيقة والوهم أو الحضور والغياب «ضباب/تراب/سراب/غياب/غراب/شراب/سحاب/كتاب»، وهكذا فإنَّ الألف تأخذ الأنا بعيداً والباء تعود بها إلى الأرض التي تستقر فيها ولكن بين الأحرف والمعرفة «كتاب»، ولا ننسى تتابع النون في القافية أيضاً: «الذاهبين/الشاربين/العاشقين» هذه النون التي تحمل النجاة بكونها الحوت الذي نجى يونس، وتوحي بالإبحار، وهي كذلك انبعث ما بعد الموت إذا ما نظرنا إلى ترتيب النون في الأبجدية بعد الميم الرامز إلى الموت، فكأن النون التي تحمل ذاتها ونقطتها ومركزها، تبحر بذاتها وتنجيتها حتى تستقرَّ أخيراً على شواطئ المعرفة. وبهذا تكون القافية أو التفعيلة المتكررة في القصيدة قد سهلت اكتشاف مسعى الأنا إلى التحقق. كما لعب تكرار المقطع المبدوء بحرف الجر جمالية صوتية أكدت تردد الأنا/الذات وحقق تالياً الكينونة، إذ استعاض عنه بجملة مبدوءة بواو العطف على ما سبقها، «وجمالك الوحشي» كأنها مقطع لعب دور اللازمة المفقودة في أنشودة وجوده والمصير.

إذا كانت التَّفعيلة هي أساس الموسيقى في القصيدة، كغيرها من قصائد الشَّعر

(١) أيوب نبيل «نص القارئ المختلف ٢ وسيميائية الخطاب النقدي» م.س، ص ٢٢٨.

ترتيبًا وانسيابًا مريحًا، يعضد فكرة الإصرار على إيجاد الذات إذ مع اندفاع الكلام والصور نرى أن هذه المقاطع يزداد طولها نسبيًا، فمن الأبيات أو الأسطر الأربعة في المقاطع الأربعة الأولى، راحت المقاطع التالية لها تكبر أو يزداد عدد الكلمات فيها، ما يوحي بعلو ثقة الذات، وقدرتها على الكلام والبوح، ويدل على أن عندها ما تريد أن توصله لمن يسمعها، ومع هذه المقاطع تغيرت القافية أو التفعيلة من سيطرة الباء كحرف روي، إلى النون ليعود إلى الباء خاتمًا ومقفلًا كلامه عودًا على بدء، كأن بحثه أو سير في الموسيقى الداخلية والصّور هو عين بحثه عن الذات وتجليها بعد غيابها. يبلغ أرقى مستويات الترميز وتكثيف المعنى باستخدام مفردة «الكتاب» مع ما فيها من إichاءات إيمانية عميقة، ومع ما اكتسبت عبر الزمن من دلالات ارتبطت بالغيب اليقيني، فالكتاب هو اللوح المحفوظ، المتضمن أسرار الوجود والخلود، وهو في غيابه متمثل حضورًا ماديًا هو القرآن، حضور هو بالنسبة إلى المؤمنين كلام الله، المقدس المطهر، والذي نزل مشافهة ثم تكرر حقيقة ونصًا..كم تشبه الذات/ الكينونة ذلك الكتاب!

### خلاصة عامة عن القصيدة

في حركة دائرية وعمودية وأفقية مقفلة ولانهائية سعى محمد البندر في قصيدته

إلى أن يتوحد في الذات المدركة أن في الحب خلاصًا، والتي إن لم تؤله نفسها، فتخرج من دائرة الصّحة النفسيّة إلى العقد والأورام التي تطال نفس الإنسان، وتتبدى عصابات يكشفها التأويل، فقد رأت فيها من الله قلبًا ترى الوجود جميلًا من خلاله، جمالًا صافيًا خالصًا نقيًا ليس بربريًا إنما إنسانيًا، أي عندما تطهرها حقيقة أصيلة وهي أنها انعكاس لروح الله، التي ترى إلى الوجود من عل يدنو قاب قوسين من القلب، والتي تعي أن وجودها مرتهن بحرّيتها، وأن الحقيقة، الجمال الخالد أو الأنا، هي هي عين الوجود في صيرورته الماضية، وأن تلك الصّيرورة لا تصل إلا إن سعت نحو جوهر الوجود الأصيل وانخرطت في معضلة الوجود عبر اختيار الحب كفعل واع للحياة. هي الأنا التي اجترأت على الألم ومنه خرجت إلى النور فراشة من شعر. الأنا التي ترى وتبدأ رحلتها من العين فالماء الجسد ثم الأرض فالكلمة. كأن محمد البندر في قصيدته يحكي قصة قيامه وهو يرى إليها..كأنه يروي قصة الخلق، خلق الذات وإعادة بعثها من غيابها حتى تتوحد في الكون، معيدة تشكيل واقعها وفق قيم التجربة التي خاضتها، والتي تعيدها إلى فرادتها وأصالتها لأنها وعت ذاتها وأرادت بحرية مطلقة، أن يفتح الوجود فيها فخلقتها فيها وصارت سيدة نفسها والكون.

## ماذا تقول أجسادنا؟ (دراسة وتحليل لكتاب حبيب الخوري)<sup>(١)</sup>

أ. وسام ذيب ابراهيم

أما ما يربط بين نطق اللسان ونطق الجسد فهو ما يصل إلى الآخر من معاني وتعابير عن الانفعالات المختلفة كنعمة الصوت ووحدته والوقفات والابتسامات والتسكين والتأوهات...

من هنا، فإنَّ الجسد له لغته الخاصة، للتواصل مع الآخرين، هي تعبر عمّا في داخل كل إنسان من قلق وتوتر وعدم راحة وسعادة ومفاجأة وخوف وحب... إلا أنَّ الفرق بين لغة اللسان التي تعرف بـ «علم اللسان أو اللسانيّات أو الألسنية»، ولغة الجسد، أنّ في الأولى قد يكذب الإنسان، أما في الثانية فمن الصّعوبة أن يحصل ذلك لأنَّ الجسد لا يكذب أبداً، قد يتمرّن أشخاص كثير ليبرعوا في التحكّم في لغة أجسادهم وقد يُؤتي جهدهم أكله إلى حدّ ما، إلا أنّ من المستحيل أن يسيطروا على

كما أنّ النطق وسيلته اللسان وهو ما بات يعرف باللّغة التي تولد وتنمو كإنسان، وتتطور وتتسع بحيث تصبح وعاءً ثقافياً وسياحاً حضارياً ولسان المجتمعات، فإنَّ الجسد لغته الحركات.

مّم تتكون اللّغة؟ الجواب من أحرف وهذه الأحرف عندما نجمعها نحصل على كلمة معبرة ومفيدة ولها دلالة على ما نريد، كذا في الجسد فإنَّ الحركات هي الأحرف وهي تصل للقارئ، وتُفهمه ما يقوم به، ويعبر عنه، وهذا ما أشار إليه وليد حسين الخطيب مُعدّ الكتاب.

«ماذا تقول أجسادنا؟» - موضوع هذا المقال للخبير في لغة الجسد حبيب الخوري - في مقدمته، حيث قال: «فاللغة هي ما ينطق به كل إنسان من حرف أو كلمة أو صوت... وهنا ما يعنينا هو كلام الجسد أو لغته.

(١) حبيب الخوري، ماذا تقول أجسادنا، إعداد وليد حسين الخطيب، بيروت، لان، الطبعة الأولى، ٢٠١٨.

حركات أجسادهم كلها، لذا فإنَّ لغة الجسد أصدق من لغة اللسان.

لقد استحوذت لغة الجسد على اهتمام مختصين في علم النفس وعلم الاجتماع، والمحققين ومديري الشركات والمؤسسات... وقد حُصِّصت لها كتب ومراجع ومؤلفات لما أصبح لها من أهمية في المجالات الحيائيَّة المختلفة، وقد أصبحت علمًا قائمًا بذاته كبقية العلوم.

تطوّر علم لغة الجسد في العصر الحاضر تطورًا ملحوظًا، متَّخذًا من الدّراسات القديمة ومن الحاجة إليه نبراسًا فتح له آفاقًا جديدة للتّوصل إلى معرفة حقيقة كلّ شخص وطريقة تواصله مع الآخرين في الحياة العامة، فوقف الخبراء المحدثون في لغة الجسد وقفات عظيمة لدرس حركات الإنسان في جميع أعضائه وتحليلها وربطها بشخصيته».

من الجدير بالذكر أنّ كتبًا كثيرة صدرت عن هذا العلم إلا أنّ ما يميز «ماذا تقول أجسادنا؟» أنه كافٍ ووافٍ، وقد شمل موضوعات عدة من حركات العين إلى الفم إلى اليدين إلى سائر أعضاء الجسم، وتكلم عنها بالتفصيل.

ولسنا معنيين هنا بتقييم الكتاب، موضوع المقالة، بل ما يهمنا أولاً وأخيرًا محتواه من حيث المعلومات التي يوفرها

للقارئ، والتي لا شك في أنها ستفيده في شتى مجالات الحياة وميادينها، حيث إنّ الكتاب موجه إلى «الموظف والحقوقي والمحامي والطالب والمربي ومديري المدارس والشركات والمؤسسات والمحققين والأم والأب...» بلغة بسيطة وسهلة لا تكلف فيها ولا غموض ولا تعقيد.

من هنا، فإنَّ «ماذا تقول أجسادنا؟»، من بدايته إلى نهايته، يزودنا بمعلومات وافرة «من ألف باء لغة الجسد إلى احترافها».

فقد عمد الخوري إلى تقسيم كتابه فصولاً بدءًا من الرأس وترميمش العيون والفم وحركات الجذع وصولاً إلى حركات الرجلين. فضلًا عن اعتماده دراسة أجريت على لغة الجسد في القرآن الكريم وهي رسالة دكتوراه أعدها دكتور في فلسطين، مستشهدًا بآيات من الذكر الحكيم دليلًا بائنًا على أهمية هذه اللغة.

لذا، نستطيع القول إنّ الكتاب المشار إليه غني بمعلوماته سلس بأسلوبه سهل بلغته. وهذا ليس ترويجًا للكتاب ولا من باب الدعاية وإنما جاء بعد الإطلاع على مضمون الكتاب والتعمّق فيه.

#### غاية مزدوجة

كانت غاية الخوري من هذا الكتاب مزدوجة، فهو هدف، فضلًا عن المادة التوثيقية والغزيرة فيه، إلى جعل هذه اللغة



مادةً تدرّس في المعاهد والجامعات، وحتى المدارس. لِمَ لا؟ أو ليست لغة مقروءة كباقي اللغات؟

إلا أنّ ما يميزها أنها لغة عالمية يستطيع الأجنبي قراءة العربي والعكس صحيح، ويفهم مكنوناته وانفعالاته من خلالها من دون النطق بحرف واحد.

يقول الخوري: «بعد تعلّمك لغة الجسد، تستطيع قراءة الناس كأنك تقرأ كتاباً». فلغة الجسد تظهر الحركات الصادقة المخزّنة في اللاوعي للتعبير عن أفكارنا الخفية والحقيقية.

لذا، من السهل على أي إنسان لديه معرفة بسيطة بلغة الجسد أو حتى لا يعرف عنها شيئاً أن يقرأها بيسرٍ ومن دون عناء.

ونشير هنا إلى أنّ الخوري أفاد من خبرة الخطيب اللغوية ومن معلوماته الوافرة في علم النفس والفلسفة، حيث كانت له اليد الطولى في إنجاز الكتاب بأسلوب مرن وشيق وأنيق.

هذا الكتاب الذي يقع في ٢٨٧ صفحة من القطع المتوسط، ليس غنياً بمعلوماته فحسب، وإنما بغزارة الصور الموحية والمعبرة عن كل حركة من حركات الجسد، حيث لا تكاد تخلو صفحة من صورةٍ أو أكثر زيادة في الشرح والتّوضيح، وهي صور ملوّنة وواضحة تشد القارئ إلى أي

فئةٍ عمريّة انتمى. وللتّوضيح أكثر، عمد الخوري إلى تلخيص أو في الأقل، إيجاز كل باب بعبارة يسهل حفظها من خلال التّشديد عليها بخط عريض. على سبيل المثل «في كل مرة نتكلم عن مشاعرنا تجاه أنفسنا، ننظر إلى أسفل اليمين» ص ٤١، «من خلال طريقة تنفسك يحدد الآخرون الصورة التي تظهر فيها» ص ٥٦. و«قد يأتي الشعور بالسعادة بعد مفاجأة، كحصولك على هدية» ص ١٦٣، وأيضاً «شكل الحركات الإيجابية وتعابير الوجه جزءاً من التقنيات الناجحة في مقابلة عمل» ص ١٧١، و«نكذب من خلال الوعي لا من خلال اللاوعي» ص ١٧٩. و«إن طرحت الأسئلة الصحيحة فستحصل على الإجابات الصحيحة من خلال لغة الجسد» ص ١٨١.

ليس هذا فحسب، فقد وظف وليد الخطيب بعضاً من مخزونه الشعري لخدمة المعنى العام في الكتاب، ومن هذا في ص ١٣٩، ١٦٢:

**إنّ الغصون إذا قوّمتها اعتدلت**

**ولا يلين إذا قوّمته الخشب**

**وما السعادة في الدنيا سوى شبح يرحى**

**فإن صار جسماً مله البشر**

فضلاً عن الركون إلى الأمثال الشعبية للتعبير عن القوة والصلابة في حركات الرجلين: «يا أرض اشتدي ما حدا قدي» ص ١٠٦ وغيره الكثير.

إذًا، نحن أمام كتابٍ قيّمٍ وشامل، حيث تناول حركات الجسد في غالبية دول العالم فمثلاً، رفع الرأس في دول العالم أجمع تعني الرفض أو الإجابة بـ «لا» عن سؤال ما، أو إلى الأسفل للقبول أو الإجابة بـ «نعم»، إلا في إثيوبيا وبلغاريا فيعنيان العكس تمامًا. كذلك، تناول الضحك بأنواعه كافة، كضحكة الشفتين المطبقتين والابتسامة الملتوية «الساخرة» والابتسامة الفك الساقط...

فضلاً عن الصوت وأهميته ونبرته في الخطاب والكلام والتنفّس، حيث دعم كلامه بدراسةٍ ليؤكد ما يقول. أضف إلى ذلك يعلّمنا هذا الكتاب كيفية التصرف في المواقف الإنفعاليّة وحالات الغضب والصّراخ، والطريف فيه أنه يطرح علينا أسئلةً لنجيب عنها وكأنه بذلك يأخذنا إقراراً وتأكيداً لما يقول.

كنا أشرنا سابقاً إلى أنّ الخوري ضمّن كتابه جزءاً من رسالة دكتوراه لدكتور فلسطيني عن لغة الجسد في القرآن الكريم وهذه إضافة جيدة لـ «ماذا تقول أجسادنا؟»، حيث لا نجد في أي كتاب يتناول هذا العلم دراسة كهذه، وهذه ميزة إضافية للكتاب - موضوع الدراسة. طبعاً، لم يكن منطقيّاً أنّ يضمّن الخوري كتابه الرسالة كاملة، حيث يفوق عدد صفحاتها ٢٠٠.

فما فعله ليس اختصاراً وإنما تصرّف فيها حيث أخذ ما يفيد النّاس في معظمهم وترك الباقي لأهل الاختصاص فمن العين ودلالاتها وأحوالها (الباكية، المزدرية، الخانقة، الخائنة والراغبة) إلى البصر ودلالته (الأبصار الكارهة، الزائغة، الخاشعة الذليلة، المتأملّة المتفكرة الشاخصة المندهشة)، مدعمةً بآيات من القرآن الكريم وتفسير لكبار المشايخ «محمد متولي الشعراوي». كذلك النّظر ودلالاته والهمز واللّمز والغمز والوجه واليد والأصابع والرأس والرجل حتى القعود والاستلقاء والنّوم والمشى والجري والركض... ودلالة كل حركة ومعناها. وهذا إنّ دل فإنّما يدلّ على سعة اطلاع الخوري وعلى اهتمامه بهذا العلم من جوانبه كافة.

من المهم أنّ نشير إلى أنّ «ماذا تقول أجسادنا؟» يُعدّ مرجعاً لا مجرد كتاب كباقي الكتب، وليس مجرد كتاب للقراءة والتسلية.

أشرنا سابقاً إلى أنّ هذا الكتاب يفيد فئات المجتمع كافة، ولكن الأكثر إفادة منه المحققون الذين يستخدمون تقنية لغة الجسد لمعرفة صدق المتّهمين من كذبهم. فكلّ إشارة أو حركة لها دلالتها ومعناها وهذا ما تطرّق إليه «ماذا تقول أجسادنا؟»، للتمييز بين الفراسة ولغة الجسد، حيث إنّ الأولى قراءة ظاهرية لتفاصيل الوجه، تتناول التجاعيد ودلالاتها العمرية من دون

حركاته وسكناته، ووقفاته، في الهدوء والتوتر، في الفرح والحزن.

إنَّ كتاب «ماذا تقول أجسادنا؟» بوصفه عملاً علمياً، يمكن تصنيفه مرجعاً يستفيد منه كل مهتم، بالفكر والحياة وطبائع الناس وأساليب التعامل معهم. فهو يساعد الإنسان في الخروج من حال الغفلة وإزالة الغشاوة عن بصره حتى يتمكن من الإبصار والمعرفة والسير على هدى مع من يحيط به، ويطلق قدراته ليفعل ويؤثر فيهم ويتأثر بهم.

قدّم الخوري والخطيب في هذا الكتاب عملاً ميتافيزيقياً بامتياز، تميّز بما أورده من مادة فكرية وعلمية وفلسفية إبداعية، فجاء ليعطي لغة الجسد حقها على الصّعد كافة، ويعرفها تعريفاً دقيقاً بنائياً ويضع مفاهيمها في نصابها الصحيح لفهم الشخصيات وأفعالها ودوافعها في ما تقوم به.

ليس ضرورياً أن تكون ملماً بلغات العالم وثقافته المختلفة حتى تفهم حركات الجسد عند الناس كافة، خصوصاً إذا كنت في اجتماع مهم مع رجال أعمال من مشارب متعدّدة، فبفضل التكنولوجيا والإنترنت وسهولة التواصل في دنيا العولمة، أصبح المرء على معرفة تامة بلغة الجسد في الثقافات المختلفة، خصوصاً في الدول التي لديها ثقافة فريدة، فببساطة،

التعمق في الحالات النفسية والشعورية للأشخاص كما في الثانية. وهي لا يعتدّ بها في التحقيقات الأمنية وكشف الكذب، لأنها ليست ذات جدول و«ماذا تقول أجسادنا؟»، يدخلنا في التفاصيل الدقيقة، حيث يوضّح لنا في الصفحة ٣٠ أنّ في الوجه ٤٣ عضلة تستخدم في التعبير عن المشاعر، وهذا ما لا تستطيعه الفراسة.

ويشير الخوري في هذا المقام إلى أننا قد نصادف أشخاصاً لا تجاعيد في وجوههم أو تغضّ في جباهم، لأنّ لديهم القدرة على إخفاء مشاعرهم، بالتالي لا نعرف ما يكتنون في دواخلهم وهؤلاء يعرفون بالـ «بوكر فايس poker face» وهم يشكّلون ١٠ في المئة من الناس. ولم يفتئه أيضاً أن يسلم الضوء على من يخضعون لعمليات تجميل في الوجه الأمر الذي يؤدي إلى تسطيح البشرة وخلوها من التعابير بسبب الـ «بوتكس Botox». أمّا كيف نقرأ هؤلاء الأشخاص، فيقول الخوري ببساطة من خلال حركات أيديهم وأرجلهم.

بعد أن فرغنا من إحالة النظر في «ماذا تقول أجسادنا؟» بشكل عام، وفي تفاصيل دقيقة فيه بشكل خاص، وبعد تناوله بدراسة موضوعية، لا يبقى إلا أن نستجمع أهم ما جاء فيه في سطور معدودة، نذكر من خلالها القارئ بمجمل ما أتت به هذه المقالة، من معلومات حول لغة الجسد في

أصبح في استطاعة كلِّ شخصٍ فهم الإشارات غير اللفظية وتفسيرها.

فالهدف من هذا الكتاب وفق ما ورد فيه، نشر المعرفة والمساعدة في قراءة أجساد الآخرين بمهارة واحتراف، فهو مميّز لأنّه يشمل قواعد لغة الجسد كافة، إضافة إلى كيفية قراءتها من خلال أقسام الجسم الثلاثة (الرأس، الجذع، والرجلين) بيسر، وهو أيضًا يفيد القراء في المجالات كلها، من قراءة الكاذبين والصادقين، التقدم إلى وظيفة، إلقاء الخطابات والمحاضرات، التخلص من العادات السيئة ترك انطباع جيد عند الآخرين، إنجاز صفقة تجارية ناجحة والتفاعل مع الشخصيات كافة.

فبعد قراءة هذا الكتاب، لن يقول أحد أنّه خُدع أو أنه لم يكتسب كيفية التصرف في معارك الحياة. فهو يفيد في التعامل مع الزوجة والأولاد، وفي العمل، وحتى في شراء سيارة أو منزل من تعلّم لغة الجسد يُنقذك من المواقف المجرحة والسيئة. فـ «ماذا تقول أجسادنا؟»، كما ورد في الكتاب، تقول أكثر بكثير من الكلام، ونستطيع فهم معنى كل حركة (غضب، عداوية، اندفاع، صدق، كذب، خوف، انغلاق، انفتاح، ازدراء، حزن، فرح، سعادة، راحة، احتيال...). فمن منّا يعرف أنّ أحدنا يُرسل تعابير ويتلقاها من خلال لغة الجسد بنسبة ٩٥ في المئة، في حين أنّه يتفوّه بالكلام بنسبة ٥ في المئة فقط؟

## المجلس التشريعي الفلسطيني (١٩٩٦ - ٢٠٠٦)

علي محمد علوان

### المقدمة:

مقابل هذا المخطط تبلورت الحركة الوطنية الفلسطينية، ووطورت مع الوقت أشكالاً مختلفة للمقاومة. ومنذ ذاك الحين بدأ الشعب الفلسطيني كافة أشكال النضال والكفاح لمنع حصول هذا الوعد. وفي التاسع والعشرين من تشرين الثاني في العام ١٩٤٧م، أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة قراراً رقمه (١٨١) الذي يقضي بتقسيم فلسطين التاريخية إلى دولتين، واحدة عربية فلسطينية والثانية يهودية، وينص القرار على أن تحصل الدولة اليهودية على ٥٦,٤٧٪ من أرض فلسطين، أما الدولة العربية فقد منحت ٤٣,٥٣٪ من الأرض، كما تقرر أن تصبح مدينة القدس كلها تحت الإشراف الدولي.

ما إن وضعت الحرب العالمية الأولى أوزارها، والتي خسرت فيها دول المحور ومن بينها السلطنة العثمانية، وبدأت الأخبار تتسرب عن اتفاقية سايكس - بيكو، ووعد وزير خارجية بريطانيا العظمى آنذاك آرثر جيمس بلفور<sup>(١)</sup> لليهود بإقامة وطن قومي لهم في فلسطين، حتى أدرك العرب الفلسطينيون أنهم أمام مؤامرة كبيرة لانتزاع أرضهم منهم وتسليمها لليهود، ومع هذا القرار وتداعياته، وبالتحديد في العام ١٩١٧م، تم البدء بتنفيذ هذا الوعد على الأرض في ظل سلطة الانتداب البريطاني، وذلك بتكثيف الهجرة اليهودية، والاستيلاء على الأرض الفلسطينية. وفي

(١) ولد آرثر جيمس بلفور سنة ١٨٤٨ في وايتنهام في أسكتلندا. وبعد أن أنهى دراسته الأولية التي درس فيها تعاليم العهد القديم، أكمل دراساته العليا في كلية إتون وجامعة كمبرج بإنجلترا أنتخب بلفور لأول مرة في البرلمان سنة ١٨٧٤، وعمل وزيراً أولاً لأسكتلندا عام ١٨٨٧، ثم وزيراً رئيساً لشؤون إيرلندا من عام ١٨٨٧ - ١٨٩١، ثم أول رئيس للخزانة من عام ١٨٩٥ - ١٩٠٢، ورئيساً لوزراء بريطانيا من عام ١٩٠٢ - ١٩٠٥. أصدر وزير الخارجية البريطاني جيمس آرثر بلفور يوم ٢ نوفمبر/ تشرين الثاني ١٩١٧ تصريحاً مكتوباً وجهه بأسم الحكومة البريطانية إلى اللورد ليونيل والتر روتشيلد (١٨٦٨-١٩٣٧)، يتعهد فيه بإنشاء «وطن قومي للشعب اليهودي في فلسطين».

الجولان السورية وصحراء سيناء المصرية، ومرة أخرى دفع الشعب الفلسطيني ثمن هذه الحرب من خلال نزوح ربع مليون فلسطيني إلى الأردن، مما عمق المأساة والصراع في الشرق الأوسط<sup>(١)</sup> برمته. وبالرغم من هذا التطور الخطير، إلا أنَّ الشعب الفلسطيني حافظ على تمسكه بهويته الوطنية، وحلمه في العودة إلى فلسطين.

تأسست منظمة التحرير الفلسطينية<sup>(٢)</sup> في العام ١٩٦٤م بقرار من القمة العربية. وفي فجر الأول من كانون ثاني من العام ١٩٦٥م، أفاق الشعب الفلسطيني والعالم بأسره على صوت يعلن انطلاق الثورة الفلسطينية المسلحة، وهنا برز دور ياسر عرفات، ليرسم الخارطة السياسيّة من جديد، واستطاع هذا القائد أن يحول خيام اللاجئين من أمكنة بؤس تنتظر مساعدات هيئات الإغاثة الدولية إلى مشاعل أمل تحلم بالعودة، وانطلقت الكوكبة تلو الكوكبة لتعمد بدماء الشهداء طريق الثورة، وتزرع التصميم والإرادة على حتمية تحرير الارض وعودة اللاجئين إلى بيوتهم وقراهم. وما إن مضت بضعة سنوات حتى

التطور الأخطر في هذه الحقبة كان في نكبة الشعب الفلسطيني في العام ١٩٤٨م، بعد أن قررت بريطانيا إنهاء انتدابها لفلسطين في ١٥ أيار من العام ١٩٤٨م، واندلاع الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى، والتي كان من نتائجها تشريد أكثر من ٨٠٠ ألف فلسطيني من قراهم ومدنهم، واستيلاء المنظمات الصهيونية المسلحة على ٧٨٪ من أرض فلسطين، بما فيها الجزء الغربي من القدس، كما تم ضم ما تبقى من الأرض الفلسطينية إلى دول الجوار (الضفة الغربية للمملكة الأردنية الهاشمية، وقطاع غزة تحت الإدارة المصرية). وبذلك أحتفت فلسطين عن خارطة الشرق الأوسط جغرافياً وسياسياً، كما تم طمس الهوية الوطنية الفلسطينية، وتحولت الغالبية العظمى من الشعب الفلسطيني إلى لاجئين في الدول العربية المجاورة، الأردن وسوريا ولبنان، وبنسبة أقل في مصر والعراق ودول عربية وعالمية أخرى.

في حزيران من العام ١٩٦٧م، احتل الكيان الإسرائيلي الضفة الغربية والقدس الشرقية وقطاع غزة، إضافة إلى هضبة

(١) أمين هويدي: «أضواء على أسباب نكسة ٦٧ وعلى حرب الاستنزاف»، دار الطليعة للطباعة والنشر، طبعة ١٩٧٥، صفحة ٢٣٢.

(٢) الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٤، المجلد الرابع، ص ٣١٣ - ٣٣٦.

أصبح هذا القائد رئيساً لمنظمة التحرير الفلسطينية، التي أصبحت فيما بعد بفضل نضالات طويلة ومريرة على كافة الأصعدة، ممثلاً شرعياً ووحيداً للشعب الفلسطيني في كافة أماكن تواجده.

ساهمت الدبلوماسية الفلسطينية إلى جانب البندقية المقاومة في لعب الدور الأكبر في إعادة أسم فلسطين على الخريطة السياسية العربية والعالمية، بل وأصبحت منظمة التحرير الفلسطينية الرقم الصعب الذي لا يمكن تجاوزه في المنطقة. وصولاً للعام ١٩٧٤م، عندما أعترفت الأمم المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية، بصفتها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني، ومنحتها صفة مراقب في المنظمة الدولية ومؤسساتها المختلفة، وفي نفس العام تم إستكمال الاعتراف العربي بالمنظمة، وتبعه الاعتراف الدولي شبه الشامل.

ولم تقتصر مسيرة منظمة التحرير الفلسطينية على حركة التحرير الوطني الفلسطيني «فتح»، رغم أنها كانت العمود الفقري للمنظمة، فقد ظهرت عدة حركات فلسطينية مقاومة وضعت بصماتها في خندق النضال الفلسطيني، فكانت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين وغيرها من الفصائل الوطنية التي توحدت تحت راية منظمة التحرير الفلسطينية.

وفي نهاية العام ١٩٨٧م، اندلعت الانتفاضة الشعبية الفلسطينية الأولى، كرد على الاحتلال الإسرائيلي وممارساته التعسفية، ومعبرة عن إرادة الشعب الفلسطيني في الحرية والاستقلال الوطني. وأدت هذه الانتفاضة إلى تفهم أعمق للقضية الفلسطينية من قبل المجتمع الدولي، وأثرت على الوعي الإسرائيلي، الذي بدأ يدرك أنه لا يمكن الاستمرار بالسيطرة على شعب آخر، كما فتحت الطريق أمام القيادة الفلسطينية لاتخاذ قرارات حاسمة تجاه التفاوض مع الكيان الإسرائيلي، والذي أصبح مع مرور الوقت، دولة معترفاً بها من معظم دول العالم.

في العام ١٩٩١م، اتخذت منظمة التحرير الفلسطينية قراراً تاريخياً عبر المجلس الوطني الفلسطيني (برلمان المنفى)، بالاعتراف بقرارات الأمم المتحدة الخاصة بالقضية الفلسطينية والصراع العربي - الإسرائيلي، وفي مقدمتها قرار: ٢٤٢ و٣٣٨، وكافة قرارات الجمعية العامة بما فيها القراران: ١٨١ و١٩٤، كأساس لأية تسوية سياسية مع إسرائيل، وهذا ما فسّر أن المنظمة قد قبلت بنهج التفاوض، كما تم إعلان دولة فلسطين المستقلة في المنفى على حدود الرابع من حزيران عام ١٩٦٧م، وعاصمتها القدس الشرقية المحتلة.

المبادئ (اتفاق أوسلو) في البيت الأبيض في واشنطن، في ١٣ أيلول من العام ١٩٩٢م، وهو الاتفاق الذي أعطى الشعب الفلسطيني فرصة إقامة سلطتهم الوطنية على أرضهم. وضمن مجموعة اتفاقات، جاء اتفاق غزة - أريحا أولاً في ١٤ أيار ١٩٩٤م، والذي سمح بإقامة السلطة الفلسطينية في قطاع غزة وأريحا، وبعدها اتفاق المرحلة الانتقالية الذي وقع في ٢٨ أيلول ١٩٩٥م، والذي وسع نطاق السيادة الفلسطينية لتشمل المدن والبلدات الفلسطينية.

كان من أهم القضايا التي ينص عليها اتفاق المرحلة الانتقالية، هو تأسيس مجلس تشريعي فلسطيني يتألف من ٨٨ عضواً، يمثلون كل المناطق الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة بما فيها القدس الشرقية المحتلة، وهذا يعني أن من حق الشعب الفلسطيني أن يكون له سلطة وطنية كاملة مؤلفة من ٣ سلطات: تشريعية وتنفيذية وقضائية، تماماً كما هو معمول به في أي نظام سياسي ديمقراطي.

#### ١ - المجلس التشريعي الفلسطيني:

هو أحد مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية، تم تأسيسه بناء على اتفاق

وفي ١٣ أيلول من العام ١٩٩٣م، اتخذت قيادة المنظمة قرار توقيع اتفاق إعلان المبادئ<sup>(١)</sup> (اتفاق أوسلو) في البيت الأبيض، وهو الاتفاق الذي أعطى الشعب الفلسطيني فرصة إقامة سلطتهم الوطنية على أرضهم. وضمن مسلسل الاتفاقات، جاء اتفاق غزة - أريحا أولاً في ١٤ أيار ١٩٩٤م، والذي سمح بإقامة السلطة الفلسطينية في قطاع غزة وأريحا، وفي اتفاق المرحلة الانتقالية الذي وقع في ٢٨ أيلول العام ١٩٩٥م، والذي وسع نطاق السيادة الفلسطينية لتشمل المدن والبلدات الفلسطينية. ومن أهم القضايا التي ينص عليها اتفاق المرحلة الانتقالية، هو تأسيس مجلس تشريعي فلسطيني يتألف من ٨٨ عضواً، يمثلون كل المناطق الفلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة بما فيها القدس الشرقية المحتلة، وهذا يعني أن من حق الشعب الفلسطيني أن يكون له سلطة وطنية كاملة مؤلفة من ٣ سلطات: تشريعية وتنفيذية وقضائية، تماماً كما هو معمول به في أي نظام سياسي ديمقراطي.

#### المحور الأول

#### المجلس التشريعي الفلسطيني

قررت قيادة المنظمة توقيع اتفاق إعلان

(١) Edward said: Peace and Its Discontents: Gaza - Jericho, 1993-1995, page 2.



إعلان المبادئ واتفاقية أوسلو الموقعة بين منظمة التحرير الفلسطينية وحكومة إسرائيل الذي وقع في ٢٨ أيلول ١٩٩٥ م.

وتعد تجربة السلطة الوطنية الفلسطينية أول تجربة حكم ذاتي للفلسطينيين. حيث قامت السلطات الإسرائيلية بإدارة المناطق الفلسطينية المحتلة من خلال الإدارة المدنية الإسرائيلية. وقد تضمن اتفاق إعلان المبادئ التزاماً إسرائيلياً بحل الإدارة المدنية، وكان لزاماً على الطرفين إيجاد جسم تناط به مسؤولية إدارة المناطق الخاضعة لسلطة هذه الإدارة. وبذلك تم الاتفاق على إنشاء مجلس يتم انتخابه من الفلسطينيين القاطنين في الضفة الغربية وقطاع غزة. وكانت فكرة المجلس التشريعي قد ظهرت في اتفاقية إعلان المبادئ الموقعة بين منظمة التحرير الفلسطينية وحكومة إسرائيل، حيث نصت الاتفاقية على «إنشاء مجلس حكم، ليملاً الفراغ الناتج عن انسحاب القوات الإسرائيلية من بعض المناطق الفلسطينية المحتلة». ونصت الاتفاقية المؤقتة المعروفة بأوسلو ٢، والتي تنص على «أن يتكون هذا المجلس من ٨٢ عضواً إضافة إلى الرئيس»، بحسب هذه الاتفاقية، كان يتعين على المجلس أن يقوم بالوظيفتين التشريعية والتنفيذية للسلطة الوطنية الفلسطينية، إلا أن قانون الانتخابات الفلسطيني رقم ١٣

لعام ١٩٩٥ م، والذي أصدره الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات لتنظيم العملية الانتخابية، حدد أعضاء المجلس بـ ٨٨ عضواً، وفصل أحكاماً مختلفة لاختيار المرشح الذي سيشغل منصب «الرئيس».

## ٢ - أسس المجلس التشريعي الفلسطيني:

في العشرين من كانون الثاني ١٩٩٦ م، توجه الشعب الفلسطيني في الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية إلى صناديق الاقتراع، للإدلاء بأصواتهم للمرة الأولى في تاريخهم، في انتخابات عامة ديمقراطية حرة ومباشرة، لاختيار رئيسهم للسلطة الوطنية الفلسطينية، واختيار ممثليهم في المجلس التشريعي الفلسطيني. وقد تمت الانتخابات برعاية دولية، وبإشراف أكثر من ألفي مراقب، يمثلون أربعين دولة وعشر منظمات دولية، وأربعين منظمة غير حكومية، إضافة إلى المراقبين المحليين وعدد كبير من الصحفيين والمؤسسات الإعلامية، حيث قدم الجميع شهادات إيجابية عن سير الانتخابات ونزاهتها.

شكلت هذه الانتخابات الخطوة الأولى في عملية الانتقال من حالة الثورة إلى حالة الدولة، وبناء المجتمع المدني الديمقراطي ودولة القانون والمؤسسات، كما مثلت هذه الانتخابات انحيازاً فلسطينياً لخيار الديمقراطية وتعبيراً عن الإرادة الشعبية

الأكيدة في المشاركة في صنع القرار. وقد كان الإقبال الشعبي للمشاركة في عملية التصويت كبيراً، إذ بلغت نسبة المقترعين ممن يحق لهم الإدلاء بأصواتهم ٧٣،٣٤٪ في الضفة الغربية و٨٦،٣٤٪ في قطاع غزة، فبلغت نسبة المشاركة في الضفة الغربية وقطاع غزة معاً ٧٩،٩٪، وذلك لاختيار ٨٨ عضواً من أصل ٦٧٢ مرشحاً، لملء مقاعد المجلس التشريعي الفلسطيني. وقد عكس توزيع المقاعد في المحافظات الفلسطينية الست عشرة، الحجم السكاني لكل محافظة، حيث احتلت محافظات الضفة ٥١ مقعداً، في حين خصص لمحافظات قطاع غزة ٣٧ مقعداً<sup>(١)</sup>.

وشارك في هذه الانتخابات ستة عشر حزباً وحركة سياسية، إضافة إلى عدد من المستقلين، وقد احتل الفائزون من الذكور ٨٣ مقعداً، (٩٤،٣٪) في حين نجحت في هذه الانتخابات ٥ نساء (٥،٧٪) من أصل ٢٥ مرشحة ضمن العملية الانتخابية للحصول على عضوية المجلس التشريعي. وفي ٧ آذار العام ١٩٩٦م، افتتح الرئيس الفلسطيني الراحل ياسر عرفات، رئيس

السلطة الوطنية الفلسطينية الجلسة الأولى للمجلس التشريعي بحضور ضيوف ممثلين لأكثر من ٦٠ دولة.

### ٣ - تركيبة المجلس:

قسّم النظام الداخلي للمجلس التشريعي الفلسطيني أعضاء المجلس الـ ٨٨ إلى هيئتين رئيسيتين:

الأولى: هيئة مكتب رئاسة المجلس، والثانية: اللجان البرلمانية الدائمة، كما للمجلس مؤسسة إدارية مركزية ومكاتب فرعية للدوائر الانتخابية الست عشرة.

ويتألف المجلس التشريعي من ٨٨ عضواً يتم اختيارهم عن طريق الانتخاب الحر من فلسطيني الضفة الغربية وقطاع غزة والقدس الشرقية، وقد تم تعديل النظام الداخلي للمجلس، ليرتفع عدد أعضاء المجلس إلى ١٣٢ عضواً في التعديل الدستوري الذي حمل الرقم ١٣ لعام ٢٠٠٥ م<sup>(٢)</sup>.

جدول توزيع نواب المجلس الأول على الدوائر حسب عدد السكان:

(١) قانون الانتخابات الفلسطيني رقم ١٣ للعام ١٩٩٥.

(٢) جهاد حرب: المجلس التشريعي الفلسطيني للمرحلة الانتقالية نحو تأسيس حياة برلمانية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد ١٠٠، أبو ظبي - الإمارات، ٢٠٠٤، ص ٢١.

الثاني) وأميناً للسفر، ويتم انتخاب أعضاء هيئة المكتب فردياً وبالاقتراع السري في بداية كل دورة برلمانية، والتي تصادف الأسبوع الأول من آذار من كل عام. أما أمين السر فقد كان في المجلس التشريعيّ الأول يشرف على جميع الشؤون الإدارية، ويعمل على تنفيذ قرارات المجلس وتبليغها للجهات المعنية، وضبط وحفظ وثائق المجلس، وفي نهاية الدورة العاشرة، أدخل المجلس التشريعيّ تعديلات على نظامه الداخلي<sup>(١)</sup>، وذلك في ٢٣ / ٢ / ٢٠٠٦ م، حيث فصل المستوى السياسي والبرلمانيّ عن المستوى الإداري، وانتقلت معظم صلاحيات أمانة السر إلى الأمانة العامة للمجلس التشريعيّ.

#### ٥ - اللجان البرلمانية

##### أ - اللجان البرلمانية الدائمة:

أقر النظام الداخلي عشرة لجان برلمانية دائمة متخصصة، وتعتبر هذه اللجان أداة المجلس الرقابية والتشريعية، فهي أشبه بالمطبخ الذي تعد فيه مشاريع القوانين والتقارير الرقابية، وتقترح التوصيات التي غالباً ما يتبناها المجلس كقرارات له، وهذه اللجان هي: لجنة القدس، ولجنة الأراضي ومقاومة الاستيطان، ولجنة شؤون

الرقم	اسم الدائرة	عدد المقاعد
١	القدس	٧
٢	غزة	١٢
٣	بيت لحم	٤
٤	جنين	٦
٥	الخليل	١٠
٦	جباليا	٧
٧	سلفيت	١
٨	طولكرم	٤
٩	طوباس	١
١٠	قلقيلية	٢
١١	نابلس	٨
١٢	رام الله	٧
١٣	خانيونس	٨
١٤	دير البلح	٥
١٥	رفح	٥
١٦	أريحا	١
	المجموع	٨٨

وشارك في هذه الانتخابات ستة عشر حزباً وحركة سياسية، إضافة إلى عدد من المستقلين. وكانت مدة المجلس أربع سنوات من تاريخ انتخابه، وتجري الانتخابات مرة كل أربع سنوات بصورة دورية.

##### ٤ - هيئة مكتب رئاسة المجلس:

تتكون هيئة مكتب الرئاسة من رئيس المجلس ونائبين (النائب الأول والنائب

(١) محمد خالد الأزعر، النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين، رام الله، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ١٩٩٦م، ص ٧٣.

دوراته العشر وكان من أهمها: لجان تقصي الحقائق حول قضايا متنوعة صحية وبيئية (تسرب شبكات الصرف الصحي)، واقتصادية (الشركات الاحتكارية)، وقضايا تتعلق بالحريات وحقوق الانسان (تقرير هيئة الرقابة العامة، الاعتداءات على المواطنين وأعضاء المجلس التشريعي، التدهور الأمني، فوضى السلاح) والقضايا السياسيّة (ملف المعتقلين السياسيين، الحوار الوطني، تنفيذ قرارات المجلس، عملية الإصلاح، مشروع القانون الأساسي، مشروع قانون الانتخابات العامة، مشروع قانون الاحزاب السياسيّة) وقضايا المفاوضات (ملف المعابر، الانسحاب من غزة، ميناء غزة) وأخرى تنظيمية خاصة بعمل المجلس (وضع آلية لعمل اللجان، البث المباشر لجلسات المجلس، عملية إصلاح وتطوير عمل المجلس).

### ج - المؤسسة الإدارية المركزية:

أنشأ المجلس التشريعيّ مؤسسة إدارية مركزية في مقره المؤقتين في رام الله وغزة، وذلك لإسناد المجلس والنواب في مهامهم الرئيسية، وتقديم المساعدة في الأمور التي تقع ضمن صلاحياتها. وكانت هذه المؤسسة تضم الدوائر التالية: دائرة مقرر عام المجلس واللجان، ودائرة الشؤون المالية، ودائرة الشؤون الإدارية، ودائرة الإعلام، ودائرة الشؤون القانونية، ودائرة

اللاجئين الفلسطينيين (اللاجئين والنازحين والمغتربين الفلسطينيين)، واللجنة السياسيّة، واللجنة القانونية، ولجنة الموازنة والشؤون المالية، واللجنة الاقتصادية (الصناعة والتجارة والاستثمار والإسكان والتموين والسياحة والتخطيط والموارد الطبيعية والثروة المائية والبيئة والطاقة والزراعة)، ولجنة التربية والقضايا الاجتماعية (التربية والتعليم والإعلام والشؤون الدينية والآثار والشؤون الاجتماعية والصحة والعمل والعمال والأسرى والشهداء والجرحى والمقاتلين القدامى والطفولة والشباب والمرأة)، ولجنة الداخلية والأمن والحكم المحلي، ولجنة الرقابة وحقوق الانسان والحريات العامة. وهناك لجنة خاصة تسمى، لجنة شؤون المجلس، وتتكون من هيئة مكتب الرئاسة وعدد من الأعضاء، وتقوم بمساعدة هيئة المكتب في إدارة المجلس واتخاذ القرارات. ويتم في بداية كل دورة برلمانية تحديد عدد أعضاء كل لجنة من اللجان الدائمة، ويتم انتخاب رئيس اللجنة ومقررها بالاقتراع السري داخل كل لجنة على حدة.

### ب - اللجان البرلمانية المؤقتة:

أعطى النظام الداخلي للمجلس الحق في تشكيل لجان مؤقتة لأهداف محددة، وقد شكل المجلس العديد من هذه اللجان في

أشهر، تبدأ الفترة الأولى في الأسبوع الأول من آذار، والثانية في الأسبوع الأول من شهر أيلول.

كما حددت أن تكون جلسات المجلس علنية وتعقد كل أسبوعين، كما يمكن عقد جلسات سرية في حالات خاصة بناء على طلب من رئيس السلطة الوطنية، أو رئيس المجلس وبموافقة ثلث أعضاء المجلس. أما اجتماعات اللجان البرلمانية الدائمة فتعقد كل أسبوعين، في غير أسابيع الجلسات، وتعقد اجتماعات اللجان بدعوة من رؤسائها، أو بطلب من رئيس المجلس أو أمين السر أو غالبية الأعضاء.

#### ٧ - مهام المجلس التشريعي:

حدد المجلس التشريعي الفلسطيني، وكما في أي برلمان ديمقراطي في العالم لنفسه مهمتين رئيسيتين: الأولى سن القوانين والتشريعات، والثانية مراقبة أداء السلطة التنفيذية، كما عمل المجلس على تنفيذ مهام أخرى، مثل تعزيز الديمقراطية والحياة البرلمانية، واحترام سيادة القانون في المجتمع الفلسطيني، ومهامه السياسية على الصعيدين الداخلي، وعلى صعيد العملية السلمية والمفاوضات، والتصدي لممارسات الاحتلال الإسرائيلي، ومهمة

العلاقات العامة والبرتوكول، والدائرة الفنية، ووحدة المساعدات الخارجية، ووحدة المرأة والطفل، ووحدة البحوث البرلمانية، والمكتبة البرلمانية، والمكاتب الفرعية.

كما شكل المجلس التشريعي مكاتب فرعية في كافة الدوائر الانتخابية الـ ١٦، وتكمن مهمتها الأساسية في ضمان التواصل بين الناخب والنائب، وتلقي شكاوى المواطنين، وتوزيع منشورات ومطبوعات المجلس التشريعي، وعقد الندوات وورشات العمل التي تعرف بدور المجلس وتقوم بتنظيم اللقاءات الجماهيرية للنواب. ويذكر أنه طرأ تطور على الوضع الإداري في ١٣/٢/٢٠٠٦م، حيث تم فصل المستوى الإداري عن المستوى السياسي البرلماني<sup>(١)</sup>، وتحولت المؤسسة الإدارية إلى أمانة عامة وفقا لتوصيات لجنة الإصلاح، كما تم إلغاء المكاتب الفرعية واستبدالها بمكاتب خاصة بالنواب.

#### ٦ - آليات عمل المجلس:

وضع النظام الداخلي آليات عمل المجلس، وكيفية عقد جلساته واجتماعات لجانه، فالمجلس يعقد دورة برلمانية سنوية تنقسم إلى فترتين، مدة كل فترة أربعة

(١) جورججقمان، الانتخابات التشريعية والتحول السياسي في فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٦٥، ٢٠٠٦م، ص ٦.

تتعلق بالدبلوماسية البرلمانية، وتوثيق علاقات المجلس التشريعي الفلسطيني بالبرلمانات العربية والدولية. وأخيراً مهمة المضي في عملية الإصلاح في مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية.

## المحور الثاني

### ١ - إنجازات المجلس التشريعي الأول:

بالرغم من قلة الخبرة وحادثة التجربة البرلمانية الفلسطينية، وبالرغم من الصعوبات والعراقيل التي واجهها المجلس التشريعي بسبب الاحتلال، استطاع المجلس في الفترة ما بين ١٩٩٦م - ٢٠٠٦م أن يعقد ٢٧٤ جلسة عادية وخاصة<sup>(١)</sup>.

جدول بعدد الجلسات وتوزيعها على دورات المجلس العشر:

الدورة	الأولى	الثانية	الثالثة	الرابعة	الخامسة	السادسة	السابعة	الثامنة	التاسعة	العاشر	المجموع
الجلسات العادية	٣٩	٢٨	٢١	١٦	١٨	١٢	٧	١٥	٢١	٢٣	٢٠٠
الجلسات الخاصة	٤	٤	١١	٩	٦	٢	٥	١٢	١٠	١١	٧٤

وكان المجلس التشريعي الأول قد حقق العديد من الانجازات في المجالات التي صوب جهوده نحوها، وأهمها:

العمل، وقانون الانتخابات العامة، وقانون انتخاب المجالس المحلية، وقانون تنظيم الموازنة، وقانون الخدمة العسكرية، وقانون

(١) جورجقمان، الانتخابات التشريعية والتحول السياسي في فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٦٥، ٢٠٠٦م، ص٧.

الزراعة، وقانون المرور، وقانون الطفل، وقانون الجمعيات الخيرية والهيئات الأهلية، وقانون التأمينات الاجتماعية، وقانون الصحة العامة، وقانون المعاقين، وقانون الأسرى في السجون الإسرائيلية، وقانون سلطة النقد، وقانون ضريبة الدخل، وقانون المياه.

### ب - في المحاسبة والرقابة:

رسخ المجلس الأول تقاليد برلمانية عصرية في المساءلة والشفافية، وأكد على الفصل بين السلطات الثلاث، احترام سيادة القانون، ومساءلة الوزراء والمسؤولين، ومراقبة أداء السلطة التنفيذية، ومن أجل هذه الغاية، وضع المجلس آليات رقابة صارمة منها، حجب ومنح الثقة للحكومة.

أقر المجلس الموازنات العامة للسلطة بعد عام مناقشات حثيثة مع السلطة التنفيذية، كما أقر خطة التنمية الفلسطينية، إضافة إلى مناقشة تقارير هيئة الرقابة العامة، واتخاذ القرارات الضرورية بشأنه، حتى أنه مارس المجلس حقه في مساءلة الوزراء وإستجوابهم، فقد بلغ عدد الأسئلة التي تم توجيهها للحكومة أو الوزراء خلال دورات المجلس العشرة<sup>(١)</sup>، ٤٣٤ سؤالاً،

شملت كافة القضايا والشؤون المدنية، والعدل، والصحة، والمالية، والاتصالات وتكنولوجيا المعلومات، والشؤون الاجتماعية، والخارجية، والتخطيط، والإسكان، والعمل، والداخلية، والحكم المحلي، والأشغال العامة، والتربية والتعليم العالي، والسياحة والآثار، والزراعة، والاقتصاد الوطني، والشباب والرياضة، والأسرى، والأوقاف، والثقافة والإعلام.

رصد المجلس التشريعيّ الاعتداءات والانتهاكات الإسرائيلية، وسعى إلى توجيه جهود السلطة التنفيذية لمواجهتها، وقد تم ذلك عبر لجان المجلس المتخصصة وهيئته العامة. وأصدر المجلس ٨٠ قراراً<sup>(٢)</sup>، عالجت استقلالية عمل الجهاز القضائي والرقابة على أداء الأجهزة الأمنية، ولم يقتصر المجلس على وظيفته التشريعيّة والرقابية فحسب، بل عمل على خلق تكامل بين السلطتين التشريعيّة والتنفيذية من جهة، ومؤسسات العمل الأهلي من جهة أخرى.

أصدر المجلس قرارات عديدة في مجال الدفاع عن حقوق الإنسان وحرية الرأي والتعبير، وتحريم مبدأ الاعتقال السياسي،

(١) لجنة الانتخابات المركزية الفلسطينية، دليل الانتخابات التشريعية الفلسطينية، ٢٠٠٦ م، رام الله، فلسطين.

(٢) المصدر السابق.

وتأكيد التعددية السياسيّة، كما بذل جهودًا حثيثة في دراسة شكاوى المواطنين المرفوعة له وحلها، وبسبب الدور الرقابي المتقدم الذي مارسه المجلس الأول، فقد شهدت علاقاته توترات وصدّامات مع السلطة التنفيذية وحتى مع الرئيس الراحل ياسر عرفات، وكل ذلك من أجل ترسيخ سلطة القانون.

### ج - في السياسة العامة والخارجية:

ألقي الوضع السياسي الفلسطيني بظله على البرلمان الفلسطيني، مما جعله يختلف عن مثيلاته من البرلمانات الديمقراطية في العالم، فشكّل ٣ لجان غير موجودة في البرلمانات الأخرى وهي: لجنة القدس ولجنة الأراضي ومواجهة الأستيطان ولجنة اللاجئين، إضافة إلى لجانه المتعددة الموجودة في البرلمانات الأخرى.

توقف المجلس أمام مجمل القضايا الوطنية، وناقش باهتمام العملية السلمية خاصة المفاوضات الفلسطينية - الإسرائيلية، واستحقاقات المرحلة الانتقالية، واحتلت قضايا الحل النهائي (القدس واللاجئين والإستيطان والحدود) حيزًا كبيرًا من عمله، حيث أولى قضية القدس أهمية خاصة، فأقر قانونًا خاصًا للقدس العاصمة، كما تصدى المجلس

ميدانيًا للانتهاكات الإسرائيلية وسياسة التهويد وبناء الجور الاستيطانية فيها. فأصدر قراره رقم: ٣/٧/٢٧٥ والقاضي بنقل أعمال جلسته إلى ساحة برج اللقلق، داخل أسوار المدينة المقدسة، والتصدي جنبًا إلى جنب مع الجماهير الفلسطينية للهجمة الاستيطانية المكثفة في المدينة المقدسة.

نشط المجلس في بناء روابط وعلاقات مباشرة مع جميع برلمانات العالم، فقد زار المجلس أكثر من ٦٥٠ وفدًا عربيًا وأجنبيًا، وكان من بين هذه الوفود رؤساء دول، ورؤساء حكومات، ورؤساء برلمانات، ووزراء خارجية، ومن أهم هذه الشخصيات: الرئيس الفرنسي جاك شيراك، والرئيس الصيني جيان زيمين، والرئيس الإيطالي كارلو تشامبي، والرئيس نيلسون مانديلا، كما قام أكثر من ٢٥٠ وفدًا من المجلس بزيارات إلى مختلف دول وبرلمانات العالم، حاملين القضايا الوطنية، وموضحين للعالم ممارسات الاحتلال على الأرض الفلسطينية وسياسته العنصرية. كما أعطى هذا الجهد الدبلوماسي نتائج إيجابية، تمثلت بخلق فهم عميق للقضية الفلسطينية، وللظروف الصعبة التي يعيشها شعبنا بسبب الاحتلال الإسرائيلي، كما خلق هذا الجو علاقات برلمانية قوية وثابتة مع معظم البرلمانات العالمية.



## د - في مجال الديمقراطية وحقوق الإنسان:

كرس المجلس جهداً كبيراً لتعزيز الديمقراطية وبناء أسسها، بهدف ترسيخ التقاليد البرلمانية في مجتمعنا الفلسطيني، وإشراك معظم قطاعات الشعب في صنع القرار، فقام بتحديد يوم السابع من آذار (ذكرى تنصيب المجلس) من كل عام يوماً للديمقراطية في فلسطين، حيث نظم المجلس حملات شعبية واسعة، شملت: فعاليات إعلامية وفكرية وسياسية ونشاطات اجتماعية، تهدف إلى خلق تقاليد ديمقراطية حضارية في المجتمع الفلسطيني وضمان حرية الرأي والتعبير واحترام مبدأ سيادة القانون وحقوق الإنسان.

### ٢ - المجلس التشريعي وعملية الإصلاح:

يسجل للمجلس التشريعي الفلسطيني أنه لاحظ مبكراً وعبر الممارسة العملية عيوب النظام السياسي الفلسطيني وبعض جوانب سوء الأداء والإدارة في السلطة، لذلك تعامل المجلس بجدية مع أول وثيقة فلسطينية، أُلقت الضوء على هذه العيوب، وهي تقرير هيئة الرقابة العامة الصادر في عام ١٩٩٧، حيث شكل المجلس لجنة خاصة لدراسة وبحث هذا التقرير، فكان لها

مجموعة من التوصيات، تبني المجلس معظمها، وأهم هذه التوصيات:

١ - غياب دور مجلس الوزراء كمؤسسة مستقلة، وبالتالي غياب دورها في إعداد مشاريع القوانين، وإقرار الأنظمة التي تنظم عمل الوزارات والمؤسسات العامة، إضافة إلى غياب خطة عمل واضحة يقوم بتطبيقها مجلس الوزراء.

٢ - تداخل وتكرار الصلاحيات بين الوزارات وعدم وضوح الهياكل الإدارية والتنظيمية لجميع الوزارات.

٣ - أوصت اللجنة بضرورة فصل اجتماعات مجلس الوزراء عن اجتماعات القيادة الفلسطينية.

٤ - على صعيد الإنفاق العام، وعبر دوراته، طالبت قرارات المجلس بضرورة توحيد حسابات السلطة الوطنية في حساب الخزينة العامة، كما طالبت بضرورة تطوير وزارة المالية، وبالتحديد دائرتي الموازنة العامة والرقابة والتدقيق، واستحداث دائرة تُعنى بإعداد الأنظمة واللوائح التنفيذية، وتحديد أسس ومعايير الموازنة وآليات الإنفاق.

٥ - أولى المجلس التشريعي أهمية كبيرة لتحديد الإطار الدستوري للسلطة الوطنية عبر إقراره بشكل مبكر للقانون

فلسطينية معقدة جداً، وفريدة من نوعها في العالم، فمن جهة كان الشعب الفلسطيني يقيم سلطته الوطنية وكيانه السياسي على أرضه في ظل استمرار وجود الاحتلال الإسرائيلي، وعدم قدرة هذه السلطة الفتية على بسط سيادتها على كامل الأرض والشعب الفلسطيني، ومن جهة أخرى كان الشعب الفلسطيني يمر بمرحلة ينتقل خلالها من حالة الثورة إلى حالة الدولة، وبناء المجتمع المدني الديمقراطي بما فيها من تعقيدات وعدم وضوح، خصوصاً في كيفية التعامل مع مبدأ فصل السلطات، وأيضاً مع مبدأ احترام سيادة القانون.

وإذا كان قدر المجلس التشريعيّ أن يعمل في ظل هذا الظرف الموضوعي المعقد، فإنه - أي المجلس - قد بدأ عمله في ظل ظرف ذاتي لا يقل صعوبة وتعقيداً، وبالتحديد أنه بدأ يعمل من نقطة الصفر، سواء على صعيد نقص التجربة البرلمانية، أو على صعيد عدم وجود مؤسسة إدارية تمتلك الخبرة لتقدم له الدعم للقيام بمهامه البرلمانية، أو في عدم وجود قاعة أو مبنى خاص بالمجلس يعقد جلساته فيه أو يدير شؤونه من خلاله. وإلى جانب هذا النهج الذي كرسته رئاسة المجلس في تأسيس

الأساسي، وإصراره المستمر من أجل المصادقة عليه، وكذلك عبر إقرار قانون السلطة القضائية وضمان استقلال القضاء.

شكلت مجموعة القرارات التي اتخذها المجلس<sup>(١)</sup> على هذا الصعيد خطة شاملة للإصلاح في مختلف المجالات وخاصة في المجالات: المالية والإدارية والقضائية والأمنية، فقد دعا القرار (١٩٥/١٦/٢) على سبيل المثال السلطة التنفيذية إلى ضرورة الالتزام بحدود الموازنة المعتمدة والتقيد بالقانون، وطالب القرار (٢٣/٢/٢١٧) السلطة التنفيذية بضرورة فتح حساب واحد لكل وزارة، ودعا القرار (١/٣/١٣٤) وزارة المالية للإسراع بتقديم الهياكل الوظيفية لجميع الوزارات ومؤسسات السلطة، وضرورة الالتزام بهذه الهيكليات، وهناك العديد من القرارات الأخرى.

### ٣ - المصاعب والعقبات:

يعتبر المجلس التشريعيّ أول تجربة برلمانية فلسطينية منتخبة ديمقراطياً، ويقوم بعمل برلماني يومي، لذلك كان من الطبيعي أن يواجه هذا المجلس مصاعب وعقبات، خصوصاً أنه يعيش ضمن حالة

(١) المجلس التشريعي الفلسطيني، القرارات، الدائرة الإعلامية، رام الله، ٢٠٠٣ م.

بشكل مباشر على أداء المجلس لدوره، وقيامه بمهامه، فقد منع نواب الشعب الفلسطيني المنتخبون من التنقل وممارسة عملهم.

وبالرغم من هذه الظروف الصعبة، وبالرغم من توجه الجهد الفلسطيني نحو التصدي ومواجهة العدوان الإسرائيلي، إلا أن المجلس التشريعي حرص على عدم تغييب دوره التشريعي والرقابي والسياسي، فواصل عمله وعقد جلساته في رام الله وغزة عبر نظام الربط التلفزيوني الـ video conference، وهو بذلك أول برلمان في العالم وفي التاريخ يعقد جلساته بهذه الطريقة. وحقق المجلس التشريعي إنجازات مهمة في ظل ظروف العدوان والحصار المشار إليهما، ومن الجدير بالذكر أن العديد من أعضاء المجلس التشريعي رغم الحصانة البرلمانية، فهم محكومون أو حوكموا في سجون الاحتلال الإسرائيلي، ومنهم من هو رهن الاعتقال الإداري.

جدول بأسماء المعتقلين من أعضاء المجلس التشريعي الفلسطيني<sup>(١)</sup>:

المؤسسة الإدارية المدربة والمهنية، فإن النواب أنفسهم كان عليهم أن يتلمسوا دورهم البرلماني من خلال التجربة المباشرة، والتعلم من الخطأ والصواب أثناء قيامهم بمهامهم التشريعية والرقابية، وتطوير أدوات وآليات عمل يمكنها أن تساعدهم في هذه المهام البرلمانية الجديدة عليهم.

#### ٤ - أثار العدوان والحصار الإسرائيلي على عمل المجلس:

في إطار العدوان الإسرائيلي المستمر على الشعب الفلسطيني، قامت سلطات الاحتلال الإسرائيلية بفرض حصار وإغلاق شامل ومشدد على المدن والقرى والمخيمات الفلسطينية، حيث قطعت أوصال الوطن بأكثر من ٦٠٠ حاجز عسكري، والتي قيدت تنقل الأفراد والبضائع. وقد ترك العدوان والحصار الإسرائيلي آثاره السلبية والمدمرة على مجمل الأوضاع الاقتصادية والسياسية والاجتماعية الفلسطينية وعلى عمل مؤسسات السلطة الوطنية الفلسطينية، ومن بينها المجلس التشريعي الفلسطيني الذي تعطلت إمكانية عقد جلساته واجتماعات لجانه، مما أثر

(١) مؤسسة الضمير لرعاية الأسير وحقوق الإنسان، اعتقال الديمقراطية: ملاحقة نواب المجلس التشريعي الفلسطيني،

٢٠ شباط ٢٠١٨ <http://www.addameer.org/ar>

الرقم	الاسم	الأحكام	التاريخ	السجن
١	مروان البرغوثي	حكم عليه بالسجن ٥ مؤبدات	٢٠٠٢/٤/١٥	سجن هداريم
٢	أحمد سعدات	حكم عليه بالسجن ٣٠ عامًا	٢٠٠٦/٦/١٣	سجن جلبوع
٣	محمد جمال التنشة	موقوف رهن الاعتقال الإداري	٢٠١٣/٢/٢١	سجن عوفر
٤	محمد أبو طير	موقوف رهن الاعتقال الإداري	٢٠١٣/٣/٢٧	سجن عوفر
٥	محمد ماهر يوسف بدر	موقوف رهن الاعتقال الإداري	٢٠١٣/١٠/٢٨	سجن عوفر
٦	حسن يوسف	موقوف رهن الاعتقال الإداري	٢٠١٤/٦/١٤	سجن عوفر
٧	عزام سلهب	موقوف رهن الاعتقال الإداري	٢٠١٤/٦/١٦	سجن عوفر
٨	حسني البوريني	حكم عليه بالسجن ١٢ شهرًا	٢٠١٤/٦/١٤	سجن عوفر
٩	عزيز دويك	حكم عليه بالسجن ١٢ شهرًا	٢٠١٤/٦/١٦	سجن عوفر
١٠	رياض رداد	موقوف رهن الاعتقال الإداري	٢٠١٤/٧/١٤	سجن مجدو
١١	نايف الرجوب	موقوف رهن الاعتقال الإداري	٢٠١٤/٧/١٤	سجن عوفر
١٢	خالدة جرار	موقوف رهن الاعتقال الإداري	٢٠١٥/٤/٢	سجن هشارون

الواقعة تحت سلطة الاحتلال هو انتهاك للقانون الدولي».

#### نتائج الدراسة:

- ١ - تأثر العقلية الإدارية الفلسطينية بطريقة الإدارة خلال تولي منظمة التحرير الفلسطينية مسؤولية الحكم.
- ٢ - تأثر المجتمعات الفلسطينية بالعديد من أنظمة الحكم القديمة والمجاورة.
- ٣ - عدم وجود بنية اجتماعية متجانسة، نتيجة تقسيم الاحتلال الإسرائيلي للتجمعات الفلسطينية إلى أقسام عديدة: مخيمات - مناطق تحت الاحتلال - عرب ال ٤٨ - تحت الإدارة الأردنية - تحت الإدارة المصرية - القدس الشريف....
- ٤ - صعوبة الأداء السياسي في ظل الاحتلال الإسرائيلي.

وقد اتخذت في الآونة الأخيرة عدة قرارات من هيئات ومؤسسات دولية فيما يخص الأسرى والمعتقلين من نواب المجلس التشريعي الفلسطيني، حيث دعا البرلمان الأوروبي في ٥ تموز العام ٢٠١٢م، «لإنهاء الاعتقال الإداري دون تهمة رسمية أو محاكمة للفلسطينيين من قبل السلطات الإسرائيلية، من أجل الوصول إلى محاكمة عادلة لجميع المعتقلين الفلسطينيين، وإطلاق سراح الأسرى السياسيين الفلسطينيين».

ومن جانبه أصدر الاتحاد البرلماني الدولي قرارًا اعتمد بالإجماع في ٥ نيسان العام ٢٠١٢م، ونص القرار على أنه «يؤكد الاتحاد من جديد موقفه في أن اعتقال السيد مروان البرغوثي ونقله للأراضي

٥ - قلة الخبرة في المجال التشريعيّ البرلمانيّ الفلسطينيّ بسبب صغر عمر المجلس التشريعيّ الفلسطينيّ (منذ العام ١٩٩٦م)، وتجميد عمله بسبب الخلافات السياسيّة الفلسطينيّة الداخلية.

٦ - عدم تلقي الخبرات التشريعيّة والبرلمانيّة من المصادر الأساسيّة التي تراعي ممارسة الديمقراطية ومداورة السلطة بأسمى معانيها.

٧ - اصطدام سنّ القوانين التشريعيّة بالنظم الإداريّة القائمة.

٨ - عدم مشاركة جميع شرائح المجتمع الفلسطينيّ في المؤسسات التشريعيّة، وإقصاء العديد من هذه الشرائح نتيجة انتماءات حزبية أو مناطقيّة...

٩ - عدم مشاركة المرأة الفلسطينيّة مشاركة فعالة في بنية المجلس التشريعيّ (تصل نسبة المشاركة حوالى الـ ٥٪)، واقتصار دورها على التمثيل الحزبيّ في المجلس.

#### التوصيات:

تأثرت الديمقراطية الفلسطينيّة، ببعض المؤثرات الخارجيّة كالتأثير العربيّ والإسرائيليّ والدوليّ، خاصة الأمريكيّ. وبما أن الديمقراطية في الوطن العربيّ ما زالت في بداية الطريق، فإن عدم حماسة الأنظمة العربيّة بوجود الديمقراطية في

بلدانها، لا يقل عن عدم حماسها لوجود الديمقراطية لدى السلطة الوطنيّة الفلسطينيّة. وافتقار الأنظمة العربيّة للممارسات الديمقراطيّة، يعادل افتقار السلطة الفلسطينيّة بقيادة الشعب الفلسطينيّ إلى منهجية ديمقراطيّة واضحة. وأما دعوة الدول الغربيّة، وفي طليعتها الولايات المتحدة، إلى تطبيق الديمقراطية الفلسطينيّة، فإنها دعوات كاذبة، لأنها مشروطة بعدم تأثيرها على مصالح تلك الدول من جهة، والمصالح الإسرائيليّة من جهة أخرى، خشية أن تؤدي الديمقراطية الفلسطينيّة إلى وجود معارضة إسلامية أو يسارية، تعارض المخططات والمصالح الغربيّة والإسرائيليّة في الشرق الأوسط، وقد ظهر ذلك جلياً، بافتضاح أمرها بعد فوز حركة حماس في انتخابات المجلس التشريعيّ الثاني عام ٢٠٠٦م، وعدم التعامل معها.

ويبقى العامل الإسرائيليّ من أقوى العوامل المؤثرة سلبيّاً على ديمقراطيّة السلطة الفلسطينيّة واحترامها لحقوق الإنسان الفلسطينيّ، وعلى الرغم من ادعاء إسرائيل أنها تفضل التفاوض مع أنظمة عربيّة فلسطينية ديمقراطيّة، إلا أنه من غير المؤكد أن إسرائيل تريد فعلاً وجود ديمقراطيّة لدى الفلسطينيين، على أساس أن ذلك يتناقض مع ادعائها بأنها تمثل واحة

٤ - نشر الوعي والثقافة بين الجماهير الفلسطينية بأهمية دور المرأة وتواجدها في مراكز صنع القرار كالمجلس التشريعي، والوزارات المختلفة، والمجالس البلدية والقروية والمؤسسات والجمعيات المختلفة.

٥ - مراجعة السياسات الحكومية ودراسة مدى توافقها مع مشاركة المرأة في صنع القرار، وفتح المجال أمامها للمساهمة في عملية التنمية ورسم السياسات وإجراء التعديلات والقوانين بما يخدم مصالح المرأة وحقوقها.

٦ - الأحزاب السياسيّة مطالبة بتعزيز الديمقراطية داخلها، والسعي لإنهاء حالة الانقسام لممارسة الدور البرلماني في أقرب موعد ممكن، والتضامن مع قضايا المرأة والدفاع عنها وتعزيز مشاركتها السياسيّة داخل الحزب وخارجه.

٧ - ضرورة توحيد جهود المؤسسات النسائية ومؤسسات المجتمع المدني، وضرورة وجود رؤية واضحة، وتبنيها لخطة استراتيجية تعمل على تحقيق أهدافها، وربط هذا الطرح بالقضايا المجتمعية.

٨ - الاستفادة من تجارب الدول الناجحة التي أسهمت سياساتها في تعزيز مشاركة المرأة السياسيّة.

الديمقراطية في منطقة الشرق الأوسط، وأن الديمقراطية من الممكن أن تجلب إلى السلطة تيارات سياسية معارضة لها، لا تستطيع أن تتحكم فيها أو تفرض الضغوطات عليها.

كما أن إسرائيل بصفتها قوة احتلال، تتدخل باستمرار في حث السلطة الوطنية، على قمع المعارضة الفلسطينية وزج عناصرها في السجون. وكانت قد أعلنت أنها تعارض وصول المعارضة الأصولية (التيارات الإسلامية) إلى السلطة، وأنه في حال وصولهم إلى السلطة، فإنها سوف تتخلى عن التسوية مع الفلسطينيين، وهو ما فعلته فعلاً بعد نجاح حماس في الانتخابات التشريعية عام ٢٠٠٦م.

#### وأهمها:

١ - إمكانية اللجوء إلى بعض تجارب دول المتقدمة في مجال الإدارة والتشريع.

٢ - إيفاد أعضاء المؤسسات التشريعية الفلسطينية في دورات تدريبية إلى الخارج للتدريب على أسلوب التشريع والإدارة الحديثة، والإلمام بالجوانب النظرية والتطبيقية للإدارة البرلمانية الحديثة.

٣ - الاستفادة من الخبرات الفلسطينية القديمة والشابة ذات الصلة بمجال الإدارة من خلال الدراسات والبحوث والكتب الدراسية والمراجع الجامعية.

## الاستنتاج:

لا تولى الإدارة الفلسطينية أدنى إهتمام بتطبيق القوانين بقدر ما تهتم بوجود هيكلية تشريعية فلسطينية أمام المجتمع الدولي، ويظهر ذلك جلياً من خلال عدم التزامها بتنفيذ القوانين المطروحة، أو إقرار مشاريع جديدة لتطوير العمل التشريعي، إذ أنه بدون ذلك الألتزام والدعم من جانب الإدارة، فإن برامج التطوير والتنمية سيكون مصيرها الفشل، وبناء على ذلك، فإن تبني الأسلوب الديمقراطي سيكون العلاج الناجع لتلافي جوانب الضعف والقصور في الإدارة العربية.

وتأتي أهمية الانتخابات التشريعية في الأنظمة السياسية الحديثة، بسبب ما تحتله الانتخابات من دور رئيس في خلق المؤسسات التشريعية في الدولة من جهة، ومن دعم حق المواطنين في المشاركة السياسية. ولهذا فإن الانتخابات النيابية الحرة، تشكل المعيار الأساسي لممارسة النظم السياسية للديمقراطية أو عدم ممارستها لها، للحصول على شرعية وجودها، وهي بمثابة أداة التعبير عن رغبات الشعب والمؤشر الرئيس على ما يطمح إلى تحقيقه. وتظهر أهمية الانتخابات، من خلال كونها تعزز الممارسات الديمقراطية، وتنشط المشاركة السياسية، وتؤدي إلى إقامة المجتمع المدني الفعال.

كما أن العلاقة السلبية بين المواطنين والسلطة في الوطن العربي، تعتبر من أهم أسباب حالات التردّي والتدهور الذي تعيشه الدول العربية، وأن فقدان المواطن حقوقه وحرياته الأساسية تجعله غير قادر على الدفاع عن سلطة تحرمه من تلك الحقوق والحرّيات، مما يجعله يعيش حالة من الخوف والقلق.

بعد الانتخابات التشريعية في العام ٢٠٠٦ م، بات من الصعب الحكم على الديمقراطية الفلسطينية، بعدما تشوهت نتيجة للخلافات بين حركتي فتح وحماس، والتي أدت إلى عدم انعقاد المجلس التشريعي الفلسطيني المنتخب، وبعد سيطرة حماس على قطاع غزة وتشكيل حكومة طوارئ في الضفة الغربية، ودعوة السلطة الفلسطينية في رام الله إلى انتخابات رئاسية وتشريعية مبكرة.

وهكذا خسرت التجربة الديمقراطية الفلسطينية التي أشاد بها المراقبون الدوليون عند إجراء الانتخابات التشريعية الأولى والثانية، كل ما حققت في السنوات الماضية. ولم يكن من المتوقع، أن تصل إلى ما وصلت إليه من عدم احترام وتقدير لإرادة الناخب الفلسطيني. وإجراء انتخابات المجلس التشريعي الفلسطيني الثاني عام ٢٠٠٦، وتأثير ذلك على الديمقراطية الفلسطينية.

## المراجع

### العربية:

- ١ - الأزعر، محمد خالد: النظام السياسي والتحول الديمقراطي في فلسطين، رام الله، المؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ١٩٩٦م.
  - ٢ - الحسيني، محمد أمين: الموسوعة الفلسطينية، المجلد الرابع، ١٩٨٤، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، ط ١.
  - ٣ - حرب، جهاد: المجلس التشريعي الفلسطيني للمرحلة الانتقالية نحو تأسيس حياة برلمانية، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، العدد ١٠٠، أبوظبي - الإمارات، ٢٠٠٤.
  - ٤ - جقمان، جورج: الانتخابات التشريعية والتحول السياسي في فلسطين، مجلة الدراسات الفلسطينية، بيروت، العدد ٦٥، ٢٠٠٦م.
  - ٥ - دروزة، محمد عزة: مذكرات وتسجيلات، ج ٢، ١٩٨٦، مطبعة صامد، دمشق، ط ١.
  - ٦ - قانون الانتخابات الفلسطيني رقم ١٣ للعام ١٩٩٥.
  - ٧ - السلطة الوطنية الفلسطينية، قانون الانتخابات الفلسطيني، رام الله، لجنة الانتخابات المركزية، ١٩٩٥م.
  - ٨ - لجنة الانتخابات المركزية الفلسطينية، دليل الانتخابات التشريعية الفلسطينية، ٢٠٠٦م، رام الله، فلسطين.
  - ٩ - المجلس التشريعي الفلسطيني، القرارات، الدائرة الإعلامية، رام الله، ٢٠٠٣م.
  - ١٠ - مشروع الدستور الفلسطيني، رام الله، المجلس التشريعي الفلسطيني، ١٩٩٧م.
  - ١١ - الملتقى الفكري العربي، التحول الديمقراطي في فلسطين - التقرير العام، القدس، ١٩٩٩.
  - ١٢ - منظمة التحرير الفلسطينية، الموسوعة العربية العالمية، المجلد ٢٤، ١٩٩٩، مؤسسة أعمال الموسوعة للنشر والتوزيع، ط ٢.
  - ١٣ - الموسوعة الفلسطينية، هيئة الموسوعة الفلسطينية، دمشق، الطبعة الأولى ١٩٨٤، المجلد الرابع.
  - ١٤ - نوفل، أحمد سعيد: توزيع القوى
- السياسية الفلسطينية المشاركة في الانتخابات، مركز دراسات الشرق الأوسط، عمان، ٢٠٠٥ م.
- ١٥ - هلال، جميل: النظام السياسي الفلسطيني بعد أوسلو، بيروت، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، والمؤسسة الفلسطينية لدراسة الديمقراطية، ١٩٩٨م.
- ١٦ - هويدي، أمين: «أضواء على أسباب نكسة ٦٧ وعلى حرب الاستنزاف»، دار الطليعة للطباعة والنشر، طبعة ١٩٧٥.

### (ب) المراجع الأجنبية :

- 1 - Abdul Hamid, Ra.ed, Legal & Political Aspects of Palestinian Elections, Israel - Palestine Center for Research and Information (IPCRI), London, Oakland and Jerusalem, 1995.
- 2 - Friedman, Gil, The Palestinian Draft Basic Law: Prospects and Potentials, Ramallah, The Palestinian Independent Commission for Citizens Rights, 1999.
- 3 - Edward said: Peace and Its Discontents: Gaza - Jericho, 1993-1995.

### (ج) الصحف والمجلات والمواقع

#### الإلكترونية :

- ١ - مجلة الأرض، الأصول القانونية والتنظيمية والإجرائية للانتخابات التشريعية الفلسطينية، العدد (٢)، شباط ٢٠٠٦م.
- ٢ - القانون الأساسي الفلسطيني، ٢٩/٥/٢٠٠٢م، الهيئة العامة للإستعلامات، موقع: مركز المعلومات الوطني الفلسطيني: <http://www.pnic.gov.ps/arabic/law/law-20.html>
- ٣ - لجنة الانتخابات المركزية الفلسطينية، (٢٠٠٦م)، تقرير الانتخابات التشريعية الثانية: ٢٥ كانون الثاني ٢٠٠٦م، رام الله، فلسطين، ص ٣١٥ [www.elections.ps](http://www.elections.ps)
- ٤ - مؤسسة الضمير لرعاية الأسير وحقوق الإنسان، أعتقال الديمقراطية: ملاحقة نواب المجلس التشريعي الفلسطيني، ٢٠ شباط ٢٠١٨ <http://www.addameer.org/ar>



## احتياجات المراهق في كنف الأسرة (لتطوير تحصيله العلمي)

### أمني سبتي

هذه المرحلة اكتسبت أهمية كبيرة، فتداعى إلى دراستها العديد من العلماء الاجتماعيين والتربويين، فتعددت الآراء، وتنوعت التوجهات، وتمت دراسة الموضوع من جوانب مختلفة.

كانت المراهقة ولا زالت موضوعاً مهماً وحساساً على المراهق نفسه من جهة، وعلى عائلته من جهة أخرى،

الأهل يجدون أنفسهم أمام سلوكيات جديدة تصدر من ولدهم لم يعهدها سابقاً، وردّات فعل صُعدوا لها، بالمقابل يعيش المراهق مرحلة من التغيرات البيولوجية والنفسية، فتؤثر على سلوكه وتصرفاته، لكنّها ليست العامل الوحيد المؤثر، فطبيعة العلاقات الأسرية لها دور مؤثر وفَعّال في هذه المرحلة، يؤثر على شخصية المراهق ومستواه العلمي والدراسي.

لذا فإنّ تفحص عملية التحصيل الدراسي بنظرة تحليلية وما يرتبط بها من

### المقدمة:

الأسرة في طبيعتها اتحاد تلقائي تُؤدى إليه الاستعدادات والقدرات الكامنة في الطبيعة البشرية النازعة إلى الاجتماع، فهي عبارة عن مؤسسة اجتماعية تضمن بقاء الجنس البشري، ودوام الوجود الاجتماعي؛ ويتحقق هذا الاستمرار من خلال كائنين لا غنى لأحدهما عن الآخر.

يولد الطفل فتحضنه الأسرة وترعاه لمدة زمنية طويلة؛ فتلعب الأم دوراً أساسياً ومحورياً، فهي منبع العاطفة والحبّ والاهتمام، ومصدرًا أساسياً للمعرفة والثقافة في المراحل الأولى؛ فالتربية منوطة بشكل رئيسي في مجتمعاتنا بالأم.

يترعّع الطفل في أحضان الأسرة، فتقدم له الحبّ والعطف والرعاية، فيبادلها بالطاعة والاحترام، لكن العلاقة بين الطرفين تتعرض إلى تغيّرات مع بلوغ مرحلة المراهقة.

والاجتماعي، ولكنّه لا يصل إلى اكتمال النضج إلا بعد سنوات عديدة قد تصل إلى ١٠ سنوات.

وهناك فرق بين المراهقة والبلوغ، فالبلوغ يعني «بلوغ المراهق القدرة على الإنسال، أي: اكتمال الوظائف الجنسية عنده، وذلك بنمو الغدد الجنسية، وقدرتها على أداء وظيفتها»، أما المراهقة فتشير إلى «التدرج نحو النضج الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي»؛ وعلى ذلك فالبلوغ ما هو إلا جانب واحد من جوانب المراهقة، كما أنّه من الناحية الزمنية يسبقها، فهو أول دلائل دخول الطفل مرحلة المراهقة.

ويشير ذلك إلى حقيقة مهمة، وهي أن النمو لا ينتقل من مرحلة إلى أخرى فجأة، ولكنّه تدريجي ومستمر ومتصل، فالمراهق لا يترك عالم الطفولة ويصبح مراهقاً بين عشية وضحاها، ولكنه ينتقل انتقالاً تدريجياً، ويتخذ هذا الانتقال شكل نمو وتغيّر في جسمه وعقله ووجدانه.

وجدير بالذكر أن وصول الفرد إلى النضج الجنسي لا يعني بالضرورة أنه قد وصل إلى النضج العقلي، وإنما عليه أن يتعلم الكثير والكثير ليصبح راشداً ناضجاً. للمراهقة والمراهق نمو المتفجر في

عوامل عديدة تؤثر فيها وترتبط بها لها أهمية قصوى، ذلك بأن معرفة هذه العوامل وآثارها على التحصيل الدراسي يسمح بالتوصل إلى ما يعوّق تلك العملية وبالتالي دراسة الطرائق والأساليب المناسبة لتفادي المعوّقات والوصول بالتحصيل الدراسي إلى أقصى حدّ ممكن. ولما كان من الطبيعي أن أي إصلاح تربوي يجب أن يبدأ بمحاولة رصد الواقع بإنجازاته ونواحي قصوره كان عليه أن يواكب التطور في التربية تطوراً مماثلاً في رفع الأداء الدراسي للوصول إلى مستوى عالٍ مرتفع من التحصيل العلمي للطلاب.

### مفهوم المراهقة:

ترجع كلمة «المراهقة» إلى الفعل العربي «راهق» الذي يعني الاقتراب من الشيء، فراهق الغلام فهو مراهق، أي: قارب الاحتلام، ورهقت الشيء رهقاً، أي: قربت منه، والمعنى هنا يشير إلى الاقتراب من النضج والرشد.

أما المراهقة في علم النفس فتعني: «الاقتراب من النضج الجسمي والعقلي والنفسي والاجتماعي»<sup>(١)</sup>، ولكنه ليس النضج نفسه؛ لأن الفرد في هذه المرحلة يبدأ بالنضج العقلي والجسمي والنفسي

(١) راجع الهنداوي، علي، علم نفس النمو، ط٦، دار الكتاب الجامعي العين، ٢٠٠٧م - ١٤٢٧هـ، ص: ٢٨٢.

عقله وفكره وجسمه وإدراكه وانفعالاته، مما يمكن أن نلخصه بأنه نوع من النمو البركاني، حيث ينمو الجسم من الداخل فسيولوجياً وهرمونياً وكيمياوياً وذهنياً وانفعالياً، ومن الخارج والداخل معاً عضوياً.

مصطلح المراهقة في «اللغة الأجنبية (adolescence) والفعل معناه كبر، والمراهقة هي المرحلة التي ينتقل فيها الكائن من الطفولة إلى الرشد، فهي انتقال من مرحلة الاتكالية إلى مرحلة الاعتماد على الذات»<sup>(١)</sup>.

أما في اللغة العربية فالمراهقة تعني كما ذكرنا الاقتراب والنمو، والمعنيان متقاربان يتضمنان الدلالة على المرحلة الانتقالية للمراهق، بما تتضمن من تغيرات.

#### دور الأسرة:

إنّ موقف الأهل يتجسّد بشكل متذبذب من المراهقين؛ يحاول الأهل دائماً أن يروا أنفسهم بأبنائهم، في مرحلة المراهقة يسقطون آمالهم على المراهقين أملين تحقيق ذاتهم من خلال أولادهم؛ لكن ما إن تتولّد لديهم صدمة فيخيب أملهم، لأن هذه المرحلة لها سماتها وتغيراتها الخاصة.

ينشد المراهق الاستقلالية، بالمقابل

يظهر الأهل تخوفهم من انتمايات ولدهم في العالم الخارجي فيحاولون السيطرة عليه؛ لكنّ استجابة المراهق تختلف باختلاف شخصياتهم بين الرفض، الرضوخ أو الاحتجاج، لكنّ الأهل يشعرون بفقدانهم القوة التي تمكّنهم من السيطرة عليه.

النظام العلائقي بين الأهل والمراهق يختلف باختلاف الأسر والوضع الاجتماعي والمعرفي، ومن مظاهر هذه العلاقات:

- موقف الأهل الذين لا يتدخلون في شؤون المراهقين، فيتركونهم دون توجيه أو ضبط وهذا ما يدفع بهم إلى القيام بشتى الأمور دون تفكير، إلاّ أنّه يظهر بمظهر السعيد والراضي، لكنّ الحقيقة النفسية بخلاف الظاهر؛ فيسيطر عليه الشعور بالإهمال والاعتراب عن الذات والعائلة، وهذه العلاقة من أكثر العلاقات التي تولّد مشاكل نفسية فتؤثر على سلوكياته ومستواه العلمي «إنّ هذا النمط من الأشخاص يظهر على السطح بمظهر السعيد الراضي والمستمتع بالحياة، لكنهم أكثر أنواع المراهقين عُرضة للاعتراب والانفصال النفسي عن الذات أو عن المجتمع»<sup>(٢)</sup>.

(١) سليم، مريم، علم نفس النمو، ط١، دار النهضة العربية بيروت - لبنان، ٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ، ص: ٣٧٥.

(٢) المصدر نفسه، ص: ٣٩٢ - ٣٩٣.

تجاه التصرفات غير المقبولة، لكنهم في الوقت نفسه يحترمون آراء مراهقيهم محتفظين بحقهم في التدخل والتقويم لبعض الأفعال.

من هنا لا بد أن نسلط الضوء على الأسلوب الأمثل لتعامل الأهل مع أبنائهم.

#### أولاً: الجو الأسري والتحصيل المدرسي:

إنّ تفحص عملية التحصيل الدراسي بنظرة تحليلية وما يرتبط بها من عوامل عديدة تؤثر فيها وترتبط بها لها أهمية قصوى، ذلك بأنّ معرفة هذه العوامل وآثارها على التحصيل الدراسي يسمح بالتوصّل إلى ما يُعَوِّق تلك العملية وبالتالي دراسة الطرائق والأساليب المناسبة لتفادي المعوقات والوصول بالتحصيل الدراسي إلى أقصى حد ممكن. ولما كان من الطبيعي أن أي إصلاح تربوي يجب أن يبدأ بمحاولة رصد الواقع بإنجازاته ونواحي قصوره كان عليه أن يواكب التطور في التربية تطوراً مماثلاً في رفع الأداء الدراسي للوصول إلى مستوى عالٍ ومرتفع من التحصيل العلمي للطلاب.

وفي اجتماعيات التربية يكثر استعمال جملة الظروف والمؤثرات الاجتماعية

● موقف الأهل الذين يبالغون في الحماية فيقفون بوجه المراهق رافضين رغبته بالاستقلال ويحرصون على إبقاء العلاقة التملكية، والتدخل في معرفة كل شيء وبمختلف الوسائل؛ من الحيلة إلى الضغط حتى التهديد، هذا النمط ينتج نوعين متناقضين من المراهقين، إمّا مراهق متمرد يرفض الرضوخ، وإمّا مراهق يفضل المسايرة والانصياع إلى أوامرهم «ويكون هدف المراهق مسايرة الركب والانصياع لأوامر المجتمع السلطة والأسرة»<sup>(١)</sup>.

● موقف الأهل الذين يتصرفون بحكمة وعقلانية وإدراك خصوصية المرحلة التي يمرّ بها ولدهم، وأنها مرحلة الصراعات الداخلية والتناقضات، فهو يمرّ في أزمة مع العالم ومع نفسه، يعارض، يثور؛ ليس حباً بالمعارضة ضدّ الأهل إنّما ظناً منه أنّها وسيلة لتحقيق استقلاليته.

إنّ معرفة الأهل بهذه الأمور تدفعهم إلى تقبّل المراهق بشيء من الواقعية، لكن لا يعني ذلك أن يترك المراهق دون توجيه، إنّما يضع الأهل حدود؛ لكنّها لا تكون اعتباطية بل هي قائمة على مبادئ واضحة، فيتصرفون بعقلانية ويتشدّدون

(١) سليم، مريم، مرجع سابق، ص: ٣٩٢.

المباشرة كالأُسرة والمدرسة في تأثيرها على التفوق أو القصور الدراسي على اعتبار أنهما لا يظهران في عزلة عن تلك السياقات الاجتماعية والاقتصادية والتربوية...التي تشكل المناخ التربوي العام المساعد لإفراز التفوق أو القصور الدراسي، ونقصد بالمناخ في معناه الواسع ذلك الوسط المباشر والتأثيرات الاجتماعية والنفسية والثقافية والتعليمية التي يعيش فيها التلميذ ويتأثر بها.

إلا أن أهم المناخات الأكثر تأثيرًا على التحصيل الدراسي هو المناخ الأسري بحيث أن مستوى ثقافة الأسرة وإمكاناتها ومدى قدرتها على مساعدة الطالب في تحصيله الدراسي، وكذلك توفر المناخ الأسري المهيأ للتحصيل والقائم على التفاعلات الإيجابية بين التلميذ والديه وإخوته فضلًا عن الرعاية والتوجيه الإيجابي الأسري للأبناء كلَّها ظروف وعوامل تؤدي إلى تحقيق التفوق.

وانطلاقًا من الرعاية الأسرية وأثرها على المستوى الدراسي للمراهق، سنقوم بعرض أسلوب التعامل مع الجوانب الاجتماعية، العاطفية والعقلية للمراهق والتي تترك أثرها في التحصيل المدرسي لهؤلاء المراهقين.

## ١ - الجانب الاجتماعي:

### العلاقة مع الأهل:

يشعر الآباء والأمهات بسعادة لاتوصف، وهم يرون براعمهم الصغيرة تنمو وتكبر أمام عيونهم، فيراقبون بحذر انطلاقتهم نحو الاستقلالية والاعتماد على النفس استعدادًا لدخول عالم الكبار، ويغامر البعض من الأهل بمنح أبنائهم مزيدًا من الثقة ليس لثقتهم المطلقة بهم وقدرتهم على التعامل مع المواقف الحياتية المتنوعة، ولكن لقناعتهم بأنهم مبدعون في كيفية التعامل مع استقلالية الأبناء وقدرتهم على امتلاك زمام الأمور وإمكانية التدخل في الوقت المناسب لحمايتهم من المخاطر المتوقعة.

وبالمقابل لا يتجرأ البعض الآخر من الأهالي على منح هذه الثقة، ويرادهم شعور بالضيق والقلق، يعجزون عن تقبل الكم الهائل من التغيرات في نمو شخصية أبنائهم، وقد يصل الأمر بهم أحيانًا إلى الرفض المطلق.

وأمام رغبة وحاجة المراهق للاستقلالية وتحقيق الذات وإثبات الوجود والتحرر من القيود والضوابط، يتأكد موضوع الثقة المتبادلة بين الأهل والمراهقين.

والسؤال هنا: ما هو السر الذي يجعل الأب والأم مصدر الثقة لأبنائهم في سنهم

الحرص؟ والتي تكون خطوة إيجابية وفعّالة في بناء شخصية متوازنة ومتكاملة.

إنّ تكوين العلاقة الوديّة على أساس من الثقة المتبادلة بين الأهل والمراهق ضرورية وبالتالي فإن اقتناع وإعجاب الابن بأبيه وأمه ينعكس إيجاباً على محيطه الذي يعيش فيه، ففي هذا السنّ نرى الكثير من الأبناء يلجؤون إلى المقارنات بين أهلهم وأهل زملائهم، والذي لاشك فيه أنّ تقبّل الوالدين للمراهق أو رفضهما له يترك أثراً كبيراً على شخصيته، وفي حال تقبّلها له سوف يكون الدواء الأفضل لنمو ذاته، أما في حال الرفض فإن ذلك يعيق عملية النمو، فالغالبية العظمى من الأهل يرغبون في التقبّل ولكنهم يجهلون الطريقة، فمنهم من يلجأ إلى الدلال المفرط دون أن يدركوا أن الدلال قد يكون نوعاً من التسلط الأعمى.

ومن خلال المقابلات مع عدد من المراهقين<sup>(١)</sup> تبين أن العدد الأكبر يقارن والديه وأسلوب تعاملهم معه بأسلوب تعامل أهل زملائه، ويتخذ موقفاً منهم على هذا الأساس، واللافت في ذلك أن هذه المقارنة لا تتم عندهم على أسس سليمة، فتقول إحدى المراهقات «أنا لا أحب والدي، لأنها لا تفهمني وأتمنى أن تكون مثل والدتي»

صديقتي فهي تسمح لها أن تفعل ما تريد دون أن تحاسبها». من هنا تبرز الحاجة الملحة لتوطيد العلاقة بين الأهل والمراهق وبناء جسور الثقة القائمة على الشفافية والوضوح والتي تعتبر الخطوة الأولى لفتح مغاليق أبواب المراهقة الموصدة، فهم في هذه المرحلة بحاجة إلى الشعور بالأمان وتعزيز توكيدهم لذاتهم بعيداً عن النظرة الأبوية التي تحاول توجيههم بالأوامر على طريقة (إسمع ونفذ)، أو نقد تصرفاتهم باستمرار، وهي سلوكيات سلبية تعيدهم لموقعهم الطفولي الذي يسعون للانفكاك عنه؛ إنّ تفهّم هذه المرحلة وخصائصها يساعدهم في الوصول إلى قلب وعقل المراهق.

من هنا ينبغي أن تتسم الجهود بالجديّة والصدق لكسب صداقتهم وثقتهم، وهنا لا بدّ من الحكمة في التعامل مع الموقف وخطورة انتشار ما أرادوا إخفاءه لأنه سيشكل انتكاسة وفقدان الثقة بكل من حولهم.

كذلك تعزيز الدور الإيجابي والحيوي لهم في التفاعل مع واقعهم، وأن لا يكونوا مهملين وشخصياتهم مهمشة، لذلك على الأهل إتاحة الفرصة الكاملة للتعبير عن

(١) مقابلة مع ١٠ مراهقين، أعمارهم بين ١٤-١٦ سنة في المرحلة الثانوية، أبرز سؤال: ما هي أهم الأمور التي تعتبرونها معياراً للتعبير عن حبّ أهلكم لكم.

ذاتهم وآرائهم بصدق وأمانة، وممارستهم حقوقهم وغرس المفاهيم الإيجابية كالعزّة والكرامة والحق؛ ليكون المراهق إنساناً يعرف حقوقه ومسؤولياته؛ يثق بنفسه ويبدع بعطاءاته، وهذه المفاهيم تعدّ اللبنة الأولى التي ستقوم عليها أساسات المجتمع.

وعلى مؤسسات المجتمع جميعاً دور في إيجاد شخصية فاعلة بدءاً من دور الأسرة في رعايته الرعاية الكريمة واحترامه وإشعاره بكرامته، ومروراً بالمؤسسة التربوية من خلال اعتماد أسلوب الحوار والنقاش لإثارة إبداعاته، إذن مرحلة المراهقة هي مرحلة ذهبية يمكن أن تساهم بظهور مبدعين وقياديين وشخصيات سوية وفاعلة، ويمكن أن تجهز ذلك بالأسلوب العشوائي البعيد عن التخطيط الواعي والمستند إلى خصوصية المرحلة وكيفية التعامل معها.

إذن على الأهل أن:

- يتقبلوا ولدهم كما هو، وأن يعاملوه بعدل، ويحترموا شخصيته، وفي الوقت نفسه عليهم أن يتجنبوا التأنيب والتوبيخ أو أن يقارنوه بأحد إخوته ودعوته للتمثل بهم في المدرسة،

فاعتماد أسلوب المناقشة والحوار هو الحل الأمثل، «وان أسلوب الهيمنة والتسلط على المراهق بالقوّة، دون الأخذ بالاعتبار مبادئ الاحترام والفهم المتبادل، هو أسلوب غير مجد وخاطيء، ويؤكد علماء النفس والتربية على أن العلاقة يجب أن تبتني على أساس من الوعي واللين والتوجيه»<sup>(١)</sup>.

- إيجاد التوازن بين الاعتماد على النفس، وخروج الأهل من دائرة النصح والتوجيه لأبنائهم إلى دائرة الصداقة وتبادل الأحاديث وبناء جسور من الصداقة لنقل الخبرات بلغة الصديق والأخ، فهو السبيل الأمثل لتكوين علاقة متينة بين الأهل والمراهقين، والابتعاد عن لغة الأمر؛ يقول الدكتور توما خوري «لجوء الوالدين إلى مصادقة المراهق أو المراهقة بصدق، وثقة مميزة، وشعور بالعطف والاهتمام، يجعله مواطناً صالحاً يستطيع مواجهة مشكلاته وحلّها عن طريق الحوار، والإيجابية والمنطق»<sup>(٢)</sup>.

- إشراكهم في عملية توزيع مهام العمل بين أفراد الأسرة، وهذا يشعرهم

(١) القائم، علي، دنيا الفتيات المراهقات، ط ٢، دار النبلاء، بيروت - لبنان، ٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ، ص: ٣٤٨.

(٢) خوري، توما، سيكولوجية النمو عند الطفل والمراهق، ط ٢، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م - ١٤٢٣هـ، ص: ١٠٧.

بالعدالة أولاً، والمشاركة في اتخاذ القرارات العائلية ثانياً، والأخير يشبع حاجة أساسية يبحث عنه المراهق وهو الانتماء «يرضى الانسان عادة عن نفسه وعن عمله، ويحب أن يستحسن الآخرون ذلك ويشجعونه عليه»<sup>(١)</sup>.

● التحفيز والتشجيع عند إنجاز العمل المنوط به يساعد على إرضاء ذاته والشعور بالتقدير والاهتمام من الآخرين.

يجب على الأهل استثمار هذه المرحلة إيجابياً، وذلك بتوظيف وتوجيه طاقات المراهق لصالحه شخصياً، ولصالح أهله، وبلده، والمجتمع ككل. وهذا لن يتأتى دون منح المراهق الدعم العاطفي، والحرية ضمن ضوابط الدين والمجتمع، والثقة، وتنمية تفكيره الإبداعي، وتشجيعه على القراءة والاطلاع، وممارسة الرياضة والهوايات المفيدة، وتدريبه على مواجهة التحديات وتحمل المسؤوليات، واستثمار وقت فراغه بما يعود عليه بالنفع.

## ٢ - الجانب العقلي:

يتم في أثناء المراهقة زيادة الفعاليات العقلية المتنوعة للمراهق فتقوى قابليته للتعلم والتعامل مع الأفكار المجردة وإدراك

العلاقات وحلّ المشكلات وباكتمال النمو العقلي تظهر لديه قدرات خاصة وقدرات لغوية كموهبة استعمل الجمل وهذه القدرات تكتمل بنمو الذكاء حيث تزداد سرعة التحصيل والإمكانية للقراءة والجدّ وينمو الإدراك والتذكر وتنمو القدرة على الاستدعاء والتعرف والتخيّل وحلّ المشكلات والتحليل والتركيب ويرتبط هذا كلّه بالذكاء لذا يجب أن تصاغ المناهج بطريقة تتعايش مع النمو العقلي للمراهق.

## أ - عمليات الإدراك:

يختلف إدراك الطفل عن إدراك المراهق اختلافاً يتجه بالفرد نحو التطور الذي يرقى به من المستوي الحسيّ المباشر إلى المستوي المعنوي المجرد.

فإدراك الطفل الحروب مثلاً يتلخص في الآثار المباشرة للغارات الجوية وما يراه فيها من تخريب مباشر، وأن إدراك المراهق يستطرد ليرى في هذه الغارات الجوية نذير خراب مقبل يهدد حياة الناس ما دامت الحرب قائمة أي أن إدراك المراهق يمتد عقلياً نحو المستقبل القريب والبعيد، بينما يتمركز إدراك الطفل إلى حد كبير في حاضره الراهن.

هذا بالإضافة إلى أن المراهق أقوى انتباهاً من الطفل لما يدرك ويفهم وأكثر

(١) القائي، علي، دور الأم في التربية، ط ٥، دار النبلاء، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ، ص: ١١٨.



ثباتًا واستقرارًا في حالته العقلية، وترتبط هذه الناحية من قريب بتطور قدرة الفرد على التركيز العقلي والانتباه الطويل.

هكذا نجد أن إدراك الفرد يتطور من الطفولة إلى المراهقة، فيمتد في المستقبل، ويتسع في المدى ويعلو في المستوى، ويهدأ بعد تحول وتقلب ويستقر بعد تذبذب وتشتت.

### ب - التذكّر:

تنمو قدرة المراهق على التذكّر أفضل بكثير من قدرة الأطفال، فنجد أن الأطفال يميلون للتذكّر الآلي كما يحدث في الأناشيد والأغاني بينما يختلف الحال في حالة المراهقة حيث يميل المراهق لأن يتذكّر الموضوعات المنطقية أي يصل للتذكّر عن طريق إتباع خطوات منطقية حتى يصل إلى النهاية المرغوبة، ولذلك تزداد قدرة المراهق على التعليم أكثر من الأطفال.

وترتبط عملية التذكّر في آفاقها المختلفة بنمو قدرة الفرد على الانتباه ولهذا يتأثر مدى تذكّر الطفل تأثيرًا مباشرًا بالنشاط العقلي الذي يعقب حفظه مباشرة وأن الانتقال المفاجئ من عملية تعليمية لأخرى يعوق حفظ العملية الأولى وتقل شدة هذه الإعاقة في المراهقة لنمو مقدرة الفرد على الفهم العميق من موضوع آخر بعد إجادته للموضوع الأول.

### ج - التفكير:

إنّ للبيئة أهمية كبيرة في نمو التفكير ذلك بأنّها تسفر في جوهرها عن نوع ومدى وشدة المشكلة التي يعالجها المراهق.

وعموماً نجد أن تفكير المراهق يتأثر بالبيئة تأثيرًا يحفزّه على ألوان مختلفة من الاستدلال، وحلّ المشاكل حتى يستطيع الفرد أن يكيّف نفسه تكيّفًا صحيحًا مع البيئة المعقدة المتشابكة المتطورة مع نموه.

والتفكير الإبتكاري يتسع كذلك خلال فترة المراهقة حيث أن المراهقين المبتكرين يتميزون بحبّ الاستطلاع والبحث عن المثريات الجديدة.

ونقول في نهاية هذه النقطة أن العالم الفكري للمراهق أكثر تناسقًا وانتظامًا من عالم الطفل وأكثر معنوية وتجريدًا، ولهذا يستمتع المراهق بالنشاط العقلي و يمضي وقتًا طويلًا في فهمه الفكري العميق لكل ما يحيط به. بعد هذا العرض المقتضب، لا بدّ أن نشير إلى أهم العوامل التي تؤثر على النمو المعرفي والعقلي للمراهق:

### ١ - الوراثة:

وهي الصفات الجسمية والتشريحية المنحدرة إلى المراهق من آبائه وأجداده، وتورث الاستعداد والتهيؤ التكويني لوجود ظاهرة الفروق الفردية ووجود صفة خلقية

تنمية التفكير والقدرات العقلية من البيئة الفقيرة في هذه العناصر، «إن البيئة الأسرية الغنية بالمتغيرات، لا شك في أنها ستكون عوناً في نمو مواليدها، وبالعكس فإن اضطراب العلاقات الأسرية وتخلي الوالدين أو أحدهما أو كليهما عن أدوارهما التربوية، ستؤثر سلباً على نمو الأطفال والمراهقين.

إن البيئات الاجتماعية الفقيرة لا توفر الإمكانيات اللازمة لرعاية أفرادها في كل سني حياتهم، والثقافات الديمقراطية المتجددة والمرنة هي الأفضل لنمو الأفراد جميعاً من الثقافات الجامدة والتقليدية المتحجرة والمتسلطة»<sup>(٢)</sup>.

إذن إضافة إلى الثراء الفكري عند الأهل، يبرز أهمية الجو الأسري والتماسك بين أفراد العائلة، الذي يوفر للمراهق البيئة الملائمة للنمو العقلي والفكري المتوازن والسليم.

### ٣ - التعليم:

يعدّ التعليم من العناصر الهامة في تنمية وصقل القدرات العقلية والذكاء العام من حيث أن التعليم يقدم للمراهق القوالب التي يضع فيها تفكيره ويمكنه من استخدام الاستدلال والاستنتاج والتحليل.

أو أحداث سلوك معين وقد ثبت أن الأبناء المرتفعي الذكاء والقدرات العقلية هم منحدرين من آباء مرتفعي الذكاء أيضاً، وأن الأبناء متوسطي ومنخفضي الذكاء يكون آباؤهم أو من هم من سلالاتهم كذلك تقول الدكتورة مريم سليم «توضح دراسات الوراثة أن الإمكانيات الكامنة هي التي تورث، وتعتبر الوراثة عاملاً هاماً يؤثر في النمو من حيث صفاته ومظاهره، ونوعه، وزيادته ونقصانه، نضجه أو قصوره، وهكذا يتوقف معدل النمو على وراثة خصائص النوع، وتنتقل الوراثة إلى الفرد من والديه وأجداده وسلالته، وتبين أن الخصائص الجسميّة يمكن التنبؤ بها من الخصائص التي نعرفها في الوالدين»<sup>(١)</sup>.

### ٢ - البيئة:

تعدّ البيئة من العوامل المؤثرة في النمو المعرفي والعقلي من حيث أن البيئة هي مجموعة العناصر الثقافية والحضارية المحيطة بالفرد ويطلق عليها البيئة الاجتماعية وكذلك يعدّ من مكوناتها العناصر المادية والوسط التكنولوجي الذي يكشف المراهق، ويأتي تأثير البيئة في النمو المعرفي والعقلي من حيث ثراء وفقر عناصرها فلا شك أن البيئة الثرية بعناصرها الثقافية والحضارية أقدر على

(٢) المصدر نفسه، ص: ٢١.

(١) سليم، مريم، مرجع سابق، ص: ١٩.

#### ٤ - المدرسون:

وتنظيم خطته بنفسه، وتهيئته لرؤية الأخطاء على أنها خطوات إيجابية في سبيل الهدف وهي ليست عوائق تحول بينه وبين تحقيق غاياته.

○ إكساب المراهقين المفاهيم العلمية السليمة.

○ تزويد الشباب بالمهارات العقلية اللازمة للإسهام في بناء شخصية متكاملة.

○ صقل استعدادات المراهقين بتنوع أساليب الدراسة.

○ تبسيط عناصر البيئة المحيطة وتقديمها بصورة تضمن تفاعل المراهق معها.

○ تيسير الخبرات التي تسمح بنمو التفكير والعمليات العقلية العليا.

○ تشجيع الهوايات الابتكارية.

#### ج - الجانب العاطفي:

تعتبر العواطف من الذخائر الحيوية للإنسان، فالعواطف الإيجابية كالحب والإيثار والعفو والتسامح تجذب الإنسان.

العواطف تعتبر من مقومات الشخصية الإنسانية، تحتاج إلى توجيه وإرشاد وتربية، وهذا يبرز دور الأسرة في توجيه عواطف ولداهم في جميع مراحل حياته خاصة في مرحلة المراهقة.

يعتبر المدرّس من العناصر الهامة جداً في تنمية وتطور الجوانب المعرفية والعقلية فالمرهق يتطابق ويتوحد مع المدرس الذي يعجبه ويحاول أن يتأثر به وبسلوكياته ومن بينها طريقته في التفكير.

في العناصر المرتبطة بالمدرسين والتعليم علينا الابتعاد «عن الأسلوب التلقيني، فهذا سيشكل عائقاً في وجه النمو، تميّت العقول وتضعف الهمم»<sup>(١)</sup>.

ويبقى سؤال هنا؛ ماذا يمكن أن نقدمه لمساعدة المراهق في النمو المعرفي والعقلي؟

يجب أن نقدم هذه الخدمة من خلال برنامج متكامل متفاعل في كل جوانبه يكون للمجتمع فيه دور والمدرسة والأسرة وأهم النقاط التي يجب أن يركز عليها مثل هذا البرنامج ما يأتي:

○ تعزيز ثقة المراهق بنفسه: وهي خير وسيلة للتغلب على المخاوف التي تنشأ من شعور المراهق بضعفه وعجزه اتجاه النواحي العلمية والاجتماعية، ومن الوسائل الناجحة لبناء ثقة المراهق بنفسه احترام الآخرين آراءه، وتدريبه على القيام بتدبير أموره الهامة

(١) راجع، سليم، مصدر سابق، ص: ٢١.

إن الدور التربوي للأسرة عاطفياً، مرتبط بأسلوب تعامل الأهل مع المراهقين، فإن فُقد التسامح في الأسرة؛ كيف نطلب من أبنائنا أن يسامحوا، وإن كانت الشدة والتسلط هما المعيار في تعاملنا؛ فكيف نطلب من أولادنا أن يكونوا لينين.

الأسرة هي الموجه الأول والمؤثر الأهم في بناء شخصية سوية، المراهق إذا شعر بالفراغ العاطفي في أسرته، نراه يتدمر ويبحث عن بديل آخر يمكن أن يؤثر سلباً على حياته؛ لذا على الأهل مبادلة المراهقين مشاعر وأحاسيس الحب، خاصة «إنَّ مرحلة المراهقة والشباب هي مرحلة التفتح الأقوى للأحاسيس وتكوّن الشخصية، وهذه المرحلة تتمتع بحساسية وشفافية أكبر، وتتطلب الكثير من الدقة والمهارة، إن احترام شخصية الشباب والمسالمة والمداراة وغيض النظر عن بعض تصرفاتهم، التعامل معهم بمحبة وتوجيه، ومراقبة مطالبهم وعواطفهم، ويقومون في الوقت نفسه بمنعهم من الجموح والطغيان؛ يعدّ من المسائل الأساسية للتربية»<sup>(١)</sup>.

فالعاطفة لا بد أن تكون متوازنة، فلا إفراط ولا تفريط، وكلاهما يؤدي إلى

عواقب وخيمة، ولذلك ربطنا العاطفة بالتربية والتوجيه، فلا بدّ للأهل من امتلاك معرفة تربوية لتوجيه عواطفهم بشكل سليم، فالعاطفة بالنسبة إلى المراهق هي إحساس يريد أن يستشعره من والديه؛ وتبقى العاطفة ذات حدّين لا بدّ أن نوجهها بالأسلوب الصحيح والمؤثر «فلقد أظهرت الدراسات الاجتماعية أن الأفراد الذين كانوا محرومين من العاطفة، وتربوا في محيط بعيد عن المحبة العائلية أو واجهوا تحقيراً في محيط اجتماعي، إنهم كانوا معرضين أكثر للإصابة بضرر في أخلاقياتهم وروحياتهم»<sup>(٢)</sup>.

لذلك على الأهل أن يراعوا بعض الأمور مع أبنائهم:

● لا ينسأ طريقة العفو والمسامحة

العفو والمسامحة من الطرق التربوية الجيدة في عملية التربية، فلا بدّ من ترك أسلوب تتبع عثرات المراهقين باستمرار، خاصة إذا لم تكن خطرة، بل يجب أن يعفوا ويصفحوا، ويغضوا النظر عن بعض الأخطاء، موضحين آثارها السلبية بصورة غير مباشرة.

وعند اختيار العقاب لا بدّ أن يتناسب مع

(١) راجع، رهبر، محمد، رحيميان، محمد، التربية والأخلاق في الإسلام، ط ١، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، بيروت - لبنان، ٢٠٠١م - ١٤٢٢هـ، ص: ١٢١.  
(٢) المصدر نفسه، ص: ١٢٢.

الخطأ، ففي بعض الأحيان لا يوجد تلاؤم بين العقاب والخطأ الصادر من المراهق، وهذا يشكل خللاً في العملية التربوية.

#### ● عدم التمييز بين الأبناء:

إن تمييز الأهل بين الأولاد له تأثير سلبي خصوصاً على المراهقين، فالمراهق في هذه المرحلة يريد إثبات نفسه، وأي انتقاد يعتبره انتقاصاً، وهذه المسألة تزداد تعقيداً إذا شعر المراهق بالتمييز بينه وبين إخوته، وتخطي هذه المشكلة مرتبط بوعي الأهل، وتقديم عاطفتهم واهتمامهم لأبنائهم بالتساوي.

#### ثانياً: تأثير وعي الأهل لهذه الجوانب على التحصيل الدراسي:

بعد عرض أسلوب تعامل الأهل مع المراهقين، لا بد لنا من الإشارة إلى مسألة مهمة، إن توفير بيئة يسودها الاحترام، تبادل الآراء والحوار، تترك أثراً إيجابياً على الأداء المدرسي.

إن توفير البيئة السليمة لها أهمية كبيرة، بقدر ما تمتلك الأسرة الوعي بخصائص المرحلة بقدر ما تنجح في تنشئة المراهقين تنشئة سليمة، وتؤسس لشخصية تمتلك القدرة على التفوق.

شخصية المراهق تمثل المنطلق الأول للعلاقة بين الأسرة والمدرسة، تمارس تأثيرها انطلاقاً من معطيات أسرية سابقة.

إن تأثير المدرسة سيكون مرهوناً بحصاد التربية الأسرية، وهذا قد يعزز نجاح التلميذ أو قد يشكل عقبة في مسار التطلعات المدرسية، فالمراهق الذي تلقى العناية في أسرته وأحيط بالرعاية التي تؤسس لشخصية متكاملة في جميع أبعادها الاجتماعية، النفسية والعاطفية، هذه الرعاية بأبعادها تمكن المراهق من تحقيق نجاحاً أكبر في المدرسة قياساً بمن لم تُسَنح لهم هذه الفرص.

«إن تأثير الأسرة يستمر قوياً فاعلاً في مستوى نجاح التلميذ ومستوى تحصيله بصورة عامة، فعوامل الحياة الأسرية تمارس تأثيرها بفعالية كبيرة في المسيرة المدرسية، ومن العوامل المؤثرة: الاهتمام والرعاية»<sup>(١)</sup>.

بالمقابل إن إهمال الأبناء في هذه المرحلة أو فقدان الوعي التربوي للتعامل مع المراهقين سيؤدي إلى اضطرابات نفسية وعاطفية، تترك أثرها على الأداء والتحصيل المدرسي للمراهق.

«إن أساليب التنشئة وما تسببه العلاقة

(١) فياض، منى، الطفل والتربية المدرسية في الفضاء الأسري والثقافي، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان، ٢٠٠٤م، ص: ٣٧.

السيئة من حرمان عاطفي، يؤدي إلى اضطرابات نفسية، وقد أثبتت الدراسات أنّ الاضطرابات تؤدي إلى التأخر أو الفشل المدرسي، حيث تبين أنّ نجاح الطالب يتوقف على طبيعة العلاقات الأسرية وفقاً لدرجة استقرار العواطف والتخفيف من حدّة الانفعال.

وتؤثر الأسرة أيضاً في إغناء أو عدم إغناء القاموس اللغوي والمعرفي، ومساعدته لواجه مختلف الظروف وتمكينه من اعتماد الحلول المناسبة<sup>(١)</sup>.

إذن إنّ طبيعة العلاقات السائدة في الأسرة، لها دور في تحديد التأخر أو التفوق المدرسي، كما تبين مما ذكر سابقاً، إنّ البيئة الأسرية التي تنعم بالحبّ والحنان والرعاية لجميع الأبعاد والجوانب المختلفة في شخصية المراهق تنعكس إيجاباً على مستواه الدراسي والعكس صحيح.

«أوضح روزون واندريد أن الأبناء الذين ينشؤون في جو أسري يتسم بالتفاعل الإيجابي بين الآباء والمراهقين والمتمثل في اهتمام الآباء بما يؤديه الأبناء عندما يعبرون عن اهتماماتهم الخاصة وكذلك تشجيعهم ودعمهم من خلال إطار وتوجيه عام لما يؤدونه ودون التدخل في تفاصيل هذا الأداء يحققون إنجازاً دراسياً عالياً.

ويرى كرنندال ورفيقه أن التعزيز والدعم الوالدي لا يؤدي إلى تحقيق إنجاز عالٍ فقط بل يتعدى ذلك إلى تنمية روح المبادرة والتنافس وتطوير الأداء بحيث يصل إلى مستويات متقدمة ورفيعة. وتقول هيرلوك إن العديد من الطلبة ينجزون أقل من قدراتهم الحقيقية بسبب أنّهم تعلموا من بيئتهم سواء في البيت أو المدرسة أنّهم بلداء بينما ينجز الآخرون ما يفوق توقعات ذويهم نتيجة لما سمعوه من كلمات الشكر والتشجيع والتي تعزز ثقتهم بأنفسهم مما يزيد إنجازهم وتحصيلهم الدراسي. وفي مسح أجراه كولانجيلو و دوتمان حول الدراسات التي تعرضت لأسر الطلاب المتفوقين مع الاهتمام بخصائص هذه الأسر والعلاقة بين الآباء والأبناء خلالها، وقد تبين أن أسر الطلاب المتفوقين تتميز بتشجيع الاهتمامات والنشاطات الإبداعية وإعطاء الحرية الكافية للأبناء في اتخاذ قراراتهم وبتجاه إيجابي من قبل الوالدين نحو المدرسة والمدرسين والنشاطات العقلية وبمشاركة الوالدين في بعض النشاطات اللامنهجية أو المنهجية للأبناء.

وقد أوضح (تيفان ورفيقه) أن التنشئة الأسرية القائمة على تشجيع الأبناء على الاستقلال المبكر عن الوالدين يؤدي إلى

(١) الملف التربوي، ١٠ صيف ٢٠٠٥ م، ص: ٣٧.

بصور مختلفة في الظروف التي تحيط به في المدرسة وفي العلاقات التي تنشأ بينه وبين زملائه بل في دافع الإنجاز والتحصيل، وقد أكد أيضًا (جارون) على أهمية الدور الذي يقوم به عدد من العوامل غير المعرفية في التحصيل الدراسي ويذكر من هذه العوامل المستويات الاجتماعية - الاقتصادية والمستوى التعليمي للآباء والأمهات»<sup>(١)</sup>.

#### الختامة:

تبقى الأسرة من أهم النظم والمؤسسات الاجتماعية التي تقوم بعملية التنشئة الاجتماعية، لأن الدور الرئيسي في عملية التنشئة يقع على أكتافها، حيث يكتسب الأبناء منها كل ما يرتبط بإشباع رغباته وحاجاته كاللغة والعادات والمعاني وفق آداب سلوكية معينة، فهي الوحدة التي تقوم بتحويل الإنجاب البيولوجي إلى إنجاب اجتماعي وثقافي عبر عملية التنشئة الاجتماعية.

وهي وسط الانتماء الأصيل الذي تندرج فيه وتتكامل عناصر التنشئة من النواحي البيئية والسوسولوجية، فهناك ارتباط بين الواقع التربوي والاجتماعي للأسرة؛ فالحالة التعليمية للأبوين ووضعهما ونوعية

تنمية الطموحات المبكرة عند الأبناء وإلى تحقيق تفوق دراسي في المراحل المتقدمة من التعليم وخاصة التعليم الجامعي. وتبين (ثريا جبريل) أن بعض العوامل الاجتماعية المرتبطة بالأسرة تؤدي إلى انخفاض مستوى التحصيل الدراسي وهي ترتبط بسوء التوافق الأسري الناجم عن اضطراب العلاقة بين الزوجين أو انفصالهما مما يجعل جو المنزل غير مناسب للدراسة والتحصيل، كما أن للمعاملة الوالدية القاسية دورًا سلبيًا على قدرة الطالب على التحصيل فضلًا عن متابعة الآباء لتحصيل الأبناء ومدى اتصالهم وتعاونهم مع المدرسة، وعن أهمية المستوى الاجتماعي - الاقتصادي وأثرهما على الإنجاز المدرسي؛ أشار (بيكر) إلى ضرورة عزل أثر المستوى الاجتماعي - الاقتصادي عند دراسة أثر المتغيرات المختلفة في التحصيل الدراسي وهكذا يعطي (بيكر) أهمية لهما في التحصيل الدراسي إذ يأتي التلاميذ في المدرسة من مستويات اقتصادية اجتماعية متباينة ومن أوصاف ثقافية متعددة، ولاشك أنه ترتبط بكل مستوى من هذه المستويات قيم وأنماط وسلوك واتجاهات متميزة ولا شك أيضًا إنَّ انتماء الطفل إلى مستوى اجتماعي - اقتصادي معين يؤثر

(١) حمودي، أحمد، الحوار المتمدد (بحث اجتماعي استطلاعي).

الأعمال التي يمارسونها تؤثر بشكل واضح في فاعلية التنشئة؛ كقدرتهم على التحصيل الدراسي، والنمو الاجتماعي والجسمي، وإشباع الحاجات النفسية الاجتماعية لهم.

فهي المدرسة الأولى التي يتلقى فيها مبادئ التربية الاجتماعية والسلوك؛ وتبقى معاملة الوالدين لها الأهمية الأكبر في تحقيق التوافق النفسي والاجتماعي لأبنائها.

## المصادر والمراجع

- ١ - خوري، توما، سيكولوجية النمو عند الطفل والمراهق، ط ٢، مجد المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، ٢٠٠٣م - ١٤٢٣هـ.
- ٢ - سليم، مريم، علم نفس النمو، ط ١، دار النهضة العربية بيروت - لبنان، ٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ.
- ٣ - رهبر، محمد، رحيمان، محمد، التربية والأخلاق في الإسلام، ط ١، جمعية المعارف الإسلامية الثقافية، بيروت - لبنان، ٢٠٠١م - ١٤٢٢هـ.
- ٤ - فياض، منى، الطفل والتربية المدرسية في الفضاء الأسري والثقافي، ط ١، المركز الثقافي العربي، بيروت - لبنان.
- ٥ - القائي، علي، دنيا الفتيات المراهقات، ط ٢، دار النبلاء، بيروت - لبنان، ٢٠٠٢م - ١٤٢٣هـ.
- ٦ - القائي، علي، دور الأم في التربية، ط ٥، دار النبلاء، بيروت - لبنان، ٢٠٠٥م - ١٤٢٦هـ.
- ٧ - الهنداوي، علي، علم نفس النمو، ط ٦، دار الكتاب الجامعي العين، ٢٠٠٧م - ١٤٢٧هـ.



## تاريخ التعليم في لبنان ونشأة المدرسة اللبنانية عبر التاريخ «تعيين معلّم حيث لا يوجد معلّم»

أندريه قبصر جدعون

سيطرة الدولة العثمانية، ممسوكًا من قبل رجال الدين. فكان الخوري في كنيسته أو دير، والشيخ في مسجده، هو معلّم الصف ومديره وناظره والمحاسب المالي والأمر الناهي في شؤون التعليم والتربية كلّها.

لقد شكّلت المدارس الدينيّة المنطلق الحقيقي للحركة التعليميّة التي كانت طوائفيّة، ولكن مدرسة تحت السنديانة تبقى فجر التعليم في لبنان، ورمزًا للتّراث التربوي اللبناني وعلامة فارقة لبدايات التعليم فيه، دون أن ننسى دور الكنيسة المارونية التي كانت المؤسسة الدينيّة الوحيدة التي لم تخضع كليًا لإرادة السلطنة العثمانية.

### المدرسة المارونيّة

في الخامس من تموز سنة ١٥٨٤، أنشأ البابا غريغوريوس الثالث عشر المدرسة المارونيّة في روما. وجاء في البراءة الرسوليّة هذه الكلمات: «... نبني مدرسة

واكبت الإدارة الإنسان منذ وجوده، وعلى الرغم من بساطة حياته وعيشه، فقد انتهج الإدارة لتنظيم شؤونه. ومع تقدّم الحياة وتطوّرها، راحت فكرة الإدارة تزداد تبلورًا والحاجة إليها تتضاعف. ومن هنا تميّز الإدارة بحتميّة الانتشار في أنواع المؤسسات كلّها.

تُعتبر الإدارة المدرسيّة إحدى أهمّ الوحدات الإدارية في المجتمع، كيف لا وهي تضطلع بمهمّة راقية وأساسيّة تتمثل في إدارة مصنع فكري وتربوي يُعنى بتربية الأجيال وإعداد رجال المستقبل.

لذا نلجأ إلى دراسة تاريخ التعليم في لبنان في محاولة لتبيان عناصر هذه الإدارة، وتشكّلها وتطوّرها ورسم «بروفيل» لها عبر حقبات التاريخ، دون الادّعاء أنّ المقالة ستكون شاملة ومُلمّة بالجوانب كافة.

كان التعليم، في المناطق اللبنانية خلال

الموارنة ونوّسّسها حتى يتغذّى فيها ويتزيّن بالأخلاق الصالحة، ويتربى على التقوى والتعليم السليم والفضائل المسيحية الكاملة الواجبة كل مسيحيّ من شبان هذه الكنيسة».

وعن أهلهم والبحث عن طريقة لإعالة الفقراء منهم.

### حقيبة الأمير فخر الدين المعني الثاني الكبير (١٥٧٢-١٦٣٥)

شجّع الأمير فخر الدين بعد عودته من إيطاليا، إيفاد التلامذة إلى روما، ليتعلّموا اللغات الأجنبية وباقي العلوم. وعند عودتهم إلى لبنان، نشر هؤلاء ما تعلّموه بين الناشئين، ثم أسسوا المدارس للأحداث. كما ساعدتسامح فخر الدين في الشؤون الدينية على قدوم الإرساليات الأجنبية إلى لبنان، وإنشائها المدارس فيه، وأولها كانت إرسالية الآباء الكبوشيين.

أمّا أوّل مدرسة أنشأتها الكنيسة المارونيّة في لبنان، فكانت مدرسة حوقة في جبة بشرّي، عام ١٦٢٤، والتي جرى نقلها عام ١٦٧٠ إلى قنّوبين.

### البطيريركيّة المارونيّة وأولى محاولات التنظيم

بادرت البطيريركيّة المارونيّة والرهبانيّة اللبنانيّة إلى خلق أطر تنظيميّة تتولّى مهمّة إدارة المدرسة، وحساب المصاريف، وتنسيق عملية تعليم الأحداث. وانسجاماً مع توصيات المجمع اللبناني، المنعقد في حراش سنة ١٧٣٦، بذلت الرهبانيّة اللبنانيّة المارونيّة جهودها لتوسيع نشاطها التعليمي. فلبّت الحاجات وفتحت مدارس

عاد الطلاب إلى لبنان بعد تزوّدهم بالعلم لتعميم ما تعلّموه بتشجيع من البطاركة، الذين ناشدوا رؤساء الأبرشيّات والأديار أن يتعاونوا ويتضافروا على ترويح هذا العمل الكبير الفائدة فيُعنون أولاً بتعيين معلّم حيث لا يوجد معلّم، ويُدوّنون أسماء الأحداث الذين هم أهل لاقتباس العلم، ويأمرون آباءهم بأن يسوقوهم إلى المدرسة ولو مُكرهين. وإن كانوا أيتاماً أو فقراء فلتقدّم لهم الكنيسة أو الدير ضروريات القوت.

في نصّ مُناشدة البطاركة هذا، نقرأ بتعمّن العبارة «تعيين معلّم حيث لا يوجد معلّم»، ونُشير إلى أنّ مَنْ يُعيّن المعلّم هو الأعلى منه رتبة أي من يتولّى إدارة المدرسة. وهذا نص قيّم ومن النصوص القليلة من تلك الفترة الذي يأتي على ذكر السعي الحثيث للبطاركة إلى تشجيع رؤساء الأبرشيّات والأديار على تأسيس مدارس، وتعيين قيّمين أو مديرين عليها ومعلّمين لها وإرساء فكرة إلزامية التعليم من خلال سوّق الصبية إلى المدرسة، رغماً عنهم

في بعض القرى وعيّنت لها معلّمين، مثل دير القمر سنة ١٧٥٢، وصيدا، وعجلتون، وتنورين، وبسكنتا، رغم معاناتها الضّائقة الماديّة في تلك الفترة. وجرى احتساب النفقات عبر الوقفّيات.

فأضحى الرّاهب اللبناني مديراً للمدرسة، وناظرًا، ومعلّمًا، وفلاحًا وعمالا ومصليًا في آن معًا.

**الأمير بشير الثاني الشهابي الكبير (١٧٨٨-١٨٤٠)**

خلال الولاية الطويلة للأمير بشير بدأ المبشّرون والإرساليات بالتوافد إلى لبنان. كما تأسّست مدرسة دير المخلّص قرب صيدا في سنة ١٨٣١، وفي سنة ١٨٣٣ دخل الروم الأرثوذكس ميدان السباق، فأنشأوا مدرستهم الشهيرة في البلمند بالقرب من طرابلس. وبعد ذلك بسنتين، مدرسة الثلاثة أعمار في بيروت.

وتأسست مدارس جديدة في مختلف المناطق اللبنانية. وما تجدر ملاحظته، دور الرهبانيات النسائية الذي لم يكتفِ بالاهتمام بالمدارس وتولّي إدارتها والنجاح في هذا الميدان فحسب بل تعدّاه إلى فتح الميآتم والمآوي والمستشفيات والمستوصفات وإدارتها، للتخفيف من الويلات.

ساعد حضور الرهبانيات الأجنبية

وفتحها المدارس، على إعطاء النموذج الإداري التنظيمي المتّبع في دولهم. فعمد الرهبان اللبنانيون إلى تنظيم مدارسهم بحسب هذا النمط، وكان رئيس الدير أو من ينوب عنه، يُعنى بالشؤون الإدارية والمالية للمدرسة، وتعيين المعلّمين، وتنظيم الدروس وإجراء الامتحانات والترفيه، وتأمين معيشة المعلّمين وجمع الأكلاف من أولياء الأمور.

**انطلاق التعليم الرسمي ودور السلطنة العثمانيّة**

المحاولات الخجولة الأولى نحو إنشاء التعليم الرسمي بدأت في العام ١٨٣٨، بهدف إعداد جهاز إداري مُدرّب يكون أداة للإصلاح الإداري في أرجاء السلطنة العثمانيّة. ومن جملة التدابير العملية التنفيذيّة إنشاء مجلس دائم للمعارف، والتدرّج في التعليم في مستويات ثلاثة: ابتدائي وثانوي وعالي، ومجانّيّة التعليم الرسمي، وإضافة القراءة والكتابة والحساب إلى جانب التربية الدينيّة واللغة التركية، ومنح الطوائف حق إنشاء المدارس، وحظر إعطاء دروس تتعارض مع المبادئ الأخلاقية، وإخضاع برامج التعليم والمؤلّفات المدرسية لموافقة وزارة المعارف، والتشديد على إلزامية التعليم الابتدائي مع فرض عقوبة السجن على الأهل الذين يتمنّعون عن إرسال أولادهم

إلى المدرسة، ومجانية التعليم الابتدائي، واشتغال المدرسة على قسم الحضانة وقسم الفنون والصنائع.

ولكن عملياً، وفي أحسن الأحوال، اقتصر التعليم الرسمي على بعض المدارس الابتدائية، القليلة العدد والمبعثرة والمكوّنة كلّ منها من غرفة واحدة تضم أكثر من خمسين ولداً لا يؤمّها سوى أولاد الفقراء. وكانت هذه المدارس شديدة الانحطاط في مستوى تدريسها، وبرامجها واساتذتها، وأمكنتها، على عكس المدارس الخاصة التي كانت حسنة التنظيم، وراقية ومتطورة.

#### عهد المتصرفيّة

اهتم المتصرف الأول داود باشا لطلب سعيد بك تلحوق وكيل الطائفة الدرزية وأقرّ له ما يلي: أن يؤسس مدرسة في قرية عبيه لأنها متوسطة بين قرى الطائفة، ولأنّ هواءها صحّي. وأنّ ينتقي لها معلّمين للغة العربية، وللغات الأجنبية، تكون فيهم الكفاءة، وأيضا لتعليم الحساب، ويرتب لهم معاشاً بحسب استحقاتهم، وأن يقبل تلامذة بقدر احتمال إيرادات المدرسة لنفقات أكلهم وشراء كتبهم. إضافة إلى تعيينه خداماً، وطباخين، ومكارية، وأن يصرف ما يحتاج إليه التلاميذ من مأكّل، ومنزل، ومشترى كتب فقط. وأمّا فرشاتهم وكسوتهم وغير ذلك فيتكفّل بها الأهل.

وشدّد على إيجاد نظام للمدرسة، كان التالي:

أن يكون تعليم التلامذة سبع ساعات في النهار مُقطّعة غير مُتواصلة، وأن يتعلّم التلاميذ اللغة العربية، واللغة الأجنبية، وأصول الحساب، والخط، ومراسم الآداب. وأن يعيّن لهم أسبوعياً يوم واحد للتعطيل. وأن يجري في السنة على ما تعلّمه التلاميذ، «فحص واحد» بحضور المعلّمين الثلاثة، والناظر، ومن شاء من معتبري الطائفة، وآباء التلاميذ.

والملاحظ في خلال عهد المتصرفيّة، أنّ إدارة المدرسة اتّخذت شكلا واضحا، من أشكال التنظيم الإداري الذي نعرفه حالياً على الرغم من بدائيته. فلقد كان على رأس المدرسة، الناظر الذي يعمل على تعيين المعلّمين للمواد الدراسية، ويحرص على اختيار الأكفأ منهم، وتنظيم الحصص التعليمية، وأيام التعطيل واستقبال التلامذة وتسجيلهم والحرص على المصروف وتحصيل المدخول، وتأمين الطعام والكتب، وبمعنى آخر كان مُصرفاً للأعمال في المدرسة من إدارية وتعليمية ومالية كافة.

ولم تُرد الطائفة الأرثوذكسيّة أن تبقى بعيدة عن الحركة العلمية التي أخذت تزدهر في بيروت، فشاركت السيدة لبيبة جهشان

### خلال حقبة الانتداب الفرنسي

خلال الحرب العالمية الأولى، أصيب لبنان بكارثة حقيقية، ولم تسلم المدارس التي أغلقها العثمانيون أو أُغلقت حكماً نتيجة للظروف. ومع إعلان الانتداب، سعت فرنسا إلى تشجيع التعليم الخاص الأجنبي والأهلي، ودعت الطوائف إلى إعادة فتح مدارسها وخصصت لها المساعدات الكبيرة. وهنا اتخذت المدرسة صورتها الإدارية التي نعرفها اليوم، فكان لها المدير رأس السلطة المدرسية، يعاونه جهاز إداري، وهيئة معلّمين تعمل بتوجيهاته وإرشاداته، وهناك برامج تُدرّس وأقسام تُجبي.

يُشير تقرير للسيد واصف بارودي مدير التربية الوطنية عام ١٩٣٨ أنّ عدد التلامذة، بلغ آنذاك حوالي ستّة عشر ألفاً (١٦,٠٠٠) في القطاع الرسمي، يُقابلهم تسعون ألفاً (٩٠,٠٠٠) في القطاع الخاص الأجنبي والمحلي. في حين كانت النسبة تلميذ/معلم، واحد إلى مئة.

أما سياسة المُنتدب الفرنسي فكانت واضحة في لبنان لجهة تأمين مصالح فرنسا الاستعمارية والتجارية. وعملياً يتلخّص موقفه بجعل التعليم الرسمي في المرتبة الثانية بعد التعليم الخاص، وبالتشجيع اللامحدود للتعليم الخاص

في تأسيس جمعية ومدرسة زهرة الإحسان الأرثوذكسية في محلّة الأشرفيّة، وذلك لتأمين التربية والتعليم لأبناء الطائفة الأرثوذكسية.

أمّا المدارس التقليدية في بيروت، فبقيت على جمودها، فلا السّطات العثمانية حاولت تطويرها ولا القيمون عليها كانوا قادرين على النهوض بها. ما حوّلها إلى سجن كرهه التلامذة، ولم يستسيغوا التعليم فيه. وكان الكثير من الذين تلقوا علوم الفقه والخطابة والحديث لا يُحسنون الكتابة، ويستعصي عليهم الكلام الفصيح ولا يتدبرون المعاني.

تلك كانت ملامح حركة التّعليم وتأسيس المدارس في لبنان، وكيفية تطوّرها خلال القرن التّاسع عشر. فلقد سعت كلّ طائفة إلى امتلاك مدارسها الخاصة، مقابل جهود متواضعة من جانب السّطات الرّسميّة القائمة، لتوفير النّفقات والمستلزمات للمدارس العامة. كل ذلك، في ظلّ تصاعد توافد الإرساليات الأجنبيّة، ومبادراتها لافتتاح مدارس تنشر لغات بلدانها وثقافتها الأساسيّة، بحيث بات لكلّ جمعيّة رهبانيّة أو جماعة علمانيّة، مجموعة من المؤسسات التّربويّة، توزّعت في مختلف المناطق والرّبوع اللبنانيّة ساحلا وجبلا وسهلا، في محاولة لاستقطاب العدد الأكبر من طالبي العلم والمعرفة.

وامتلاك أبناء البلد اللغة الفرنسية، وذلك ليسهل ربطهم بإدارة الانتداب، وانخراطهم في مشروعها. وبرزت هيمنتهم على التعليم والجهاز التربوي، إذ أشرفوا على تنظيم شؤون وزارة المعارف والفنون الجميلة منذ العام ١٩٢٦، وعلى وضع مناهج التعليم، ونُظِم الامتحانات، وكرّسوا تبعيّة التعليم الرسمي للقطاع الخاص.

### الإدارة المدرسية حديثاً

ينصّ النظام الداخلي للمدارس الرسميّة على تعريف الإدارة المدرسية كما يلي: «هي تكليف أحد موظفي التعليم إدارة شؤون مدرسة معينة، بقرار صادر عن المدير العام للتربية الوطنية بناء على اقتراح خطي من مدير التعليم» (الابتدائي أو الثانوي).

بحسب التعريف والمراسيم والقرارات الرسميّة، فالإدارة عملية دقيقة تتطلب إعداداً وعناية فائقة ولكن! في لبنان يصبح الشخص مديراً دون إعداد أو تدريب فعلي وجدي.

وفي تقرير قديم للمركز التربوي يعود للعام ١٩٧٥، يذكر أنّ الذين من يحتاجون إلى التدريب والتأهيل هم: خمسة آلاف ومائة وستة وعشرون (٥,١٢٦) معلماً من أصل عشرة الاف ومائة وسبعين (١٠,١٧٠) في المرحلة الابتدائيّة، وألفان وثمانماية وثمانون (٢,٨٨٠) من أصل أربعة آلاف وسبعماية وستة وستين (٤,٧٦٦) معلماً في المرحلة المتوسطة، والنظار البالغ عددهم ألفاً وثلاثماية وثلاثة وعشرين (١,٣٢٣)، كذلك المديرون البالغ عددهم ثمانمئة وسبعة وعشرين (٨٢٧) يحتاجون إلى إعداد خاص.

في إطار مشروع الإنماء التربوي، المُمَوَّل من البنك الدولي، أجرت وزارة التربية دورات تدريبية لمديري المدارس الرسميّة عام ٢٠٠٦، طاول حوالي أربعماية وخمسين (٤٥٠) مديراً من أصل أكثر من ألف وثلاثماية (١,٣٠٠) مدير ومديرة. أمّا النتيجة، فلم تأتِ على قدر الآمال والطموحات المنشودة والمتوخّاة.

## عقلانية العلم ومنطقيته في فلسفة إمري لاكاتوش

إعداد سمير عاكوم طالب دكتوراه في العلوم الاجتماعية

١ - تمهيد:

«بوبر» و«كون»، وقد اقترح معياراً عقلانياً جديداً، ليقدم من خلاله ما أطلق عليه «برامج البحث العلمي». إن عقلية لاكاتوش تعتبر منهجية وهذه الميتودولوجية في برامج البحث هي محور فلسفته برمتها (النويهي، س، ١٩٨٨، صفحة ١١٩). تختلف الميتودولوجيا عند لاكاتوش عن المفهوم القديم، فلم تعد تشير إلى مجموعة الخطوات الإجرائية أو مجموعة القواعد الخاصة، بعد بروز بعض التيارات المسترشدة بتاريخ العلم والتي بينت تأثير العوامل الاجتماعية والنفسية في صياغة النظريات العلمية المتسمة بالتعقيد. وما نتج عنها من استحالة اختزال المنهج العلمي في مجموعة من الإجراءات الجامدة والقواعد الثابتة. لذلك أعاد هذا الفيلسوف النظر في الميتودولوجيا التقليدية وما تضمنته من مفاهيم مثل التجربة الحاسمة، الملاحظة، الفرضية، الاختبار، وقد عبر لاكاتوش عن هذا التحول بقوله: «كنا نأمل من الميتودولوجيا أن تقدم للعالم دليلاً علمياً

ولد الفيلسوف المجري «إمري لاكاتوش» Imre Lakatos في العام ١٩٢٢ وتوفي في العام ١٩٧٤، وهو من أبرز فلاسفة العلم في القرن العشرين ومن المدافعين عن عقلانية العلم ومنطقيته. كان أحد تلاميذ «كارل بوبر» وقد تأثر بأفكاره والنمط النقدي لأعماله. هذا التأثير ببوبر لم يدم وانتهى به المطاف إلى معارضة هذا النمط (النويهي، س، ١٩٨٨، صفحة ١١٨). أخذ لاكاتوش عن استاذة فكرة التكذيب باعتبارها الخاصية المميزة للعلم والقوة المفسرة لتقدمه في مقابل النظرية التبريرية التحقيقية كما عبرت عنها النزعة الاستقرائية، من غير أن يعني بذلك التكذيب المنهجي كما جاء به «بوبر»، هذا النوع من التكذيب المنهجي انتقده لاكاتوش بشدة، واستبدله بنمط آخر من التكذيب أسماه لاكاتوش بالتكذيب الواعي. كذلك أخذ عن «توماس كون» فكرة النموذج paradigm. وعليه يعتبر لاكاتوش حلقة وسطى بين

ينمو بواسطة الاستبعاد المتكرر للنظريات بواسطة الوقائع الأساسية أو الصلبة، واستبدالها بتأملات جديدة وتخمينات جزئية غير مكذبة على الأقل في البداية (لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ٥٥).

**ب - التأكيد المنهجي، أي التأكيد** الذي يوليه «بوبر» أهمية خاصة في نظريته العلمية.

**ج - التأكيد الواعي، وهو الذي يعتبره** لাকاتوش تعديلاً وتطويراً للتأكيد البوبري كونه أدرك مكامن الضعف والنقص أفضل من استنازه بوبر (Lakatos, I; Tra, Malamud, C. et Fabien J, 1994, p. 136).

يعتبر لাকاتوش أن **التأكيد الدغماتي** يقوم على فروض زائفة، لذلك فهو يرفضها، وذلك لأنه لا يوجد ولا يمكن أن يوجد إحساسات غير محملة بالتوقعات، ولذلك لا يوجد حد فاصل طبيعي بين القضايا النظرية والقضايا المبنية على الملاحظة، فكل ملاحظة تأتي في سياق نظري كما أن كل نظرية تخترقها تجاربنا وملاحظاتنا السابقة، لا يمكن إثبات أي قضية بواسطة التجربة، فالقضايا تشتق فقط من قضايا أخرى ولا يمكن أن تشتق من وقائع ولا يمكن للفرد أن يبرهن صحة القضايا عن طريق الخبرات. (لاكاتوش أ، ترجمة عبد

من القواعد لحل المشكلات ولكننا تركنا هذا الأمل في الوقت الحاضر كون الميتودولوجيا الحديثة تحتوي على مجموعة قواعد لتقييم النظريات الموجودة، هذه القواعد أو أنساق التقييم تلعب دور النظريات في العقلانية العلمية ومعاييرها لتمييز العلم وتعريفه» (الخولي، ي.ط، ٢٠٠٠، صفحة ٤٥٦). لقد حاول لাকاتوش أن يؤسس لعقلانية ميتودولوجية جديدة مسترشدة بتاريخ العلم، تختلف عن الميتودولوجيات التي عرفتها فلسفة العلم كالاستقراء التحقيقية، والإصلاحية والأدائية والتكديبية، معتبراً أن هذه الميتودولوجيات لا تعبر عن الصورة الحقيقية لتطور العلم.

**٢ - موقف لাকاتوش من منهج بوبر أو الميتودولوجية التكديبية:**

انطلق لাকاتوش من نقده للتكديبية البوبرية وجعل هذا النقض نقطة الانطلاق لبناء ميتودولوجيا بديلة، وقد ميز بين ثلاثة أنواع من التأكيد:

**أ - التأكيد الدغمائي أو الطبيعي،** الذي يقوم في جوهره على أن كل النظريات العلمية تخمينية بدرجة متساوية ولا يمكن برهنتها، وعلى الرغم أن العلم لا يستطيع أن يثبت أية نظرية، فإنه يستطيع أن ينفي ويستبعد ما تم تكديبه بكل تأكيد منطقي. وطبقاً لمنطق التأكيد الدغماتي، فإن العلم



القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ٥٩). يعارض لاكاتوش منطق التأكيد باعتباره اختباراً لنظريات أو فروض منعزلة، في حين أن تاريخ العلم يثبت أن العلم هو تنافس بين مجاميع نظرية وليس بين نظريات فردية منعزلة. فالإنجازات الكبرى ليست فروعاً منعزلة، وإنما هي برامج بحث مثمرة تتنافس فيما بينها والتجربة ليست هي الفيصل، وإنما قرارات الجماعة العلمية هي التي تقيّم مدى نجاح أو اخفاق نظرية أو برنامج ما، كما أن هذا التقييم لا يتم بشكل فوري وإنما بعد مرور فترات زمنية معتبرة. لذلك يؤكد لاكاتوش أنه لو اتبعت المنهجية التكوينية بحذافيرها، لكان العلم قد توقف منذ قرون لأن تنفيذ مختلف النظريات العلمية سيكون في بدايتها قبل أن تتحصن. إلا أن رجال العلم يؤكدون غالباً وبطريقة عقلانية أنه لا يمكن الوقوف عند النتائج التجريبية، وأن الاختلافات الموجودة بينها وبين النظرية ستختفي عندما يتقدم فهمنا (Lakatos, I; Tra, Malamud, C. et Fabien J, 1994, p. 127). يجمع لاكاتوش بين «بوبر» و«كون» بتعبيره أنه ينظر إلى الاستمرارية في العلم من خلال منظار «بوبر»، ويرى برامج الأبحاث العلمية حيث يرى «كون» النماذج. (لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ١٩٠).

يقف لاكاتوش موقفًا معارضًا للتأكيد المنهجي أي الساذج، والذي يعد لب نظرية «بوبر» العلمية، مقترحًا تعديلاً جديداً يسميه بالتكذيب الواعي، وهو الرؤية العقلانية للتكذيب والمنقذ لمنهج وفكرة التقدم العلمي (النويهي، س، ١٩٨٨، صفحة ١٢٥). ويختلف التكذيب الواعي عن التكذيب الساذج البوبريفي كل من قواعد القبول وقواعد التكذيب أو الاستبعاد، فإذا كانت القابلية للتكذيب التجريبي، هي معيار قبول النظرية العلمية من منظور منطق التكذيب المنهجي الساذج، فإن النظرية تكون علمية فقط من منظور التكذيب الواعي إذا عززت المحتوى الإمبريقي بصورة زائدة عن سابقتها أو منافستها، أي أن النظرية تكون مقبولة وعملية إذا أدت إلى اكتشاف وقائع جديدة. وقد حدد لاكاتوش شروطاً معينة لتكذيب النظرية العلمية على النحو التالي:

– تعد النظرية العلمية تـ مـ كـ مـ، إذا اقترحت نظرية أخرى تـ ١ـ تتوفر فيها شروط، أن تكون تـ ١ـ ذات محتوى امبريقي أكبر من محتوى تـ ١ـ تتنبأ بوقائع جديدة لا تتيحها تـ، أن تفسر تـ ١ـ النجاح السابق لـ تـ أي تتضمن الجزء غير المكذب من تـ، أن يكون بعض من المحتوى التجريبي الزائد معزز بالتجربة (لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ٨٨).

(لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م،  
٢٠٠٠، صفحة ٩٥).

– يختلف *التكذيب الواعي* عند لاكاتوش  
عن *التكذيب البوبري*، في كون النظريات  
العلمية تكون دائماً في وضع تقديمي، بحيث  
يكون مكذب النظرية ت هو المؤيد للنظرية  
ت إذا كان غير متناسب مع ت ومستقل  
عنها، ومن هنا تكون النظريات المتنافسة،  
وليس الأمثلة المضادة أو الحالات الشاذة،  
هي الأمر الهام في نشاط العلم (النويهي،  
س، ١٩٨٨، صفحة ١٢٧). فليس كل تجربة  
أو ملاحظة مهمة في أي فترة من فترات  
تطور العلم، وللعقل الدور الأساسي في  
تصنيف التجارب والأمثلة المضادة،  
وتحديد الأمثلة التي تمثل مشكلات حقيقية  
بالنسبة للنظرية، وتلك التي لا تعدو أن  
تكون ناتجة عن سوء فهم، أو خلل في أحد  
الشروط الأساسية للتجربة، أو في تأويلها،  
كما لا يجب أن تولي اهتماماً بالغاً للحالات  
الشاذة، بإعتبارها تفنيدات كما هو الحال  
عند «بوبر»، ولا أن نعتبرها مجرد  
استثناءات كما هو الحال عند «كون» فالزمن  
وحده كفيل ببيان مواطن التعزيز ومكامن  
التفنيد (Lakatos, I; Tra, Malamud, C.)  
(et Fabien J, 1994, p. 136).

– يتبين لنا أن لاكاتوش قد عارض بوبر  
في نقطة جوهرية في الإستمبولوجيا ألا  
وهي *التكذيب*، فعوض الحديث عن النظريات

وهكذا فإن العنصر الحاسم في *التكذيب* هو  
إذا ما كانت النظرية الجديدة تقدم حقائق  
إضافية جديدة بالمقارنة مع النظرية  
السابقة عليها، وإذا ما تم تأكيد أو تأييد  
بعضها من هذه الحقائق الإضافية، وليس  
هناك أي تجربة يمكن أن تفند نظرية إذا لم  
تتوفر لدينا نظرية أخرى يكون محتواها  
المعزز أكبر، فلا يوجد أي تكذيب قبل  
ظهور نظرية أخرى يكون محتواها أفضل  
(لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م،  
٢٠٠٠، صفحة ٩٣).

– على الرغم من التفنيدات التي  
تعرضت لها نظرية الفلك البطليمي طيلة  
القرون الوسطى، فإنها بقيت قائمة لأنه لم  
تقترح طوال تلك الفترة نظرية أو برنامج  
بحث أفضل منها إلى غاية العصر الحديث،  
حين ظهرت أبحاث «كوبرنيك» و«كبلر»  
و«غاليلي» المتسمة بمحتوياتها التجريبية  
المعززة بالوسائل التقنية، خاصة التلسكوب  
الذي اخترع استناداً إلى نظريات البصرييات.  
والبرنامج النيوتني اعترضته حالات كثيرة  
من التفنيدات، إلا أنها لم تؤخذ بعين  
الاعتبار، إلا بعد ظهور نظرية اينشتاين.  
وهذا يبين بأن *التكذيب* الساذج أو البراهين  
المضادة المعززة ليس شرطاً كافياً  
لاستبعاد نظرية، وعلى الرغم من مئات  
المتناقضات المعروفة، فنحن لا نعتبرها  
مكذبة حتى نحصل على أفضل منها

المكذبة أو المستبعدة عند «بوبر»، فإن لاكاتوش يتكلم عن برامج متروكة وبذلك يحل مفهوم ترك البرامج مكان التكذيب والاستبعاد. إن الدور المتعلق بالتكذيب هو نسبي فقط والتقدم يكون متميزاً بواسطة التحقق من أمثلة غنية بالمضمون أكثر منه بواسطة تكذيب أمثلة. فالتكذيب عند لاكاتوش هو علاقة متعددة بين النظريات المتنافسة والقاعدة التجريبية الأصلية وليس علاقة بسيطة بين النظرية والقاعدة التجريبية (لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ٩٤).

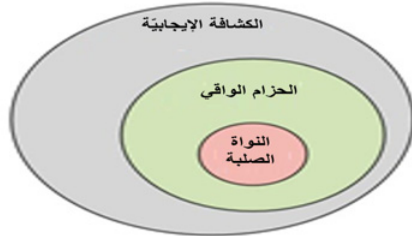
- القابلية للتكذيب ليست شرطاً ضرورياً لكل معرفة علمية، لأن العلم الذي يتقدم على شكل برامج هو مجموع النظريات والأفكار والاعتقادات، منها ما هو قابل للتكذيب ومنها ما لا يجب تكذيبه بقرار منهجي وهذا الجزء الأخير هو ما يميز العلم الناضج. يعتبر لاكاتوش أنه لا طائل من وراء القابلية للتكذيب المعتمد من «بوبر» كمعيار للتمييز بين العلم والميتافيزيقيا من جهة، وأشبه العلوم من جهة أخرى. كون هذه القابلية لا تُعبر عن الصورة الحقيقية لتطور المعرفة العلمية، يقترح لاكاتوش معيار يتيح الفصل بين العلم الناضج القائم على البرامج البحثية والعلم غير الناضج القائم على تتابع بسيط للمحاولات والأخطاء، ومن هذا المنظور يعتبر لاكاتوش

أن نسق «بوبر» يتحدث عن العلم غير الناضج والذي من خصائصه التشتت والانقسام (Lakatos, I; Tra, Malamud, C. et Fabien J, 1994, p. 124). مثلاً، نجد أن البحوث الفلكية لم تأخذ صفة العلمية عند كوبرنيك وغاليلي الا بعد تنظيم المعارف والعلوم في برامج بحثية. بعدما كانت مشتتة في شذرات فلسفية واعتقادات تنجيمية غير ناضجة. من خلال هذا التحليل، ينقل التكذيب الواعي مشكلة كيفية تقييم النظريات إلى مشكلة كيفية تقييم سلسلة من النظريات، فلا يمكن القول أن نظرية منعزلة أو منفردة علمية أو غير العلمية، لأن اطلاق صفة العلمية على نظريات فردية منعزلة يعتبره لاكاتوش خطأ منطقي (Lakatos, I; Tra, Malamud, C. et Fabien J, 1994, p. 92).

إن ما بيناه يجعلنا نقول إن النقطة المحورية التي يختلف فيها لاكاتوش مع «بوبر» ترتبط أساساً بدلالة التكذيب، ولا يجب استبعاد نظرية أو برنامج نام في البحث لأنه فشل في أن يلحق بمنافس قوي، طالما أن هذا البرنامج النامي قادر على إعادة بناء نفسه بطريقة عقلانية. ولا وجود للتجارب الحاسمة التي يمكن أن تلغي برنامج البحث بشكل فوري، وهذا ما يثبتته بقوة تاريخ العلم الذي يؤكد أن التجارب الحاسمة التي يتكلم عنها «بوبر» لتفسير

البحث في المستقبل (شالمرز آ، ترجمة سحبان ا، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ١٨٦). من وجهة نظر لاکاتوش يتكون برنامج البحث من جزأين: نواة صلبة من المعتقدات والأفكار السائدة أو البديهيات والتي لا مجال لانتقادها أو الخروج عليها أو إخضاعها للتكذيب، وحزام واقٍ أو ما يعرف بحزام الأمان من النظريات التي تتلقى الانتقادات لتمنعها من الوصول للنواة الصلبة. كما يتميز برنامج البحث على المستوى الاستكشافي بالكشافة السلبية والكشافة الإيجابية، والتي تحدد طرق وقواعد البحث الواجب تجنبها أو اتباعها من أجل توجيه البرنامج البحثي. يشبه الأمر أن يقوم العلماء بوضع عساكر الشطرنج، النظريات والفروض، حول الملك لحمايته، فالمساس به هو مساس باللعبة ككل وببرنامج البحث ككل (عبد الحافظ ش، ٢٠١٧).

الشكل ١



أ - النواة الصلبة للبرنامج:

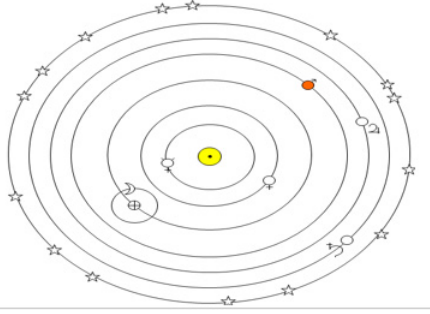
تتميز جميع برامج البحث العلمي عند

الطابع الثوري والتقدمي للعلم لا تتمتع بالقدر الذي يتصوره من قوة. وهذا ما يعتبره لاکاتوش نهاية العقلانية العاجلة وبروز التصور الديناميكي التاريخي، كَوْن العقلانية الحقيقية تعمل أبطأ كثيراً مما يظن معظم الناس (لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ١٨٦).

٣ - برامج الأبحاث العلمية وتقدم العلم:

ان التطور العلمي عند لاکاتوش لا يمثل تطوراً لنظريات علمية منعزلة كما هو الحال عند بوبر، إنما هو تطور لسلسلة من النظريات العلمية، وانتقال من برنامج بحث علمي أصبح متدهوراً إلى برنامج بحث آخر يبدو أكثر تقدماً، فالنظريات العلمية تعد بنيات أو وحدة من النوع التي تشكل منه برنامج البحث العلمي. وتشير البرامج البحثية إلى النمط الناضج من العلم الذي تتحدد بمقتضاه خيارات العالم أو الجماعة العلمية ومساهم الكشفي، يعتبر العلم برنامج بحث ضخم مع قواعد إرشادية موجهة، ويعتبر لاکاتوش تاريخ العلم مساراً من البرامج البحثية المتنافسة، بدءاً بعلم الفلك البطليمي ووصولاً إلى برامج اينشتاين، مروراً بأهم البرامج المعروفة، مثل برنامج نيوتن، وبالمقابل نرى كيف أن النظريات الاجتماعية الحديثة لم تتوصل إلى إرساء برنامج متماسك يتيح لها توجيه

الشكل ٢



أما في برنامج نيوتن فإن نواته الصلبة تتكون من قوانين الحركة، ومن الجاذبية الكونية كما تصورها نيوتن (شالمرز آ، ترجمة سحبان ا، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ٨٧). وقد عمل العلماء المنخرطين في هذه البرامج على الحفاظ عليها لمدة أطول، ما دامت هذه البرامج منتجة، وذلك برد كل تعارض بين الملاحظات وبين النواة الصلبة، وبحسب لاکاتوش فإن نظرية الجاذبية لنيوتن هي مثل تقليدي لبرنامج البحث العلمي، فعند تقديمها في البداية غرقت في محيط من الشواذ، ولكن أتباع نيوتن حولوا بذلك وإصرار الأمثلة المضادة إلى أمثلة مثبتة الواحد بعد الآخر، وذلك برفض نظريات الملاحظة الأصلية التي بنيت في ضوءها الأمثلة المضادة بصورة رئيسية. وبذلك تمكنوا من تحويل كل صعوبة جديدة إلى نصر جديد لبرامجهم (لاکاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ١١٨).

لاکاتوش بجوهرها الصلب، تمنعنا المحاولة التجريبية السلبية للبحث من توجيه طريقة التنفيذ إلى هذا الجوهر الصلب، وبدلاً من ذلك علينا أن نستخدم مهارتنا في صياغة وابتكار افتراضات مساعدة تشكل حزام الأمان حول ما هو الجوهر الصلب (لاکاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، الصفحات ١١٦-١١٧). النواة الصلبة هي الأصل في برنامج البحث العلمي، وتتشكل هذه النواة من اطروحات عامة تحدد الأساس المنهجي الذي يسير وفقه أفراد الجماعة العلمية، والسمة الأساسية التي تميز النواة الصلبة هي عدم قابليتها للتنفيذ بقرار منهجي، وبالتالي فالتفنيديات لا تمس إلا الحزام الواقعي من الفرضيات المساعدة والشروط الابتدائية، فالنواة الصلبة تتيح تحديد الخصائص المميزة لبرنامج ما بصورة أفضل، ويتكون من بعض الفرضيات العامة، التي ينبغي للبرنامج أن ينمو ويتطور من خلالها (شالمرز آ، ترجمة سحبان ا، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ٨٦). مثلاً، إذا أخذنا برنامج كوبرنيك في علم الفلك فإننا نجد أن نواته الصلبة تتكون من فرضيتين عامتين وهما: أن الأرض والكواكب تدور حول شمس مستقرة، وأن الأرض تدور حول محورها كليوم.

الشكل ٣



### ب - الكشافة السلبية:

يقسم لاكاتوش قواعد برنامج البحث المنهجية إلى نوعين من الموجّهات المساعدة على الكشف، الكشافة السلبية تحمي المركز الصلب وتوجه طريق الانتقادات فقط ناحية الحزام الواقي، وآخر إيجابي يقوم على مجموعة من التوجيهات والاقتراحات التي تساعد على تطوير الحزام الواقي والتي تزود النواة الصلبة بفروض إضافية تدعمها (عبد الحافظ ش، ٢٠١٧). إن دفاع الكشافة السلبية عن النواة الصلبة للبرنامج ومنع توجيهه سهام مبدأ الرفع ضد هذه النواة وعلى العلماء المنتمين لبرنامج البحث استخدام عبقريتهم في اختراع فروض مساعدة والتي تكون حزاماً واقياً حولها، فحزام الأمان من الافتراضات المساعدة، وهو الذي يجب أن يتحمل حدة صدمة الاختبارات كما يمكن إعادة ملائمة أو استبداله حتى يتمكن من الدفاع عن هذا الجوهر الصلب (لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ١١٨). المطلوب الأساسي للعلماء في الكشافة

السلبية هو الحفاظ على النواة الصلبة ثابتة تامة، خلال نمو البرنامج وكل عالم يجري تعديلاً فيه، فإنه يكون قد اختار الخروج من البرنامج الذي يشتغل فيه (شالمرز أ، ترجمة سبحان أ، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ٨٧). فالنواة الصلبة لأي برنامج بحث غير قابلة للتكذيب، حتى بعد انهيار البرنامج الذي وردت فيه، بل يمكن فقط تركها واتباع برنامج آخر يكون أكثر تقدماً، وهذا ما يميّز ميتودولوجيا لاكاتوش عن تكذبية «بوبر» ذلك أن أية نظرية علمية ينبغي أن تكون قابلة للتكذيب عند «بوبر»، والعلم يتطور عن طريق التكذيب المستمر للنظريات، في حين أن لاكاتوش يرى أنه ينبغي العمل على تحصين الأطروحات باستمرار... (النويهي، س، ١٩٨٨، صفحة ١٣٢)

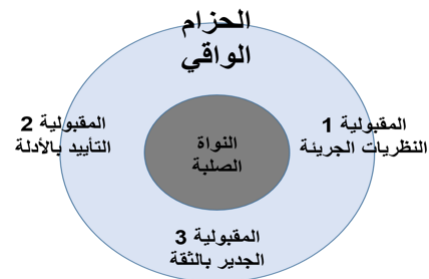
### ج - الكشافة الإيجابية:

في حين ان الكشافة السلبية تهتم بالحفاظ على نسقية برامج البحث من التحلل والتفسخ، فإن الكشافة الإيجابية تعد بمثابة الآلية التي تدل المشتغلين بالعلم على ما ينبغي أن يفعلوه، وعليه يقول لاكاتوش بأن الكشافة السلبية تحدد الجوهر الصلب للبرنامج غير القابل للتفنيد بواسطة القرار المنهجي، بينما تتكون الكشافة السلبية من مجموعة مقترحات مترابطة، توضح كيفية تغيير وتطوير الأشكال المتنوعة للتكذيب

على غرار التلسكوب (شالمرز آ، ترجمة سبحان ا، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ٨٨). واستند برنامج نيوتن إلى تقنيات رياضية عالية الدقة كالحساب التفاضلي، إضافة إلى قوله بخضوع الكواكب إلى قوى جاذبية أخرى غير الشمس، كما عمل على تطوير تلسكوبات واختراع أجهزة حساسة قادرة على تسجيل التجاذب، كما أن نسقه غنياً بالفروض المساعدة (شالمرز آ، ترجمة سبحان ا، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ٨٩). وترجع أهمية الكشافة الإيجابية إلى أنها المنقذ للعالم من الضياع أمام محيط الحالات الشاذة ويقوم العالم في بناء نموذجه بإتباع التعليمات التي تقدمها الكشافة الإيجابية لبرنامج. تتميز الكشافة الإيجابية بدرجة عالية من المرونة، فهي مبدأ فيزيائي قادر على استيعاب التطورات الحاصلة في البرنامج، فالعلماء المنضويين تحت لواء برنامج بحث، يسعون دائماً إلى حل المشكلات التي تحددها الكشافة الإيجابية، ولا يعيرون اهتماماً للحالات الشاذة، فالحالات الشاذة تسجل في قائمة، لكنها تترك جانباً على أمل تحويلها إلى مؤيدات للبرنامج (لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ١٢٤). إذا التحقيقات لا النكذبات هي التي تضمن للبرنامج استمراريّة، رغم الحالات الشاذة أو المتمرده. وبهذا تختلف ميتودولوجيّة

في برنامج البحث والطريقة التي يتم بها تعديل وإخفاء معالم الحزام الواقي القابل للتكذيب (لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ١٢٠).

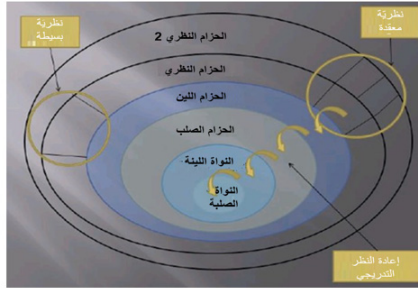
الشكل ٤



الكشافة الإيجابية تشير إلى الكيفية التي تغني بها النواة الصلبة للبرنامج، لكي تستطيع تفسير ظواهر واقعية وتنبأ بها، وتعبر عن سلسلة من القضايا المصاغة صياغة جزئية، أو عن الإشارات المتعلقة بكيفية إجراء التحويلات وبكيفية تنمية الحزام الواقي القابل للدحض، فنمو برنامج من برامج البحث لا يتم بإضافة فرضيات جديدة مساعدة فحسب، بل أيضاً بتنمية تقنيات رياضية وتجريبية جيدة. لذلك فالكشافة الإيجابية هي وسيلة كشفية تتيح التقدم. ولكل برنامج تقنيات كشفية خاصة به، تفرضها طبيعة المشكلات التي يطرحها هذا البرنامج، فقد كان "كوبرنيك" مضطراً للاستناد إلى تقنيات خاصة لغرض التحكم في الحركات الحاصلة في أفلاك التدوير وتقنيات متطورة لإجراء الملاحظات الفلكية

بواسطة التفنيدات الثوريّة، فللتسامح المنهجي أهمية قصوى في فلسفته، ولا يتم التقدم بواسطة التقليد والخضوع للبراديجم كما هو الحال بالنسبة لـ «كون»، فبرنامج البحث ليس حكماً بين التفسير واللاتفسير، أي أنه ليس نوعاً من الصرامة العلميّة أو الرياضيّة فتاريخ العلم هو تاريخ البرامج المتنافسة والمتعددة والتنبؤ هو وحده ما يطبع العلم بصفة التقدميّة (النويهي، س، ١٩٨٨، صفحة ١٣٥). ويرى لاکاتوش أن هناك عدداً غير نهائي من حالات الشذوذ يمكن أن يظهر كلما دققنا النظر في برنامج البحث القائم، ويرى أنه لا مشكلة من أن تتكيف الأجزاء المكونة للحزام الواقي مع تلك الحالات (عبد الحافظ ش، ٢٠١٧).

الشكل ٦

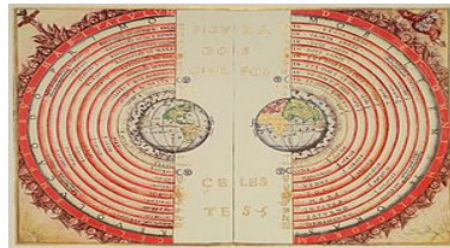


#### د - متى تنتصر النظرية؟

يضيف لاکاتوش إلى نواة البرنامج الصلبة شرط آخر هام لاستمراريتها، وهو وجوب أن يمتلك القدرة المستمرة على وضع تنبؤات مستقبلية خاصة به يمكن تأكيدها بالتجربة أو الرصد. فإذا كان

لاكاتوش عن تكديبيّة «بوبر»، ذلك أن «بوبر» يرى أنه من اللاعقلانيّة أن تطور نظريّة قد تم تكذيبها، بل ينبغي استبدال النظرية المكذبة بنظرية جديدة، في حين أن استمراريّة البرنامج عند لاکاتوش تقوم على مدى تماسكه وقدرته التفسيرية. يربط لاکاتوش قضية التقدم العلمي بالبرامج المتنافسة، فالعلم يتقدم بفضل السباق بين برامج البحث العلمي، ويكون برنامج علمي أفضل من آخر منافس له إذا كان يكتسي طابعاً تقدماً أكثر وذلك بالتنبؤ بصفة تقدميّة بكل ما تنبأ به منافسه بدقة، وكذلك التنبؤ بأمور إضافيّة جديدة، وقد كان برنامج كوبرنيك أفضل من برنامج بطليموس نظراً لأن الأول تنبأ بوقائع جديدة لم تكن معروفة إلى ذلك الوقت. (شكل ٦ يوضح الأجرام السماوية، شكل توضيحي يظهر نظام مركزية الأرض في العصر البطلمي على يد الكوزموغرافي ورسام الخرائط بارتولوميو فيلهو، ١٥٦٨ موجودة في المكتبة الوطنية، باريس).

الشكل ٥



وهكذا فإن التقدم عند لاکاتوش لا يتم



يتوقف عن إعطاء توقعات جديدة واضحة لم يعد علمياً. يضيف لاکاتوش أن البرامج التقدمية تُفضّل عقلاً على البرامج المترجعة، لكن برنامج البحث لا يُزاح فور أن يبدأ بالتراجع فقد يتعافى لسبب أو لآخر. كذلك يقول على عكس «كون»، إنه يمكن لعدد من برامج البحث أن تتواجد معاً في نفس الفترة دون مشكلات، نلاحظ هنا أن ما يريده لاکاتوش هو أن يقول إن الأمور ليست بالبساطة التي يعرضها «بوبر» أو حتى «كون»، فهناك دائماً حالة من الجدل، التوتر، الأمور غير المتوقعة في خط سير العمليات (عبد الحافظ ش، ٢٠١٧).

#### ٤ - تاريخ العلم عند امري لاکاتوش

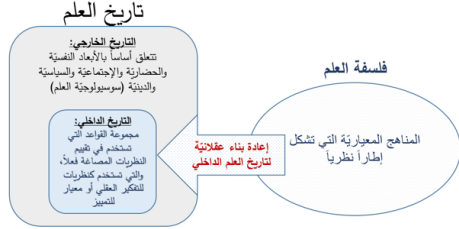
إن مهمة فيلسوف العلم عند لاکاتوش هي الاهتمام فقط بإعادة بناء تاريخ العلم بشكل عقلائي، لذلك يدور اهتمام لاکاتوش حول ثلاثة موضوعات أساسية تتعلق بتلك الفكرة:

– فلسفة العلم تزودنا بمنهج معياري، قواعد تؤدي بنا إلى حلول مقترحة للمشكلات العلمية، بدوره المنهج يساعد المؤرخ في أن يعيد بناء التاريخ الداخلي للعلم كتفسير عقلائي لنمو المعرفة الموضوعية في تاريخه.

– بمساعدة هذا التاريخ المفسر بصورة معيارية يمكن لنا تقييم برامج البحث أيها متقدم و أيها متراجع/متدهور.

برنامج البحث قادراً على وضع تنبؤات جديدة واضحة فهو متقدم، أما إذا كان وضع الفروض الإضافية للحزام الواسع يقلل من قدرة البرنامج على وضع تنبؤات مستقبلية واضحة فيمكن القول هنا إن البرنامج البحثي يتراجع. في هذه الحالة يتجهز برنامج البحث القائم للرحيل ويحل مكانه برنامج آخر نشأ منه، وهو ما أدى في النهاية إلى دخول النموذج الكوبرنيقي مكان الأرسطي حينما تراجع الأخير عن وضع تنبؤات جديدة واضحة (عبد الحافظ ش، ٢٠١٧). تلك إذن نقطة انفصال واضحة للاكاتوش عن «كون»، فهو يرى أن الانتقال من برنامج بحث لآخر لا يتم عبر آليات عشوائية غير ذات علاقة بالعلم نفسه، ويصر على أن العلم ينمو بشكل عقلائي عبر برامج البحث التي تزيح بعضها البعض لأنها أكثر قدرة على وضع تنبؤات جديدة واضحة عن غيرها المترجعة، نقاط التحول في تاريخ العلم عند لاکاتوش إذا هي نقاط عقلائية (عبد الحافظ ش، ٢٠١٧). ينقلنا ذلك إلى نقطة مهمة تتعلق بالمشكلة الأساسية في فلسفة العلم، وهي الفصل بين ما هو علمي وما هو غير علمي، ليقول إن برنامج البحث يبدأ يافعا محملاً بالعديد من التنبؤات الواضحة، لكنه مع الوقت قد يتراجع ليتوقف عن إعطاء توقعات جديدة، هنا يقول لاکاتوش أن برنامج البحث الذي

## الشكل ٧



وعن طبيعة العلاقة التبادلية بين فلسفة العلم وتاريخه، يرى لاکاتوش أن كل فلسفة للعلم أو ميتودولوجيا هي إعادة بناء عقلانية لتاريخ العلم الداخلي، بمعنى أن فلسفة العلم تقدم المناهج المعيارية التي تشكل إطاراً نظرياً يُمكن المؤرخ من إعادة بناء عقلانية لتاريخ العلم الداخلي، بمعنى أن فلسفة العلم تقدم المناهج المعيارية التي تشكل إطاراً نظرياً يُمكن المؤرخ من إعادة بناء التاريخ الداخلي للعلم الذي هو تاريخ العقلانية (الخولي، ي.ط، ٢٠٠٠، صفحة ٤٣٠).

يستعرض لاکاتوش في مؤلفه «تاريخ العلم وإعادة بناءات العقلانية» الميتودولوجيات الأربعة التي عرفت فلسفة العلم أي الصياغات الأربعة الرئيسية الكبرى لعقلانية التقدم العلمي بوصفها برامج بحث في تاريخ العلم وهي: الاستقرائية، والاصطلاحية، والتكذيبية ومنهج برامج الأبحاث العلمية.

– فالتاريخ الداخلي للاستقرائية يتمثل في وقائع تجريبية صلبة وتعميمات استقرائية

– يتطلب ذلك كله أن يتزود العالم بالتاريخ الخارجي للعلم، وهو التاريخ الذي يمثل الجانب السوسيو سايكولوجي أي الاجتماعي النفسي (عبد الحافظ ش، ٢٠١٧).

– بحسب لاکاتوش لا معنى لأي فلسفة علم أو أية ميتودولوجيا بدون تاريخه، ولا معنى لتاريخ العلم بدون فلسفته، وذلك طبقاً لمقولته الشهيرة «فلسفة العلم من دون تاريخه خواء، وتاريخ العلم من دون فلسفته عماء». وهذا ما يُبين أهمية تاريخ العلم في فلسفة لاکاتوش. يميز لاکاتوش بين نوعين من أنواع تاريخ العلم:

أ – التاريخ الخارجي للعلم، ويتمثل في مجموعة العوامل الخارجية لنشأته وتطوره وتتعلق أساساً بالأبعاد النفسية والحضارية والاجتماعية والسياسية والدينية وهي التي تسمى بسوسيولوجية العلم.

ب – التاريخ الداخلي للعلم، هو مجموعة القواعد العامة التي تشكل المسار الهيكلي الذي تسلكه المعارف المختلفة منذ نشأتها وتطورها، أي الشروط الضرورية لنشأة العلم وتطوره، أو هو مجموعة القواعد التي تستخدم في تقييم النظريات المُصاغة فعلاً، والتي تستخدم كنظريات للتفكير العقلي أو معيار للتمييز (النويهي، س، ١٩٨٨، صفحة ١٣٩).

- يتكون التاريخ الداخلي للاصطلاحية من اختيار أنساق مرتبة وإبدالها بأخرى أبسط منها، طبقاً «لمعيار البساطة» الذي يوليه الاصطلاحيون والأداتيون إلى جانب المعيار المنطقي والجمالي أهمية خاصة.

- التاريخ الداخلي عند «التكديبية» هو تاريخ الحدوس الجزئية وتكذيبها، تاريخ التكذيب المستمر للفروض والنظريات.

- التاريخ الداخلي «لمتودولوجيا برامج البحث العلمي» هو تاريخ للمنافسة الإمبريقية والنظرية الطويلة الأمد بين برامج البحث وتحولات المشكلة التقدمية والتدهورية (لاكاتوش إ، ترجمة نفاي، ١٩٧٦، الصفحات ١٨٥-١٨٦).

وكل ميتودولوجيا من هذه الميتودولوجيات تقدم نمطاً معيارياً للنمو والتطور العقلاني في المعرفة العلمية الذي يشكل التاريخ الداخلي، لكن هذه البناءات المعيارية في حاجة إلى التاريخ الخارجي لتفسير بعض العوامل اللامنطقية واللاعقلانية، والتي تتعلق بالجوانب النفسية والاجتماعية أو ما يسميه لাকاتوش «التاريخ السوسيولوجي للعلم»، فالتاريخ الداخلي هو الأساس والتاريخ الخارجي ثانوي (لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م، ٢٠٠٠، صفحة ١٢٥).

التاريخ الخارجي ضروري لكي تتكامل

النظرة إلى العلم ذلك، لان التاريخ الداخلي العقلاني المعياري يؤول أحداث التقدم العلمي، ثم يعطي التاريخ الخارجي تفسيراً لا عقلانياً لتسارعها أو تباطؤها أو حلولها في مكان معين أو حدوثها دون سواها، أو حين تختلف بعض جوانب التاريخ الفعلي للعلم عن محاولة إعادة بنائه عقلانياً (الخولي، ي. ط، ٢٠٠٠، صفحة ٤٣٢).

ويعتبر تاريخ العلم عند لাকاتوش معياراً للاختبار والمفاضلة بين الميتودولوجيات ونظريات فلسفة العلم ويختلف الفصل بين التاريخ الداخلي والتاريخ الخارجي من ميتودولوجيا إلى أخرى، ويفضل لাকاتوش الميتودولوجيا التي استطاعت أن تؤول قطاعاً أكبر من تاريخ العلم الفعلي تأويلاً عقلياً، أي بوصفه تاريخاً داخلياً، وهكذا استطاع لাকاتوش بحكم توجهه العقلاني، أن يرسم صورة عقلانية للعلم في جميع جوانبه الميتودولوجية والإبستمولوجية والتاريخية. أضفت هذه المقاربة اللاكاتوشية طابعاً تكاملياً على فلسفة العلم، من خلال الربط بين النظرة العقلانية المعيارية "البوبرية" والنزعة النسبانية "الكونية" المسترشدة بتاريخ العلم، فقد عارض لাকاتوش النزعة التفنيديّة لعدم استرشادها الفعلي بتاريخ العلم، فهي فلسفة علم جوفاء، وعارض النزعة الكونية

التي استوفت الجانب التاريخي إلا إنها تفتقر إلى العقلانية والمنطقية والمعياريّة، فهي تمثل تاريخ علوم أعمى.

#### ٥ - نقد العقلانية الميتودولوجية لفكر لاكاتوش:

يعد لاكاتوش من المفكرين القلائل الذين أدركوا الهوة الكبيرة بين الصور المتعددة للعلم، والعلم الحقيقي، وأدرك أيضاً أن محاولة إعادة إصلاح العلوم وصياغتها عن طريق تقريبها إلى صورتها سوف تؤدي إلى افسادها أو حتى تدميرها (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, pp. 199-200) ولكن المعايير المنهجية عند لاكاتوش ليست بمنأى عن النقد، فهذه المعايير يمكن فحصها واختبارها، تحسينها أو استبدالها بمعايير أفضل ولا يكون هذا الاختيار مجرداً، بل لا بد من استخدام المعطيات التاريخية، ذلك لأن المعطيات التاريخية تلعب دوراً حاسماً في الجدل والمناقشة بين المناهج المتنافسة (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, p.200). ان القواعد والمعايير في ميتودولوجيا لاكاتوش لم تقم على أسس صارمة وثابتة مثل التي تأسست عليها ميتودولوجيا «بوبر» والوضعيين المنطقيين، بل هي أقرب إلى التفتح المنهجي والتعددية المنهجية،

فميتودولوجية لاكاتوش لا تملي على المشتغلين بالعلم اختياراتهم، ولا ترمي إلى تقديم نصائح لهم، وبالرغم أنها تصف بشكل جيد الوضع الذي يكون عليه باحث علمي، ولكنها لا تملي عليه حقيقة كيف يتصرف، (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, p.202). الشروط والمعايير التي يمكن أن تظهر في أي برنامج بحث علمي، لا تمثل سوى خيار من بين خيارات أخرى ممكنة، وهي بمثابة تجاوز للنظرة الأحادية في مسألة المنهج. فميتودولوجيا لاكاتوش لا تعطي قواعد للاختيار لصالح نظرية أو برنامج ما. هذه الفلسفة العلمية ما هي الا ضرب من الفلسفة الفوضوية القريبة من الفلسفة التي لا تلتزم بمسار خطي مرسوم ومنمط بشكل مسبق بواسطة المعايير والقواعد التي يعتقد أنها ثابتة ونهائية. (شالمرز آ، ترجمة سحبان أ، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ١٣٥). إن المهمة الأساسية التي وضعها لنفسه لاكاتوش هي زيادة أصدقاء العقل وطمأنة العقلانيين، وذلك بالاسترشاد بقواعد بسيطة ومبادئ يستطيعون اتباعها دون اضطرار لإعادة اعتبار الأمور عند كل تحول وعند كل خطوة (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, p.198).

يقوم تصور لاكاتوش بأن نمو العلم

وانما تنتمي إلى الحس المشترك، وبإبتعاد لاکاتوس عن هذا الحس المشترك يصبح نمطه مشابه للعقائد الثورية التي قدمها آباء الكنيسة القدماء في شكل صلوات عائليّة، والتي لم تمثل الحس المشترك في ذلك الوقت، لتصبح هذه العقائد تدريجياً هي الحس المشترك ذاته (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, p.220). إن ميتودولوجيا لاکاتوش غير مؤسسة بكيفية لازمة، فلا هي استقرائية، ولا هي تنفيذية، لأن أي برنامج بحث لا يعتبر مفنداً بل متروكاً فحسب، غير أن هذا الترك غير ناجم عن دواع موضوعية لأن إحياء أية نظرية أو برنامج متدهور هو أمر وارد وذلك بإدخال فروض مساعدة لتفادي الأمثلة المضادة أو الشاذة. وبالتالي فإن التنفيذ الواعية التي تبناها لاکاتوش لا تعد تنفيذية حقيقية، طالما أنه ليس هناك إمكانية لتنفيذ برامج بطريقة موضوعية، ومن ثم فهي منهجية تفتقر إلى أساس منطقي، فلا هي استقرائية ولا هي تنفيذية إنما يمكن النظر إليها على أنها فلسفة علم قدمها بوصفها نتيجة لنقده للتنفيذية المنهجية البوبرية (عوض، ع، ٢٠٠٤، صفحة ٣٦٢). إن محاولة لاکاتوش للدفاع عن معيار المعقولة الشمولي الذي أرادته للنظريات، وسعيه لإعادة بناء تاريخ العلوم بناء عقلانيا هي محاولة تستجيب أكثر

يكون من خلال الالتزام التام بالمعايير المنطقية والمنهجية، فالتقدم العلمي قد ساهمت فيه أيضاً العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية بدرجة كبيرة. وان المعايير التي استخلصها لاکاتوش من العلم الحديث لا يمكن اعتبارها أحكاماً محايدة للفصل بين العلم الحديث، وعلم أرسطو، والأسطورة، والسحر والدين (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, p.198)

لا يمكن الموافقة على تسليم لاکاتوش بأفضلية العلم دون البرهنة على ذلك، كون دراسته كانت من جانب واحد هو العلم، أما الميادين الأخرى كالماركسية والتنجيم والسحر، فقد اكتفى فيها بتحليلات سطحية خارجية (شالمرز آ، ترجمة سحبان ا، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ١٤٠). من غير المقبول الإيمان بمعايير ثابتة ومحددة يقاس بها مدى تقدم برنامج بحق ما أو تأخره، والمتمثلة في النمو النظري (التنبؤات)، والنمو التجريبي (التعزيزات)، فتقدم برنامج بحث ما يتوقف على نموه النظري الذي يسبق نموه التجريبي، أي قدرة البرنامج على التنبؤ بوقائع جديدة يتم إثباتها فيما بعد وعندما يتم تحقيق هذه التنبؤات، أو التنبؤ بها فهذا يعني أن البرنامج متقدم نظرياً وتجريبياً. وهذه المعايير ليست بعقلية ولا هي لا عقلانية،

يقبلون الأحكام الأساسية للقيمة بناء على الثقة، وهم لا يختبرونها، ويأخذون منحى سلطة زملائهم المتخصصين، فالأحكام الأساسية ليست دائماً حكيمة جداً وليست دائماً عقلانية (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, p.225). إن استخدام لاکاتوش لإعادة البناء العقلاني للعلم كمقياس للمنهج العلمي ليس نتيجة كلية للأحكام الأساسية، بل هي نظام تعددي من السلطات، وعليه فإن الحجج التي يقدمها لاکاتوش ليست نتائج للبحث، ولا هي أجزاء من الممارسة العلمية إنما هي أجزاء من أيديولوجية يريد أن يفرضها على شكل «الحكمة العليا المشتركة»، وأن لاکاتوش لا يختلف بهذا عن الإستمبولوجيين التقليديين الذين يريدون أن يعطوا لمبادئهم قوة وحيلاً جديدة (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, p.225). بيّن لاکاتوش وفق نزعتة العقلانية حيوية التاريخ الداخلي على حساب التاريخ الخارجي الذي يعده ثانوياً، وهذا تمييز حاد بين التاريخ الداخلي والتاريخ الخارجي للعلم. بينما العلم هو كيان تاريخي وفاعلية إنسانية واجتماعية، وليس مجرد نسق منجز وخصائص منطقية محددة. كون التاريخ عموماً وتاريخ الثورات بشكل خاص، هو دائماً أكثر غنى في مضمونه،

لنموذج مثالي من العمل العلمي يتجاوز واقعه، ولا يتوافق مع المعطيات التاريخية. ذلك أن المعطيات التاريخية التي يستخدمها في تقييم الميتودولوجيات، هي الأحكام الأساسية للنخبة العلمية والتي أسماها لاکاتوش بأحكام القيمة الأساسية، أي أحكام قيمة حول الإنجازات التي حققها العلم عبر تاريخه كنظرية نيوتن في الجاذبية، ونظرية النسبية لأينشتاين، وتعتبر أحكام القيمة الأساسية أو الحكمة العلمية المشتركة هي الأساس لكل المناقشات الميتودولوجية، كونها مقبولة من الأغلبية العظمى من العلماء (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, p.22). إن أحكام القيمة الأساسية التي يعتقد لاکاتوش أنها ثابتة هي ليست كذلك، فالعلم منقسم إلى أنظمة ومدارس متعددة وكل واحد منها يتخذ موقفاً أو اتجاهًا مختلفاً تجاه نظرية معينة، فأحكام القيمة الأساسية لدى الفيلسوف التجريبي، تختلف عن أحكام القيمة عند الفيلسوف المثالي، كما أن البيولوجي سوف ينظر إلى نظرية ما، بطريقة مختلفة عن نظرة عالم الفلك (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A., 1979, p. 224). كما أن أحكام القيمة ليست دائماً صحيحة، فأحكام العالم غالباً ما تفشل، كون معظم العلماء

كأنها ذاكرة الأزمنة الممتازة حيث كان لا يزال من الممكن النهوض بمشروع معقد وكارثي في الغالب، مثل العلم وذلك بالركون إلى عدد قليل من القواعد البسيطة والمعقولة (شالمرز آ، ترجمة سحبان أ، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ٩٣). كما يقول آلان شالمرز بأن لاکاتوش كان يرمي إلى إعطاء وجهة نظر عقلانية عن العلم، ولكنه فشل في ذلك، بينما ينكر «توماس كون» سعيه إلى إعطاء وجهة نظر نسباوية ولكنه قدمها في الواقع (شالمرز آ، ترجمة سحبان أ، الصفا ف، ١٩٩١، صفحة ١١٤).

#### ٦ - الخلاصة:

لا وجود لمعايير وقواعد ثابتة كلية أو تاريخية تحكم العالم والإنسانية جمعاء، ولا يمكن وضع قواعد ثابتة للعقل تمنع الخروج عنها، لا يجب تأييد العقل لموقف معين ودعمه على حساب موقف آخر دون أي تبرير، هذا النوع من التفكير يحول العقل إلى عقل إقصائي يعبر عن أيديولوجية غريبة. هناك تزايد مستمر في الدعوة إلى عقل منفتح ومرن يشمل ما هو عقلي وما هو لا عقلي كالعاطفة والخيال والرغبة والحدس، إضافة إلى المتغيرات الثقافية والاجتماعية والمعتقدات الدينية المنفتحة والتقاليد المعرفية التي تعبر عن البعد والقيم الإنسانية. لم تعد الخبرة الحسية أساس النظريات العلمية، بل أصبح مفهوم

وأكثر تنوعًا وأكثر تعددًا في أشكاله، وأكثر حيوية بما لا يلتفت إليه أو يعتقده أحسن المؤرخين وأفضل الميتودولوجيين (Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et) (Schlumberger A., 1979, p. 13). كما أن البنية الداخلية التي رسمها لاکاتوش للبرامج البحثية والمتمثلة في النواة والكشافين والحزام الوافي يكتنفها الكثير من الغموض، ذلك لأن هذه الأجزاء متداخلة ويتعذر التمييز بينها بسهولة، ومن الناحية الميتودولوجية فهي غير مجدية. فإذا كانت النواة الصلبة غير قابلة للتفنيد، فما الجدوى من وجود حزام واق؟ أضف إلى ذلك أن هذه النواة الصلبة ليست صلبة بالقدر الذي يصوره لاکاتوش، فيمكن أن نغير جزءًا منها دون أن يؤدي ذلك إلى ترك البرنامج برمته. كما أن تاريخ العلم لا يتوافق كثيرًا مع ما يقره لاکاتوش في هذا الشأن (الخولي، ي.ط، ٢٠٠٠، صفحة ٤٢٧). يسلم لاکاتوس بأنه لا يمكن الحكم على ما يتصف به برنامجان للبحث من مزايا، إلا بعد أن تفصلنا عنهما مسافة زمنية، ولما كان لاکاتوش لم يستطع أن يقترح علينا معيارًا دقيقًا ومحددًا لإقصاء برنامج من برامج البحث المتناسكة، أو للإختيار بين برنامجين للبحث متنافسين، فإننا نصل إلى قول فيرابند، عن ميتودولوجيا لاکاتوش بأنها زينة لفظية

النظرية العلمية يرتبط بالوضعيات التاريخية التي أفرزتها، وبالسياق الثقافي الذي نشأت فيه، فالنظريات العلمية ليست محايدة ثقافياً وقيماً ما دام هذا السياق الثقافي نسبي ومتغير. تجاوز العلم في مسيرته التقدمية والطويلة التراكمات المتعلقة بالخرافات والأخطاء والأساطير، وعليه أصبح نصاً قابلاً للتفسير والتأويل والمراجعة من أجل فهم التركيب الفعلي للعلم. لا يمكن التسليم بعقلانية علمية مقولبة كعقلانية كونيّة عالمية تلغي كل صور الخصوصية التاريخية لغيرها من التصورات والنماذج. إن هذا المنطق من التسليم الأعمى يحول العلم إلى قناع يتستر به الطامعين لقمع الثقافات الأخرى ووسيلة للهيمنة والإستعمار. كما أنه من غير المقبول التسليم بأي توظيف لا إنساني للعلم. ولا نعني بذلك معاداة أفكار محددة، وإنما نعني ضرورة التأسيس لعقل علمي منفتح على كل الثقافات والحضارات لا تكون نواته حضارة محددة. هذا العقل يبحث عن ما هو ثابت فيه وما هو متغير، وإعادة بعثه وتنشيطه ليكون قادراً على مواكبة التحولات المعرفية والعلمية التي يعيشها العالم في الوقت الحالي، ويدرك في نفس الوقت تناقضاتها وخلفياتها الإيديولوجية.

## ٧ - المراجع

Feyerabend, P; Trad. Jurdant B. et Schlumberger A. (1979). *Contre la méthode: esquisse d'une théorie anarchiste de la connaissance*. Paris: seuil.

Lakatos, I; Tra, Malamud, C. et Fabien J. (1994). *Histoire et méthodologies des sciences*À Paris: PUF.

- الخولي، ي. ط. (٢٠٠٠). *فلسفة العلم في القرن العشرين*. الكويت: عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، العدد ٢٦٤.
- النويهي، س. (١٩٨٨). *تطور المعرفة العلمية: مقال في فلسفة العلم*. القاهرة: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- شالمرز آ، ترجمة سحبان أ، الصفا ف. (1991). *نظريات العلم*. الدار البيضاء: دار توبقال للنشر.
- عبد الحافظ ش. (٩ نيسان، ٢٠١٧). *مطاردة العقلانية*. تم الاسترداد من علوم وتقنية: <https://www.ida2at.com/philosophy-of-science-imre-lakatos>
- عوض، ع. (٢٠٠٤). *منطق النظرية العلمية المعاصرة*. الإسكندرية: منشأة المعارف العامة.
- لاكاتوش أ، ترجمة عبد القادر محمد م. (٢٠٠٠). *برامج الأبحاث العلمية*. الإسكندرية: دار المعرفة الجامعية.
- لاكاتوش إ، ترجمة نفاذي أ. (١٩٧٦). *تاريخ العلم وإعادة بناءاته العقلانية*. القاهرة: دار المعرفة الجامعية.



## قصة قصيرة شهدت الجولة الأخيرة

محمد اقبال حرب

وجهها لوّنه مجهول بألوان زرقاويّة  
حزينة، سلبتها النّضارة، ورشّت ذبول  
الفناء على بشرتها كطلّ ندي مما أضفى  
على المشهد هالة من السّكون المرعب. ألجم  
لسانها من مصدر مجهول خوفاً من أن  
تبوح بسرّ الرّحلة الأخيرة. ستارة الموت  
القرمزيّة التي تحيط بكينونتها أرعبت من  
حولها فتواروا خلف الجدران يبثون  
صلواتهم خوفاً على أنفسهم من غريب  
يسرق الأرواح بقدسية الوعد المدمر.

لم أخف، لم أرتعب، بل اقتربت منها،  
أطلقت عنان بصيرتي في كيانها، مسحت  
كيانها بكلّ ما أملك من مشاعر كجهاز أشعة  
يفكّك رموز الهدف ليقراً ما لم ينجل. رأيت  
حوافي تجاعيدها طلاسماً لم يجفّ حبرها  
فأدركت بأنّها تدركني فخطت مشاعرها  
على صفحة الوداع قدّر رحيل. رسائل  
موجهة إليّ كتبت بلغتنا الخاصة، لغة الرّوح  
والكينونة التي شاركتني بها مع أولّ ضمة

جئت بأسرع ما يمكن لأشهد الوداع  
الأخير لامرأة استضافتني في رحمها تسعة  
أشهر، درّبتني على الحياة بعدما استقر بي  
الجسد على كوكب الأرض. كفلتني رعاية  
أنثرت عن بلوغي مبلغ الرّجال علماً وأدباً.  
عرفتُها أكثر مما يجب، تعلّمتُ أن أفهم  
تقاطع وجهها، أن أستشعر كلماتها دون أن  
تبوح بها. كنّا نقرأ مشاعر بعضنا البعض  
بشيء من الفراسة من خلال مسح بصري  
يفي بالغرض.

قال الخبير، احضر قبل أن تفارق.  
وحضرت.

وجدتها مسجاة على سرير الوداع  
تواجه القبلة وكلّ من حولها جذع مترقّب.  
الخوف من الموت يُرعب الأحياء، يخافون  
من جثة الهدف الموسوم وكأأنهم يخشون  
أن يُأخذوا بمعية الرّاحل حيث استدعاه ربّ  
العالمين على الرّغم من ادعائهم بحبّ الله  
المطلق. لذلك كانوا يتناوبون التلصّص إليها  
ليرقبوا إن كان صدرها يعلو وينخفض.

إلى صدرها. كم أذكر الدرس الأول في اللحظة الأولى على صفحة كياني البيضاء. أول تنفس تنفّسته، أول جسد شعرت به، أول نفحة حنان وجرعة أمان أخذتها وأول قطرة غذاء تناولتها.

قالت لي بحركة من شفّتها: اقرأ تجاعيدي.

في البداية تصفّحتها من أقصاها إلى أقصاها. الجسد مثقل بالأوان جديدة من العذاب الذي لا يعرف تحفيزه إلا من يمتلك خرائط الجسم البشري الأصليّة. نوع جديد من الألم يذهل له صاحبه ولا يدري كيف يُعبّر عنه. تؤدّي الصدمة إلى اختلال توازن الكينونة فتعجز الضّحية عن البوح بأسرار الفناء. أليس صحيحًا أنّه عندما يتعرّض الجسد البشريّ خلال فترة وجوده حيًّا لأيّ حدث يكون له اسمًا أو وصفًا؟ لذلك يستطيع التّعبير والشّكوى بأشكال عدّة، البوح من خلال تشكيل التّعابير على وجهه أو الرّمز بحركة ما من أدوات جسده. لكنّه حينما يتعرّض لنوع مختلف من المشاعر الحميدة أو الخبيثة غير المعروفة بين البشر يصاب بالذهول لأنّه لا يعرف لها وصفًا. لا يدرك ماهيتها، نتائجه، بل وصفها فتكتّم وسائل التّعبير بوحها، تبحث عما يعبر عن ألم فاق ما يعرف من آلام وتجاوز المصيبة إلى حدّ لا يمكنه التّحكّم بأدواته التي اكتسبها عبر سنوات عمره.

من يثير تلك المشاعر؟ من يطلق العنان لأسلحة مدفونة في كيان كل منّا؟ من لديه جهاز الضبط النائي؟

كُتِبَتْ... فَقَرَأَتْ

أنا متمرّدة أرفض الاذعان لمن يسرقني، لمن يجتاح كينونتي دون استئذان. لم يكن دخولهم بطرق باب كينونتي بل بهجوم صاعق على كل خلية من جسدي، دمروا مشاعري بخطة ممنهجة، أصبتُ بذهول جارف أخذ معه قدرتي على التّعبير. كم هو قاس أن تشعر بأنّ الحروب الكونية باتت بداخلك تصارعك بأسلحة سرّيّة لا تدري مدى تأثيرها أو قوة تدميرها. على الرّغم من سماعي أصوات استغاثة خلاياي من خلال أصوات النجدة المتواترة كسيل جارف لا تحصي عدد نقاطه لم أنقذ خلية واحدة.

أغمضت عيني لأستوعب حديثها فيما تجاعيدها الأخرى تبوح.

صرخ بي صوت سمعته من خلال الفراغ الذي حطم خلاياي: تخلي عن روحك.

لا أدري أين روحي؟

طبعًا لا تعرفين، لكن لا يمكن أخذها إلا برضاك.

لن أتخلى عنها.

إِذَا سَنضطر لإذاقتك ضروريًا من  
العذاب لا تعرفينها حتى ترضخي.

إذا ما كان لديّ اختيار القبول فلا بدّ أن  
يكون من حقي الرفض.

أسأت الفهم، كل ما عليك أن تقبلي  
بانفصال الروح عن الجسد بطريقة أو  
بأخرى. نحن نحتاج جسدك في مسألة  
تدوير النفايات.

لم أفهم الجملة، بل لم أستوعب ما  
المقصود بالنفايات فأشحت برأسي لأسكن  
الدوار المفاجئ قبل أن أعاود قراءة تجاعيد  
الوجه الذي يزداد قتامة. لاحظت ذلك  
والدتي فكتبت: إنهم يضغطون علي بكل  
الوسائل لكنني لن أسلم روحي. تابعت:

قال الشيء الذي يغزوني: معظم  
الزاحلين يستسلمون ويقدمون أرواحهم  
بسكون لكنّ المتمردين مثلك يستحملون  
بضعة أيام قبل أن يفسخوا العقد.

عقد ماذا؟ أنت مجنون!

لا، بل أنت من أصابك كوكب الأرض  
بلوثة. لقد استأجرت نفسك الروح  
والجسد بعقد غير قابل للتجديد. انتهى  
العقد وعليك الخروج من الجسد. لن  
أتركك إلا برفقة روحك. لقد زادت نسبة  
التلوث الكوني بفضل الاستعمال  
البشري. لا بد من أخذها لتدويرها في  
مصنع المواد الإلهية.

لا أنكر ولن أخرج.

توقفت عن البوح لبرهة، أخذت  
ارتجافاتها الداخلية تزداد وعصارة بيضاء  
كزبد البحر تخرج من فمها مع حشرات  
متوالية تنافس الناي الحزين. اقتربت منها  
ماسحًا شفيتها. ذُرفت دمعة وحيدة وقالت:  
لا زلت حنونًا. إنهم يضيقون على  
سوائلي، يضغطون على خلاياي حتى  
يموت الجسد فأضطر للخروج إلى  
الفناء.

تابعت وكأنها تكتب على جدران  
أخايدها بسرعة: سألني الكائن عن سبب  
تمسكي بالعقد أخبرته عن عدم حصولي  
على حصتي من الحبّ والفرح، من العقل  
والجنون، لم أعب مع الأطفال، لم أسرق  
الطوى في طفولتي وتزوجت غصبا ممن  
لا أحبّ كما أمضيت حياتي في مجتمع  
ذكوريّ يحسبني حيوانًا نافقًا... أريد  
حقّي في البقاء حتى أحقق هذه  
الأشياء... لن أرضى بعرضك.

صمتت، صمتت لوقت طويل. لم يعد  
هناك رسائل، لكنها تتنفس. توقف التواصل.  
جلست بقربها ممسكًا بيدها الباردة،  
أمسح رغاء الموت عن شفيتها. نظرت بعيدًا  
خلف بودة الفناء التي مسحوا بشرتها بها.  
أنصتُ لأنفاسها أرقب رسالة جديدة على  
صفحة خالية علّها تبثني خبرها دون  
جدوى.

غفت عيناى قليلاً، بل حتى الفجر. شيء  
ما أيقظنى، أخبرنى بوصول رسالة.

رسالتى الأخيرة، هذه الكيانات  
تكاثرت فاحتلت كيانى، إنَّها تعبث بكل  
شيء وتضرم النَّيران فيما تبقى من  
الخلايا. داخلى يحترق على الرَّغم من كلِّ  
البرودة التى تحيق بكيانى. لا أستطيع  
الاستمرار فحبر وجودى انتهى، لن  
أستطيع الكتابة بعد الآن. أشعر  
بالضعف رغم كبريائى، أشعر بالمذلة  
رغم شموخى.

قلت بجزع وفزع: من هم، من هم؟

إنهم حصادوا الأرواح، بل سارقوها.  
قالوا بأن روحى قد نضجت وحن  
قطافها.

قلت: وماذا عن عقد الإيجار.

قالت: وهل تصدق أكاذيب أصحاب  
القوة الطاغية؟

انقطع الإرسال، توقف النفس... وهمد  
القلب.

بدأ التَّكبير على راحلة لا نعرف وجهتها  
مع غرباء جبناء لا يظهرون إلا فى السَّر ولا  
يسرقون إلا الأرواح.

وقفت فى الجنازة بعدما شهدت الجولة  
الأخيرة لامرأة كانت أمى وصديقتى  
ورفيقتى مودعاً جسدها قبل أن يدخل  
مرحلة التَّدوير الإلهى والفناء البشرى.  
لمحت شبهاً يقترب منى قائلاً: لقد عرفت  
أكثر مما يجب، خذ قسطاً من الراحة. عليك  
فسخ العقد فجر الغد.

109. Schneider, E.L. (1991). Attachment Theory and Research: Review of the Literature. *Clinical Social Work Journal*, 19(3), 251-266.
110. Schwarzer, R., & Knoll, N. (2002). Positive coping: mastering demands and searching for meaning, dans Lopez (S.), Snyder (C. R.), *Handbook of positive psychological assessment*, 393-409. Washington, DC: American psychological association.
111. Sequiera Amaro, L.P. (2013). *Régulation Émotionnelle, Attachement et Satisfaction de vie*. Thèse en vue de l'obtention du grade de Maitre en Psychologie du Developpement. Université de Coimbra. Repéré à <https://core.ac.uk/download/pdf/43573174.pdf>. Consulté le 15/11/2017.
112. Shaver, P.R. & Mikulincer, M. (2002). *Attachment and Human Development* (4), 133-61. Repéré à [https://www.researchgate.net/publication/229425332\\_An\\_Attachment\\_Perspective\\_on\\_Therapeutic\\_Processes\\_and\\_Outcomes](https://www.researchgate.net/publication/229425332_An_Attachment_Perspective_on_Therapeutic_Processes_and_Outcomes). Consulté le (4/6/2017).
113. Sroufe, L. A. (1997). *Emotional development. The organization of emotional life in the early years*. Cambridge: Cambridge University Press.
114. Sroufe, L.A., Carlson, E.A., Levy, A.K., & Egeland, B. (1999). Implications of attachment theory for developmental psychopathology. *Development and psychopathology*, 11(1), 1-13.
115. Sroufe, L.A., & Waters, E. 1977. Attachment as an organizational construct. *Child development*, 48, 1184-1199.
116. Thompson, R. A. (1991). Emotional Regulation and Emotional Development. *Educational Psychology Review*, 3(4), 269-307.
117. Trinke, S.J., & Bartholomew, K. (1997). Hierarchies of attachment relationships in young adulthood. *Journal of Social and Personal Relationships*, 14, 603-625.
118. Tronick, E., Als, H., & Brazelton, T. (1977). Mutuality in mother-infant interaction. *Journal of communication*, 27(2), 74-79.
119. Verney, T., & Kelly, J. (1981). *The secret life of the unborn child*. New York: Summit Books.
120. Vitaliano, P., Russo, J., Carr, J., Maiuro, R., & Becker, J. (1985). The ways of coping checklist: revision and psychometric properties. *Multivariate behavioral research*, 20, 3-26.
121. Winnicott, D.W. (1969). *De la pédiatrie à la psychanalyse*. Paris: Payot.
122. Winnicott, D. W. (1970). *Processus de maturation chez l'enfant. Développement affectif et environnement*. Paris: Payot.
123. Winnicott, D. W. (2006). *La mère suffisamment bonne*. Paris: Éditions Payot & Rivages.
124. Zimmermann, P., & Becker-Stoll, F. (2002). Stability of attachment representations during adolescence: the influence of ego-identity status. *Journal of Adolescence*, 25, 107-124.

93. Main, M., Kaplan, N., & Cassidy, J. (1985). *Security in infancy, childhood, and adulthood: a move to the level of representation*. Dans I. Bretherton & E. Waters (ed.), *Growing Points of Attachment Theory and Research*. Monographs of the Society for Research Child Development, 50, 66-106.
94. Marcelli, D., & Braconnier, A. (2004) *Adolescence et psychopathologie* (6ème ed.). Paris: Masson.
95. McGill University. (s.d.). *Régulation cognitive des émotions: Ensemble des leçons*, 41-48. Repéré à <https://www.mcgill.ca/connections-lab/files/connections-lab/emotional-regulation-lesson-plans-en-francais.pdf>. Consulté le (12/3/2017).
96. Merinfeld, E.G. (2005). Théorie de l'attachement et approche systémique. *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, 35(2), 13-28, doi: 10.3917/ctf.035.0013.
97. Miljkovitch, R. (2001). 7. L'attachement adulte. *L'attachement au cours de la vie*. In Miljkovitch, R. (Eds.), *le fil rouge*. Paris: Presses Universitaires de France, 195-241. Repéré à <http://www.cairn.info.ezproxy.usek.edu.lb/l-attachement-au-cours-de-la-vie--9782130519287-page-195.htm>. Consulté le (3/7/2017).
98. Miljkovitch, R. (2004). *A vinculação ao nível das representações*. Dans N. Guedeney & A. Guedeney (dir.), *Vinculação: Conceitos e aplicações*, 45-53. Lisboa: Climepsi Editores.
99. Moreira, J. M., Bernades, S., Andrez, M., Aguiar, P., Moleiro, C., & de Fatima-Silva, M. (1998). Social competence, personality and adult attachment style in a Portuguese sample. *Personality and Individual Differences*, 24(4), 565-570.
100. Moretti, M.M., & Holland, R. (2003). *The journey of adolescence*. Dans S.M. Johnson & V.E. Whiffen (ed.), *Attachment processes in couple and family therapy*, 235-257. New York: The Guildford Press.
101. Murphy, L. B. (1964). Some aspects of the first relationship. *Int. J. Psycho-Anal.*, 45, 31-43.
102. Nachin, C. (2011). L'attachement, un instinct oublié. *Le Carnet PSY*, 158(9), 16-23. doi: 10.3917/lcp.158.0016.
103. Philippot, P. (2011). *Emotion et Psychothérapie*. Bruxelles: Mardaga, 1-8. Repéré à <http://www.cairn.info/emotion-et-psychotherapie--9782804700720.htm>. Consulté le (1/6/2017).
104. Phillips, K. F. V., & Power, M.J. (2007). A New Self-Report Measure of Emotion Regulation in Adolescents: The Regulation of Emotions Questionnaire. *Clinical Psychology and Psychotherapy*, 14, 145-156.
105. Pierrehumbert, B. (2003). *Le premier lien: théorie de l'attachement*. Paris: Odile Jacob.
106. Pillet, V. (2007). La théorie de l'attachement pour le meilleur et le pire. *Dialogue*, 1(175), 7-14. Toulouse: Eres. Repéré à [http://www.cairn.info/article.php?ID\\_REVUE=DIA&ID\\_NUMPUBLIE=DIA\\_175&ID\\_ARTICLE=DIA\\_175\\_0007](http://www.cairn.info/article.php?ID_REVUE=DIA&ID_NUMPUBLIE=DIA_175&ID_ARTICLE=DIA_175_0007). Consulté le (1/6/2017).
107. Piot, M. (2006). Le regard est visage: Le visage est regard. *Recherches en psychanalyse*, 6, (2), 131-137.
108. Psychomedia, (2013). *Définition: Régulation des Emotions*. Repéré à <http://www.psychomedia.qc.ca/lexique/definition/regulation-des-emotions>. Consulté le (3/9/2017).

73. Jermann, F., Van Der Linden, M., D'Acremont, M., Zermatten, A. (2006). Cognitive Emotion Regulation Questionnaire (CERQ). Repéré à [Consulté le \(22/2/2017\)](#).
74. John, O.P., & Gross, J.J. (2004). Healthy and unhealthy emotion regulation: personality processes, individual differences, and lifespan development. *Journal of Personality*, 72, 1301-1334.
75. John, O.P., & Gross, J.J. (2007). Individual differences in emotion regulation. Dans J.J. Gross (ed.), *The Handbook of Emotion Regulation*. New-York: Guilford Press, 351-372.
76. Jongenelen, I., Carvalho, M., Mendes, T., & Soares, I. (2007). Reliant à l'adolescence. Dans i. Smith (s. la dir. de). *Liaison des relations tout au long du développement: théorie et évaluation* (2ème éd), 99-120. Braga: Psiquilibrios modifications.
77. Klein, M. (1928). Les stades précoces du conflit œdipien. *Essais de psychanalyse*, 229-241. Paris: Payot.
78. Klein, M. (2011). *Deuil et Depression*. Paris: Payot.
79. Lacan, J. (1953; 1954). *Le Séminaire - Livre I: Les écrits techniques de Freud*. Paris: Seuil.
80. Lacan, J. (2001). Les complexes familiaux dans la formation de l'individu. *Autres écrits*, 30-36. Paris: Seuil.
81. Laplanche, J. & Pontalis, J-B. (1981). *Vocabulaire de la Psychanalyse*. Paris: PUF.
82. Lazarus, R.S. (1991a). Cognition and motivation in emotion. *American Psychologist*, 46(4), 352-367.
83. Lazarus, R.S. (1991b). *Emotion and adaptation*. Oxford University Press.
84. Lazarus, R.S. (1998). *Fifty Years of the Research and Theory of R.S.Lazarus; An Analysis of Historical and Perennial Issues*. Mahwal, NJ: Lawrence Erlbaum Associates.
85. Lazarus, R.S., & Folkman, S. (1984a). *Stress, appraisal, and coping*. New York: Springer Publishing Company.
86. Lazarus, R.S., & Folkman, S. (1984b). *Coping and adaptation*. New York: Guilford Press.
87. Lernout, N. (s.d). *Utilisation du schéma de l'organisation du milieu humain et plus particulièrement du niveau de l'ambiance, en thérapie*, 1-16. Repéré à <https://www.cairn.info/revue-therapie-familiale-2006-2-page-193.htm>. Consulté le (18/10/2017).
88. Lieberman, M., Doyle, A.B., & Markiewicz, D. (1999). Developmental patterns in security of attachment to mother and father in late childhood and early adolescence: Associations with peer relations. *Child Development*, 70, 202-213.
89. Lopes, P. N., Salovey, P., Côté, S., & Beers, M. (2005). Emotion regulation abilities and the quality of social interaction. *Emotion (Washington, D.C.)*, 5(1), 113-118. doi:10.1037/1528-3542.5.1.113.
90. Luminet, O. (2008). *Psychologie des émotions: Confrontation et Evitement*. Bruxelles: Éditions De Boeck.
91. Machado, T. S. (2007). Padrões de vinculação aos pais em adolescentes e jovens adultos e adaptação à universidade. *Revista Portuguesa de Pedagogia*, 41(2), 5-28.
92. Machado, T. S., & Oliveira, M. (2007). *Vinculação aos pais em adolescentes portuguesas: o estudo de Coimbra*. *Psicologia e educação*, 6(1), 97-115.

56. Gross, J.J., (2008). Emotion Regulation. Dans M. Lewis, J.M. Haviland-Jones & L. Feldman-Barrett (Eds.) *Handbook of emotion*-3rd Edition, 497-512. New York: Guilford.
57. Gross, J.J., & John, O.P. (2003). Individual differences in two emotion regulation processes: Implications for affect, relationships, and well-being. *Journal of Personality and Social Psychology*, 85, 348-362.
58. Gross, J. J., & Muñoz, R. F. (1995). Emotion regulation and mental health. *Clinical Psychology: Science and Practice*, 2, 151-164.
59. Gross, J. J., Richards, J. M., & John, O. P. (2006). Emotion regulation in everyday life. Dans D. K. Snyder, J. Simpson & J. N. Hughes (ed.), *Emotion regulation in couples and families: Pathways to dysfunction and health*, 13-35. Washington, DC: American Psychological Association.
60. Gross, J. J., & Thompson, R. A. (2007). Emotion regulation: Conceptual foundations. Dans J. J. Gross (ed.), *Handbook of emotion regulation*, 3-24. New York: Guilford Press.
61. Grossmann, K.E., & Grossmann, K. (1998). Développement de l'attachement et adaptation psychologique du berceau au tombeau, in *Enfance*, 44-48.
62. Guay, J. (2014). *La régulation des émotions*. Repéré à <http://www.ccpweb.ca/regulation-emotions>. Consulté le (10/9/2017).
63. Guedeney, A., & Guedeney, N. (2002). *L'attachement: concepts et application*. Paris: Masson.
64. Guedeney, N., & Guedeney, A. (2010). *L'attachement: approche théorique du bébé à la personne âgée*. Paris: Masson.
65. Guedeney, N. (2010). *L'attachement, un lien vital*. Bruxelles: Fabert.
66. Guedeney, N., Fermanian, J. & Bifulco, A. (2010). La version française du Relationship Scales Questionnaire de Bartholomew (RSQ, Questionnaire des échelles de relation): étude de validation du construit. *L'Encéphale: Revue de Psychiatrie Clinique Biologique et Thérapeutique*, (36), 69-76. Repéré à <https://www.msn.com/ar-ae/?pc=SK216&ocid=SK216DHP&osmkt=en-us.Shaver>. Consulté le (22/2/2017).
67. Haag, M. (1984). *A propos des premières applications françaises de l'observation régulière et prolongée d'un bébé dans sa famille selon la méthode de Mrs. E. Bick: des surprises profitables*. Paris: tirage privé, 18, rue Émile-Duclaux, 75015.
68. Hallet, F., & Beaufort, M. (2003). *L'enfant souffrant de troubles de l'attachement*. Anhee: Pétales. Repéré à <http://ddata.over-blog.com/xxxyyy/2/21/69/72/TROUBLESattachement.pdf>. Consulté le (21/6/2017).
69. Hermann, I. (1972). *L'instinct filial*. trad. Française. Paris: Denoël.
70. Hill, J.P., & Holmbeck, G.N. (1986) Attachment and autonomy during adolescence. *Annals of Child Development*, 3, 145-189.
71. Hosley, C.A., & Montemayor, R. (1997). Fathers and adolescents. Dans E.D. Lamb (ed.), *The role of the father in Child development*. New York: Wiley.
72. Jeammet, P., & Sarthou-Lajus, N. (2008). Les contradictions de l'adolescence. *Revue Études*, (7), 1-8. Repéré à <http://www.cairn.info/revue-etudes-2008-7-page-30.htm>. Consulté le 17/11/2017.



- tionnelle et de coping: quels liens? *Bulletin de Psychologie*, 5(515), 471-479. Repéré à [https://www.researchgate.net/publication/237099602\\_Strategies\\_de\\_regulation\\_emotionnelle\\_et\\_de\\_coping\\_quels\\_lien?](https://www.researchgate.net/publication/237099602_Strategies_de_regulation_emotionnelle_et_de_coping_quels_lien?) Consulté le (6/1/2017).
42. Dessoay, E. (1991). *Ambiance, éthique et croyances: les trois foyers organisateurs d'un milieu humain. Une approche psycho sociogénétique préparatoire à l'abord de l'autisme*. Soumagne: Ferme du Soleil.
  43. Dupont, S. (2010). Vers une métapsychologie du sentiment de solitude et de la capacité d'être seul. *Seul parmi les autres*. In Missonnier, S. (Eds.), *La vie de l'enfant*, Toulouse: Erès, 131-148. Repéré à <http://www.cairn.info.ezproxy.usek.edu.lb/SEUL-PARMI-LES-AUTRES--9782749211954-PAGE-131.htm>. Consulté le (18/3/2017).
  44. Feeney, B. C., & Cassidy, J. (2003). Reconstructive memory related to adolescent-parent conflict interactions: The influence of attachment-related representations on immediate perceptions and changes in perceptions over time. *Journal of Personality & Social Psychology*, 85, 945-955.
  45. Fischer, A. (2000). *Gender and emotion: social psychological perspectives*, Cambridge: Cambridge University Press.
  46. Folkman, S. (1984). Personal control and stress and coping processes: a theoretical analysis. *Journal of personality and social psychology*, 46, 839-852.
  47. Fouchev, M. (2009). *La névrose obsessionnelle*. Repéré à <http://psychologie-m-fouchev.psychblogs.net/?post/407-La-nevrose-obsessionnelle> Consulté le (4/4/2017).
  48. Fox, N. A., & Calkins, S. D. (2004). Multiple-measure approaches to the study of infant emotion. Dans M. Lewis & J M. Haviland-Jones (Eds.), *Handbook of Emotions*, 203-219. New-York: The Guilford Press.
  49. Freud, S. (1917). Deuil et Mélancolie. *Métapsychologies, Sociétés*, 4/2004 (86), 7-19. Repéré à <https://www.cairn.info/revue-societes-2004-4-page-7.htm>. Consulté le (6/9/2017).
  50. Gratz, K.L., Roemer, L. (2004). Multidimensional Assessment of Emotion Regulation and Dysregulation: Development, Factor Structure, and Initial Validation of the Difficulties in Emotion Regulation Scale. *Journal of Psychopathology and Behavioral Assessment*, 26, 41-54.
  51. Gross, J.J. (1998a). Antecedent and response-focuses emotion regulation: divergent consequences for experience, expression, and physiology. *Journal of Personality and Social Psychology*, 74, 224-237.
  52. Gross, J.J. (1998b). The emerging field of emotion regulation: an integrative review. *Review of General Psychology*, 2, 271-299.
  53. Gross, J.J., (1999). Emotion regulation: past, present, future. *Cognition and Emotion*, 13(5), 551-573.
  54. Gross, J.J. (2001). Emotion regulation in adulthood: timing is everything. *Current Directions in Psychological Science*, 10, 214-219.
  55. Gross, J.J. (2002). Emotion regulation: affective, cognitive, and social consequences. *Psychophysiology*, 39, 281-291.

25. Byng-Hall, J. (1995a). Creating a Secure Family Base: Some Implications of Attachment Theory for Family Therapy. *Family Process* 34(1), 45-58.
26. Byng-Hall, J. (1995b). *Rewriting Family Scripts. Improvisation and Systems Change*. London: Guilford Press.
27. Byng-Hall, J. (1999). Family couple therapy: Toward greater security. In Cassidy J. & Shaver P. R.: *Handbook of attachment: Theory, research, and clinical applications*, 625-645. New York: Guilford Press.
28. Byng-Hall, J. (2007). Soulager le fardeau des enfants parentifiés dans les familles présentant des modes d'attachement insécurisés. *Devenir*, 19(3), 201-222, doi: 10.3917/dev.073.0201.
29. Cassidy, J. (1988). Child-mother attachment and the self in 6-year-olds. *Child Development*, 59, 121-124.
30. Chabot, D. (1998). *Cultivez votre intelligence émotionnelle*. Outremont: Editions Québecor.
31. Christophe, V., Antoine, P., Leroy, T., & Delelis, G. (2009). Évaluation de deux stratégies de régulation émotionnelle: la suppression expressive et la réévaluation cognitive. *Revue européenne de psychologie appliquée*, 59, 59-67. Repéré à <https://www.cairn.info/revue-bulletin-de-psychologie-2011-5-page-471.htm>. Consulté le (12/3/2017)
32. Cline, F. (1992). *Hope for high risk and rage-filled children*. Evergreen, CO: EC Publications.
33. Cosmopolitan.fr. (2017). Comment reconnaître un bon stress d'un mauvais stress? Gérer son stress. *Cosmopolitan*, 1-12. Repéré à <http://www.cosmopolitan.fr/le-bon-stress-le-mauvais-stress,1905101.asp>. Consulté le (10/9/2017).
34. Cohn, J.F., & Tronick, E.Z. (1989). Specificity of infants response to mother affective behavior. *Journal of the American Academy of Child and Adolescent Psychiatry*, 28(2), 242-248.
35. Cousson, F., Bruchon-Schweitzer, M., Quintard, B., Nuissier, J., Rascle, N. (1996). Analyse multidimensionnelle d'une échelle de coping: validation française de la WCC (Ways of coping checklist). *Psychologie française*, 41, 155-164.
36. Crittenden, M. (1992). Quality of Attachment in the Preschool Years. *Development and Psychopathology*, 2.
37. Crittenden, P. M., & Ainsworth, M.D.S. (1989), *Child maltreatment and attachment theory*, In D. Chicchetti & V. Carlson (Eds.), *Child maltreatment: Theory and research on the causes and consequences of child abuse and neglect*, 432-463. New York: Cambridge University Press.
38. Crockenberg, S.B. (1981). Infant irritability, mother responsiveness, and social support influences on the security of infant-mother attachment, *Child*.
39. De Mijolla, A. (2005). *Dictionnaire International de la Psychanalyse*. Detroit: Macmillan Reference USA.
40. Delage, M. (2008). L'attachement à l'adolescence. *Applications thérapeutiques. Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, 40(1), 79-97. Doi: 10.3917/ctf.040.0079.
41. Delelis, G., Christophe, V., Berjot, S., & Desombre, C. (2011). Stratégies de régulation émo-

7. American Psychiatric Association. (2000). *Diagnostic and Statistical Manual of Mental Disorders - DSM-IV. Personnalité Histrionique*. APA.
8. Atger, F. (2004). Vinculação e adolescência. Dans N., Guedeney & A. Guedeney (dir.), *Vinculação: Conceitos e aplicações*. 147-156. Lisboa: Climepsi Editores.
9. Atger, F. (2007). L'attachement à l'adolescence. *Dialogue*, 175(1), 73-86. Doi: 10.3917/dia.175.0073.
10. Bartholomew, K., & Horowitz, L.M. (1991). Attachment styles among young adults: A test of a four-category model. *Journal of Personality and Social Psychology*, 61(2), 226-244.
11. Bee, H. L. (1997). Le début de l'âge adulte: développement des relations sociales et de la personnalité. Dans *Psychologie du développement: les âges de la vie*, 333-365. Bruxelles: De Boeck Université.
12. Benoit, M. (2006). *Etude du lien entre le degré de sécurité de l'attachement, les stratégies comportementales de régulation émotionnelle et les symptômes de stress post-traumatique chez l'adulte*. Thèse de doctorat en psychologie. Montréal: Université de Québec. Repéré à <http://www.archipel.uqam.ca/10044/1/D1452.pdf>. Consulté le 15/11/2017.
13. Biasoli-Alves, Z. M. M. (2004). Pesquisando e intervindo com famílias de camadas diversificadas. Dans C. R. Althoff, C. R., I. Elsen & R.G. Nitschke (Orgs), *Pesquisando a família: olhares contemporâneos*, 91-106. Florianópolis: Papa Livro.
14. Bick, E. (1968). The experience of the skin in early object relations, in: *Int. Jour of psychoanal.*, 484-486; trad. presque complète dans: *Explorations dans le monde de l'autisme*, 238-244.
15. Bowlby, J. (1969). *Les effets sur le comportement d'une rupture des liens affectifs*. Hygiène mentale du Canada, (59), 1-13.
16. Bowlby, J. (1973). *Attachment and loss : Separation*. Vol.2. New York: Basic Books.
17. Bowlby, J. (1978). *Attachement et perte : l'attachement*. Vol.1. Paris: Presses Universitaires de France.
18. Bowlby, J. (1978). *Attachement et perte: séparation, angoisse et colère*. Vol.2. Paris: Presses Universitaires de France.
19. Bowlby, J. (1988). *A Secure Base: Clinical Implications of the Attachment Theory*. Londres: Routledge.
20. Brazelton, T.B., Koslowski, M., & Main, M. (1974). The origins of reciprocity. In M. Lewis & L.A. Rosenblum (Éds), *The effect of the infant on its caregiver*. New-York: Wiley.
21. Bretherton, I. (1992). The Origins of Attachment Theory: John Bowlby and Mary Ainsworth. *Developmental Psychology*, 28(5), 759-775.
22. Brody, L., Hall, J. (1993). Gender and emotion, dans Lewis (M.), Haviland-Jones (J.), *Handbook of emotions*, 447-461. New York: Guilford press.
23. Brunel, M-L. (1995). La place des émotions en psychologie et leur rôle dans les échanges conversationnels. *Santé Mentale au Québec*, 20(1), 177-205.
24. Byng-Hall, J. (1991). The application of attachment theory to understanding and treatment in family therapy. In Parkes C.M., Stevenson-Hinde J. & Marris P. (eds.): *Attachment across the life cycle*, 199-215. London & New York: Routledge.

De même, la 2eme H.O. est confirmée car les résultats démontrent bien que la **régulation émotionnelle est plus non-adaptative** chez les adolescents présentant un **type d'attachement in sécure pré-occupé** que ceux présentant un **type d'attachement in sécure détaché**.

**VI.1. CONCLUSION:** *Dans quelle mesure le type d'attachement à la mère affecte-t-il la régulation émotionnelle des adolescents face au stress de l'examen officiel?*

L'objectif de cette étude était d'évaluer l'influence de l'attachement maternel sur la régulation émotionnelle des adolescents face à l'examen officiel et de mesurer le degré d'adaptative de leur régulation émotionnelle.

En effet, nos résultats ont montré que les adolescents libanais âgés de 17 à 19 ans présentant un type d'attachement sécure à la mère ont une régulation émotionnelle plus adaptative face au stress de l'examen officiel que les adolescents qui présentent un type d'attachement in sécure craintif, pré-occupé ou détaché.

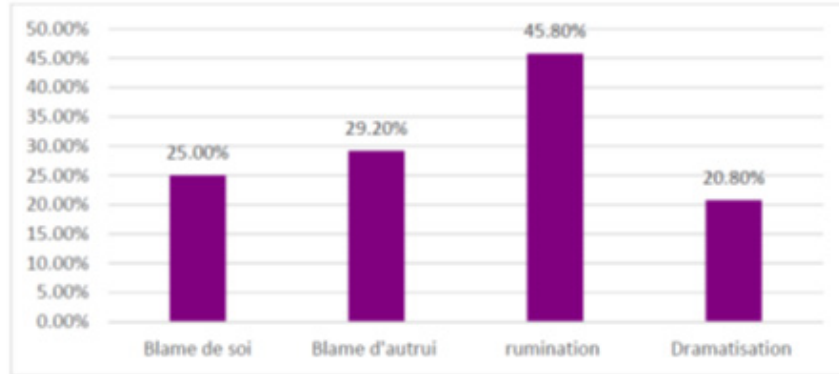
De plus, cette régulation émotionnelle non-adaptative varie selon les différents types d'attachement maternel in sécure; à savoir elle est moins non-adaptative chez les adolescents présentant un type d'attachement in sécure craintif que ceux présentant un type d'attachement in sécure pré-occupé et plus non-adaptative que chez ceux présentant un type d'attachement in sécure détaché.

## **VI.2 Limites de la recherche**

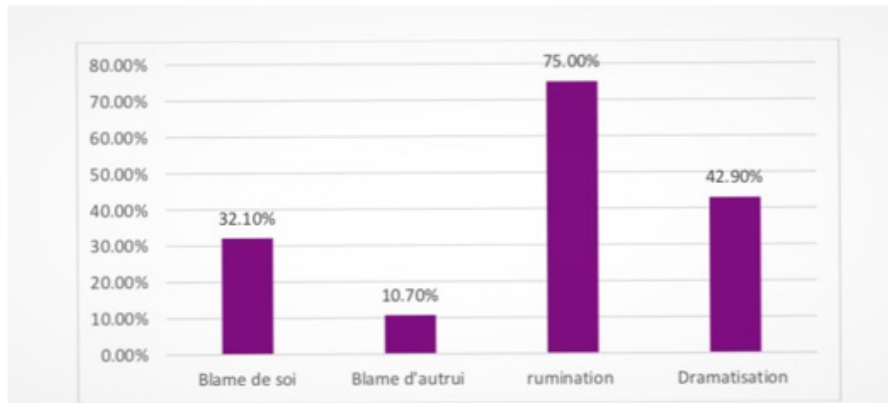
Bien que les résultats aient démontré que notre recherche a pu atteindre principalement son objectif, cependant elle demeure limitée, et une discussion quant à ces limites s'avère de rigueur. Tout d'abord, nous avons pu trouver un lien entre les trois types d'attachement in sécure, nous rappelons que les résultats de cette recherche ne peuvent pas être généralisés. Multiples sont les facteurs pouvant influencer les résultats ici trouvés. Les conditions socio-économiques, le milieu sociétal communautaire ou individualiste, le type d'attachement, trans-générationnel continu ou interrompu, et le vécu de l'enfant et de sa mère sont d'autant de raisons qui rendent différents le chemin et les résultats de chaque libanais candidat actuel au baccalauréat à qui l'on pourrait faire passer les questionnaires proposés dans cette recherche.

## **BIBLIOGRAPHIE**

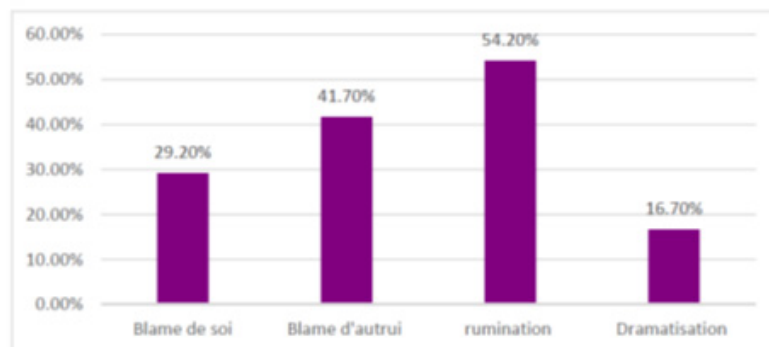
1. Ainsworth, M. (1969). Object relations, dependancy, and attachment: A theoretical review of the infant-mother relationship. *Child Development*, 40, 969-1025.
2. Ainsworth, M. (1972). Attachment and dependency. A comparison. In (J. Ferwirth (Ed.), *Attachment and dependency*. Cambridge: Cambridge University Press.
3. Ainsworth, M., Bell, S.M., & Stayton, D.J. (1974). Infant-mother attachment and social development. In Richards (Ed.), *The integration of a child into a social world*. London: Cambridge University Press.
4. Ainsworth, M., Blehar, M., Waters, E., & Wall, S. (1978). *Patterns of attachment: A psychological study of the strange situation*. Hillsdale, N.J., Lawrence Erlbaum.
5. Allen, J.P., & Land, D. (1999). Attachment in adolescence. Dans J. Cassidy & PR., *Handbook of attachment: theory, research, and clinical applications*, 319-335. New York: Guilford Press.
6. Allen, J.P., Moore, C., Kuperminc, G.P., & Bell, K.L. (1998). Attachment and adolescent psychosocial functioning. *Child Development*, 69, 1406-1419.



Le 5eme tableau: (sous-échelles pour attachement in sécure préoccupé): résultat: rumination a 75%.



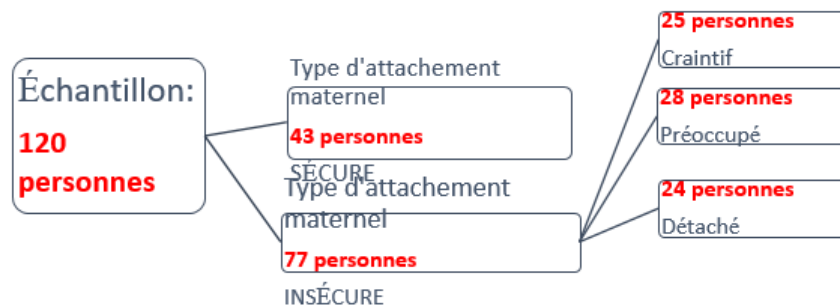
Le 6eme tableau: (pour attachement maternel in sécure détaché): rumination (54%) et blâme d'autrui (42%).



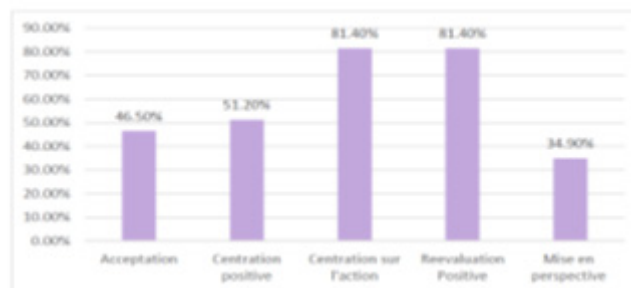
La 2eme H.O. est infirmée dans le fait que la régulation émotionnelle est moins non- adaptative chez les ados présentant un type d'attachement in sécure craintif que ceux présentant un type d'attachement in sécure préoccupé.

**Vérification de la 1<sup>ère</sup> H.O.:** Selon la grille d'analyse globale: 36% (= 43 étudiants) présentent un attachement sécurisé contre 64% d'in sécurisé (77 étudiants). Pourtant d'après le calcul du khi-deux, 91% des adolescents de type sécurisé utilisent un mode de régulation émotionnelle adaptatif contre 14% chez les adolescents ayant un type d'attachement in sécurisé. **Ces résultats confirment la 1<sup>ère</sup> H.O.**

**Vérification de la 2<sup>ème</sup> H.O.:** Sur les 50 étudiants ayant recours à un mode de régulation adaptative, 78% ont un attachement sécurisé. Sur les 70 ayant recours à un mode de régulation non-adaptatif, 34% ont un attachement in sécurisé préoccupé, 31% in sécurisé craintif. **Ceci infirme partiellement la 2<sup>ème</sup> H.O.**



**Le 3<sup>ème</sup> tableau (sous échelles de la régulation émotionnelle adaptative chez les ados avec un type d'attachement sécurisé) confirme la 1<sup>ère</sup> H.O:** car les 2 sous-échelles les plus retenues sont: la centration sur l'action et la réévaluation positive (toutes 2 à 81%).



**Les tableaux suivants vont étudier et répondre à la 2<sup>ème</sup> H.O:**

**Le 4<sup>ème</sup> tableau: (sous-échelles de la régulation émotionnelle non-adaptative chez les ados avec un type d'attachement in sécurisé craintif):** montre que la sous-échelle la plus retenue est la rumination (46%).

Le modèle non-adaptatif comprend 4 sous-échelles composée chacune de 4 items:

- Blâme de soi: 1, 10, 19, 28
- Blâme d'autrui: 9, 18, 27, 36
- Rumination: 3, 12, 21, 30
- Dramatisation: 8, 17, 26, 35

#### V - Plan de recherche: les modes d'analyse et de traitement des données

Le plan adopté dans notre étude est un plan de recherche qui suit la méthode corrélacionnelle.

L'analyse des données sera quantitative et qualitative en vue de confirmer ou d'infirmer les hypothèses:

- Quantitative à travers des méthodes statistiques, en utilisant la version 16 du SPSS.
- Qualitative à travers l'analyse et l'interprétation du contenu des résultats recueillis des questionnaires.

**Pour La Procédure:** une autorisation de passation des questionnaires a été requise auprès des trois écoles en garantissant la confidentialité des données et l'anonymat des questionnés.

#### VI: ANALYSE ET INTERPRÉTATION DES DONNÉES ET VÉRIFICATION DES HYPOTHÈSES

##### a) Interprétation et analyse des résultats

		Modele de regulation emotionnelle					
		Adaptatif			Non Adaptatif		
		Count	Layer Column Total N %	Row N %	Count	Layer Column Total N %	Row N %
Séure	OUI	39	78.0%	90.7%	4	5.7%	9.3%
	NON	11	22.0%	14.3%	66	94.3%	85.7%
Insecure: craintif	OUI	3	6.0%	12.0%	22	31.4%	88.0%
	NON	47	94.0%	49.5%	48	68.6%	50.5%
Insecure: Préoccupée	OUI	4	8.0%	14.3%	24	34.3%	85.7%
	NON	46	92.0%	50.0%	46	65.7%	50.0%
Insecure: Détachée	OUI	4	8.0%	16.7%	20	28.6%	83.3%
	NON	46	92.0%	47.9%	50	71.4%	52.1%

L'échantillon comprend 50 personnes adaptatif et 70 non adaptatif.

Parmi les 50 personnes adaptatif : 39 séure, 3 Craintif, 4 Préoccupée, 4 Détachée

DONC NOTRE ECHANTILLON SE DIVISE AINSI :

- o 78% sont séure – ADAPTATIF ((39/50)x100)
- o 6% sont insecure craintif – ADAPTATIF ((3/50) x 100)
- o 8% sont insecure préoccupée – ADAPTATIF ((4/50)x100)
- o 8% sont insecure détachée – ADAPTATIF ((4/50)x 100)

Parmi les 70 personnes non-adaptatif : 4 séure, 22 craintif, 24 préoccupée, 20 détachée

- 5.7% sont séure – NON ADAPTATIF ((4/70)x 100)
- 31.4% sont insecure – NON ADAPTATIF ((22/70)x 100)
- 34.3% sont insecure – NON ADAPTATIF ((24/70)x 100)
- 28.6% sont insecure – NON ADAPTATIF ((20/70)x100)

sitif et modèle négatif des autres) et le type «craintif» (modèle négatif de soi et des autres).

- d) **La variable dépendante** porte sur la régulation émotionnelle qui selon Gross et Thompson, (1991, 2007) représente le processus du contrôle ou fluctuation de l'émotion face à un stress. Elle a deux versants: adaptatif (Christophe, Antoine, Leroy & Delelis 2009, p.60) et non adaptatif. Le versant adaptatif comporte 5 critères: 1- l'acceptation (McGill, s.d.p. 30); 2- une centration positive (Lazarus et Folkman 1984a); 3- une centration sur l'action (Christophe et al., 2009, p.60; Gross 2008); 4- une réévaluation positive (Christophe et al., 2009, p.60; Gross, 2008). et 5- une mise en perspective. Le versant non-adaptatif (Christophe et al., 2009, p.60). en comporte 4: 1- blâme de soi (McGill, s.d, p.30); 2- blâme d'autrui (McGill, s.d, p.30); 3- une rumination (Fouchey, 2009, p.1); 4- une dramatisation (DSM-IV, 2000)..
- e) **L'échantillon:** 120 étudiants libanais (67 garçons, 53 filles) de 3 écoles types, catholiques, appartenant aux 4 sections (LH, SV, SG, SE) et qui répondent, pour neutraliser les variables secondes ou parasites, aux 3 critères suivants: de religion chrétienne, de niveau socioéconomique moyen et de la région de Jbeil.
- f) **Les instruments de recherche** choisis sont deux questionnaires:
- 1 - Questionnaire inspiré des échelles de relation: Relation Scales Questionnaire RSQ de Bartholomew (Guedeny & al., 2010) rendu plus simplifié.
  - 2 - Questionnaire de Régulation Emotionnelle: Cognitif Emotionnel Regulation Questionnaire CERQ (d'Acremont & Van der Linden, 2006).

#### **Le premier outil: Relationship Scales Questionnaire de Bartholomew (RSQ): Présentation de l'échelle:**

Porté sur le type d'attachement. Il a été adapté aux ados en terminale et seulement 20 des 30 items seront retenus. 5 items seront attribués pour chacune des 4 sous-échelles qui décrivent 4 «prototypes» d'attachement:

- La sous-échelle “**sécure**” (modèles positifs de soi et des autres) 5 items: **4, 8, 12, 16, 20.**
- La sous-échelle “**craintif**” (modèles négatifs de soi et des autres) 5 items: **1, 5, 9, 13, 17.**
- La sous-échelle “**préoccupé**” (modèle de soi négatif et des autres positif) 5 items: **3, 7, 11, 15, 19.**
- La sous-échelle “**détaché**” (modèle positif de soi et négatif des autres) 5 items: **2, 6, 10, 14, 18.**

#### **Le deuxième outil: Cognitive Emotional Regulation Questionnaire (CERQ)**

Cet outil sera utilisé afin de mesurer la fréquence avec laquelle les adolescents ont recours à des stratégies adaptatives et non adaptatives pour réguler leurs émotions. Ces 36 items sont répartis en 9 sous-échelles énonçant les deux modèles de régulation émotionnelle:

##### **Le modèle adaptatif comporte 5 sous-échelles composée chacune de 4 items:**

- Acceptation: **2, 11, 20, 29**
- Centration positive: **4, 13, 22, 31**
- Centration sur l'action: **5, 14, 23, 32**
- Réévaluation positive: **6, 15, 24, 33**
- Mise en perspective: **7, 16, 25, 34**



### **III - Revue de la littérature**

Se basant sur l'histoire et les études d'une multitude de chercheurs, l'auteur propose avec Zirkel et Cantor (1990) que les adolescents avec un type d'attachement inséculaire présentaient des niveaux de stress plus élevés; avec Moreira, Bernades, Andrez, Aquiar, Moleiro et de Fatima-Silva (1998) des compétences sociales moindres, la différence de perceptions des interactions chez les ados avec (Feeney et Cassidy), des stratégies de régulation émotionnelle plus non-adaptatives que les adolescents ayant un type d'attachement sécurisé à la mère.

Citant Lazarus et Folkman (1984), le stress serait la réaction émotionnelle d'une cassure entre les exigences de la situation et les ressources insuffisantes de la personne. Mais, avec Cosmopolitan, (2017), il existe un bon stress et un mauvais stress. Le bon stress étant plus court et gérable tout en apportant à l'individu la satisfaction d'avoir pu surmonter la situation et d'avoir des résultats méritoires. Tandis que le mauvais stress, qui est retrouvé chez les personnes sans modèles opérants internes ni stratégies d'adaptation dus au type d'attachement inséculaire aura pour effet de les fragiliser, de les étouffer, de leur donner toute sorte de négativité que ressentira toute personne impuissante à résoudre toute situation stressante et pouvant mener même au burnout.

Nous avons donc mis en place la relation qui existe entre les types d'attachement entre l'adolescent et sa mère sur la création ou non, et la régulation adaptative ou non des émotions face à une situation stressante. Il peut donc maintenant proposer un échantillon pour démontrer si les différents types d'attachement produisent des résultats différents ou non.

Ayant maintenant l'objectif d'étudier et de mesurer l'influence du type d'attachement maternel sur la régulation émotionnelle, un échantillon de 120 étudiants libanais, prélevés dans 3 écoles catholiques, âgés de 17 à 19 ans et faisant face à la situation stressante que représente la passation du baccalauréat sera utilisé afin de vérifier les 2 hypothèses opérationnelles de cette recherche.

L'hypothèse générale: «La régulation émotionnelle dans ses deux modalités, adaptative et non-adaptative, est influencée par les différents types d'attachement maternel: sécurisé ou inséculaire.» sera concrétisée par:

### **IV - METHODOLOGIE DU TRAVAIL SUR LE TERRAIN**

- a) **Première hypothèse opérationnelle:** *Les adolescents libanais âgés de 17 à 19 ans présentant un type d'attachement sécurisé à la mère montrent une plus grande régulation émotionnelle adaptative face au stress de l'examen officiel que ceux présentant un type d'attachement inséculaire (craintif, préoccupé et détaché) à celle-ci.*
- b) **Deuxième hypothèse opérationnelle:** *La régulation émotionnelle varie aussi selon les différents types d'attachement inséculaire. Elle est beaucoup plus non-adaptative chez les adolescents présentant un type d'attachement inséculaire - craintif que ceux ayant un type d'attachement inséculaire - préoccupé et ceux-ci d'autant plus non-adaptative que ceux ayant un type d'attachement inséculaire - détaché.*
- c) **La variable indépendante** (totalement décrite par Guedeney & al., 2010) prise en compte est le type d'attachement maternel ayant deux niveaux: le type d'attachement sécurisé et le type d'attachement inséculaire.

Le type d'attachement inséculaire comportera 3 catégories: le type «préoccupé» (qui implique un modèle de soi négatif et un modèle des autres positif), le type «détaché» (modèle de soi po-

ternel pour quelles représentations internes de soi-même, des relations sociales et des attentes chez l'adolescent; ainsi que la détermination du rôle des différents types d'attachement (sécure et insécure) dans la régulation des émotions. Nous verrons aussi dans la revue de la littérature la place de la mère et ses effets sur le développement de l'enfant avec Klein (1928, p.229); Brazelton, Kozlowski & Main (1974); Cohn & Tronick (1989, p.242-248); et surtout les conceptions de Winnicott qui en 2006 confirment notre hypothèse fondamentale implicite qu'un environnement suffisamment bon et adapté aux soins du bébé est nécessaire au développement de l'enfant et à la construction du psychisme.

La problématique tourne autour des approches; D'abord, par l'approche psychanalytique, à travers Ainsworth (1969,1972) qui insiste sur l'importance de la disponibilité de la mère en tant que refuge qui permettra à l'enfant d'y revenir s'il ressent un danger dans l'exploration de son environnement aussi bien physique que social. Ceci lui permettra de développer des stratégies pour apprendre à interagir avec son environnement (Ainsworth, Blehar, Waters et Wall (1978) et Bowlby (1969,1973)). Le point fort de cette approche est que l'absence ou la mauvaise relation avec la mère pourra avoir tout l'effet contraire. Bowlby parle donc d'attachement sécure et insécure à la mère. Bretherton (1992). Nous trouverons 3 types d'attachement insécure dans cette recherche. Crittenden & Ainsworth (1989) introduisent le 1<sup>er</sup> insécure détaché, en affirmant que si la relation à la mère est répétitivement déplaisante à l'enfant il pourrait développer ce type d'attachement. Grossman & Grossman affirment que les stratégies d'adaptation de la régulation des émotions de tout individu dépendent des expériences d'attachement vécues. Cité par Luminet en 2008, le «coping» d'Anna Freud, repris par Lazarus et Folkman (1984a, 1984b) parle aussi de la performance d'adaptation à toute situation stressante.

L'approche systémique, avec Byng Hall (1991, 1995a et b,2007) insiste sur le rôle primordial de la famille dans le développement émotionnel de l'adolescent face à tout type de changements en lui procurant une base de sécurité qui favorise les capacités à résoudre les problèmes et réguler ses émotions.

La théorie cognitivo-comportementale, enfin, d'abord avec Lazarus qui démontre que les émotions d'un individu sont influencées par la situation événementielle. Et ensuite encore avec Lazarus de pair avec Folkman (1984) le «coping» qui serait l'ensemble organisé des efforts cognitifs et comportementaux forgés par les individus de détecter les agents de stress potentiels, et d'y faire face en gérant les situations.

## **II - Perspective personnelle et reformulation de question de départ**

Nous reprendrons donc notre propre perspective en joignant la perspective psychanalytique et cognitivo-comportementale avec la dernière reformulation de la question de départ qui devient: «Dans quelle mesure le type d'attachement à la mère sécure ou insécure influence-t-il la régulation émotionnelle chez l'adolescent?».

Afin de pouvoir conclure que le type d'attachement de l'adolescent à la mère soit crucial dans sa régulation émotionnelle face à toute situation stressante, crucial au développement continu de l'individu et enfin insister sur l'importance de l'accompagnement des mères dans la compréhension de leur rôle et de l'aide à procurer aux adolescents en crise et qui ont eu un type d'attachement insécure, l'auteur traitera de certains points décisifs dans sa partie théorique.

nel sécurisée et les 3 types d'attachement insécure ainsi que les 9 sous-échelles de régulation adaptative ou non-adaptative retrouvées dans un des 2 questionnaires utilisés lequel par ses résultats mettra en relief les stratégies les plus communes.

La charge est de retravailler en théorie les liens entre régulation émotionnelle et attachement en précisant chez l'adolescent où il est situé dans son mode de régulation, qu'il soit oppositionnel, ambivalent, intrusif ou dépendant. Il faut aussi voir comment s'effectue la fixation à l'objet absent-présent, la possibilité d'une menace intérieure et étudier sur quel volet (confiance, identité, fierté) le processus se fera. Travailler sur les questionnaires, en établissant une échelle, ceci était un apport scientifique Libanais, travailler ceci sur les adolescents terminaux avant la passation de l'examen; un moment efficace et opportun pour avoir des résultats valides, en prégnant en considération l'effet ambivalent des adolescents dans les résultats.

### **I - Introduction et position du problème et question du départ**

Nous démontrons tout d'abord l'intérêt général de sa recherche en édifiant la position du problème sur une question que se pose la majorité des adolescents qui font et feront face à un examen scolaire ou universitaire: pour quelles raisons certains stressent plus que d'autres avant et pendant l'examen.

Il faut noter que passer un examen est une des innombrables épreuves auxquelles toute personne fera face durant sa vie. La vraie question serait pourquoi et comment certaines personnes parviennent à gérer et à s'adapter à ces pressions mieux et plus que d'autres personnes.

Face au stress immense qui se traduit par des sentiments de peur et d'anxiété, et qui touche à nos familles et, plus particulièrement, à nos jeunes adolescents qui se présentent à l'examen officiel, il s'avère indispensable de porter notre attention à la mère et à sa fonction de garant qui assure la sécurité, la stabilité et l'équilibre dans la relation avec ses enfants, vu sa présence de facto, auprès d'eux pour les accompagner aussi bien dans le processus académique que sur le plan émotionnel.

Corollairement, nous relierons cette anxiété vécue par l'adolescent à la qualité de l'attachement à sa mère, étant la figure d'attachement principale et privilégiée, et à son rôle dans la gestion de ses émotions ressenties lors des périodes de grand stress.

Cette recherche démontrera selon plusieurs approches et auteurs que les manières de gérer l'anxiété éprouvée et de s'adapter à tout challenge par les adolescents et personnes de tout âge reposent sur la relation à la mère et plus précisément le type d'attachement entre l'enfant et sa mère. En 1969, John Bowlby a été le 1<sup>er</sup> à traiter l'attachement avec sa fameuse théorie de l'attachement en différenciant le bon et le mauvais attachement de l'enfant à sa mère avec ses notions d'attachement sécurisée et l'attachement insécure. La 1<sup>ere</sup> ayant de multiples bienfaits qui aideront et renforceront l'enfant tout au long de sa vie.

Pour et dans cette recherche: une relation et un attachement qui créeront des modèles internes opérants caractéristiques à chacun et qui feront office de régulation de ses émotions et d'adaptation face à toute situation.

D'où la reformulation de la question de départ de cette recherche: «Face à quel type d'attachement à la mère, l'élève en classe de terminale montre-t-il plus ou moins d'anxiété face au stress de l'examen officiel libanais?».

De cette reformulation découlent plusieurs questions en lien entre quel type d'attachement ma-

Ce que nous avons décidé de ne pas travailler dans cette recherche, bien que son fondement latent soit présent.

Dans cette recherche nous avons travaillé sur les interactions précoces, en évoquant aussi tous les travaux qui ont fait suite aux propositions de René Arpad Spitz et de Daniel Stern (1985) concernant les modalités d'interaction affective, d'accordage affectif et de rencontre intersubjective qui ont modélisé les processus de partage affectif, émotionnel et intersubjectif. Cette recherche est fondée sur l'interaction mère-enfant vue comme processus inter-psychiques et transactions intersubjectives entre les types d'attachement maternel secure ou insecure vécus par l'adolescent et sur le corrélat comportemental exprimé par la régulation émotionnelle adaptative ou non, et leur lien avec le stress.

Les principaux concepts sont sur le type d'attachement maternel et sur ses effets sur la régulation émotionnelle adaptative au stress et l'intersubjectivité d'un adolescent qui est influencé par des processus de transmission intersubjective. Nous parlons d'«attention conjointe» (Bruner, 1975), de «partage émotionnel» (Trevarthen, 1979, 1989), d'«accordage affectif» (Stern, 1985), de «soi interpersonnel» (Hobson, 1993), de «moi dyadique» (Emde et Oppenheim, 1995), de «conscience commune» (Trevarthen et Aitken, 1996), de «régulation émotionnelle mutuelle» (Gergely, 1999; Tronick et Weinberg, 1997) entre la mère et l'adolescent ainsi que les fondements psychanalytiques de cette relation entre type d'attachement et la régulation émotionnelle. L'affirmation de ce lien théorique a été bien fondée dans la revue de littérature.

Ces concepts exigent à tracer un cheminement clair sur le processus de l'attachement ainsi que sur le lien mère-enfant et par la suite sur la régulation émotionnelle adaptative au stress en général. Autant de notions qui tentent de rendre compte des processus intersubjectifs à l'œuvre dans la croissance psychique qu'est la régulation émotionnelle Intersubjective de Bion, par exemple (1962ab), avec son modèle du développement de la pensée et de la croissance psychique.

Mais ce qui est exigé dans ces concepts est d'expliquer la relation et le lien entre le type d'attachement maternel et les différences d'adaptation de régulation émotionnelle face à une situation stressante entre les adolescents afin de démontrer pourquoi certains y parviennent mieux que d'autres. Cette recherche précisera aussi en profondeur les modalités adaptatives de l'échec face au stress des différents types d'attachement insecure un moyen d'une réévaluation positive, d'une rumination idéique du blâme d'autrui....

Ce qui demeure très difficile également dans cette recherche est l'appel à une spécialisation d'un fondement de conception de cette problématique selon laquelle un adolescent exprime cette interactivité et parvient à une régulation émotionnelle adaptative personnelle. Une des suites intéressantes à la problématique de cette étude serait d'étudier si l'adolescent régulé ou non, après être sorti de cette interactivité commune, exprimera un comportement de vengeance ou un essai de sortir de cette relation mère-enfant et si cela sera transmis aux générations suivantes.

Le nouveau dans cette recherche réside dans l'apport des réponses théoriques dans la revue de littérature quand la littérature conceptuelle clarifie sur les sources du dysfonctionnement de l'attachement en travaillant sur l'attachement inné, la fragilité du «Moi» liée à l'attachement, les notions d'accordement et de désaccordement, le lien entre attachement et adhésivité et crampon. Il faudra connecter toutes ces notions au type d'attachement à l'adolescence. Le type d'attachement mater-

## **Titre: L'INFLUENCE DU TYPE D'ATTACHEMENT MATERNEL SUR LA RÉGULATION ÉMOTIONNELLE FACE AU STRESS DE L'EXAMEN OFFICIEL CHEZ DES ADOLESCENTS LIBANAIS "GÉS DE 17! 19 ANS**

**Dr. Jeannette abou nasser**

**Alida Diab:** Mastère en psychologie clinique, psychologue clinicienne, Psychothérapeute.

**Jeannette Abou Nasr-Daccache:** Psychanalyste, Auteur, Pr associé en psychanalyse et psychopathologie fondamentale (Paris 7). - Chargée de cours à l'Université Saint-Joseph (Beyrouth, Liban), à l'Université libanaise (Beyrouth) et à l'Université de Saint-Esprit de Kaslik (Mont Liban, Liban).

Membre attaché au centre de psychanalyse et de médecine et de la santé (CRPMS) Membre à la FEP. Membre attaché à l'équipe de la recherche à l'école doctorale à l'Université Libanaise.

**Mots clés:** **Attachement sécure, Attachement insécure, préoccupé, détaché, régulation émotionnelle adaptative/non adaptative, Stress.**

### **Résumé**

Pourquoi les adolescents libanais s'attachent? Que signifie attachement normal ou non, et pourquoi rejoindre entre 2 approches l'approche psychanalytique et la TCC. Et en quoi le corps chez l'adolescent et la régulation émotionnelle sont-ils influencés? L'attachement **sécure** veut dire sécurité et stabilité et crée donc un modèle interne opérant sécurisant. Lorsque l'attachement **sécure** prend des formes et types négatifs, ne serait-il pas utile de comprendre le processus de la menace intérieure chez l'adolescent et son lien avec l'anesthésie émotionnelle.

L'approche psychanalytique explique le lien entre le soma et la psychique par la pulsion. La régulation étant un aspect de la pulsion, la mesurer qualitativement exige une échelle ou un questionnaire adapté aux adolescents.

Le corps de l'adolescent est en ébullition provoquant un changement. Il est donc important de travailler le corps chez les adolescents et particulièrement leur système émotionnel qui est un moyen symbolique d'expression, de jubilation d'être soi, de distinction par rapport aux autres, de sa propre existence et de la création de sa propre identité le rapprochant de son processus final d'individuation.

En marge de la psychanalyse, ou des théories articulées à celle-ci, nous pourrions signaler dans le champ de l'attachement: tout d'abord les travaux anglo-saxons tels ceux de Bowlby, la transmission transgénérationnelle des caractéristiques de l'«attachement», la répétition du lien mère -bébé, les modalités traumatiques de lien appartenant à l'histoire infantile de la mère et enfin, les travaux des interactionnistes des années 80, notamment ceux qui ont dégagé la notion d'«interaction fantasmatique» (Cramer, 1982; Kreisler et Cramer, 1981; Lebovici, 1988; Lebovici et Stoléro, 1983).

- WORSLEY, P. The Third World. Chicago. The university of Chicago Press, 1972.
- ZABIH, S. The Communist Movement in Iran. Berkeley: University of California, 1966.
- ZARTMAN, I.W. Algeria: A Post Revolutionary Elite. In: F. Tachau, ed., Political Elites and Political Development in the Middle East. New York: Schenkman Publishing Co., 1975.
- ZARTMAN, I.W. The Algerian Army in Politics. In: C. Wlech, ed., Soldier and State in Africa. Evanston: Northwestern, 1970.
- ZEIDAN, S.S. Charismatic Leadership and Political Participation: The Case of Nasser's Egypt. Journal of South Asian and Middle Eastern Studies 11 (2) Winter 1978, pp. 63-79.
- ZONIS, M. The Political Elite of Iran. Princeton University Press, 1971.

SPRINGBORG, R. Patterns of Association in the Egyptian Political Elite. In: G. Lenczowski, ed., Political Elites in The Middle East. Washington D.C.: American Enterprise institute for Public Policy Research, 1975.

TACHAU, F., edit., Political Development in The Middle East. New York: Schenkman Publishing Co., 1975.

TIPPS, D.C. Modernization Theories and the Comparative Study of Societies. A Critical Perspective. Comparative Studies in Society and History, Vol. 15, 1973, pp. 199-225.

TORREY, G.H. Syrian Politics and the Military 1945-1958. Columbus: Ohio State University, 1964.

TORREY, G.H. Aspects of Political Elite in Syria. In: G. Lenczowski, ed., Political Elites in the Middle East. Washington D.C.: American Enterprise in Public Policy Research, 1975.

TUTSCH, H.E. Facets of Arab Nationalism. Detroit: Wayne State University Press, 1965.

VANDEWALLE, D. Bourguiba, Charismatic Leadership and the Tunisian One Party System. The Middle East Journal, Vol.34, No.2., Spring 1980, pp. 149-59.

VAN DUSEN, M.H. Syria: Downfall of a Traditional Elite. In: F. Tachau, ed., Political Elites and Political Development in the Middle East. New York: Schenkman Publishing Co., 1975.

VATIKIOTIS, P.J. The Egyptian Army in Politics. Bloomington : Indiana University Press, 1961.

VERBA, S. Comparative Political Culture. In : L. Pye and S.verba, edit., Political Culture and Political Development. Princeton: Princeton University Press, 1966.

VON VORYS, K. Democracy without Consensus. Princeton: Princeton University Press, 1975.

WALLERSTEIN, I. The Modern World System: Capitalist Agriculture and the Origins of the European World Economy in the 16<sup>th</sup> Century. New York, 1974.

WARBURG, G. Islam, Nationalism and Communism in a Traditional Society: The Case of Sudan. London : Frank Cass, 1978.

WARD, R. and D.Rustow, eds., Political Modernization in Japan and Turkey. Princeton: Princeton University Press, 1964.

WARNER, W.L. The Social Life of the Modern Community. New Haven: Yale University Press 1941.

WATERBURY, J. The Commander of the Faithful: The Moroccan Political Elite. New York: Oxford University Press, 1970.

WEBER, M. The Theory of Social and Economic Organization. T. Parsons, edit. New York: Oxford University Press, 1947.

WELCH, C.E. Political Modernization: A Reader in Comparative Political Change. Belmont, Calif: Wadsworth Publishing, Co., 1971.

WENNER, M.W. Saudi Arabia: Survival of Traditional Elites. In: F. Tachau, ed., Political Elites and Political Development in The Middle East. New York: Schenkman Publishing Co., 1975.

WILLNER, A.R. and D. Willner. The Rise and Role of Charismatic Leaders. The Annals, March, 1965, pp. 77-88.

- MARX, K. Selected Works, Vol. 1, London: Lawrence & Wishart, 1962.
- MILIBAND, R. The State in Capitalist Society. London: Weidenfeld and Nicolson, 1969.
- NATIONS, R. The Economic Structure of Pakistan : Class and Colony. New Left Review, No. 68, July-August 1971, pp. 3-26.
- NICOLAUS, M. The Professional Organization of Sociology. A view from Below in: R. Blackburn, edited, Ideology in Social Science. N.Y. Vintage Books. 1973. pp.45-60.
- NIEL, R.V. The emergence of the Modern Indonesian Elite. The Hague: W. van Hoeve LTd., 1960.
- NISBET, R. Social Change and History. New York: Oxford University Press, 1969.
- O'BRIEN, D. Modernization, Order and the Erosion of the Democratic Ideal. The Journal of Development Studies, Vol. 8, No. 4, July 1974, pp. 351-378.
- OWEN, R. The Role of the Army in Middle Eastern Politics: A Critique of Existing Analysis. Review of Middle East Studies. London: Ithaca Press, 1978, pp. 63-81.
- POLK, W.R. and R.L. Chambers. Beginnings of Modernization in the Middle East. Chicago: The University of Chicago Press, 1968.
- POSADAS, J. The Uprising of the Masses in Iran. London Revolutionary Workers Party 1978.
- POULANTZAS, N. Political Power and Social Classes. London: New Left Books, 1973.
- QUANDT, W.B. Revolution and Political Leadership in Algeria 1954-1968. Cambridge: M.I.T. Press, 1969.
- RABINOVICH, I. Syria Under the Bath. New York: Halstead, 1972.
- REISSMAN, L. Class in American Society. Glencoe, III. : Free Press 1959.
- REJWAN, N. Arab Nationalism. In: W.Z. Laqueur, ed. The Middle East in Transition. London: Routledge and Kegan Paul, 1958.
- RODINSON, M. Marxism and The Muslim World. London : Zed Press, 1979.
- ROOS, L. and N. Managers of Modernization: Organizations and Elites in Turkey. Cambridge: Harvard University Press, 1971.
- ROXBOROUGH, I. Theories of Underdevelopment. London: The MacMillian Press, 1979.
- RUSTOW, D.A. A World of Nations: problems of political modernization. Washington D.C.: The Brookings Institution, 1971.
- SHARABI, H. Nationalism and Revolution in the Arab World. Princeton, N.J.:Princeton University Press, 1966.
- SHARABI, S. The Transformation of Ideology in the Arab World. Middle East Journal 19, 1965, pp. 471-86.
- SHORT, K. Foreign Capital and the State in Indonesia: Some Aspects of Contemporary Imperialism. Journal of Contemporary Asia 9 (2) 1979, PP.152-74.
- SIDDIQI, M.N. Tawhid: The Concept and the Process. In: K. Ahmad and Z.I. Ansari, eds., Islamic Perspectives. Leicester: The Islamic Foundation, 1979, pp. 17-34.
- SMOCK, D.R, and A.C. Smock. The Politics of Pluralism : A Comparative Study of Lebanon and Ghana. New York : Elsevier Scientific Publishing Co., 1975.



- Hunter, F. community Power Structure. Chapel Hill: University of North Carolina Press, 1953.
- Huntington, S.P. Political Order in Changing Societies. New Haven: Yale University Press, 1968.
- Hussain, A, Elite Politics in an ideological State.; The Case of Pakistan. Kent: Dawsons Publishers, 1979.
- Hussein, M. Class C onflict in Egypt 1954-1970. New York : Mounthly Review Press, 1973.
- Issawi, C. Social Structure and Ideology in Iraq, Lebanon Syria and UAR. Journal of international Affairs, Vol.xlx, N 1, 1995, pp. 141-149.
- Jackson, H.F. The FLN in Algeria: Party development in a revolutionary society, Westport, Conn, 1977.
- Jafar, M. The Arab Ruling Classes in the 1970's, Khamasin, N. 7, 1980.
- JIZANI, B. Capitalism and Revolution in Iran, London. Zed Publications 1980.
- KAHIN, G.M. Nationalism and Revolution in Indonesia: Ithaca: New York, 1952.
- KARPAT, K.H. Turkey's Politics; The Transition to Multi-party System. Princeton: Princeton University Press, 1959.
- KHADDURI, M. The role of the military in Middle Eastern politics. American Political Science Review, Vol. 47, No. 2 (June 1953), pp.511-24.
- KHADDURI, M. Arab Contemporaries: the role of personalities in politics. Baltimore: The Johns Hopkins University Press, 1973, pp.211-25.
- KHADDURI, M. Political Trends in the Arab World. Baltimore: Johns Hopkins Press, 1973.
- KHADDURI, M. Socialist Iraq: A study in Iraqi Politics since 1958. Washington D.C.: The Middle East Institute, 1978.
- KOHN, H. Nationalism: its meaning and history. Princeton, N.J.:Van Nostrand, 1965.
- LA PALOMBARA, J. Bureaucracy and Political Development: Notes, Queries and Dilemmas. In: J. La Palombara, ed., Bureaucracy and Political Development. Princeton: Princeton University Press, 1971.
- LA PALOMBARA, J. The Origins and Development of Political Parties. In: J. La Palombara and M. Weiner, eds., Political Parties and Political Development. Princeton: Princeton University Press, 1966.
- LAQUEUR, W. Communism and Nationalism in the Middle East. New York: Praeger, 1956
- LAZREG, M. The Emergence of Classes in Algeria. Boulder, Colorado: Westview Press, 1976.
- LENCZOWSKI, G. Political Elites in the Middle East. Washington D.C.: American Enterprise for Public Policy Research, 1975.
- LENSKI, G. Power and Privilege: A Theory of Social Stratification. New York: Mc-Graw-Hill, 1966.
- LONGUENESSE,E. The Class Nature of the State in Syria. MERIP Reports No. 77, 1979.
- MARR, P.A. The Political Elite in Iraq. In: G. Lenczowski, ed., Political Elites in the Middle East. Washington D.C. American Enterprise for Public Policy Research, 1975.
- MARX, K. The Grundrisse. New York: Harper and Row, 1971.

- DEEB, M. Islam and Arab Nationalism in Al-Qaddhafi's Ideology. *Journal of Asian and Middle Eastern Studies* 11(2), Winter 1978, pp. 12-26.
- DEKMEJIAN, R.H. *Egypt under Nasir*. London: University of London Press, 1972.
- DOOD, C.H. *Democracy and Development in Turkey*. London: The Eothen Press, 1979.
- EMMERSON, D.K. *Indonesia's Elite: Political Culture and Cultural Politics*. Ithaca: Cornell University Press, 1978.
- ENAYAT, H. Islam and Socialism in Egypt. *Middle Eastern Studies*, 4 (2) January 1968, pp. 141-72.
- ENTELIS, J. Nasser's Egypt: the failure of charismatic leadership. *Orbis* 18 (2) Summer 1974, pp. 451-64.
- EREN, NURI. Turkey: Prospects for Democratic Development. *Journal of International Affairs*, N.Y., XIX (2), 1965, pp. 170-80.
- FEITH, H. *The decline of Constitutional Democracy in Indonesia*. Ithaca: Cornell University Press, 1962.
- FRANK, A.G. *Latin America: Underdevelopment or Revolution*. New York: MRP. 1969.
- FREY, F.W. *The Turkish Political Elite*. Cambridge. M.I.T. Press, 1965.
- FURTADO. C. *Economic Development of Latin America*. Cambridge: Cambridge University Press, 1970.
- GOLDTHROPE, J.E. *Sociology of the Third World*. Cambridge: Cambridge University Press, 1975.
- GOODNOW, H.F. *The Civil Service of Pakistan*. New Haven: Conn: Yale University Press, 1964.
- GOULBOUNE, H., edit., *Politics and State in the Third World*. London: Macmillan Press Ltd., 1979.
- Haim, S. *Arab Nationalism*. Berkeley: University of California Press, 1962.
- HALLIDAY, F. Yemen's Unfinished Revolution: Socialism in the South. *MERIP Reports* No.81, 1980.
- HALPERN, M. *The Politics of Social Change in the Middle East and North Africa*. Princeton: Princeton University Press 1963.
- HALSTEAD, J.P. *Rebirth of a Nation: Origins and Rise of Moroccan Nationalism*. Cambridge: Harvard Middle East Centre, 1967.
- HERMASSI, E. *The Third World Reassessed*. Berkeley: University of California Press, 1980.
- HEYD, U. *Foundations of Turkish Nationalism*. London: Luzac, 1950.
- HINDLEY, D. *the Communist Party of Indonesia 1951-63*. Berkeley: University of California Press, 1964.
- Hodgkin, T. The Revolutionary Tradition in Islam. *Race and Class*, vol.xx1, N. 3, 1980, pp. 221-238
- Hooloway, j. and S. Piccioto (edit.). *Sate and Capital: A Marxist Debate*. London: Edward Arnold, 1977.

- ATIYEH, G.N. Middle Eastern Ideologies. In: W.E. Hazen and M. Mughisuddin, Middle Eastern Subcultures. Lexington, Mass: D.C. Heath & Co., 1975.
- BAHARUDDIN, S.A. The Development of the Underdevelopment of the Malaysian Peasantry. *Journal of Contemporary Asia* 9 (4), 1979, pp.434-454.
- BARBEE, L. et.al. Middle East Studies Network in the United States Wash. D.C. Merip No. 38, 1975.
- BECHTOLD, P.K. Military Rule in the Sudan: The first five years of jaafar Numayri. *Middle East Journal* 29 (1), Winter 1975, pp.16-32.
- BENDA, H.J. and R.T. McVey. The Communist Uprising of 1926-1927. In: Indonesia: Key Documents. Ithaca, New York: Cornell Modern Indonesia Project, 1960.
- BENDIX, R. et. al. Class, Status and Power. New York: The Free Press, 1966.
- BERGER, M. Bureaucracy and Society in Modern Egypt. Princeton: Princeton University Press, 1957.
- BERNSTEIN, H. Modernization Theory and the Sociological Study of development. *The Journal of Development Studies* Vol.7 No. 2(1970-71) pp.141-160.
- BILL, James A. Comparative Politics. Columbus, Ohio: Charles E. Merrill Publishing Co., 1973.
- BILL, J.A. Class Analysis and the Dialectics of Modernization in the Middle East. *International Journal of Middle East Studies* 3, 1972, pp.417-434.
- BINDER, L. The Ideological Revolution in the Middle East. New York: Wiley, 1964.
- BLACK, C.E. The Dynamics of Modernization. New York: Harper and Row, 1966.
- BORTHWICK, B.M. Comparative Politics of the Middle East: An Introduction. Englewood. Cliffs: N.J.: Prentice-Hall Inc. 1980.
- BOWIE, I.L. Charisma, Weber and Nasser. *Middle East Journal* 30(2), September 1976, pp.141-157.
- BRAIBANTI, R. Research on the Bureaucracy of Pakistan. Durham, N.C., Duke University Press, 1966.
- BURKI, S.J. Twenty Years of the Civil Service of Pakistan: A Re-evaluation. *Asian Survey*, Vol. IX, No. 4 (1969), pp.239-254.
- CALDWELL, M. Ten Years Military Terror in Indonesia. Nottingham: Spokesman Books Ltd., 1979.
- CHRISTENSON, R.M. et. al. Ideologies and Modern Politics. New York: Dodd, Mead and Co., 1971.
- COLLINS, Carole. Colonialism and Class Struggle in Sudan. *MERIP Reports* No.46, 1976.
- CROUCH, H. The Army and Politics in Indonesia. Ithaca: Cornell University Press, 1978.
- DAHL, R.A. Who Governs? New Haven: Yale University Press, 1961.
- DAHRENDORF, R. Class and Class Conflict in Industrial Society. Stanford: Stanford University Press, 1959.
- DAVIS, Willard, E. Theory and Method in the Study of Arab Nationalism. *Review of Middle East Studies*. London: Ithaca Press, 1978, pp.18-31.

ship is an essential component of every society. In the Muslim context this is true as well, but it need not and does not have to follow secularist ideologies. Islamic leadership is very closely related to the source of all power, that is Allah, and its power is therefore relative. So if any Western approaches started with the assumption that religion was unrelated to politics, then its analysis would only probe the surface but could never penetrate the depth.

### **Conclusion**

What then is the conclusion the Muslim scholar can draw from the discussions in this paper? Because the Western world is dominant in the world today, must he then follow Western principles? This would be the proper thing to do - if he did not have an alternative approach. But the alternative approach is Islam and conceptual, political and methodological issues must be devised to operationalize Islamic principles.

It would be an exercise in futility if the Western approaches were modified. Since the origins and assumptions of these sources are different there cannot be any bridging between the Islamic and Western approaches.

Up till now, Western approaches have established one standard in studying the political order of Muslim countries. All such research aims to find out the degree of Westernization to which Muslim and other non-Western countries have subscribed. The more secularized they are, the more modernized they are. The Islamic approach must establish its basis on the other end of the continuum and study the degree of Islamisation of the political order of Muslim states. Such research will yield data which would help the Islamic political leadership to devise ways of aligning the context to Islam. The greater the degree of difference, the greater the need to Islamise it. Up till now the secularized Muslim political leadership have only sought Westernize their countries. But the tables can yet be turned.

### **REFERENCES**

- ABDEL-MALEK, A. Egypt: Military Society. New York: Random House, 1968
- AHMAD, F. The Turkish Experiment in Democracy; London: C. Hurst & Co., 1977.
- AHMAD, F. The Structural Matrix of the Struggle in Bangladesh. In: K. Gough and H.P. Sharma, eds., Imperialism and Revolution in South Asia. New York: Monthly Review Press, 1973.
- AKHAVI, S. Egypt: Neo-Patrimonial Elite. In: F. Tachau, ed., Political Elites and Political Development in the Middle East. New York: Schenkman Publishing Co., 1975.
- ALAVI, H. The State in Post-Colonial Societies. In: K. Gough and H.P. Sharma, eds., Imperialism and Revolution in South Asia. New York: Monthly Review Press, 1973.
- ALMOND, G. Comparative Political Systems. Journal of Politics 18 (1956), pp.391-409.
- ALMOND, G. et. al. The Civic Culture: Political Attitudes and Democracy in Five Nations. Princeton: Princeton University Press, 1963.
- AMIN, M. and M. Caldwell. Malaya: The Making of a Neo-Colony. Nottingham: Spokesman Books, 1978.
- AMIN, S. Accumulation on a World Scale. New York: Monthly Review Press, 1974.
- ASAD, T. Ed., Anthropology and the Colonial Encounter. New Jersey: Humanities Press, 1979.

tain countries do not come up to the Western standards of democracy, the state must be authoritarian. This, however, is faulty logic for if a thing is not white, is it necessarily black?

Modernization analysis also proceeded within a time change progression. A change to modernization theory was pivotal for it was considered to be natural, directional, immanent, continuous and necessary (Nisbet, 1969,170). Such a conception of change may be true of the Western secularized context where religion was dismissed as past theory and human values were determined by the technological and consumer oriented society. Religion was therefore considered as an obstacle to change and progress in Muslim society. Any Muslim state in which Islam dominated because of popular concensus would not find favor in modernization theory because it would be classified as a return to the 7<sup>th</sup> century.

The ideological approaches have been no better in the analysis of Muslim political contexts. They suffer from the same built-in flaws and start with an assumption that an ideology like socialism for example is a better blueprint for society than any other. Non-Western societies which lacked ideological blueprints of their own have often adopted such models. Political leadership in Muslim countries have also fallen victim to such ideologies just as they fell victim to ideologies of nationalism mentioned earlier. But no Muslim society can be assumed to have become socialist. Such experiments in Pakistan have shown how quickly it could revert back to Islam. Similarly in Afghanistan, if the leadership holds power because of their communist ideology, it does not mean that Afghans have become communists.

The Western approaches have raised issues crucial to any Muslim political context. Muslim scholars must, however, bear in mind that the Islamic approach establishes a different paradigm whose foundations of power are different. Needless to say that the presence of Islam is relevant to any Muslim context in spite of the fact that Western approaches give little importance to it. But this as we have seen often is the in-built shortcoming of the approach which fails not only to detect the depth of Islam in any Muslim context but also the finer points of distinctions which establish a different paradigm. Thus, as one observer points out that “it does not take long to shoot holes in dogmatic stands that claims either democracy or despotism, or barbarism. By placing themselves outside, above and beyond Third World struggles, those who adopt such approaches fail to evaluate the Third World on its own terms, or to provide conceptualization within which to judge the shape of things” (Hermassi, 1980, 172). The revolutionary potential of Islam easily escapes notice of merely the surface is surveyed.

In the Islamic approach, all power belongs to Allah alone, man can only exercise relative and not absolute power. Furthermore, belief in Allah is to believe in the Akhira (life after death). This alters the Muslim’s way of perceiving a situation, for it is not the status quo (as it is) of the context which matters, but the status quo as it ought to be. In the realm of politics, if the Muslim becomes politically conscious of the Akhira, then his political behavior is guided by what is right Islami-cally. Such a transformation takes place within the Muslim. It alters his attitude towards political power and results in the realization that it is temporal and functional.

Furthermore, Marxian approaches pointed out the revolutionary potential of non-Western societies. In Muslim societies too such revolutionary potential existed, but its causes as stated earlier need not be economic - but Islamic. Again all the approaches have pointed out that political leader-

Afghanistan, the revolution is from the top rather than from below. Also economics is not necessarily a power base in all Muslim societies. In addition to it there are factors like kinship loyalties, occupation and status, religious legitimation etc. which have also provided alternative bases of political power. Marxian analysis by its emphasis on an economic basis oversimplifies political realities at the cost of ignoring other equally important factors.

However, while the elitist analyst focused on the elite, the Marxist covered up this inadequacy by taking into consideration the revolutionary potential of the masses. Although it may be true in some cases that the revolutionary potential of the masses can be mobilized it need not necessarily be through economic motivation. In cases like Iran -the most important factor was Islam which was the dynamic power behind the revolution. In such a case the Marxian analysis would prove totally inadequate for political analysis.

The Marxian analysis also suffered from conceptual clarity in the location of class. Marxists frequently draw a line across any society and label one part as the "bourgeoisie" and the other as the "proletariat". Such stratification leaves no room for vertical mobility of the latter into the former. But in no Muslim society can such a class formation be found. The middle class has emerged and has exercised considerable political influence in the political arena (Halpern, 1963).

Marxian analysis also assumed that all the masses possess revolutionary potential. But in most Muslim countries, the urban rather than the peasantry has shown revolutionary potential. Also as pointed out above, such revolutionary potential does not always come through economics but from Islam. The greatest flaw in Marxian theory particularly in relevance to the Muslim context was that it dismissed religion as the opium of the masses. While some segments of Muslim societies may indicate a secularistic trend, this does not hold true for the total context of Muslim society. Such a flaw then was inherent in the theory and not in the context.

In the political development approach, it was organization which enhanced the power of man. Human society was constantly changing and what was the past became absolute (traditional) and had to be replaced by modernization. The Western countries were modernized and as such rich and powerful, while the non-Western countries were traditional and hence poor and weak. Organization was the keystone of modernization and new forms of political systems and the technology and institutions of the West were considered necessary for non-Western countries.

The most popular mode of analysis of modernization theories was its traditional-modern dichotomy in which "traditional is simply defined negatively in relation to the modern"(Bernstein, 1971,146). It was easy then to define what was modern - for Western scholars were only describing their own societies and assumed that non-Western people were all yearning for their Western style civilization.

Secondly, modernization theories also lack objectivity in the analysis of Muslim or other non-Western contexts because of their inbuilt flow of ethnocentrism. In fact, "the question of ethnocentrism becomes central when it is asked from which historical source the paradigm of modernization is abstracted and universalized" (Bernstein, 1971, 147). Why Western scholars take an ethnocentric viewpoint is due to their historical experiences which have been discussed earlier. The outcome of such researches was that Muslim contexts are perceived as the Westerners would like to perceive them - that is within the framework of a normative modernization model. Thus if cer-

world were divided to suit colonial control and ideologies of nationalism set one Muslim against another. It was easy therefore to perceive the Muslim world in terms of the Turkish, Iranian and Arab Nations (Borthwick, 1980).

It must be emphasised here again that all this was possible because political power over the non-Western world was concentrated in the hands of Western powers. This secularized context lent validation to one central assumption underlining all the approaches: that absolute power can be possessed by man.

The elitist approach had posited that power could be concentrated in the hands of a few individuals, a power elite who could bring about any kind of changes in the country or the world. Other theories within the same framework formulated that power could be possessed by an individual who had charisma. Some who differed from these views formulated theories that political power was dispersed and was concentrated in different institutional groups which through consensus and coalition could wield political power. A serious controversy generated over the "elitist-pluralist" thesis has continued for many years and scholars still adamantly hold to their own positions. The pluralists contended (Dahl, 1961) that political power was always diffused and dispersed and could not be concentrated in a political elite. The dispute therefore focused mainly on the distribution of power and each side accumulated enough data to substantiate its thesis. This approach therefore has suffered from contradictions within itself and data can be found to fit all its hypothesis.

Another serious defect of the elitist approach in the Muslim context as well as for other non-Western countries was that it focused only on the elite and not on the masses. Consequently any such analysis seemed to give the view that only the elite could hold on the power indefinitely. But the case of Iran disproves this as the potential of the masses was never assessed by these scholars.

The elitist approach also failed in two other ways. First, it faced considerable difficulty in locating the political elite. Although various methods such as the reputation, position and decision-making models have been utilized in identifying the elite, these are not always clearly evident. Particularly in those context where most of its political decision-making is done behind the scenes-which then is the political elite, the bureaucrat or the Minister?

Furthermore, the elite theorists based their work on the assumption that social background or occupational position was related to elite political performance. Such an approach, that is "to leap from some knowledge of the social backgrounds of national politicians to inferences about the power structure of the society is quite dangerous"(Frey, 1965, 157). In many Muslim countries where the political structures are not institutionalized as in Western countries, elite analysis has often not produced satisfactory results.

The Marxist approach focused on class structure emanating from the economic mode of production in society. But determination of class structure only through the economic means has been subjected to severe criticism. Researches have found that class can also be determined by status (Warner, 1941) or by the distribution of authority (Dahrendorf, 1959) or power (Reassman, 1959).

Furthermore, Marxian analysis more than other approaches distorted the political context of Muslim societies in order to prove its hypothesis. In the first place, it assumed that a real Marxist revolution has taken place in Muslim society. After that it was easy to work out the details of the class theory. But no real Marxist revolution has taken place in any Muslim society. In Yemen or

these theories becomes limited. For the Western scholar this point is often very difficult to comprehend because he assumes that armed with his theory, he has in his hand the sole truth and nothing but the truth. His operationalization of this theory is on the basis of its assumptions and the outcome is that many Western theoretical researches have tailored the context to fit the theories. All such work, needless to say, remains far from the truth because it has distorted the context. The tragedy is that much of such work is accepted by Western and non-Western scholars because it has originated from a well known Western academic institution or from Western scholars (Worsley, 1972, Goldthrope, 1975) who are considered expert in the field.

Furthermore, non-Western countries look to Western countries for many of their economic needs and hence wrongly conclude that the Western scholars are experts in all other social, political and religious matters. It is not surprising that Muslim students who get their doctorates in Islam from Edinburgh, Harvard and McGill universities have uncritical faith in the knowledge that they have imbibed from their intellectual mentors. Their researches follow the lines taught to them by their intellectual mentors and this further lends credibility to the Western approaches.

Yet another factor which shows why the Western approaches are limited is related to the Western context. In this context, the role of religion had been circumscribed if not eliminated totally. It was the reaction of the West against the medieval church politics of Christianity where the priests has to safeguard their institutional vested interests, held inquisitions and burned people at the stake. The outcome of such reaction was that their context was secularized and religion was separated from politics. Some like Karl Mars totally rejected religion and became atheists will others like Max Weber considered it insignificant to the study of political orders. Both of these approaches were developed by their adherents along these lines and their utility was relevant to the Western political contexts. For Marx observing the poverty of people and the increasing gap between the rich and the poor in the wake of the industrial revolution, class struggle, became the crucial component of his analysis. For Max Weber and Vilfredo Pareto status and elites became the analytical tools of societies.

Furthermore, at about the same time as the process of secularization started in the West, a process for economic expansion and exploitation and empire building had started and vast expanses of the world such as America and Australia were taken over by Westerners. Other areas like Africa, Asia, and Latin America were colonized. The domination of the West in the non-Western world also enhanced the fortunes of the Western scholars. Now they had the whole non-Western world to play with for their theoretical adventures. Western scholars nationalized the political and economic expansion of their countries through the use of social sciences (Asad: 1979). Political, social and economic research was geared to the needs of Western governments (Nicolaus, 1973; Barbee, 1975) and in such exercises not only was objectivity lost but also the ethnics and integrity of such researches was compromised to get funds, jobs and doctorates.

While the Western world was at the height of its colonial power, universities and westernized political institutions were created and those which were in existence such as the Madrassas (in Muslim countries) were reduced in their importance or rejected. Whole regions of the Muslim



have been done about the role of the bureaucracy in Muslim states like Turkey (Roos: 1971) and (Berger: 1957).

### **(c) Political Parties**

Political parties have also originated in the West. As the political consciousness of the people increased, so did their desire for participation in the political system. The electoral reforms of 1832, 1867, and 1884 were major steps in the creation of party organizations in Britain. As new social groups became politically active, their participation paved the way for party organizations so that the political system could fulfill the demands and provide various services.

Political parties articulated the interests of the people. They also became the platform for recruiting political leaders, formulating public policy, contesting elections for acquiring political power, etc. Party organizations created new conditions for political leaders, for "those who seek to win or maintain political power are required to seek support from the larger public" (La Palombara 1966: 19).

In many Muslim countries, political parties have become a feature of their political systems. Some initiated One Party systems, such as those started by Ataturk in Turkey, which later evolved into multi-party systems (Karpat: 1959). Almost every Muslim country has developed a party system and many studies have been written on various political parties.

### **(d) Interest Groups**

If class was a central concept among Marxist scholars, non-Marxists like R. Dahrendorf reformulated it by giving it a new frame of reference. It gained currency as "conflict groups that are generated by the differential distribution of authority in imperatively co-ordinated associations" (Dahrendorf: 1959: 204). Stratification of society was made on the basis of authority and not on the basis of the economic mode of production.

Such theories had taken their cue from Weber, whose power was considered to be "the central focus for the study of class". (Reissman: 1959: 58). This dimension was explored further in the studies of social stratification by other scholars (G. Lenski: 1966, Bendix: 1966). Those who held power in societies constituted a special class. Such theories have influenced many studies of Muslim states where well organized groups have articulated the interests of various classes. The middle classes are considered to have gained considerable political power in some Muslim states. In other cases like Lebanon, interest groups like the Maronites have wielded considerable political power in the political system.

## **CRITIQUE OF APPROACHES**

Having given an overview of a number of approaches, it is now possible to assess their adequacy to the Muslim political context. Each of these approaches, it may be pointed out at the outset, has many merits and demerits. Since my discussions have been on a theoretical plane, the critique will therefore only point out some of the major flaws which limit the application of these theories in the Muslim political context.

One factor common to all the approaches is that they all emanated from the West. This factor itself becomes a serious flaw of all these approaches. Since the conditions which have structured Western societies are not the same as those found in non-Western societies, any application of

if they did not follow the Western model. The governments of several Muslim states advocated and competed with each other for the political modernization of their countries. Many case studies influenced by modernization theory have been done from the political development

approach is studying Muslim states (ward: 1964, Bill: 1972, Binder: 1962).

### **(b) Institutional Power**

In many non-Western countries, institutions have become powerful sources of political power. Particularly in those countries under direct colonial rule, such institutions were designed and developed more than political parties because they enhanced the political control of the colonizer. Two such institutions which gained considerable power in the post-independent period were the military and the bureaucracy. Such political institutions in non-Western countries were well organized with resources such as information, expertise, leadership skills, rules, economic power, manpower, offices, etc. which could be effectively mobilized for political purposes. Such institutions often become politically powerful when they start influencing public policy-making decisions by the government and exercising autonomous power in their own right. In other words, such political institutions expanded their spheres of influence on the political system either directly or indirectly, they then shed their garb of neutrality and took over the political reins of their countries. Political power could be achieved through such institutional organizations. Many Muslim states inherited such politicized institutions, particularly the military, whose intervention into the politics of Muslim states became very frequent (khadduri: 1953, Owen: 1978).

#### **(i) The military**

Many studies have been done on the rise to power of the military and its subsequent role in muslim states like Egypt (vatikiotis: 1961), Algeria (Zartman: 1970), Syria (Torrey: 1964), Sudan (Bechtold: 1975), Indonesia (Caldwell: 1979, Crouch: 1978). In almost all cases, institutional resources have been used by the military to gain political power. In some cases there have been violent coup d'états, as in Iraq in 1958, while in others there have been peaceful take-overs, as in Egypt in 1952. Once the military has come into power it has often entrenched itself within the political system and increased its institutional power (Egypt, Pakistan, Indonesia, Turkey).

#### **(ii) The bureaucracy**

Some form of administrative organization has always existed in Western and non-Western countries. Max Weber's analysis revealed the structure of bureaucracy which has emanated from rational-legal authority systems as opposed to "charismatic" and "traditional" Authority systems (La Palombara: 1971:50.)

With the rise of industrialization, the bureaucracy emerged as a sophisticated organization and an effective instrument of modernization. It also served the interests of colonial powers who dominated non-Western countries like Pakistan, the bureaucracy like the military was an effective colonial organization for the administration of the country (Braibanti: 1966, Burki: 1969, Goodnow: 1964). In many other Muslim countries bureaucracies have also become politically influential, but have not taken over the political leadership of the country. As Westernized organizations within Muslim countries, they maintained political development along secular rather than Islamic lines. This development led to polarization of the secular and religious developmental models and conflicts between them have created political instability and confusion in these states. Many studies

### **(a) Modernization theory**

One of the most powerful ideas to influence the non-western world has been the concept of modernization. Some scholars have defined it as “the process by which historically evolved institutions are adapted to the rapidly changing functions that reflect the unprecedented increase in man’s knowledge, permitting control over his environment that accompanied the scientific revolution” (Black:1966: 11). Others explained that “modernization was a multi-faceted process involving changes in all areas of human thought and activity” (Huntington: 1968: 52). As stated earlier, these definitions emphasize different dimensions of modernization.

In the analyses of non-western countries, modernization theories fall into two categories: the critical variables theories and the dichotomous theories. In the critical variable theories many variables such as urbanization, growth of literacy, mass communication, political participation, etc. were given as indicators of modernization. On the

other hand, most modernization theorists formulated a dichotomous framework. Such frameworks had already appeared in the writings of weber (ideal type) and Talkot Parson’s variables.

The latter’s work has been very influential and various indicators of the pattern variable categorized societies into the traditional and modern. In the traditional society, such variables were ascriptive status, diffuse roles, particularistic values, collective orientation and affectivity, while a modern society was characterized by achievement status, specific roles, universalistic values, self-orientation and effective neutrality. Non-Western countries therefore became easy targets for political analyses which could easily be slotted into the “traditional” category. Also, tradition and modernity are seen as mutually exclusive polarities.

Furthermore, political scientists were influenced by these theories to such an extent that the political context was not considered important and Western countries became the criteria of judging the modernization of non-western countries. This was further reinforced by such observations as that the “political scientist who wishes to study political modernization in non-Western areas will have to master the model of the modern which in turn can only be derived from the most careful empirical and formal analysis of the functions of modern Western politics” (O’Brien: 1972: 353). One therefore had to be careful with the concept of “traditional” because “the nation of tradition was not formulated upon the basis of observation but rather as a hypothetical antithesis to modernity” (Tipps: 1973: 212).

Practical application of modernization theories affected the political development in non-Western countries because it transformed their polity towards the goals of modernization (Polk: 1968). Specifically, political development influenced three major areas of political modernization:

1. An increased centralized of power in the state, couples with the weakening of traditional sources of authority,
2. The differentiation and specialization of political institutions,
3. Increased popular participation in politics, and greater identification of individuals with the political system as a whole (welch: 1971: 7).

Political modernization within the above frame of reference was clearly a very complex process and emanated from the social, political and economic history of the west. Scholars from the non-Western countries indoctrinated in modernization theories found fault with their countries

bourne:1979). The main contention of some of these Marxists (Poulantzas: 1973, Miliband:1969) was that the capitalist state was a relatively autonomous entity and it represented the political interests of the dominant class within the political system. Poulantzas stressed that the “political” was distinctly separate from the economic aspect of the state, although there were crucial links between the two. The political sphere consisted of the “juridico-political super-structure of the state” and politics was the outcome of “political class practice or the class struggle” (Poulantzas, 1973: 41-42). The functions of the state in a social formation were:

1. The state, by providing order within the social formation and thereby becoming the organizational principle of the formation, provides the formation with its necessary cohesive factor; the state therefore maintains the unity of the social formation.
2. Since the state provides the very structures within which the social contradictions are condensed, the state is therefore the place where the “index” of class domination must be deciphered and it is therefore here that transformation of structures takes place (Goulboume, 1979: 23).

This concept of the “political” within a Marxist theory of the state is controversial and many Marxists have not as yet accepted its arguments. It has, however, started influencing studies on non-western states, for example those on Pakistan (Alavi:1972), Indonesia (short:1979) etc.

### **(c) Dependency theory**

The dependency approach took its inspiration from the Marxist theory of imperialism by paying attention to the expansionist nature of capitalism and its structural implications. It stressed that in order to understand the development of national societies, one had to understand them in a wider context of the political and economic systems of western countries. In other words, underdevelopment and development were aspects of the same phenomenon, because historically, both are linked functionally to the world system. In this system the economies of non-western countries are conditioned by the latter for its own progress (Roxborough:1979, Amin: 1974, Furtado: 1970).

The dependency theorists emphasized the historical and structural aspects of the relationship. Such an evolutionary process which led to uneven economic development could be dated from the 16<sup>th</sup> century, when colonial powers expanded their influence over non-western countries, (Wallerstein:1974). Their main purpose was to find new markets for their manufactured goods and this in turn created the world capitalist system which determined the political and economic condition of any non-western country.

The dependency theory also pointed out how indigenous ruling classes of non-Western countries collaborated with the capitalist class of western countries. Such linkages created structural distortions within non-Western countries. Some work on Muslim states has slowly begun to emerge from this theoretical viewpoint (Amin: 1978, Baharuddin: 1979; Jizani, 1980).

### **THE POLITICAL DEVELOPMENT APPROACH**

The political development approach poses the question: how much political power can be possessed and through what means? Political parties, interest groups and institutions, etc. are the structures which can enhance power; as such, great emphasis is placed on the organization of such structures within the general framework of constitutional and democratic processes.

Nationalist movements emerged in Muslim countries like Libya (Deeb: 1978), Morocco (Halstead: 1967), and the Arab world (sharabi:1966) in general. Since nationalism was a secular phenomenon it weakened Islamic ties and often turned Muslims against one another, for nationalism began to supersede Islam.

## **THE MARXIST APPROACH**

The Marxists, on the other hand, have posed the question: what is the character of power and how is it manifested? Power also cannot be possessed by an individual, but by a class. This is the characteristic of every society and various theoretical formulations have been made on this basis.

### **(a) Class conflict**

The most important theory which was dominated political science is the Marxian analysis of class struggles and revolution, this theory was put forward by Karl Marx, whose experiences were limited to his observations of European social, political and economic structures. But his writings covered a wide time span: ranging from the pre-capitalist mode of production in non-western countries to the capitalist mode of production in western countries.

His theory was based on the assumption that all kinds of development, whether political or social, have an economic base. As such the class structure of any society was the outcome of the mode of production in that society. The mode of production included the technical and organizational aspects, as well as scientific developments (Marx: 1971:120). The relations of production, that is, the class formations, were dependent on the mode of production because of the manner in which individuals were tied in with it. This led to the concentration of political and economic power in the hands of a bourgeoisie class who, in turn, could exploit the proletariat to make huge profits. The proletariat always remained in a state of poverty and as such class conflict became inevitable. A political revolution to overthrow the bourgeoisie class was necessary to improve the prospects of the proletariat.

The revolution could only be achieved if the proletariat organized itself as a political party. If the proletariat did not identify its common interests there could be no "community, no national bond and no political organization" and as such they would not "form a class" (Marx: 1962:334).

There are many aspects of Marxian theory which cannot be dealt with in this paper. The point to be emphasized is that Marxian analysis identified the class which exploited the proletariat, pointed out that class conflict was a perennial feature of all human societies, and that the basis of all political power was rooted in the economic foundations of a society.

Marxian analysis of non-western countries has produced an enormous amount of literature. Some important analytical studies have been made of Muslim countries like Egypt (Abdel Malek :1968, Hussein: 1973, jafar:1980), Pakistan (Nations:1971), Algeria (lazreg:1976), Bangladesh (ahmad:1973), Sudan (Collins:1976) and Syria (longvenesse:1979). In addition, some general studies of the Muslim states have also been made(rodinson:1979).

### **(b) State Power**

Some Marxists have attempted to fashion a Marxist theory of the state. Questions about the role of the state in capitalist societies have been discussed by contemporary Marxists and a sizeable body of literature on the state in capitalist formations has been produced (Holoway:1977, Goul-

systems in the USSR, China, Eastern Europe, etc. This too was a Western ideology and originated from the works of K. Marx and V. Lenin (1870-1924).

This ideology aimed at a total transformation of society from a materialist viewpoint. It focused mainly on the economic mode of production. Through a proper principle of distribution, it aimed to put an end to want and poverty and take control of the welfare of all citizens in the state.

The distribution was based on the principle: to each according to his needs. This meant that each person, irrespective of his status and position and the nature of his work, would be provided by society with his basic needs. The objective was to create a classless society where everybody contributed to the total welfare of society. Such an objective, however, has not been fully attained in any Communist society. This ideology, however, fired the imagination of many intellectuals and politicians of non-Western countries. Communist movements have arisen in some Muslim states (Laqueur: 1956) and have had intense influence in countries like Indonesia (Benda: 1960), (Hindley: 1964), Iran (Zabih: 1966), Turkey (Harris: 1968), and Sudan (Warburg: 1978).

#### **(d) Nationalism**

Whereas ideologies like democracy, socialism and communism initiated internal political changes, nationalism was directed towards external forces that did not belong to an in-group or nation.

The genesis of nationalism can also be traced to the West, and directly it owed a debt to the French Revolution (1789) where its most expressive manifestations were found. Some philosophers considered the nation to have a "soul" created by the "sentiment of the sacrifices which have been made and of those which one is disposed to make in the future" (Kohn: 1965). They identified themselves on the basis of common factors (history, consensus etc.) to live together. The power of this ideology united the rich and the poor against any external force. The love for one's nation was considered as the highest pinnacle of human loyalty.

The ideas of Jean J. Rousseau (1712-1778), Edmund Burke (1729-1797) and G.W. Hegel (1770-1831) made an immense contribution to reinforce the idea of nationalism. Furthermore, Italians like Giuseppe Mazzini (1805-1872), Giuseppe Garibaldi (1807-1882); Frenchmen like Count de Lafayette (1757-1834); and Poles like Kosciuszko (1746-1817) and K. Pulaski (1747-1779) exemplified nationalism. Many nation-states of Europe were created out of nationalism. Such a powerful ideology could not remain encapsulated in Europe but soon travelled to the non-Western world.

The impact of this ideology on the Muslim world was destructive, for it was instrumental in hastening its break-up into sovereign territorial divisions. Prior to its break-up in the 16<sup>th</sup> century, the Muslim world had already fragmented into decentralized political units, but was still bound by the bonds of Islam. There was no concept of nationality and a Muslim could travel from one Muslim Kingdom to another. Ethnic divisions were there and patriotism to one's tribe was identifiable through group solidarity (asabiyya) as observed by Ibn Khaldun (1332-1406). Although the Muslim empire was divided between the Persian (Safavid), Turkish (Ottoman) and South Asian (Mughal) empires, Islam was still a powerful force. Ideas of nationalism, however, penetrated the Muslim world on the 19<sup>th</sup> and 20<sup>th</sup> centuries and states like Turkey tried to sever Islamic ties and replace them with nationalism based on territorial boundaries. It became the most powerful ideology in the Middle East (Rejwan: 1958, Haim: 1962, Davis-Willard: 1978, Tutsch: 1965).

No government should trespass on the natural rights of man, of life, liberty and property. When any government did so, the relationship between the ruler and the ruled which existed because the latter gave obedience to the former in exchange for protection of their rights, stood dissolved. It was such ideas which over the centuries evolved political democracy in the west and which through colonialism and other means (education etc.) were transplanted in non-Western countries.

In the Muslim world, most rulers liked to consider themselves as “democratic” leaders. Studies of many Muslim countries often evaluate the country’s political performance and political system from the Western criteria of democracy. If they do not meet such standards they are not considered to be democratic countries. Many case studies have been done on the development of democracy in Muslim states like Turkey (Ahmad: 1977, Eren: 1965, Dodd: 1979), Indonesia (feith: 1962), Malaysia (Von Vorys: 1975).

### **(b) Socialism**

The development of Socialism as a political doctrine can be dated to the 18<sup>th</sup> century with the commencement of the industrial revolution in Europe. The industrial revolution had created a highly stratified society based on the unequal distribution of wealth.

The writings of many scholars and thinkers have very often been concerned with the problems of their age. Charles Fourier (1772-1837) sought to establish communes of people who could escape from the monotony of the division of labour by rotating their tasks between themselves. He was in fact the forerunner of the philosophy of the welfare state. Roger Owen (1771-1858) started a nationwide campaign to improve the lot of workers. Mikhail (1813-1876) advocated revolution against any authority or exploitation imposed on man. Others, like William Godwin (1756-1836), Joseph Proudhon (1809-1865). Peter Kropotkin (1842-1921) contributed new ideas of socialism. The common theme of all their socialistic writings focused on the economics of society, distribution of goods and services in the societies, removal of poverty and exploitation of the poor, and creating an egalitarian order in society for minimizing the gap between the rich and the poor.

Perhaps the most influential of the socialist thinkers was Karl Marx. His theories have been mentioned in the Marxist perspective. He attacked men like Owen, Fourier and others for their naive thinking. He claimed that they were utopian socialists who lacked the real knowledge of the economic basis of their political systems. Marx’s contribution to socialism was very wide-ranging in its scope. It did not just focus on the exploitation of workers in England, but on workers all over the world. It also encompassed every aspect of their lives.

Such socialist ideas had a profound influence on the ideologies of the political leaders of non-Western countries. These ideas permeated into Muslim states as intellectuals became influenced by European socialist thinking. Christian Arabs like Shibli Shumayyil (1860-1917), Farah Antun (1874-1922) and Salam Moussa (1887-1958) were the first to propagate the doctrines of socialism (ishtirakiya) in the Middle East (Khaduri, 1970:90). (Micheal Aflaq Khadduri: 1973) strongly influenced the Bath Party (Robinovich: 1972) in Syria and this spread to other Muslim states, where socialist doctrines have also emerged (Lenczowski: 1975), (Enayat: 1968), (Khaduri: 1978), (Holliday: 1980).

### **(c) Communism**

The ideology of Communism has been instrumental in the creation of the Communist political

matic political leadership. Thus, Willner assesses the leader's capacity to elicit deference, devotion and awe from his followers (Willner and Willner: 1965). For Rustow, charisma embodied a four-fold relationship between leaders, followers, circumstances and goals. (Rustow: 1971). There could be no leaders without followers and both of them conjoined must have a goal. Political leaders like Soekarno, Ataturk, Nasser and Bourguiba (Dekmejian: 1972, Entelis: 1974, Bowie: 1976, Zeidan: 1978, Vandewalle: 1980) have been theoretically viewed within this framework.

### **(c) Plural Elites**

Some theorists did not agree that power could be concentrated among a single political elite. Studies done by pluralists (Hunter: 1953, Dahl: 1961) have revealed that power need not be concentrated in a political elite but can be diffused in various elite groups.

The pluralist thesis put forward the idea that power was diffused in a pluralist polyarchy and could be negotiated through co-operation, accommodation or coalition and conflict. Among the theorists of pluralism a polemical debate emerged in relation to both methods and conclusion of research. Analysis from this standpoint has influenced studies on countries like Pakistan (Hussain: 1979) and Lebanon (Smock: 1975).

### **The ideological approach**

Political ideologies have been powerful tools for the attainment of political power. The word "ideologies" was coined during the French Revolution and considerable importance was given to it by Karl Marx (1818-1883) and K. Mannheim (1893-1947) in their writings. But what is the power of ideologies? An ideology is defined as "a belief system that explains and justifies a preferred political order for society either existing or proposed, and offers a strategy (processes, institutional arrangement, programs) for its attainment" (Christenson: 1971: P5). Such definitions, provided a "cognitive structure" with a "prescriptive formula" to guide "individual and collective action and judgment" (Christenson: 1971: p 5).

Some of the most powerful ideologies of the 20<sup>th</sup> century have been those of democracy, socialism, communism and nationalism. All of these have penetrated Muslim countries and have been used by Muslim political leaders to attain their political goals (Atiyeh: 1975, Sharabi: 1965, Binder: 1964, Issawi: 1965). Each of these will be briefly reviewed with a view to locating their origins.

### **(a) Democracy**

Democracy has a Western origin. It originated from a greek word which meant rule by the people. It was reinforced by those who had revolted against the power and influence of the Church in the Middle Ages. In fact, men like John Calvin (1509-1564), John Knox (1513-1572) and many others dealt with themes which showed the importance of individualism, and freedom from Church authority. Martin Luther's (1483-1546) Protestantism itself contributed a lot to the development of democratic ideology by its emphasis on the freedom for individual's conscience.

The dissenting voices of these religious reformers did not, however, help to crystallize democracy into a powerful political doctrine. This task was left to the secular philosophers such as John Locke (1632-1704), Adam Smith (1723-1790), J.J. Rousseau (1712-1778), Jeremy Bentham (1748-1832), J.S. Mill (1806-1873), Alexis de Tocqueville (1805-1859), to mention a few. Locke argued that power was invested in the people and could only be exercised through their representatives.



The problem of power is central to any political system and the assumptions on which it is based can change its relation to the social, economic and political order in societies. Political order is a property of every human society and a modicum of consensus is necessary not only to exercise political power, but also implement and regulate order in society. Without political power, there cannot be any political order in societies, hence the latter is dependent on the former. The various approaches will therefore directly or indirectly relate to political power in Muslim states.

In order to keep the focus of political power and political order within manageable limits, I have selected those aspects which every Muslim scholar should keep in mind when conducting political research. **First**, it aims to point out the origins of these approaches. This in itself is an important limitation of these approaches which as I shall point out later in my analysis, creates serious inadequacies when applied to Muslim political contexts. **Secondly**, once the sources have been identified the paper will then explain the basic assumptions implicit in each of these approaches. Such knowledge of the origins and assumptions should make the Muslim scholar aware of the implications of its applicability on Muslim countries.

**Thirdly**, a critical evaluation of these approaches has been provided to point out their limitations when applied to the political context of Muslim states. It is very important for Muslim scholars to be aware, not only of the limitations of these approaches but why they happen to be so.

### **The elitist approach**

The elitist approach has concentrated on the question: who has political power? What matters to them is the individual and the power he possesses. Without power he is part of the masses and, as such, of little consequence in any political system.

#### **(a) The political elite theories**

Very often, some sort of elite-mass linkages have to be developed to facilitate elite recruitment. Members of the political elite may be recruited from the descendants of the ruling class, or they may be selected from the masses or sub-elites. But any elite which holds on to power through recruitment only from the ruling class tends to stultify and lose contact with the masses in a short period of time. The elitist approach has been very influential in determining studies of non-Western countries. Some of these studies have paid considerable attention to Muslim countries like Iran (Zonis:1971), Turkey (Frey: 1965), Algeria (Quandt: 1969), (Zartman: 1975), Indonesia (Neil: 1960, Emmerson: 1978), Morocco (Waterbury: 1970), Iraq (Marr: 1975), Syria (Torrey: 1975, Van Dusen: 1975), Egypt (Springborg: 1975, Akhavi: 1975), Saudi Arabia (Wenner: 1975), etc.

#### **(b) Charismatic leaders**

The theory took its cue from Max Weber (1864-1920) who identified a three fold typology of traditional, legal-rational and charismatic authority. Charisma was considered as "a certain quality of an individual personality by which he is set apart from ordinary men and treated as endowed with supernatural, superhuman or at least specific exceptional powers or qualities" (Weber: 1947: 358). Weber's typologies, however, characterized authority in an "ideal type" manner and conformity to it was sought among political leaders. Charismatic authority, however, was unusual and not easily found in human societies.

Many scholars have reworked Weberian theory and attempted to modify it for analyzing charis-

political leadership is in the hands of Muslims, and the state religion is Islam. Even though one state may be different from another on an ethnic, lingual or geographical basis, the Islamic bond threaded through them forms the common linkage. This linkage is significant, for it differentiates the Muslim states from the no- Western world.

To simplify classification of the approaches, a taxonomy has been drawn of the major theoretical frameworks which have been applied to the study of the Muslim states. Such a taxonomy has been presented below which differentiates one approach from the other.

### **Approaches to the study of political order in the Muslim world**

<b>Approaches</b>	<b>Conceptual Frameworks</b>
1 The Elitist approach	a - Political elites b - Charismatic leaders c - Plural groups
2 the ideological approach	a - Democracy b - Socialism c - Communism d - Nationalism
3 the Marxist approach	a - Class conflict b - State power c - Dependency theories
4 The political Development approach	a - Political modernization b - Institutional power c - Political parties d - Interest groups

The above taxonomy is a cognitive map of the structure of theoretical approaches which have been utilised by Western scholars to study the political order of Muslim states. The taxonomy has been arranged in a manner to clearly differentiate approaches from conceptual frameworks. The various conceptual frameworks which have been classified under each of the approaches are the theories. These theories have been used most frequently in the analysis of the political order of the Muslim states. Their influence cannot be underrated and generations of young scholars, Western and non-Western, have been trained to perceive the world according to its formulations.

Furthermore, the theoretical approaches are mutually exclusive of each other in general. In other cases where an elite may expound on ideology some confusion may be caused as to whether an elitist or ideological approach has been taken. The differentiating factor should be to find the independent variable. In other words, where an ideology helped the political elite in acquiring power, it is an ideological approach. When an elite used an ideology to gain political power, it is the elitist approach.

### **(b) Scope and limitations**

The scope of the above taxonomy is vast because each approach has many aspect. It is not therefore possible to do adequate justice to any approach in so short a paper. For this paper the focus will be on political power in so far as it is related to the political order of human societies.

termed as “barbarians”, “savages” or “primitive”, while the Westerner is considered to be “civilised”. The “civilised” also all happen to be “white” in colour, while the “uncivilised” are brown, black or yellow in colour.

Social sciences like anthropology, sociology and political science have reinforced this and such similar views because, as recent research has shown, they have acted as handmaidens of Western civilization while proclaiming their academic integrity and objectivity. It is impossible to measure the impact of all this on non-Western civilisations, but its implications cannot be underrated because of the far-reaching social, economic and political consequences of viewing the world through the spectrum of a particular approach.

That the Muslim states have been of particular interest to the West is mainly due to Islam and the threat it presents to the Western hegemony and political economic interests. Islam has challenged the West since it appeared on the world scene 1400 years ago. For a long time, studies of Islam were written by Western orientalists - a biased breed of scholars whose crusading scholarship - was efficiently produced to undermine Islam. Since World War II, however, orientalism began to lose its grip in the academic world, as social and political scientists discovered its limitations, blunders and inadequacies in the very basic comprehension of the subject matter. Orientalism, even though it did not thrive, has still lingered on but the theoretical approaches and frameworks developed by the Western social sciences are being increasingly used to analyse the Muslim world and have now become one of the prime sources of information about Islam and the Muslim states.

Particularly during the last three decades a substantial contribution in terms of theoretical approaches has been made by Western political and social scientists. Area and disciplinary and comparative studies have also become specialized and are taught in Western universities. It is time therefore for Muslim scholars to think critically whether such theories have aided their understanding of the system, structure and political order of Muslim states. If not, why not and what are the alternatives available to them? This paper then sets out to investigate along these lines and to point out what areas need probing and intensive analysis.

## **Western Theoretical Approaches**

### **(a) Definition and taxonomy**

Before launching into a description of the various approaches to the study of the Muslim world, it is important to clarify what is meant by the term, approaches. It must be clear at the outset that an approach is not a theory. A definition of approach could be taken as “a predisposition to adopt a particular conceptual framework and to explore certain types of hypothesis towards the generation of theory” (Bill: 1973: 25). Furthermore, “an approach in the particular orientation that one adopts when addressing a subject or issue. It is the line of advance that a scholar takes in initiating his investigation. This orientating framework is of crucial import to the theorising process, since it determines what set of concepts, questions, perspectives and procedures the researcher will adopt in pursuing his enquiry” (Bill: 1973: 25). An approach therefore is a way of looking at something, the concepts used and the hypothesis is tested from the actual part of a theory or alternatively generate theory.

Muslim states on the other hand, are those states where the majority of people are Muslim, the

# WESTERN THEORETICAL APPROCHES TO THE POLITICAL ORDER OF MUSLIM STATES A CRITIQUE

Abdallah El-Sayed<sup>(1)</sup>

## Introduction

In the present day world, the West has come to be regarded as the depository of all knowledge. Scholars, research and study centers and universities have had enormous resources at their disposal for research and experiments. The physical and social sciences have woven web after web of theories pertaining to anything and everything. Their validity has been universally accepted almost blindly without any criticism, by many with awe of the political and economic power of the Western world. All these attempts have pointed out the one major factor effecting the Muslim context: that it is in a state of constant turmoil. To the Westerners, as expressed in many of their writings, it is an exotic world, still an Arabian Night mystery, murder and intrigues, instability and complexity, the emergence of the Islamic Republic of Iran, the efforts leading to the Islamisation of Pakistan, the rise of the Ikhwan and Islamic “groupings” in Egypt and in many other Arab countries, the struggle of the mujahideen in Afghanistan and of other Islamic groups in Indonesia and Turkey, all indicate conflict and tension within Muslim states and Western scholars have engaged in considerable discussions about it.

For example, some scholars have examined the Iranian political system from the various viewpoints. The Marxists hypothesized that the Iranian proletariat carried out a successful revolution against the decadent bourgeoisie (posades, 1978). Others have expressed doubts whether such an approach could adequately, explain the Iranian revolution (Bill, 1972). Still others have attempted to unravel the complexities of the religious factor involved in the whole upheaval and have found there was something inherent in Shiisme which had revolutionary potential (Hodgkin, 1980). The case of Iran is not the subject matter of this paper, but offers itself as a good example of how western scholars contradict each other’s approaches in their efforts to analyse the political order of Muslim states. But how close they have succeeded in assessing the political realities depends upon the adequacy and reliability of their theoretical approaches.

One of the many theoretical frameworks devised by the social sciences has made curious divisions of the world. The western world has been classified as “developed” in all respects, while the non - Western world has been considered as “underdeveloped” or “developing”. The civilisation of the Western world is considered “modern”, while those belonging to the non - Western world has been considered as “traditional”. The people from the latter countries has been variously

---

(1) Dr. of Anthropology of religion - Lebanese university, Institute of Social Sciences

Eiguer, A. (2006). *L'inconscient de la maison et la famille. Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, no 37, (2), 23-33. doi:10.3917/ctf.037.0023.

Eiguer, A. (2002) *La théorie du lien en psychanalyse et en thérapie familiale in Cycle de conférences sur PICHON RIVIERE E., Association franco-argentine de psychiatrie et de santé mentale, Hommage à Enrique Pichon-Rivière.*

Freud, S. (1926). *Inhibition, symptôme et angoisse*, Œuvres Complètes; Paris, PUF, 1992, p. 203-286.

Green, A. (1983). «La mère morte», *Narcissisme de vie, narcissisme de mort*, Paris: Les éditions de minuit.

Kaës, R. (1993). *Le Groupe et le sujet du groupe*. Paris: Dunod.

Klein, M. (1957). *Envie et gratitude et autres essais*. Paris: Gallimard.

Lacan, J. (2001). *Autres écrits (1983)*. Paris: Seuil.

Lamartine A. (1936). *Premières méditations poétiques*. Paris: Flammarion.

Seywert, F. (1990). *L'évaluation systémique de la famille*. Paris: P.U.F., p. 80.

Winnicott, D. (1958). *La capacité d'être seul*. Paris: Payot.

Flamand, H., *Dossier: Psychologie Interculturelle: La transmission intergénérationnelle des traumatismes*

in [http://ordrepsy.qc.ca/pdf/ArtDossier\\_Transmission\\_Sept00.pdf](http://ordrepsy.qc.ca/pdf/ArtDossier_Transmission_Sept00.pdf)

Freud, S. (1925), *La négation* in <http://www.psychanalyse.lu/>

#### Revues

Amado (2006) in. de Bérail, B. & Missonnier, S. (2010). Entre angoisse et créativité: les compagnons imaginaires. *Dialogue*, 189, (3), 39-55. Doi:10.3917/dia.189.0039.

Dupré La Tour, M. (2002). Le lien: repères théoriques. *Dialogue*, no 155, (1), 27-40.

Doi: 10.3917/dia.155.0027, p.33.

Golse, B. (2007). Entre psychanalyse et attachement, le concept de pulsion d'attachement comme moyen de penser la symbolisation en absence et en présence de l'objet. *Dialogue*, 175, (1), 15-29. Doi:10.3917/dia.175.0015.

Goldbeter-Merinfeld, è. (2006). Lieux et liens familiaux: Introduction. *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, no 37, (2), 5-8. Doi:10.3917/ctf.037.0005.

Boyer, A. (2006). Le lieu et le lien. *Cahiers critiques de thérapie familiale et de pratiques de réseaux*, no 37, (2), 9-16. Doi:10.3917/ctf.037.0009.

Jaïtin, R. (2006). La thérapie familiale psychanalytique: Les recherches de l'école argentine: Enrique Pichon Rivière. *Dialogue*, n° 172, (2), 73-87. doi:10.3917/dia.172.0073. p.75.

Saint Exupéry (de), A., (1945). *Le Petit Prince*. Chapitre 21. Paris: Gallimard.

Schaeffer, J. (2005). Le fil rouge du sang de la femme. *Champ psychosomatique*, no40, (4), 39-64. Doi:10.3917/cpsy.040.0039.

Schaeffer, J. (2008). Les séparations intra-psychiques du milieu de la vie et le syndrome du nid vide. *Cahiers de psychologie clinique*, 31, (2), 89-106. doi:10.3917/cpc.031.0089.

d'individuation? Qu'en est-il sinon cette édification de liens solides, bien définis entre le monde intérieur et le monde extérieur dans un perpétuel désir de mieux tolérer toute angoisse quel que soit son poids et quel que soit son intensité?

#### - Conclusion

Pour conclure, je désigne par angoisse de lien l'angoisse engendrée par l'absence de lien ou par la présence d'un lien perturbé, défaillant. Quand la peur de l'effondrement qui en découle s'effondre devant un lien non perturbé, non-défaillant et quand, sur l'axe amour-haine, pivot du monde intérieur de tout individu, un lien d'amour est créé, le travail sur l'angoisse impliquerait le travail sur le lien, la réconciliation du sujet avec les liens qui l'unissent aux personnes de son entourage, aux images parentales tout d'abord et ensuite avec toute personne concernée par le *branchement* (évoqué par Sieca). ce moment-là, le désir de vie émerge de nouveau.

Comment tisser les liens sinon avec cette contenance par laquelle les deux tenants du lien puissent bénéficier du désir enrichissant et non frustrant capable de diminuer les angoisses et penser les penser? L'angoisse serait-elle ainsi l'angoisse du désir de non-lien?

L'art de tisser les liens serait le garant de l'atténuation de l'angoisse.

Au terme de cette réflexion, se dessinent trois paradoxes qui constitueraient de prochaines pistes de recherche:

1-Le premier vient de Cyrulnik (1989) *Le lien se renforce et le désir s'éteint*. (p. 251).

2-L'angoisse de lien, engendrée par une expérience de lien non sécurisante, serait-elle peur du lien et désir de non-lien?

3-L'angoisse d'échec est-elle une peur de réussir résidant à la base du sentiment de vide que je désignerai par l'angoisse du rêve réalisé rejoignant alors ce que Coelho (1994) exprime dans l'Alchimiste? Qui sait, après tout, s'il ne vaut pas mieux être comme le Marchand de Cristaux? Ne jamais aller à La Mecque, et vivre de l'envie de s'y rendre.

Et pour clôturer, une question se pose: Y-aurait-il angoisse dans un lien de trop-plein d'amour et de désir?

#### - Bibliographie

Anzieu, D. (1985). *Le moi-peau*. Paris: Dunod.

Anzieu, D. (1994). *Le penser, du Moi-peau au Moi-pensant*, Paris: Dunod.

Berenstein, I, Puget, J. (1990). *Psychanalyse du lien*, Paris: èrès.

Bion, W.R. (1983). «Une théorie de l'activité de pensée (A theory of Thinking)», in *Réflexion faite*: PUF, pp 125-135.

Bompard-Porte, M. (2004). *De l'angoisse Psychanalyse des peurs individuelles et collectives*. Paris: Armand-Colin.

Cyrulnik, B. (1989). *Sous le signe du lien*. Paris: Hachette Littératures.

Cyrulnik, B. (2000). *Les Nourritures Affectives*. Paris: Odile Jacob. p 141

Eiguer, A. (1983). *Un divan pour la famille*. Paris: Païdos/Le Centurion, p. 23

Eiguer, A. (1984). *La thérapie psychanalytique du couple*. Paris: Dunod.

Eiguer, A. (2004). *L'inconscient de la maison*. Paris: Dunod.

lien est fort et solide même s'il y a un échec il sera mieux toléré et n'affectera pas le narcissisme du sujet.

#### - La perte d'un objet cher et l'angoisse de séparation

Ces angoisses, ces désirs secouent la personne et la mettent devant une nécessité de réaménagement des liens premiers avec les objets de son entourage et par la suite avec les objets qui lui ont été substitués et avec le sentiment de manque suite à l'absence. *Quand j'avais 7 ans, mon poisson rouge est mort...j'allais craquer, ma tante m'a apporté un autre mais aucun poisson ne peut le remplacer.* (Farid, 24ans). *Mon grand-père me manque...il me manque beaucoup...quand je pleurais à cause de mes parents..., il était tout pour moi...*(Jad, 19 ans.)

Cette angoisse cache un désir de se lier à quelqu'un, de le rencontrer, un désir de réconciliation avec l'absence. *Ma sœur a voyagé...elle s'est mariée il y deux ans et elle a voyagé...elle me manque... elle me manque beaucoup... nous partagions la même chambre, la même voiture.* (Nina, 19 ans).

#### - L'angoisse d'Envie

*C'est toujours la même chose, pourquoi pas moi? tout ce qu'elle a est plus joli...elle vient d'avoir une voiture neuve...tous les mois elle achète plein de vêtements...moi, les miens datent de je ne sais pas combien de temps...elle vient de rencontrer un bel homme qui a eu un coup de foudre!* (Réa 22ans)

Derrière cette angoisse réside la recherche d'un lien entre le sujet lui-même et une image rassurante, sécurisante, répondant au narcissisme blessé, transpercé par les regards de jugement risquant de fragiliser le moi et de le soumettre au sentiment de dévalorisation, forgeant ainsi une angoisse permanente accompagnant la représentation que le sujet s'attribue à lui-même. Le lien avec l'entourage capable de favoriser ce besoin est un lien de gratitude nécessitant la réconciliation du sujet avec l'objet maternel -le bon sein- dont le manque a engendré l'angoisse de l'envie.

*L'idée de la ménopause me secoue.* Cet ébranlement exprimé par Zeina (50 ans), interroge l'idée de passage, de lien entre la vie et la non-vie...Le lien entre la vie, la procréation, et celui de la mort, de la ménopause nommée «castration blanche" par Green (1983) est remis en question.

La prise de conscience a facilité l'élaboration du manque et de la perturbation de lien.

Le lien avec l'image du corps, le corps psychique familial: *C'était un grand groupe...c'est toujours comme ça...quand je me trouve dans un grand groupe, ça m'angoisse... je sens qu'on va m'avaler.* (Souha, 30 ans)

#### - Qu'en est-il alors du lien: lien-désir-angoisse?

la façon de Freud (1925) cité par Golse (2007) pour qui «L'objet ne peut manquer que parce qu'il a d'abord été rencontré» (p.22), l'angoisse ne peut exister que si la place du lien a été d'abord réservée. Ainsi, les paroles à travers lesquelles est exprimée sont des paroles qui expriment en même temps le rapport de l'angoisse au lien et au désir tel que avancé dans l'hypothèse.

Donc toute angoisse est une angoisse de lien.

Et, au-delà du lien, qu'en est-il sinon cette construction du psychisme humain cherchant sans cesse à s'équilibrer, à se maintenir, s'appropriant à des transmissions entre les générations, dans un désir d'élaboration de plus en plus réussie de pactes, de non-dits, d'identifications et de processus

*plusieurs jours, je me lève tôt et je m'apprête à sortir, pour aller je ne sais où...comme si je devais aller retrouver quelqu'un ou quelque chose. (Corinne, 50ans)*

Eiguer (2006) exprime que «[...], chaque changement de domicile implique un travail de deuil [...] plus long et difficile si notre habitat interne n'était pas là pour organiser et favoriser le transport de nos objets et de tout ce qui nous lie sentimentalement à eux» (p.25). *L'immeuble d'en face a été démolit... J'ai une angoisse qui provient de je ne sais quoi...je me réveille angoissé comme avec une... au cœur, un quelque chose qui ressemble à je ne sais quoi et qui provient de je ne sais où. C'est comme si, moi-même, j'ai changé de place. (Rami, 23 ans)*

Boyer (2006) signale l'importance du lieu pour le lien et avance que «[...] le lieu a une affinité [...] avec le lien mais encore avec l'existence ou du moins avec notre existence en tant que sujets soumis à la loi de l'échange.» (p.16).

Cela confirme davantage l'importance indéniable du lien et du lieu.

#### **- Angoisse de solitude: Désir de lien, angoisse de non - lien**

Cette angoisse pourrait-elle répondre au paradoxe lancé par Winnicott (1958) dans *la capacité d'être seul? La capacité d'être seule*, grâce au nouage des liens, épargne à la personne l'angoisse de solitude quand elle se trouve seule. Se trouver seul n'est à la base du sentiment de solitude que si les liens sont fragiles, ébranlés, détachés. *J'avais toujours peur pour ma mère, je la sentais vivant dans la solitude...Quand je pense que je revis la même chose avec mon mari! (Corinne, 50 ans) Seul en couple!*

*J'ai le sentiment que personne ne se soucie de moi, solitude égale: comme si j'étais absente...j'en éprouve un sentiment moche... je n'existe pour personne. (SanÍ, 32 ans) Je n'aime pas avoir des sentiments d'amour envers les garçons...ça me gêne; quand je suis à ses côtés je suis heureuse, loin de lui, je sens le vide. (Nay, 19 ans)*

Je classerai sous cette même rubrique la création d'un *compagnon imaginaire* évoqué par Freud avec le petit Hans, et par Amado (2006): «Cet objet réel ou imaginaire doté par l'enfant de qualités humaines.» Cette création ne serait-elle pas engendrée par le désir ardent d'un lien capable de réduire l'angoisse de solitude de l'enfant isolé?

également, l'angoisse du silence trouve ses racines dans le lien de l'individu avec la communication, la parole, le père. *Le silence de ma femme est horrible, j'ai peur de son silence, c'est lourd, je sens le danger...ça me menace.(Ziad, 46 ans)*

#### **- Vide**

Angoisse de la page blanche, angoisse de l'écrivain de *l'écrit-en-vain*. bon entendeur, un mot suffit, dit le proverbe. Mais s'il n'y a pas d'entendeur, à quoi bon écrire? Inhibition de l'écrit, des mots, de la parole, de la communication, perturbation de liens avec l'environnement nécessaire à l'écoute, à la chaleur, et donc, à la survie. *Ni le clavier de mon ordinateur, ni le papier, ça ne sert plus à rien (Roy, 38 ans)...*Anzieu (1994) l'exprime par l'idée que cela traduit aussi le vide de l'être et l'angoisse du lien avec soi-même, le narcissisme étant dans l'incapacité d'être racheté. Il évoque aussi la relation de *Contenant/contenu réciproque* (p. 74). Je dirai alors que l'angoisse chasse le verbe et le blocage remplit le vide de la page. *Depuis le choc de la rupture amoureuse...Quelque chose m'empêche d'écrire, de créer...je ne sais pas c'est quoi...mais je n'arrive pas... (Amir, 43 ans)*

L'angoisse d'échec n'est qu'un mauvais lien avec l'image de soi où le narcissisme est en jeu. Si le



39 - Mon grand-père me manque...il me manque beaucoup...quand je pleurais à cause de mes parents..., il était tout pour moi...

40 - Pendant plusieurs jours, je me lève tôt et je m'apprête à sortir, pour aller je ne sais où...comme si je devais aller retrouver quelqu'un ou quelque chose.

Ces mots se regroupent autour de l'habitat, la solitude, le vide et la perte, que cachent-ils? Quel en est le point commun?

**- Analyse: travers les paroles**

Cette recherche d'apaisement de l'angoisse tourne autour de la recherche de liens non perturbés entre le sujet et un objet. Toute angoisse cache une angoisse de lien: quel que soit l'objet, absent ou présent.

**- Habitat: L'angoisse provenant de la non-adaptation avec sa nouvelle maison est un lien avec le lieu**

Pour Edith Goldbeter-Merinfeld (2006) Les lieux acquièrent une identité affective, une fonction protectrice et sont porteurs de valeurs symboliques.

Eiguer (2004) étudie notre relation à l'espace habité en faisant un parallèle entre notre corps - «notre bâtisse» - et cet espace *l'habitat intérieur* - qui, selon Berenstein (1976), représente symboliquement chacun des individus de la famille: leurs places, leurs alliances, leurs rôles etc.

Marie-Annick Grima parle de blessures *non cicatrisées* qui résultent de la migration; je dirais que cette angoisse n'est autre que la perte de son identité, sa protection, sa place introuvable facilement. *29-Ma nouvelle maison, je n'arrive pas à m'y habituer, à l'approprier...en fait tous les nouveaux lieux me perturbent...aussi bien que les nouveaux visages.* (Corinne 50 ans)

L'espace marque nos liens affectifs et est à son tour marqué par ces liens.

Pour Lacan (2001), «[...] tout ce qui constitue l'unité domestique du groupe familial devient pour l'individu, [...], l'objet d'une affection distincte de celles qui l'unissent à chaque membre [...]. L'abandon des sécurités que comporte l'économie familiale a la portée d'une répétition du sevrage [...]» (p.36). *31-Je ne sais pas pourquoi depuis que j'ai déménagé avec ma famille, j'ai peur pour mes parents, je sens que je vais perdre et ma mère et mon père.* (Nader, 53 ans)

Cet aspect identitaire, cet abri, cette place mêlée aux sons des membres, au parfum du café matinal, à l'odeur de la cuisine, aux couleurs des murs, les émotions, les joies et les peines...l'espace c'est ce qui nous a forgés et c'est ce que nous avons forgé...c'est cette construction réciproque qui fait que le lien particulier qui a été noué avec, soit à la base d'angoisse une fois perdu, coupé...question de filiation, de communication, d'interfantasmatisation, de corps familial...tout y est dans les paroles. *Cette personne étrangère qui vit avec nous à la maison...qui est là...sa présence me hante...j'ai horreur de sa présence...ça m'angoisse de l'accepter...de la rejeter.* (Sabine, 29ans)

Abandonner un habitat, s'en séparer, s'en détacher, est générateur d'angoisse. Le déménagement dans un autre lieu n'est autre que l'abandon du lieu, voire de la mémoire des lieux et des personnes. La coupure de lien avec le lieu pour les personnes abandonnées ou ayant été forcées d'abandonner *leur lieu* entraînent des perturbations qui peuvent aller d'une angoisse profonde jusqu'à un déficit de la mémoire chez des personnes âgées.

Vigouroux (1996) dit que «Notre maison est notre seconde peau, elle nous raconte». *Pendant*

- 21 - Le sentiment que j'éprouve, je ne vais pas pouvoir le décrire...c'est plus immense qu'un désert et plus noir que la nuit.
- 22 - Je sens une angoisse qui provient de je ne sais quoi...je me réveille angoissée comme avec une... au cœur, un quelque chose qui ressemble à je ne sais quoi et qui provient de je ne sais où..., comme si j'allais perdre quelqu'un ou quelque chose...
- 23 - ça ressemble à une alerte, une tension, j'ai les nerfs tendus, tirés...
- 24 - Perturbé, tourmenté, agacé, menacé, agité, perturbé... (Ces mots n'ont pas été prononcés à la file; je les ai groupés après plusieurs séances de la même personne).
- 25 - Depuis le traumatisme de la rupture amoureuse...Quelque chose m'empêche d'écrire, de créer...je ne sais pas c'est quoi...mais je n'arrive pas...
- 26 - L'idée de la ménopause me secoue...
- 27 - C'est comme si j'étais sur mes gardes sans vraiment l'être, et c'est comme si je devais faire toujours attention sans jamais avoir le sentiment que cela pourrait être efficace.
- 28 - C'est comme un quelque chose, un malaise, un pincement qui me ramène au noir avec chaque lever et c'est aussi comme une chanson qui me bouleverse au milieu d'un air joyeux...non c'est plutôt un sentiment qui vit avec moi, qui m'accompagne, c'est une musique de fond qui tapisse mes jours et mes nuits...c'est un arrière-plan qui se dessine derrière toutes les scènes de ma vie.
- 29 - ça ressemble à un poids, à une gêne permanente, à un collier étroit autour du cou, ça m'étrangle.
- 30 - ça a un goût, c'est amer, c'est comme une indigestion, une migraine...
- 31 - C'est pénible, c'est dur, c'est lourd.
- 32 - C'est quelque chose qui m'empêche de vivre, d'avancer...
- 33 - Je ne sais pas pourquoi depuis que j'ai déménagé avec ma famille, j'ai peur pour mes parents, je sens que je vais perdre et ma mère et mon père.

**- Paroles pour exprimer un désir**

- 34 - Ma sœur a voyagé...elle s'est mariée il y a deux ans et elle a voyagé...elle me manque... elle me manque beaucoup... nous partagions la même chambre, la même voiture.
- 35 - Ma nouvelle maison, je n'arrive pas à m'y habituer, à l'approprier...en fait tous les nouveaux lieux me perturbent...aussi bien que les nouveaux visages de mon entourage...tous les nouveaux visages me font peur...derrière eux je cherche un visage que je connais, que j'aime...qui m'aime...
- 36 - Mais qu'est-ce qu'ils diront de moi, suis-je un vaurien? j'ai peur de les décevoir (mes parents), j'ai peur d'être puni, condamné, tué...je ne voudrais pas qu'on me traite de lâche ni d'impuissant ni d'ignorant, je ne voudrais être ni marginalisé ni isolé ni rejeté...ça me terrifie, c'est horrible d'échouer...
- 37 - Ni le clavier de mon ordinateur, ni le papier, ça ne sert plus à rien...
- 38 - C'est toujours la même chose, pourquoi pas moi?? tout ce qu'elle a est plus joli...elle vient d'avoir une voiture neuve...il n'y a pas deux mois à cela elle a acheté plein de vêtements...moi, les miens datent de je ne sais pas combien de temps...elle vient de rencontrer un bel homme qui a eu un coup de foudre!

Le critère de mon choix de paroles varie entre: perte d'objet, solitude, vide, santé, couple... Chacune des trois catégories que j'ai adoptées pourrait être répartie en sous-catégories ou thématiques mais qui ne font pas l'objet de ma présentation. La liste englobe: *Paroles pour dire l'angoisse*, *Paroles pour se décrire*, *Paroles pour exprimer le désir*. Je citerai quelques-unes de chaque catégorie.

**- Paroles pour dire l'angoisse**

- 1 - Tout ce qui m'entoure, je sens que je vais le perdre et ça m'étrangle, m'étouffe, c'est terrible...
- 2 - Si je ne fais pas ce qu'il faut...c'est comme si on allait me décapiter, j'ai peur des regards, j'ai peur des cris, des paroles, de la différence et de l'indifférence...
- 3 - J'avais toujours peur pour ma mère, je la sentais vivant dans la solitude...Quand je pense que je revis la même chose avec mon mari!
- 4 - C'était horrible... Je me voyais tout le temps jugé et!...j'ai peur de la répugnance des autres...Ah! Si j'échoue! Catastrophe!
- 5 - Quel cauchemar! Quel danger!
- 6 - L'angoisse de grossir m'ébranle, me secoue...
- 7 - Quand j'avais 7 ans, mon poisson rouge est mort...j'allais craquer, ma tante m'a apporté un autre mais aucun poisson ne peut le remplacer.
- 8 - Je vis avec mais c'est très gênant. ça me rend fou...
- 9 - L'idée que personne ne m'aime, personne ne se soucie de moi... comme si j'étais absent...j'en éprouve un sentiment moche... je n'existe pour personne.
- 10 - J'ai peur de la maladie, j'ai peur de perdre mes enfants, je crains d'être renvoyé de mon travail, je suis inquiet pour mes enfants...
- 11 - J'ai peur de perdre mon père, ma mère
- 12 - Le silence de ma femme est horrible, j'ai peur de son silence, c'est lourd, je sens le danger...ça me menace.
- 13 - Tous les jours sont pour moi comme des jours d'examen...ça m'angoisse. échouer me rend faible!
- 14 - L'idée de la guerre me rend folle...depuis que j'entends ces histoires de personnes qu'on tue...j'ai peur d'être attaqué.
- 15 - C'était un grand groupe...c'est toujours comme ça...quand je me trouve dans un grand groupe, ça m'angoisse... je sens qu'on va m'avalier.
- 16 - Cette personne étrangère qui vit avec nous à la maison...qui est là...sa présence me hante...j'ai horreur de sa présence...ça m'angoisse de l'accepter...de la rejeter.
- 17 - J'ai le sentiment que personne ne se soucie de moi, solitude égale: comme si j'étais absente...j'en éprouve un sentiment moche... je n'existe pour personne.
- 18 - Je n'aime pas avoir des sentiments d'amour envers les garçons...ça me gêne; quand je suis à ses côtés je suis heureuse, loin de lui, je sens le vide.
- 19 - Je déteste le silence à la maison. Il pèse trop sur l'atmosphère...c'est affreux.

**- Décrire l'angoisse ou bien se décrire?**

- 20 - C'est comme si j'allais mourir, je n'arrive pas à dormir, c'est quelque chose qui m'attache les bras et les jambes, qui m'accable.

l'angoisse, tout comme le désir n'existent pas en dehors d'un lien et dans quelle mesure, réciproquement, le lien est-il aux sources de l'angoisse et du désir? Quels seront ces liens?

#### - Hypothèse

Je vais tenter de souligner l'originalité qui lie le concept de lien à celui d'angoisse ainsi qu'à celui de désir et qui me fait supposer qu'il n'y a pas d'angoisse ni de désir en dehors d'un lien.

Mon hypothèse s'énonce ainsi:

*L'angoisse est un corollaire du lien. Elle existe avec le lien, en fonction de lui, soit au sein du lien, dans sa présence, dans ses perturbations et ses défaillances, soit dans l'absence de lien.*

Le désir, également, est un désir de lien à un objet sans distinction entre une personne, une chose, un espace ou un temps de l'histoire.

#### - Désir de lien, lien, angoisse

Le lien qui s'établit crée chez l'individu le désir de le perpétuer et par là- même l'angoisse de le perdre, de perdre l'objet du lien ou de s'en séparer. Lien, non-lien, désir, angoisse sont alors engendrés l'un par l'autre. Bien que le lien soit en mesure d'apaiser l'angoisse mais en même-temps, il est capable de la re-crée.

Dans ce contexte, et pour bien exprimer cette idée, se faufile le fameux passage du Petit Prince de Saint Exupéry où le renard a exprimé son désir d'être apprivoisé expliquant cela par une demande de créer des liens et où le Petit Prince a apprivoisé le renard. Le moment de la séparation s'exprime ainsi:

«[...] Et quand l'heure du départ fut proche:

- Ah! dit le renard... Je pleurerai.

- C'est ta faute, dit le Petit Prince, je ne te souhaitais point de mal, mais tu as voulu que je t'apprivoise... [...]

Là, espace et temps se conjuguent dans un ensemble de visages, voix, paroles, qui chassent les peurs quotidiennes et aboutissent à la création d'un désir de prolonger l'instant présent...Le lien chasse l'angoisse mais le désir de protéger le lien re- crée l'angoisse.

Il reste toujours quelque angoisse mais qui est tolérée parce qu'elle est pour nous indispensable, tel que le signale Freud (1926) «[...] l'importance de l'angoisse égale celle de la sexualité dans le développement du psychisme humain.» (p.3). Pour la psychanalyse, le je ou le moi, émerge de l'angoisse; force vitale qui sera remplacé par la *désirance* (p 137).

#### - De la clinique

Le présent texte n'abordera de l'analyse de contenu que l'aspect par lequel les paroles repérées répondent à notre problématique autour de la thématique de l'angoisse. Le terme angoisse couvre les nuances lexicales voisines telles que: peur, inquiétude, malaise, ennui...

Ce n'est pas une étude quantitative et ne vise pas à savoir la fréquence des expressions ou des idées répétées. Elle vise juste à analyser le sens et la thématique des paroles. La démarche consiste en un groupement en trois catégories d'une quarantaine d'expressions de plusieurs patients selon l'angoisse ou le désir exprimés.

Les expressions sont choisies au hasard tenant compte de l'originalité ou la variété. Les patients appartiennent aux deux sexes et à des âges variés de l'adolescence jusqu'à l'âge de 65 ans.

que l'enfant apprenne à être seul, il faut qu'il passe par une expérience *fondamentale*, celle d'être seul, en présence de la mère. C'est ainsi que l'enfant sera capable d'être seul en présence d'une personne étrangère. D'après Dupré La tour (2002) c'est donc *par la présence* et non par l'absence que le sujet établit des relations avec autrui. Pour Berenstein, Puget (1990) «Il faut [que le sujet] reconnaisse la relation comme une réciprocité entre *deux présences* et que le lien, ainsi, désigne le lieu où ces *deux présences* interagissent» (p. 106).

la naissance, nous dépendons des personnes qui nous entourent, avec lesquelles nous nous sentons en communauté, voire en fusion. La présence de l'autre est indispensable pour notre développement et notre survie. Sieca (2002) propose une image où il compare le lien de l'enfant et ses parents à de multiples *cordons ombilicaux* desquels l'enfant parvient à se détacher pour aller à la recherche d'autres individus à qui relier les extrémités des mêmes cordons. De là, les efforts et le désir qui sous-tendent cette recherche sont une recherche de l'équilibre affectif donc diminution de l'angoisse. Ainsi, tout branchement laissé vide de lien ou lié fragile ou perturbé ne pourra pas assouvir la place et sera à la base d'angoisse.

#### - **Ennui, vide, absence,...et angoisse de non-lien**

L'angoisse réside dans l'absence de lien, derrière l'ennui qui «pétrifie les habitants des villages déshabités» (p.140) décrits par Cyrulnic (2000); pour lui, c'est le lien qui, en dépit des difficultés qui le traversent, crée un désir de vie, «une appétence, parfois même un espoir» (p.141). Et il poursuit autour de l'idée que là où il y a une affectivité *fiévreuse*, qu'elle soit amour ou haine, il y a *espoir* donc désir de vivre autrement et peut-être ailleurs ; mais l'important est que le désir est là.

L'angoisse de non-lien peut mener jusqu'au choix du moment de départ. Cyrulnik (2000) avance qu'on meurt beaucoup moins pendant les fêtes dans les familles où les rencontres sont attendues, et que «même les âgés meurent moins le dimanche et les jours de fête. Ils attendent le lundi ou le mardi pour se laisser partir, [...]» (p.146).

Parler du rapprochement lien-désir nous ramène à Eiguer (2002) qui avance que parmi les trois niveaux ciment du lien qu'il cite, le deuxième est «désirant ou onirique, [...], où l'on fantasme de réaliser avec l'autre un certain nombre de désirs inconscients». (p.5). D'après Eiguer (1984), le lien est en rapport au narcissisme et par cela il concerne alors l'élément identificatoire.

Pour Anzieu (1985), les représentants de l'espèce humaine sont forcément livrés «à des angoisses intenses précoces et prolongées de perte de la protection» (p.96).

L'angoisse de lien accompagne donc toute angoisse: l'angoisse de séparation du tout-petit enfant, la crise d'identité de l'adolescence, l'angoisse d'échec, le syndrome du nid vide Schaeffer (2008) ou crise du nid vide Seywert (1990) qui advient chez les parents (ou grands-parents) suite au départ de leurs enfants adultes.

#### - **Problématique**

Partant des travaux avancés sur le lien d'Anzieu, Kaës, Eiguer, Winnicott et bien d'autres, et sans être en mesure de reproduire les définitions données de l'angoisse ou d'en repérer les causes, la normalité, les pathologies ou les nuances et différences entre angoisse, peur, crainte, phobie, anxiété... je tenterai de répondre à quelques interrogations que le quotidien aussi bien que la clinique m'ont révélées: quel est le point commun entre les différentes angoisses? En quoi se ressemblent-elles? Et le désir? Qu'en est-il du désir par rapport à la présence de l'angoisse? Dans quelle mesure

étant réalisés grâce au lien de l'homme avec Mohamet: «Et que c'est Lui qui a fait rire et qui a fait pleurer» (Sourate 53, Verset 43).

L'évangile qui relate le lien entre le Christ et les hommes témoigne du rôle du lien établi entre eux dans la diminution de l'angoisse et l'accès au repos: «Venez à moi, vous tous qui êtes accablés sous le poids d'un lourd fardeau, et je vous donnerai du repos»(Matthieu 11:28).

Quant à la philosophie, désir et angoisse y constituent deux concepts récurrents. Pour Aristote, tous les hommes ont un désir naturel de savoir. Pour Heidegger, l'angoisse est l'essence même de l'homme. Pour Sartre, la conscience est le lieu primordial de l'angoisse.

#### - En psychanalyse

Dans sa conférence «l'Angoisse» (1917) Freud a bien précisé que: «Chacun de nous a éprouvé ne fut-ce qu'une fois cette sensation ou plus exactement "cet état affectif". » En 1916, il insiste aussi sur le fait que là où il y a angoisse, il doit exister quelque chose devant quoi on s'angoisse et que l'angoisse n'est pas nécessairement orientée vers un *objet extérieur* mais qu'elle vient de *l'intérieur de l'individu*. Lacan, dans le séminaire IV sur l'Angoisse, parle de l'objet a, objet cause du désir, «c'est la sensation du désir de l'Autre», précise-t-il. Il situe l'angoisse entre le désir et l'identification narcissique, le manque, le vide.

Quant à la théorie du lien, Pichon-Rivière (*in Dialogue* n°172), se basant sur la théorie kleinienne, avance qu'une qualité de *bon ou mauvais* lien peut lui être attribuée selon les caractéristiques satisfaction ou frustration de l'interaction entre sujet et objet.

Klein (1957) s'est basée sur les notions de *pulsions de mort et pulsions de vie*- le nourrisson, voudrait détruire et éliminer ce qui en lui est déplaisant et source d'angoisse.

Eiguer (1983) trouve que chaque lien est marqué par les sentiments amour-haine et d'autres affects qui en découlent.

Cet aperçu ne fait que présenter le concept de lien accompagnant le désir et l'angoisse.

#### - Amour, attente, désir et lien

*Demain, dès l'aube, à l'heure où blanchit la campagne,*

*Je partirai. Vois-tu, je sais que tu m'attends.*

*J'irai par la forêt, j'irai par la montagne.*

*Je ne puis demeurer loin de toi plus longtemps.*

*Victor Hugo, Demain, dès l'aube...*

Kaës (1996) a développé une théorie du lien à partir de ses travaux avec le groupe en la fondant sur «le désir de l'autre et de l'objet du désir de l'autre». Sa théorie met en relief l'importance des rapports entre le sujet et l'objet et celle de la présence de chacun par rapport à l'autre. Le lien est pensé comme étant une entité créée par des sujets qui sont dans une dépendance mutuelle. Cette dépendance serait donc source de satisfaction; et la privation de cette dépendance ou la cassure de cette entité ne peut que créer un sentiment d'angoisse chez les deux sujets du lien.

#### - Lien et effet de présence

Qui ne connaît pas le célèbre vers de Lamartine (1820) «Un seul être vous manque, et tout est dépeuplé!» qui exprime parfaitement l'effet de présence pour le lien.

Winnicott (1958) introduit les effets de présence dans *La capacité d'être seul* et trouve que pour

## LXXVIII - Les Fleurs du mal, Charles Baudelaire

### - Introduction

Spleen! Poème ou image de tous les jours?! Le thème de la présente étude ne peut que susciter un flot de sentiments et d'affects.

Pourquoi le lien: lien, angoisse et désir?

On l'entend souvent, toujours, tous les jours...certains n'en parlent pas, d'autres veulent s'en libérer. Certains vivent avec, d'autres tiennent à le comprendre, d'autres l'ont apprivoisé, d'autres le nient, d'autres encore l'ont démystifié...Et, souvent, en entendant *angoisse* on suppose avoir entendu *désir*, et en entendant *désir* on croit avoir sous-entendu *angoisse*. Et à l'écoute de l'un ou de l'autre, on perçoit derrière, l'objet sur lequel porte chacun des deux états ou affects. Freud (1926) signale que «[...] il y a de l'apparence que cette désirance [sehnsucht] virerait en angoisse. Cela fait précisément l'impression que cette angoisse serait une expression du désarroi [Ratlosigkeit], comme si l'être encore très indéveloppé ne savait rien entreprendre de mieux avec cet investissement désirant[sehnsüchtig].» (p.167, cité dans Bompard-Porte, 2004 p.137).

Dans les différents lieux de vie, travail, loisirs, les gens se le disent de mille et une façons; le mot stress devenu courant, n'est là que pour en parler. la clinique, quand les patients font des associations autour de situations angoissantes, cela les mènent souvent à évoquer quelque part un être, une sensation, un moment, un lieu, un lien enfoui, enfui, recherché ou appréhendé.

La présente étude se propose de définir l'un des champs vastes qui peuvent être reliés à l'angoisse et au désir: **le lien**. Ainsi l'intérêt de cette étude est dans l'ajout attribué à la thérapie dans son travail sur l'angoisse et qui est le suivant: accorder une part importante aux liens noués entre le sujet et les objets de son environnement ainsi que le temps et les lieux. Une analyse de paroles viendra appuyer la théorie et dessiner les lignes d'une vision où le lien réside derrière l'angoisse et le désir.

### **- Angoisse et désir et les domaines de l'humain**

Mon désir est une éternelle faim d'amour et de beauté;

[...] les soupirs des amants sont plus apaisants que la musique de la lyre.

Gibran Khalil Gibran, Des rires et des larmes (1914).

Le thème de l'angoisse, tout comme celui de l'amour, a parcouru tous les domaines de l'homme.

Les œuvres littéraires sur l'angoisse accompagnant l'absence d'un lien et perturbatrice du sujet angoissé abondent, ainsi que sur le désir de rencontre ou de présence particulière dont la réalisation serait un remède à l'angoisse.

عِيدٌ بِأَيَّةِ حَالٍ عَدَتَ يَا عَيْدُ  
أَمَّا الْأَحِبَّةُ فَالْبَيْدَاءُ دُونَهُمْ  
بِمَا مَضَى أَمْ لِأَمْرِ فَيْكَ تَجْدِيدٌ؟!  
فَلَيْتَ دُونَكَ بَيْدَاءٌ دُونَهَا بَيْدُ

Ainsi l'exprime Al Mutanabbi poète arabe (٣٥٤هـ - ٣٠٣هـ) décrivant son angoisse un jour de fête où sa bien-aimée est très loin de lui.

Du côté de la religion, le Coran est riche en situations où angoisse et désir sont évoqués comme

## The anguish between link and non-link

### Abstract

The study presented defines the link as a broad field which could be linked to anguish and desire. The link, with different ways of its weaving, of its experiences and of its reflection on the life of the person, lies behind anguish and desire.

An analysis of the content of words of the clinic, will support the theory and illustrate the hypothesis which places the link, with its absence or presence, with its perturbations or equilibrium, as one of the main foundations of the work on anguish and desire.

Thus, the interest of the therapy, in its work on anguish, will be to accord an important part to the links with objects and places.

**Key words: anguish- desire- link**

**Désir et angoisse entre lien et non - lien**

### Spleen

Quand le ciel bas et lourd pèse comme un couvercle  
Sur l'esprit gémissant en proie aux longs ennuis,  
Et que de l'horizon embrassant tout le cercle  
Il nous verse un jour noir plus triste que les nuits;

Quand la terre est changée en un cachot humide,  
Où l'Espérance, comme une chauve-souris,  
S'en va battant les murs de son aile timide  
Et se cognant la tête à des plafonds pourris;

Quand la pluie étalant ses immenses traînées  
D'une vaste prison imite les barreaux,  
Et qu'un peuple muet d'infâmes araignées  
Vient tendre ses filets au fond de nos cerveaux,

Des cloches tout à coup sautent avec furie  
Et lancent vers le ciel un affreux hurlement,  
Ainsi que des esprits errants et sans patrie  
Qui se mettent à geindre opiniâtrement.

- Et de longs corbillards, sans tambours ni musique,  
Défilent lentement dans mon âme; l'Espoir,  
Vaincu, pleure, et l'Angoisse atroce, despotique,  
Sur mon crâne incliné plante son drapeau noir.



## Désir et angoisse entre lien et non-lien Résumé

**d. rita chabab**

La présente étude se propose de définir le lien comme l'un des champs vastes qui peuvent être reliés à l'angoisse et au désir. Le lien, avec les différentes façons de son tissage, de son vécu et de son reflet sur la vie de la personne réside derrière l'angoisse et le désir.

Une analyse de contenu de paroles de la clinique viendra appuyer la théorie et dessiner les lignes d'une hypothèse qui place le lien, par sa présence ou son absence, par ses perturbations ou son équilibre, comme l'une des assises principales du travail sur l'angoisse et le désir.

Ainsi, l'intérêt de la thérapie, dans son travail sur l'angoisse, sera d'accorder une part importante aux liens noués avec les objets et les lieux.

**Mots clés:** Angoisse-Désir-Lien

## الرغبة والقلق ما بين الرابط واللا رابط

### ملخص

تهدف الدراسة الى تحديد العلاقة ما بين القلق والرغبة من جهة والرابط كإحدى المجالات الواسعة الممكن ربطها بالقلق والرغبة من جهة أخرى.

فالرابط باشكاله المتعددة من حيث نسجه ومن حيث المعاش الخاص به وأيضاً من حيث انعكاسه على حياة الانسان يكمن وراء القلق و وراء الرغبة.

ويأتي تحليل المضمون لكلام من داخل العيادة ليدعم الدراسة النظرية وليرسم خطوط فرضية تضع الرابط كإحدى القواعد الأساسية للعمل العيادي حول القلق والرغبة. وذلك سواء كان هذا الرابط موجوداً أو غائباً، أو كان مضطرباً أو متّزناً.

وهكذا فإن أهمية العلاج في هذا الاطار تكون في أن يعطي حصة كبيرة للروابط القائمة بين الانسان وما يحيط به، أكان كائناً أم مكاناً.

**الكلمات المفتاحية: قلق - رغبة - رابط**

- Low, K. (2010). *Successfully negotiating in Asia*. London/ New York: Springer, Heidelberg.
- Malcolm, M. (2014). A critical evaluation of recent progress in understanding the role of the research-teaching link in higher education. *Higher Education*, 67(3), 289-301.
- Maslach, C.L., Schaufeli, W. B., & Leiter, M.P. (2001). Job challenges. *Annual Review of Psychology*, 52(4), 397-422.
- Meadors, P.A., Lamson, A.G., Swanson, M.S., White, M.E., & Sira, N.T. (2009). Secondary traumatization in pediatric healthcare providers: fatigue, challenges, and secondary traumatic stress. *Omega: Journal of Death & Dying*, 60(2), 103-128.
- Melnick, S. A., & Meister, D. G. (2008). A Comparison of beginning and experienced teachers' concerns. *Educational Research Quarterly*, 31, 39-56.
- Moore-Russo, D. A., & Wilsey, J. N. (2014). Delving into the meaning of productive reflection: A study of future teachers' reflections on representations of teaching. *Teaching and Teacher Education*, 37, 76-90.
- Murshidi, R., Konting, M. M., Elias, H., & Fook, F. S. (2006). Sense of efficacy among beginning teachers in Sarawak. *Teaching Education*, 17, 265-275.
- Norman, P. J., & Feinman-Nemser, S. (2005). Mind activity in teaching and mentoring. *Teaching and Teacher Education*, 21(6), 679-697. <http://dx.doi.org/10.1016/j.tate.2005.05.006>
- Olivier, M. A., & Venter, D. J. (2003). The extent and causes of stress in teachers in the region. *South African Journal of Education*, 23(3), 186-192.
- Phillips, B. S., (2013). *Social research, strategy and tactics*. New York: The Macmillan Company.
- Schaufeli, W. B., Leiter, M. P., & Maslach, C. (2009). Challenges: 35 years of research and practice. *Career Development International*, 14(5), 204-220.
- Schwartz, D.L., & Bransford, J.D. (2008). A time for telling. *Cognition and Instruction*, 16(4), 475 - 522.
- Schoenfeld, D. A. (1983). *The reflective practitioner: How professionals think in action*. New York: Basic Books.
- Smith, E., & Smith, A. (2012). Buying-out teaching for research: The views of academics and their managers. *Higher Education*, 63(4), 455-472.
- Stamm, B. H. (2002). Measuring compassion satisfaction as well as fatigue: Developmental history of the compassion satisfaction and fatigue test. In C. R. Figley (Ed.). *Treating compassion fatigue* (pp. 107-119). New York: Brunner-Routledge.
- Stones, E. (1992). *Quality teaching: A sample of cases*, Routledge: New York.
- Tonder, C. L., & Williams, C.N. (2009). Exploring the origins of challenges among secondary educators. *Journal of Industrial Psychology*, 35(1), 1-15.
- Young, A. (2003). The challenge to challenge: Shifting the motivational climate of the college classroom for enhanced learning. *College Teaching*, 51(4), 127 - 130.
- Wee, D.A., & Myers, D.G. (2013). Compassion satisfaction, fatigue, and critical incident stress management. *International Journal of Emergency Mental Health*, 5(1), 33-37.
- Widdowson, H. (1984). *Explorations in applied linguistics*. Oxford: Oxford University Press.

way? Yet, it is the safety of repeated experience called routine that the teachers want most when they begin teaching. Routine is what they have had by year six, ten, thirty.... So, are routine and experience the aim of their development as teachers or its end?

## References

- Bryman, A. N. (2004). *Social research methods*. Oxford: Oxford University Press.
- Chang, M. L. (2009). An appraisal perspective of teacher challenges: Examining the emotional work of teachers. *Educational Psychology Review*, 21, 193-218.
- Cipani, M. H. (2008). *Classroom management for all teachers*. New Jersey: Merrill Prentice Hall.
- Clandinin, D.J., & Connelly, F.M. (2000). *Narrative inquiry, experiences and story in qualitative research*. San Francisco CA: Jossey-Bass Publishers.
- Conrad, D.N., & Kellar-Guenther, Y.D. (2006). Compassion fatigue, challenges, and compassion satisfaction among Colorado child protection workers. *Child Abuse and Neglect*, 30 (10), 1071-1080.
- Culross, J.M. (2007). Why I teach. *College Teaching*, 52, 63-80.
- Davis, B.G. (2009). *Tools for teaching*. San Francisco, CA: John Wiley & Sons, Inc.
- De Bellis, M. D., Hooper, S. R., Woolley, D. P., & Shenk, C. E. (2009). Demographic, maltreatment, and neurobiological correlates of PTSD symptoms in children and adolescents. *Journal of Pediatric Psychology*, 35 (5), 570-577.
- Erickson, B.L., Peters, C.B., & Strommer, D.W. (2006). *Teaching first year college students*. Jossey-Bass: San Francisco.
- Figley, C. R. (Ed.) (1995). *Fatigue: Coping with secondary stress disorder in those who treat the traumatized*. Levittown: Brunner/Mazel.
- Figley, C. R. (Ed.) (2002b). *Treating fatigue*. New York: Brunner-Routledge.
- Fimian, M. J. (2014). Predictors of classroom stress and burnout experienced by gifted and talented students. *Psychology in the Schools*, 5 (4), 392-405.
- Gorman-Smith, D.N., & Tolan, P.T. (2010). The role of exposure to community violence and developmental problems among inner-city youth. *Development and Psychopathology*, 10 (1), 101-116.
- Hakanen, J.E., Bakker, A. B., & Schaufeli, W. B. (2006). Challenges and work engagement among teachers. *Journal of School Psychology*, 43,495-513.
- Henning, E., Van Rensburg, W., & Smit, B. (2004). *Finding your way in qualitative research*. Pretoria: Van Schaik Publishers.
- Killian, K. D. (2008). Helping till it hurts? A multimethod study of fatigue, challenges, and self-care in clinicians working with trauma survivors. *Traumatology*, 14(3), 32-44.
- Kyriacou, C., & Kune, R. (2007). Beginning teachers' expectations of teaching. *Teaching and Teacher Education*, 23, 1246-1257. <http://dx.doi.org/10.1016/j.tate.2006.06.002>
- Loughran, J. (2006). *Developing pedagogy of teaching education: Understanding teaching and learning about teaching*. London: Routledge.

chers who tried to see the student in his own frame of reference and thus consider him as someone unique.

### **Discussion**

Teaching is seeing each student as an individual with his/her individual difficulties. Teaching means having at one's disposal the right method and technique to cope with each individual difficulty and to act to the uniqueness of such difficulties with unique solutions. The best method would be the one which would answer best to all possible difficulties bring upon by a student, that is, not a method but an art and talent (Davis, 2009).

Useful teaching methods mean using methods not merely as techniques but being guided by perceptions of students. Such perceptions may be originated from humanistic principles such as empathy, caring and realness (Schwartz & Bransford, 2008). Conversely, methods employed sensibly in the classroom are often indicators for the presence of these principles.

Varying methods and procedures during a lesson show the teachers' concern and care for the well-being of their classes. Moreover, they have to look for the right fit between method and group. This is where the realness of the teacher is present. There has traditionally been a lot of research into the efficiency of teaching methods. With hindsight, such studies were not very conclusive (Murshidi, Konting, Elias, & Fooi, 2006).

It is the person who teaches and his/ her relationship to the method used that matters. The centrality of the teacher as a person has been pointed out by another author in the field of methodology. Kyriacou and Kune (2007) stress the importance of how method and the person of the teacher combine, "The methods someone uses are part of his everyday behavior and admittedly to varying degrees- part of his character" (p.1250).

The credibility of a method and its effectiveness depend on the confidence, credibility and motivation of the person using it. If the right balance between the individuality of the students, the individuality of the teacher, and the discipline imposed by the subject matter is struck, teaching can quite literally become valuable. Teaching can be carried out with such skill and grace that, for the student as well as for the teacher (Low, 2010)

Trying to capture such moments might well call for new approaches to classroom research. Young (2003) has argued for new qualitative forms of research. He does not want education to be assessed entirely in quantitative terms through experiments and with reference to pre-set objectives, but also in a qualitative, personal and artistic way. He has argued for a more person-oriented science that takes into consideration the interplay between the person of the scientist and the discovery.

The description of teaching as an art may be used to redefine the value of teachers' work, not least for teachers themselves. For those practicing it, of course, the art of teaching is a starting place of professional esteem and enjoyment. People who have not gone through the experience of teaching can have little idea of what it is like to have taught well.

### **Conclusion**

Teaching experience can be something alive or something dead. It can be something that is renewed step by step or a fossil. How often has the expression "In my experience" been employed to say "I've seen it all, I've tried it all, forget it?" How many new ideas have been cut short in this

tricks of the trade and that teachers should be provided with empirically tested recommendations. There has been a certain shift of emphasis since Schon (1983) argued that what is needed for successfully coping with the uniqueness and flux of situations of professional practice is more than straight deductions from scientific disciplines. One of the school teachers declared that:

It is no accident that professionals often refer to an 'art' of teaching or management and use the term artist to refer to practitioners unusually adept at handling situations of uncertainty, uniqueness, and conflict.

In the wake of such renewed interest in practical action, according to one of the university teacher's experience:

.....studies have sought to understand teachers on their own terms and in their own language by attempting to elicit often implicit and only partially articulated elements of teacher knowledge that guide teachers' actions in specific contexts.

Norman and Feinman-Nemser (2005) have very overtly put forward the notion of teaching as an art. They consider teaching to be an art in the sense that teachers like painters, composers, actresses, and dancers, make judgments based largely on qualities that unfold during the course of action... The ends they achieve "are often created in progress" (Norman & Feinman-Nemser, 2005, p.690). To express his opinion, a university teacher argued:

The qualities unfolding in the course of action are part of what makes the teaching situation exceptional and limitless. Only now uncertainty and uniqueness are no longer seen as a disturbance or a threat, but rather as the material on which the art of teaching can be practiced. Teaching as an art can be seen as a refinement of these skills.

It means being able to incorporate the unforeseen while not losing the general structure of a lesson or in one of a school teacher's description, "Sometimes carefully made plans are thrown out of the window with the intention of responding to one of the fleeting opportunities that classroom life offers".

There are two requirements for being able to respond artistically to these opportunities. First, the flexibility needed to react to the unforeseen can only come from a broad repertoire of responses accessible to the teacher. Melnick and Meister (2008) point out that experienced teachers' knowledge and skill are, at least partly because of the sheer quantity of practice they get throughout their careers.

Secondly, the 'fleeting opportunities' of the classroom can only be used if they are observed. In this case, the teacher's perceptions and powers of observation play a fundamental role. Schon (1983) reports on an experiment with teachers during which they suddenly documented a new quality in a student. The teachers used a video recording to observe two students on a video recording. The students were involved in solving a task. One of the students had the wrong solution and the teachers, hence, considered him as the less able student. The key moment in the observation took place when the teachers discovered that it was an unimportant error that was at the base of the wrong solution. Furthermore, this error had not been his. A new picture of the student now started to emerge. It became clear that he was actually showing considerable ability in trying to bring together the preconceptions and arrived at a new perception of the student.

Finally, the aforementioned example might be seen as a way to describe the attitudes of the tea-

new concepts and teaching ideas. Theory, and especially teacher training, would benefit from a personal experience of the situation in which innovations and teaching suggestions are supposed to work. If one year's experience 30 times is not what we want for teachers, then neither is one year's experience 30 years ago for those who train them.

“The other query about the teacher-as-researcher model is that even if teachers do become involved in research, the teaching is still there to be done” asserted one of the university teachers. Another university teacher added, “Moreover, the fundamental differences between teaching and research remain. The aims, methods and priorities of research are legitimate in their own right, but they differ from those of teaching”.

Research is about experimentation, about proving and disproving hypotheses. Teaching has other priorities. This is not to say that it could not profit from basing itself on theoretical reflection. How the outcome of such reflection translates into practical action is, however, a more indirect and complex process than that suggested by a concept like ‘application’. Theory probably affects practice via attitudes, notions and metaphors. The latter have recently attracted research interest (Malcolm, 2014).

Knowledge of findings in the field in second language acquisitions might, for instance, change a teacher's attitude towards students' mistakes-a change badly needed at a time when school teaching is still almost exclusively concerned with taking off marks for mistakes in verb endings. Notions and metaphors generated by research such as ‘fluency /accuracy’ or ‘learning/acquisition’ might inspire the hundreds of decisions a teacher makes in the course of a school day. If the danger of theories and metaphors becoming dogma is prevented they might provide the teacher in the classroom with a measure of critical distance from the constraints and rules imposed by the institution (Smith & Smith, 2012).

Since research is an expression of interest in its own, it might also lead to more empathy, provided its ‘subjects’ are really seen as humans. Theory and research might affect attitudes and attitudes are, as we have seen, a fundamental ingredient for good teaching. A school teacher stated that:

Good teaching, however, is more than using the right, the empirically proven method (if we neglect, for a moment, the question of whether such a proof really exists). It needs immediate reactions, a light touch, wit, humor, and U- turns at the right time.

Many of these do not come easily to the well-ordered world of empirical research. It is for these reasons that it is necessary to turn to the notion of teaching as an art.

#### **4 - Teaching as an art**

Teaching as an art is a concept belonging to bygone days. It appears in publications written decades ago (Loughran, 2006). ‘Scientific’ approaches to language teaching have since been the model in the field and have, not unexpectedly, looked with suspicion at the notion of teaching as an art. Cipani (2008) wrote, “Linguistics is a science, teaching is an art” (p.50). This may sound like equal partnership, but a closer look reveals that the teacher's art is seen as little more than attention to minor details, because it is only for ‘fine detail’ (Moore-Russo & Wilsey, 2014) that the teacher's classroom experience should be followed. Culross (2007) in a major study of the role of materials in teaching beginners, state as one of their aims that teaching should no longer have to rely on

musical activity would stand a high chance of having an educating effect on students when this teacher would return to the classroom.

Returning from a year out would also mean returning from a world that is different from school. There is the quest for reality. Preparation for reality can only come from those who have experienced it themselves, thus, from those who have, once in a while, left the world of the classroom. One of the school teachers stated:

In one school where I was trained, there was a teacher for whom teaching was, after a career as a photographer and as a graphic designer his third profession. He was said to have singularly few difficulties with students. He was about fifty and apparently suffering from none of the usual syndromes of the profession. His example shows that a difference in age need not necessarily lead to alienation. Both the young and the experienced teacher have something to offer students.

Moreover, another school teacher claimed that:

They want a teacher rather than a friend. Much as I objected at the time, I have found a grain of truth in this. Teachers are of interest to students exactly because they are different, because they represent a different, new and outside experience (provided they have had this experience).

Keeping the lines open and being able to communicate this experience probably requires greater effort in year ten, twenty..... than it does in year one. However, if the encounter between the two worlds takes place in an atmosphere governed by attitudes of trust, respect and interest, it may well succeed.

Good relations with students are, of course, not only a matter of a good atmosphere. They are also a matter of good teaching. Good teaching is what all teachers want to turn to, because it is a source of professional enjoyment and self-esteem, and might also serve to reverse the vicious circle mentioned earlier.

## **2 - The role of research**

How can teaching be improved? One obvious source of improvement would be research. There is a hierarchical and hence somewhat uneasy relationship between research and teaching. A number of suggestions have been made as to how research could help in the renewal of language teaching in schools. Widdowson (1984) has made a case for the 'incentive value' of theory and research and would like to see more teachers in the role of researchers. Projects in curriculum renewal no longer see teachers as mere implementers and envisage a more active role for them. Moreover, he has presented an extensive study on the potential of teacher-initiated research.

All the teachers' suggestions aim at making the relationship between theory and practice more dynamic. This is certainly a step forward. "However, I sometimes wonder, since it is considered desirable to have teachers in the role of researchers, if it might not be equally desirable to have researchers as teachers" claimed a university teacher. Another university teacher expresses his opinion as follows:

Research has unfortunate tendency (unfortunate for those at schools) to help researchers graduate out of the classroom. Both theory and practice could profit from an exchange taking place in both directions. Schools would benefit from personal and firsthand experience of

### **3 - Age gap**

Isolation is one stress factor of the job. Isolation gets worse once the age gap between the students and the teachers broadens. Young teachers, it is said, find it easier to relate to young people. "The lines between them and me used to open," one teacher commented, "now they are closed." Many university and schools teachers (20 university and school teachers out of 25) have shown that age difference has become a factor defining social identity being the younger generation and who, for this reason, once related well to students, must find themselves isolated when, today, they are confronted with a younger generation whose outlook and values are totally different. Teachers have occasionally felt this gap.

### **4 - Lack of a sense of purpose and value**

No longer having a line open to the 'clientele' means there is no feedback, in particular no positive feedback. We do not know about the social status of teachers in other countries, but in ours it is, according to recent surveys, low. Education has been in and out of political favor. "It was once seen as a key to solving the problems of a society" one of the school teachers claimed. "As the attitude towards virtually all professionals has become more critical, it has also become more critical towards teachers" added another university teacher. "I have frequently had to defend myself and what I was doing not although but because I was a teacher" complained one of the school teachers. Still, another university teacher stresses the need to "build pride in the much-maligned profession of teaching". Lack of appreciation sooner or later results in lower motivation. This in turn leads into a vicious circle. Enjoyment of teaching depends to a considerable degree on preparation and emotion. If less and less is invested in the job, the job gets less and less enjoyable, which then leads to even less investment. "Sustaining the momentum and enthusiasm of a class of adolescents is not an easy task at the best of times. It is an impossible one for those who lack enthusiasm and zeal themselves" argued one of the university teachers.

What is described here is not a theoretical problem. It is a problem for all concerned, because challenges of the teacher are also problems of student motivation. The question to be addressed in the remainder of this part is how this negative cycle can be broken and turned into a positive one, the recommended solutions.

#### **1. Teachers' career structure**

Some teachers might have the luck to be able to take an extended break from teaching. In this case, they return to the job refreshed. The routine they still have from teaching years together with some new perspectives would make teaching a much more enjoyable experience that it would have been otherwise. The question of whether teachers should be given breathing space beyond their summer holidays is worth serious consideration. There are some educational systems which consider sabbaticals necessary not only for university teachers but also for school teachers. This may sound like asking a lot. Many (university and school) teachers said that they are aware of the practical and financial difficulties involved (although it would be worth looking in comparison at the cost of teachers health problems, including early retirement). Apart from counteracting health problems, a sabbatical would be an opportunity for renewal. It needs not be a course in teaching methodology. Whatever has an educating effect on teachers, especially any artistic, theatrical and



<u>Recommended solutions</u>	<u>Frequency (number of teachers)</u>
Teachers' career structure	23
The role of research	25
Teaching as an art	22

The researcher in this study is going to consider the common challenges and the recommended solutions in the light of the ideas and observations put forward in this article by the school and university teachers who were asked the two questions.

### **1 - Physical strain**

It is undisputed that teaching pushes many teachers to their limits and, in the course of their career, drains them of the best part of their eagerness. Nor has the task become easier. One of the school teachers claimed:

It seems a reasonable hypothesis that teaching in the public and the private systems over the past few decades has become more demanding, in the sense of being more complex, more open-ended, and placing more responsibility on the individual teacher and the immediate work group. It also seems likely that the shape of the pressures on teachers has changed, from a situation where the main pressure comes from an extremely hierarchical management, to one where the main pressure comes from a much more varied and much less submissive clientele.

Experienced teachers are subject to much the same pressures as beginners. They might react more properly. In terms of physical health, however, they may be even more at risk, because of their age and because they have too often trained themselves to pay no heed to physical symptoms of stress. Challenge has become a fashionable term. One of the university teachers described what it means for teachers:

After one to two decades they have reached their limit. This happens at an age which is commonly taken to be the climax of professional performance, achievement, experience and power.

### **2 - Monotony and repetitiveness of the job**

Work at school is bound to be repetitive, because it is cyclical in nature. The week's timetable repeats itself. So, deceptively, do the generations of pupils. "It is Monday morning and 10.20, so it must be 6a", said one of the school teachers. Three university teachers have argued that the time slots distributed evenly over days and weeks lead teachers to expect that nothing new will happen within each slot, no matter how different the situation might be. Another school teacher said: "As a parent you experience adolescence once, as a teacher thirty times". What was a special event in year one becomes all but boring in year six, seven, eight..... Never mind year ten, twenty,...

Add the often negative encounters with classes, parents, colleagues and superiors, and it is no longer surprising that teachers shield themselves from their work. After a certain measure of disappointment and annoyance at school and the university, the natural reaction is one of inner emigration: blank out everything connected with school and university, immunize yourself against it. Needless to say this is hardly a productive ground for new ideas.

subject experts who checked their relevance and suitability. Then, they were subjected to a pilot study to decrease their ambiguity and raise their validity. The rationale behind the two questions is to emphasize teachers' opinions about the challenges and the recommended solutions.

### **Participants**

In the study, opinions of 25 teachers from different Bekaa schools and universities (public and private - 12 university teachers and 13 school teachers) were collected through semi-structured interview questions. While selecting the research group, convenient sampling method was used. Instead of working with small groups it was decided to include different teachers in order to see how they see this issue and whether they are aware of the existing problems. Teachers were primarily informed about the study and were asked to give their opinions concerning the two research questions. Finally, the researcher did not reveal the names of the teachers while citing their opinions.

### **Data gathering and analysis**

The data were collected and the teachers were informed about the study and asked to answer the two questions prepared. They were asked to provide their answers in writing. The collected data were analyzed and similar opinions were grouped together. While preparing the questions, the relevant literature was reviewed and the draft questions were written. Questions were selected and organized based on expert opinions. The prepared questions were then examined by assessment and evaluation experts. Teachers were asked two questions on the problems in and solutions to teaching.

In analyzing the data collected, the researcher employed the 'descriptive analysis', which is among qualitative data analysis techniques. The answers to the two questions were analyzed and the most important problems faced in teaching and possible solutions were given as two separate topics and shown in tables based on their frequencies taking into consideration the opinions of the teachers.

### **Results**

#### **Common challenges encountered in teaching and recommended solutions**

The opinions of the teachers in the universities and the schools in Bekaa on the challenges encountered in teaching and the collected findings were analyzed. The findings from the data regarding the common challenges are given in Table 1:

<b><u>Common challenges</u></b>	<b><u>Frequency (number of teachers)</u></b>
Physical strain	24
Monotony and repetitiveness of the job	23
Age gap	20
Lack of a sense of purpose and value	21

Table 1: Common challenges encountered in teaching based on teachers' opinions

Secondly, the opinions of the teachers towards the measures to be taken in teaching are examined and the relevant findings are presented in Table 2:

that other environmental variables may influence the significance that teachers attribute to quantitative job demands. This leads to another factor, workload.

### **Workload**

Workload is a broad concept that can be used to describe a wide range of job-related tasks, from the size and qualities of one's caseload (or classroom) to the amount of job responsibilities that one is charged with. Research found that task burden, operationalized as administrative and other non-therapy tasks, was a major predictor of fatigue and different types of challenges (De Bellis, Hooper, Wooley & Shenk, 2009). In the context of teaching, issues pertaining to discipline and motivation relate to student behavior inside the classroom. While the impact of student behavior on the development of reactions in educators has not yet been experimentally explored, research has suggested that repeated attempts to discipline and to motivate students is a significant source of stress that may contribute to fatigue as a main problem. For example, in a study of 132 secondary school teachers in South Africa, Olivier and Venter (2003) utilized a questionnaire and the Teacher Stress Inventory to determine that stress related to the discipline and motivation of students was significantly related to job challenges. Nevertheless, the researchers did not use a reliable, validated measure of challenges, and as such it is not possible to know that the teachers' symptoms were indicative of different kinds of stress. More research is needed to investigate the potential relationship between student behavior in the classroom and fatigue in teachers (Chang, 2009).

Workload, also considered to be a quantitative job demand in different studies, encompasses the issues of class size, teaching-related tasks, and administrative paperwork (Fimian, 2014), and has been strongly related to challenges faced by educators (Killian, 2008). Teachers of larger classes tended to view their students more impersonally and show greater degrees of depersonalization. Likewise, class size can be considered as a primary factor in teacher challenges and abrasion (Tonder & Williams, 2009). In addition, perceived work overload has also been clearly associated with occupational problems in teachers (Hakanen et al., 2006).

### **Methodology**

In this section, the researcher offers information regarding the research design, participants, data gathering tool and data analysis. This study is a case study, one of qualitative research patterns. A case study is used to disclose the existing cases as they are and facilitates analyzing an uncontrolled case or fact based on the questions (Phillips, 2013).

### **Research Design**

In using a qualitative research design, the researcher targets interpretations (Bryman, 2004) that teachers attach to their teaching practices. Consequently, the explorative approach to the experiences of teachers is based on their daily interactions in teaching and learning. A narrative research offers an opportunity to appreciate and represent the lived experiences of the research participants in order to answer questions of meaning, experience and social significance (Clandinin & Connelly, 2000). This research presents 'lived experiences' through narratives. The narrative option enables understanding teachers' individual challenges. This aligned with the claim by Henning, Van Rensburg, and Smit (2004) that knowledge is not only constructed by observable phenomena but also by relating people's opinions, beliefs, values and reasons. In addition, this study uses a qualitative approach that uses research methods designed to discover what challenges teachers are faced with regarding teaching and to suggest solutions.

The two questions of the study, despite the fact that they are direct and simple, were given to

commitment that he observed among the employees in his workplace (Schaufel et al., 2009). Based on his observations, Freudenberger theorized that excessive work demands had the potential to use up the energy and resources of staff members, and proposed that over-commitment and over-dedication were the primary risk factors in job challenges and fatigue (Schaufeli et al., 2009; Smith & Smith, 2012). Maslach et al. (2001) defined the fatigue as a syndrome of emotional exhaustion, cynicism, and negative self-appraisal that develops in individuals who are in 'people-work' of some kind.

### **Dimensions of challenges**

Of the many dimensions of the challenges, physical strain has been the most reported and widely analyzed. However, exhaustion alone does not confine the full spectrum of the phenomenon; it is viewed as a motive for a sequence of psychological events. It is hypothesized that the second component of which is lack of a sense of purpose and value, is an endeavor to cope with exhaustion by putting emotional distance between oneself and other people. It might be reduced to personal accomplishment which is characterized by a sense of impotence in one's work with others (Maslach et al., 2001).

Not everyone who confronts stressors at work experiences challenges; rather, it comes into view that the interaction between the person and their environment contributes to the development of many symptoms. However, these symptoms appear to have a stronger connection to environmental factors than to personal characteristics. Studies exploring the role of demographic factors, such as gender, ethnicity, marital status, age, and years of experience in the development of many challenges for teachers have given way largely to insignificant or contradictory results, with a few exceptions (Maslach et al., 2001; Conrad & Kellar-Guenther, 2006).

Furthermore, the apparent connection between years of experience and educator challenges warrants additional exploration. As noted by Maslach et al. (2001), the collection of symptoms among younger workers raises questions about the supposedly gradual and progressive nature of challenges. Survival bias has been given part of the explanation; specifically, individuals who face challenges early in their career are more likely to quit the profession, leaving behind 'survivors' who show evidence of few signs of problems (Stones, 1992; Maslach et al., 2001).

Moreover, perceptions of student misbehavior and lack of motivation have been consistently identified as noteworthy sources of teacher stress and challenges. Managing student behavior has been the strongest predictor of emotional fatigue and depersonalization - two dimensions of challenges - in teachers. In terms of student motivation, the perception of students' lack of motivation has predicted stress in teachers who have related poor motivation to factors that are outside of their control (Tonder & Williams, 2009; Wee & Myers, 2013).

### **Time management**

However, time management refers in part to a teacher's ability to effectively sustain a balance between their personal and professional lives (Fimian, 2014). It can be another source of challenges. Time management includes quantitative job demands, which refer to the degree to which a worker is expected to do too much in too little time (Erickson, Peters, & Strommer, 2006). Quantitative job demands have been proved to be strongly predictive of a variety of symptoms in teachers (Gorman-Smith & Tolan, 2010; Meadors, Lamson, & Swanso, 2009). However, the research shows

Bekaa and the solutions to these problems based on school and university teachers' opinions. To this end, answers to the following research questions are investigated:

- 1- What are the challenges encountered in teaching in your university/school?
- 2- What are your recommended solutions?

## **Literature Review**

### **Different types of stressors**

Due to their chronic exposure to stressors correlated to the teaching environment, educators are at risk of facing many challenges. The stressors linked to teacher result from prolonged exposure to organizational issues such as time management, workload, discipline and motivation in the classroom (Tonder & Williams, 2009). The three distinguishing symptoms are physical strain, monotony and repetitiveness of the job, age gap, lack of a sense of purpose and value (Maslach, Schaufeli, & Leiter, 2001). These center signs are typically accompanied by a cluster of additional symptoms, which may include depression, anxiety, lowered self-esteem, somatic complaints, absenteeism, and turnover intentions (Maslach et al., 2001; Killian, 2008). Such symptoms are typically serious and difficult to treat, and may necessitate that an individual leave their job or career (Figley, 2002b).

### **Professional distress**

In teachers, professional distress that is related to a perceived lack of respect, status, salary, recognition, promotion, and advancement opportunities has been associated with high levels of overall stress in educators (Fimian, 2014). The construct of social support is one of the most commonly explored variables in studies of work-related stress, and has been found to play an essential protective role in the development of fatigue and teaching problems (Figley, 1995).

In addition, professional distress in educators shows a relationship to an apparent lack of status, salary, recognition, promotion, or advancement opportunities (Fimian, 2014), and shows a strong association with stress and challenges. Challenges would be related to a perceived lack of reciprocity on the part of students (e.g., student progress and gratitude) and the organization (e.g., promotion, recognition, and advancement). Only the lack of organizational reciprocity is related to burnout in educators. Insufficient salary, poor promotional prospects, and lack of recognition for good teaching predict stress and challenges in all teachers (Maslach et al., 2001; Schaufeli, Leiter, & Maslach, 2009).

### **Social support**

Social support has been conceptualized as a 'condition resource' that can increase a helper's sense of competency and control, provide a secure and respectful environment, present emotional and instrumental support, and help individuals to feel understood and accepted (Wee & Myers, 2013). Stamm (2002) highlighted the importance of colleague support in decreasing the negative effects of working, asserting that consulting with colleagues can "increase competency, offer opportunities for direct control, or enhance the professional's ability to understand and interpret feelings about the situation" (p.181).

In 1974, Freudenberger, a psychiatrist utilized in an alternative community health care institution was the first to describe the pattern of mental exhaustion, loss of motivation, and reduced

# **Teachers' Common Challenges and Recommended Solutions in Bekaa Schools and Universities: A Case Study**

**Dr. Janet Ayoub Al Maalouf**

## **Abstract**

Teaching has long been distinguished as a demanding profession, even in the most favorable circumstances. It is an extraordinary life experience - a volatile, highly charged, emotionally draining, physically fatiguing experience for even the most knowledgeable, experienced teacher. Besides, the working surrounding is typically far from ideal. The primary purpose of the current study is to examine the critical issue of the common challenges and some suggested solutions as they relate to teachers. The opinions of twenty-five university and school teachers were sorted by their frequencies and the findings obtained were interpreted. The researcher came out with four common challenges and three recommended solutions.

Key words: university teachers, school teachers, common challenges, recommended solutions

## **Introduction**

Although educators are likely to face many problems on a regular basis, there is a scarcity of research exploring the psychological exposure in this population. Few studies have examined the influence teaching may have on the lives of teachers. A teacher's level of professional investment, as measured by the perception of his or her level of autonomy, control, and decision-making abilities, has been shown to be considerably related to the challenges he/she faces. Teachers who are given a voice in the decision-making process and are encouraged to think creatively encounter fewer problems in teaching. These factors, in conjunction with suitable supplies and recognition for a job well done, contribute to a perception of less overall stress. Limited participation in decision-making, a lack of perceived freedom and autonomy, and inconsistent reward and punishment structures are associated with many teaching challenges.

## **The purpose of the study**

The purpose of this study is to investigate challenges teachers in Bekaa are encountering and recommend possible solutions in an effort to enhance effective teaching and learning which would terminate into good performance.

## **The significance of the study**

The importance of this study derives from the fact that it puts forth problems encountered in education and recommends solutions in line with the opinions of educators (university and school teachers in Bekaa).

## **The research questions**

The main objective of this study is to analyze the common challenges encountered in teaching in

.....

**Informed Consent**

I have discussed the above procedures with \_\_\_\_\_ and elaborated the way the interview will proceed. I have asked more questions on whether there are any more questions, and have provided answers the best way I can.

\_\_\_\_\_  
Signature of Researcher Date

I comprehend this study's purposes and process. I also understand that I am not forced to take part in the study, and can withdraw from the research whenever I feel like.

\_\_\_\_\_  
Signature of Participant Date

**6. What are the major challenges that impede the integration of BL in higher learning?**

- a. What challenges have you grappled with while trying to implement blended learning at your institution? Describe four major ones if any.
- b. Do all instructors at your institution have information on how to embed BL into learning?
- c. What external constraints have affected BL institutional decisions?
- d. What are the major challenges/difficulties that you have experienced or could you predict that you would face in implementing BL?
- e. Can you provide a description of the last experience you had while combining online learning with the traditional face-to-face teaching?
- f. What motivates or discourages you from using BL in the future?

**Appendix B: Consent Form (Adapted from Boelens, R., Voet, M., & De Wever, B. (2018). Computers and Education)**

Dear \_\_\_\_\_,

Thank you for the interest in this research article on the integration of blended learning into higher education and determining whether such integration can enhance teaching practice as well as learning outcomes. You have been chosen as one of the participants in this research article. The following information can help you make a sound decision on whether you wish to take part in the research or not. In case you have any questions, contact me at [education911@gmail.com](mailto:education911@gmail.com)

**Research study: Improving Learning Outcomes in Higher Education through Blended Learning**

**Purpose of the study:** This study seeks to investigate how BL can be integrated into higher learning to improve learning outcomes and quality. The article also seeks to understand and analyze perceptions and experiences of instructors who directly take part in BL. It is to enhance understanding of BL and enable policy makers as well as administrators to improve education.

**Process:** You are requested to take part in three interviews which will take about 90 minutes. The interviews will be carried out in Fall 2018, at a place and time more convenient for you. The interviews will not in any way disrupt the learning or teaching of your learners or the responsibilities bestowed upon you. Also, these interviews will be recorded and you will be asked various questions to enable you to share your perceptions and experiences of the BL platform in your institution.

**Benefits and Risks:** This research does not have any known risk. Information collected from the study will be applicable to both policy and practice.

**Confidentiality:** Be assured that your confidentiality will be maintained in all situations. A pseudonym will be assigned to you and you will be referenced in all the documents and interview transcripts using this pseudonym. Physical artifacts, including interview transcripts, written notes as well signed consent forms will only be accessed by the researcher.

**Freedom to Withdraw:** At any time you want, you are free to withdraw from the study for any reason. When withdrawing, all the digital and physical artifacts that you will have provided will be destroyed.

**Contact person:** Please feel free to contact me through [education911@gmail.com](mailto:education911@gmail.com) < [mail-education911@gmail.com](mailto:education911@gmail.com) > in case you have any questions.

Yours sincerely,



**Part A: Personal Details related to the research**

- i. For how long have you been working at this institution?
- ii. For how long have you used BL in your classes?
- iii. When was BL integrated into the institution?

**Part B: Questions**

*1. How has your institution embedded BL into its courses?*

- a. How did BL get started at your institution?
- b. How did your school transition from an awareness and exploration of blended learning to its formal adoption and implementation?
- c. Why has your institution failed to embed BL into its programs?
- d. In what ways would you like to see BL embedded into your learning programs?
- e. What is your feeling about BL as a new learning approach?

**2. To what extent do instructors understand the concept of BL in higher learning?**

- a. What is your understanding of the term blended learning?
- b. What is the definition of BL in your institution?
- c. Is the definition of blended learning clear to you and your learners?

**3. What have been the impacts of BL in higher education quality?**

- a. Has blended learning been beneficial for your institution?
  - i. If yes, state three ways. \_\_\_\_\_
  - ii. If no, why is that the case? \_\_\_\_\_
- b. State three reasons you would recommend the use of BL in higher learning from your experiences:  
\_\_\_\_\_

**4. What is the effect of BL on your work in the university?**

- a. What is the main objective of embracing BL at your institution?
- b. In what ways has BL impacted pedagogy?
- c. In what ways has BL impacted your flexibility?
- d. What is the effect of this new learning approach in your teaching practice at the university?

**5. How should supportive technologies support the traditional face-to-face learning?**

- a. Does your institution have a strategy for implementing BL? If so, what is involved in this strategy?
- b. Did your institution integrate its BL approach to the culture of the university? In what way?
- c. What supportive role is provided for implementation of BL into courses/programs in your institution?
- d. Have you been consulted about the integration of BL into courses/programs? What was the level of these consultations?
- e. Are there strategies for measuring your implementation progress?
- f. Could you kindly share the things that enable you to use this new learning approach?

technology-in-learner-centered-design-through-blended-learning-in-post-secondary-education/199234

Schultz, D., Duffield, S., Rasmussen, S. C., & Wageman, J. (2014). Effects of the Flipped Classroom Model on Student Performance for Advanced Placement High School Chemistry Students. *Journal of chemical education*, 91(9), 1334-1339. Retrieved from <https://pubs.acs.org/doi/abs/10.1021/ed400868x>

Shute, V. J. (2017). Tensions, trends, tools, and technologies: Time for an educational sea change. In *The Future of Assessment* (pp. 139-187). New York: Routledge. [http://myweb.fsu.edu/vshute/pdf/shute%202006\\_b.pdf](http://myweb.fsu.edu/vshute/pdf/shute%202006_b.pdf)

Silverman, D. (Ed.). (2016). *Qualitative research*. Thousand Oaks, CA: Sage. <http://blogs.ubc.ca/outofplace/files/2013/09/Silverman-2011-Ch-3.pdf>

Smith, J. A. (Ed.). (2015). *Qualitative psychology: A practical guide to research methods*. Thousand Oaks, CA: Sage. [http://psy.au.dk/fileadmin/site\\_files/filer\\_psykologi/dokumenter/CKM/NB35/smith.pdf](http://psy.au.dk/fileadmin/site_files/filer_psykologi/dokumenter/CKM/NB35/smith.pdf)

Taylor, S. J., Bogdan, R., & DeVault, M. (2015). *Introduction to qualitative research methods: A guidebook and resource*. Hoboken, NJ: John Wiley & Sons. [http://www.elfhs.ssruc.ac.th/pokkrong\\_ma/pluginfile.php/50/block\\_html/content/%5BTaylor%2C%20Steven%3B%20Bogdan%2C%20Robert%3B%20DeVault%2C%20Marjorie%28b-ok.org%29.pdf](http://www.elfhs.ssruc.ac.th/pokkrong_ma/pluginfile.php/50/block_html/content/%5BTaylor%2C%20Steven%3B%20Bogdan%2C%20Robert%3B%20DeVault%2C%20Marjorie%28b-ok.org%29.pdf)

Tseng, H. and Walsh E. (2016). Blended Versus Traditional Course Delivery Comparing Students' Motivation, Learning Outcomes, and Preferences. *The Quarterly Review of Distance Education*, 17(1), 43-52. [http://www.academia.edu/24595866/Tseng\\_H\\_and\\_Walsh\\_E\\_J\\_2016\\_.Blended\\_vs\\_.Traditional\\_Course\\_Delivery\\_Comparing\\_Students\\_Motivation\\_Learning\\_Outcomes\\_and\\_Preferences\\_.Quarterly\\_Review\\_of\\_Distance\\_Education\\_17\\_1\\_](http://www.academia.edu/24595866/Tseng_H_and_Walsh_E_J_2016_.Blended_vs_.Traditional_Course_Delivery_Comparing_Students_Motivation_Learning_Outcomes_and_Preferences_.Quarterly_Review_of_Distance_Education_17_1_)

Taylor, M., Vaughan, N., Ghani, S. K., Atas, S., & Fairbrother, M. (2018). Looking Back and Looking Forward: A Glimpse of Blended learning in Higher Education From 2007-2017. *International Journal of Adult Vocational Education and Technology (IJAVET)*, 9

UCF (2018). *Blended Learning Toolkit*. <http://blended.online.ucf.edu/>

Van Merriënboer, J. J., & Kirschner, P. A. (2017). *Ten steps to complex learning: A systematic approach to four-component instructional design*. New York: Routledge. <http://web.mit.edu/xtalks/TenStepsToComplexLearning-Kirschner-VanMerrienboer.pdf>

## Appendices

### Appendix A: Interview Protocol Guide and Questions

I would like to thank you for participating in this study in order to make it a success. The purpose of this research article is to explore how BL can be embedded into higher learning to enhance the quality and outcomes of learning. Apart from asking about understanding the current status of BL, the questions will also seek to ask about any alterations of evolutions that have taken place. The focus of this interview is to draw insights from your valuable experiences and opinions. I am only looking for your responses and would like you to grant me permission to audio-record the interview. I promise to keep all your information confidentially as indicated in the consent form that we just signed.

Hunt, H. D., Davies, K., Richardson, D., Hammock, G., Akins, M., & Russ, L. (2014). It is (more) about the students: Faculty motivations and concerns regarding teaching online. *Online Journal of Distance Learning Administration*, 17(2), 62-71. [https://www.westga.edu/~distance/oj-dla/summer172/Hunt\\_Davies\\_Richardson\\_Hammock\\_Akins\\_Russ172.html](https://www.westga.edu/~distance/oj-dla/summer172/Hunt_Davies_Richardson_Hammock_Akins_Russ172.html)

Johnson, L., Becker, S. A., Cummins, M., Estrada, V., Freeman, A., & Hall, C. (2016). *NMC horizon report: 2016 higher education edition* (pp. 1-50). The New Media Consortium. <https://www.sconul.ac.uk/sites/default/files/documents/2016-nmc-horizon-report-he-EN-1.pdf>

Latif, S. W. A., Matzin, R., Jawawi, R., Mahadi, M. A., Jaidin, J. H., Mundia, L., & Shahrill, M. (2017). Implementing the Flipped Classroom Model in the Teaching of History. *Journal of Education and Learning (EduLearn)*, 11(4). <http://www.journal.uad.ac.id/index.php/EduLearn/article/view/6390>

Matheos, K., & Cleveland-Innes, M. (2018). Blended Learning: Enabling Higher Education Reform. *Revista Eletrônica de Educação*, 12(1), 238-244. DOI: 10.14244/198271992524

Ministry of Higher Education, Lebanon (2015). [http://www.higher-edu.gov.lb/arabic/privuniv/personal\\_univ.html](http://www.higher-edu.gov.lb/arabic/privuniv/personal_univ.html)

Mouyabi, J. S. M. (2011). Higher education in the wake of new ICT: reaping benefits or creating more problems through e-learning? *South African Journal of Higher Education*, 25(6), 1178-1189. <https://eric.ed.gov/?q=Higher+education+in+the+wake+of+new+ICT%3a+reaping+benefits+or+creating+more+problems+through+e-learning%3f+South+African+Journal+of+Higher+Education%2c&id=EJ967799>

Neuman, W. L. (2013). *Social research methods: Qualitative and quantitative approaches*. New York: Pearson Education. [http://letrunghieutvu.yolasite.com/resources/w-lawrence-neuman-social-research-methods\\_-qualitative-and-quantitative-approaches-pearson-education-limited-2013.pdf](http://letrunghieutvu.yolasite.com/resources/w-lawrence-neuman-social-research-methods_-qualitative-and-quantitative-approaches-pearson-education-limited-2013.pdf)

O'Flaherty, J., & Phillips, C. (2015). The use of flipped classrooms in higher education: A scoping review. *The internet and higher education*, 25, 85-95. <https://i.unisa.edu.au/siteassets/staff/tiu/documents/the-use-of-flipped-classrooms-in-higher-education-a-scoping-review-oflaherty-and-phillips.pdf>

Okaz, A. A. (2015). Integrating B.L in higher education. *Procedia-Social and Behavioral Sciences*, 186, 600-603. DOI: 10.5267/j.msl.2016.11.001

Ozdamli, F., & Asiksoy, G. (2016). Flipped Classroom Approach. *World Journal on Educational Technology: Current Issues*, 8(2), 98-105. <https://eric.ed.gov/?id=EJ1141886>

Porter, W. W., Graham, C. R., Bodily, R. G., & Sandberg, D. S. (2016). A qualitative analysis of institutional drivers and barriers to B.L adoption in higher education. *The internet and Higher education*, 28, 17-27. <http://daneshyari.com/article/preview/357699.pdf>

Owston, R., York, D., & Murtha, S. (2013). Student perceptions and achievement in a university B.L strategic initiative. *The Internet and Higher Education*, 18, 38-46. <https://eric.ed.gov/?id=EJ1007158>

Reid, D., & Ewing, J. (2018). Placing Technology in Learner-Centered Design through Blended Learning in Post-Secondary Education. In *Online Course Management: Concepts, Methodologies, Tools, and Applications* (pp. 630-645). IGI Global. <https://www.igi-global.com/chapter/placing->

Buran, A., & Evseeva, A. (2015). Prospects of Blended Learning Implementation at Technical University. *Procedia-Social and Behavioral Sciences*, 206, 177-182. <https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S1877042815051824>

Collins, A., & Halverson, R. (2018). *Rethinking education in the age of technology: The digital revolution and schooling in America*. New York: Teachers College Press. <https://llk.media.mit.edu/courses/readings/Collins-Rethinking-Education.pdf>

Creswell, J. (2013). *Qualitative inquiry and research design: Choosing among the five approaches*. Thousand Oaks, CA: SAGE Publications. <http://www.ceil-conicet.gov.ar/wp-content/uploads/2018/04/CRESWELLQualitative-Inquiry-and-Research-Design-Creswell.pdf>

Dahlstrom, E., Walker, J.D., & Dziuban, C. (2013). ECAR Study of Undergraduate Students and Information Technology, 2013. Louisville, CO: EDUCAUSE Center for Analysis and Research. Retrieved on December 6, 2018 from <https://net.educause.edu/ir/library/pdf/ERS1302/ERS1302.pdf>

De Vriendt, M. (2015). Implementing Blended Learning, In the Form of a Learning Network, To Enhance Social Learning. *The Journal of Technology Enhanced Learning, Innovation & Change*, 1(1). <https://research.shu.ac.uk/ds/telic/index.php/telic/article/view/10>

Dziuban, C. D., Picciano, A. G., Graham, C. R., & Moskal, P. D. (2015). *Conducting research in online and blended learning environments: New pedagogical frontiers*. New York: Routledge. < Google books > .

El-Husseini, A. A., & Taha, A. (2018). B.L: The Possibilities of Benefiting from Others' Experiences and Problems of Implementations at the Lebanese University. *International Journal of HIV/AIDS Prevention, Education and Behavioural Science*, 3(6), 70. <http://article.sciencepublishinggroup.com/pdf/10.11648.j.ijhpebs.20170306.12.pdf>

Englund, C., Olofsson, A. D., & Price, L. (2017). Teaching with technology in higher education: understanding conceptual change and development in practice. *Higher Education Research & Development*, 36(1), 73-87. <https://doi.org/10.1080/07294360.2016.1171300>

Fraenkel, J. R., Wallen, N., & Hyun, H. (2011). *How to design and evaluate research in education* (8th ed.). New York: McGraw-Hill. <https://rezkyagungherutomo.files.wordpress.com/2016/09/how-to-design-and-evaluate-research-in-education.pdf>

Graham, C. R. (2013). Emerging practice and research in blended learning. In M. J. Moore (Ed.), *Handbook of distance education* (3rd ed., pp. 333-350). New York, NY: Routledge. [http://www.academia.edu/2068375/Emerging\\_practice\\_and\\_research\\_in\\_blended\\_learning](http://www.academia.edu/2068375/Emerging_practice_and_research_in_blended_learning)

Güzer, B., & Caner, H. (2014). The past, present, and future of blended learning: an in-depth analysis of literature. *Procedia-Social and Behavioral Sciences*, 116, 4596-4603. <https://www.sciencedirect.com/science/article/pii/S187704281401009X>

Halverson, L. R., Spring, K. J., Huyett, S., Henrie, C. R., & Graham, C. R. (2017). Blended Learning research in higher education and K-12 settings. In *Learning, Design, and Technology* (pp. 1-30). Springer, Cham. [http://www.academia.edu/32908377/Blended\\_Learning\\_Research\\_in\\_Higher\\_Education\\_and\\_K-12\\_Settings](http://www.academia.edu/32908377/Blended_Learning_Research_in_Higher_Education_and_K-12_Settings)

Hennink, M., Hutter, I., & Bailey, A. (2010). *Qualitative research methods*. Sage. <https://doi.org/10.1080/09581596.2011.565689>

## Future Research

Findings of this research article have implications for both learners and students. First, teachers ought to be developers, administrators, managers and promoters in order to optimize students' creativity and initiative. It will enable learners to become the planner, assessor, evaluator, advisor and organizer. Secondly, instructors should assist students to gain learning autonomy. There is need for this trend to change in order to assess its functioning in Lebanon. Insights can be gained from leading institutions that have embedded BL into their programs including the University of Central Florida. Because of a grant provided by the Bill and Melinda Gates Foundation, this university has been working hard to come up with its own Blended Learning Toolkit, which is a multi-faceted resource that provides plenty of information from strategies to materials for training staff and faculty (UCF, 2018). The institution has shared the benefits of BL after witnessing great success levels with such kinds of programs, with learners usually performing better in blended courses compared to traditional ones.

Hence, future research should explore the application of BL to existing language teaching and learning. It should also examine how to orient teaching strategies to enable students accustom to BL in a better way. There are, also, various important directions for more scholarship on blended learning. First, because of the ambiguity in the definition of blended learning (defined as any combination of online course components and in-person components), it appears reasonable to enquire what the maximum level of blending would be for a specific kind of course, program type, and type of student.

In other words, future research needs to address: What is the maximum combination of online versus in-person components? With this in mind, what is the optimal combination of active engagement versus didactic presentation activities? Because blended learning provides a combination of pedagogical techniques, students' engagement strategies, as well as delivery mechanisms, it would be beneficial for future research to examine the specific components of a BL approach that contribute more significantly to students' success, and investigate how to orient teaching strategies to enable students to accustom to BL in a better way.

## References

Asma A. (2018). Blended Learning and Flipped Classroom Approaches. *American Research Journal of Humanities and Social Sciences*, 4 (1), 1-6. <https://www.arjonline.org/papers/arjhss/v4-i1/12.pdf>

Ball, S. J. (2017). *The education debate*. Chicago: Policy Press. [https://books.google.co.ke/books?id=pjrxsIF7Q4MC&printsec=frontcover&dq=Ball,+S.+J.+ \(2017\). +The+education+debate.+Chicago&hl=en&sa=X&ved=0ahUKewj8yaWRwI\\_fAhXXbCsKHaSKCa0Q6AEIKDAA#v=onepage&q&f=false](https://books.google.co.ke/books?id=pjrxsIF7Q4MC&printsec=frontcover&dq=Ball,+S.+J.+ (2017). +The+education+debate.+Chicago&hl=en&sa=X&ved=0ahUKewj8yaWRwI_fAhXXbCsKHaSKCa0Q6AEIKDAA#v=onepage&q&f=false)

Bonk, C. J., & Graham, C. R. (2012). *The handbook of B.L: Global perspectives, local designs*. Hoboken, NJ: John Wiley & Sons. [http://curtbonk.com/toc\\_section\\_intros2.pdf](http://curtbonk.com/toc_section_intros2.pdf)

Broadbent, J. (2017). Comparing online and blended learner's self-regulated learning strategies and academic performance. *The Internet and Higher Education*, 33, 24-32. <http://dx.doi.org/10.1016/j.iheduc.2017.01.004>

particularly within the remote areas. Today's tech-savvy students find the traditional learning modes as uninteresting, thus fail to take advantage of them. BL has been heralded as the most efficient mode that could be used for improving learning and the educational process. Using the concepts of the low, medium and high influence could be beneficial for ensuring that BL becomes a facilitator of learning and teaching.

### **Recommendations and Pedagogical Implications**

BL is well-known today, but the major concern is its effectiveness. The success of a BL program is the way it is planned while considering the objectives of the higher learning institution. Also, the creation of a BL system can offer solutions for problems faced by educational institutions today. There is need to have well-experienced staff and well-trained instructors who can understand the needs of students. Educational goals must be considered to avoid the tendency of ignoring the needs of students because of lack of knowledge

(De Vriendt, 2015).

There are various models that can be used for the implementation of BL, and the preferred method could vary relying on the classroom. This article recommends that an institution should begin with one method to learn how it works. Instructors should consistently reflect on the methods that they use and foster self-assessment with learners. Specific tools or strategies are recommended by this article to contribute to better integration.

Students, for example, need to watch a video outside the class to reserve more time for peer collaboration and discussion. Video tools, like PlayPosit, can enable learners to interact with the video (Latif et al., 2017). Providing responses to questions continuously can make them become accountable for materials and demonstrate what they are learning. Ideally, the instructor gets instant feedback and can gain further or better understanding of the way students learn, and offer personalized instruction. Such tools are instrumental for enabling instructors to create lessons and students to also come up with lessons that they can share with others.

Furthermore, BL preparation allows learners to understand that plans for implementing the program are underway. Such planning captures the feedback and thoughts they have about what they think will make it successful (Kistow, 2012). There will be a necessity to understand that plans for implementing the program are underway. BL programs do not have a one-size fits all approach. Institutions will want to ensure instructors understand their learners and orient the program to their habits, personality and background. It is, also, critical for higher learning institutions to ensure that their programs are mobile friendly.

### **Limitations**

This research article has various limitations. First, the small number of participants makes it doubtful on whether it could be replicated in other areas. However, this limitation was addressed by using necessary controls for offsetting the likelihood of any negative impact. Secondly, because of the various constraints, the study duration was quite short and a longer study period would be more appropriate in the future. Thirdly, a significant number of the instructors lacked experience in using BL.

pacting the work of instructors. They argued that they feel they had not leveraged technology appropriately, thus had not felt any substantial positive impacts. For instance, 10 instructors stated that grading assessments remained the same despite having information that they could leverage BL to grade the assessments, especially in case of multiple choice assessments.

#### **Q.5: How should supportive technologies support the traditional face-to-face learning?**

The results showed that the majority of instructors think that supportive technologies, especially BL, can be used appropriately to support face-to-face learning. The results also demonstrated that 30% of the instructors propose the need to change the university's structure and that there is need for information technology (IT) professionals to play a more active role in designing BL course and resolving any issues that instructors encounter. Also, the other proposal was that Lebanon lacked a firm structure that can support BL.

#### **Q.6: What are the major challenges that impede the integration of BL in higher learning?**

The responses about the challenges were overly mixed. Instructors who resisted the embedment of BL believed that it would negatively impact their work. They also considered that the design of an effective BL environment is quite daunting. This finding resonates with the results by Dziuban et al (2015). The rationale for this reason was that BL necessitates students as well as instructors to acquire new skills and knowledge. They, furthermore, stated that there was difficulty in determining elements of a blended learning model that can be effective in classroom. They alluded that the continued use of BL in their institutions remains low, and many universities still prefer the use of traditional ways of teaching. This is in tandem with El-Husseini and Taha's (2018) argument that BL adoption in Lebanon is still in its infancy stage. The other challenges highlighted were confidentiality, resistance to change, lack of enough experience, and lack of capacity to integrate it in a way that meet the needs of students. The final challenge was that Lebanese universities only had BL courses, but lacked a BL system that could assess its functioning.

### **Conclusions**

The findings of this article suggest that BL's potential remains untapped, despite recent technological developments encouraging instructors to embed it into their classrooms, especially in Lebanon. Also, the main reason that BL has not achieved its potential is because it has not been appropriately integrated into higher learning. The results demonstrate that many of the instructors believe BL has had a positive effect on academic quality. With the finding that BL does not help instructors improve their work, it is troubling because of the potential of BL in improving learner outcomes.

The other finding that BL can be instrumental for enabling instructors to enhance learner outcomes is critical because of the inherent problems in higher learning. There appears to be a moderate negative attitude towards technology use in higher learning in the research area since some surveyed universities had not fully embedded it into their courses. Notwithstanding, this research finding strongly shows that BL implementation could result in better educational quality, learning outcomes and content delivery, thus benefitting not only Lebanon but also other world parts.

Results of this article show that BL could be instrumental for in-service training of instructors in Lebanon, and improvement of their flexibility. It could also be beneficial for improving quality,

tive and inefficient for improving learner outcomes despite the potential of the method yielding positive results. This group also emphasized that BL should be tailored to students' characteristics, and is consistent with findings presented by Englund, Olofsson and Price (2017).

### **Q.2: To what extent do instructors understand the concept of BL in higher learning?**

Results demonstrated that 60% of the instructors believed that Blended Learning does not have a specific definition. However, all its definitions have common elements that must be incorporated to make the definition complete or acceptable: online learning and traditional learning. Two instructors had an institutional working definition. Each of these definitions had a combination of face-to-face and online instruction, but these definitions varied in terms of specificity. Others embraced a broad definition of blended learning as mandating the technology to have a significant and integral effect on their pedagogical approaches. They believe that the educational system had oversight over the particular portion of face-to-face and online activities. Few provided the practical definition of incorporating face-to-face content to online courses. Testimonies from the remaining instructors suggested that there is almost no understanding of the concept of BL, thus demonstrating that there is still ambiguity about its definition. These findings affirm the arguments made by Graham (2013). Whereas various scholars agree that BL combines online and face-to-face instruction, they do not agree on various factors, including what is blended, whether there is need to specify the amount of instruction, and whether to tackle pedagogical quality while defining this term (ibid). The lack of a clear definition is one of the impediments that make it difficult for instructors to understand the extent that they should use blended learning. The conclusion from this finding is that there is ambiguity about blended learning because of the lack of a strong definition that would provide foundation for understanding it.

### **Q.3: What are the impacts of BL in higher education quality?**

Results indicated that 60% of the instructors agreed that a BL system in the university can enhance academic quality. Overall results demonstrated that all the instructors were in consensus that BL positively affects education. The aspects that the instructors believed BL could improve in education were delivery of content, tailoring education to learner needs, facilitating communication between instructors and students, and improving the learning outcomes. However, 10% of the instructors mentioned that this is determined by level of acceptability and attitude towards BL. The findings resonate with various studies that have established that BL can effectively enhance in-depth education among learners (Guzer & Caner, 2014). Van Merriënboer and Kirschner (2017) affirmed this finding by stating that the combination of adequately developed BL with learning helps lecturers to make coursework submission as well as subject retention easier. Consequently, this article concludes that BL positively impacts higher education by improving content delivery and retention, participation and increasing chances of passing.

### **Q.4: What is the effect of BL on the work of instructors in the university?**

An interesting finding was that only 40% of the instructors believed that BL was improving their work at the university. Due to confidentiality, and based upon the request of the participants, this study respected ethical codes and undisclosed the name of participants' institutions who stated that they were not concerned about the need for BL in their programs, and that adoption would not improve their work. Some reported that a BL course is good, but not efficient enough for im-



tal recording device was used for recording the interviews, which took about one hour and 30 minutes for every participant. The questions were semi-structured, and, therefore, open-ended, thus enabled the researcher to obtain perceptions, and lived experiences of participants. They also created room for follow-up questions in order to elaborate the major points. Transcription of the interviews was carried out using a professional transcription service. Participants had access to the transcript within a day of the interviews taking place. In accordance with the norm in research (Creswell, 2013), participants were allowed 14 days to review the transcript with a chance to redact or clarify statements. None of them asked for redactions or amendments. The semi-structured interview format was the most effective because it offered benefits accrued from both structured and unstructured interviews. The semi-structured interviewing methods enabled the researcher to ask questions that were tailored to collect their perceptions and experiences on the blended learning model.

### **Reliability and Validity**

Ideally, reliability is the consistency of results of a study, and describes the level to which two measurements duplicate each other. For the interviews, testing was done for internal consistency to assess consistency of the whole scale. It was obtained for the questionnaires, thus making the results reliable. On the other hand, validity is the level to which a study and results correctly support the arguments. For this study validity threats were reduced by considering the relevant variables.

Regarding the protection of study participants, all participants were treated according to the stipulated research ethics. A consent form was provided to them, and they signed it before the first interview occurred. Also, participants were informed that they were allowed to withdraw from the study any time until publication of the research happened.

## **Qualitative Data Analysis and Findings**

After data collection, analysis and determination of the reliability, validity, credibility and transferability of the article's data, findings were recorded and conclusions made. The purpose of this article was to investigate BL as a learning technology with the potential to drastically transforming higher learning. The hypothesis was that full integration of BL into higher learning institutions can improve teaching practice, learning outcomes and quality. This research was carried out using a qualitative study design, and accomplished through in-person interviews. Data collection was built around six main research questions that were availed to the participants of the study. Interviews for all participants were carried out in person at the university that they taught. FaceTime application was considered when distance was a problem.

### **Q.1: How has BL been embedded into Higher Education?**

Findings disclosed that the commonest differentiated instruction strategy used in the context of BL was providing learners with extra support. Regarding the design of BL, three instructor profiles were noted: disregard, adaptation and transformation. Disregard entailed instructors not considering the need for any extra support for matching the needs of students in a BL context while adaptation entailed instructors believing that more support in the current BL settings was adequate to match the needs of students. Regarding transformation, 30% of the instructors believed that there is need for BL to be designed in an entirely different way because the current setup remains ineffec-

perience with blended learning at higher learning level. In-person interviews were selected because they allow for deeper data collection as well as comprehensive understanding (Silverman, 2016). The other reason for selection of such tool is that it provides the researcher with the ability to identify facial expressions and body language (Ibid).

However, caution was taken to ensure that challenges such as biased responses and time taken did not impact the responses and data provided. Also, the researcher carefully evaluated the ability of the respondent prior to recruitment and interviewing process. Moreover, the sample was homogenous to enable analysis of differences and similarities between participants (Fraenkel, Wallen & Hyun, 2011). This was achieved through purposeful snowballing that helped in recruitment of participants who are experienced higher learning instructors. The selected participants had used the blended platform in their classes. Creswell (2012) asserts that purposeful sampling could be utilized for recruiting specific participants who can offer the most in-depth data and enhance understanding of the phenomenon under study, thus allowing the researcher to opt for a population based on particular prerequisites. The major benefit of this method was that all respondents would have had experiences with the studied phenomenon.

Conceptually, snowball sampling is a method whereby the identification of potential participants is helped by suggestions made by existing participants (Ibid). Because of the strict criteria that the purposeful sampling process identifies, the snowball was deemed appropriate to use because it ensures that there is consistency of practice.

### **Recruitment and Inclusion Criteria**

The article required purposeful sampling for ensuring that participants had experience in the same phenomenon. Various steps were taken in recruitment of participants.

- The first step entailed sending a personalized email to participants with a brief description of the research and the significance of their participation. The email had the interview guide and the consent form (Refer to Appendix A and B respectively). Participants were also asked whether they knew any other colleagues who would suit in the sampling criteria, and who could share their perspectives and lived experiences. Any potential participants suggested were recruited following the first stage described above.

- A meeting was scheduled with the selected 24 participants to review the purpose of the study, cover basis information of the personal and professional experience of participants with online and BL, provide an explanation of the consent form, and the way confidentiality of participants would be protected. Participants were informed that they were allowed to withdraw from the study any time they wished. After the meeting, each of the participants was requested to sign and resubmit the consent form.

- All participants were interviewed at least twice: The preliminary interview covered the personal and teaching experiences of participants with blended courses, while the main interview was more in-depth and had questions on the perceptions and experiences of the participants with the BL platform within higher learning.

### **Data Collection**

The main data collection instruments used were interviews and a digital recording device. Data collection began with insights from the standard interpretative phenomenological analysis. A digi-

learning in classes. In other words, the flipped classroom approach transmits learning duties from educators to learners. Schultz, Duffield, Rasmussen and Wageman (2014) argued that the flipped classroom approach has four major features that enable tutors to develop effective blended teaching: flexible setting, professional educator, learning culture, and intentional content. The notable aspect is that using a flipped classroom to solve problems is beneficial to apprentices because the process enhances skills acquisition.

## **Methodology**

### **Study Design and Rationale**

The purpose of this article is to explore blended learning as a learning technology that has the potential to significantly transform higher education. The hypothesis is that full integration of BL into higher learning institutions can improve teaching practice, learning outcomes and quality. The article uses an experimental qualitative study design to explore the impacts of BL, challenges, embedment of BL in higher learning, extent to which instructors understand the BL concept, impact of BL on instructors' work in higher learning, and the way supportive technologies should support traditional face-to-face learning. The qualitative research design was selected because of its suitability to this study. Ideally, such type of study allows subject materials to be evaluated comprehensively. Because a qualitative research focuses on the metrics of data being collected, it allows for data to be improved by adding more detail, hence providing more insights on trends (Hennink, Hutter & Bailey, 2010).

The other advantage is that it is usually founded on observations and human experiences, thus allowing it to consider the gut instinct of humans (Neuman, 2013). Since the data that was collected by the qualitative design was based on personal experiences and observations, it allowed the researcher the leeway to follow-up on interesting responses with more questions. The other advantage is that data complexities can be embedded into the conclusions generated (Smith, 2015).

Despite the modern world having the tendency to prefer verifiable facts and statistics, human experience cannot be easily taken away from the equation. Since qualitative methods are deployed for answering questions about meaning, perspective and experience, they are best suit for exploring BL in higher learning institutions (Smith, 2015). It was, therefore, used for revealing potential issues in implementation of BL in higher learning. Finally, the smaller sample sizes used are instrumental in saving costs and time (Taylor, Bogdan & DeVault, 2015).

### **Research Site**

According to the ministry of higher education in Lebanon, 36 private universities are accredited. The selected institutions-12- were independent higher learning institutions found in the central, Eastern, Western and Northern parts of Lebanon. The article is mainly based on perspectives of the afore mentioned university instructors since they are the custodians of BL integration into higher learning.

### **Participants**

Qualitative study designs encourage researchers to use small sample sizes in order to focus on only persons with the ability to speak profoundly about the study phenomenon. This article used in-person interviews with 24 instructors (2 different genders from each university) who have had ex-

carried out to examine the effectiveness of BL in higher education. Many of the studies have established that BL effectively promotes in-depth education among students (Guzer & Caner, 2014). For example, combining adequately developed BL with practical help by lecturers can make coursework submission and the retention of subjects easier (Van Merriënboer & Kirschner, 2017). A study conducted about the achievement of students between the traditional and BL modes established that BL yielded better results compared to traditional face-to-face learning (Güzer & Caner, 2014). It suggests that BL provides foundation for better learning outcomes and enhancing the teaching delivery methods. The main problem associated with BL has been how to implement and tailor it to specific classrooms and students' needs.

BL approaches or models are categorized into three major segments: low, medium as well as high-impact. Regarding the low-impact blend, it entails integration of online activities into traditional teaching mode. Various studies indicate that instructors who create blended courses tend to add an online feature into their traditional courses (Buran & Evseeva, 2015). The method's benefits are provision of a means of establishing BL materials. The system also minimizes the chances of failing when appropriately integrated. However, the main drawbacks of low-impact blend are technological skill and chances of additional coursework not being remunerated. On the other hand, the medium-effect technique entails restructuring a course by replacing some of the face-to-face methodologies with online features (Taylor, Vaughan, Ghani, Atas & Fairbrother, 2018). The benefit of such implementation is that the process allows tutors to start and embed activities incrementally as well as change course modules as needed.

However, the main drawback, similar to the short-term effect limitation, is that instructors should have enough technological 'knowhow' and confidence in implementation of such learning. Substituting and incorporating current subject contents to develop a blended course requires the dedication of energy and time that could impede implementation (Taylor et al., 2018). Also, there are few standards that have been developed for directing decisions on several parts of teaching that could be substituted.

Finally, in the high-impact blend system, instructors develop BL material from scratch and align them through the development of a curriculum called constructive alignments. The mechanism provides the chance for improving or reducing challenges associated with a course. Also, this method is instrumental for promoting effective integration in the learning process (Broadbent, 2017). Consequently, it enables tutors to attain optimal benefits of BL and achieve the needs of scholars. However, the major disadvantage of the method is the need for expertise for it to develop (Johnson, Becker, Cummins, Estrada, Freeman & Hall, 2016). The other issue is that it is vulnerable to fail because of being a new idea that has not been tried exhaustively. Planning and creation of new blended tutorial consumes time to embed, thus could be wasteful for users.

The other approach of BL is the concept of the flipped classroom which entails interactive learning segments (Ozdamli & Asiksoy, 2016) as well as individual teaching founded on watching of videos. It is a special approach of BL that elicited attention in 2007, thus resulting in its adoption in various institutions (O'Flaherty & Phillips, 2015). The core objective of the approach is preparation of scholars for diverse subjects (Ozdamli & Asiksoy, 2016). Conceptually, it is a learner-centered approach that is made up of two portions: personal studies using computers and interactive

technology into learning enables instructors to access and conduct an analysis of real-time learning data (Shute, 2017). Owston, York and Murtha (2013) demonstrated that real-time data enables teachers to monitor the progress of students, and adjust the instruction in order to suit the evolving needs of students. Many instructors lack the pre-requisite information needed for successful implementation of the technology (Halverson et al., 2017). Some of them have basic information about the technology, but do not have the skills and knowledge on how they can embed the technology in the classroom.

### **Challenges**

Numerous higher learning institutions have not embedded BL into their learning programs. A worrying aspect is that for many of the institutions that have integrated them, they report of numerous challenges. There are various specific challenges that impede BL from being successfully integrated into the learning environment. First, designing an effective BL environment is quite difficult (Dziuban, Picciano, Graham & Moskal, 2015). It requires students and instructors to acquire new skills and use more time to prepare for class.

Secondly, it is difficult to decide the elements of a BL model that need in-person interaction, and the ones that can be best mediated through technology. Whereas students expect technology to be deployed in the classroom, Dahlstrom, Waalker and Dziuban (2013) established that they still want their instructors to offer guidance on the way that it should be used. Perhaps, this challenge is best described by El-Husseini and Taha (2018) who provide a detailed study that demonstrates the way some countries and higher learning institutions have been unable to effectively embed BL into their learning in order to reap numerous benefits. The authors provide an example of teaching at the Lebanese University that is still carried out in a traditional way beginning from presentation to assessment. They link the high failure percentage in many of the university's numerous faculties to the methodology of teaching. Also, the authors argue that the curriculum fails to consider individual learning styles that are supposed to affect learning (El-Husseini & Taha, 2018).

As such, the study concluded that the Lebanese University, for example, could benefit from experiences obtained from other higher learning institutions that implement BL if the various challenges of integration are addressed. From this experience, BL implementation would help in addressing some of the challenges being felt by institutions of higher learning and improve the quality of education, including learning outcomes. More importantly, the study proposes that instructors should use BL in their courses, and learn how to overcome the challenges that derail its integration.

Mouyabi (2011) further demonstrated that some higher learning institutions and regions are resistance to pedagogical changes that incorporate the use of information communication technology (ICT). The final challenge in literature is that many of the faculty members lack sufficient experience and training in how to use online tools within the classroom (Hunt et al., 2014). Faculty members also feel that they lack the capacity to effectively integrate BL and meet students' needs.

### **Embedment in Higher Learning: Impacts on Instructors and Learning Environments**

The status of integration of BL remains low due to various factors, including the lack of sufficient technical know-how and reluctance to embrace the technology. Various studies have been

## **Research Questions**

How has BL been embedded into Higher Education?

To what extent do instructors understand the concept of BL in higher learning?

What are the impacts of BL in higher education quality?

What is the effect of BL on the work of instructors in the university?

How should supportive technologies uphold the traditional face-to-face learning?

What are the major challenges that impede the integration of BL in higher learning?

## **Article Organization**

The introduction part of this article discusses the problem statement, justification, research questions, objective, and hypothesis. Here, objective of BL idea is provided. The second part is the literature review that describes blended learning idea in detail, and provides examples of its implementation in classroom, some evidences for the success of BL, lessons and limitations gained from the experience. The methodology section elaborates on the study design, participants, data collection and validity of data. The qualitative data analysis section reports on the results obtained from the study while the conclusions provide the summary of findings and recommendations.

## **Literature Review**

Literature for this section was obtained from peer reviewed sources that contain updated information in the period between 2012 and 2018. Blended learning, higher education, learning styles, standards, learner outcomes and educational technology were used as the major key terms for obtaining relevant literature.

### **Definition of Blended Learning**

Blended Learning does not have a specific definition despite the various years of research on the concept, but all attempts to define it have common characteristics, including combination of online learning with traditional face-to-face learning (Reid & Ewing, 2018). From this feature, and for the purpose of this article, blended learning is defined as the combination of e-learning and traditional face-to-face learning to enable teaching or instructions to take place both online and in the classroom. BL has four major advantages: flexibility, improvement of quality learning, ability to tailor it to meet students' needs and reduction of the cost of learning, and allowing students to gain access to various online resources (Tseng & Walsh, 2016).

### **Supporting Traditional Learning**

BL has stark differences from instructions that use simple technology, whereby teachers make use of devices for supporting the traditional instructional methods. In BL, students use the technology for completing the same work in the same places, and using the same pace and time. Blended learning also goes beyond moving instructional content online (Okaz, 2015; Bonk & Graham, 2012; Broadbent, 2017). For technology to be considered, it should be able to shift instruction as well as content to students' control (Collins, 2018). Consequently, Okaz (2015) believes that BL is a critical redesign and redevelopment of instructional models with an objective of enhancing learning. Also, BL models purposefully embed technology to leverage talent, and improve learning outcomes (Halverson, Spring, Huyett, Henrie & Graham, 2017). Strategic integration of any

terms of embedding BL into their programs (El-Husseini & Taha, 2018). This reluctance to embed the technology may impede the attainment of optimal outcomes that are desired by education. As mentioned, BL has been remarkably embraced by higher education in some world parts for improving the learning and teaching practices, but some regions still lag behind. Implementation of the strategy seeks to encourage learners and teachers to utilize several teaching and learning methods to improve classroom practices. Despite the increased adoption of BL, it has not significantly influenced learning outcomes as it was anticipated before higher learning institutions began rolling it out (Okaz, 2015; Porter, Graham, Bodily & Sandberg, 2016).

Today, learners are surrounded by continuous development of new technological innovations that are significantly affecting their lives and the education sector because of the continual innovations. To enable all world institutions of higher learning to compete globally, there is need to enhance academic quality, including Lebanese universities (El-Husseini & Taha, 2018). Failure to embrace technology, including BL, will make higher learning institutions to become outdated and learners will not be able to face a dynamic educational environment that demands various capabilities. To achieve academic quality in all universities, there is need for new educational strategies and creative educational programs that could combine the new e-learning system and contemporary face-to-face approach (Reid & Ewing, 2018).

Consequently, there is need for universities lagging behind, especially Lebanon, the Middle East and Africa to develop updated courses that implemented BL courses as well as special training for instructors. In case trained efficiently, instructors can teach learners how to use materials appropriately and develop an effective plan for courses, thus improving the entire learning process (Okaz, 2015). Consequently, higher learning institutions can enhance the quality of their teaching and learning and offer better services and outcomes. After completion of studies, learners will have attained skills that can enable them to become employable and successful in their specific work organizations. As such, BL can be used for addressing some of the gaps being experienced in higher learning while improving the quality of education.

### **Objective**

The objective of this article is to explore BL as a learning technology with potential of significantly transforming higher education, thus postulates that its integration into educational settings would significantly enhance learning outcomes.

### **Justification**

Higher education in some parts of the world, including Lebanon, is lagging behind because of the lack of frameworks for integrating technology into their systems. Whereas certain regions have been successful, procrastinating areas find it difficult because of lack of information for guiding the process, resistance to change and the feeling that BL is too complex for them. However, BL can present numerous opportunities for learners and teachers, thus suggesting that it is a technology that cannot be disregarded.

### **Hypothesis**

An effective and efficient embedment of BL into higher education can improve teaching practice and learning outcomes.

# IMPROVING LEARNING OUTCOMES IN HIGHER EDUCATION THROUGH BLENDED LEARNING

**Maha Sourani, PhD**

**Associate Professor of Linguistics and Educational Technology, Lebanese University-III**

## **Abstract**

Higher learning remains a daunting task because of the myriad of challenges that it presents to instructors and learners. Various learning techniques and methods have been embedded into higher learning, but instructors are still under intense pressure to embrace or reject the implementation. Current strategies deployed in university teaching have been crucial for improving certain aspects of learning, but still fall short in delivery of optimal or desirable outcomes. They have left gaps that proved to be ineffective, inadequate or inappropriately implemented. To verify that, 24 instructors teaching at 12 universities in the North of Lebanon were randomly selected to be the focus of this research. Results showed that blended learning faced resistance from some instructors for specific reasons. Therefore, this field study proved that the blended teaching mode in higher education would achieve the desired results if its content is documented and controlled. Data was collected from in-person interviews and analyzed to allow deeper comprehensive understanding of results. The study concluded by proposing implementation strategies that could enable blended learning to not only be a 'game-changer,' for today's learning, but also a predictor of the trajectory of education into the future. Implications for future research are also provided to contribute towards ensuring that research continues.

**Keywords:** Blended learning, higher education, standards, learning outcomes, educational technology, learning styles.

## **Problem Statement**

It has increasingly become natural for the society to strive for advancement and progress in such a way that people seek to continuously look for innovative means of simplifying their lives. In the same breadth, in higher education, learning and teaching practices necessitate consistent redress. In this era of Millennials and Centennials, digital communication technologies have developed digital footprints that are significantly integrated in people's lives to an extent that they struggle trying to function without them. Blended learning (BL) is among the technologies that have been touted as having potential to drastically change education by orienting the delivery of content and revolutionizing learning environments. Ball (2017) defines BL as various strategies and practices for enabling learners to learn online for some time, and have some degree of control over their learning's path, pace, or time.

An array of developed nations, including Germany, the UK and USA, appear to be headed in the right direction in embracing BL in their education systems (Matheos & Cleveland-Innes, 2018). However, countries such as Lebanon and the Kingdom of Saudi Arabia continue lagging behind in

